



كلية الآداب والعلوم
الإنسانية - مراكش
Faculté des Lettres et des Sciences
Humaines - Marrakech

مركز دراسات الدكتوراه - Centre d'Etudes Doctorales

أطروحة جامعية

لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع



الماء في الاستوغرافيا الأجنبية: مجال الأطلس الكبير 1792-1956 محاولة في التركيب

الأستاذ المشرفة:

الدكتورة: عائشة كنتوري

إنجاز

مولاي عبد الحكيم الزاوي

السنة الجامعية: 2022/2021

الماء في الاستوغرافيا الأجنبية:
مجال الأطلس الكبير 1792-1956
محاولة في التركيب

إهداء:

كل فضاء لا يؤنث لا يُعول عليه كما قال ابن عربي؛ وكل بحث لا يؤنث
لا يستقيم قوامه، يدين هذا العمل في خِطّته وتخرجه إلى المرأة بصيغة
التعدد: المرأة الوالدة، المرأة الزوجة، المرأة المشرفة، والمرأة الطفلة...

إلى ذخيرتي حين خاني زمني،

وعُدّتي في اشتداد أهوالي...

إلى بناتي أروى ورضوى.

شكر وتقدير:

في كل لحظة كان بإمكان هذا العمل أن يتوقف، كل كلمة فيه تحكي عن ومضة من زمن آفل، عن هروب من ضغط أوقيد أسر، بله عن حكاية خاصة تستحق أن تكتب أيضا في مُصنف "تجربة البحث"...ينصرف اقتضاء في المقام الأول الشكر والتقدير في إخراجهِ إلى الأستاذة الدكتورة لالا عائشة كنتوري الناجم التي رعتهُ وتعهدهتْهُ حتى استوى بُنيانه. ووجوباً في المقام الثاني إلى كل من ساهم في الإفادة بشيء منه، مؤسسات، مكتبات، خزانات وأفراد...وإذا ما ظهر به من نقص فهو مني، وإذا ما بدا فيه من تقدير فهو من فضل من أرشدوني إلى سواء السبيل، هديا على ما جاء في الأثر "كُلُّ يُوْخذ من كلامه أو يُرد"، والناقد البصير قسطاس نفسه مثلما صدح بذلك العلامة ابن خلدون.

كالعيس في الصحراء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهورها محمول

طرفة بن العبد



الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

ابن خلدون

لائحة الرموز المستعملة

بالعربية:

الخزانات:

م و: المكتبة الوطنية- الرباط

خ ح: الخزنة الحسنية- الرباط

م و م: مديرية الوثائق الملكية- الرباط

الإحالات:

ك: كناش

مح: محفظة

مج: مجلد

د ط: دون طبعة

د ر: دون ترقيم

م س: مصدر سابق، مرجع سابق، مقال سابق

ط: طبعة

ج: الجزء

ن م: نفس المرجع أو المصدر

بالفرنسية:

IRCAM: Institut Royale de la Culture Amazigh

BNRM: Bibliothèque National du Royaume du Maroc

B.S.G.M: Bulletin de la Société de Géographie du Maroc

AESC: Annales Economies, Sociétés, Civilisation

SE: sans date d'édition.

Coll: Collection

Fasc:Fascicule

Bull. Eco :Bulletin économique

Hesp. T: Hesperis- Tamuda

R.G.M: Revue de Géographie Marocaine

T :Tome

B.E.S.M :Bulletin Economique et Social du Maroc

PUF: Presses Universitaires de France

AM: Archives Marocaines

C.N.R.S: Centre National de la Recherche Scientifique

I.H.E.M: Institut des Hautes Etudes Marocaines

ROMM: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée

CERM: Centre d'Etudes et de Recherches Marxiste

S.M.E.R: Société Marocaines des éditeurs réunis

P: Pages

Vol: Volume

A.D.N: Archives Diplomatiques de Nantes.

B.G.R: Bibliothèque Générale de Rabat.

C.H.E.A.M :Centre des Hautes Etudes du Monde Arabes.

R.M.P :Rapport mensuel du Protectorat.

R.P.M: Rapport Politique mensuel

تقديم:

منذ متى تشكلت تلك الوشيجة الموسومة بـ "الماء حليف الأقوياء"؟ متى وُجدَ بلد اسمه المغرب حتى يصير الحديث عن الماء فيه مُمكن تاريخيا من زاوية نظر سياسية¹؟ ثمة من يبدأ رحلة التأصيل هذه من حفريات العصر الحجري الحديث، وهناك من ينطلق بها من فترة الممالك الأمازيغية في سياق احتكاك المغاربة مع الفينيقيين والقرطاجيين والرومان، وطرف ثالث يُحيلها على امبراطوريات العصر الوسيط، ورابع يرجئها إلى انعقاد التحالف الامبريالي الفرنسي الإسباني أوائل القرن العشرين. وبين ثنايا هذه اللحظات التاريخية الفاصلة تُسجح حديث بين المؤرخين ونظرائهم من الجغرافيين عن المنشآت المائية بمجال المغرب الكبير كمعالِم Repères كبرى في تحقيب تاريخ البلاد. من هنا تولدت تلك الفكرة التي ربطت بين منشآت المغرب الأقصى بحضارة الغرب الإسلامي.

واضح أن هذا البلد المسمى مغربا اليوم ارتسم في ذاكرة المتوسط ككيان سياسي بهندسة مُتغيرة، في مُفترق طرق توزع مساره بين احتمالات متعددة؛ لكن في الغالب بمركز توازن غير مستقر². واضح أيضا أن الماء كان جزءا من اللااستقرار. وفي مستوى ثان، أيقن الإنسان المغربي عبر ممارسته التاريخية أن الماء حليف السلطة، وشوكة تعضيد الوجهة والنفوذ... لم يُقسم الماء بعدل بين الناس، في الجبل والسهل وما بينهما... أضفى هذا العنصر الحيوي السائل على تاريخ البلاد تراتبية مجالية واجتماعية وسياسية خاصة... ومنح للشخصية المغربية تفردا الواضح الذي جعلها تبني نوعا من التفاهم الجيولوجي بين واقع جد قاس ومُتاح بشري جد محدود لتدبير معيش تلك اللحظات التي كانت فيها السماء تُمسك عن الإمطار.

منهجيا، لا نستبعد أن يكون اشتباك المؤرخين مع المُصنف المائي في الأصل محاولة استئنافية نقاش فلسفي وفكري ظل يرهن شاغل المجتمعات البشرية باستمرار، ومُساهمة في إثراء النقاش العام حول قضايا الماء في مغرب الألفية الجديدة من ناحية موازية؛ مع ما يستتبع هذا النقاش المفتوح من طرح لقضايا شديدة التركيب والتعقيد³.

¹ سؤال الشخصية التاريخية لا يزال يشكل محور تناظر بين مجموعة من الباحثين في العلوم الاجتماعية والانسانية. هناك من ينافح عن كون هذا البلد في مجمله يظهر كأنه كيان مؤقت، بهوية متقلبة، يكاد لا يوجد ولا يُعبر عن ذاته إلا من حين لآخر بشكل متقطع، تبرز شخصيته التاريخية عندما تهدده الأخطار الخارجية، من الهيمنة الرومانية إلى الهجومات الإيبيرية في القرن الخامس عشر الميلادي، وصولا إلى التهديد العثماني في القرن السادس عشر، انتهاءً بالتحالف الامبريالي الفرنسي الإسباني في أوائل القرن العشرين. وهناك طرح آخر، يضعه في منزلة الشخصية التاريخية الحقيقية، مجال يحظى باستثناء في الشمال افريقي، ذو تميز خاص في المنطقة الاسلامية المتوسطية، كونه تأثر أكثر من غيره بالحضور الروماني، وحافظ أكثر من غيره على الموروث الحضاري العربي الأندلسي، وانصهرت من داخله تراكيمات تاريخية عبّرت عن تلاقح حضاري وبشري...

Rivet. D, Histoire du Maroc, Librairie Arthème, Fayard, 2019, p 7.

² يتوزع مركز التوازن في تاريخ المغرب بين فاس ومراكش، الأولى طبعت الشخصية المغربية بملمح عربي أندلسي، والثانية طبعته بملمح افريقي صحراوي.

³ نقاش الماء والكون انشغال فلسفي أصيل، ابتداءً مع فلاسفة اليونان وامتد إلى باقي الفلسفات الانسانية. بل هناك من اعتبر أن الماء أصل الكون شأن الهواء والتراب والنار.

يجيب البعض، من شأن هذا الاشتباك أن يسمح بإعادة تشكيل الفسيفساء الاجتماعية، وأن يعيد تأطير محور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويضبط محور ارتكاز مجمل العلاقات النازمة للنسق الاجتماعي والاقتصادي... "أوليس الماء هو الذي يتحدث أحسن عن المجتمع، يحكي عنه أولا وقبل كل شيء، كما أنه (المجتمع) يتحدث عن نفسه عن طريق الماء..."¹.

في حقيقة الأمر، يضيف البحث في تاريخ الماء في المغرب عامة، وفي مجال الأطلس الكبير خاصة عند كثير من الباحثين نوعا من التهييب والاحتباس، في ظل عدم قدرة الأبحاث التاريخية على ضبط وحسم معالم الخريطة البشرية... يظل الخوض في تاريخ الماء من زاوية التركيب في مدار مجال جغرافي متعدد الوحدات التضاريسية في كل الأحوال مُحاول، أو بالأحرى مغامرة. وحينما يصطدم الباحث بحقيقة صمت المصادر عن جزئيات دقيقة من تاريخ البلاد، فإنه يوجه عنايته صوب إشارات الرحالة والجغرافيين والديبلوماسيين وملاحظات وتقارير الجواسيس والتجار... يتعلق الأمر، في المقام الأول، بملاحظات مُوجهة، غير بريئة، ومتحاملة... لكن حين نزيل عنها هذا الغطاء فإنها تحبل بإشارات تاريخية على قدر كبير من الأهمية قد تساعد في استكمال عناصر التحليل عن طريق استثمار حدس المؤرخ وتراكمات العطاء المعرفي لمباحث العلوم الانسانية.

عودة إلى سؤال التأصيل، ابتداء من أي لحظة زمنية بالضبط يصير الحديث عن مجال اسمه المغرب مُمكن تاريخيا؟ سؤال تصدف عنه الكتابة التاريخية لخلفيات هوياتية فجّة². هل نستله عندما بدأ الملك جوبا الثاني تأسيس مملكة أمازيغية مستقلة عن النفوذ الروماني؟ أم نستله عندما بدأ ادريس الأول تأسيس أول مملكة إسلامية أواخر القرن الثامن الميلادي؟ أم نؤجله إلى لحظات أخرى؟ ربما كانت الأسئلة الجديرة بال طرح، ماذا أراد الاستعمار في تاريخ المغرب تحديدا؟ فيم نجح؟ وفيم أخفق³؟ هل وجد واحة خضراء؟ أم واقعا مُتقلبا بين سنوات مطيرة وأخرى عجيبة؟ الجواب عن هذه الأسئلة لا يعدو أن يكون سوى إلقاء حجرة حصى صغيرة في بركة كبيرة من تاريخ المسألة المائية بالبلاد.

لا شك أن هذه الأسئلة تتجاوز حقل التاريخ نفسه وتتعداه. تستدعي في البدء والانتفاء التوسل بحقول معرفية قريبة من اهتمامات التاريخ، بعضها مُتاح وبعضها خارج دائرة التناول. لكنها تظل في النهاية مشروعة لفهم أنساق الانتماء والمغايرة التي جذبت ولا تزال اهتمامات عدد كبير من مُنتسبي العلوم الاجتماعية والانسانية على مهاد هُنا

¹ - Bédoucha. A. G, L'eau, L'amie du puissant, Une communauté du sud Tunisien, op.cit, p 16.

² - في معرض البحث عن الذات المغربية التي تفتتت جراء الصدمة الاستعمارية الفرنسية، حاولت بعض المساهمات المغربية تأصيل الشعور الوطني تجاه التدخل الأجنبي. ثمة اتفاق بين بعض المؤرخين أن نقطة تبلور هذا الوعي الوطني ترتبط ببداية القرن الخامس عشر الميلادي حينما تصدى المغاربة للاحتلال الإسباني...

³ - باسكون بول، ضرورة إعادة النظر في الإطار النظري لدراسة الظاهرة الاستعمارية، ترجمة مصطفى كمال، مرجع سابق، ص 131. ورد هذا النص بصيغته الفرنسية في المجلة المغربية للقانون والسياسة والاقتصاد R.J.P.E.M، العدد الخامس، فاتح شتنبر 1979، ص ص 125-133.

والآن¹. وبين الأمس واليوم، ظهر هذا البلد عبر مفاصل تاريخه بتركيبة عجيبة حُبلى بالأسرار والألغاز، اجتذب إليه الأنظار بموارده وخيراته، بمصادره وثرواته... من أوجين دولاكروا E. Delacroix إلى خوان غويتيسولو Juan Goytisolo... وزُوجت عنه صور وكليشيمات مثل "مغرب المتناقضات والمفارقات" و"أرض الانشطارات الاجتماعية" Clivages Sociaux و"أرض التقاء بين الحضارات" بين روح من الشرق ومادية من الغرب.

نُقر منذ البدء، شغلتنا أسئلة عامة تقترب من البنية النازمة لمجريات الأحداث والوقائع أكثر ما تترهن بجاذبية الحدث الظرفي العابر. أسئلة تقترب من الماء دون أن تنشغل به كفاية إلا في تداخلاته الكبرى مع قضايا تاريخ المغرب في تشكيلاته البنيوية الممتدة، وبخاصة الأسئلة التي تقترب من بناء السلطة المائية، وطريقة رسم وتحديد المجال الاقتصادي المائي، وآليات ضبط وتأطير الحركية الاجتماعية للقبائل صوب المصادر المائية... فأَي سر كان وراء هذه الكيمياء التاريخية التي جعلت أرض المغرب ساحة حرب متجددة لصعود وأفول دول شكل الماء أحد عناصر بقائها أو فنائها؟

غير بعيد عن التاريخ، كان للسوسيولوجيا الكولونيالية قصب السبق في مباشرة التنقيب عن مصادر الماء في المناطق البعيدة عن المراكز السلطانية، وقد مثَّل مجال الأطلس الكبير لحظتها مختبرا للدراسة والتحليل. إذ ذاك طرح السؤال التالي: هل يمكن الحديث عن الجبل بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع؟ ألا يخفي تشابه المعطيات الطبيعية احتمالية وجود تعدد ثقافي في تدبير الماء من مجال لآخر؟ من حسن حظ الباحث قبل الحماية أن توفرت بين يديه تحريات ميدانية كثيفة عن الماء والطقوس الاجتماعية (المعبودات والمزارات المائية والطقوس الاجتماعية، الماء والصراعات، الماء وتضاريس المجال بما فيها العالية (منبع الماء) والسافلة (مصب المياه)². وفي ما بعد كانت هذه التحريات المجهرية صدى للفكرة التي أنتجها بول باسكون P. Pascan عن الحوز في ما قوله بأنه لا يمكن معرفة مجموعة من الظواهر المحلية من دون ربطها بعنصري الأرض والماء. تمَّ هذا الاقتحام بالاستناد إلى مجموعة من الوثائق العقارية التي تسمى محليا بـ "الرُسوم" وهي بالتحديد عقود بيع وشراء لحقوق المياه، وهناك عقود تصالح بين ذوي الحقوق، وأداء الديون، والتنازل عن أراضي وفك النزاع حول ملكية الأرض. بالنهاية، توجي قراءة هذه

¹ - يرتبط ذلك بضرورة الانفتاح على التاريخ كاستوغرافيا. والمسألة ترتبط أساسا بكفاية الوعي بالتاريخ كمحدد في عملية البناء. وعملية البناء هذه توافق ما عبَّر عنه مارك بلوك بـ "إعادة ترتيب وقائع الماضي" ترتيبا يقترب من "قصيدة الحقيقة". من شأن هذه الرؤية أن تحدث انقلابا في سلم التفكير، وأن ترسخ فاعلية أسئلة الأنثروبولوجيا التاريخية في بناء سلطة المعيار الذهني وسلطان الذاكرة لاجتماعيات المعرفة الانسانية.

² - حيران حسن، الماء وصناعة المقدس، دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب، العدد الثامن عشر، كانون الثاني، يناير، 2022، ص

الوثائق المائية بأن الماء كان دوما في صف الفرقة الغالبة أو صديقا للأقوياء المهيمنين على الحقل السوسيواقتصادي¹.

على المستوى العمودي، لقد تنهت هذه التحريات إلى أن الماء في المجالات الجبلية يماثل محور ارتكاز مجمل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويشكل أساس انتظام كل التفاعلات والانتاجات السوسيوقافية، ويظهر بمثابة الفاعل الحيوي الذي بقدرته تأمين استمرارية نظام الأعراف وإعادة انتاج القيم الجماعية، بله تجسيد لتفاصيل الحياة اليومية، وتعبيرا عن كل مظاهرها... انصرفت هذه التعبيرات في شكل تقسيم سنوي بمضمون اجتماعي وثقافي استجاب إلى الاستعمالات اليومية الفلاحية (شهور خاصة بالطقوس والممارسات ذات الارتباط بالموارد المائية، وشهور خاصة بالممارسات ذات الارتباط بالأنشطة الفلاحية...).

من الناحية المنهجية، البحث في تاريخ الماء وموارده يعد ضربا من ضروب التجديد الموضوعاتي في الاستوغرافيا الحديثة، وخاصة في المجتمعات التي توصف بالندرة التي يعد فيها الماء مدخلا لفهم عمق اشتغال البنيات الاجتماعية والثقافية والسياسية. ففي مجال مثل الجبل، ظلت الحياة أسيرة دوام واستمرارية الموارد المائية، ووعاء لحضور عدد من الطقوس والقيم والأعراف التي جعلت مختلف التنظيمات الاجتماعية تحتكم إلى منطق جماعي تشاركي لتدبير واقع الندرة. وهناك من التحريات الأجنبية من عاينت عن كثب اسهامات الماء في ممارسة آلية الضبط الاجتماعي². بالنهاية، الجبل هو الماء، وهو بالتعريف المجال الذي تنتشر به حضارة مائية بمكوناتها التقنية، كأشكال تعبئة المياه وتوزيعها ونظامها الاقتصادي المعتمد على تكامل الزراعة وتربية الماشية، وكذا نظامها الاجتماعي المتمثل في حقوق المياه، والتوازي بين المورفولوجية الاجتماعية وأشكال توزيع المياه، وأخيرا العلاقة بين قوانين المياه والتراتب الاجتماعي والهوية الفردية والجماعية³.

لم تتوقف الاستوغرافيا الفرنسية في حدود الوصف الجغرافي لشبكة الأودية والأنهار التي تميز مشهد مغرب ما قبل الاستعمار، بل يمكن تتبع الدلالات الثقافية والممارسات الاجتماعية التي قد تعين على تحديد نمط العيش في مغرب ما قبل الاستعمار، وتوصيف أشكال الإنتاج الممارسة في مدار بنية غير مستقرة ظلت مشروطة بعنصري الماء والتساقطات المطرية. وفي جانب منها، وقفت بعض الاسهامات عند الماء والسلوك الاجتماعي المتسم بالكفاف مثل طقس تاغنجا أو تلا-غنجا. يتعلق الأمر، بطقس استمطاري بصيغة أنثوية يرمز إلى عملية تصريف رموز الخصوبة عبر المماثلة بين عالم دنيوي وعالم قدسي. توصيف هذا الطقس كالآتي: يبدأ طقس تاغنجا باستيقاظ النساء في

¹ - Ftaita, T, Anthropologie de l'irrigation, Les oasis de Tiznit, Harmattan, Paris, 2006, p 2.

² - حمودا حنان، الماء وصناعة المقدس. دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب، الرباط، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 2021، ص 23.

³ - حيران حسن، الماء وصناعة المقدس، دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب، العدد الثامن عشر، كانون الثاني، يناير، 2022، ص 196.

الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة، وإعداد الفطور لهذا اليوم، تحمل النساء رفقة الأطفال الصغار دمية على شكل عروس (تايسليت) ويطوفون بها في الدواوير والأضرحة في موكب احتفالي مهيب خاص بالعروس.

من حيث الهندسة، تنتظم فصول ومباحث هذه الأطروحة وفق رؤية منهجية تربط بين موضوع الماء في إطار نسغ علاقاته التاريخية وتقلبات أحوال السياسة ونوازل المجتمع. وهو أسلوب يتوخى التمهيد بين المجالات (سياسي، اجتماعي، اقتصادي...) وينأى عن ما يمكن أن يطلق عنه بـ "مقاربة الخانات"¹. وهي مزاجية منهجية تعتمد في المقام الأول إلى تقديم قراءة حديثة لبعض اسهامات الاستوغرافيا الأجنبية انطلاقاً من هواجس مغربية محضة يثيرها السياق الراهن. ومن ناحية موازية، إلى سَلِّ "كومة التعقيدات" التي حالت دون إتمام المخاض واستكمال الولادة الطبيعية لمغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ وتنتقل في المقام الثاني، إلى تحليل المتن الاستوغرافي، بما هو متن يجمع بين ثوابت ومتغيرات البنية العميقة التي تشكلت وفقها قضايا النسق المائي، وانتظمت في أنساقها كل الأحداث المؤثرة في مجرى التاريخ العام... كما تختبر الاختيارات المنهجية بين زمنين انتقاليين: الأول كانت فيه ايقاعات تفكيك منظومة الاقتصاد المغربي قد أمنت في التزايد؛ وارتجت فيه البنية الاجتماعية ارتجاجاً عنيفاً بفعل تصدع مكوناتها؛ وتفسخت منظومة القيم والأخلاق جرّاء حماية قنصلية قدّمت نفسها بديلاً عن عَسف المخزن وجُباته، وجواباً ملائماً للإحساس بالحيف... والثاني في حاضر قريب جعل مفهوم القبيلة يمارس نوعاً من الاغواء والغموض لدى عموم الباحثين، أجانباً كانوا أو مغاربة. وصيرته من فرط استعماله وتردده في الأدبيات الاستوغرافية ينزاح عن مضمونه الاجتماعي الواقعي، حتى بدا في كثير من الأحيان، فاقداً لإجرائيته التحليلية في وُسْم مظاهر التحول².

ما مبررات هذا الاختيار الزمني؟ الواقع أن القرن التاسع عشر يختص بميزة فريدة. يُوفّر لأول مرة الغطاء الزمني للحديث عن ظرفية انتقال وتحول البنيات. كيف ذلك؟ في القرن التاسع عشر كان المشهد كالتالي: وضع اجتماعي أخذ في التفكك؛ وإنتاج اقتصادي منذور للكفاف والقلّة والخصاص؛ وانفصام داخلي في جوهر السلطة، من سلطة تأسست في ما مضى على ثنائية الرضا والاقناع إلى سلطة تحولت نحو القهر والاكراه³؛ وعقلية مجتمعية ظلت رغم

¹ - Idrissi Hassani Mostafa, (dir), Méditerrané, Une histoire à partager, Paris, Bayard, 2013, p 15.

² - Godolier. M, Le concept de tribu : Crise d'un concept ou crise des fondements empiriques de l'Anthropologie, In, Maurice Godolier, Horizon, Trajets marxistes en anthropologie, Maspero, Paris, 1977, p5.

³ - مسألة الانفصام التي اعترت نسق السلطة في مغرب الحماية جعلت الشأن المحلي يستمد مشروعيته من مصدر خارجي، قائم على ثنائية السمو والتعالي Supériorité، واحتكار القوة... نسق سلطوي جديد أسس نفسه على مبادئ جديدة. تركز على إواليات التعيين والأوامر والتفويض عوض الرضا والاقناع والتزكية الذي حاولت أن تظهره مراسلات المخزن مع القبائل المغربية. وكان من نتائج هذا الانفصام تعمق السلطة الفردية (القائد) داخل أوصال المجتمع القروي محل سلطة اجماعة. هكذا يكون الاستعمار وفق هذه الرؤية، مسؤولاً بدرجة كبيرة عن انفصام قمة السلطة عن قاعدتها، مُشيداً سلطة جديدة، ظلت مبتورة من دون أن يكون لها امتداد حقيقي داخل المجتمع، مثل "كائن غريب" أو "وحش خرافي بارد" مثلما يقول نيتشه في "هكذا تكلم زرادشت: l'Etat c'est le plus froid de tous les monstres"

عُنف ارتجاجاتها محافظة بشكل معيق، تتجدد وتتقوى بفعل الأصوات الهوياتية التي انتعشت زمن التدخل الاستعماري... فهل كان بمقدور أي سلطان أن يُكسر حلقة من حلقات هذا الطوق ويعيد الهيبة لمغرب بدا سائرا نحو السقوط في كماشة الاستعمار¹؟

ولئن كان الماء في عبوره وجريانه الدائم أو حتى المتقطع يمر من ثلاثة ظواهر جغرافية: قبائل العالية أولا، قبائل الوسط ثانيا، وقبائل السافلة ثالثا، أثرت هذه الأطروحة منهجيا أن تعبر من ثلاث قنوات أساسية. وهو عبور منهجي، مرن ومفتوح، يتيح باستمرار تغيير زاوية الرؤية، وتكييف الوقائع مع خلفية البحث وفرضياته... سيعمد البحث إلى طرح حزمة أسئلة، انشغالات ممتدة بنفس تركيبي، دون أن يدعي قدرته الإحاطة بها، ما دامت رهانات العلوم الاجتماعية والانسانية اليوم تتأسس وجوبا على قيمة ونوعية الأسئلة المطروحة، لكن بمنهج يعتمد على استخراج الثوابت من المتغيرات، الكليات من الجزئيات، والأصول من الفروع...

لا شك أن افتراض إطار ناظم للموضوع هو عملية منهجية تروم في البدء تجميع سلسلة الانتظامات والقطائع التي ميزت التنظيم المائي المغربي فترة البحث والاستقصا؛ وعبر هذا التجميع المنهجي سيتم العبور نحو قياس واختبار فرضيتي الالتحام والتنافر داخل منطقة جغرافية ظلت واجهة لقياس عمق البنية المغربية في حركيتها وسكونيتها، وما يتداخل مع هذا القول من أدوات انتاجية مرافقة ترتبط بالأرض والمياه... ففي تاريخ المغرب، ثمة بنيات وإبدالات تحكمت في انتاج الحدث التاريخي منحته معناه الواقعي (المخزن- القبيلة - الزاوية...) ثالثا وإن بدا هشا، إلا أنه ظل فاعلا في مسار توجيه الوقائع في التاريخ. وتلك جزئية لم تتنبه إليها استوغرافيا الأدب الاستعماري.

يفرض الماء في تاريخ المغرب ضرورة التوصل بالمنهج السوسيولوجي للاقترب من عمق الظواهر الاجتماعية لتدوير الماء، وتحليلا للأدوار والتفاعلات... مثلما يفرض ضرورة الانفتاح على المنهج الأنثروبولوجي لفهم الرموز والطقوس والمعاني. إضافة إلى المنهج المقارن والمنهج التاريخي²... إن مجتمعا تشكّل عبر مسار تاريخي طويل وممتد بارتباط مع

للتعمق أكثر في الموضوع، يمكن العودة إلى بوبريك رحال، زمن القبيلة، السلطة وتدمير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2012، ص 353.

¹ ركزت بعض الأبحاث التاريخية على شخصية الحسن الأول (1873-1894)، سلطان بكاريما خاصة، سليل إرث ثقيل، حاول كسر طوق الدورة الانتاجية، ابتدع أسلوب الحركة، وإن بدا للبعض مجرد إحياء لسنة أحمد المنصور والمولى إسماعيل. لكن ما يهم في أسلوب الحركة ليس نجاحاته الظرفية التي وفرت للخزينة أموالا للإصلاح. ما يهم المؤرخ انعكاساته على المدى المتوسط على المجتمع: تزايد التحلل الاجتماعي، فتور الروابط التضامنية، الشعور بالتيه والاعترا، والارتقاء في حضن الأجنبي ضد مصلحة البلاد والعباد... تم إن نجاح الترتيب وفق الصيغة الفرنسية وفشله في الصيغة المغربية ألا يستحث طرح سؤال حارق مثلما جنح المصطفى بوعزيز في تقديمه لكتاب الطيب بياض قولا بأن فشل الترتيب من فشل الانتلجنسيا المغربية، سواء المساهمة في الحكم المركزي، أو المعارضة له في تصور وإطلاق سيروية تحديث أصيلة تفضي إلى بروز "حادثة مغربية" تفتح الطريق للولوج للعصر من بابه الكبير... لمزيد من التوضيح يمكن العودة إلى كتاب بياض، الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب 1880-1915، إفريقيا الشرق، 2011.

² مهران امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي بواحة تودغى، مرجع سابق، ص 11.

مجاريه المائية، لا بُد أن ينتج تنوعا قبليا وإثنيا قائما على قاعدة التعايش. على هذا النحو، يتفق عموم المؤرخين، على أن منطقة الأطلس الكبير ظلت حاضرة بفاعلية في تشكيل معالم تاريخ المغرب¹، إما مسرحا لأحداث، أو ساحة لحروب، أو فضاء للتوافق...منطقة جغرافية أهدت لتاريخ المغرب دولة مُوحدية، وساندت في لحظة التحرش الأجنبي دولة سعدية ناشئة، وعملت على دحروصول البرتغال إلى الداخل؛ مثلما عارضت وبقوة مشروع المرابطين والمرينيين، ووقفت بشكل حيادي أثناء صراعات القرن السابع عشر، وأرست لتوازن واستقرار دولة القرن الثامن عشر انطلاقا من ميناء الصويرة الحيوي²، وكانت شاهدة على امتداد القرن التاسع عشر على نظيمة حُكم محلي، درج البعض على تسميته بـ "القايدوية"³... فكيف يتأتى لهذا الحضور الممتد في لحظات التاريخ، إن لم تكن للمنطقة جينات القيادة، من مجاري مائية وفيرة، وخزان بشري متجدد⁴؟

تبدأ مسيرة العبور هاته من توظيف الماء كمصطلح للوصف الاثنوغرافي ورصد تشكله كموضوع للتاريخ، وفي مرحلة ثانية من موضوع تاريخي مكتمل نحو تجديد سجله الإشكالي ثانيا، وثالثا نحو قدرة هذا العبور على محاورة المسار المنعرج لتاريخ المغرب في ثنائياته المهيكلية: الاستمرارية والقطيعة. والقصد أن نختبر عن سبق اصرار وترصد، امكانية الوقوف عند عائق من عوائق الانتقال: من التقليد نحو التحديث من زاوية هيدرولوجية. كيف تمثل المغاربة عنصر الماء؟ ما هي المواقف التي ترسبت في ركب التاريخ اتجاه هذا العنصر الحيوي عبر العصور والأحقاب؟ لماذا حفلت الاستوغرافيا الاستعمارية بإشارات عديدة عن ارتعاب المغاربة من خوض مغامرة البحر؟ كيف نستسيغ مسألة ترويج هذه الاستوغرافيا لفكرة إدارة المغاربة الظهر للماء والبحر بحكم توجههم في صلاتهم نحو القبلة (مكة المكرمة)؟ ما باعث اصرار الاستوغرافيا الاستعمارية على اعتبار هذا الخوف ظاهرة ثقافية/ ذهنية جعلت الدول المغربية تُفوض شؤون البحر لفائدة الأجانب؟

أسئلة عامة تُسائل تاريخ المغرب من شُرْفَة الماء والإنسان، مثلما تضع المشهد المائي في واجهة التحليل والمعاينة بعد أن ظل مُلحقا لعقود خلت بإجرائيات التحليل الاقتصادي والاجتماعي...أسئلة تعيد الاعتبار لفاعل خفي ظل

¹ المغرب كيان جغرافي تطلب بناؤه قرونا مديدة، ما يربو عن 2000 سنة. بامتداد مجالي كبير. بدء من شيوع الاسم القديم "Maurétanie" وصولا إلى دول العصر الوسيط...لكن المغرب الذي نتحدث عنه اليوم فهو حاصل تبدل موازين القوى نهاية القرن التاسع عشر...للتوسع في الموضوع، يمكن العودة إلى العلوي اسماعيل، دور البادية والأرياف في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 50، 2018، ص 8.

² زرهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر، 1863/1280-1873/1290، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، 5، 1998، ص 499.

³ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, T1 et 2, Rabat, 1977.

⁴ يمكن ربط ذلك بعوامل المناخ، بكون بعض الفيروسات والبكتيريا المعدية، والكائنات الحاملة كالبراغيث تعجز عن العيش في ظروف الجفاف والحرارة المرتفعة بالصحراء، أو البرودة القاسية في المناطق الجبلية.

Rosenberger. B et Triki. H, Famines et épidémies au Maroc aux XVIème et XVIIème siècles, Hesperis- Tamuda, Vol XV, 1974, pp 40-41.

على الدوام مُحركا صامتا لوقائع التاريخ، وأحد الغنائم المحصل عليها ما بعد الحروب إذا ما اقتربنا من "نظرية الاقتصاد الحربي"¹؛ فاعل جوهري تنتظم على ضوئه علاقات القوة والخضوع، الانتصار والهزيمة...

داخل هذه البنية رسم الماء مشاهد مكررة، مألوفة ومستنسخة... فترات التحول الكبرى لا تتم إلا وهي مقرونة بتطرف مناخي أو كارثة طبيعية أو جائحة بيولوجية، حكمت على نسيج الأنهار والأودية في كثير من اللحظات بأن تُتخذ معالمها الطبيعية لحدود سياسية، وأجبرت محلة السلاطين تجنب الخروج في فصل الشتاء للتأديب، وجعلت الجُند يختار نزوله عند نقاط المياه الحيوية، والمعارك العسكرية لا تجرى إلا بمقربة من المجاري، والقلاع والحصون لا تشيد إلا على ضفاف الأودية²...

¹ - بنحمادة سعيد، الغرب الاسلامي، مباحث في العلوم التجريبية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013، ص 153.

² - زبير لوبني، الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين 916-1069هـ / 1510-1659م، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2016، ص 13... من بين الخلاصات التي انتهى إليها هذا البحث: ارتباط الفترات الكبرى لعملية التحول السياسي بتأثير عنصري الجفاف وقلة التساقطات، سواء بالنسبة للحظة الانتقال السياسي من الوطاسيين إلى السعديين (جفاف 1520)، أو بالنسبة للتاج البرتغالي الذي قرر تحت تأثير عامل الجفاف التخلي عن بعض الحصون المغربية من جهة، ومحدودية التجربة السياسية السعدية في التواصل مع البحر في ظرفية دولية كانت تسمح بذلك من جهة ثانية.

الفصل التمهيدي:

مقتضيات منهجية

مقدمة الفصل:

منهجيا، تعتزم هذه الأطروحة تقديم عرض نقدي مفصل عن أهم أصناف الاستوغرافيا الأجنبية التي صاغت اهتمامها بموضوع الماء في تاريخ الجنوب المغربي (الأطلس الكبير) في لحظة التحول من ما قبل الحماية إلى نهايتها (1792-1956)¹، ومن خلال ذلك، ستعتمد إلى تبني أسلوب المقابلة بين ذاكرتين: ذاكرة أولى تنطلق من فكرة المركزية الأوروبية، وذاكرة ثانية تنطلق من موقف دفاعي لتبرير واقع التأخر. وعبر هذه المقابلة، ستتشوف الأطروحة نحو تجاوز الصور النمطية المتداولة بين الذاكرتين من قبيل ربط الإسلام بالجهاد، وتحويل الكيانات التاريخية إلى ماهيات ثابتة Essentialisation. والحال، لا تدعي الأطروحة الوفاء التام لكثافة الوقائع التاريخية، بقدر ما تراهن على تقديم قراءة إجمالية تُظهر مجال الأطلس الكبير ليس فقط كهوية ذات خصائص مجالية، بل ككيان قائم في هندسة الأحداث الكبرى لتاريخ المغرب. بالنهاية، صياغة تركيب تاريخي يفتح على مستجدات النقاش الاستوغرافي، وطرح تساؤلات مفتوحة على امتدادات جديدة.

في شأن ذلك، ستخضع عددا من الاشكالات التاريخية التي تهتم بالاقتصاد والمجتمع والذهنيات في الأطلس الكبير الغربي للمساءلة والتحليل². خلال هذه الرحلة سيتم النفاذ إلى تفكيك جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والديني... وإعادة النظر في قضايا تاريخية غير محسوم بشأنها من قبيل: مسألة التراتب الاجتماعي، مستويات الممارسة الاجتماعية المرتبطة بالماء، تحليل الذاكرة الجماعية التي تغالب النسيان، توصيف التراث الأدبي والحكائي المائي الذي يُعبر عن أعمق المشاكل البنيوية للجماعات عبر العصور... وفي مستوى أدنى، ستنفذ الأطروحة إلى مستويات تحليل مسألة الجبايات والضرائب في تاريخ الجنوب المغربي، وإلى تطور الملكيات الكبرى المؤسسة للجاء والنفوذ الرمزي والمادي³، ومن خلالهما، ستعتمد إلى إعادة استنطاق تاريخ العلاقة بين القبائل والسلطة المركزية، وثنائية التطويع والتمرد⁴... كل ذلك، في استحضار تام لعنصر الماء في تاريخ المجال.

تحليل التاريخ الاجتماعي للماء سيحيل على فتح سجلات تاريخية ساخنة في تاريخ المغرب الراهن، حول حضور السببية والتسيب في المشهد القروي قبل وأثناء لحظة الحماية؛ بما هي استشعار بالتعسف المخزني أو وعي به⁵، وبما هي اجهاض لعملية "الديموقراطية البدائية" التي عبّرت عنها التشكيلة الاجتماعية المغربية التي تحدث عنها روبير

¹ - على المستوى المفاهيمي، هناك جدل واضح في التوصيف بين حماية، احتلال، استعمار. حول هذه النقطة يمكن العودة إلى كتاب جنرال كاترو، ليوطي المغرب أو تطبيق الحماية بالمغرب، تعريب د أحمد لقمهري، إفريقيا الشرق، 2017، ص 6.

² - يُقر العروى على أن الاستوغرافيا الأجنبية اعترافها قصور على مستوى تحليل نفسانية المغاربة، ولم يكن لها من داع سوى العمل على تضخيم عوامل التناثر والتشتت، العروى عبد الله، إستبانة، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2016، ص 28-57.

³ - Cheddadi. A, Le système du pouvoir d'après Ibn Khaldun, In annales E S C, n° 34, 1980.

⁴ - Pascan. P, Le commerce de la maison d'illigh, Tazerwalt de 1850 à 1875, Annales, E. S. C, n° 43, 1980, p 700.

⁵ - السبتي عبد الأحد، الماضي المتعدد، مرجع سابق، ص 17.

مونتاني R. Montagne¹. ظل الحضور المخزني مطبوعا بالشُعاعية كما يفيد بذلك صاحب المقدمة، ومن شأن ذلك، أن يجعلنا نختبر فرضيات جديدة حول وضعيتي الشغور أو الجور بالمجال المغربي كمفاتيح للتنظير لظاهرة السببية انطلاقا من ميكانيك المياء. من جانب آخر، يطرح المياء في تاريخ الجنوب المغربي نقاشا تاريخيا حول أنماط الانتاج الاقتصادي ما قبل الاستعماري، وعلاقتها بالتراتب الاجتماعي، والحياة القانونية والدينية والنمط الثقافي، فهل يتعلق الأمر باقتصاد القلّة كما يُروج له صاحب أطروحة إينولتان²؟ أم يتعلق باقتصاد المبادلة كما أتى مع عبد الرحمان المودن في أطروحته إيناون المستقاة من نظريات الاقتصادي البريطاني كارل بولانيي Karl Polanyi³؟ أم يتعلق الأمر باقتصاد المعاشات حسب أطروحة نيكولا ميشيل Nicolas Michel⁴؟ أم باقتصاد العتاقة مع لوسيت فالنسي Lucette Valensi⁵؟ أم بنمط الإنتاج الأسوي مع الأدبيات الماركسية لأندري آدم André Adam⁶؟ أم بنمط الإنتاج ما قبل الكولونيالي مع الاقتصادي إدريس بن علي⁷؟ وعليه، فتناول هذه الأطروحات الاقتصادية لا يعتبر فقط مادة للتحليل التاريخي تهم فقط مختصي الزمن، بل باعتبارها جوهر النسق المائي، ما دام المياء محرك وصانع التشكيلات الاجتماعية⁸.

1- الزمن، المجال، الاستوغرافيا، الاشكاليات.

1- المياء والزمن الانتقالي:

زمن الأطروحة، فترة طويلة لمن عاصروها، قصيرة من مسار امبراطورية عريقة كاملة السيادة بشهادة الفرنسيين أنفسهم⁹. واضح أن مغرب القرن التاسع عشر تنازعت رباح أزمة عامة؛ أزمة بنيوية ارتسمت ملامحها في كل أنساقه وهياكله، وانطبعت بها كثير من سلوكيات الإنسان المغربي. أزمة لا تعدو أن تكون تنويعا لمسار تاريخي ممتد في

¹ - Montagne. R, Les Berbères et Le Makhzen dans le Sud du Maroc, Paris, 1930.

² - اقتصاد القلة تخريجة انتاجية تبنها أحمد التوفيق لتفسير البنية الاقتصادية لمغرب ما قبل الاستعمار، وهي تخريجة تنبني على طبيعة القلة التي ميزت الاقتصاد في مغرب ما قبل الاستعمار، حيث يقف الاقتصاد دوما على حافة المجاعة، ويتسم بالعتاقة والبساطة. التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1912، ط 2، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1983، ص 621.

³ - المودن عبد الرحمان، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1995.

⁴ - Michel. N, Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, Le Caire, 1997.

⁵ - Valensi. L, Archaisme de la société maghrébine, In Sur le féodalisme, Paris, Publications du Centre d'Etudes et de Recherche Marxiste, 1971, pp 223-226.

⁶ - Adam. A, Bibliographie critique de sociologie d'ethnologie et de géographie humaine du Maroc, Alger, 1972.

⁷ - Ben Ali. D, le Maroc précapitaliste, Rabat, 1983.

⁸ - Gallissot. R, Introduction à l'ouvrage collectif, Structures et Cultures précapitalistes, Paris, Anthropos, 1981, p 24.

⁹ - كتب الجنرال ليوطي: "...لقد وجدنا أنفسنا في المغرب امام امبراطورية عريقة تاريخيا ومستقلة، متمسكة إلى أقصى حد باستقلالها، وشرسة في مواجهة أي محاولة لإخضاعها، وهي تظهر حتى هذه السنوات الاخيرة كدولة قائمة الذات بترتيبها الإداري والوظيفي وتمثيلاتها في الخارج...". جنرال كاترو، ليوطي المغرب أو تطبيق الحماية، م س، ص 11.

الزمن منذ أفول زمن الامبراطوريات السياسية الكبرى، وتسرب الإيبيريين إلى السواحل المغربية، وانكفاء المغرب على ذاته. انتهى مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى غاية كبيرة من الانحدار . انحدار كان يتعزز بمتوالية الجوائح والقحوط بمعدل ثلاث سنوات في كل عشرية تقريبا . مع نمط عيش ظل محكوما باقتصاد الكفاف وقساوة البيئة، تنحبس فيه الأمطار ويضعف الإنتاج ويقل الغذاء بسبب عتاقة التقنيات ووسائل الانتاج وهشاشة الانتاج الغذائي . لهذا الأساس، تتقوى فرضية مقارنة تاريخ المغرب من زاوية بيولوجية التي من شأنها أن تتيح إمكانية الربط بين ما هو مادي وما هو ثقافي، من حيث الربط بين انتاج التغذية والعادات الغذائية. نجد صدى لهذه الفرضية عند ما انتهى إليه محمد حبيدة حينما انتصر إلى تخریجة "سيادة نظام نباتي عفوي" Involuntary vegetarianism بعيدا عن أي تصور طبي أو بيئي أو أخلاقي.

أ- لماذا 1792-1956؟

نُشد في البداية أن اقتراح حدود تحقيقية عملية منهجية غاية في الصعوبة، لثلاث اعتبارات، أولها يتجلى في العنصر الأثري (الوثيقة)، وثانها في الحدود الكرونولوجية (عنصر تفسيري)، وثالثها في العنصر الاجرائي الوظيفي... كل تفكير في الأثر التاريخي هو تفكير في زمن تشكل داخل الزمن، وعملية اقتطاعه من الزمن تدفع نحو التهاوي في خطأ الأناكرونية. منطلق التفكير أن الحدث المؤسس يؤرخ لبداية عهد ونهاية آخر... التاريخ الأول (1792) تاريخ يؤرخ لوصول سلطان تهيّب من مواجهة الآخر، لاعتبارات لا تزال معروضة للنقاش، لكنه حدث دال ومؤسس لتغير العلاقة مع الآخر؛ ورامز على بداية تحول النسق السياسي والاجتماعي، ومن زاوية أخرى، يحيل على المستوى الاستوغرافي على ولادة أصناف جديدة من الوثائق... ويمكن أن نتبع أيضا، أصداء الحدث المؤسس أيضا في حدوث أزمة ضمير في صفوف خاصة الخاصة من العلماء والفقهاء والمتصوفة، وفي جانب منه في حدوث أزمة سياسية في دوائر القرار المخزني. في مقابل ذلك، الحدث الثاني (م1956)، يؤرخ لكسر مظلة الاحتلال ونهاية عهد الحجر الاستعماري.

قد تبدو هذه الحدود كلاسيكية بمقتضى تراكمات البحث التاريخي، لكنها تظل صيغة مقنعة من حيث قدرتها على استيعاب مظاهر التغيير. لأنها تظهر حدوث تغير عام، مادي، اجتماعي وثقافي... خلالها نشأ مخزن جديد، ووردت عليه أفكار جديدة من الشرق والغرب، وانعقدت فيه صداقات، وبرزت خلالها مواقف واتجاهات، وتوضّح مسار سير الأحداث. وظهر خلالها تأليف تاريخي تقليدي بدأ يدرك عمق التطور الذي آلت إليه مقادير الأمور.

في واقع الأمر، كل استكشاف خلاق في مسرى الكتابة التاريخية اليوم يرتبط بتغيير النظرة إلى الزمن والمصادر والموضوعات... ينطلق هذا البحث من فرضية مُحددة، تعتبر أن معيقات القرن التاسع عشر تتجاوز وقائعه

السياسية؛ والتي ارتقت لتكون عنواناً لأزمة ثقافية شاملة في البلاد¹. قرن منعطف حَفَل بدلالات عكست درجة الوعي بفداحة التفاوت التاريخي وأهمية المسألة الإصلاحية لتدارك التأخر².

بالنهاية القرن التاسع عشر حصل تراكمات مديدة حكمت على بلاد المغرب بأن تتلقى تأثير حضارة الضفة الشمالية للمتوسط دون أن تُسهم في تغيير أي شيء. مشاكل القرن التاسع عشر لا ترتبط اقتضاء به، تعود إلى ما وراءه بقرون وعقود. لم تكن واقعتي إسلي وتطوان سوى تجل مباشر لخلل بنيوي؛ كشف لاقتصاد ظل منذورا بعاهتي القلة والكفاف في وجه كل محاولة تغيير تطمح لتحقيق سبل المعاش عوض الكسب والتراكم؛ نزع لحجاب الهيبة عن وضع تاريخي استنفذ شروط مقاومته، وفي حاجة إلى تغيير... مثلما لم تكن القبيلة في نسغه -ذلك القالب المُخْتَل- التي استهوى جهود الباحثين الأجانب في الأصل سوى تعبيراً عن مظهر ثانوي، اصطناعي إلى حد ما... كلمة واحدة شُحنت بدلالات وأبعاد متنوعة من طرف باحثي المرحلة الكولونيالية، حتى صار شأنها مستعصياً³، بل صار متعذراً على أي باحث اجتماعي مهما علت درجة حصافته أن يقبض على دلالتها داخل إطار زمني ومجالي وسمته الحركية والتحول.

ب- زمن انتقالي: تغيرات حاسمة؟

لربما ينبع هذا الاختيار من محاولة اختبار فرضية الفوضى والتجانس، فهل كان الماء في تاريخ المغرب عنصر فوصي أم عنصر تجانس؟ عنصر صراع أم عنصر تضامن؟ عنصر تعارض أم عنصر تكامل؟ لا يفهم من ذلك أننا نرمي إلى سجن تاريخ الماء في ثنائيات اختزالية، بقدر ما نرمي إلى كشف الحديقة السرية لتاريخ أنتج وضعا تميز بالهشاشة المتراكمة.

ماذا لو غيرنا المسار صوب مجريات القرن التاسع عشر؟ ماذا لو اعتبرنا أن القرن التاسع عشر يبتدئ سنة 1792 وينتهي 1912م؟ ووسمناه وفق ما أسست له أطروحة التركيب التي أنجزها محمد القبلي بمعية فريق من الباحثين في العشرية الثانية من هذا القرن بـ "القرن التاسع عشر الممتد"⁴، لربما أمكن أن نستجلي بوضوح عناصر الأزمة

¹ - نستعير هذا الوصف من إبراهيم بوطالب الذي يسم القرن التاسع عشر بقرن "الأزمة الثقافية الشاملة". قرن يجسد مفارقة Paradoxe غريبة، حيث تُرك العلم خلال هذا القرن في تمام الإهمال جراء جمود الأفكار وانصراف الهمم للحاجة الدنيوية. وصارت مدارس العلم والعلماء متآكلة، يطغى عليها التكرار والمختصرات مثل رسالة أبي زيد القيرواني وأرجوزة ابن عاشر وألفية بن مالك... لا نفهم تحديداً كيف أن بلداً مثل المغرب هيمنت فيه الثقافة الشفوية رغم أن الأمة من أهل الكتاب؛ وحتى عندما دخلت المطبعة الحجرية إلى البلاد سنة 1864م، فإنها انحصرت داخل دائرة محدودة من رجال العلم في مدينة فاس. هذا الاستغراب هو نفسه الذي نقله أوغست مولييراس الذي عبّر عن اندهاشه من جهل أكبر علماء المغرب ليلة عقد الحماية بكل ما يتصل بالعلوم الشرعية (نموذج الفقيه المامون البلغيقي)

² - يدافع إيكناس كولدنزيير عن فكرة توقف التفكير والاجتهاد داخل العالم الإسلامي منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي عند علماء القيروان وقرطبة وفاس، حيث اقتصر الفقه على كتاب مختصر الشيخ خليل بن اسحاق المكتوب عام 1374م.

Goldziher. I, Fikh, E.I.1, II, p 108-111.

³ - بريك جاك، في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي. ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1988، ص 125.

⁴ - تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، اشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011.

العميقة التي صنعت مغرباً قابلاً لتدخل الرجل الأبيض؛ مغرب عاش احتضاراً بطيئاً جرّ وراءه قروناً مديدة من التجاذب والتنافر، بين استقرار مؤقت وهش، وأزمات عميقة وهيكلية. وضع سياسي ترك وراءه اهتزازاً نفسياً ووجدانياً عميقاً في الذهنية المغربية؛ وعمّق مشاعر الإحباط، وحكم على مجتمع بأكمله أن يبرز برمته تحت ظلال الألفية ووساوسها؛ مثلما هيأ الإطار لسيادة مظاهر التنكر للذات الجماعية، ورهن عقول المغاربة بمعتقدات مهدوية كانت تستعجل عودة الإمام وقرب الساعة¹. من شأن هذا الوضع أن يفرض حتمية العودة إلى نقطة الانطلاق وإعادة البناء، بل ويعزز إلى حد ما فرضية التحليل الخلدوني التي اعتبرت مقاساً نظرياً لانقسامية الاثنولوجيين الفرنسيين والأنجلوساكسونيين².

ينتصر فريق العمل الذي أشرف على المحاولة التركيبية لتاريخ المغرب إلى فرضية "اللحظة الانتقالية"، التي مهدت انتقال البلاد من "العصر الوسيط" إلى "العصر الحديث" خلال القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد. هذه اللحظة الانتقالية وُسِّمت بـ "قرن المنعطف" الذي سيدشن باحتلال سبتة من طرف البرتغال سنة 818هـ/ 1415م وينتهي بحدود مبايعة الشريف محمد القائم بأمر الله 916هـ/ 1510م في منطقة سوس. إنه يرمز في العمق إلى تحول بنيوي في مشروعية الدولة المغربية، من دولة تتأسس على العصبية إلى دولة ارتكزت على عُنصري الشرف والنسب، حيث التقارب واضح بين ظاهرة الشرف والسلطة، وإشعار بأفول زمن العصبية القبلية كمحرك فاعل في تاريخ المغرب. وقد يلاحظ أن التحولات المتوسطة الكبرى التي رافقت سقوط غرناطة 1492م، وما استتبعها من مشاعر الإحباط بين دار الإسلام ودار الكفر وتراجع الحلم المريني الوطاسي في توحيد بلاد المغرب، مقابل محاصرة المغرب من جهة الشرق والشمال... قد فعلت فعلها في مسرح الأحداث المغربي، لكنها لم تعلن عن أية قطيعة ضمن سيروية المتغيرات المحددة لتاريخ المغرب على ما يبدو³.

القرن التاسع عشر قرن التفاعل المتواصل بين ضغوط خارجية وأوضاع داخلية، في سياق حكم على المغرب أن يقع بين فسطاطين: ضرورة الانفتاح وهاجس التهيب؛ انفتاح على الآخر بحكم التحولات الإقليمية في غرب البحر الأبيض المتوسط مع تجربة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وهاجس الاحتراز والمماطلة مع تجربة السلطان المولى سليمان⁴.

¹ - تاريخ المغرب، م س، ص 3.

² - على اعتبار أن فترات العصر الوسيط المغربي لحظات تطاحنات قبلية بين عصبية كانت تبحث باستمرار عن تدعيم مشروعيتها السياسية والدينية (صنهاجة/ مصمودة/ زناتة)، في مقابل لحظة انتقالية بين عصرين مهدت لانتقال البلاد من العصر الوسيط نحو العصر الحديث.

³ - تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، إشراف وتقديم محمد القبلي، مرجع سابق، ص 372.

⁴ - في واقع الأمر، المتوسط يمكن النظر إليه مثل كيان تاريخي قائم، لا فقط هوية، حكمتها خصائص تاريخية ومجالية كثيرة. يمكن العودة إلى كتاب مصطفى حسني الإدريسي:

ث- القرن التاسع عشر: "لحظة الاستكشاف المكثف"

ثمة قاعدة شائعة في درس التاريخ تقول: كلما اقتربنا من الزمن الراهن، كلما تعددت وثائق الماضي، وتحسنت معرفة الانسان بماضيه، فهل تنسحب هذه الملاحظة على مجريات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟ هل تستوي المسافة في ذهن الباحث بين لغة المصادر ولغة الواقع الموصوف؟

واضح أن هذه اللحظة الفارقة اتسمت بكثافة بينة على مستوى تحديث الذاكرة الجماعية، كمًا ونوعًا، ووفرت فرصة ذهبية لإعادة تجديد أورايش المعرفة التاريخية، وفرز وانتقاء المشهد التاريخي من كل الحمولات الكولونيالية المجانية، وإعادة الصوت للمحلي/ الجزئي كفاعل تاريخي في رسم كثير من أحداث التاريخ الوطني¹. لكن ما سر جاذبية القرن التاسع عشر؟ وإلى أي حد يمكن أن ننتصر في مقاربتنا لمجريات هذا القرن لتاريخ البنيات على حساب تاريخ الأحداث، أو بتعبير أدق لتاريخ الزمن الطويل الذي يكسر مألوفة التأطير الكرونولوجي على حساب تاريخ الزمن القصير ذي التذبذبات السريعة؟ وأخيرا إلى أي حد يمكن أن نشاطر الرأي من يقول بأن الوثيقة بمختلف أصنافها نافذة تساعد المؤرخ على الاطلالة على المضمون الوقائي²؟

يعمد عبد الأحد السبتي إلى تبني تخریجة منهجية لتفسير جاذبية القرن التاسع عشر على المؤرخين، بل حتى المختصين في حقول العلوم الاجتماعية والسياسية، بما هو تجلي للتصادم الحضاري والهوياتي بين بنيتين مختلفتين: بنية تقليدية مغربية تنهل من الموروث المخزني، في مواجهة بنية حديثة كولونيالية وريثة عصر الأنوار ومفاهيم الثورة الفرنسية. نقف هنا عند وصف دقيق عبر عنه المفكر المغربي عبد الله العروي حينما شبه ذلك بتصادم بين آنية من حديد وآنية من فخار، فما كان لأنية الفخار إلا أن تتقطع وتتفرق قطعها. ظلت هذه الجاذبية تدور في فلك سؤال التأصيل، وتستدعي القيام بحفريات في الذاكرة التاريخية المغربية، عبر البحث عن أصول الأزمة المغربية التي ساقتها لحظة الاستعمار، فمن الاستعمار إلى أصول الاستعمار، ومن الحركة الوطنية إلى جذور الوعي الوطني...كلها إشكالات وقضايا فرضت على المؤرخين ضرورة العودة إلى إعادة استنطاق القرن التاسع عشر³.

¹ - تستوقفنا ملاحظة جديرة بالانتباه ونحن نتقصى حصيلة الأبحاث التاريخية التي أنجزت خلال القرن 13 هـ / 19 م في سياق ما يعرف بتيار التاريخ المحلي، أو ما يعرف بـ "المونوغرافيات"، والتي للأسف لا زال معظمها حبيس الرفوف المكتبية في صيغته المرقونة، والتي تزامنت مع تكوين المدرسين Formation des formateurs لتغطية الخصائص الذي تركه رحيل الرعيل الأول من الجامعة المغربية، هيمنة الأبحاث ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي، انطلاقا من النموذج المثال الذي صاغه أحمد التوفيق في نموذج اينولتان، مقابل أن نصيب الدراسات المتعلقة بالثقافة والذهنيات ظل محدودا نسبيا.

² - السبتي عبد الأحد، التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج، ملاحظات أولية، ضمن ندوة البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، 1989، ص 43.

³ - يمكن أن نستشهد في هذا الصدد بمحاولتي عبد الله العروي وجرمان عياش: فالأولى تأتي في سياق مشروع فكري واضح يكتمل بقراءة الثلاثية التاريخية: الإيديولوجيا العربية المعاصرة الصادر سنة 1967، وكتاب الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، (1830-1912) التي هي في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت سنة 1976 بفرنسا، وأيضا كتاب تاريخ المغرب: محاولة تركيبية الذي ترجمه العروي بعنوان مجمل تاريخ المغرب سنة 1984. جذير بالذكر أن أطروحة عبد الله العروي تمت ترجمتها مؤخرا بعد مرور أزيد من 40 سنة على صدور النص الأصلي: عبد الله العروي،

في الحقيقة، خضع القرن التاسع عشر لعملية "الاستكشاف المكثف" من طرف الباحثين المغاربة، كيف تقرأ هذه العودة على ضوء حصيلة اليوم؟ هل هي عودة إرادية أم مفروضة؟ كيف نستطيع أن نفسر القفز على التجربة الاستعمارية "التاريخ الساخن"؟ لربما هذه الجاذبية تعكس أهمية هذا القرن من الناحية الأرشيفية، كقرن تلتقي فيه مصادر التاريخ الإخبارية والحديثة مع مصادر الأثنولوجيا والسوسيولوجيا وغيرها من المباحث... وكقرن يعكس التقاء إيديولوجيا بين الأنا والآخر.

إذا اختزلنا التأليف الاستعماري في مستواه الإيديولوجي يصير القرن التاسع عشر بمثابة اللوحة التي تحتضن الجواب عن السؤال الملح: كيف كان المغاربة قبيل الاستحواذ الفرنسي الأسباني؟ وإذا اخترنا الخطاب المحلي في بعده الوطني، تظل الاستوغرافيا المغربية سجيئة السجل المجرد في مواجهة التأليف الاستعماري. وبينهما، نصل إلى البناء التالي: تعميم مقابل تعميم، خطاب في مواجهة خطاب، مجاملة الذات مقابل نفي نظرة الآخر... الكتابة التاريخية المغربية اليوم مُجبرة أن تتحرر من عقدة الاستوغرافيا الاستعمارية عن طريق محاورة التراث الاستعماري والاحتكام إلى وقائع الميدان بشكل يسمح بالتقاط مكونات مجتمع مشرف على الانهيار.

II- مجال الأطلس الكبير الغربي: الجبل الحزين

أ- مجال جغرافي بهوية خاصة

المكان مُتعدد ومُتفرد، لا يمكن تمثله وإعادة بنائه إلا في وشائجه وعلاقاته. قول ثقيل هذا الذي يُلقى على مؤرخ اليوم. عليه تبعا لذلك، أن ينتقل إلى "...البحث داخل المكان عن بقايا ماضٍ دائم الحضور..."¹، وينهض بعد ذلك، لـ "اسقاط الجدران العازلة التي تجاوزها الزمن"²، حتى يتوصل بالنهاية إلى "...نحث المشهد الطبيعي وأنظمة الزراعة، فالمزارع المغروسة بالأشجار، والمُسيجة ليست من إنتاج التربة، وإنما من إبداع الإنسان..."³.

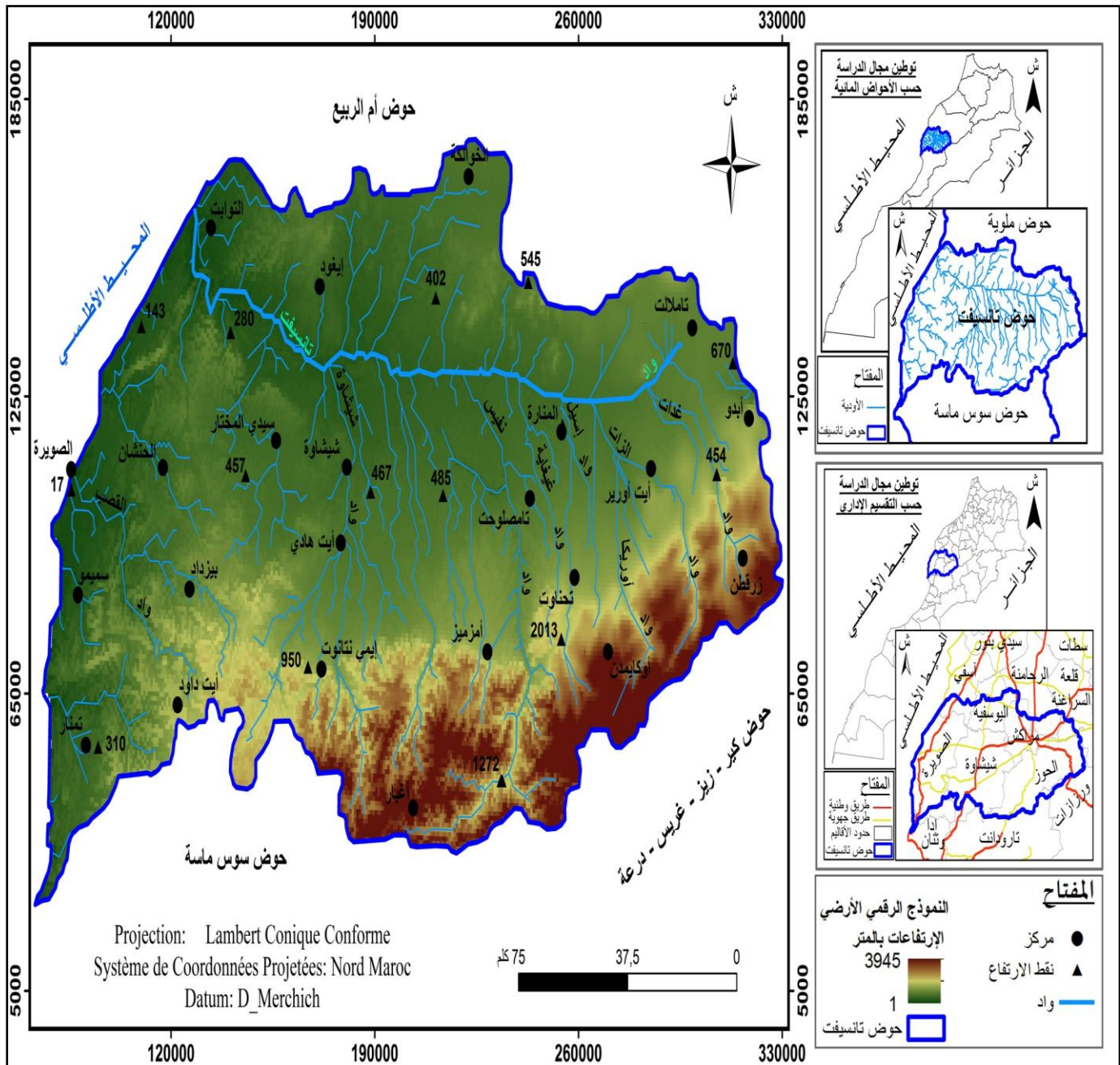
الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية. 1830-1912، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016. والثانية تعود إلى المؤرخ المغربي جرمان عياش، أصول حرب الريف، نقله إلى العربية محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمساني خلو. ¹ - لوغوف جاك (مشرف)، التاريخ الجديد، ترجمة وتحقيق محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المطبعة العربية للترجمة، بيروت،

2007، ص 247.

² - نفسه، ص 84.

³ - نفسه، ص 97.

خريطة (1): توطین حوض تانسيفت في الأطلس الكبير حسب الأحواض المائية في المغرب¹



¹ - تم الاستناد في إعداد هذه الخريطة على عدة مراجع من بينها:

Nahid. A, La genese des archives morpho- sédimentaires continentales Marocains, Typologie et relations des cônes- Terrasses plioleistocènes du versant Nord du Haut Atlas de Marrakech (Maroc), 2004, p 4 et aussi El Mezouari El Glaoui Abderrahman, Le Grand Vizir Madani El Mezouari El Glaoui, Une vie au service du makhzen, op. cit, pp92-93.

بريان محمد، بنحليمة حسن، العوينة عبد الله، قراءة وتحليل الخريطة الطبوغرافية، منشورات اللجنة الوطنية المغربية للجغرافيا، الطبعة الثانية، 1989، ص 238.

حينما يصل المؤرخ إلى تحديد المكان في تاريخ المغرب، تضطرب أمامه المعطيات، من يُصدق؟ الجغرافي أم الإخباري؟ المجال في التاريخ هو المختبر الذي يُصنع فيه المعنى، الرمزي والمادي؛ الفضاء الذي يُزال فيه وهُم الإحساس بالآخر، وتُفرز فيه مستويات التنظيم الاجتماعي؛ الميدان الذي تُنتقى منه المعطيات الخام، وتصاغ من داخله النظريات والخطاطات العامة¹. وإذا انطلقنا من فكرة أن النظام المائي في مغرب ما قبل الحماية وحتى بعده قد لا ينضبط في بنية قارة، جاهزة أو مستنسخة...بله عملية تفاوضية، ضمن سياق خاص ومجال محدد؛ وهي عملية تفاوضية تتصل بمصالح الفاعلين وأهدافهم وقيمهم ومعتقداتهم². اجمالاً، الجبل من حيث التدقيق الجغرافي كل تضرس طبيعي يرتفع بمقدار 500 متر مع اختلاف التقديرات بين الجغرافيين³.

من يقرأ مجال الأطلس الكبير من داخله؟ لا ينفذ إلى روابطه مع أمكنة وحواضر متكاملة. شُيد الأطلس الكبير فوق جغرافية شديدة التعقيد، في القلب الجغرافي للمغرب كما يقول الجغرافي فليكس غوتيه F. Gautier، تمازجت داخله الوفرة بالندرة، الخصب بالإفكار، الاستقرار بالترحال، المخزن بالسيية، الانفتاح بالانغلاق...حتى بدا للبعض صناعة صحراوية خالصة (روني باسي R. Basset / دانييل ريفي D. Rivet). الجبل بهذا التشكل، شخصية تاريخية حقيقية داخل المجال المغربي. دفع هذا القول جاك بيرك J. Berque إلى جعله نسيج متواصل سواء على مستوى القاعدة الأنثروبولوجية، أو على مستوى الثقافة القانونية أو التصرفات الاجتماعية اليومية⁴.

أين تكمن فرادة الجبل في تاريخ المغرب؟ لربما تأتت هذه الفرادة من كونه الفضاء الذي تأثر أقل من باقي الفضاءات بالحضور السياسي الرسمي، ومن كونه الفضاء الذي تأخر فيه دخول الآلة الاستعمارية، واستدمج الحضور الفقهي بالعُرف المحلي...في مجال مثل الأطلس، لا غرو أن تطفئ الحتمية المجالية على كل إمكان بشري خلاق. كم هي بليغة العبارة التي استعملها دانييل ريفي D. Rivet لوصف هذا الوضع: "مجال يقترح وإنسان يقرر". لم يكن مجال الأطلس في عمومته مُستقرا في وضع نهائي، بل إن تشكله الجغرافي مرَّ بمراحل عديدة لدرجة يمكن الحديث عن انتفاء الحدود لدى قبائل الرعي والترحال. فقبائل الأطلس الكبير مثلا كانت لا تعرف إلا البحث عن الماء والعشب في مدار مجال لا تحيط به حدود جغرافية ثابتة. هكذا أجبرت هذه القيود الطبيعية الإنسان الجبلي

¹ - Beteille. A, Être Anthropologue chez soi :Un point de vue indien, Genèses 2007, n° 67, p 113-130.

² - الأنثروبولوجيا، من البنيوية إلى التأويلية، تنسيق محمد حبيدة، م. س. ص 92.

³ - تنقسم الجبال تبعا لذلك إلى ثلاث: جبال ذات تضرسات منخفضة ما بين 500 و1000 متر، وجبال ذات تضرسات متوسطة الارتفاع ما بين 1000 و1500 متر، وثالثة مرتفعة تتعدى 2000 متر تسمى بالجبال العالية...مع اختلاف في تقديرات الجغرافيين. إذا ما سائرنا هذا التحديد يمكن تقسيم الكتلة الجبلية في المغرب إلى سبع: الريف، الأطلس المتوسط، الأطلس الكبير، الأطلس الصغير، جبل زرهون، جبيلات، كتلة بني يزناسن ودبدو.

Gabriel. W, Sous la direction, Montagnes et civilisation montagnards, Ellipses, Édition marketing, S.A, Paris, 2001, p 20.

⁴ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب من مولاي ادريس إلى محمد السادس، المركز الثقافي العربي، ترجمة المهندس أحمد ابن الصديق، الطبعة الأولى، 2020، ص 6.

ضرورة التكيف، مُعتمدا على وسائل وأدوات ابتدعها بنفسه، أو اكتشفت منذ آلاف السنين، غير أنها لم تشهد تغييرا يذكر منذ العصر الحجري الحديث مثلما تدافع عن ذلك الباحثة الفرنسية لوسيت فالنسي L. Valensi. يصعب أن نجد أي منطق اقتصادي عند الإنسان الجبلي، كما يصعب أن نفصله عن نمط عيشه، عن قطيعه وزراعته. يعسر على إنسان الجبل بيع ماشيته بمنطق تحقيق الربح، وتحويل الربح إلى جاه، وتحويل الجاه إلى سلطة. كل ما يمكن أن نعثر عليه، وجود علاقة تماه بين الكسب والقطيع، هذا التماهي هو الذي يدفعه إلى أن التفكير في أن يتجاوز قطيعه قطع خلانه في القبيلة بنوع من المباهاة. لا وجود لمسافة بين المالك والمملوك، إنهما يشكلان كُلا واحدا.

الجبل فضاء غني بموارده وإمكاناته. وغناه هو في الآن ذاته عامل ضعفه من وجهة التدبير السياسي. راكم الجبل في كل السياسات المتعاقبة عليه كل مظاهر الاقصاء والفضل، وجسّد من وجهة نظر المؤرخين التاريخ التحتي لكل تحول سياسي قادم. الجبل في تاريخ المغرب استوطن حوالي 26 % من مساحة البلاد، وأوى ما يقرب عن 30% من الساكنة، ووقّر ما يناهز من 35 % من أراضيه للزراعة¹. انتظمت حياة المغاربة حوله من كل الجوانب:

✓ سياسيا: مهد الدول الحاكمة؛

✓ اقتصاديا: معبر القوافل التجارية؛

✓ اجتماعيا: إطار عيش مزج بين الرعي والغابة والزراعة وتربية الماشية؛

✓ دينيا: مجال استقطاب الرحلات العلمية والدينية المناهضة؛

✓ جغرافيا: وقاية السافلة لخزن الماء، ووقاية العالية للحفاظ على الأتربة².

خزن الجبل الماء، واحتضن حوالي 70 % من الموارد السطحية في أنهاره ووديانه، وأنتج محيطا اقتصاديا راكم عبر مساره التاريخي خبرات وتجارب محلية. مجال الأطلس الكبير لا ينحصر في إحداثياته الجغرافية فحسب، بل يتعداه إلى ما هو سياسي واجتماعي وثقافي وديني، بشكل عاكس لتدافعات اجتماعية واقتصادية، ليس بخلفية طبقية كما رسمته أبحاث الأدبيات الماركسية من داخل الفضاء المغاربي، وإنما من خلفية تراثية: (إكرامن/ إحنصالن، إيمازيغن). وبالتالي وجب الإقرار بأن كل تحول في تدبير عناصر المجال لا بد وأن ينسحب على مجموع العلاقات والبنى الاجتماعية للتشكيلة القبلية³. هذا التدافع في الأساس تجلّى حول الأرض ومصادر المياه، بما هي محركات أساسية للوحدات الاجتماعية في كل المجتمعات ذات الطابع الزراعي.

¹ - بوهلال عبد السلام، الجبال المغربية ورهان التنمية، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، مجلة أبحاث ودراسات التنمية، العدد 5، ديسمبر 2016، ص 9.

² - Laouina, A, La montagne dans les plans nationaux sectorielles et dans la vision de l'aménagement du territoire, FLSH, Rabat, Série colloque et séminaires, 2005, p 119.

³ - العطري عبد الرحيم، الرحامنة، القبيلة بين المخزن والزواية، م س، ص 44.

الماء في المجال بؤرة يحتدم حولها صراع الوحدات الاجتماعية سواء أكانت حضرية أو ريفية من جهة¹، وأداة للسيطرة تتولد عنها علاقات سلطوية تراتبية من جهة موازية²؛ وبطاقة هوية تقاس بها ومن خلالها موازين القوى والنفوذ. فكلما زادت وفرته كلما تعالت رهانات القوة والفعالية، وكلما تقلص صيبه كلما ضاعت أسهم التأثير والمشروعية، فالماء أهم ثروة في المجتمعات الزراعية³.

عودة إلى الجبل الحزين بعبارة بريك الشهيرة، لماذا لم يستطع مجال الأطلس الكبير أن يتغلب على مأزقه التاريخي الذي جعل منه نقطة عبور نحو الصحراء، ونزالة سلطانية في طريق التأديب المخزني، بله ملاذا لقبائل فارة من عسف المخزن وسطوة قبائل السهول؟ لماذا لم يتجاوز هذا المجال كما باقي المجالات الطرفية انقساميته وتكامل مجالاته في دورة الإنتاج الواحد؟ لماذا لم يستطع أن يتجاوز قدره التاريخي الذي جعل منه دوما غنيمة وصيدا ينبغي اهتباله؟

ولج مجال الأطلس الكبير الأزمنة الحديثة جازًا معه إرثه التاريخي الثقيل، بقدر ما استطاع أن يحافظ على هوية المكونات المغربية عن طريق ضمان استمرارية الدولة وتركيبه القبيلة ونسيج الزوايا... صار هذا المجال على امتداد مجريات القرن التاسع عشر وبداية الذي يليه في وضع احتضار... قرن أثرت الأطروحة أن تسمه ب "قرن الترقب والانتظار"، مخزن يتربح ما يحدث في ما وراء البحار؛ وقبائل تتربح ردة فعل المخزن؛ وزوايا بينهما تترصد فرصة الظهور؛ واستعمار في الجوار يتربح الكل.

بدا مجال الأطلس الكبير وغيره من المجالات الطرفية لحظة البحث مجالا منهكا ومفككا، تأكل مجالاته بعضها البعض، لم يشهد لا طفرات ولا تحولات كبرى، بله لم يراكم شيئا ذا بال خلال هذا القرن... تعمقت في أوصاله مظاهر الانقسامية، لا كظاهرة بل كسلوك عام. فكان لبنياته العتيقة أن انتصرت على كل محاولات التغيير. غطى الدين بكونه نسقا ثقافيا مؤطرا مفاصل حياته، وهيمنت القبيلة بإرثها الرمزي على طبائع أفرادها، وزاد المخزن بقصباته على سفوح الجبال وقدمها في تقطيع أوصال المجالات المتكاملة وفاقم البؤس والفاقة وعطل عوامل التحول. وحتى حين تخلص المخزن من هذه السياسة، لجأ إلى تفويت سلطته لزعماء محليين أو هنوا صورة الدولة في الوحل، وأوجبوا موجبات التسيب. وفي جانب آخر، استمرت التقنيات الضعيفة ردحا من الزمن دون أن يطالها أي تغيير ملحوظ، فظلت الطرق معطلة في الغالب الأعم، والمسالك وعرة تأوي خلفها الهاربين من المغارم والكلف... مثلما لم ترحم متواليات المجاعات والأوبئة بلاد المغرب، فأحدثت خللا ديموغرافيا وهي تضغط على

¹ - الهروي الهادي، القبيلة، الاقطاع والمخزن، مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث، 1844-1934، الدار البيضاء، 2005، ص 65.

² - Jamous. R, Honneur et Baraka, Les structures sociales traditionnelles dans le Rif, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1981, p 56.

³ - Manderas. H, Eléments de sociologie, Editions Armand Colin, Paris, 1975, p 177.

المجالات الانتاجية القليلة أصلا، عاملة على ترسيخ رؤية قدرية للعالم لم تراكم سوى مظاهر السلبية والتواكل، ومظاهر التسليم للقدر التاريخي¹.

ب- الحوز قلب الأطلس الكبير

الحوز مفهوم مُتغير حسب فترات التاريخ. يحيل أحيانا على المجال السهلي المنحصر بين جبال الأطلس والجبيلات؛ وأحيانا على المجال الجبلي المنحصر بين واد أسيف المال إلى حدود واد تانسيفت (الشكل رقم 1). تاريخيا، تعود أول محاول دقيقة لتحديد مجال الحوز إلى الحسن الوزان، ومن بعده مارمول كاربخال، الذي أحاطه بست عمالات: حاحا، سوس، كزولة، سكورة، تادلة، دكالة. في القرن 16م انحصر الحوز في ضاحية مراكش دون اجتياز واد ايسيلفي الشرق وتانسيفت في الشمال، والضفة اليمنى لنفيس في الغرب². وفي اللحظة التي انكب فيها بول باسكون P. Pascan على دراسة الحوز، كانت تخترقه الأودية التابعة لتانسيفت. وصار اليوم حسب المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي يضم أودية حوض الربيع مثل تساوت والخضر.

يظهر مجال الحوز مكتنزا لمعطيات طبيعية وهبته تميزا داخل نسيج الأطلس الكبير (الشكل رقم 2). من الناحية الطبوغرافية يقع سهل الحوز بين خطي عرض 3231 شمال خط الاستواء³. حيث يتشكل من مجموعة مخارط انصباب متنوعة الأهمية والامتداد مثل مخروط نفيس، الخضر وتساوت... تمنحه روافد هيدروغرافية تُغذي ساكنته بمياه وفيرة. يمتد هذا السهل على مسافة 180 كلم من الشرق نحو الغرب⁴. يتميز هذا السهل الذي يشكل قلب الأطلس الكبير بالانبساط والانحناء الطبوغرافي نحو السافلة، ما يساعد على تدرج المياه من العالية نحو

¹ - في الحقيقة تفصح ذهنية المجتمع المغربي "ما قبل الاستعمار" عن حقل معرفي مليء بالتركيب. نحن إزاء ذهنية مجتمعية ظلت مشوبة بمظاهر الخوف والتشاؤم وانتظار قيام الساعة، وغلبة التعليل السماوي، والتشفع بالتمايم وزيارة الأضرحة والتداوي بالأعشاب... على المستوى التاريخي، أنتجت هذه البنية الذهنية مواقف وتصورات متناقضة تجاه الأزمان التاريخية، خاصة من المرض، الموت، الكوارث، الغزو... هذه الذهنية هي في الأصل، نتاج تراكمات معرفية وثقافية، وتجارب تاريخية تشكلت عبر حقب تاريخية طويلة، وقد تعود إلى حدث هزيمة الموحدين في معركة العقاب 1212م الذي أحدث هزة نفسية ووجدانية عميقة لدى المغاربة... ما يهم بالأساس أنها بنية ذهنية استمدت تصوراتها من حقل المقدس، وأنتجت ما يسمى بالمجازيب والهاليل والدعاة المصلحين، وسلوكات سحرية تنجيكية إبان المنعطفات المناخية في تاريخ المغرب. ظل المغربي في كل لحظة حلول كارثة طبيعية يتشفع بالتفسير العقابي، وبمنطق الخطيئة الجماعية، ويتحصن بالزمان المثالي، زمن النبوة في انتظار خلاصه الأبدي الذي يلغى كل تواصل إيجابي مع الحاضر. أنظر في شأن ذلك: روزنبرجي برنار والتركي حميد، المجاعات والأوبئة في المغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الطبعة الثانية، 2010، ص 227؛ عيسى لطفي، مدخل لدراسة الذهنية المغربية خلال القرن السابع عشر، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 31-32؛ أبرهموش محمد، تاريخ المغرب والأزمات الذهنية، مجلة مؤمنون بلا حدود، 2016.

² - الأكلع محمد، بعض المظاهر الطبيعية للحوز، ضمن مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحد، أشغال الملتقى الأول 1988، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، 1989، ص 28.

³ - من حيث البنية يشكل سهل الحوز عبارة عن منخفض بنيوي تراكمت في توضعات قارية نبوجينية رباعية من أصل أطلسي، وأثناءها تشكل سهل الحوز بموازاة مع الحركات التكتونية ابتداء من الأيوجين إلى الزمن الرابع... بينما صخوره تنتمي إلى فصيلة الشست غير المنفذة.

⁴ - من ناحية الجنوب والشرق ينفث سهل الحوز على الهوامش الشمالية للأطلس الكبير الغربي، وهو ما يعرف بـ "أطلس مراكش"، ومن ناحية الشمال ينفث على كتلة الجبيلات التلية، ذات الارتفاع المتوسط (800 متر)، أما من ناحية الغرب تحد سهل الحوز تضاريس هضاب الشماعية، حيث تصل ارتفاعاتها حوالي 700 متر. للتوسع أكثر يرجى العودة إلى الأكلع محمد، بعض المظاهر الطبيعية للحوز، م س، ص 28-29.

السافلة في شكل تراتبي. تتراوح الارتفاعات داخل هذا السهل بين 550 م في الغرب، و700 في الشرق، في المنطقة التي تسمى بالحوز الشرقي أو الحوز الأعلى.

ت- المظاهر الهيدرولوجية:

ترتبط المظاهر الهيدرولوجية لسهل الحوز بالمجري المائية والفرشة الباطنية، حيث تساهم المعطيات البيومناخية في هذا التصنيف. يُدرج مختصو المناخ سهل الحوز ضمن المناخ المتوسطي الجاف والحر، المتميز بضعف التساقطات، وارتفاع المتوسط الحراري، مع تسجيل فوارق شهرية ويومية من حيث التبخر والرطوبة حسب المناطق.

✓ المجاري المائية:

يقع سهل الحوز من الناحية الهيدروغرافية بين حوضيين مائيين كبيرين في المغرب:

- في الشرق الحوض الهيدروغرافي لأم الربيع الذي يمثله واد تساوت¹ ورافده الخضر².
- الحوض الهيدروغرافي لتانسيفت، حيث يخترق سهل الحوز من الشرق إلى الغرب مجرى تانسيفت من ناحية الشمال، لينتهي في المحيط الأطلسي في آسفي. يشكل هذا المجرى حوضا هيدروغرافيا متكاملا تلتقي فيه عدة روافد (واد شيشاوة- سكساوة- نفيس- غيغاية- إيسيل- أوريكّة- الملاح- الزات- غدات...)

الشكل رقم 1: جدول الحوض الهيدروغرافي لتانسيفت³

الأودية	الطول (كم ²)	المساحة (المتري)	الارتفاع (المتري)	الارتفاع %	انحدار التساقطات	معدل التساقطات (ملم)	الصبوب
نفيس	150	1703	1600	4089	17	580	188
غيغاية	36	225	1680	4167	21	609	56
إيسيل	20	64	1000	1666	-	534	9
أوريكة	46	503	2100	21	673	12	5.12
الملاح	13	116	850	1426	-	696	10
الزات	50	525	2000	3300	18	541	13
الخضر	117	2945	1670	3825	16	620	520
تساوت	122	1465	1540	4071	21	650	370

¹ - واد تساوت ينبع من الأطلس الكبير الكلسي، من جبل مكون (4071 م) حيث يتخذ اتجاهها متعامدا مع التضاريس "اتجاه جنوبي شرقي- شمالي غربي- عند خروجه إلى السهل عن أكادير بوعشبية يغير الواد اتجاهه بكيفية مفاجئة نحو الشمال الشرقي راسما زاوية واضحة جدا. يصل التعمق في واد تساوت 30 متر يكتفي هذا التعمق نهائيا عند وسط السهل...الأكلع محمد، م س، ص 33.

² - واد الخضر يتميز بانحداره الضعيف، مجراه أكثر تعمقا 80 متر. ويساهم تموجه في التقائه بواد تساوت عند منطقة الفرايطه.

³ - - الأكلع محمد، بعض المظاهر الطبيعية للحوز، م س، ص 34.

ث- الفرشة الباطنية:

تساهم الفرشة الباطنية في سهل الحوز في تغذيته بمصادر مائية مهمة للاستغلال الفلاحي¹، وترتبط هذه المصادر بـ:

■ مياه الأطلس: 220 مليون متر مكعب/ السنة؛

■ التساقطات المباشرة على السهل 13 مليون متر مكعب/ السنة؛

■ المياه المترسبة بعد السقي: 5 مليون متر مكعب/ السنة².

عموما التساقطات ضعيفة وغير منتظمة، ويتميز توزيعها السنوي بما يلي:

- فصل مطير من أكتوبر إلى أبريل مع تركيز التساقطات في شهري نونبر ودجنبر؛

- جفاف شبه مطلق خلال فصل الصيف مع تسجيل حرارة مرتفعة ورياح مجففة (الشركي- القبلي).

كلما انتقلنا داخل الحوز من الشرق نحو الغرب، كلما تناقصت كميات التساقطات، وكلما تزايدت حسب الارتفاع³. ما يجعل الغطاء النباتي داخله يصنف ضمن الطابق النباتي المتوسطي الجاف (السدرية- البطم- الطلح...).

الشكل رقم 2 جدول: التساقطات ومعدل الحرارة في منطقة الحوز⁴

المحطات	قلعة السراغنة	مراكش	شيشاوة	أيت أورير	تحنات
معدل التساقطات السنوية (مم)	260	255	179	352	437
معدل الحرارة (درجة)	19.2	19.5	18.6	20	19.4
معدل الحرارة العليا (درجة)	29.2	27.2	27	26.6	28.5

سبق للباحث الفرنسي E. Escallier أن أقام ترابطا بين مجال مراكش وأحواضها في سياق ما يصطلح عليه بالعلاقات "الحضر الريفية"⁵. توصل هذا الباحث إلى أن مجتمع مراكش خليط من الوافدين¹، الذين يحملون

¹- وفق تقديرات المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي تمثل مياه الفرشة الباطنية في سهل الحوز ما يلي: 160 مليون متر مكعب سنويا من مياه الأودية والسواقي، و10 مليون متر مكعب سنويا من التساقطات المباشرة، و3 مليون متر مكعب في السنة من المياه المترسبة والمستخرجة من الفرشة. ومسألة الاستغلال الفلاحي تجربنا للحديث عن وضعية الأتربة داخل هذا السهل، حيث تشكلت على التوضعات الرباعية التي رسبت في مختلف فترات الزمن الرابع، ونتجت بفعل تطورات مناخية، وتصنف ضمن الأتربة الجيدة التي تسمح بزراعة الحوامض، والأتربة ذات القيمة المتوسطة، وأخرى غير نافذة وغير قابلة للسقي.

²- الأكلع محمد، بعض المظاهر الطبيعية للحوز، م س، ص 34.

³- نفسه، م س، ص 35.

⁴- نفسه، ص 26.

⁵- في ما يخص العلاقات الحضر الريفية المرتبطة بمجال الحوز، لا نجد تفسيراً عند المؤرخين والجغرافيين بخصوص التفاوت في ذكر المدن والحواضر، تحضر مدن أغمات وأريكة وأغمات أيلان ونفيس، وتغيب مدينتي شيشاوة ومرامر. حول شيشاوة يعمد جاك بيرك إلى استغلال التشابه بين كلمتي سكساوة وشيشاوة ليستدل حول امتداد مجال سكساوة إلى شيشاوة.

Berque. J, Antiquité Seksaoua, Hesperis, 3 et 4 trimestre, 1953, pp 359- 418.

انتماءات قبلية متعددة الأصول². وإن كان النقاش حول تاريخ هذا المجال في التاريخ القديم لا يزال مفتوحا، كما تشهد على ذلك الرسوم المنقوشة بمنطقتي أوكايمدن وباكور³، ومؤخرا بجبل إيغود. تحليل خرائط الإطار البشري الخاص بمجال مراكش وأحوازاها إلى تفاعل ثلاث آليات في حزام مدينة مراكش: الاستمرار، الاختفاء، والظهور: الاستمرار: استمرار بعض المجموعات في جنوب مراكش في اتجاه سلسلة جبال درن مثل فروكة، وأوريكة، كدميوة، صاودة أو مزوضة.

الاختفاء: اختفاء أسماء بعض المجموعات مثل مسكالة التي ورد اسمها عند ليفي بروفنصال في شرق أغمات. الظهور: ظهور أسماء جديدة مثل مسفيوة وغيغاية، وقبائل الكيش مثل الوداية وأيت ايمور...

بالنهاية، القبائل التي تمتد مواطنها غرب مراكش يرجع تاريخ استقرارها إلى القرن 16 م، بينما قبائل جبل درن بقيت على ما هي عليه على الأقل منذ القرن 12 الميلادي⁴. وبينهما مجال فاصل لا يزال يثير صخبا واسعا بين المؤرخين والجغرافيين⁵. عندما نقرب من Jean Le Coz الذي تتبع موضوع "قبائل الكيش في المغرب" نتوصل معه إلى قبائل بني معقل غرب مراكش "استطاعت إبعاد احمر نحو الغرب، الرحامنة نحو الشمال والشرق، وإيقاف الشلوح عند قدم الجبل جهة الجنوب".

وسط هذه الحيرة في التحديد والتتبع المجالي للقبائل والمجموعات البشرية في مراكش وأحوازاها⁶، يُنقدنا ليفي بروفنصال في خريطته للمجال الممتد من وادي تانسيفت وقدم جبل درن خلال القرن 12 الميلادي بالتحديد التالي⁷:

¹ - ينحدر هؤلاء الوافدون من سهل الحوز بنسبة 46 %، ومن الأطلس الكبير الغربي بنسبة 18,5 %، ومن هضاب احمر والرحامنة بنسبة 11,7 %، ومن سهل السراغنة بنسبة 6 %، ومن باقي المناطق المغربية بنسبة 17,8 %.

Escallier.E, Citadins et espace urbain au Maroc, Fasc, de recherche n° 8 et 9, t I et II, Tours et Poitiers, 1981.

² - من بين هذه الانتماءات القبلية يمكن الحديث عن قبائل الكيش التي وفدت على المجال الحوزي خلال القرن 10 هـ / 16 م.

³ - Simoneau. A, Les gravures rupestres du Haut Atlas de Marrakech, RGM, N 11, Rabat 1967, pp 67- 75.

⁴ - يُقسم ابن خلدون المصامدة "أكثر قبائل البربر وأوفرهم" إلى ثلاث:

- قبائل غمارة برحاب الريف في الشمال؛

- بورغواطة في بسائط تمسنا وريف البحر المحيط من سلا وازمور وأسفي في الوسط؛

- أهل جبال درن في الجنوب.

بلاوي أحمد، الإطار البشري والحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، م س، ص 42.

⁵ - Le Coz. J, Les tributs quich au Maroc, RGM, N 7, Rabat, 1965, pp 1- 52.

⁶ - سبق للبيدق أن قام بجولة في أجزاء الحوز، وتوقف عند أسماء القبائل التي استوطنت المجال قبل تأسيس مراكش، عند البيدق نقف عند هيلانة أو أيلان ما بين وادي إسيل ووادي الزات، وعند اوريكة على طول وادي اوريكة في اتجاه الجبل، وعن هزيمة على وادي نفيس بين وادي نفيس ووادي أسيف المال، وعند صودة ما بين وادي أسيف المال ووادي شيشاوة حيث فرقنا أيت أوكماس (كماسة) وإفروكن (فروكة).

⁷ - يمكن أن نلمس تقاطعا بين تحديد ليفي بروفنصال وتحديد أحمد التوفيق. يعتمد هذا الأخير في تتبعه لأعلام الولاية والصالح في المجال التادلي والحوزي. يورد المحقق التحديد التالي:

- ركراسة غرب وادي أسيف المال؛

- صودة ما بين وادي أسيف المال ووادي غيغاية؛

- أيلان أو هيلانة ما بين وادي نفيس ووادي الزات.

- قبائل ركراكة، مسكالة، متوكة، دمسيرة في المنطقة الممتدة ما بين وادي شيشاوة والساحل الأطلسي؛
- بطون فروكة وصودة ولصيفة في المنطقة الممتدة من وادي نفيس¹ ووادي شيشاوة؛
- بطون سكتانة وأوريكة في المنطقة الممتدة من وادي نفيس إلى وادي غدات؛
- قبيلة مسكالة شرق هذا الواد².

تجميع المعطيات الجغرافية حول منطقة الحوز الواردة في متون ومضام العصر الوسيط تصل بنا إلى توليد قناعة مجالية حول ارتباط منطقة الحوز بمجال أهل درن. تتعزز هذه القناعة حينما ننظر إليها من زاوية أشكال الانتاج، حيث يظهر التداخل بين نمط الانتاج الجبلي مع نمط الانتاج السهلي من حيث التبادل والتكامل، الذي يجعل من السهل خزاناً للقمح، والجبل مرتعاً شتوياً للمواشي³. أو من حيث كون حواضر الحوز، قبل تأسيس مراكش كانت عبارة عن أسواق محلية كبيرة، تمارس وظيفة الوساطة بين السهل والجبل⁴، أو من حيث كونها مواطن خصبة وفق إفادة الادريسي لناحية أغمات اوريكة "وحولها جنات محدقة، وبساتين وأشجار ملتفة"، وأخيراً لكونها تقع على محاور الطرق التجارية الكبرى على مستوى الفجاج والممرات⁵.

معظم كتابات الجغرافيين والمؤرخين القدامى التي واكبت جبل درن أقرت بخيراته الطبيعية، ووفرة سكانه. لقد توفق أحمد بلاوي حينما اعتبر أن الحواضر الحوزية هي حواضر درنية أكثر منها حواضر سهلية، وربط بين تأسيس الحاضرة المرابطية مراكش وبداية تراجع حركة التمدن في حواضر جبل درن في كل من أغمات نفيس، شيشاوة، مرامر، أنفيفة...⁶. وبالتالي، يكون هذا التأسيس عاملاً في سحب البساط من حواضر الجبل، ووضعه في موضع بعيد عن الجبل (مراكش) التي ستصير في ما بعد درة من درر العالم الاسلامي الغربي في العصر الوسيط.

ج- حوز مراكش: من تاريخ المجال إلى مجال التاريخ

تحيلنا في البدء مسألة تدقيق مجال الحوز قبل الحماية إلى تسجيل ملاحظة استوغرافية جوهرية في الموضوع، ضرورة مطالعة سلسلة التقارير الاستعمارية التي ألفها مؤلفون ذو نزعة استعمارية واضحة مثل إدموند دوتي وجوستينار وإيركمان ولاووست وكابولاني وديبون وبلير ومونطان وآخرين. يهمننا في هذا المقام، العودة إلى واحد منها

¹ - اختفت المدينة وبقي الوادي كمعلم للتحديد الجغرافي، لم يتمكن المؤرخون إلى حد الآن من تحديد موقع مدينة نفيس، رغم وجود عدة افتراضات في شأن ذلك. يمكن العودة إلى مقال برنارد روزنبرج "ملاحظات حول قوز" في مجلة هسبريس سنة 1967.

² - بلاوي أحمد، الإطار البشري والحياة البشرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، م س، ص 43.

³ - بلاوي أحمد، الإطار البشري والحياة البشرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، م س، ص 48.

⁴ - في شأن ذلك البكري حول سوق أغمات اوريكة "...سوق أغمات اوريكة يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة، وينفذ في ذلك اليوم جميع ذلك..." البكري أبو عبيد الله، المسالك والممالك، ترجمة دوسلان، باريس 1965، ص 157.

⁵ - فج تيزي ن تلوات، فج تيزي ن تاست أوتيزي ن وشدان.

⁶ - بلاوي أحمد، الإطار البشري والحياة البشرية بناحية مراكش قبيل التأسيس، م س، ص 51.

ينسب إلى إدموند دوتي صدر سنة 1907 من أجل فرز الخيوط الكبرى الفاعلة داخل مجال الحوز. فما دلالة هذا الاختيار؟ يعود منشأ الاختيار إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

أولها: الطابع السري لهذا التقرير بما يتضمنه من معطيات سياسية دقيقة عن وضعية الحوز المراكشي؛

ثانها: وجود تنافس امبريالي شرس لم تحسم بعد معاملة بخصوص المسألة المغربية؛

ثالثها: كون التقرير يكشف عن مرحلة الأنفاس الأخيرة من أجل انتهاء الملف المغربي وفرض سياسة الأمر الواقع¹.

وقتها كان مجال الحوز عبارة عن تشكيلة اجتماعية تمزج بين نسيج أمازيغي محاط بمجموعات صحراوية ذات أصل معقلي²، و"كان معاش الحوز ودوام نفعه وعمارته إنما بالحرث واكتساب الماشية ولا حرفة مضاهية لهما وتوازيمهما"³. لا حرث فيه ولا ماشية بدون ماء، هاطل أو جاري. لقد سبق لنيكولا ميشيل أن أجرى بحثا كميا عن قيمة المحاصيل الزراعية عن عموم البلاد ما بين 1807 و1912 توصل من خلاله إلى المعطيات التالية: نصف المحصول جيد أو مقنع، وثلث المنتوج بين ناقص ومتوسط، وخمسه رديء⁴. ما دلالة هذه الأرقام الكمية؟ إنها تفصح عن هيمنة زراعة الحبوب على المشهد الزراعي في مغرب ما قبل الاستعمار مع استمرار ممارسات تحيل على الاستغلال السيئ للأرض والمياه⁵.

عودة إلى مضمون التقرير، يرصد هذا التقرير من وجهة نظر سياسية حالة تأجج الصراع الاستعماري الفرنسي في الحوز، ومحاولة فرنسا توظيف شبكاته الدينية (الزوايا والطرق) والسياسية (القواد الكبار) والاجتماعية (القبائل والسكان) في حسم الصراع. وإذا ما تم تجميع مختلف تفاصيل التقرير في صورة تركيبية فإنها تكشف للقارئ عن وعي الاستعمار الفرنسي المبكر بوجود ترابط اثني وجغرافي وبشري وديني بين مجال الحوز وعموم البلاد. وبذلك، لا يمكن فصل هذا التقرير عن مجموع الانتاج الذي خلفه إدموند دوتي حيث ظل يدافع في كل اسهاماته الخاصة

¹ - Renseignement colonial, 1907, n° 11, g 3 HA.

² - الوداية- الرحامنة- أولاد دليم- تيدرارين- العروسيين- إداوبلال- تكنة ومجاط...والواقع، يفسر صعود هذه القبائل المعقلية نحو الحوز على نشاط التجارة الصحراوية واحتلال البرتغاليين للسواحل والتحاق القبائل المعقلية بالجيش السعودي. وفدت القبائل المعقلية إلى الحوز في تواريخ مختلفة من أجل احتواء القبائل الأمازيغية واحتلال مجالات واسعة غنية بالماء، وسرعان ما أثرت في المشهد السياسي العام لمنطقة الحوز.

³ - مقتطف من رسالة حسنية أرودها محمد الأمين البزاز في كتابه تاريخ الأوبنة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19م، منشورات كلية الآداب، الرباط، ص 29.

⁴ - Nicolas Michel, Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, Edition Institut français d'archéologie orientale, Le Caire, 1997, p 64.

⁵ - بياض الطيب، أزمة المعاش وأثرها على الديموغرافية في البادية المغربية خلال القرن التاسع عشر، الأيام الوطنية العاشرة حول موضوع المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة، 2002، ص 373.

بالمغرب عن كون سياسة فرنسا في تونس والجزائر يجب أن تكون هي مفتاح النجاح في المغرب سيرا على هدي المدرسة الفرنسية في الجزائر.

رسم التقرير السري خارطة الطريق التي يجب الاعتماد عليها من أجل جعل مصير المغرب قريبا من فرنسا، ويوجه عناية أصحاب القرار إلى ضرورة استغلال ضعف المخزن في الجنوب من أجل استمالة الشخصيات السياسية الكبرى في ظل تنامي عميات نهب الثروات من طرف هؤلاء بعد وفاة الصدر الأعظم باحماد، ومناخ سياسي يتسم بحركة ارتقاء وهبوط القواد حسب قيمة الأخبار التي تفد على السلطان. وقبل عزله، بتهمة الانفتاح الكبير على الأوساط الأوروبية كان السلطان عبد العزيز في 8 أبريل 1906 قد نصّب عدة قواد في الحوز من أجل محاصرة المتوكي، وفي 5 غشت من العام ذاته نجّى أغلهم واستبدلهم بآخرين، سنتان بعد ذلك سيعين المتوكي على رأس تلك القبائل، وسنة بعدها سيصبح الكلاوي هو من يحكم كل تلك القبائل تقريبا. وحده هذا المعطى كاف للاقتراب من فهم البنية السياسية في حوز مراكش قبل الحماية. (الشكل رقم 3)

في شأن ذلك، يُوجه دوتي عناية رجال المال والأعمال الفرنسيين إلى أهمية اقراض القواد الكبار بالمال، ويدعو بنك Braunschweig وبعض أثرياء يهود مراكش Coros إلى تسليف القواد من أجل تخصيص السلطان بهدايا تليق بمقامه من جهة، وشراء الأسلحة لقمع التمردات من جهة موازية...مقابل حصولهم على ظهائر تعيين على بعض القبائل تشمل حيازة الأراضي وحقوق المياه. وتدبير مرحلة ما بعد الحصول على ظهائر التعيين من أجل استرداد الديون نقدا أو عينا (حبوب- زيوت- صوف- لوز...) من طرف التجار الفرنسيين وتوجيهها إلى مستودعات التصدير في موكادور.

يُمعن التقرير النظر في جزئية أن القائد في مجال حوز مراكش ظل مرتبنا بغضب المخزن أو رضاه. وبفضل سياسة الاقراض يتمكن بعضهم من الوصول إلى القيادة مثل ما حدث مع نموذج الكنداف سنة 1905، كما يكشف عن حقيقة أن البعض كان يسعى إلى ربط علاقات صداقة خفية مثل تلك التي كشف عنها لاسالاس Lassalas في أبريل 1906 عن رغبة الكلاوي في الحصول على الحماية الفرنسية بايعاز من القنصل الفرنسي بموكادور في سرية تامة¹. بالنهاية، مسألة القيادة في مجال الحوز من حيث التعيين بدأت تسحب من السلطان وتوضع في يد القنصل الفرنسي. وكان القرب منه يُعبد الطريق نحو القيادة في الحوز، أو على الأقل يُقرب الطريق.

كشفت المراسلات الخاصة بين القواد الكبار عن حقيقة الأهالي لأداء الضرائب، القيام بالأعمال الشاقة (الكلف) أو الفرار من الفريضة...وهو رفض تأرجح بين السري والعلني. في وقت تمكن فيه التجار الفرنسيين

¹ - CDG, Compagnie marocaine, Lettre du 15 février 1907 à Lassalas.

¹ Lassalas والألمان Marx و Nier من استنزاف كل منتوجات الحوز النباتية والحيوانية (قمح - زيوت- لوز- جوز- صوف...)، وصار القواد الكبار يمونون مخازن التجار الأوروبيين في موكادور. لا غرابة، أن يبحث بعض القواد الكبار عن كسر الطوق الذي فرضه عليهم التجار الأجانب والتحرر من وصاية التجار الأوروبيين.

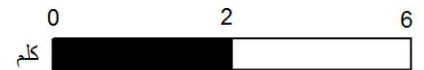
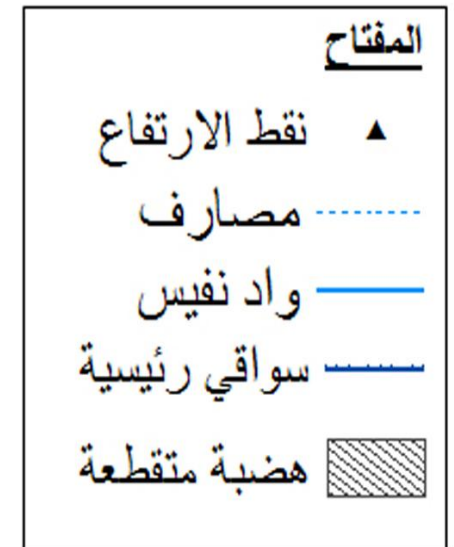
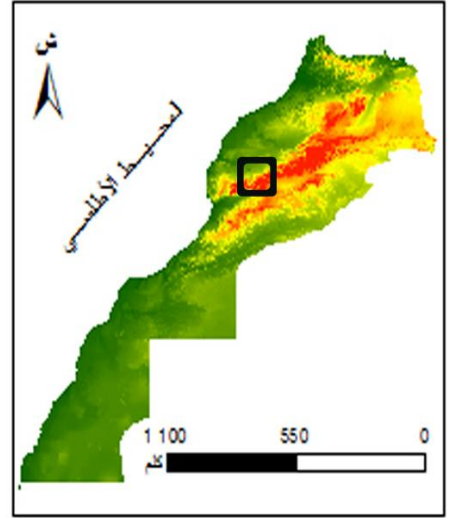
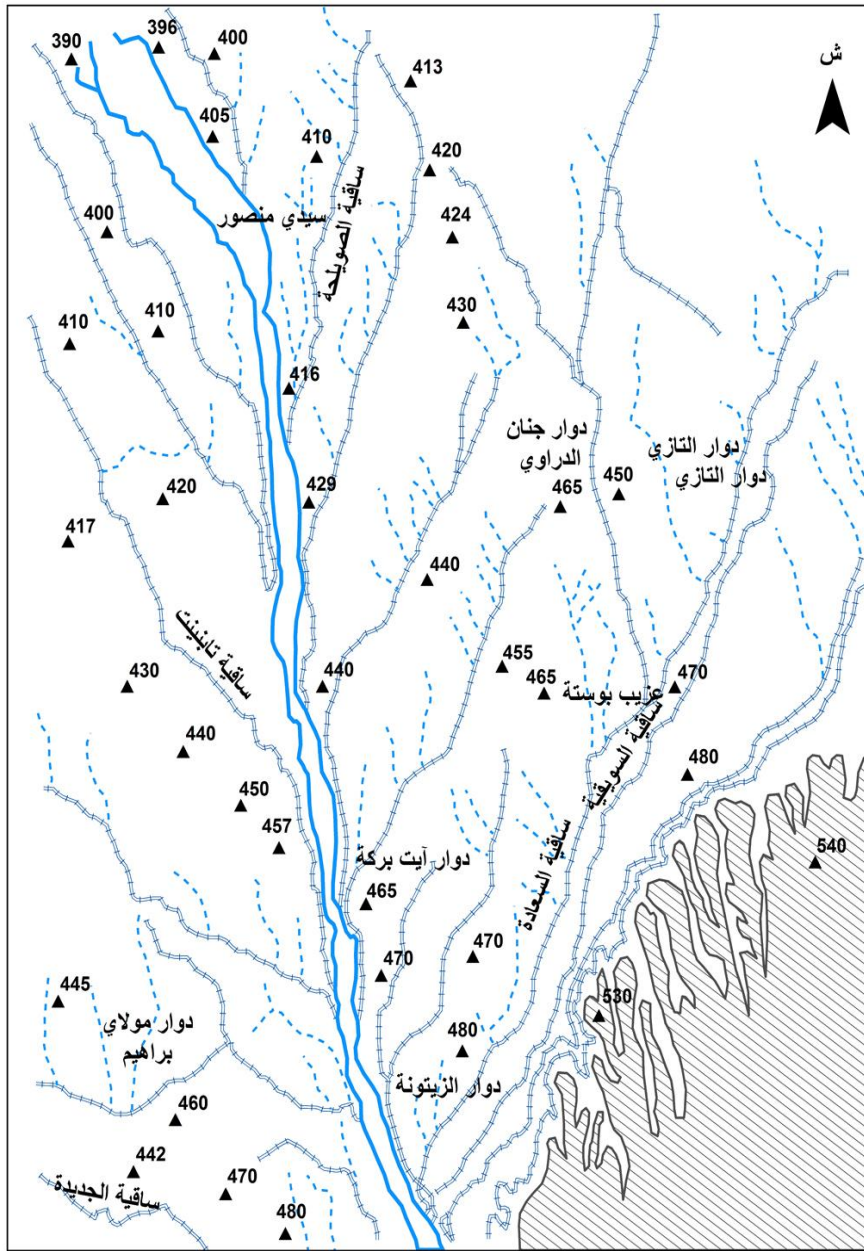
في جانب منه، يلفت التقرير النظر إلى مسألة الملكية العقارية، ما دام اتفاق مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 كان قد أكد في بنده 60 عن حق الأجانب في اقتناء الأراضي بكل أرجاء البلاد بموافقة السلطات المخزنية باستثناء ضواحي المدن. في الهوامش كان من الصعب على الأوروبي أن يشتري من المغربي، ومن هنا سيتم الاستعانة بالرعايا الجزائريين المستقرين في حوز مراكش² مثل الحاج بن عبد القادر بن الحاج الحبيب بن كير الوهراني الذي كان يمتلك أملاكاً بأيّات إيماور قرب مراكش في أكفائي³. وكانت حينها هذه الأراضي تسقى بالساقية التي تحمل اسم أكفائي على الضفة اليسرى لواد نفيس بمحاذاة أراضي أيت إيماور.

¹ Jean Danaunt Lassalas أحد أفراد البعثة الفرنسية التي استقرت في مراكش سنة 1905، حاول هذا التاجر الفرنسي الحصول على بعض الممتلكات الفلاحية في زاوية بلحول في تكنة بالحوز الشرقي، وتناقلت الصحافة الفرنسية وقتها حادثة مهاجمته من طرف رجال القائد ابراهيم بوميها وإصابته بجروح. وتم ربط هذه الحادثة بحركة ماء العينين من الجنوب نحو الحوز.

² الغنانمة بنواحي تامصلوحت، وتوجد مجموعة منهم في بوشان في الرحامنة، وأيضا أولاد سيدي الشيخ قرب واد نفيس على الضفة اليمنى وبالتدقيق بين نزالة اليهودية ونزالة نطلة، نفيت هذه المجموعة إلى المغرب بعد تكثيف الضغط الفرنسي في الجزائر.

³ أشارت بعض الروايات إلى قضية المتوكي والحاج عبد القادر بن الحاج الحبيب بن كير الوهراني، حيث قام المتوكي بمصادرة أملاكه واعتقاله، وهي قضية تناولتها التقارير الاستعمارية الفرنسية دون وجود إيضاحات كافية في الموضوع. وكان المتوكي ابتداء من سنة 1906 يحكم تكنة ومجاط ومطاع، ويصل نفوذه إلى الحدود الشرقية لواد نفيس، وبعد نكبة الكلاويين وصل نفوذ هذه الأسرة إلى الحوز كله وزمران والسراغنة والرحامنة، وجنوبا إلى سهل سوس وهوارة وشتوكة وسكتانة.

خريطة (2) : توطين شبكة السواقي فوق حادور واد نفيس¹



¹ - معطيات مستقاة من بريان محمد، بنحليمة حسن، العوينة عبد الله، قراءة وتحليل الخريطة الطبوغرافية، منشورات اللجنة الوطنية المغربية للجغرافيا، الطبعة الثانية، 1989، ص 238.

من جهة ثالثة، راهن الاستعمار الفرنسي على القوى الدينية في الحوز الذي كان مسرحا لثلاث قوى دينية (التهامية- التيجانية والناصرية). ففي الحوز تحضر التيجانية بشكل أكبر من التهامية من خلال التجار والشخصيات السياسية البارزة. وفاضل بينها وبين القواد الكبار، فشيخ الزاوية كان له تأثير جماعي وروحي، بينما القائد كان له تأثير فردي وقبلي. أدرك الاستعمار الفرنسي أن الزوايا في الحوز كانت تمتلك الرصيد العقاري والمالي (نموذج زاوية تامصلوحت) التي حافظت على ممتلكاتها وأراضيها ومياهها طيلة أربعة قرون دون انقطاع منذ 1570م¹. وتظهر حوادث النصف الثاني من القرن العشرين على وجود صراع بين زاوية تامصلوحت والمتوكي والكلاوي اللذان أرادا التطاول على ممتلكات الزاوية والسيطرة على حقوقها المائية. بالمقابل كانت الزاوية على وئام مع القائد الكندافي. والنموذج الثاني زاوية بلحول في أولاد دليم فخدة من قبائل تكنة حاول القائد ابراهيم بويهات المعين من طرف السلطان مولاي عبد العزيز اضعاف الزاوية والاستحواذ على أراضيها.

في حقيقة الأمر، يفضي التدقيق في مسألة نمط الانتاج في مجال الحوز قبل الحماية الاقرار بأن أزمة المعاش لم تكن بالشيء الطارئ على تاريخه، بل هي نتاج مسار طويل يقرأ ضمن مسار الاستمرارية التاريخية. وقد اجتهد البعض في ايجاد تفسير لها في عتاقة وسائل الانتاج، والبعض الآخر في تقلبات الظروف المناخية، وطرف ثالث في التدبير السياسي الذي جعل من الجوع سلاحا لتهدة ثورة القبائل². من جهتها، لم تستطع الماشية في مجال الحوز أن تتكامل مع النشاط الزراعي في دورة انتاجية واحدة، بل كانت دائما السنوات العجاف تطرح اشكالية توفير المياه، خاصة للأبقار التي تستهلك الواحدة منها ما بين 30 إلى 40 لتر يوميا، ويتطلب توريد 100 رأس خمس ساعات من العمل لجلب الماء من بئر يبلغ عمقه 60 مترا بواسطة وسائل تقليدية تحركها سواعد الرعاة وقوة الدواب³.

وقد يتعزز هذا القول إذا ما تم استحضار عامل المجاعات والأوبئة في تاريخ الحوز المغربي، فقد أورد أحمد التوفيق رواية نقلها عن مرابط زاوية أيت مجطن أن وباء 1879م المسمى الوباء العظيم فتك في مراكش 300 شخص في اليوم، وفقدت فيه دمنات رُبع سكانها على الأقل⁴. ونفس الأمر يشمل كل مناطق الحوز الأخرى باستثناء المناطق الجبلية. وفي إشارة أخرى نقلها رئيس البعثة العسكرية الفرنسية المرافقة لمحلة السلطان الحسن الاول الذي سجل أثناء عبوره من منطقة حاحا وجود أشخاص ميتين في منازلهم من جراء المجاعة⁵. بالنهاية، كان لهذا

¹ - يمكن العودة إلى أطروحة المازوني محمد، الزاوية المصلوحية والمخزن، تحت اشراف ابراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2002-2003.

² - أورد الحجوي في اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام أن المخزن كان يعتبر الجوع حلا سحريا وضارة نافعة لتهدة ثورة القبائل. الحجوي محمد بن الحسن، اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام، مخطوط الخزنة الحسنية، الرباط، رقم 114 ح، ص 382.

³ - Salahdine. M, Le Maroc, Tribus, Makhzen et colons, essai d'histoire économique et sociale, Edition Harmattan, Paris, 1986, p 67.

⁴ - التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912) الطبعة الثانية، 1983، ص 191.

⁵ - Nicolas Michel, op. cit, p 76- 81.

التردد الدوري أن خلق وضعية نزييف ديموغرافي حاد لم يساعد على تطور السكان، وساهم بالمقابل في خلق حركة نزوح نحو اتجاهات مختلفة عطلت من قوى الانتاج. (الشكل رقم 23)

كما يمكن قراءة الماء من زاوية ديموغرافية المجال. يسمح نموذج قبائل أيت واوذكيت بتركيب خلاصات جزئية في الموضوع، لكنها قابلة للتعميم إذا ما تم استحضار نفس العوامل المتشابهة. مع الحماية كانت هذه القبيلة تتشكل من 19 قبيلة¹. وقد سبق للقبطان ماركوي Marquilly في الشأن ذاته أن اعتبرها أثناء جولته فيها سنة 1921 أهم "تجمع بشري" في منطقة حكم القائد حمو المزواري في جنوب أطلس مراكش بكامله². كانت سلطات الحماية أن أجرت احصاء سنة 1931 في مجموعة أيت واوذكيت سُجل من خلاله تراجع سكان البلاد، حيث نزل مجموع السكان إلى حوالي عشرين ألفا، بعد أن قدر سنة 1918 بما يقرب من ثلاثين ألفا³. فهل يتعلق الأمر حقيقة بنزييف ديموغرافي يجد تفسيره في عوامل الطبيعة؟ أم بهاجس سيكولوجي دفع مغاربة الحماية إلى اخفاء معلوماتهم الشخصية عن الفرنسيين بدافع جبائي أو عسكري؟

يهيمن هذا النموذج التمثيلي في إمعان النظر في جزئية هامة عن التاريخ الديموغرافي لفترة الحماية. يتعلق الأمر، بمسألة الإحصاء. ذلك أن مجموع الإحصاءات التي باشرتها الإدارة الفرنسية في مجال الأطلس الكبير تضمنت معلومات قد لا تنطبق بالضرورة مع الواقع التاريخي، لسبب أساس، أن مصادر هذه المعطيات ظلت إلى غاية الحرب العالمية الثانية تعتمد على شيوخ وأعيان الفرق والقبائل، وتفتقد إلى شروط الدقة في احصاء السكان حسب شهادة الضابط الفرنسي دولابورط Cap de la porte des vau. نفس الاعتراض نجده عند المؤرخ الأمريكي روم لاندو الذي عاب على الإحصاءات الفرنسية غياب الدقة في جمع المعطيات. عكس ما كانت تروج له دوريات الصحافة الفرنسية وقتئذ التي كانت تتحدث عن تحسن معاش المغاربة تحت ظل الحماية بالانتقال من ثلاثة ملايين نسمة سنة 1912 إلى 9 ملايين نسمة سنة 1950.

في السياق ذاته، تنبه الضابط مايي Mallet الذي رافق حركة كلاوة ضد قبيلتي إيزناكن وإيسكتان سنة 1918 الذي أكد على قصور هذه الطريقة التي كانت تستثني كوانين الشرفاء والمرابطين وحديثي الإقامة وخدام البيوت والمسنين والمعطوبين والنساء الوحيدات والأطفال الرضع⁴... بحكم عدم أدائهم للضرائب، وعدم دقة وحدة الكانون

¹ - مجموعة قبلية تمتد أراضيها من قمم أطلس مراكش شمالا إلى جنوب جبل سيروا، ومن حدود قبيلة ورزازات شرقا إلى حدود وادي نفيس غربا. انظر: ابراهيم ياسين، التطور السكاني في قبائل أيت واوذكيت تحت الحماية تحت الحماية الفرنسية، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1999، ص 181.

² - Cap. De Marquilly, Rapport de reconnaissance au Siroua, Les Ait Waouzgult, Mission Glaaoua, S.R, 1 Novembre 1921, A.D.N. Ma. 435, p 2.

³ ابراهيم ياسين، م س، ص 183.

⁴ - Cap de la porte des vau, Les tribus berbères, op.cit., p 39.

في الإحصاء¹. فحسب ماي Mallet دائما يمكن تقدير متوسط عدد أفراد الكانون في المناطق الفقيرة ما بين أربعة وخمسة نفوس، وفي المناطق الأغنى ما بين ستة وسبعة نفوس². وبالتالي، فنحن أمام احتمال اقضاء حوالي خمس السكان من تقديرات الحماية الفرنسية في مجموعة أيت واوذكيت.

في مجال مثل الأطلس الكبير تعود الناس على اخفاء معلوماتهم خوفا من مصادرة ممتلكاتهم، أو تقييدهم في لوائح الجيش، ولم يتراجع هذا السلوك إلا بعد أن عمدت سلطات الحماية إلى توزيع السكر حسب الكوانين خلال الحرب العالمية الثانية. هكذا، توصل الباحث المغربي ابراهيم ياسين في دراسته لنموذج أيت واوذكيت إلى أن سكانها طوال نصف قرن تقريبا تراوح منحى التطور فيها بين التراجع البين وبين الزيادة البطيئة، وفي الوقت الذي أكد فيه على دور الحضور الفرنسي في التخفيف من أثر العوامل السياسية الطاردة للسكان دون القضاء عليها بشكل نهائي، وضع دينامية هذه المجموعة أمام عامل حاسم في التطور (عامل الهجرة)، كما أن الجهود الفرنسية لم تستطع تقليص نسبة وفيات الأطفال والتقليص من حدة موجات الجفاف أو ندرة المياه³.

تسمح هذه المعطيات بتركيب خلاصات مفتوحة حول الموضوع، حيث يمكن ربط تطور السكان خلال زمن الحماية بعاملين: عامل أول يرتبط بقوة الزيادة الديموغرافية من جهة، وعامل ثان يتحدد في تعدد الزوجات والتفاخر بكثرة البنين⁴. وحينما نعلم أن الحماية كانت تسعى إلى توفير ثروة بشرية لمواجهة ما كان يحيق بالبلاد من أوبئة وجوائح وأمراض⁵ تكون الصورة أكثر وضوحا في تفسير مرحلة التطور الديموغرافي البطيء.

والحال، قد يعتز البعض على محدودية هذه المجهودات، مادامت كان تصب في توفير ثروة بشرية يمكن توظيفها في المشاريع الاقتصادية والعسكرية كما يستفاد من خطاب هوبير ليوطي إلى مدير ديوانه العسكري بمناسبة قدوم الأطباء إلى المغرب: "...يجب أن نترقب مضاعفة السكان مرتين أو ثلاث مرات... وأن على سكان المغرب أن يصبحوا عشرة ملايين في ظرف ثلاثين أو أربعين سنة..."⁶. لكنها هيأت شروطا جعلت المغاربة يقتنعون بالنزوع نحو التمدن لامتنعاص الأعداد الكبيرة الوافدة من البوادي. وبقدر ما زودت الحماية المغاربة بوسائل التكاث، بقدر ما لم تزودهم بوسائل التنمية.

¹ - وحدة الكانون قد تصلح لإحصاء السكى أكثر مما قد تصلح لإحصاء السكان وفق ما أشار إليه دي لابورط De la porte des vaux في دراسته لقبائل سوس الأعلى، وكان قد أشار إلى أن خمس عدد سكان غير خاضعين لأداء الجباية.

Cap de la porte des vaux, Les tribus berbères, op.cit., p 34 .

² - Mallet, Opération de Harka chez les Zenaga et Sektana et tournée de reconnaissance en pays Glaaoua, mars- juin, 1918, S. H. A. T, p 32.

³ - ابراهيم ياسين، م س، ص 189.

⁴ - رويان بوجمعة، بعض جوانب الوضعية الديموغرافية إبان فترة الحماية، مجلة كتانيش، كلية الآداب وجدة، 1999، ص 211.

⁵ - نفسه، ص 224.

⁶ - Lyautey et le médecin, Edit Maroc, Médical 1954, p 27-56.

III- الاستوغرافيا الأجنبية: رؤية جديدة:

1- الاستوغرافيا المغربية: الوعي بالذات واستمرار التقليد

الاستوغرافيا من حيث النشأة والتطور مُحصلة مسار طويل من التجاذب والتجارب، من الاستمراريات والقطائع، من التراكمات والانقطاعات، من الفعل ورد الفعل، من التأمل والتساؤل حول بنية الانتاج التاريخي...وعبر هذا المسار المتعدد تحضر المعرفة التاريخية كتفكير، ككتابة، كصناعة، وكرهان للتجاوز ضمن مشاريع مجتمعية نهضوية، وأحيانا كخطاطات ديداكتيكية تعمد إلى تجسير فجوة التفاوت بين الممارسة العالمية للتاريخ والممارسة المدرسية لمتلقي التاريخ.

كل بحث في المسار الاستوغرافي لتأليف تاريخي معين، وجب أن يتقيد بترسمية منهجية تُسائل ثلاث مُوجهات للعمل التاريخي:

❖ أولاً: بنية المصادر من حيث حالتها واستعمالاتها في سياق مأسسة الأرشيف وتسهيل الوصول إلى الذخائر والمضان التاريخية، ومن تم تعميق الوعي الاجتماعي بالوثائق وأهميتها في صيانة الذاكرة الجماعية؛

❖ ثانياً: من حيث المناهج وتقعيد ممارسة مغربية حول انشغالات تاريخية كبرى مثل اشكالية التحقيق، حقول البحث، واجرائية المفاهيم والمصطلحات...؛

❖ ثالثاً: من حيث أورش البحث التي تجمع الباحثين في التاريخ، سواء داخل المدار الأكاديمي أو خارجه. سبق لمؤسس الحوليات الفرنسية لوسيان فيفر Lucien Febvre أن اعتبر البحث في الاستوغرافيا كقاطرة تتوقف في محطات للمرور، بيد أنها لا تتوفر على محطة للوصول، نفس الفكرة نجدها عند المؤرخ عبد الله العروي في حوار مع مجلة الوحدة غشت 1986، حينما قال "...كل مشكل تاريخي يتجدد طرحه بطرح التاريخ نفسه، ولا يمكن قول كلمة أخيرة فيه" حيث تنهض الأجيال تواقفة إلى الأخذ بناصية ماض ظل دون مستوى الإدراك المتمكن.

تعدو الاستوغرافيا من حيث هي عملية تأريخية إعادة بعث لقضايا الماضي في قوالب جديدة، وفق سجل إشكالي ومفاهيمي، تصنعه الأجيال التي هي في حاجة إلى التاريخ كماض، والتاريخ كذاكرة جماعية، والتاريخ كأفق للتحرر والانعتاق.

من يقرأ تاريخ المغرب بقليل من النباهة تستوقفه تحاليل تاريخية تمت مقاربتها عن طريق التقليد والتواتر، حتى لكانها صارت قلاعاً ممتنعة عن الإدراك من فرط تكرارها، إن لم تكن رافضة من حيث العمق للاندماج ضمن النسق التاريخي. المسألة تتلخص عملياً في وجوب المزاجية بين ثنائية الحدث والبنية، بين التاريخ كسرد والتاريخ كاستوغرافيا. وأساساً بالانتقال من المجادلة الوطنية نحو النقد التاريخي الموضوعي والتفكيك المعرفي...لأن المسألة في النهاية هي مسألة مفاهيم، كما يلح على ذلك بول فاين Paul Veyne وهذه المفاهيم هي التي تميز التاريخ عن الوثائق، وتجعل المؤرخ ينشئ لغة مغايرة عن لغة الاخباري، ويقترح عوالم أحوال المعاش، أو ما يُعرف في

الاستوغرافيا الأوروبية بالحضارة المادية، وما يرتبط بها من حركات امتداد، وظواهر انحسار، من أزمات مزمنة وحلول متكررة...هذا إذا سلمنا شرطا بأن الماضي البشري يُخلف أسئلة تتجاوز صناعة التاريخ وحده، نحو حقول معرفية أخرى، وأن عملية التركيب/ التآلفة تستوجب التحيين والانفتاح والتناهي إن أردنا أن يكون لها جدوى.

يعكس الانتاج الاستوغرافي المنجز عن تاريخ المغرب عن رغبة خفية في تضخيم تجارب وحجب أخرى، في رفع قضايا إلى السطح، وطمع أخرى في الدهليز، مع نزوع تعميمي واضح نحو سحب الأنموذج الخلدوني على كل التجارب الوسيطية، ومحاولة سكه في قوالب جاهزة، مثلما حدث مع الأنثروبولوجيا الأنجلوساكسونية بعد الاستقلال في قبوله تاريخ المغرب ضمن ترسيمة التحليل الانقسامي...لربما بسبب تأخر عملية التدوين التاريخي التي تمت في العصر المريني، أو بسبب قضية المسافة بين لغة المصادر الاخبارية ولغة الواقع الموصوف (تأخر التدوين التاريخي).

السؤال الحارق الذي يطرح من داخل حصيلة التأليف التاريخي هل تبلورت عبر تاريخ المغرب بامتداد حقبة وتنوع لحظاته هوية المغرب الأقصى عبر علاقات التبادل والصراع مع كيانات متعددة في بقية بلاد المغرب وبلاد الأندلس، أو عبر مسلسل الانتقال المعقد من فسيفساء الكيانات السياسية المحلية نحو مستوى الدولة المركزية؟ إذا غيرنا زاوية النظر باتجاه الميدان، ميدان تاريخ المغرب، ساهم اختلال ميزان القوى في عرض البحر الأبيض المتوسط مطلع العصور الحديثة، في انسحاب الدولة من البحر نحو تجارة القوافل وغزو السودان؛ مع ما رافق ذلك من احتلال ايبيري للشواطئ المغربية، وعودة الأجنبي إلى الساحل المغربي، مقابل استسلام الدولة أمام القوى الاستعمارية وظهور زوايا الجهاد...كل ذلك هيا وضعاً ذهنياً مغرباً اتسم بالإحباط العام والتنكر للذات الجماعية، وبلور معتقدات تتصل بظاهرة المهودية، وما يندرج ضمنها من انتظار عودة الإمام وقرب الساعة كتمثلات رمزية تشكلت في حضان التاريخ المغربي.

في الأساس، تاريخ الاستوغرافيا الأجنبية في منجزه النهائي يعكس حالة اللااطمئنان، حالة القلق وعدم الارتياح، الارتياح والشك الدائم، أو لنقل بوصف أدق، حالة تبلور المنعطفات النقدية، من موضوعات لأخرى، من حقبة إلى حقبة جديدة، من البحث في التاريخ كمتن، إلى البحث في التاريخ كخطاب وكممارسة، من التاريخ كمادة إخبارية إلى التاريخ كبناء إشكالي...إنها مساءلة متواصلة يمارسها المؤرخ لأدوات اشتغاله، لمصادر معطياته، لخلاصاته واستنتاجاته، لحصيلة مسار البحث حول قضية تاريخية ما يستدعيها الراهن البشري.

يظل أبسط تعريف يمكن أن يُقدم لمفردة الاستوغرافيا، بأنها تلك العملية المنهجية الوصفية التي تتبع المتن المصدري بمختلف مستوياته وتجلياته، لكشف ما يعتمل في زوايا الإهمال التاريخي، قصداً أو سهواً، بوعي أو بدونه، من أجل تعميق أساسيات المعرفة حول الانسان والمجتمع وتضاريس الذاكرة.

ضمن هذا الإطار، مؤرخ الاستوغرافيا مثل حاطب ليل، يقف على شفا جُرف، يستطيل على أعراض الناس تعصبا أو جهلا، أو اعتمادا على نقل ما لا يوثق به على حد توصيف المؤرخ محمد الصغير الافراني، همُّه أن يبعث الأحداث من مرقدتها، وأن يعيد ترصيص الحادثة التاريخية، وفق منطق نسغها المرجعي، دون تجني في الاسقاطات، أو تسرع في التأويلات...إنه عمل أشبه بالدائرة، دائرة مفتوحة ومغلقة، دائرة بقدر ما تنهل من نفس المرجعية التاريخية، من نفس القيمة العلمية، من نفس الحس التاريخي، بقدر ما تظل سجينة قراءتين: قراءة وصفية إيديولوجية خارجية كولونيالية، وقراءة محلية وطنية هوياتية تعمد إلى مغربة التاريخ وتحريره من إसार الرؤية الاستعمارية. أَلَمْ يسبق لعبد الله العروي أن عبر عن ذلك بالقول: "...من سوء حظ المغرب أن تاريخه كتبه لمدة طويلة هواة بلا تأهيل، جغرافيون أصحاب أفكار براقة، موظفون يدعون العلم، وعسكريون يتظاهرون بالثقافة، ومؤرخو الفن يتجاوزون اختصاصاتهم، وبكيفية أعم مؤرخون بلا تكوين لغوي، يحيل بعضهم على الآخر، يعتمد هؤلاء على أولئك، وتحبك خيوط مؤامرة لتفرض الافتراضات البعيدة كحقائق مقررة..."¹.

فهل تُعبر الحصيلة الاستوغرافية من حيث منجزها الكمي والنوعي عن أزمة في الموضوع أم أزمة موضوع؟ وإلى أي حد يمكن الاستناد على الكتابات الكولونيالية في وسم حصيلة تاريخية علمية تتعالى على منطق السجل نحو منطق الاحتكام إلى الواقع التاريخي؟ والحال، أن مسألة التراكم هذه تطرح أسئلة فارقة في رحي البحث التاريخي أمام تُخمة النظريات وتجدد اجتماعيات المعرفة، وصراع التأويلات...يشير أصحاب الاختصاص بنوع من التدقيق ههنا إلى أزمة المنعطف النقدي، إلى أزمنة القطائع المنهجية، بما هي مسألة دائمة لصناعة التاريخ.

صحيح أن القطيعة لا تعني بشكل من الأشكال التجاوز، بقدر ما تعني فقط تغيير زاوية المعالجة، مقياس الملاحظة، فرضيات التناول، وشبكات التحليل، فهل ينهض هذا قولاً على أن البحث في التاريخ راهنا في طفرة استئساد منظومة اقتصاد السوق وتسليع حقل العلوم الانسانية والاجتماعية نحو منحي براغماتي واضح على عتبة الشيوخوخة؟ أم أن هذه الشيوخوخة إن صحت لا تعدو أن تكون محض أعراض مخاض ولادة جديدة، لربما قد تفرز اتجاهها جديدا في أدوات البحث وطرق التساؤل يساير أزمة المنعطف النقدي؟

تسعى الاستوغرافيا إلى محاولة البحث في ميلاد الصورولوجيا المغربية، وهي تبحث في كتب الرحلات الأوروبية على الأقل منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي في صيغتها الفرنسية، عن ما سماه جغرافي الحماية وقتئذ جورج هاردي G. Hardy بالبحث عن "روح المغرب"، تلك الروح التي استهوت فضول الأوروبيين، كما هو حال روح الشرق، بل وهيات بوعي أو من دونه في ولادة الصورولوجيا المغربية.

الخطاب الكولونيالي في المحصلة استجماع لسجل كثيف من الانطباعات الذاتية والكشف الميداني بحس مغامراتي استند على دهشة اكتشاف عناصر المغايرة الثقافية. ففي عملية السرد الاثنوغرافي تبرز الاستعمالات

¹ - العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، م س، ص 7.

اللفظية والبناءات التعبيرية التي تُضفي على النص الاثنوغرافي لمسة تصويرية جذابة. يتخذ السرد الاثنوغرافي شكل كاميرا أو آلة تصوير تُسجل بدقة متناهية كل ما يدخل في حقل العدسة. ولئن تضمن هذا الخطاب جانبا عظيما من الانطباعات الشخصية فيما يتصل بالإحساسات والمواقف إزاء الموصوف والمرئي، فإن الرحلة الكولونيالية لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الرحلة إذا خلت من معطيات ذاتية، وإلا صُنفت ضمن الدليل الجغرافي والإثنوغرافي.

من زاوية التأصيل، ترد كلمة استوغرافيا عند تعريف المدرسة الألمانية للتاريخ على أنها "علم كتابة التاريخ"، وعند المدرسة الفرنسية بـ "الدراسة المنهجية لتطور الكتابة التاريخية". وبين التحديدين، نقرأ عند العروي: "الاستوغرافيا تحيل على مجموعة ما قيل وما كتب حول موضوع معين، وتسمى أحيانا أدبيات الموضوع..."¹.

نزولا نحو ميدان تاريخ المغرب، لا يزال البحث في الأثر التاريخي يتحرك بمقتضى نوازع الذات، انتماء لمجال، قبيلة، زاوية، أو رغبة لتأكيد تفوق، أو تبرير موقف، وأحيانا، عند البعض تشوفا نحو تناظر هوياتي مع تأليف أجنبي. مقابل ذلك، يظهر مسعى استوغرافي آخر، يركز على ضرورة تقديم قراءة جديدة، رؤية جديدة تتجاوز الفهم التقليدي للأثر التاريخي. ينطلق هؤلاء من خلفية واضحة: كلما تعمق البحث في الأثر كلما تم تعديل بعض القضايا بإدخال عنصر جديد في الفهم، أو بإعادة ترتيب عناصر الحركة التاريخية.

بعد مرور تقريبا ما يفوق ستة عقود من تأسيس الجامعة المغربية يظهر أن فتوح التاريخ الجديد لم تستثمر إلا على نطاق محدود، ولم يتطور التاريخ كمعرفة نقدية داخل المجتمع كما يقول جوفري براكلو G. Barraclough في سياق مقارن². ويظهر أيضا، أنه لم يحدث الانتقال بالتاريخ بوصفه مصفوفة وقائع وحركات إلى وصفه درس اجتماعي مفتوح. كل قراءة استوغرافية جديدة لما حدث يجب أن تنطلق من بداهة أن الماضي يجب أن تنأى بنفسها عن اعتبارها تجربة معرفية بريئة أو محايدة³. لكونه كما يقول أحمد التوفيق- أي التاريخ- يرتبط سعيه بإدراك سيروية التطور واستكشاف منحنياته ومحاولة تفسيرها واستخراج ما قد يشبه في النهاية قواعد أو قوانين تحكم هذا التطور⁴.

كان من الطبيعي في البدء أن تواكب لحظة الاستقلال ظهور استوغرافيا مغربية ناشئة تتدثر بهوموم وطنية واضحة، وتعتمد إلى ترميم الشخصية المغربية الجريحة، لكنها بدت أكثر تأثرا بالاستوغرافيا الغربية بشقها البورجوازي أو الماركسي. وحتى على مستوى النظر إلى الزمن لم تخرج عن القوالب الزمنية المألوفة التي صاغها

¹ - العروي عبد الله، مفهوم التاريخ، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 23005، ص 97.

² - Barraclough. G, L'Histoire, in Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales et humaines, t 1, Mouton, édition Unesco, 1978.

³ - التوفيق أحمد، في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1440 هـ - 2019 م، ص 7.

⁴ - التوفيق أحمد، تاريخ المغرب في القرن 19 م: أفكار في التحقيق، مجلة المشروع، العدد 9، 1988، ص 13.

التأليف الأوروبي. من هنا قد نفهم، لماذا توجه البعض إلى كتابة التاريخ المحلي؟ يتعلق الأمر، برغبة في التفكيك من أجل إعادة البناء، وبالأساس، من أجل تجديد فهم التاريخ الوطني.

تسمح معاينة التأليف التاريخي بفرز أربعة أغلفة بحثية متقاطعة:

✓ الغلاف الأول: الاهتمام بالقضايا والإشكالات، وتغليب التحليل على الوصف، وتهميش الأحداث السياسية مقابل التركيز على الحركات العميقة الموجهة للفعل التاريخي؛

✓ الغلاف الثاني: البحث عن قواعد لبناء تاريخ وطني حقيقي من خلال تغيير زاوية المعالجة، من النظر إلى الماضي في إطاره الوطني، إلى النظر إلى الماضي في إطاره المحلي؛

✓ الغلاف الثالث: تحويل مجرى الاهتمام من التاريخ الحدثي إلى التاريخ الاجتماعي، والرغبة في إيجاد افتراضات تاريخية لإشكالية القطيعة والاستمرارية في تاريخ المغرب؛

✓ الغلاف الرابع: انفتاح البحث التاريخي على مناهج وتقنيات التاريخ الجديد.

على مستوى علائقي، تكاثفت خلاله العلاقات المغربية مع باقي الأقطار، وتصادم بنيات الانتاج؛ انتاج رأسمالي أفرزته تطورات الحضارة الأوروبية، وانتاج قبل رأسمالي محلي. وفي إطار هذه التحولات العامة، نشأ نقاش حول القبيلة الجبلية، هل يعكس تاريخها تاريخ الأزمة في البلد ككل؟ هل تقاطعت مستوياتها مع واقع التحول؟ هل ظلت خاضعة لنسق مغاير لا يربطها بالتحول العام؟ الواقع، تسمح هذه الحدود التحقيقية بتبني المنهج الترابطي الذي يسمح بإعادة توضيب صورة المجتمع المغربي في فترة التحول، مثلما تسمح بالوقوف عند العنف التأثيرات العسكرية والاقتصادية التي ساقها الحضور الأوروبي. فترة طعت فيها العوامل الخارجية على العوامل الداخلية. الأهم، أن هناك فوش جديد قد بدأ، قد يختلف في شأنه، بين 1792 أو 1830 أو 1844 أو 1856 أو 1860، لكنه يظل تحول حاسم.

فرض الموقع الجغرافي على المؤرخين المغاربة ضرورة ربط وقائع الخارج بوقائع الداخل. هناك من يعود بذلك إلى زمن ابن خلدون الذي تفرس ملامح التحول. وبهذا يكون المغرب الأقصى قد ولج العصر الحديث بحركة معكوسة، فعوض أن ينخرط في تحولات الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط كان أول ضحية لها: خنق اقتصادي وتشوف نحو الجنوب، وتوجه جماهيري نحو التصوف الشعبي وارجاع الشرفاء إلى الحكم... لكن في العموم ظل البلد قادرا على التكيف مع ظروفه، محافظا على استقلاله حتى وإن شعر بعمق التحول. ظلت المؤسسات الداخلية تعمل على محاكاة عهد الازدهار الأول¹. منذ ذلك الوقت، فرض على المغرب أن ينكفى على ذاته، ويظل محافظا على

¹ - التوفيق أحمد، البحث التاريخي في المغرب، مجلة دراسات مغربية، العدد 19، 2005، ص 7. قدمت هذه المساهمة في سياق ورقة ضمن فعاليات الأسبوع الثقافي المغربي بالرياض، بتعاون مع مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء، ومكتبة الملك عبد العزيز بالرياض بتاريخ 18 نوفمبر 2000.

قواعده المرعية في تدبير توازناته وعلاقاته بين الملوك والعلماء والصلحاء والشرفاء وأعيان القبائل والشيوخ¹. وفي اللحظة التي تجدد فيها الضغط الأوروبي وعاد فيها الاحتدام العسكري ظهروعي اصلاحي حذرياً أخذ بوسائله المادية ويتحفظ على تبعاته الثقافية.

نقرأ في مصفوفات الاستوغرافيا المغربية لتلك اللحظة عبارات تحيل على صدى التحول: ترويع الضمائر، زعزعة المؤسسات، اختلال البنى، مراجعة الأحوال، تبدل المعاش، التفكير في الإصلاح²... الثابت، أن الانتقال من مرحلة المواجهة الدفاعية إلى مرحلة النقد الذاتي إلى مرحلة الانفتاح والميل إلى الاقتباس كان قد حسم وجهته بلا عودة، وترك في المقابل فئة لا تزال لم تستوعب عمق التحول التاريخي.

أ- الاستوغرافيا المغربية: معاينة من الداخل

الاستوغرافيا المغربية تحفل في مضانها ومتونها متواليات من أنسجة الخطاب التاريخي، تتحدد في ترسيمة مشكلة من ثلاث مواقف: استوغرافيا المحاباة، استوغرافيا المعارضة، استوغرافيا الاعتدال... ففي الوقت الذي حرصت في الكتابة التقليدية المحلية توظيف انتاجها لتجلية كل التدابير التي استهدفت إظهار عظمة السلطان، نجد الكتابة الأجنبية لا تروم تقديم صورة واحدة، وإنما عدة صور عن المغرب تترجم أبعاداً مختلفة ومتداخلة أحياناً. وهي عموماً مواقف تغدّت على التحيز السياسي والتعصب المذهبي الذي طبع تاريخ السلالات الحاكمة في سياق التدافع حول السلطة التي يمكن استعراضها في ثلاثة خطابات:

✓ استوغرافيا المحاباة:

يُشير مولود عشاق في كتابه "تاريخ المغرب وإشكالية المصادر" إلى نموذج محمد بن أحمد الكنسوسي، صاحب كتاب "الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي"، كمصدر تاريخي كُتب في بداية القرن التاسع عشر ينتمي إلى ما يمكن أن توصيفه بـ "استوغرافيا المحاباة"، ألّفه رجل مزج بين صناعة الإنشاء وسلطة الوزارة في العهد السليماني. يقف قارئ الكتاب عند عبارات المديح والثناء، على فيض من عبارات التلّف، وسيل من كلمات التقريظ والمديح في حق رجالات البلاط العلوي، لأولئك الذين وصفهم صاحب المقدمة بـ "صانعي وسائل المعاش"، أو "مالكي وسائل الإكراه والنفوذ" بلغة السوسيولوجي الألماني ماكس فيبر.

يُجزل الكنسوسي في وصف مآثر وأعمال رجال البلاط بأرق العبارات، وأعذب الكلمات، مبرراً مساوئهم وجرائرهم وانحرافاتهم بأقوى الذرائع وأشدّ الأعذار، بل ومُبخساً مآثر ومنجزات غيرهم بأشدّ لسان وأقبح كلم. من ذلك قوله "...لو شاهد المنصور الذهبي سورا واحداً من أسوار مولاي اسماعيل لعلم أن ما أفنى فيه عمره من ذلك المنزل

¹ - التوفيق أحمد، في تاريخ المغرب، م س، ص 24.

² - التوفيق أحمد، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1983. ص 238.

المسمى بالبديع إنما هو في التمثيل كدار إبليس التي تباع في عاشوراء ويلعب بها البنات، ولا تحتاج المشاهدة لإقامة البنات.

لا ضير أن نعتبر نموذج الكنسوسي ترميزاً لذهنية استوغرافية بلاطية، رغبت في امتلاك الزمن السياسي واحتكار أنسجة متوالياته. كان همّ الكنسوسي أن يفرض سردية تاريخية مخصصة على واقع يثوي داخله معالم الانحطاط، داخل مركب مهالك تتلاطمه الأمواج من كل حذب وصوب: بنيات اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية عتيقة ظلت تعيد انتاج ذاتها باستمرار، واقتصاد زراعي مبني على قاعدة الكفاف وهشاشة التراكم، على القلة والمعاوضة من ناحية، ومجتمع قبلي خضع فيه الفرد خضوعاً مطلقاً لتقاليد الجماعة، وسياسة تقليدية مبنية على احتكار عمودي للسلطة، وتفكير ديني أحادي هيمن عليه الفقهاء من ناحية موازية، مقابل ظرفية دولية كانت تعرف ارتفاعاً أروبا كقوة كاسحة تلتهم الضفة الجنوبية من الحوض المتوسطي التهاماً، بمفاهيم الرأسمالية والعقلانية والتقنية ...

ألم يسبق لمؤلف مؤرخو الشرفاء الفرنسي ليفي بروفنصال أن نفى عن الكنسوسي صفة المؤرخ قلباً وقالبا؟ وهو يومز بالقول عنه: "بأنه لم يكتب التاريخ إلا ليمدح ويتزلف". نسوق مثالا ثانياً من ضمن أمثلة عديدة وسمت مسار الاستوغرافيا المغربية الوسيطية، من خلال نموذج ابن القطان المراكشي في منتصف القرن السابع الهجري، صاحب نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان...

✓ استوغرافيا الاعتدال:

يكاد يكون كتاب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلفه المجهول، الصادر بحر القرن السادس الهجري زمن حكم الموحدين أول محاولة "مونوغرافية" عن تاريخ الحواضر الوسيطية في الغرب الإسلامي، استناداً إلى قوله: "...جمعت مما كان فيها من الأحداث الكبار، والوقائع ذات الاعتبار، من لدن نزول سكانها، واختلاط بقعتها، ومكانها وابتداء تسويرها وبنائها، وذكر الباعث لاتخاذها مقراً لسلطانها".

حاول مؤلف الحلل الموشية أن يستجلي أخبار عاصمة الموحدين، وإن كان في العمق، هذا الكتاب يطرح علامات استفهام عديدة حول منشأ تأليفه، هل هو عن دولة الموحدين؟ أم تأريخ لعمق الصداقة التي ربطت صاحبه بالغني بالله ملك غرناطة.

غرضنا من تأليف هذا الكتاب "الأغضاء عن العورات، والتستر عن الفضائح"، بهذه العبارة يتوشح المؤرخ الافراني بميسم الاعتدال ضمن نسيج الاستوغرافيا المغربية، نموذج المؤرخ الذي يشترط رقابة ذاتية على سرد التاريخ، بتعبير أكثر اجرائية. فمسؤولية المؤرخ في عُرف الافراني تستلزم تععيد معرفة تاريخية تنحرف عن سكة الغلو في الآراء، والتجني في الأحكام، تأسيساً واقتداء بمن سماهم وجيه كوثراني بـ "...رجال الاعتدال الذين لا يسبون ولا يلعنون ولا يفسقون ولا يكفرون..".

يتزيا الافراني بعباءة المؤرخ الذي يصدف عن العورات والفضائح، ويتجنب هتك الأعراض، وذم الأشخاص، رعيًا لجانب السلطة. لقد اعتبره ليفي بروفنصال من الكتاب الذين يحظون بكامل الثقة والتقدير.

✓ استوغرافيا المعارضة:

يمكن تلمس اتجاه ثالث في منجز الاستوغرافيا المغربية، ضمن ما يمكن أن نطلق عليه بـ "استوغرافيا المعارضة". صحيح أنها تعكس رؤية مضادة لسرديات التاريخ الرسمي، بمنزع إيديولوجي واضح، تحاملات مجانية، تصفية حسابات سياسية، أو قناعات إيديولوجية مذهبية... لكنها تؤشر عن ولادة جنس استوغرافي جديد، استوغرافيا سجالية، تصادمية... فضل أصحابها حجب أسماءهم وهوياتهم، مخافة أن تطالهم مقصلة السلاطين. في ميدان تاريخ المغرب، بصمت حالات معدودة هذا الأفق في التأليف، خارج إجماع أهل الحل والعقد. يأتي في طليعة هؤلاء مؤرخ الدولة السعدية المجهول، الذي أرخى العنان لقلمه في تسويد تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، فسجل فيه أمورا شنيعة، وأخبارا فظيعة، تفيض بأشد نقد، وأحد لسان، وصلت به إلى مرتبة تخوين وتجريح سلاطين الدولة السعدية، والحط من قدرهم، وإخراجهم عن جادة النسب الشريف، ووصف دولتهم بالدولة الخبيثة.

شن المؤرخ المجهول حملة شعواء على السلطان محمد الشيخ السعدي، كال له أقبح النعوت وأحط الأوصاف، ما يجعل التساؤل حول الأمانة التاريخية قائما حول تأليف المجهول. بدوره لم يسلم السلطان عبد الله الغالب من سهام النقد، واصفا إياه بالخائن والمتخاذل عندما كتب إلى سلطان النصارى، واتفق معه أن يُخلي حجرة بادس، ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين حتى يسكنها النصارى "...فأنت النصارى بالعمارة إلى الحجر، ونزل المسلمون وسكنها النصارى برأي السلطان الفاسد..."، مضيفا أنه سليل فساد والده، يزني بنساء عمه، وجواري جده، يسكر رمضان جهارا مع خدامه.

تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية تأليف تنطوي أحداثياته على قدر عظيم من الأهمية التاريخية، إذا ما وضع في سياق تدافع السرديات بتعبير المؤرخ الأمريكي هايدن وايت، يثوي أخبارا عن تاريخ المغرب الحديث زمن السعديين، بل ويشكل علامة فارقة في التأليف المغربي، انطلاقا من استثماره لمرويات الرواية الشفوية، وعله ما يعطيه قيمة متميزة عن الكتابات التاريخية الأخرى التي تناولت تاريخ المغرب على عهد الشرفاء السعديين.

ب- ابن زيدان: تاريخ وطني # تاريخ استعماري

في لحظة التحول جرى تصادم مرجعيتين استوغرافيتين، تأليف مغربي في مواجهة تأليف استعماري، الأول ينطلق من الذات في كتابة تاريخ وطني¹، والثاني يتحرك من منطلق تشويه الحقائق وتبرير مشروع الغزو. يمكن أن

¹ - يدخل ضمن هذا التأليف التاريخي خلال هذه الفترة: القاضي عباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، بوجندار محمد، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، السوسي المختار، المعسول (20 جزء).

نأتي في هذا السياق بتجربة المؤرخ عبد الرحمان ابن زيدان (1878- 1946). واضح أن قراءة هذا الانتاج التاريخي تدفع نحو تشكيل الفكرة التالية: اظهار المفاهيم على حساب الوقائع؛ وتحصين الذاكرة من الغزو الأجنبي لإعادة بعث جوانب من الشخصية التاريخية المغربية¹. تظهر هذه الرؤية في ثنايا الكتب التاريخية التالية:

اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس²؛

الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة؛

العز والصولة في معالم نظم الدولة؛

المنزعة اللطيفة في مفاخر المولى اسماعيل بن الشريف؛

النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية.

ويمكن أن نجد نفس الرؤية في كتابات ابن زيدان ذات المنزعة الفقهي، مثل "تبين وجوه الاختلال في مستند اعلان العدالة لثبوت الهلال"، و"قراصة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان" وحتى في الدواوين الشعرية "قوت الأرواح في مديح زين الملاح" و"كفاية المحتاج في مدح صاحب اللواء والتاج" و"بغية المستهام في مدح خير الأنام".

الحال، لا يمكن أن نعزل الانتاج التاريخي لابن زيدان عن سياقه البيوغرافي. ابن زيدان سليل الأسرة العلوية، حفيد السلطان مولاي عبد الرحمان من والدته، تلقى تربية الأمراء، وتخرج من مدارس الفقه في مكناس، وانتقل بعدها إلى جامعة القرويين في فاس لينهل العلم على لسان مشايخها مثل أحمد بن الخياط الزكاري ومحمد بن جعفر الكتاني والشاعر أحمد بن المامون البلغيتي...تجميع هذه التفاصيل البيوغرافية يُسهل عملية فهم ذخيرة الوثائق التي حوَّزها ابن زيدان لكتابة تاريخ المغرب (ظهائر- رسائل سلطانية- سجلات مخزنية...) وهو وقتئذ يشغل منصب المدير العربي في الأكاديمية العسكرية في مكناس.

أنتج ابن زيدان مشروعاً تاريخياً ظل ينهل من مرجعية المؤرخ التقليدي؛ ويستثمر الإرث المكتسب في منهج الكتابة التاريخية الإسلامية. مشروع له نقطة انطلاق، وله نقطة انتهاء، ينطلق من مكناس وفاس لكتابة تاريخهما السياسي والفكري والإداري والمعماري في شكل دائرة أولى، وتاريخ الدولة العلوية في شكل دائرة ثانية. لكنه مشروع يُظهر ميزة خاصة، كونه وظف وسائل ايضاح جديدة غير مألوفة في مصفوفة التأليف المغربي (صور الأشخاص والمآثر وصور الوثائق) وفهّرس تفصيلية عن المادة التاريخية.

¹ - اجمالاً ترك ابن زيدان حوالي 27 مؤلف، نصفها خصص لميدان التاريخ.

² - كتاب الاتحاف من حيث جنس الكتابة ينتمي إلى جنس التراجم، يتضمن من حيث الهندسة قاموس تراجم الأعلام والعلماء والأعيان في مدينة مكناس. ويقع في مجموعه ضمن 2700 صفحة، يورد 553 ترجمة منها 12 ترجمة مخصصة لسلطين الدولة العلوية.

ت- المختار السوسي: الأدب التاريخي أو التاريخ الأدبي

يُقدم المختار السوسي مادة تاريخية غنية عن تاريخ منطقة ظلت في الغالب الأعم بعيدة عن مراكز التأليف التاريخي، ويتعمد في سبيل ابتغاء ذلك توظيف أسلوب الاطناب لتغيير طريقة التأليف التاريخي عن المنطقة (الحضيكي والكرامي). في شأن ذلك، توصل بالتجديد في مقصد التأليف، من تاريخ بلاد جزولة إلى تاريخ بلاد المغرب ككل.

يُجسد مؤلف سوس العالمية مشروع كتابة، كتابة التاريخ المحلي، أو لنقل عتبة انتقال، من تاريخ أسرة إلى تاريخ وطن، من تخليد قرية إلغ إلى كتابة موسوعة تعنى بالأخبار السوسية¹. وعبر صفحات كتاب سوس العالمية تتضح خلفية الكتابة، كتابة تاريخ ذاتي في مواجهة تاريخ غيري. والمؤلف من حيث مقصد التأليف تجميع لأعلام منطقة سوس على امتداد ثمانية قرون (من ق 6 هـ إلى ق 14 هـ). لا يمكن أن نخرج هذا المؤلف عن حصيلة الانتاج التاريخي في منطقة سوس البالغ عدده 885 كتابا، منها:

50% في العلوم الشرعية وأصولها؛

13% في الأدب؛

2,5% في الحساب وعلوم الطبيعة؛

12% في التصوف؛

5,5% في التراجم والفهارس؛

10,5% في الرحلات؛

2,5% مؤلفات في مواضيع مختلفة باللغة البربرية².

منطق التأليف عند السوسي ارتبط بغايتين: غاية تجاوز الرطانة المحلية التي اعتبرت التأليف التاريخي عند أهل سوس، وغاية تركيز التأليف على الشروح والحواشي والمختصرات...لقد ساهم بُعد سوس عن المراكز الكبرى في ظهور الألواح التي عبّرت عن الأعراف السوسية. وتتوضح هذه الرؤية أكثر في كتاب المعسول، حيث يظهر أنه تجميع شتات اخبار العلم والدين والمجتمع والسياسة في الجهات الجزولية. والكتاب فريد في صناعته، فلا هو بكتاب وفيات، يدرج سنة الوفاة، ولا هو بكتاب طبقات يوزع المترجمين حسب المذاهب والفنون، ولا بكتاب حوليات يخلد تاريخ قريته. لقد توفّق أحمد التوفيق حينما ذهب إلى القول بأن هذا الكتاب على شكل بناء هرمي يتكون من ثلاثة

¹ - يقر المختار السوسي بأن الحسن بن أحمد البونعماني هو من أوّل إليه كتابة تاريخ سوس، المعسول، الجزء الأول، ص 23.

² - التوفيق أحمد، التاريخ في الزمن المعسول أو محمد المختار السوسي: من زمن النحوي إلى زمن التاريخ، ضمن في تاريخ المغرب، م س، ص 67.

أهرامات متداخلة يوجد في قمته الشيخ التهالي جد الأسرة الإلغية (ت 1051) وفي قمة الهرم الثاني محمد بن عبد الله مؤسس المدرسة الإلغية (ت 1303) وفي قمة الهرم الثالث الشيخ علي الدرقاوي والد المؤلف صاحب الزاوية الإلغية (ت 1328). وعبر هذا البناء الهرمي أتى المعسول بترجمة ل 480 سوسي من رجال العلم والتصوف والرئاسة.

توسل السوسي بنصب شبكة تمتد خيوطها من الشخصيات الثلاث (مؤسس الأسرة/ مؤسس المدرسة/ مؤسس الزاوية) وأقام بينهم علاقة ربط (مشيخة/ تلمذة/ صحبة/ رئاسة)، جاء محملا بمعطيات عن ازيد من مائتي مدرسة، ومعطيات عن الحياة الصوفية في منطقة سوس.

وقتها كانت معارك الحرب العالمية الثانية لم تهدأ، وكان السوسي مدرك تمام الادراك للحظة السياسية، ولقرب لحظة الاستقلال، ومن تم توجيه الكتابة التاريخية نحو التفكير في إعادة بناء الذات.

2- الاستوغرافيا الأجنبية: "من الخارج" "في الداخل".

بدأت الاستوغرافيا الأجنبية وهي تقترب من هذا الوضع المركب متسمة بنوع من "البداوة العلمية"¹ في حصيلتها العامة، على نحو ما يصفها جون فيريي نويل² Jean-N Ferrié مع استثناءات قليلة... ألّفها في الغالب الأعم أساتذة آداب، رجال إدارة وضباط عسكر، وأحيانا لغويون معربون، ومُبرِّرون برعوا في اللغة أكثر ما برعوا في الميدان. ظنوا أن معرفة المجالات القريبة قرينة الترجمة، ولكأن الترجمة في نهاية الأمر ادراك وفهم³... ما يفسر تغافل هؤلاء عن عطاءات العلوم الاجتماعية ونقاشاتها العلمية ومكتسباتها النظرية المحققة⁴، مثلما نصادف خلال المرحلة الاستعمارية أعمالا نقدية مستلهمة من الدراسات اللاهوتية في مقارنة المجتمع المغربي⁵. لطالما ردد بيير فيلار مقولة

¹ - توصيف ينفي عن أصناف الاستوغرافيا الأجنبية انتماءها إلى سجل العلوم الاجتماعية، بما تحمله صفة العلم من ضوابط (منهج، موضوع، غاية...).

² - جان نويل فيريي Jean Noel Ferrié سوسيولوجي فرنسي من مواليد 1959، اشتغل مدير البحوث في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS في فرنسا، كما شغل منصب مدير معهد الرباط للعلوم السياسية Science Po ، ومدير مختبر العلوم السياسية والانسانية والعلوم الاجتماعية في الجامعة الدولية بالرباط، من بين مؤلفاته: "دين الحياة اليومية بين المسلمين المغاربة: الطقوس والقواعد والروتين" وكتاب: "المغرب في الوقت الحاضر".

³ - فيريي جان نويل، أنثروبولوجيا المغرب، وضعيتها وأفاقها، ترجمة محمد المرجان، مجلة مؤمنون بلا حدود، أكتوبر 2019، ص 4.

⁴ - Ferrié J-N, L'Anthropologie du Maroc: situation actuelle et perspectives, Annuaire de l'Afrique du Nord 1991, CNRS, 1993, pp 1069-1077.

⁵ - يمثل هنري باصي المتخصص في المسألة الدينية المغربية هذا الاتجاه، تجسد كتاباته الدينية بالخصوص برنامج عمل البعثة العلمية في شقها اللاهوتي، نستند من أجل ذلك على هذا النص: "...ما يلزمنا دراسته بالدرجة الأولى هم السكان المغاربة، صناعاتهم وعاداتهم ومؤسستهم، وكذلك الأعراف والمعتقدات... هذا العمل ابتداء منذ زمان، فقد ترك لنا الرحالة الأوروبيون الذين زاروا المغرب نصوص أسفارهم، واعتبروا إلى حد ما إثنوغرافيين، بعدهم جاء دور العلماء، وبدأت الدراسات المنهجية لعادات وتقاليد الساكنة المغربية، وعندما جلبت الحرب المعمر الفرنسي للمغرب، انصب الاهتمام على دراسة عادات السكان وطرائق عيشهم بكيفية علمية تامة...".

Basset. H, Etat actuel des études d'ethnographie au Maroc, Bulletin de l'institut des Hautes Etudes Marocaines, 1^{er} année, n° 1, 1920, pp 130-136.

أن "التاريخ علم في طور النشأة"¹... كل تراكم حادث يجب أن ينظر إليه من شُرفة النشأة والابتداء، لا وجود لقول فصل في قضايا الماضي، كل جيل يمتلك الجدارة في أن يستدعي نوازل الماضي للمساءلة والافتحاص... لا يتعلق الأمر بمكر التاريخ كما يشاع، بل بمكر البنيات التي تفترض وجوباً حدس البنيات... ما دامت حوامل التاريخ صماء عن إظهار الأحاسيس والحركات واللحظات... قد تختفي الأحداث لكن قد تتترك خلفها ترسّخا للبنيات، إما كقطائع وإعاقات، أو امتدادات وسيرورات... هذا هو درس التاريخ الذي ألح عليه مُنظر الماركسية الجديدة لوي ألتوسير حينما دافع بقوة عن فكرة أن مفهوم التاريخ لم يُصغ بعد... هي نفسها الفكرة التي سار على هديها ميشيل دوسرتو حينما قال: "...كل مجتمع يفكر تاريخياً بالوسائل التي يمتلكها..."²، أو تلك التي اشتهر بها إيمانويل لوروا لادوري "...يكتب التاريخ انطلاقاً من الحاضر وبضمير خاص..."

بقدر ما قد ترتسم حدود العلاقة بين الاستوغرافيا والماء ضمن مسار وحيد الاتجاه، بقدر ما قد تنسج هذه العلاقة متواليات من الاشكاليات المنهجية التي لا يمكن حلها إلا بممارسة النقد المزدوج، نقد خطاب الأنا ونقد خطاب الآخر³. ذلك الآخر الذي تشكل في التجربة التاريخية المغربية مثل خصم تاريخي، مُحْتَل أجنبي، وفتاح لاتيني صليبي... وحده النقد كفيل بأن يُحرر الاستوغرافيا المغربية من معضلة الاستيلاء والتفوق الهوياتي⁴، وأساساً من عُقدة السجال المتواصل مع الآخر... وحتى إذا ارتضينا مواصلة مسار السجال، علينا مثلما يقول بوطالب أن نشتبك مع منطق الخصم، لنحتج عليه بنفس ما كان يحتج به علينا⁵. النظر إلى هذه العلاقة لا يعدو أن يكون في النهاية سوى تصويبا لتلك القراءات الكولونيالية التي رمت بالديناميات السياسية والاقتصادية والمجالية من جفاف وماء وكلاً خارج مدارات التاريخ ومخاضات الجغرافيا، وهي تقرأ على سبيل الاختزال عاملي العُرف والانقسام قراءة مُبتذلة: رأت في الأول تمرداً على الإسلام، وفي الثاني ثورة على السلطان⁶... كل صراع جرى في مغرب الأمس نظر إليه عرابو السوسيولوجيا الكولونيالية من شُرفة التصنيف: بربر/عرب، جبل / سهل، محرومين/ محظوظين...

واضح أن منظري السياسة الكولونيالية أغوتهم المظاهر الخادعة في تركيبة البنية المغربية، فرأوا في تساهل سكان الجبال في أداء الشعائر وجهلهم للغة العربية، وتمردهم على السلطة المركزية موجبات تنزيل البناء الانقسام على

¹ - Vilar Pierre, Histoire marxiste, Histoire en construction, In Faire de l'histoire, T1, Gallimard, Paris, 1974, p 169.

² - De Certeau Michel, L'opération historique, In Faire de l'histoire, T1, Gallimard, Paris, 1974, p 17.

³ - هذه الفكرة يُعبر عنها إبراهيم بوطالب بالقول التالي: "...لحظة الحماية اضطرتنا إلى اكتشاف الآخر، علماً بأن الآخر هو الخصم كما قال بعض الفلاسفة، واكتشاف الآخر مقترن لزوماً باكتشاف النفس. من خلال ما يدور بين النفس والآخر من مواجهات على شكل حوار غير منقطع لا يخرج عن الخلد تارة ويصدع به تارة أخرى..." بوطالب إبراهيم، معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 12، 2006، ص 27.

⁴ - الجابري محمد عابد، مواقف، اضاءات وشهادات، العدد 44، ص 18.

⁵ - بوطالب إبراهيم، معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين، م س، ص 28.

⁶ - الجابري محمد عابد، مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعمارية، كيف فكر الفرنسيون في مستقبل الأمازيغ أو الظروف التاريخية للظهير البربري، م س، ص 53.

المغرب... واضح أيضا أن الانقسامية لم تخطئ حينما رأت بأن السلطة موزعة في كل مفاصل الحياة القبلية، لكنها أخطأت عندما انتهت إلى اعتبارها غير موجودة أصلا... يكفي فقط أن الكل في القبيلة يعرف في يد من توجد هذه السلطة، لكنه يرفض أن تكون تلك السلطة في يد أحد بعينه¹.

مثل هذه الأفكار ارتوت من معين ابن خلدون الوسيط، ولكأن الاستوغرافيا الكولونيالية نسخة مستعادة من الخلدونية الوسيطية، لكن بمنزعه يسير نحو محاولة تأكيد تفوق الذات الأوروبية وتثبيت نزعتها الإثنومركزية²، وإن لزم هذا القول نوعا من الحذر والاحتباس المنهجي بحكم اختلاف السياقات.

لا يزال الانتاج الأجنبي حول المغرب إلى اليوم يفتح قارات جديدة في مسارات الاستوغرافيا المغربية؛ كما لا تزال مخطوطات المعمرين تتناسل في المغرب مفصحة عن كشوفات جديدة³. يتوزع عموما هذا الإنتاج بين أربع أغلفة كبرى: الغلاف الفرنسي/ الغلاف الإسباني/ الغلاف الأنجلوساكسوني/ الغلاف الآسيوي⁴... وبما أن الغلاف الفرنسي يحظى بحضور قوي ومكثف في الكتابة التاريخية المغربية⁵، فإن مناولته قبولا أو اعتراضا لا تزال تشكل مادة تاريخية خصبة⁶، وتحديا منهجيا يفرض سطوته على باقي الأغلفة الأجنبية.

¹ - بورقية رحمة، الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، فبراير 1987، ص 95.

² - نحيل هنا على ميشيل بروندينو Michel Brondino كواحد من أهم الاسهامات النظرية التي تناولت إشكالية الأنا والآخر في الخطاب الأوروبي ضمن ما يسمى سوسيولوجيا ب"الغلاف الإيطالي":

Brondino. M, (Istituto les l'orient Roma), Bilan des recherches Italiennes sur le Maghreb indépendants et perspectives prioritaire, Actes du II Congres internationales de la recherche scientifique sur méthodologie occidentale en sciences humaines et sociales sur les pays Arabes et la Turquie, études réunies et préfacées par Abdeljalil Temimi, Publication de la fondation Temimi pour la recherche sciatique et l'information, Zaghouan, Novembre, 1996.

³ - الزين عبد الفتاح، شراك أحمد، السوسيولوجيا المغربية: ببليوغرافيا، مجلة علم المعلومات، مدرسة علوم الاعلام، الرباط، 1996.

⁴ - الزين عبد الفتاح، السوسيولوجيا في المغرب من إعلان الممارسة الفرنسية إلى المرحلة الراهنة، مجلة المستقبل العربي، عدد 146، 13 أبريل، 1991.

⁵ - الغلاف الفرنسي راكم إلى حدود سنة 1972 حسب تشخيص أندري آدم حوالي 2182 عنوان

Adam. A, Bibliographie critique de sociologie d'ethnologie et de géographie humaine du Maroc, Publie avec le concours du Centre National de la Recherche Scientifique, Alger, 1972.

أنظر كذلك شراك أحمد، الكتابة السوسيولوجية، ضمن الكتاب الجماعي العلوم الانسانية والاجتماعية بالمغرب، طروحات ومقاربات، تقديم عبد الكبير الخطيبي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1988، ص ص 19-33.

⁶ - في هذا الصدد يدعو محمد جسوس إلى ضرورة تجاوز مركب النقص إزاء الانتاج الكولونيالي، وقضية التجاوز هذه لا يتأتى إلا عبر محاوره هذا التراكم ندا لنند، ذلك أن السوسيولوجيا الكولونيالية كما يقول جسوس كانت عبارة عن سجلات موسوعية، كتبت من طرف أفراد سمحت لهم ظروف معينة بجمع معلومات معينة، لكن من دون ضبط. ومن دون الخضوع لأية سلطة منهجية، نظرية أو إبستمولوجية... عموما يظل الانتاج الكولونيالي حسب جسوس دائما فاقدا للشرعية ما دام انتاجا مرتبطا بمؤسسة الجيش وبمصالح السياسة... للتوسع أكثر يمكن العودة إلى شراك أحمد، سوسيولوجيا المغرب، المقاربة الأنجلوساكسونية، نموذج واتربوي، منشورات مقاربات، الطبعة الأولى، 2015، ص 64.

لا تخلو الأسئلة التاريخية الراهنة من دعوة صريحة إلى العودة نحو مساءلة الإرث الكولونيالي على سبيل التمهيد والمقارنة والآفاق المنهجية وحتى التجاوز¹...تطالعنا أدبيات الجيل الأول بعد الاستقلال حول تناول اشكاليات وقضايا الإصلاح الزراعي والتراتب الاجتماعي وأنماط الإنتاج...في مدار كثف نقده للأسس الاستمولوجية والمنهجية للإنتاج الاستوغرافي الأجنبي²...فهذا حمودي مثلاً يصف المقاربة الانقسامية بـ"الوهم الاستمولوجي والهذيان المنهجي"³، وذاك العروي يصفها بـ"الضعف المنهجي والإفراط في الشكلائية"⁴. والأمثلة كثيرة في شأن ذلك. ينبغي أن نصغي بعمق إلى العبارة الخالدة التي تركها أحد أعلام مدرسة الحوليات مارك بلوك في لحظة تصادم علي مع مدرسة التاريخ الوثائقي "...التاريخ قاطرة لها محطات للوقوف، لكن ليس له محطة للوصول...". العبارة نفسها سيلتقطها العروي بنباهة عندما أوعز إلى جيل المؤرخين الشباب إلى أن كل مشكل تاريخي يتجدد بتجدد أو تطور التاريخ نفسه، ولا يمكن قول كلمة أخيرة فيه...تبعاً لذلك يمكن القول أن الماضي – ماضي الظاهرة القبلية تحديداً- يظل ورشاً منهجياً مفتوحاً باستمرار أمام تجديدات الكتابة التاريخية تناعماً مع رهانات اللحظة السياسية وتطلعات السوق المعرفية.

عودة إلى الطرح الإشكالي للأطروحة مرة ثانية، ما الذي يدفع راهنا إلى إعادة فتح ورش النقاش حول ماضي القبيلة المغربية من مقترب الماء؟ ما معنى أن نعود مُجدداً إلى استنطاق سجلات registres القبيلة بمدلولاتها الرمزية والمادية؟ أي دافع يجرننا إلى "إعادة بعث" باستعارة من مؤرخ الأمة الفرنسية جول ميشليه Jules Michlet ماضي القبيلة المغربية؟ لعلها أسئلة القلق والارتباب التي لا يزال يطرحها النسق المائي في تشابكاته وامتداداته الراهنة...

صحيح أن القبيلة بما هي تنظيم سياسي واقتصادي واجتماعي شُيعت قانونياً مع حلول الحماية الأجنبية إلى المغرب، وبخاصة مع صدور ظهير 1916 و1919...ربما جازلنا اليوم أن نقف عند عمق هذه اللحظة التاريخية على مستوى تحقيق جديد للبنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المغربية في لحظة تحول انتقالي، لحظة

¹ - نجيل هنا على كتاب هام صدر بحرسنة 2012 للباحث الأنثروبولوجي المغربي حسن رشيق بعنوان القريب والبعيد، مائة سنة من الأنثروبولوجيا في المغرب...وهو بالمناسبة باحث ركز جل أبحاثه لمنطقة الأطلس الكبير سواء في كتابه حول المقدس والأضحية في الأطلس الكبير Le Sacre et sacrifice dans le Haut Atlas أو سلطان الآخرين: الطقوسي والسياسي في الأطلس الكبير بالمغرب Le Sultan des autres , Rituel et politique dans le Haut Atlas...يمكن العودة إلى:

Le proche et le lointain, Un siècle d'Anthropologie au Maroc, Edition Parenthèses, Maison Méditerranéenne des sciences de l'homme, MMSH, 2012.

² - يفند العروي الطرح الانقسامي، ويعتبره بناء تذوب في نطاقه كمية الوقائع، وتنتفي الفوارق والخصومات القائمة بين مجتمع وآخر، بناء لا يكلف نفسه جهد التعرف المسبق على ما يكفي من الظواهر العينية والمتنوعة للمجتمع المدروس، العروي عبد الله، نقد الأطروحة الانقسامية، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، دار توبقال للنشر، 1989، ص 128.

³ - حمودي عبد الله، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية، ملاحظات أولية حول أطروحة كلنير، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، العدد 11، 1985، ص 34-35.

⁴ - العروي عبد الله، نقد الأطروحة الانقسامية، م س، ص 129.

فاصلة بين زمنين: زمن قبلي بائد ظل يستند على قيم التضامن الجماعي وصون المشترك الرمزي والمادي؛ وزمن تاريخي جديد تشكل تدريجيا على أنقاض الأول، سمته الأساسية التدبير القانوني لأجهزة الحماية لما كان ينعت بـ"المجالات الطرفية"... وإذا كان الأمر كذلك، فثمة شعور بأن القبلية Tribalisme لا تزال تستحكم المشترك العام، النظام العام للأشياء بعبارة الأنثروبولوجيين، تنصرف في سلوكات المغاربة كما تستحكم ذهنيتهم الجماعية، وهو شعور يرتقي صعودا إلى سوسيولوجيا التنظيمات، في الأحزاب كما الجمعيات، داخل النقابات وحتى الإدارات... ولعل في امتداد القبلية بأقنعة متعددة ما ينهض سبيلا اليوم إلى مراجعة فرضيات التفسير التي سبقت حول مدلول القبيلة بشمال افريقيا...مراجعة تستند إلى ما تتحقق من تراكمات وعطاءات في مدارات الاستوغرافيا المغربية منذ الاستقلال إلى اليوم، إن على المستوى الكمي، أو على المستوى المنهجي...مع ما يستدعي ذلك من فتح حوار هادئ ومُنتج مع انتاجات الاستوغرافيا الكولونيالية.

بناء عليه، تفرض هذه المراجعة أن نتعامل مع النسق القبلي المغربي الما قبل كولونيالي كنسق خاص، نسق مُتحلل من كل الخطاطات التنظيرية، من كل الوصفات الجاهزة...نسق قبلي مُركب أنتج ضمن شروط ذهنية خاصة، بفاعلين محددين، وفي إطار معطيات تاريخية وجغرافية خاصة، تداخلت فيه عناصر وإليات، تتم فصل بين ما هو ثابت، وبين ما هو متغير، بين ما هو أصيل وبنوي، وبين ما هو ظرفي ولحظي طارئ، وأساسا بين ما هو طبيعي خارج عن إرادة الإنسان، وبين ما هو انساني داخلي صرف.

3- الماء في الكتابة التاريخية المغربية الحديثة: الأوراش والآفاق:

انتهت الكتابة التاريخية الحديثة خلال العقود الثلاثة الأخيرة إلى أهمية ورش الماء في كتابة تاريخ المغرب، العام منه والمحلي¹؛ وتبعاً لذلك انصبت جهود الباحثين في اكتشاف النسق المائي في مختلف تشكيلاته التاريخية؛ من العهود القديمة إلى الفترة الراهنة. يمكن تتبع هذه المساهمات التاريخية وفق المحاور التالية:

✓ البحث في تاريخ الماء بشمال افريقيا القديمة على ضوء النقائش التي تبرز الماء كعنصر حيوي يحظى بالقداسة². ينتقل موضوع الماء ههنا من عالم المحسوس إلى عالم الماورائيات³. لقد توصل البحث التاريخي خلال الفترة القديمة إلى أن الثروة المائية ظلت عاملاً مؤثراً في شرايين الحياة الاقتصادية العامة، إن على مستوى تحفيز السكان على تنويع أنشطتهم الفلاحية والحرفية، أو على مستوى جلب أنظار الأجانب إلى مملكة موريثانيا، جنّة

¹ - نحيل هنا على ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.

² - المحجوبي عمار، المياه والديانات الوثنية في المقاطعات الافريقية، ملتقى زغوان حول المحيط والمياه، المياه والانجراف بولاية زغوان، تونس، 1984.

³ - يمكن الوقوف في هذا الصدد على النقائش المتعلقة بالهدايا المقدمة للآلهة التي تتضمن معلومات تتعلق ببناء القنوات أو النافورات أو تزويد المدن بالماء... التي تظهر تقديس الأهالي للإله نبتون Neptune سيد البحر Dominus Mare انظر:

Belfaida. A, Le culte des eaux en Afrique Romaine, Thèse de Doctorat de III cycle, Bordeaux, 1987.

الخلد (أسطورة البطل والملك أنطاياوس¹ Anthaeus). حظي الماء في تاريخ المغرب القديم بتقديس من طرف الرومان والأهالي عبر تقديم هدايا للآلهة التي ترمز للماء كالإله نبتون والحوريات، كما حظي الماء بتقديس داخل الحمامات التي كانت تتميز بخصائص المعالجة والاستشفاء.²

✓ البحث في علاقة المخزن بالوقف، من خلال الوقوف على سجلات الأملاك الحُسية في تاريخ المغرب السعدي³. يُظهر هذا الجانب من الأبحاث اهتمام دولة الأشراف بالأوقاف عامة والمياه خاصة⁴، حتى شاعت في بعض ظواهرهم عبارة "مال الوقف لا مسامحة فيه" بصرف النظر عن فترة محمد الشيخ المهدي التي عُرفت بالسطوة على ممتلكات الأوقاف⁵. بل واعتبرت ثروة الأوقاف خزينة سرية للمخزن في اللحظات الصعبة... كما اهتم البحث في هذا الجانب بنزاعات الماء من خلال مجاميع النوازل الفقهية بالغرب الاسلامي، وخاصة نازلة وادي مصمودة بفاس⁶.

✓ البحث في العلاقة التي ربطت بين الحرب والماء، ودور هذا الأخير في حسم المعارك والحروب. نُظر إلى الماء هنا كتقنية حربية، وأداة للتحصين والدفاع، وورقة استراتيجية في حسم المعارك والحروب والصدمات المسلحة⁷. لكن اللافت للانتباه مثلما يقول محمد استيتو أن معظم المعارك والمواجهات جرت خارج المواسم المطيرة التي عادة ما تكون فيها الحركة وعنصر المفاجأة وظروف الإعداد غير ملائمة، لأن الجيوش قد تصبح عرضة لمداهمة العواصف والسيول أو الثلوج⁸.

¹ تحكي هذه الأسطورة عن البطل أنطاياوس الذي ينتصر على كل الناس، ويلقى رؤوس ضحاياه على معبد والده الإله بوسدونايوس. وقد أبقى الاغريقون إلا أن ينسبوا لهرقل ما عجزوا على تحقيقه في الواقع، فظنوا أن بطلهم غلب أنطاياوس، واستحوذ على التفاح الذهبي الذي كانت تزخر به أشجار حدائق الهسبريات بضواحي مدينة لكسوس...مجدوب محمد، الثروة المائية في المغرب القديم، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 32.

² بل الفايذة عبد العزيز، الماء بين المقدس والمنفعة العامة في شمال افريقيا ما قبل الاسلامية على ضوء النقائش، ضمن نفس ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 33-59.

³ الحوالات الحيسية عبارة عن دفاتر سجلت بها الأملاك العقارية وغير العقارية مع مستفاداتها وصوائرها، إضافة إلى النصوص العدلية تثبت ملكية المُحبسين لما أوقفوه وما إلى ذلك من الوثائق المرتبطة بالأحباس...بنعلة مصطفى، سجلات الأملاك المحبسة مصدرا لتاريخ الماء بالمغرب: نموذج حوالات تارودانت في العصر السعدي، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 65.

⁴ في بعض اللحظات تنكسر هذه العلاقة، حيث يستحوذ بعض السلاطين على وقف المساجد خاصة لحظة الاستعداد لتجهيز الحملة العسكرية مثلما فعل أحمد المنصور الذهبي...المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، م س، ص 65.

⁵ تولى محمد الشيخ المهدي مهمة الناظر الأكبر لمساجد مراكش، وأخذ من مالها حوالي مائة ألف ليرة من الفضة حسب رواية ديكو دي طوريبس. انظر دي طوريبس ديكو، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ص 187-188.

⁶ وادي مصمودة نهرو حومة بعدوة الأندلس بفاس. انظر فتحة محمد، نازلة وادي مصمودة مثالا عن النزاعات حول الماء، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 167-175.

⁷ "...إذا رأيت قوما يتخاصمون وقد علا بينهم الكلام، فتعلم أنهم في أمر الماء..." قوله تنسب لمجهول عن أهل قفصة انظر مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 152-153.

⁸ استيتو محمد، الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 178.

✓ البحث في علاقة الانسان الواحي بالماء المُدونة في كتب الرحلات الحجية¹، وتدقيق النظر في القواعد والأعراف المحلية التي تدخلت لتنظيم التدبير الاجتماعي للماء؛ وضمنت بذلك نشاطا زراعيا متميزا، عبر تحليل ثنائية الاستقرار والصراع التي تهدم من حين لآخر آليات التوازنات المحلية².

✓ البحث في الخلافات والنزاعات التي يكون مصدرها الماء، ذلك أن الماء في تاريخ الشمال الافريقي كما يقول الجغرافي التونسي الحبيب عطية لا يعتبر داخله مستوى الفرشة المائية في المغرب معطى طبيعيا بل هي نتاج اجتماعي³. وحينما يقل الاهتمام بتنظيم الماء وصيانة القنوات، فإن مستوى الفرشة المائية سيتناقص ويتبعه تناقص في الرقعة المزروعة وأشجار النخيل⁴.

✓ البحث في الجوانب التقنية المتعلقة باستغلال وتوزيع الماء؛ خاصة في المناطق المنجمية، حيث تظهر المهارة التقنية للمنجمين القدامى في تكييف التقنيات المتوفرة مع المعطيات الطبوغرافية، اعتمادا على تقنية الدولاب⁵. من جهته يستنتج محمد حبيدة في هذا الصدد، أن الشبكة السقوية التي غطت مزارع السكر في منطقتي الحوز وسوس خلال القرن 16 وبداية القرن 17 استجابت لظرفية عالمية ولحاجات المخزن⁶، وبالتالي لم تخلف أثرا ملموسا في الزمن الطويل على الحياة الفلاحية بالسهل⁷.

✓ البحث في ثنائية الماء والحماية، من خلال ثلاثة محاور رئيسية، استراتيجية استغلال الماء في الميدان الفلاحي والمنجمي والحضري⁸، عبر طرح أساس، إلى أي حد وازنت الحماية فرص الحصول على الماء واستغلاله بين المغاربة والأجانب؟ يخلص صالح شكاك انطلاقا من تحليل الماء بدائرة وادي زم على عهد الحماية إلى أن الاستراتيجية التي نهجتها إدارة الحماية بالمنطقة في ميدان المياه لا تنفصل عن استراتيجية عامة توخت الضبط والاستغلال من جهة⁹، وتكسير التوازن التقليدي المبني على ثنائية تجمع بين الإمكانيات الذاتية للقبائل والإمكانات

¹ - كتب الرحلات الحجية سلطت الضوء على قساوة البرد وندرة الماء في المجال الصحراوي، من خلال ماء الموائد للعايشي في القرن 17م، ومصنفات شيوخ الزاوية الناصرية في القرنين 18-19م...يمكن العودة إلى:

رحلة أبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي إلى الديار المقدسة عام 1121 خ 1709 م، م خ ح رقم 7648، والرحلتين الكبرى عام 1196 هـ / 1781 م، م خ ح رقم 5658، والرحلة الصغرى عام 1211 هـ / 1796 م، م خ ح رقم 121 للشيخ محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي.

² - البوزيدي أحمد، قضايا توزيع الماء بواحة درعة من خلال الوثائق المحلية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 79 - 99.

³ - Attia, H, Au cours des journées sur l'Afrique, Grenoble, 1971.

⁴ - Valensi, L, Fellah Tunisien, L'économie rural et la vie des campagnes aux 18 et 19 siècle, Mouton, Paris, La haye, 1977, p 173.

⁵ - تقنية الدولاب استعملت بشكل واسع في العهد الموحي، حيث يتم استخراج المياه الباطنية بشكل تدريجي من طبقة إلى أخرى، وقد ساعدت أحجام الدواليب المستعملة في نجاح هذه العملية التي أدت بدورها إلى وصول المنجمين القدامى إلى أعماق كبيرة جدا: 200 متر في جبل عوام و150 متر في زكندر...العجلاوي الموساوي، تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب (2 هـ - 7 هـ / 8 م - 13 م)، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 103 - 116.

⁶ - Berthier, P, Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Rabat, 1966, p 89-127.

⁷ - حبيدة محمد، الماء في المغرب: التقنية والتنظيم، ملاحظات حول القرنين 17 و18، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 133.

⁸ - شكاك صالح، استراتيجية استغلال الماء في دائرة وادي زم خلال فترة الحماية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 135 - 153.

⁹ - نفسه، ص 153.

الموضوعية التي توفرها الطبيعة من جهة ثانية، وتفضيل المُعمرين على الأهالي في الحصول على المياه من جهة ثالثة...وبذلك يكون الماء زمن الحماية في عموم البلاد وسيلة من بين وسائل أخرى استعملت للحفاظ على الأمن وتكثيف الاستغلال، وتوجيه السكان نحو الاستقرار لتسهيل مهمة مراقبة وضبط التحركات القبلية...

✓ الماء والجانب الصحي في عهد الحماية، حيث يتحول الماء في بعض حالاته بؤرة لنفث الأمراض واشعاع الأوبئة، يجعل هذا السائل الحيوي قد يجلب حشرات تنفث الحمى في الأجسام، أو يحمل كائنات تسبب الأمراض وتنقل عدواها¹. لقد استنتج لويس رينو أن المدن الكبرى في مغرب الحماية كانت تتزود بقنوات عاثت فيها يد البلى والتلف، وأصبحت في بعض أجزائها مفتوحة أمام المارة يشربون فيها ويغتسلون، ثم إن معظم تلك القنوات كانت تمر وسط الضيعات والحدائق والمقابر، أما ماء الصهاريج والخزانات فكانت كدرا بسبب أواني الغرف²...وهي نفس الملاحظة التي أكدها إميل كيرن Emil Kern المهتم بأمور الصحة خلال فترة الحماية...ولئن كان تدخل سلطات الحماية لمعالجة مشكل الماء الصالح للشرب في حدود معينة، وخاصة في المدن والحواضر الكبرى، فإن البوادي والجبال تركت في مواجهة الماء العكر أو الراكد، ما جعل حمى المستنقعات والبلهارسيا تنخر أجساد المغاربة³.

✓ البحث في الماء كمحطة من محطات تشكل الحركة الوطنية⁴، وأحد عناصر الصراع بين المغاربة والاستعمار من خلال عملية التحويل، وأحد أدوات السياسة الفرنسية لإخضاع المغرب، ورغم اهتمام سلطات الحماية بالماء في استراتيجية الاستعمار الفلاحي، إلا أن أغلب المشاريع بقيت حبيسة التخطيط على الورق بدليل أن الأراضي المسقية بالمغرب، لم تتجاوز إلى حدود سنة 1951 خمسين ألف هكتار⁵. ما جعل الماء يمثل رمزا للدفاع عن الحق والوجود.

✓ البحث في الماء كعنصر استمرار بعض مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط. يلتقي هنا البحث مع المقاربات الأنثروبولوجية الحديثة (طقس عبادة الكباش⁶) من خلال توقفه عند جزئية دقيقة، عند

¹ - رويان بوجمعة، الماء والصحة خلال فترة الحماية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 191.

² - Raynaud. L, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Alger, 1902, p 39-40.

³ - Berneoud (Dr), La Bilharziose vésicale au Maroc, In Maroc- Médical, n° 93, 15 Mars 1930, p 88.

⁴ - الدفالي محمد معروف، الماء في بعض محطات عمل الحركة الوطنية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 207-216.

⁵ - حزب الاستقلال: المغرب قبل الحماية، على عهد الحماية، إفلاس الحماية، الطبعة الثانية، 1979، ص 84.

⁶ - طقس ديني ارتبط في الحضارات القديمة لاستدراار المياه والخصوبة، حيث تؤكد الشواهد القديمة على أن الأفارقة القدامى رأوا فيه الكباش شخصية إلهية واعدة بالمطر، وفي أسطورة Hygin و Nigidius Figulu يحكى أن جيش ديونيسوس كان يتابع حملته في الصحراء، أصابع عطش شديد من جراء الجفاف، فقادته كبش إلى نقطة ماء، فكان أن قرر بناء المعبد في ذلك الموضع تخليدا لهذا اللقاء الإلهي...وقد نقلت المصادر الوسيطية (البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، تحقيق دوسلان، باريس، 1965، ص 12) محافظة التقاليد المغربية على طقس عبادة الكباش وعلاقته بالماء في الاحتفالات الشعبية الخاصة بالاستسقاء، حيث يتم اختيار كبش أسود، في دلالة على السماء الممطرة، وفي حالات أخرى يوضع الكباش في مجرى الوادي، فإذا تبول فذاك يعني أن السنة ستكون ممطرة.

Laoust. E, Mots et choses berbères, Paris, 1920, p 136.

سراج أحمد، حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، م س، ص 162.

عناصر الانتقال والتحول، وخاصة عند مسألة تحول الماء من همّ يومي إلى همّ ديني محض في المناطق التي تتسم بالندرة. إذ يصير الماء ههنا بمثابة الهم السامي الذي يكاد يغطي مفهوم السيادة إن لم يكن يضاهيه¹.

4- البناء الإشكالي:

أ- لماذا اختيار البنية المائية؟

لسبب وجيه أن البنية كما ترسم في كثير من محطات تاريخ المغرب تركيب وهندسة لمتوالية أحداث ووقائع كبرى، في مدار اقتصاد زراعي معيشي ظل يرتكز على جاذبية عنصر الماء في بناء السلطة والنفوذ وتوطيد دعائم الجاه الرمزي والمادي للأعيان والشرفاء ورجالات المخزن... على امتداد قرون مديدة ظل الإنسان المغربي سجين بنية طبيعية بطيئة البناء وصعبة التجاوز، حددت تصوراتها، وكيفت سلوكه وذهنيته في التعامل مع سنوات الوفرة وسنوات الندرة.

تعتمد هذه الأطروحة إلى اختبار فرضية "المجتمع المتنقل" مجتمع الترحال والرعي، مجتمع التردد اليومي على المراعي الخصبة ومصادر المياه في سياق دورة الانتجاع السنوي، شتاء باتجاه السهول، وصيفا في اتجاه الجبال بحثا عن الكلأ. إن هذه الدورة الإنتاجية هي في الأصل عنصر أساسي في المعادلة السياسية والعسكرية لتاريخ المغرب بإفادة من محمد حبيدة². بل وأداة سياسية وعسكرية لخلق نوع من التوازن في تدبير شؤون البلاد.

محليا، اهتدى آل سكساوة مثلا، شأنهم باقي قبائل الأطلس الكبير إلى اقرار نظام جديد للرعي، عمدوا من خلاله إلى تجميع قطعانهم في زرائب جماعية، وأوكلوا عليها رعاة أشداء لحراستها، وفصلوا في هذا النظام بين أصناف القطائع وأماكن ارتوائها، فجعلوا التيوس والماعز والجديان المعروفة بحبها للنباتات الشوكية لأحذق شبانهم، ووكلوا أمور رعاية الأبقار للأرامل من النساء في أقرب غدير من الماء. وحينما اشتد عليهم الخناق مع بناء حصن القاهرة وبعده آووا إلى سهول تشكا المعلقة بين القمم الشاهقة، وهي إذك، ميزان المياه في الجبل كله، تنطلق منها السيول في اتجاه رودة غربا، وسكساوة شمالا³.

نصل إلى الخلاصة الأساسية: كل تعامل مع المعرفة التاريخية يجب أن ينهل في إطاره العام من رصيد التجربة التاريخية، من سلطة المعيار المؤسس. وبما أن الاستوغرافيا العربية الإسلامية عموما ضبطت محورها على إوالية ضبط السند وصحة السرديات، على حساب دلالة الوقائع والأحداث... فإن هذه الجزئية في تقديرنا هي التي حالت دون تعميق منسوب الوعي التاريخي بقيمة تلك الأحداث⁴.

¹ - نفسه، ص 157.

² - حبيدة محمد، بؤس التاريخ، م س، ص 96.

³ - أيت نصالح عبد العزيز، بابل مازنغ، الفاضلة للنشر، 2021، ص 141-142-144.

⁴ - للتاريخ مسلكان: تاريخ الوجود، وتاريخ للفكر، الأول جماع لوقائع الأفراد والجماعات، والثاني نشاط ذهني يتوخى تنظيم الأحداث في سجلات وبراديجمات تأويلية، هذه الفكرة تلتقي في ما عبر عنه صاحب المقدمة، بالقول "للتاريخ ظاهر وباطن، ظاهره خير، وباطنه نظر"، للتوسع أكثر في الموضوع يمكن العودة إلى كتاب غي توليه وجان تولار، صناعة المؤرخ، ترجمة عادل العوا، الطبعة الأولى، 1999.

الفصل الأول:

الماء في الأطلس الكبير الغربي:

الرموز والدلالات

في تاريخ جبال الأطلس الكبير الغربي تحديدا بصم الماء بصمته في كل الحوادث والوقائع الكبرى؛ وانفرد بخصوصية تاريخية لا نظير لها. لحظتها اعتبر الجبل مجالا خلفيا ساهم في تقويض استقرار الاستعمار الفرنسي. ارتسمت كتلة الأطلس الكبير أمامه كعائق طبيعي وبشري حال دون انتشاره وتوسعه العسكري¹. أولا، كعائق طبيعي في شكل كتلة عظيمة ممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على مسافة 800 كلم، وثانيا كعائق بشري في شكل كتلة بشرية احتضنت مزيجا بشريا انتظم في ثلاث مجموعات قوية².

في البدء، جسّد هذا الجبل مجال عبور وتواصل بين هذه مجموعات البشرية، ومع الاستعمار بدا مجال ثخوم وحدود. كيف نفهم هذا التحول في المجال؟ لا يُدرك الباحث هذا التحول إلا على ضوء الظهور المفاجئ لحركة أحمد الهيبة في الأطلس³. في هذه اللحظة بالذات، بدأت سلطات الحماية في ربط جسر التواصل مع قواد الجنوب⁴، وظهرت استراتيجية جعل الأطلس الكبير حزاما وقائيا لمنع وصول أحمد الهيبة إلى مراكش⁵.

في معاش قبائل الأطلس الكبير الغربي التي تردد صداها في إشارات مبكرة عند الفرنسي رينو Renault في كتابه المعنون "الوصف الجغرافي لإمبراطورية المغرب" الصادر عام 1846م نجد أن الماء ارتقى فيها إلى مستوى

¹ - فنتير المصطفى، جبال الأطلس الكبير والحضور الاستعماري (1912-1914)، أشغال الأيام الوطنية الثانية، الجبل في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1994، ص 118.

² - مجال الأطلس الكبير تفرد بهوية وشخصية خاصة في تاريخ المغرب عن باقي الأقاليم الجغرافية من حيث الخصوصية الطبيعية وما يرتبط بها من أنماط المعاش، وهو مجال يشمل البسائط والجبال وما بينهما من دير. تصاهرت فيه ثلاث مجموعات بشرية تحكمت في الممرات الاستراتيجية عن طريق القصبات والقلاع والحصون:

مجموعة كلاوة: الممتدة من السفح الشمالي والجنوبي للأطلس الكبير؛

مجموعة متوكة: تشغل السفح الشمالي للأطلس الممتد من امتنانوت إلى بلاد حاحا؛

مجموعة كندافة: الممتدة على السفح الأوسط من الأطلس الكبير. فنتير المصطفى، م س، ص 119.

³ - ثورة الهيبة خلخلت التوازنات السياسية القائمة في الأطلس الكبير، وصار أمام قواد الأطلس الاختيار بين أمرين: تأييد حركة أحمد الهيبة أو الانصياع لقرار الحماية... ينقل إلينا المختار السوسي في كتابه حول مائدة الغذاء الدهشة التي اعترت قواد الأطلس لحظة اجتياز أحمد الهيبة ممر تيزي ن أوماشو. ويطلعنا الصحفي وإيسجرير في كتابه على عتبة المغرب الحديث Au seuil du Maroc Moderne في الصفحة 346 عن كون القبائل الحوزية لها ميولات نحو الهيبة، وبالتالي، راهن الاستعمار الفرنسي على منع حركة الهيبة من الجبل.

⁴ - Rivet. D, Lyautey, op. cit, p 243.

⁵ - كانت خطة الضابط كانس تروم وضع حزام دفاعي وقائي مشكل من قواد الأطلس في الواجهة لمنع تمدد أحمد الهيبة، وبالتالي، فرضت حركة الهيبة القوات الفرنسية أمام خيارين: إما إخلاء الداخل والانسحاب من الجنوب والتراجع إلى المناطق الأطلنتية، أو التحالف مع قواد الأطلس. اقتنع هوبير ليوطي بالخيار الثاني وأرسل الضابط هانس لمفاوضة كل من الكلاوي والمتوكي، والصحفي وإيسجرير لمفاوضة قائد عبدة عيسى بن عمر..

Rivet. D, Lyautey, op. cit, p 242.

الرمز الاجتماعي، بما تعنيه هذه الكلمة من دلالة اجتماعية¹. وقبل أن نُحدد دلالة هذا الرمز الاجتماعي، يجب أن نربطه بتاريخ التبادل التجاري في الأطلس الكبير الغربي².

وقف جغرافيو الإدارة الاستعمارية على حيوية هذا الفضاء الجغرافي الذي تعبره طريق تقليدي دأب الأمازيغ على وسمه بـ "أغراس أوكليد" أو الطريق الملكي الرابط بين مراكش وسوس من جهة، وبين سهول الأطلس والجنوب من جهة ثانية، عبر ممر تيزي ن ماشو على ارتفاع يصل إلى 1500 متر. هنا كما يقول جاك بيرك J. Berque تبدو المساحة شاسعة، والتضاريس متنوعة، ومظاهر الحياة متنوعة...عكس جزئه الشرقي الذي تقفز السلسلة الشستوزية السوداء إلى أكثر من 3000 متر. التصق تاريخ هذا الطريق الملكي بتاريخ مجال الأطلس الكبير الغربي في كثير من اللحظات. على طوله امتدت حصون وقصبات وزوايا...ودبّت حركة تجارية نشيطة، وسارت حملات عسكرية، وراجت مواسم الأولياء والصلحاء³...عبر هذا الطريق أيضا، مرّ ذهب السودان، وفيها اغتيل سلطان⁴. مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدت معالم هذه الطريق توحى بالتراجع، وبقيت امتنانوت حيّة تؤمن الربط بين وحدات مجال الأطلس الكبير الغربي.

حول امتنانوت انتظمت حياة أهل الأطلس الكبير الغربي؛ وكانت مثل حلقة الوصل التي ربطت أجزاء الأطلس، جبله وديره وسهله. في أعاليها اشتهر اسم قبيلة سكساوة، يشهد تاريخها على حضور يتعدى ثمانية قرون على الأقل حسب المؤرخين، علاصيتها بفضل معارضتها لسلطة المرينيين، وصعد لكل مشروع سياسي وروحي قادم من السهول المجاورة. بجانبها سكساوة هناك دمسيرة، مزوضة⁵، وادويران. تشكيلة الأطلس الكبير الغربي كما عاينها الأجانب كانت تدور في فلك هذا المحور التجاري الرئيسي¹.

¹ - المنظومات الرمزية ليست مجرد أدوات للتواصل فقط، بل هي أدوات للتضامن الاجتماعي. وبالتالي، فالرمز يمارس ثلاث وظائف كما حددها بيير بورديو، أولا تمثيل الواقع رمزيا، ثانيا إعادة انتاج اجتماعيا، ثالثا تكريس سلطته ماديا. أنظر: العطري عبد الرحيم، من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة، م س، ص 88.

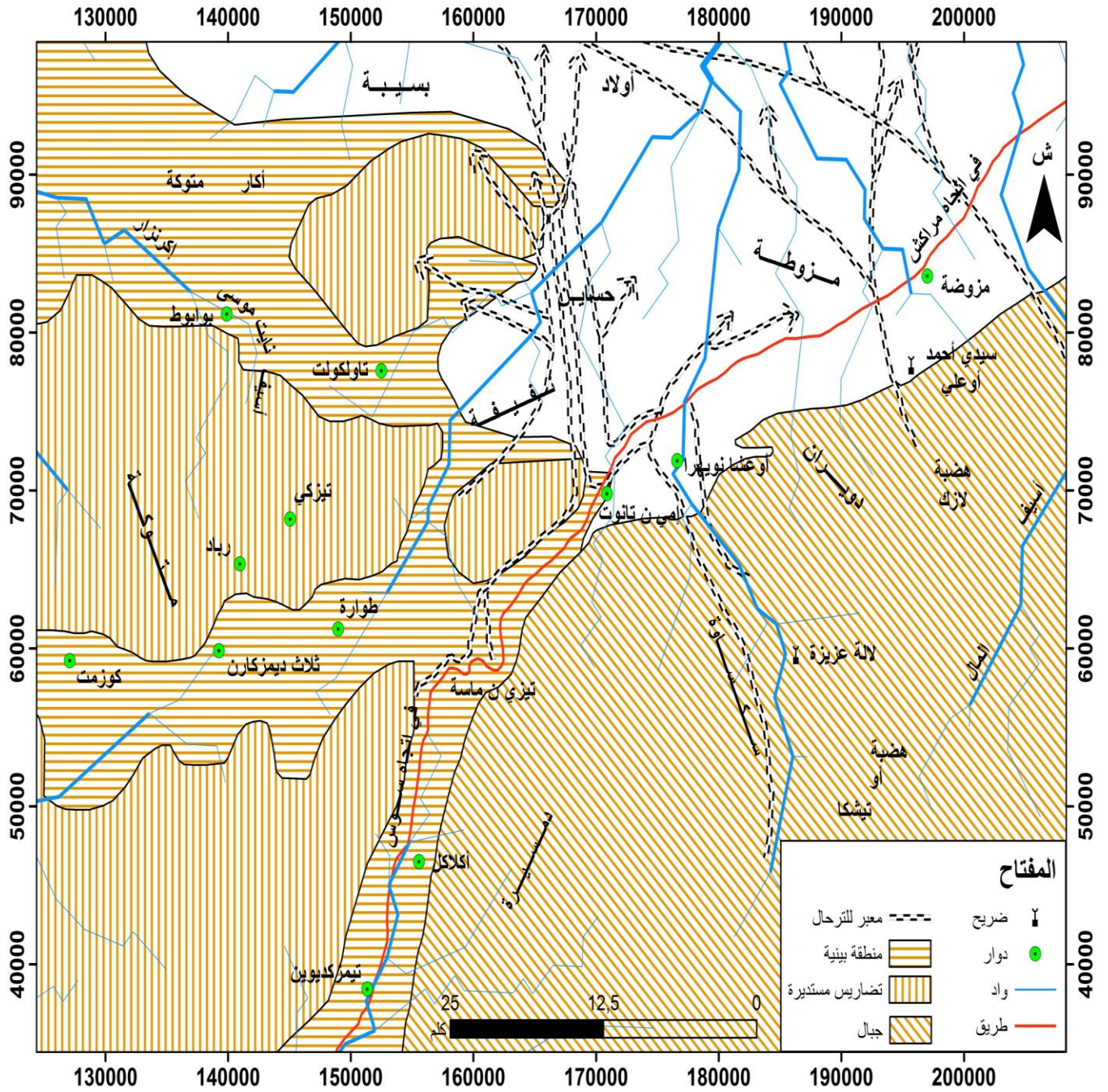
² - Berque, J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, In: Annales. Economies. Sociétés. Civilisation, 8 années, n° 3, 1953, p 289-314.

³ - Ibid, p 289.

⁴ - Berque, J, Antiquités Seksaoua, Hesperis, op. cit, p 1953.

⁵ - قبيلة مزوضة: في شأن تحديد قبيلة مزوضة لا مناص في تحديدها الجغرافي من العودة إلى خريطة ليفي بروفنسال، رغم تحفظ البعض من بعض التوطنات المجالية حولها. ورد اسم مزوضة لأول مرة عند البيدق في كتابه أخبار المهدي ابن تومرت بعبارة "صودة". حول نص البيدق يُعلق يوسف غاندي قائلا: "...فإذا تمعنا جيدا في هذا كله، ندرك أن هذا الطرح قد أفرز مشكلا جديدا، وهو حدود صودة (مزودة)، إذ يدخل في اعتباره ونُغاسة من صودة الجبل وبنو تطيت، من عداد مزوضة اليوم أيضا، ولو أن القبيلتين مزوضة وكدميوة تربطهما علاقات الجوار، بل تتعدها أحيانا، إلى المصاهرة بين أفخاذ وفرق القبيلتين...". درج أهل مزوضة تسمية حدودهم المجالية بـ "أزون"، مثلما درجوا على رسمها بحجارة يسمونها "إيووتا". اشتهرت قبيلة مزوضة بمدرستها العلمية المسماة بـ "المدرسة النحلية"، في موضع يسمى العوينة. عُرف عنها محاربة البدع، ومناصرة الشريعة الإسلامية عوض الأحكام التقليدية المستمدة من العرف. أسست هذه المدرسة من طرف محمد بن محمد الهلالي الإريزي المزداد في أوائل القرن 13 هـ - 19 م بتاغزوت. كما احتضنت ضريح الولي سيدي أحمد أو علي المتوفي عام 1155 هـ - 1742 م. للتوسع أكثر يمكن العودة إلى:

خريطة (3): قبائل الأطلس الكبير الغربي²



غاندي يوسف، الزاوية النحلية ومدرستها، قبيلة مزوضة، المطبعة الوطنية، مراكش، 2011، ص 31.

أيت بنصالح عبد العزيز، شيشاوة، م س، ص 152.

¹ - Berque, J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, Op, cit, p 289- 290.

² - Berque, J, Structures sociales, op. cit, p 39.

في سوق امتنانوت، مرآة حياة الأطلس الكبير الغربي يلتقي نمطان: معاشي وآخر تسويقي، الأول يُؤمّن الحدود الدنيا من الحاجيات، والثاني يُوجه إنتاجه نحو ميناء موكادور للتصدير¹. من امتنانوت وجب التساؤل عن عمق الاتصال بين وحدات المجال. وجب أيضا الاستفسار عن عمق الروابط بين اقتصاد الجبل واقتصاد السهل.

نصيب من هذا الجواب نلتقي به عند جاك بيرك في دراسته حول تاريخ التبادل في الأطلس الكبير الغربي. لقد حاول من خلال هذه المساهمة أن يختبر زاوية أساسية في التحليل، علاقة وحدات المجال الثلاث (الجبل/الدير/السهل) بالتحويلات الكبرى للأطلس الكبير الغربي. لا شك أن بيرك كان على وعي بأن التاريخ الاجتماعي لهذا المجال يفتقر إلى الأرشفة الرسمي بخلاف الوثائق المحلية التي يمكن أن تحلل مستويات التنظيم الاجتماعي².

وقبل أن يعقد وفق الحماية، كانت هناك امرأة فرنسية، باريسية المنشأ، تجتاز مفاوز الأطلس في مارس 1910. صدرت هذه رحلة راينولد لادريت لشاريير Reynolde Ladreit de La Charrière بعنوان: "على امتداد الطرقات المغربية"، وهي بالمناسبة أول رحلة نسائية عن مغرب ما قبل الاستعمار، جابت فيها مناطق مختلفة من المغرب لمدة تقارب سنتين رفقة زوجها الجيولوجي³. وهو بخلاف كتاب ماتيلد زيس "فرنسية في المغرب" الذي صدر سنة 1912 المخصص لمدينة طنجة، فإن لشاريير تعنى بمنطقة الجنوب. ومن حيث جنس الكتابة، نحن أمام عرض وثائقي أو عمل تعريفي أكثر منه سرد داخلي⁴، يشرك القارئ الفرنسي في تفاصيل دقيقة من حياة أهالي الأطلس الكبير، ويتوقف عند أوديتهم وأنهارهم، عاداتهم وطقوسهم... من حيث تفاصيل الرحلة، جابت لشاريير المغرب على مرحلتين بين 1910 و1911، راكمت حوله معلومات ووثائق، حررتها في يوميات الرحلة تحت عنوان: "على امتداد الطرقات المغربية"⁵ لحظتها كانت فيه المدافع تجلجل في فاس، والقبائل تحاصر قصر السلطان.

فُصّل الكتاب إلى جزئين، اختص الأول برحلة إلى مراكش سنة 1910، المدينة العذراء التي تأبى أي تحرش أوروبي، والثانية خصت مسار الرحلة من الدار البيضاء إلى سطات. قضت لشاريير في مراكش حوالي 15 يوما،

¹ - يمكن أن نستشهد في هذا الصدد بنص رحلة بنيامين بلانسا "...منذ تأسيس مدينة موكادور، استحوذت على كل تجارة جنوب المملكة، وكانت تدخل عبرها كل المنتوجات الأوروبية الموجهة للاستهلاك بمراكش، وإلى هناك كان يصل كل ما ينبغي لأن يوجه نحو واد نون، ومن هناك إلى تومبوكتو...". وفي مقطع آخر: "...تبلغ ساكنة موكادور حوالي 1200 نسمة، نصفها يهود، وتستحوذ هذه المدينة وحدها على حوالي نصف التجارة المغربية..."

Balansa. B, Voyage de Mogador a Maroc, Bulletin de la société de géographie, Avril 1868, p 313.

² - Berque. J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p 290.

³ - جاك لادريت دولشاريير عالم جيولوجي، وعضو بارز في لجنة افريقيا مكلف بمهمة رسمية في المغرب من طرف البحرية الفرنسية في الشاوية سنة 1907.

⁴ - رولان لوبيل، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، تعريب حسن بحراوي، دار الأمان، 2017، ص 184.

⁵ - De Lacharrière. L, Le long des pistes maghrébines, 1912.

وقامت بجولات في منطقة الحوز. في ما يتناول الجزء الثاني رحلة 1912 التي يصور مشاهد من الأطلس الكبير ومنطقة سوس تم إلى فاس وأخيرا إلى طنجة عبر الطرقات غير المعبدة. رافق لشاريير في رحلتها داخل الأطلس دفتر سفرها الذي تضمن ملاحظات وذكريات عن وقائع الرحلة، وحفل بمعلومات عن حميمية المجتمع النسائي، وعادات وتقاليد المغاربة. نستطيع أن نقرب أن هذا الدفتر يشكل الجانب الاثنوغرافي في رحلتها إلى المغرب. زارت لشاريير حريم الباشا الكلاوي، ونقلت تفاصيل دقيقة عن حياة النساء المغربيات، ومعطيات حول الأطعمة المحلية، وزينة النساء، وطقوس الخطوبة وحفلات الزفاف...¹.

تسرد لشاريير بلغة أرستقراطية رشيقة رحلتها إلى مفاوز الأطلس الكبير عبر ممرات ضيقة وصعبة، حينها كانت الثلوج تسد المنعرجات، والطريق غير معبدة ومحفوفة بالمخاطر والأهوال، وذوي البارود يسمع من مكان قريب إلى غاية وصولها إلى تارودانت. تكتب عن نهاية الرحلة بنبوة لا تخلو من اشتياق.² "عشرين سنة بعد ذلك، عاد زوجها جاك لادريت دولشاريير إلى المغرب في مهمة رسمية، وحينها كان الموت قد غيَّب زوجته، وقد نشر جاك لشاريير تقريرا سنة 1930 تحت عنوان "الابداع المغربي"³ ويمكن القول أن هذا التقرير يشكل خاتمة كتاب زوجته.

II- الماء والتبادل التجاري في الأطلس الكبير الغربي:

أدرج الاقتصاديون نمط الإنتاج الجبلي ضمن حلقة الاقتصاد المغلق⁴. فكرة تصدى لها بيرك في كل مساهماته حول الأطلس الكبير الغربي. لا يمكن حسمه دائما، اسقاط هذه الخطاطة النظرية على نموذج قبائل الأطلس الكبير الغربي. ظلت هذه القبائل تعتمد على العالم الخارجي إلى حد كبير في توفير الغذاء ونتاج الفواكه القابلة للتصدير التي يسمح تسويقها التعامل مع العجز الغذائي الدائم⁵. جبل الأطلس الكبير الغربي لا يتغدى على محاصيله الخاصة، يُوفر فقط نصف احتياجاته، لكن يستطيع توفير بعض المنتجات: المكسرات، الصوف، العسل، الزيتون، اللوز، الخروب، ورؤوس الماشية الصغيرة... (الشكل رقم 26-27). حول مسألة النقد يُطلعنا التاجر الفرنسي المقيم في مراكش عن حقيقة الرواج النقدي في أسواق الأطلس عام 1868م. يتم الحساب عند التجار الجبليين بالمثلقال، وهو عملة صورية تتضمن عشر أوقيات، وتنقسم الأوقية إلى أربع موزونات، والموزونة إلى ستة فلوس. لكن المبادلات التجارية تتم دائما بقطع نقدية من فئة خمس فرنكات بمقابل 32 أوقية ونصف لكل فرنكات، ما يجعل قيمة

¹ - لوبيل رولان. م س، ص 211.

² - "...ها إنني أغادر روجي الريفية، وأقايض لباس الفروسية الذي صار باليا بفستان باريزي، ولن يعود عندها وجود للرومية التي كنتها، أستعيد صندوق أمتعتي الذي بدا لي هائلا مقارنة بحقيبتي المتواضعة التي رافقتني لمدة ستة أشهر، أما علبة قبعاتي فقد صارت تثير سخريتي، أفتحها ضاحكة وأنا أفكر بأن كل هذه الأشياء ستصبح ضرورية لحياتي القادمة... لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب م ن، ص 213.

³ - De Lacharrière. L, La création marocaine, 1930.

⁴ - Simiand. F, Le salaire, L'évolution sociale et la monnaie, t I, 1932, p 144.

⁵ - Berque. J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p293.

الأوقية تساوي حوالي 0,154 فرنك. لكن مهما كان هذا السعر محددا بواسطة مرسوم سلطاني، فإن صرف الريال خمس فرنكات هو دائما مرتفع نسبيا، ويصل إلى 33 أو 34 أوقية¹. لقد سبق للمخزن أن سك قطعا من فئة أربع أوقيات وأوقيتين ونصف، وأوقيتين، وأوقية وثلاثة أرباع، وأوقية، وهي ناقصة القيمة، باستثناء قطعة أوقيتين ونصف، تحت قيمة السعر الحقيقي².

وحتى تتضح صورة النقد في علاقته بالموازين والمكايل كانت التمور واللوز وزبيب العنب والحناء توزن بالقنطار، وتباع ب 170 رطلا مغربيا، ويبيع الشمع بالقنطار ب 150 رطلا، والصمغ والجلود والصوف بالقنطار ب 100 رطلا³. والزيت يوزن بالقلة التي تحتوي على 32 رطلا ونصف، بينما يتم وزن القمح والشعير والفل وحبوب أخرى بالخروبة، وتعادل الخروبة حوالي ثلاث فانيكات ونصف، وتنقسم إلى أوزان: النصف، الربع، الثمن، السدس...⁴.

في سفوح الأطلس الشمالية "منطقة الدير" لا وجود لمؤشر زكي فرضية المقايضة، ولا أخري قوي فرضية نظام الأسرة المغلقة، وحتى مسألة العتاقة الأبوية/ البطيركية يمكن أن تؤدي إلى ارتباك وتشويش الفهم. مسألة النقدية monétarisme يجب أن تؤخذ وفق شروط إنتاجها، تحيل على ماضي طويل. في المقابل، انحصرت العروض العينية في تبادل الهدايا، الزواج، الخطوبة، المواثيق بين الأفراد والجماعات، مشاريع التوزيع، عقود البيع... وهناك أيضا قيم الذبيحة، في مناسبات معينة، والتي تتجنب أي تفسير نقدي بالمعنى الدقيق. الحاصل، أن الآثار الشعائرية واقتراحات العقود في الأطلس الكبير الغربي تعارض أي ترجمة كمية، تحيط بها التحفظات عندما يتعلق الأمر بترجمتها إلى شروط تعاقدية⁵.

¹ - من بين المعلات الرائجة في مراكش التي رصدها التاجر الفرنسي بول لامبير:
- الذهبية:

الدبلون الاسباني يصرف ب 17 قطعة من 5 فرنكات؛

قطعة من 20 فرنك تصرف بأربع قطع من 5 فرنكات؛

البندقي المغربي يصرف بقطعتين من 5 فرنكات؛

الفضية:

القرش الاسباني يصرف ب 34 أوقية ونصف؛

الريال من 5 فرنكات يصرف ب 32 أوقية ونصف؛

البسيطة الاسبانية يصرف ب 7 أوقيات؛

الفرنك يصرف ب 6 أوقيات ونصف؛

لامبير بول، نبذة عن مدينة مراكش، ضمن المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م- 1868، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، افريقيا الشرق، 2018، ص 67-68.

² - نفسه، ص 68.

³ - 100 رطل مغربي يعادل 119 رطل انجليزي، أي 53 كلغ و3/4

⁴ - لكل قرية أو سوق مكياله الخاص، وتختلف الأوزان والمكايل من سوق لآخر، ومن مدينة لأخرى، فمثلا لقياس الجوخ وباقي الأثواب يتم استعمال كالا أو الذراع، أما القامة أو الباع فتستعمل في حفر الآبار والمطامير.

⁵ - Berque, J, Dwiran, Revue Africaine, 1950, p383 et suiv.

في جانب آخر، تحددت قيمة التبادل التجاري لقبائل الأطلس الكبير الغربي بقيمة حصصها المائية موقعها الجغرافي. خضع الماء للتقسيم بين أصحاب الحقوق. مثلما يقول جاك بيرك أنتجت العقلانية المتوسطة هنا أثارها وصداها. الأطلس مثل بقية مناطق المغرب الكبير، اعتمد على نظام التقييم العددي (تاكيوين Taqwin)، عدد أيام الأسبوع، وارتبط هذا العد بنظام الفقه في الشمال الافريقي، الذي يختلف معاشيا عن النموذج الشرقي. أدخل الجبل هذا النظام في العد، لأنه بدا له أكثر ملاءمة لمعاش قبائل الأطلس الكبير.

III- السوق: ملتقى قبائل الأطلس¹:

السوق بالمعنى المحلي الذي نجده عند قبائل الأطلس الكبير الغربي فضاء للتبادل، ولالتقاء الأفراد وتقاسم المعلومات والأخبار²، تأتي الحبوب إلى سوق امتنانوت من مناطق بعيدة، وتنتشر منتجات وفواكه جبال الأطلس في كل أسواق محور الدير. كما يتم تبادل المنتجات مع حوز مراكش وسوس وأروبا. ترتبط سكساوة بسوق اثنين امتنانوت، سوق قديم جدا يصعب تحديد تاريخه بدقة، لكنه يلعب دور الموزع بين الحوز وسوس، ويرتبط به أيضا سوق أربعاء ادويران الذي يفترض أنه الوريث التاريخي لسوق أربعاء سكساوة. لكن لا شيء يمكن أن يثبت صحة هذا الافتراض³. يوجد سوق ادويران على بعد 4 كلم من بولعوان في طريق الدير في اتجاه مراكش.

مكّن التحقيق الذي أجراه جاك بيرك عن هذا السوق من إعطاء فكرة عن مساهمات سكان الجبل في التبادل التجاري: 1 قنطار من الزبدة، 70 كلغ من العسل، 18 من الخشب والسلال، 25 خنشة من الذرة، 15 من الأغنام، 25 من الماعز، 4000 بيضة. إجمالا، تم تقييم هذا المجموع الكلي سنة 1951 بما يناهز 225000 فرنك، وهي تعادل قيمة 180 قنطار من الشعير.

¹ - تستعمل قبائل الأطلس البير الغربي كلمة "أيت" تستعمل كلمة "أيت" لتحديد أسماء الناس، سواء كانوا أفرادا أو جماعات، وفق علاقتهم وقربانهم وانتمائهم... والكلمة من حيث التركيب اللغوي هي جمع مذكر، مفردا "ءو" أو "كو" يعقف الكاف. وتعني من حيث المضمون الانتساب أو الانتماء إلى شخص أو مجموعة من الأشخاص كيفما كان حجمها، أو إلى مكان معين، أو شيء محدود، أو مؤسسة ما... في مصادر العصر الوسيط كثيرا ما درج المؤرخون على استعمال كلمة "بنو" المقابل لكلمة "أيت". وكلمة "بنو" تطلق اليوم على قبائل السهل، بينما كلمة "أيت" تطلق على قبائل الجبل. وإذا ابتعدنا عنهما نصادف كلمة "كل" مكان "أيت" في الصحراء كما في قولهم "كل أهكار" أي أهل أهكار. تحيل كلمة "أيت" على المجموعات البشرية، لكن هذا التحديد لا يدقق في طبيعة الرابطة. ما يجعلها مفتوحة على معان كثيرة، فأحيانا، قد تعني انتماء مجاليا في قول "أيت أوزدار، أيت أوزاغار، أيت واسيف، أيت مراكش... وأحيانا، قد تعني انتماء حرفيا في قول "أيت وامان، أيت ايمور"... وقد تعني أيضا انتماء مؤسساتيا في قول "أيت الزاويت، أيت رما، أيت ربعين"... أو انتماء شخصا مرتبط بالأولياء والمتصوف في قول "أيت سيدي احماذ أوموسى، أيت سيدي أحمد بن ناصر..." يمكن العودة إلى:

أزايكو علي صدقي، أيت، ضمن المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، إشراف محمد حمام، الجزء الأول، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2004، ص 66.

البيدق، أبو بكر الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي، تصحيح وترجمة ليفي بروفنصال، باريس 1928، ص 41.

De Foucauld. Ch, Dictionnaire Touareg- Français, I. N. F, 1952, 78.

² - Berque. J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p293.

³ - Ibid, p 294.

تفيد هذه المعطيات ترابط أئمة الحبوب مع أئمة المواشي، وهي قضية يمكن تعميمها على كل أسواق شمال إفريقيا. ففي منطقة الغرب مثلا يعادل قنطار من الحبوب خروفا من الأغنام¹. لكن، في سوق امتنانوت يصبح هذا التناسب عديم الجدوى، فقد تم الاحتفاظ على سعر قياس الشعير، بينما سعر الأغنام كان يتراوح ما بين 3 إلى 10. ما يعطي هنا الأهمية للماشية على حساب الزراعة.

هناك تقليد مُعتمد في كل من سكاوة ودمسيرة يجعلهما تعتمدان على التسويق الخارجي أكثر من باقي قبائل الأطلس الكبير الغربي. لمعينة حقيقة ذلك عن قرب، يُطلعنا لويس شوني عن حقيقة الرواج التجاري في مدينة الصويرة التي صارت ابتداء من القرن 18م من أكبر المراكز في تصدير منتجات الأطلس. وبين الأطلس الكبير الغربي والصويرة كانت امتنانوت تجسد دور الوسيط التجاري، وفي نفس الوقت، مركز النقل. امتنانوت لعبت دور العرض والمضاربة، وأيضا دور إعادة التوزيع النقدي². سوق امتنانوت نموذج كاشف Révélateur d'un état عن حقيقة التبادل التجاري في مجال الأطلس الكبير الغربي. يتردد سكان الجبل على هذا السوق لبيع منتجات الموسم: مكسرات، حناء، عدس، كمثرى، وبعض الخضروات مثل الجزر واللفت والبصل... وهناك منتجات فقيرة مثل الحطب والفحم والخروب وما إلى ذلك التي لا يمكن أن تصل بعيدا عن السوق لتكاليف شحنها، وواجبات "حق النزلات" ما بين امتنانوت إلى مراكش، والتي تصل إلى ثمانية نزلات. وبالتالي، جعلت هذه السلع غير قابلة للبيع في المدن لارتفاع تكاليف شحنها التي تتجاوز قيمتها الحقيقية. علاوة على ذلك، كان الاتجار بهذه السلع الفقيرة يتم على ظهور النساء والأطفال الذين يظهرون نصف عراة. وكلما انحدرنا نحو المنخفضات كلما تزايدت معاناة المزارعين من الضرائب الثقيلة التي لم يعف منها أحد. أُجبر هؤلاء على بيع منتجاتهم بأسعار منخفضة، وهو ما اعتاد جميع سكان البلاد القيام به في ما يسمى بـ "بيع أو سلام"³.

ومع ذلك، كانت معاناة سكان الجبال أكثر من سكان السهول. يتحول جزء كبير منهم خلال سنوات الجفاف إلى متسولين، ويتقلص طلبهم على منتجات المدن المصنعة من أباريق الشاي والقهوة والصواني والأقمشة البيضاء والمجوهرات... جراء الجفاف، وتنقص في سوق امتنانوت كميات الشعير والذرة وخاصة الأرز الذي احتل مكانة مهمة عند أهل الجبل. ولكي تتضح صورة هذا الوضع أكثر، اعتمد جاك بيرك على وثيقة تعود إلى بائع يهودي عام 1900 لتحديد تصنيفات الأسعار⁴. لشراء قنطار من الشعير كان على الإنسان الجبلي أن يبيع 3 رؤوس من الماعز، و5

¹ - Ibid, p 295.

² - Berque, J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p 295.

³ - Ibid, p296.

⁴ - يورد جاك بيرك ملاحظة أساسية بهذا الشأن، لا تُوفرا الاستوغرافيا في التاريخ المغاربي كثيرا من النصوص والوثائق الاقتصادية ذات الرصد الدقيق. من جهته، يقر بيرك بأن الاستوغرافيا الأجنبية هي من إمكانها أن تنير بشكل مكثف ماضي المغرب، عكس الاستوغرافيا المحلية التي تبدو محدودة، وسطحية وغير عاكسة للواقع. ولا تساهم في تقدم مستويات التحليل. أنظر:

كيلوغرامات من اللوز ونفسها من الجوز¹. في المقابل، كانت 80 فرنك فرنسي تضمن شراء 5 رؤوس من الماعز، 10 قنطار من الصوف، 5 كغ من اللوز، 20 كغ من الزيتون و10 كغ من الجوز. الحقيقة، أن هذه الأرقام لا تتناسب مع موارد عائلة جبلية متوسطة الدخل.

على مستوى أعلى، وجد الاقتصاد الجبلي نفسه أمام مفارقة جوهريّة: التناقض بين الاستهلاك العتيق لسكانه من جهة، والخضوع لتقلبات التجارة الخارجية من حيث سعر الشعير في السهل، وسعر الشعير في أوروبا من جهة موازية. هذه المفارقة هي التي تفسر إلى حد كبير سرعة انهيار السوق الجبلي وخضوعه لمتغيرات تقلبات الأسعار.

IV- الماء وتقلبات الأسعار:

أ- قبيلة أفيفن: انفيضة في واجهة القياس الكمي

من أجل توضيح قلب الأسعار في منطقة الأطلس الكبير الغربي سنقيم مقابلة بين النقد والمقاييس المحلية المعتمدة في الأوزان. ففي منطقة انفيضة، وخاصة في عهد الحاج عدي المتوكي الذي قرر أن يعادل الريال 22 مثقال². وانتقل مع القائد محمد أو عدي إلى 24 مثقال، ومنه إلى 32 مثقال، وفي سنة 1924 تعدى 40 مثقال. تُفصح هذه الأرقام عن تغير في كمية الأوزان المحلية وخضوعها للنقد. ففي شهر شوال من سنة 1340 هـ، الموافق لـ 1922 م كانت قبيلة متوكة في الأطلس الكبير الغربي قد تخلت نهائياً عن الأوزان المحلية، وانخرطت في سلسلة النقد الفرنسي بشكل نهائي.

تُظهر وثيقة اعتمدها جاك بيرك J. Berque عن مجال انفيضة حقيقة تباين الأسعار المحلية من 1817 إلى سنة 1912. من شأن مقارنتها مع الوثائق الحضريّة من نفس الترتيب أن يُوفر مؤشرات كمية مهمة لتتبع الوضعية النقدية للدير والجبّال. كما تكشف عن العلاقة بين معايير النقد من جهة، ومقايير الأوزان المحلية (المثقال، الأوقية، الموزونة). ففي منطقة انفيضة التي اشتغل عليها جاك بيرك بناء على وثيقة الترتيب الموجودة لم يتم اعتماد الريال فيها إلا ابتداء من سنة 1267 هـ- 1851 م، ومنذ هذا التاريخ، أخذ الريال في التطور، إذ انتقل من 17 مثقال إلى 140 مثقال في النصف الثاني من القرن 19 م. هكذا، طرح الريال مسألة التناسب مع التقاليد المحلية³. ووفقاً

Berque. J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p298.

¹ - Ibid, p 295.

² - Ibid, p 296.

³ - من أجل التوسع أكثر في هذه النقطة يمكن العودة إلى:

Le Tourneau. R, Fès, 1949, p 282 et suiv ; voir aussi De Foucauld, Ch, Reconnaissance du Maroc, p22, et Michaux- Bellaire. E, L'organisation des finances au Maroc, p 201 et suiv, Segonzac, Voyage au Maroc, p 267 et Au cœur de l'Atlas, p 162.

لهذه التقاليد المحلية، يساوي المثلقال 10 أوقيات، أو40 موزونة¹. بينما تنتشر بين الناس قطع الفلس الذي يساوي 8 موزونات، والكروش الذي يساوي 25 موزونة، والريال الذي يساوي 500 موزونة. لكن يلاحظ خلال القرنين الماضيين (17-18)م بدأ توسيع دائرة التعامل بالقطع النقدية في عدة قبائل من الأطلس الكبير الغربي. لكن اللافت للنظر هو أن الإشارة إلى عملات الشلوح القديمة بقيت محافظة على قواعدها حتى نهاية القرن التاسع عشر.

يمكن تتبع هذه المؤشرات في تعويضات القانون المحلي، تصل ديّة رجل ميت إلى 35 مثقال سنة 1721، وتحرير عبد يساوي 10 مثقال سنة 1792، وديّة امرأة حددت في 15 مثقال سنة 1816، وأجرة فقيه تصل إلى 1,2 مثقال وفي الأسبوع 8,4². هذه الأرقام يمكن تناولها في إطار تاريخ اقتصادي طويل الأمد يبدأ من القرن 12 م، وينتهي إلى القرن 19م. وفي غياب استوغرافيا اقتصادية دقيقة عن تاريخ هذا المجال، يتعين على الباحث الاعتماد على منهجية التحقيق مع الشهود Investigation auprès de témoin. وتظهر الصورة مرآة للاقتصاد المحلي في المجال.

ركز جاك بيرك في توضيح حقيقة الرواج التجاري في مجال الأطلس الكبير الغربي على المناطق التالية وفق ما يعبر عن الترتيب التالي:

المناطق التي تم التركيز عليها:

- 1- سبت مزوضة
- 2- أربعاء متوكة
- 3- أربعاء ادويران
- 4- أعالي دمسيرة
- 5- بولعوان
- 6- إدما Idma
- 7- امتنانوت
- 8- امتنانوت

¹ - Berque. Jacques, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p296.

² - Berque. J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, op, cit, p 298.

سبق لجاك بيبرك في جدول خصّه للمبادلات التجارية في الأطلس الكبير الغربي أن وقف عند حقيقة عدم انتظام الأسعار في مجال الأطلس الكبير الغربي. يُعزى ذلك، إلى عامل ندرة المواد، أو اشتداد حدة المضاربات. ف 1,55 بسيطة حسنية تساوي 13 كيلوغرام من الشعير، وواحد كيلوغرام من الجوز المقشر يساوي 1.87 بسيطة حسنية. عدم التناسب واضح، في مثل هذه الدورة، الإنسان الجبلي لا يستفيد من ارتفاع المضاربة¹. منذ نهاية القرن التاسع عشر وانطلاقاً من الوثائق النادرة التي خلفها القنصل لويس شوني L. Chénier كان اللوز يحتل مكانة محورية في التجارة مع أوروبا، وتظهر دراسة استقصائية تغطي الفترة من 1846 إلى غاية 1870 أنها تُصدر من ميناء موكادور، من ألف إلى خمسة عشر ألف مليون طن من اللوز سنوياً، بقيمة تصل إلى الثلث وأحياناً إلى النصف². اللوز يأتي أولاً تم الشمع والصوف والجلود ومواد أخرى مختلفة من ريش النعام وأعشاب طبية. ووفقاً لوثائق الجمارك les documents douaniers تقلب سعر اللوز في الفترة قيد الاستعراض من 40 إلى 50 فرنك للقنطار، علماً أن القنطار يزن 54 كلغ، وكانت هناك فترات قفز من 60 إلى 80 إلى 95 فرنك في عام 1886. هذه التقلبات ترتبط بتقلبات الحصاد ومناورات المضاربين.

وقد يحدث أن نقيس القنطار من زيت الزيتون بسعر اللوز الذي كان يباع ما بين 36 إلى 39 فرنك، وفي الوقت نفسه، يتراوح سعر الذرة ما بين 6 و9 فرنكات.

لسوء الحظ نفتقد إلى مؤشرات مترابطة حول مادة الشعير. ولكننا يمكن أن نتبع منحى الشعير بمتوالية الزمن، خاصة في أوقات المجاعة 1850-1851. بلغت قيمة الشعير ما بين 12 و 18 فرنكاً لخروبة تزن 75 كلغ. هذه السنوات سوف يتم تبادل اللوز الجبلي في ثلاثة أضعاف من وزن الشعير في موكادور، والوضع أكثر من ذلك في سوق امتنانوت في ظل نظام غدائي ظل يستند على أساس العصيدة مع بعض الأعشاب، مقابل ارتباط اللحوم بأيام الذبح الجماعي بموائد الأعيان وخاصة الخاصة.

وإذا وسّعنا دائرة الاقتصاد، تفيد الأرقام المحصل عليها أن التجارة الخارجية قد حققت في سنوات 1861 و1862 حوالي 37 مليون فرنك من المداخيل³. ثلث هذا المبلغ منتوجات أوروبية الصنع، والثلثين الباقين من الصادرات. يظهر هذا الرقم حيوية النشاط التجاري رغم نقص المحاصيل واکراهات التدبير السياسي. تتشكل مواد

¹ - Berque, J, Notes sur l'histoire dans le Haut- Atlas occidental, op. cit, p 299.

² - Ibid, p 299.

³ - Graig, J, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 195.

التصدير من حبوب، زيت الزيتون، الصوف، اللوز، الجلود، الأثواب، الزرابي، الفخار وملح البارود¹... ويأتي الشاي والسكر والحديد على لائحة الواردات على ميناء الصويرة. على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان السبق في المغرب للحضور التجاري الانجليزي من حيث المعاملات. نفس الأمر ينسحب على مستوى تنبيه الاستوغرافيا الانجليزية لأهمية الري في تحسين أحوال التدبير الفلاحي. لقد عمد المهندس جيمس كريك J. Graig في رحلته إلى المغرب إثارة انتباه المخزن إلى أهمية أشغال الري بضواحي مدينة مراكش التي سُدَّت معظم قنواتها تحت أرضية²، بخلاف قنوات مدينة الرباط التي توجد بها الأشغال³.

مكَّن التحقيق الذي أجراه روبير مونتاني R. Montagne حول "البروليتاريا المغربية" من ميزة الانخراط في أراضي مجهولة في مجال الأطلس الكبير الغربي. سمح هذا التحقيق بتصنيف أولي للحقائق. يتضح أن هذه القبائل القديمة مثل حاحا، سكساوة، كدميو تمسكت بروحها النبيلة الموروثة من العهد الموحيدي.... بالمقارنة مع سوس ودرعة الذين ينتمون إلى المغتربين. على مستوى أصغر، في الأطلس الكبير الغربي تكشف المقارنة بين النسب المئوية لمختلف وحدات تاقبيلت عن اختلافات مذهشة. يتعين علينا البحث عن سبب هذه الاختلافات في أماكن أخرى غير الديموغرافيا أو انعدام الأمن المناخي... هذه الاختلافات تظهر في القانون والدين. هكذا نصل مع روبير مونتاني إلى تمييز اثني عشر مجالا تختلف فيها حجم الظاهرة، وفقا لمبدأ التكامل الذي يضيف هوية على شخصية القبيلة⁴.

يعطي جاك بيرك أمثلة عن حقيقة ذلك، انطلاقا من جريدة عائلة محلية تنتمي إلى قبيلة دمسيرة، عائلة عدي أو محمد واعراب، تمتلك هذه العائلة 12 منزل، 22 قطعة أرض مروية بمساحة 3 هكتار، 139 هكتار، 1838 شجرة لوز، 110 شجرة زيتون، 109 جوز الأشجار، بينما عائلة محمد أو بلا في تابراجوت لحسن تملك 88 قطعة أرض مروية، و 12 هكتار من الأراضي الجافة، 250 من شجر اللوز، و 102 من شجر الزيتون. وعائلة لحسن نايت تحرات 13 قطعة أرض مروية، و 19 شجرة جافة، و 280 شجرة لوز، و 15 شجرة جوز، و 37 من شجر الزيتون.

¹ - ملح بجودة ضعيفة، يتم اقتلاعه بوسائل بدائية من بقايا ترسبات مدينة مراكش.

² - يبدي جيمس كريك استغرابه من انسداد هذه الحفر الباطنية التي تجلب المياه من منابع مرتفعة بجبال الأطلس، والتي تبعد الواحدة منها عن الأخرى ب 100 قدم، ويتراوح عمقها ما بين 10 و 40 قدما... انظر:

Graig. J, Un aperçu du Maroc, Bulletin de la société de géographie, Mars, 1870, p 196.

³ - يصف جيمس كريك هذه المنشآت المائية في الرباط، حيث توجد تقويسات، طولها من ثمانية إلى تسعة أقدام، ولا يتجاوز علوها ثمانية إلى عشرة أقدام، مبنية بواسطة الطابية التي خليط من الجير والحصى مبللا بالماء.

Graig. J, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 197.

⁴ - Berque. Jacques, Notes sur l'histoire dans le Haut- Atlas occidental, op. cit, p303.

تركيب هذه المعطيات يفيد أن منتجات الأطلس الكبير الغربي كانت موضوع طلب متزايد من طرف تجار مدينة الصويرة طيلة القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، من شمع، جلد الماعز، زيت، جوز ولوز¹... وقُرت هذه المنتجات الجبلية دخلا منتظما للأهالي، وأنعشت الرواج التجاري في مجالات الأطلس الكبير الغربي². وبذلك، ظهر هذا المجال مرتبطا بالاحداث الكبرى لتاريخ المغرب، يتعافى حينما لا تكون هناك مجاعات ولا وأوبئة ولا جوائح، ويتضرر حينما تنتشر هذه الأعطاب وإن بشكل محدود نسبيا.

الحاصل، عانى هذا المجال من فداحة التباين والهشاشة اللتان تفوقتا على كل المتغيرات الفردية. وعليه، يمكن الاستنتاج أن البنية الجبلية تفوقت على أي طموح فردي مهما كانت جديته في تغيير الشروط العامة للحياة. بدا الجبل دائم الجوع والفاقة، حتى وهو غني بموارده وسكانه. ظل في حاجة دائمة إلى سهوله المجاورة من أجل تأمين خبزه وعصيدته؛ وظل السهل بدوره خاضع لحتمية الجبل في إنتاجه واستهلاكه.

نصل إلى الاستنتاج الأساسي: ظل الجبل دائم الخضوع لثنائية مُهيكلية: عدم كفاية انتاجه من ناحية، وحاجته إلى التصدير من ناحية ثانية. لكنه في مقابل هذا الوضع، رسم المجال خصوصية فريدة في تاريخ المغرب: تواصل نقدي سهل نسبيا عن تعقيدات الأوزان والمقاييس في الأمصار والحوضر. وبقدر ما عبّر عن بساطته بهذا الشأن، بقدر ما عمّق حجم التفاوتات الاجتماعية بين سكانه. في وقت عانى فيه الاقتصاد الجبلي من تناقض صارخ: صبدأ أنماطه الحياتية من جهة، وكثافة تسويق مواده من جهة موازية. مع ما كان يصاحب المتواليات من ابتزاز مستمر للمجاعات والأوبئة التي عززت من واقع التفكك الاجتماعي. في الجبل لا يجب أن ننظر إلى الماء كمعطى بيولوجي فقط، بل كرمز اجتماعي بما تتضمنه كلمة رمز من احياءات سوسيولوجية.

¹ - يقر المهندس الانجليزي جيمس كريك عن كون ميناء الصويرة سحب البساط من ميناء أكادير منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ومنه صارت تُصدر جلود الماعز وزيت الزيتون واللوز والشمع نحو أقطار مختلفة... إلى أن صار هذا الميناء الأكثر أهمية في المملكة بتعبير الملاحظين الأوروبيين، تجتمع فيه تجارة سوس وأفريقيا الوسطى وتجارة مراكش وقبائل الأطلس... من حيث وصف هذا الميناء، فهو مشكل من انحناء داخلي في الشاطئ بواسطة جزيرة صخرية تابعة للاتجاه العام لخط الشاطئ، ومن الشمال والشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي تدخل إليه أمواج المحيط من جهة الجنوب الغربي بتأثير من الطقس الرديء العنيف والمروع، ما يتسبب في كثير من حوادث الغرق بدفع السفن من أماكن رسوها بالساحل... وهكذا يظهر هذا الميناء الأطلسي مؤمنا قليلا، ومفصولا عن الداخل بواسطة حزام من التلال الرملية المتحركة على عرض يقارب من خمس كيلومترات، معرضة باستمرار لزحف المحيط، بينما يتوقف ارتفاع الماء داخل الميناء على قوة التيارات البحرية والهوائية. أنظر:

Graig James, Un aperçu du Maroc, Bulletin de la société de géographie, Mars 1870, p 193.

² - Berque, J., Notes sur l'histoire dans le Haut- Atlas occidental, op. cit, p303.

مع نهاية عهد الحماية كان هذا الجبل في طور الاستشفاء من أمراضه المزمنة، بدأ يتعافى، لكن ببطء، حيث موارد هجرة أبنائه حلت محل موارد أرضه ووفرة مياهه. لا يمكن أن يتم هذا التحول دون محاكمات قاسية، دون توتر بين الأغنياء والفقراء على حد تعبير جاك بيرك.

V- الماء والسلطة: فاعل جديد في الأطلس

يتعذر فهم مجتمع الأطلس دون العودة إلى رحلة الماء داخله، مثلما يتعذر في مستوى ثان فهمه بدون العودة إلى نسقه القايدي. الواقع أن الترابط بينهما يُماثل ضفيرة شعر معقودة. راهنت القايدية بعد شغور السلطة على مسألة احتكار الحقوق المائية في عالية الجبل، واعتبرتها محور الارتكاز في ضبط مجال الحوز وهندسته، في قدم الجبال كما في سهله، تهجيرها وتوطئنا... وحتى إن أطلال البعض النظر في مسألة تجاوزات النسق القايدي على المستوى المحلي، ففي النهاية هي إدانة قبل كل شيء لنظام الحماية الذي رعا بنية الفساد عن طريق الإكرام والإنعام... وصنع البؤس، وشجع على ترحيل القبائل نحو المناطق الأشد بؤسا. بذلك، تكون لحظة الحماية سيبة جديدة متدثرة في ثوب القانون.

يجب أن نُذكّر مرة أخرى أن المسألة القايدية في هذا الفضاء الجغرافي توقّرها أكثر من أي فضاء آخر المناخ الحاضن للتشكل¹. بدا هذا التشكل أولا في شكل قيادات محلية متنازعة القوة والنفوذ²، وفي مرحلة موالية في شكل طموحات سياسية تُبْزُّ سلطة المخزن نفسه³. بالنهاية، يجب لا يجب أن نُخرج هذا التحول عن سياقه الذي أفرز نسقا مركزيا ظل منخورا بأفة الفساد من الداخل، ونظيمة إدارية مثخنة بالأورام فقدت قدرتها على ضبط الهوامش والأطراف، وحتى حينما حلت الحماية لم تزد إلا أن هيأت الوضع لتقبل سيبة جديدة مقنعة في ثوب

¹ - من حيث التأصيل يمكن اعتبار تاريخ 14 أكتوبر 1912 تاريخ تدشين سياسة القواد الكبار من طرف هوبرليوطي في أعقاب اجتماعه مع قواد الأطلس في قصر الدار البيضاء تحت الرئاسة الاسمية للخليفة السلطاني مولاي بوبكر العلوي، سطرليوطي خلال هذا الاجتماع الخطوط العريضة لسياسة القواد الكبار:

الاستعداد التام للعمل على صيانة وحماية الوضعية المكتسبة للقواد الكبار؛

تقديم الضمانات الكافية لتحقيق سلطتهم واستمرار نفوذهم؛

وضع حد لمنافساتهم السابقة واقامة التوازن بينهم.

² - تحكم القائد المدني الكلاوي في ممرتلوات، وخاصة في تيزي ن تلوات الرابط بين مراكش ودرعة، وتحكم الطيب الكندافي قائد قبائل كندافة في ممرثلاث ن يعقوب الرابط بين مراكش وتارودانت، وتحكم عبد المالك المتوكي قائد قبائل متوكة في ممر تيزي ن أوماشو الرابط بين مراكش وسوس... انطلاقا من هذه النماذج الثلاث يظهر ارتباط الظاهرة القايدية من حيث القوة والنفوذ بالتحكم في الممرات الاستراتيجية.

³ - التأليف التي نسجت حول المخزن كانت على شكل نظم أدلوجات ثلاث: جهاز طفيلي دخيل، ثانية دافعت عن وجوده حتى في الأفاصي البعيدة، وثالثة وافقت بين الرأيين.

القانون الاستعماري¹. وهي إذاك تغمض عينها عن نهب القبائل التعيسة، التي جرى تجريدتها من ممتلكاتها، وسرقة أراضيها، وتحويل مجاري مياهها².

جنحت الاستوغرافيا الفرنسية تحديدا إلى ربط لحظة التمكين القايدي في الأطلس بوفاة السلطان الحسن الأول 1894م. حينما نتبنى هذا الاقتراح يكون إذاك التماثل على الصيغة التالية: ضعف المخزن في المركز يوازي قوة السلطة المحلية في الأطراف. لكن مع الحماية زاد الاقتناع بأن حيازة الأرض والماء مصدران من مصادر تشكل السلطة والنفوذ داخل مجال الأطلس الكبير. مع ليوطي برزت النزوعات الفردية للقياد في تملك الأرض والماء، وصار مجال حكم القايد خاضعا لتنظيم ترابي يعتمد على الملكية العقارية... كما ظهر المجال خاضعا في انتاجه لسلسلة الاقتصاد الرأسمالي، بدل اعتماده على المحاربين والتوسع عن طريق غزو القبائل³. وقتها كان ليوطي يراهن على هذه الفئة لفك ألغاز البنية العقارية الشديدة التعقيد، وتسهيل انتقال الملكيات العقارية من القبائل إلى المعمرين الجدد. كانت استراتيجية ليوطي استمالة القبائل والأعيان والحفاظ على المصالح، وبالتالي، تكون الحماية قد بنت مغربا قائما على المصالح.

الراجح، أن نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر فتح قوسا جديدا في تاريخ الهوامش والأطراف، جعل من فئة القياد/ أسياذ الوقت يتسلقون هرم السلطة، ويقتربون من دار المخزن، وأحيانا يعادون خدامها، ويقوضون توازن تدبير مياه السواقي⁴، ويقوضون النظام العرفي المتوافق عليه في تدبير النسيج المائي. في مقابل هذه الصورة (الشكل 15)، ساهم هذا التحول الحاسم في تجميع كل المقدرات القبلية من ملكيات عقارية وحقوق مائية منتزعة من مالكيها الأصليين في يد القايد. ظهر القائد في صورة شخص يشترط سلطته من أجل الاستفراد بالعقار والماء، ويدفع نحو تغيير نظم وأشكال القواعد المرعية.

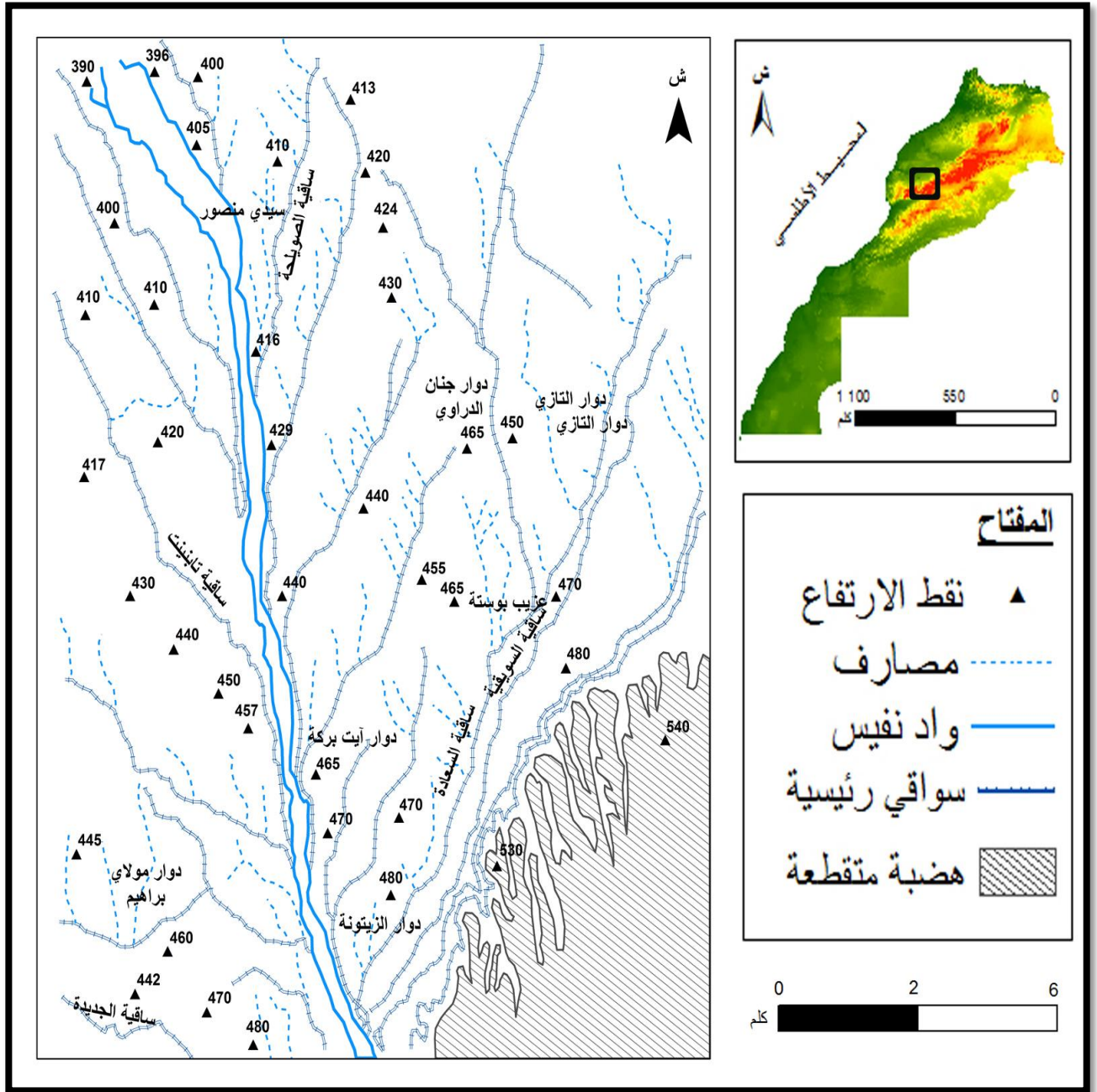
¹ - يُقر الصحافي كوستاف بابان أن هذه السياسة المبنية على اغماض العين عن تجاوزات أسياذ الأطلس في الحوز أضرت بالسياسة الاستعمارية معنويا أكثر مما أفادت ماديا خاصة في فترة تولي المقيم العام تيودور ستيك التي تميزت بالتراجع عن مبادئ الحماية التي سطرها هوبير ليوطي، ويتوغل ما يسميه بابان "قبيلة كلاوة على ضفتي وادي السين".

² - بابان كوستاف، الباشا الكلاوي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، 2017، ص 14.

³ - الإبوركي عمر، الظاهرة القايدية: القايد العيادي الرحماني نموذجا، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، شركة بابل للطباعة والنشر، والتوزيع، الرباط، 2000، ص 183.

⁴ - عيشان مصطفى، مياه الري بين السلطة الدينية والسلطة السياسية أو إعداد التراب الوطني ودرس التاريخ، مقال ضمن مجلة أمل، العدد 24، ندوة تاريخ الري بمجال الأطلس الكبير، ندوة الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، أكادير، 27- 28 أكتوبر 2000، السنة الثامنة، سنة 2001، ص ص 62- 69.

خريطة (4): السواقي في الحوز¹



¹ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 320. بتصريف

عمليا، يبدأ مسلسل التحكم بالاستحواذ على الأرض، ثم ينتقل إلى الحقوق المائية، وبعد ذلك يتواصل المسلسل بتحفيظ الأملاك والعقارات في اسم القائد كمالك شرعي جزاء خدماته الجليلة نحو المخزن الشريف¹. إلام يفضي ذلك؟ يفضي هذا المسار إلى خلخلة البنيات الانتاجية المحلية، ويساهم في تفكيك اللحمة الاجتماعية المدافعة عن الأرض والماء. يحيل بول باسكون P. Pascan في تناوله لنموذج الكلاوي إلى هذه الفكرة، حينما يلمح إلى أن الباشا الكلاوي بمجرد توليه منصب الباشوية 1912 عمده إلى تفكيك الشبكات التي حاربت، وصادرا الأراضي والمياه². فكان من الطبيعي أن يُغذي النسق القايدي النزاعات حول الملكية العقارية والموارد المائية في مجال الحوز. ورغم كونه مطلق السلطة ظاهريا، إلا أنه كان تحت رقابة أجهزة الحماية خاصة في فترات الاضطراب السياسي. (الشكل رقم 4).

توسل هذا النسق السياسي بممارسات قائمة على الإذلال، التهيب، التدليس، وصنوف متنوعة من الاغتصابات والعنف المولد للضغائن والأحقاد. السيد فيه طاغية متجبر، والرعية مستعبدة هلوعة، ظاهرها الخنوع والذلة، وباطنها الغلّ والنقمة³. احتجن أسياد الأطلس السلطة والثروة أمام أعين مسؤولي الحماية وبمباركة منهم، وأحيانا في تحدي لهم. فكيف يمكن تفسير هذا الصمت؟ أوليست التصدعات القريبة التي جرّها نسق القايدية من تهجير واستعباد وتحكم في المياه...لم تكن إلا جوابا صريحا عن فشل الرهان على سياسة القواد من طرف مدبري الحماية؟

عودة إلى نموذج الكلاوي، في البداية، يتيح تتبع هذا النموذج في الحوز فرز مستويين في التحليل: الأول يفضي إلى استنتاج أولي يجعل من نفوذه السياسي وسلطته الوقتية متمركزة في قصباته في الأطلس من جهة، والثاني يفيد احتكاره لمعظم منابع والسواقي في المجال⁴. يهمننا في المقام الأول المستوى الثاني. مع مستهل عقد الحماية على المغرب كان الكلاوي يبسط سيطرته تدريجيا على حوض تانسيفت⁵، ويتحكم في مجراه الرئيس واد غدات، ويدفع بمالكيه الأصليين نحو الهامش، ويُعرض سكانه المحليين إلى أعمال السخرة والكورفي.

¹ - ظهير 1923 الذي منح للباشا الكلاوي 600 هكتار في قطاع سعادة مع حقوقها المائية نظير خدماته المخزنية. يفيد الظهير أيضا أن الكلاوي اشترى 600 هكتار أخرى في سعادة بحقوقها المائية، تزودها ساقية سعادة، كان نصيب الباشا منها 10 فرديات من أصل 32 فردية مخصصة لسقي أراضي قطاع سعادة.

Boite D 511 cote d 75. Zone Marrakech, Archives du Maroc, Rabat.

² - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 321.

³ - بابان كوستاف، الباشا الكلاوي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، م س، ص 38.

⁴ - يمكن أن نرتقي بالسواقي المائية إلى مستوى الآلية الاجتماعية والتقنية التي تدور حولها مختلف العلاقات الاجتماعية التضامنية.

⁵ - يعبر هذا واد تانسيفت تراب مجموعات بشرية مختلفة بدءا بالجنوب الجبلي لكندافة ومتوكة ومسفيوة، والسراغنة شرقا، والرحامنة بالشمال، والشيظمة بالغرب. أنظر: هوزالي أحمد، معلمة المغرب، الجزء 7، ص ص 2216-2218.

في الأصل، على المستوى الثقافي والديني، لم يكن لهذا التحكم إلا أن يجهز على منظومة الأعراف والمواثيق التي جرى التوافق عليها لقرون في ما يخص استغلال وتديير المياه في المجال. لقد دأبت قبائل زمران شأن مثيلاتها من قبائل الحوز منذ مدة يعصب تحديدها بدقة على فصل حقوق الماء عن الأرض، وتمليك مياه السقي في لحظات الندرة¹، وتنظيم دورات السقي وفرديات الحصص المائية وفق نظام خاص يمنح لمنتسبي القبيلة الاستفادة من المياه على أساس قاعدة التراضي والتحكيم والتدقيق².

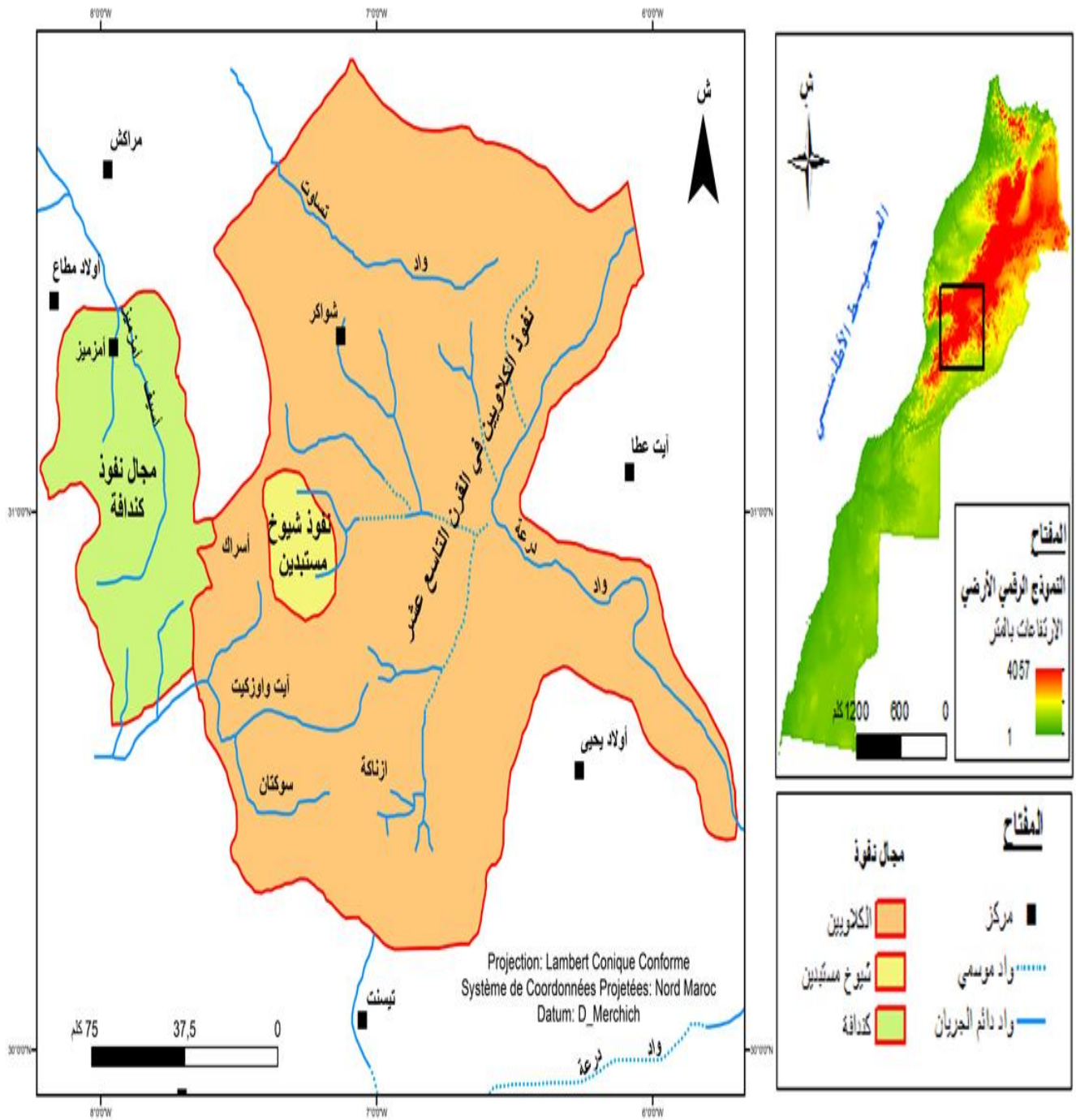
ثمة تحول أساس في ما يخص سلطة تديير الماء في منطقة الحوز غير من معالم الاستغلال السابق. بسط الباشا الكلاوي سلطته على مياه قبيلة زمران، واستحوذ على مياه السواقي الموجودة في السهل كساقية تاخيارت وتاتلوت، كما تم توسيع أراضي الباشا في زمران بزيادة صبيب ساقية تازمورت عبر تعميق الحفرو توسيع المنبع، وتحويل مياه السواقي إليها. يتطلب هذا الأمر، منشآت مائية من قنوات وسواقي مرفوعة من الخشب أو الأحجار، وأنفاق وحيطان للتدعيم³.

¹ - الماء في مجتمعات الندرة يكاد يختزل تاريخ المجال والانسان. سجل ثقافي يؤشر على الثابت والمتحول في مسار ملتهب من الصراعات والتنافسات. أنظر: العطري عبد الرحيم، من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة، مجلة الثقافة المغربية، العدد 38، شتنبر 2018، ص 80.

² - Roche. P, L'irrigation et le statut des eaux au Maroc, Revue juridique et politique, Indépendance et coopération, Tome XIX, Librairie Générale de droit et de jurisprudence, Paris, 1965, p 96- 98.

³ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 333.

خريطة (5): مجال نفوذ الظاهرة القايديية في حوز مراكش¹



¹ - تم انجاز هذه الخريطة بالاعتماد على معطيات متضمنة في معلمة المغرب، الجزء الثاني، ص 618 بتصرف.

يُقر بول روشي Paul Roché بأن الكلاوي كانت له الأهمية في استغلال عالية الساقية¹ أو ما ينعت بـ "الأغبار"²، مقابل اضطهاد الملاك والمستفيدين الأصليين من الساقية³. إضافة إلى تحكمه في ساقية تازمورت التي تنبع من عالية واد غدات والتي تدير الأهمية المائية. حول هذه المسألة بالذات، توقفت بعض النصوص الأجنبية عند تاريخ المنشآت والنظم والتقنيات، وبخاصة عند موضوع الأهمية المائية. ينصرف القصد هنا إلى تقنية غاية في الدقة والمهارة شاع استعمالها في حواضر المغرب منذ العهد الوسيط؛ وكانت قِوام النسيج الاقتصادي والاجتماعي لكل دوله. ففي أسواق الحواضر المغربية تكتل ممتنوه هذه الحرفة في تعاونية (حنطة) كانت تخضع لقوانين خاصة وتراتبية مهنية (أمين الحنطة- المعلم والمتعلم) تحت مراقبة محتسب السوق⁴. فالإلام يعود هذا الاهتمام؟

قد نتفهم خلفية هذا الاهتمام الأجنبي الذي ألحَّ على نسب ظهور الأهمية المائية إلى العهد الروماني، والحال، أن الأبحاث الأركيولوجية المنجزة لا تعضد هذا الاستنتاج في شيء. بخلاف مصادر العصر الوسيط التي تردد في مصفوفاتها وصف لهذه التقنية المائية عند كل من ابن حوقل والجزنائي وآخرين⁵. في سياق ذلك، تحدثت مصادر العصر الوسيط عن مسألة استقدام يوسف ابن تاشفين لمهندسين من قرطبة لإقامة الأرحاء⁶، وصار الحديث عن تقنية الرحي قرين بلاد الأندلس في عهد دولة المرابطين. كل ما قيل، لا يدفع نحو الحسم في تاريخ ظهور الأهمية المائية في المغرب. الثابت، أن حضورها الكثيف تمَّ في عهد المرابطين بحكم توفر ظروف عامة لإقامتها من وفرة للمجاري المائية ووجود معطيات طوبوغرافية مناسبة هيأت اندفاع المياه نحو إدارة محركات الأهمية. وقد استخدمت هذه الأهمية في طحن الحبوب وتوفير المواد الأولية لبعض الصناعات.

¹ - باللغة الأمازيغية تاركا مفرد، جمعها "تيركيو" أو "تيركوبين". كلمة أمازيغية تعني الساقية الكبيرة التي شقها الإنسان لجري المياه. ويظهر أن التاركيين في الصحراء قد اكتسبوا اسمهم من بلدهم الأصلي "تاركا" في منطقة فزان في ليبيا. وتاركا تحيل مؤسساتيا على منظمة اجتماعية وسياسية فاعلة في تدبير شؤون المجتمع القبلي، وعنصر حيوي في بقائه واستمراره. مثلما تكشف عن ذلك العقود والاتفاقيات والدراسات المعاصرة. وقد اجتهد علي صدقي أزايكو في تدقيق الكلمة بالقول: "...تاركة بجيم بدوي إحدى قبائل الملثمين بالصحراء، والنسبة إليها تاركي، جمع تواركة وتوارك، والاسم الأخير حرفه تراجمة الشرق إلى طوارق..." أنظر: بن منصور عبد الوهاب، قبائل المغرب، الجزء الأول، الرباط، 1968، ص 330، وأيضا: أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م. س. ص 144.

² - أغبار مفرد مذكر، جمعها "إغبان". تردد هذا الاسم في عدة مغان ووثائق تاريخية قديمة وحديثة. تشير الكلمة إلى عدة مناطق من أعالي الأطلس الكبير الغربي، وخاصة في أعالي وادي نفيس، وبلاد تيفونت بأيت واوذكيت. وتحيل كلمة أغبار على المنطقة الموجودة في أعلى الواد، حيث تتجمع المياه مكونة رأس المجرى المائي. وبالتالي يكون معناها أعلى حوض النهر. وفي منطقة الأطلس الكبير الغربي تغلغل في بلاد أغبار واديين: أسيف ن- إيجانان، وأسيف ن- مسور، ما جعلها منعزلة وسط قمم جبلية عالية، وخلق لقبائلها تحصينا طبيعيا التي لا تصلها بالخارج إلا مسالك جبلية كبيرة الارتفاع، وصعبة المرور.

³ - Roche, P, L'irrigation et le statut des eaux au Maroc, op. cit, p 97.

⁴ - بوزاد فاطمة، تاريخ الرحي المائية والرحوبين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، مجلى رأى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطة، العدد الأول، جوان، 2020.

⁵ - Gantouri, A, Le moulin hydraulique de Fès, Université de Paris, Panthéon- Sorbonne, 1989-1990, pp 269-270.

⁶ - Madani, T, Les moulin hydraulique à Fès à l'époque médiéval, Société française d'histoire urbaine, 2008, n 22, p 16.

يتحدث ألفريد بيل Alfred Bel في فاس عن وجود طاحونة مائية، تتوفر على جوجين من الأرحاء، الأولى كانت مخصصة لسحق الرمل من أجل صناعة الخزف، والثانية فكانت خاصة بالمواد المعدنية¹. وهناك أرحية استعملت لطحن الحناء، وأخرى خصصت لعصر الزيتون، وصناعة الورق وطحن وعصر قصب السكر...بالنهاية، نحن إزاء منشأة حيوية كانت تدير عجلة الانتاج، وتوفر المواد الأولية لجل الحرف والصنائع من سحق المعادن وطحن الحناء وصباغة النسيج...

أ- مياه حوض الزات:

بسط الكلاوي سيطرته المطلقة على مياه واد الزات، وفرض على الفلاحين كراء المياه التي تفيض عنه بواسطة عقود ايجار. لقد كان سيد الماء المطلق في الحوز، يستحوذ بمفرده على مجمل مياه واد الزات من خزان لآخر، في عاليته كما سافلته، كما كان يرفض تدخل الادارة في تقنين وتوزيع المياه بخلاف الأحواض الأخرى في الحوز (نفيس، غياغية، أوريكة)². لم يقف أمام طموح الكلاوي في الولوج إلى بسائط الحوز سوى قبيلة مسفيوة. هذا الطموح راهن عليه فيما قبل المدني الكلاوي، وأتمه بعده التهامي. وصول الكلاويين إلى مسفيوة سنة 1894م جرّ معه مسلسل التهجير، واقتلاع أشجار الزيتون، وحرق البيوت³. وحتى نقترّب من حقيقة هذا المشهد علينا أن نقرأ ما كتبه كوستاف بابان: "...استولى الكلاويون على إكران واكرار الذي يقدر ب 789 هكتار، عن طريق القاء ملاك الأرض في حفرة أو مطمورة حتى يسلم أهله عقود الملكية لمعالي الباشا..."⁴. ذلك أن 60 % من سكان مسفيوة قد تم تهجيرهم عن أملاكهم الذين ينتمون إلى قبائل تكانة وغجدامة وفتواكة، ودُفعوا دفعا نحو نصب الخيام في مجال قبيلة السراغنة⁵، ومنهم من هاجر إلى المدن الكبرى مثل الدار البيضاء، ومنهم من ارتحل إلى الجزائر⁶. ورغم ذلك لم

¹ - Bel. A, Les industries de la céramique à Fès, Alger ancienne maison bastide- Jourdan, Jules Carbonel Suce, Imprimerie Librairie, éditeur place gouvernement, Paris, 1918, p 121.

² - Bel. A, Les industries de la céramique à Fès, op. cit, p 330- 332.

³ - يُقر كوستاف بابان بأن استيلاء الكلاوي على أراضي مسفيوة يعتبر بحق من أكبر القرصنات - إن لم تكن أكبرها على الإطلاق - التي تمت "في ظل الحماية الفرنسية". وقد ساعده في ذلك بعض المتواطئين من البرلمانين ورجال الأعمال البارزين على ضفة وادي السين. وقد ظلت القبيلة تحتفظ بالرسوم الأصلية.

⁴ - بابان كوستاف، الباشا الكلاوي: الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات افريقيا الشرق، 2007، ص 153.

⁵ - نُصبت حوالي 1.500 خيمة في السراغنة تضم أسرا تنتمي إلى قبائل تكانة وغجدامة وفتواكة، و 3.000 خيمة أخرى في منطقة الرحامنة. في ما لجأ آخرون إلى منطقة تادلا، ليقيموا في نحو 5.000 خيمة، وبلغ الأمر بمليون منهم إلى اللجوء منطقة زمران، وآخرون توجهوا إلى الدار البيضاء ووهران أو الجزائر وحتى أوروبا. أنظر: بابان كوستاف، الباشا الكلاوي، م س، ص 178.

⁶ - بابان كوستاف، الباشا الكلاوي: الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، م س، ص 177- 178.

يتأت للكلابي بسط سيطرته على هذا المجال، إذ لم يحوز إلا على 30 هكتار موزعة بين عشرات الرساتيق الزراعية¹.

سلب الكلابي ما يقرب من ستين بالمائة من ثروات قبيلة مسفيوة، بمساندة مباشرة عضو في مجلس الشيوخ ورئيس مجالس إدارة الزيوت المغربية² شارل شومي Charles Chaumet، وبمعية إداريين نافذين مثل جون دال بياز Jhon Dal Piaz الرئيس السابق للشركة العابرة للمحيطات، والأخوين فور Faure من بوردو، وكاستون بيثل Gaston Paitel وإدوارد بينديك Edoward Benedic... وقتها كذلك تناقلت بعض الأقلام الصحافية قضية تسلطانت المنطقة الوفيرة المياه والغلة، التي كان الكلابي قد استأجر فيها 5.000 هكتار أخرى من الأملاك المخزنية بثمان زهيد³. وقد أظهرت وثيقة أوردها كوستاف بابان عن بعض الأملاك المصريح بها ضمن ثروة الكلابي، وقد بلغت عائداته منها 1.300.000 فرنك. لم يكن لأي قائد في الحوز أن يصرف نظره عن أراضي ومياه قبيلة مسفيوة، وهي التي كانت حينئذ من أخصب أراضي الحوز قاطبة، ومطمعا لكل القياد حتى قبل الكلابي⁴. عام 1920م ستشهد قبيلة مسفيوة أكبر عملية تقسيم على يد الكلابي وشركائه في شركة سوكونما⁵. والقصة تحبل بمعطيات مثيرة لدى وسائل الإعلام الفرنسي التي كانت تنتقد سلطات الحماية العاجزة عن إلجام طموح الكلابي. ومن كان يقوى أيامئذ على الوقوف في وجه طموحات الكلابي؟

استفاد الكلابي من أكدال مراكش بإجارة طويلة الأمد، وعائد يصل إلى 700.000 فرنك، وتسلطانت بعائد يصل إلى 200.000 فرنك، والسوييلة بأرض من 500 هكتار، تُذر عليه عائدا يصل إلى 500.000 فرنك، وتاملالت بأرض من 300 هكتار، وعائد يصل إلى 700.000 فرنك، وبن عقيل بعائد يصل إلى 100.000 فرنك، وحنوت البقال الذي يسقى بمياه قبائل مسفيوة بعائد يصل إلى 400.000 فرنك، إضافة إلى بساتين في دمنات بعائد يصل إلى 500.000 فرنك⁶. وحدها الأرقام من بمقدروها تفسير مجاعة عام 1926م الأليمة التي تفشت في حوز مراكش؛ كان الفلاح المغربي وقتها يبيع القنطار الواحد ما بين 75 و90 فرنك، والفلاح الأوروبي يبيعه ما بين 160 و170 فرنك ويشتكي

¹ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 323.

² - Olivettes marocaines.

³ - روج البعض أن زيارة ألكسندر ميليران Alexandre Millerland رئيس الجمهورية الفرنسية كانت بإيعاز حول قضية تسلطانت، لكن دعم السفير رينو للكلابي جعل القضية لا تأخذ اهتماما أكبر. وقد جاء في البند السادس من العقدة ما يلي: "...يلتزم السيد السفير رينو بأن يدعم، بكل سلطانه، الطلب الذي سيقدم إلى المخزن في هذا الشأن، وبأن يستعمل كل الوسائل التي يمتلكها من أجل الحصول على هذه الإجارة- البيع..." بابان كوستاف، الباشا الكلابي، م س، ص 116.

⁴ - الباشا ادريس بن متو كانت له مائة وخمسين سندا للملكية في أراضي مسفيوة.

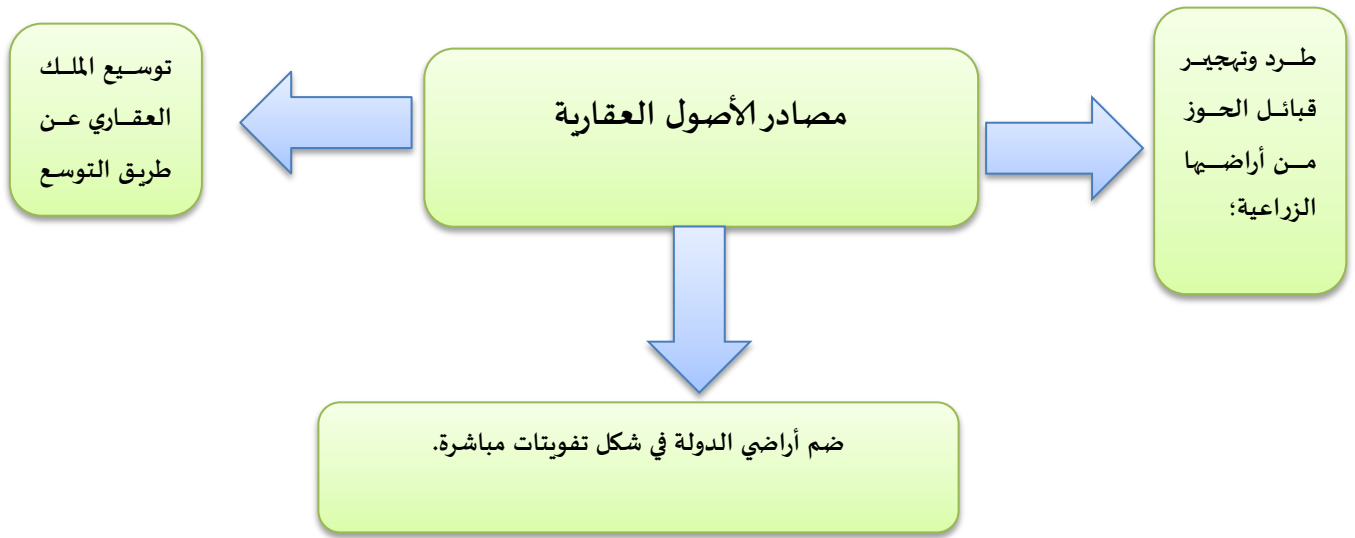
⁵ - بابان كوستاف، الباشا الكلابي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا الكلابي، م س، ص 212.

⁶ - بابان كوستاف، الباشا الكلابي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا الكلابي، م س، ص 122.

من قلة الأثمنة. كل هذا، وكبار التجار في المدينة معفيون من رسوم الأبواب، ويكبدون الخزينة خسارة تقدر بما بين 150.000 و200.000 فرنك من مداخيلها¹.

يُدقق بول باسكون P. Pascan في أصول الملكية العقارية للبasha الكلاوي، ويقسمها تبعا لذلك إلى مرحلتين: مرحلة 1918-1924 تهم وضع رسوم الملكية العقارية على ممتلكات أخيه المدني وممتلكات قبائل الحوز²، ومرحلة ثانية من 1947 إلى 1950 تهم تسجيل ممتلكات خاصة للدولة. وعموما، تعود هذه الأصول العقارية إلى ثلاث مصادر رئيسية:

الشكل رقم 3: خطأطة: مصادر الأصول العقارية للبasha الكلاوي



ضمن هذا السياق، يطلعنا بول باسكون P. Pascan الذي سبق له أن قرأ تحريات الباحث بول روشي P. Roche حول السقي في جنوب المغرب: الطقوس³ وتوزيع المياه⁴، مثلما أهله منصبه الإداري من الاطلاع على وثائق التدبير المائي الخاصة بمنطقة الحوز عن التنازلات التي قامت بها الدولة لصالح البasha الكلاوي في حوز مراكش، وفق ما يوضح الجدول التالي:

¹ - نفسه، ص 132.

² - نسوق هنا مثالا لذلك، منطقة حانوت البقال التي تسقى من مياه قبيلة مسفيوة كانت تدر على الكلاوي سنويا 400.000 فرنك، ومنطقة تسلطانت تدر عليه مدخولا يصل إلى 200,000 فرنك ما بين سنوات 1926 و1927...انظر: بابان كوستاف، م س، ص 122.

³ - توقف إميل لاووست عند طقس الاستمطار "تاغنج" في بلدان شمال افريقيا باعتباره طقس متجذر في الثقافة المحلية يحيل على سجل الاحتفالات والشعائر، محدثا نوعا من الربط بين الطقوس المائية والفضاءات الدينية والممارسات (الذبيحة، المعروف...) ومتوصلا في الآن نفسه إلى أن هذه الطقوس تجسد الانتماء القبلي والمجالي لأفراد القبيلة، وتحيل على قيم الجمال والأنوثة والخصوبة. من جانب آخر من شأن الاهتمام بالأعلاميات Onomastique تدقيق النظر في أسماء صلحاء ارتبطت بركتهم بنزول المطر، أو بأشخاص تصادف ولادتهم أوقات سقوط الأمطار الغزيرة مثل "أبو الشتاء" أو "أبو الغيث". حبيدة محمد، التاريخ والمناخ، ملاحظات أولية حول المناخ في المغرب خلال القرن 17، مجلة المناهل، رقم العدد 46، غشت 1995، ص 205-206.

⁴ - Roché. P, L'irrigation dans le sud du Maroc, la coutume et la réparation des eaux, Marrakech, 1946.

الشكل رقم 4: جدول: تنازلات عقارية من طرف الدولة لفائدة الباشا الكلاوي بحوز مراكش¹:

السنة	العقار	الهكتار	آلاف الفرنكات سنة 1929
1923	سعادة	2300	150
1925	سوييلة	500	40
1926	تاملالت	1500	100
1928	الكولف + حانوت البقال	1000	800
	المجموع	5300	1090

وإذا افترضنا أن مجال الحوز لا يُحوّز حظوته إلا في نطاقه المسقي، فمن شأن ذلك أن يدفع سيد الماء المطلق به إلى تجريد قبائل الحوز من حقوقها المائية، ويوسع دائرة احتكاره لمنابع ومصادر المياه تأميناً لسقي ضيعاته وأراضيه. بعد ذلك، انتقل إلى ايجار جزء من هذه المياه لفائدة المزارعين نظير ضمان حصوله على الضريبة².

لم يكن تجريد القبائل الحوزية من أراضيها ومياهها كافياً لتوسيع نفوذ الكلاوي في الحوز، بل تشوف إلى عقارات الدولة، وضمن تنازلها عن مجموعة من العقارات من أهمها الكولف الذي يدخل ضمن "الضمومين" Domaine في اطار عمليات شراء لا تعكس حقيقة قيمتها الايجارية. عمل الكلاوي على إحداث مجموعة من القنوات والسواقي لجلب ماء واد الزات حتى يسقي ملعب الكولف وحدائقه المجاورة على امتداد يصل إلى 50 كلم. وملعب الكولف هذا كان قد أنشئ عام 1924 في ذروة الجفاف في الحوز، على مساحة تناهز ثمانين هكتاراً، وكان قد تحصل عليه الكلاوي بعد شراء الأرض من بعض أعيان مدينة مراكش، وقد اعتمد كولف الكلاوي في سقيه على الخطارات وبعض السواقي التي تجلب المياه من مسافات طويلة³، ما كان يعرض المياه إلى خطر التبخر والتسرب في المجاري، وأحياناً السرقة من بعض الفلاحين/ الملاك الأصليين. دفع هذا الأمر إلى تشديد المراقبة على أماكن تصريف الماء من طرف الكلاوي. والملاحظ، أن الماء كان يصل إلى ملعب الكولف وحدائقه خلال النهار، لكن في الليل كان حراس الكلاوي يبيعون جزءاً منه إلى الفلاحين⁴.

أ- مياه حوض نفيس:

يشبه هذا الحوض "أضلع السمك". عموده الفقري يتشكل من واد نفيس، وأضلعه مجموعة من السواقي والمصارف التي تلتصق بعموده. يتغذى هذا الحوض على عدة روافد، منها واد أكنديس القريب من قصبة الكندافي،

¹ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 300.

² - بونبات محمد، حقوق الماء في المغرب، مقارنة للنوازل والأعراف وقانون الماء، سلسلة آفاق للقانون، 2000، ص 48.

³ - الكلاوي المزوري عبد الصادق، أبي الحاج التهامي الكلاوي، الأوبة، ترجمة فريد الزاهي، منشورات مرسم، 2004، ص 89-90.

⁴ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 331.

وواد أماسين وواد أمزميز¹. يشكل حوض نفيس أحد الروافد المهمة للحوض الهيدروغرافي لتانسيفت، وتعني كلمة نفيس بالأمازيغية "الضبع" أو "وادي الضباع". وعند المجرى الواسع الذي كوّنه واد نفيس من الجبل في اتجاه السهل يسمى أكركور². وقد يصح هذا الافتراض عند علي صدقي أزاكو، إذا ما استحضرنّا أن هذا الاسم أطلق على القبائل التي تستوطن الضفة اليمنى لنهر نفيس. يتعلق الأمر، بمجال حيوي كان مركزا لقواد المخزن المركزي، ظل متنازعا عليه من طرف قواد الأطلس الكبير³، لأهميته الاستراتيجية التي أهلتها لأن يكون نافذة على الحوز ومراكش الحاضرة من جهة، ولكونه يؤمن مراقبة الطريق الرابط بين وادي نفيس وحوز مراكش.

تشوف الكلاوي إلى مياه واد نفيس. بلغة الأرقام، ناهزت ملكياته العقارية من المساحة الاجمالية في مخروط واد نفيس الخصب حوالي 8%، بينما وصل منسوب المياه التي يسيطر عليها الباشا إلى 18%⁴. على الضفة اليسرى للواد كان الباشا الكلاوي يبسط سيطرته على سواقي الواد، مثل الساقية الجديدة في زمران⁵، وساقية تامسكلفت وتاينينت. وعلى ضفته اليمنى ساقية سعادة وساقية أسكجور وتاركة في سعادة والسويكية⁶. وقد جرت العادة أن يتم اقتسام مياه سهل بويده في زمران بين الكلاويين والزمرايين وقبائل السراغنة⁷، قبل أن تؤول ملكية هذه المياه إلى الباشا الكلاوي سنة 1925 بمقتضى عقود عدلية تثبت ملكيته لحوالي 240 هكتار، و50 هكتار بمرس البغال⁸. اجمالا، وصلت مساحة الأراضي التي كان يملكها الكلاوي في مرس البغال إلى 198 هكتار، منها 140 مسقية، و977

¹ - زروال أحمد، مادة نفيس، المعلمة، الجزء 22، ص 7451-7453.

² - أزاكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 14.

³ - De Segonzac. M, Voyage au Maroc (1899- 1901), Paris, 1903, p 238 ; et Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977, T1, pp 28-182, 274, 346, 348, 367 ; et Justinard. C, Le Caïd Goundafi, Casablanca, 1951, pp 38-39-46-47.

⁴ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 333.

⁵ - تسقي الساقية الجديدة في زمران 12180 هكتار، وتنقسم إلى ثلاث سواقي فرعية: الساقية الناصرية لفرقة أولاد ناصر، والساقية الكايدية لأولاد كايد، تم الساقية السعيدية لفرقة أولاد سعيد. وتتميز الساقية الجديدة بقوة صبيبها المائي الذي يعادل 600 لتر في الثانية. يسيطر الكلاوي لوحده على السدس منها يكفيه لسقي 980 هكتار في سهل بويده ومرس البغال...شوقي حسن، الماء بتساوت، السراغنة وزمران، الأنهار، السواقي، الدول والقسم، المطبعة والوراقة الوطنية، الداوديات، مراكش، الطبعة الأولى، 2012، ص 83-84.

⁶ - ترتبط ساقية السويكية بمأساة قتل محمد بوسنة. وقد كان الباشا بوسنة (1909- 1911) يمتلك جزءا 250 هكتار بحقوقها المائية في قطاع أمزري من أربع فريديات من الساقية مجلوبة من واد نفيس. وقد فوتت إليه نظير خدماته لدار المخزن. يمكن العودة إلى: بابان كوستاف، م س، ص 210-213.

⁷ - Pascan. P, Recherche d'une forme d'exploitation nouvelle, L'Azib de Buidda, Un verger au milieu de la plaine Zemrane, In Bulletin de liaison et d'information de l'office national des irrigations, n° 7 mars 1964, pp 294- 295.

⁸ - استحوذ الباشا الكلاوي في مرس البغال على مصرف مائي من الساقية الجديدة، خصص هذا المصرف المائي لسقي 150 هكتار. وكانت ملكية هذه الهكتارات في ما مضى في يد القايد بن كرشة. وقد عمد الباشا الكلاوي سنة 1924 إلى تحفيظ أراضي مرس البغال لدى مصلحة المحافظة العقارية.

هكتار في منطقة بويده¹. لم يكن لهذا التحكم إلا أن يزيد من حدة النزاعات حول الماء وخاصة بين فخذات أولاد علي والفكارين وقياد كلاوة حول عين تازرت وساقية تازمورت²:

الشكل رقم 5: جدول تقسيم الأراضي ومياه الري بساقية تامسكلفت³

الملاك	المساحة		حقوق الماء		اللت/ ثانية في الهكتار
	الهكتار	النسبة %	لتر/ ثانية	النسبة %	
اقطاعات المخزن Domaine	7855	87	151	83	0.0019
الباشا الكلاوي	558	6	7	4	0.012
الفايد المصلوحي	245	3	5	3	0.02
الحاج البباز	111	1	2	نسبة قليلة	0.02
التباع	110	1	1	نسبة قليلة	0.01
قاضي مراكش مولاي العلوي	-	-	9	5	0.083
الجبوس	18	-	-	-	-

ب- مياه واد أوريكة: الاحتكار وإعادة التوزيع

وافقت إدارة الحماية الفرنسية على تمكين الباشا الكلاوي من ثلثي مياه ساقية تسلطانت بمقتضى الجرد الذي باشرته مصلحة الإدارة العامة للفلاحة والاستعمار سنة 1918. ومعلوم أن هذه الساقية ظلت تختص بصبيها المرتفع مستفيدة من ذوبان ثلوج عالية الأطلس، وكانت تسقي حقول منطقة تسلطانت، ومنها 5000 هكتار كان الكلاوي قد استأجرها من الأملاك المخزنية.

انتبه الجرد الذي باشرته مصلحة الإدارة العامة للفلاحة والاستعمار سنة 1924 إلى أن نصيب الكلاوي من مياه ساقية تسلطانت يوافق فقط الثلث، بينما الثلثان الباقيان هما ملك لقبيلة مسفيوة. وقد جرى العمل على هذه القاعدة منذ بداية الحماية إلى غاية 1924 التي أجري فيها الجرد. ورغم ذلك، فقد بسط الكلاوي سيطرته على مياه ساقية تسلطانت بدعم مطلق من فرنسا، وكان له الحق في تقدير وحيازة الماء قبل مالكيه الأصليين، والفائض عنه

¹ - المجذوب اسماعيل، الماء والسلطة بحوز مراكش، م س، ص 127.

² - كانت هذه الساقية محور نزاع تاريخي قديم بين الكلاويين والزمرانيين. تعود تفاصيل هذا النزاع في ما يظهر إلى بداية القرن الثامن عشر التي أصدر فيها المخزن الاسماعيلي ظهيرا بتاريخ 1112هـ/ 1701م، وجرى تجديده سنة 1137هـ/ 1725م يقر من خلالهما الاعتراف بملكية الخديم عبد الصادق الكلاوي لساقية تازمورت وأرض تازرت بجميع ما تشتمل عليه من الأشجار والأراضي والديار نظير خدماته المخزنية. ولئن لم ينته الخلاف بين الفرقاء حول عين تازرت، جرى مرة ثالثة تجديد الاعتراف من طرف المخزن العزيمي سنة 1897 تأكيداً مرة أخرى في أحقية كلاوة في عين تازرت. وأمام عودة التوتر والنزاع الدائم حول هذه العين لجأ المخزن إلى التحكيم بين كلاوة وزمران. ومنح لزمران الحق في الثلث من العين دون الأرض، وخصص للقائد المدني الكلاوي الثلثين من ماء العين إضافة إلى أرض تازمورت وسواقيها. وهو نفس الأمر الذي جرى عليه الاقتضاء في ظهيري سنة 1936 وظهر سنة 1942. من جهتهم، يدافع الزمرانيون من فخذتي أولاد علي والفكارين عن كون هذه العين كانت تقتسم مياهها مناصفة مع الكلاويين بمقتضى وثائق وعقود عدلية تعود إلى سنة 1222هـ/ 1807م.

³ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 332.

كان يوظفه كوسيلة ضغط وابتزاز للقبائل غير الخاضعة عن طريق كراء فريديات الماء، وفي أحيان عدة كان يتوسل الكلاوي بنظام الشُّركة "تشاركت" مع الفلاحين الذين انتزع منهم أراضيهم ومياههم. يتم تدبير نظام الشركة في الحوز بتخصيص النصف للأراضي المسقية، والثلث للأراضي البورية. بينما أشجار الزيتون المرابطة قرب الوادي لم يكن الباشا يقتسم غلتها مع الفلاحين.

تكشف مياه واد أوريككة تصادم الباشا الكلاوي مع قبائل السافلة (مسفوية) وقبائل العالية¹ (أوريكة)². لقد كان الباشا الكلاوي يعتمد إلى احتكار الموارد المائية، وإعادة توزيعها وفق مقتضيات الإذعان السياسي. وفي ما يخص مياه السقي في قبيلة أغبالو، وخاصة عين تيفرضين القريبة من قصبة الكلاوي جرى الاتفاق على تقسيم المياه بين الباشا والعائلات على النحو التالي³:

الشكل رقم 6: خطاطة تقسيم المياه بين الباشا الكلاوي مع العائلات



تبدأ نوبة السقي من طلوع الشمس إلى غروبها، وتخصص لكل عائلة حصة من الماء تسمى بـ "تيرمت"، ويتغير هذا التقسيم خلال فصول الجفاف باعتماد دورات الشمس، وتحويل مسار المياه في اتجاه خزان مجاور للقصبة⁴.

¹ - قبائل العالية تسمى بالأمازيغية أوكدمت، وهي من مشتقة من الجذر اللغوي "ك- ذ- م"، الذي يحيل على الارتفاع والعلو المشرفين على مناطق واسعة مجاورة. من خلال هذا التحديد اللغوي قد نستنتج وظيفة المجال: المراقبة وحراسة المجموعات البشرية في الأطلس الكبير الغربي. جغرافيا، تقع أوكدمت في الحوض الأعلى لبلاد نفيس على جوانب نهر أوكدمت (ءاسيف ن- أوكدمت) أحد الروافد العليا لنهر نفيس. بهذا المعنى توجد أوكدمت في الغالب عند حدود منطقتين متوازيتين عن بعضهما بسبب التضاريس. وأوكدمت وإيكدميون يتطابقان في الأصل، وقد شاع هذا الاصطلاح أكثر خلال العهد الموحد. وبنفس المعنى توشي كلمة "ءاكديم" في واحات الجنوب الشرقي على أبراج المراقبة في كل من قصور دادس وفر كلا وتودغت. مجاليا، يقع وادي أوكدمت في الجهة الغربية من تينمل، تحده من الشمال والغرب قمم تشرف على بلاد إيكدميون أو كدمية، ومن جهة الجنوب قمم أخرى تشرف على وادي أغبار ووادي نفيس الأعلى. انظر في شأن ذلك:

De Foucauld. Ch, Reconnaissance au Maroc, op. cit, p 214- 215.

Id. Contribution a une étude de la toponymie du Haut- Atlas, Paris, 1942, p 26- 27

أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 16.

² - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 333- 334.

³ - المجذوب اسماعيل، الماء والسلطة بحوز مراكش، دراسة في أثر السلطة القائدية على تدبير الموارد المائية، 1894- 1956، م س، ص 117.

⁴ - نفسه، م س، ص 118.

والحال، تفصح هذه النماذج عن تحول عميق طرأ على سير بنيات المجتمع والاقتصاد في الحوز¹. تم بموجب هذا التحول تركيز الصراع حول موردي الأرض والماء بين الفرقاء. وقد جرى هذا التحول على تغيير القيم التضامنية للمجتمع المحلي، وفكك من روابط التضامن والتآزر، وعزى عن جشع الأفراد، ونسف كل تراكم ثقافي كانت قد حصلت هذه الجماعات البشرية في تاريخها. وقد ترتب عن انغراس القايديّة في مجال الحوز وبعدها الحماية تفكيك المشترك القبلي التقليدي ذي الحمولة التضامنية. على المستوى المجالي، ساهم هذا التحول في تغيير مسار مجموعة من الأودية والسواقي والعيون المائية لصالح اقطاعات الأسياد الجدد²، مقابل حرمان المالكين الأصليين من حقوقهم المائية.

¹ - في أعقاب لحظة الاستقلال يطلعنا بول باسكون عن حالة الحوز، 11.400 هكتار من الأراضي المسقية هي مجموع الملكيات القروية المسجلة في مصلحة مكتب الاستثمار الفلاحي، و16.000 هكتار مسجلة في حيازة عائلة الكلاوي، و25.000 هكتار لخلفائه البياز والحاج إيدر. بخصوص البياز خليفة الباشا فقد راكم آلاف الهكتارات في مناطق وافة المياه، مختارة بعناية ودقة فائقة، بأشجار الزيتون والمواشي في الحقول.

Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op.cit., p 299.

² - من بين النماذج التي يمكن سوقها في هذا السياق "أونائين"، يطلق اسم أونائين على قبائل السفح الجنوبي لجبل درن نسبة إلى نهر أونائين الذي يشتهر بلغة المصامدة باسم "أسيف - ن - لمداد". يتعلق الأمر، بمنخفض داخل الجبل في ارتفاع محدد ما بين 1000 - 2250 متر. تُضبط إحداثياته وفق الشكل التالي: من جهة الشرق تحده بلاد تيفنوت، ومن جهة الغرب محاط ببلاد أيت سمك، ومن جهة شمالها بحوض وادي نفيس. وفي جنوبها جنوباً أيت سمك وإيوزيون. وقد سبق للإثنولوجي الفرنسي إميل لاووست أن لاحظ وجود تقارب بين لفظي أونائين ولفظ أوناء (جمع أوناء= البئر) وهي ملاحظة جديرة بالانتباه. وقبل لاووست ندين للبيدق الذي نقل لنا أول إشارة تاريخية عن "أونائين" بقوله "...أن بلادهم فتحها المهدي ابن تومرت عام 1124م، في نفس سنة بناء مدينة تنمل...". وليس من المستبعد حسب أزاكوب أن يتعرض أهل أونائين لنفس مصير إيزيمير "هزميرة الجبل"، سكان وادي نفيس، حيث قتل أغلبهم، وتقاسم الموحدون ممتلكاتهم بأمر من ابن تومرت. سيحتجب اسم أونائين على امتداد فترات العصر الوسيط إلى حدود مشارف نهاية القرن التاسع عشر. وقتئذ استغل القائد الحاج الطيب الكنتافي موت السلطان الحسن الأول 1894م ليوسع من مجال نفوذه في السفح الجنوبي للأطلس الكبير، فأخضع قبائل "أونائين" سنة 1895م. هذا التوسع فرض على السلطان عبد العزيز تعيينه رسمياً قائداً على أيت إخلف وأيت قضني وأكديم وتضيكك من فرقة أونائين بتاريخ 13 شعبان 1314هـ الموافق لـ 18 يناير 1897، ومع الحماية، لم تجد مؤسساتها الإقامة العامة غير ترسيخ تقسيم مجتمع أونائين بين طرف تابع للكندافي، وآخر تابع للكلاوي وفق ما جرى اعتماده في العقد الأول من القرن العشرين. راجع بخصوص ذلك:

Laoust. E, Contribution a une étude de la toponymie du Haut- Atlas, Adrar n Deren, Paris, 1942, pp 26 et 145.

- البيدق أبا بكر الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وأبداء دولة الموحدين، تصحيح وترجمة ليفي بروفنصال، باريس، 1928، ص 60 - 66- 233.

- ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، المطبعة المهدية، تطوان، بدون تاريخ، ص 94.

- Montagne. R, Les berbères et le Makhzen, op.cit., p 336.

Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977, T2, p 106.

- Arrif. A, Compétition Caidale et procès d'intégration d'un conton montagnard: L'Unayn, In Annuaire de l'Afrique du Nord, XXII, 1983, pp 347-360.

حول تنمل: اسم قرية صغيرة تقع وسط المجرة الجبلي لنهر نفيس أحد روافد نهر تانسيفت، وردت في المصادر الوسيطية بصيغ مختلفة، تينمل عند البيدق وابن القطان وابن خلدون، وتانملت عند الإدريسي، وتينمال عند صاحب الحلل الموشية. وتاملت عند صاحب الروض المعطار². وعند صاحب الصلاة كتبت تارة متصلة. وتارة منفصلة "تنمل" أو "تين- ملل". لا يتعلق الأمر حسب زعم أزاكوب بكلمة مركبة، بل بكلمة واحدة، ومعناها المزار أو المحج أو الحرم أو الحرم². وهو الأمر الذي ينسجم معها من حيث أنها كانت قبل نزول المهدي ابن تومرت بها مكاناً مقدساً تُعقد فيه

في سياق مواز، ساهم هذا التحول في تغيير الخريطة البشرية لمجال الحوز، بتهجير قبائل وتوطين أخرى. وعلى مستوى ذهني التصقت القايدية في المخيال الجمعي بحمولة نفسية أحالتها على سجل دلالي انتعشت داخله مفاهيم القهر، السخرة، الكورفي والفريضة... كل ذلك تمّ في مدار جغرافي كان أشبه وفق إفادة بول باسكون P. Pascan برقعة شطرنج بين قواد الأطلس، بين كل من الكلاوي والمتوكي والكندافي والعيادي... وهم يجسدون في ما بينهم لعبة التوازن الحساس.

VI- الماء والرعي في الأطلس:

في الأصل استوحي هذا العنوان من أطروحة جامعية نوقشت في رحاب كلية العلوم القانونية والاجتماعية بالدار البيضاء منتصف ثمانينات القرن الماضي حول موضوع بنية وقواعد النظام الرعوي عند قبائل غيغاية في أعالي جبال الأطلس الكبير. والحقيقة، لا يمكن أن نفهم هذه المناولة الأنثربولوجية إلا في سياقها العام. لقد وجّه السوسيولوجي بول باسكون P. Pascan فريق عمل نحو النجود العليا للأطلس الكبير لبدء مسارهم العلمي. تألف هذا الفريق من ثلاثة باحثين مغاربة: الأول فكك بنية الأضحية وطقوسها¹، والثاني اقترب من سلطان الجن سيدي شمروش²، والثالث تتبع رعاة الأطلس³.

تتبع محمد مهدي حركية القطيع في المجال والزمن. هذا التتبع قاده إلى بناء زوج منهجي ناظم لعمران الأطروحة، قوامه الربط بين النظام الرعوي والاحتفالات الطقوسية⁴. تشوف من خلاله بعد ذلك نحو تحليل وفهم طريقة انتاج القواعد القانونية من جهة، وعلاقتها بالممارسات الطقوسية والتنظيم الاجتماعي والتقنيات الفلاحية

المواثيق والعقود بين القبائل. يبقى كتاب رحلة الوافد لعبد الله التساقي أهم من دقّق خلال القرن الثامن عشر في وصف عمران تامل. انظر: أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 53-54.

¹ - حمودي عبد الله، الضحية وأقنعها، بحث في الذبيحة والمسخرة بالمغرب، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2010. يتوقف هذا العمل على تحليل الذبيحة والمسخرة التي تجري في أيام عيد الأضحى، بما هما نسقان شديدا التعقيد، يحلان على تفاعل الانسان مع المجال. والكتاب في الأصل سجل حقيقي مع مدونات الإثنوغرافيين والأنثربولوجيين الأجانب، وتبديد لسوء الفهم الكبير الذي اعتري هذه الكتابات.

² - رشيق حسن، سيدي شمروش، الطقوسي والسياسي في الأطلس الكبير، ترجمة عبد المجيد جحفة ومصطفى النحال، إفريقيا الشرق، 2008. هذا العمل عبارة عن فحص أنثربولوجي مكثف لطقس سيدي شمروش "سلطان الجنون"، وأيضاً فحص سياسي مثلما يقر مقدم الكتاب الأنثربولوجي دافيد هارت لمستوى سياسي محلي، بين سلالة أيت بلعيد وأيت ميزان. صدر هذا الكتاب في صيغته الفرنسية تحت عنوان:

Rachik. H, Le sultan des autres, Rituel et politiques dans les Hautes - Atlas, Afrique Orient, Casablanca, 1992.

³ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، الإنتاج الرعوي، القانون والطقوس، ترجمة عياد أبلال وإدريس المحمدي، مراجعة عز الدين الخطابي، المركز المغربي للعلوم الاجتماعية، 2011.

⁴ - قبل ذلك، كان ليفي بروفنسال قد وقف عند تحليله للممارسات الفلاحية والاحتفالات الموسمية في قبائل جبالة عند طقوس الاستسقاء، أو ما يسمى بطقس أطياب" حيث تظهر الحاجة إلى الجو الجميل.

Levi-Provençal. E, Pratique agricole et fêtes saisonnière des tribus du Djbalah, Archives Berbères, vol III, 1918, pp 100- 101.

الرعوية من جهة ثانية¹. والحال، أن هذا الربط يُضفي على مناولة محمد مهدي بُعداً منهجياً فريداً ضمن أغلفة البحث الأنثروبولوجي المغربي في صيغته المحلية². ينتمي محمد مهدي إلى جيل الباحثين المغاربة الشباب الذين تملكهم رهان تحرير العلوم الاجتماعية من وصاية البحث الكولونيالي³. نظرياً، هذا العمل امتداد لأعمال جاك بيرك عن البنيات الاجتماعية في الأطلس الكبير في الخمسينات، وامتداد لعمل كلنير عن صلحاء الأطلس في الستينات. فلا يزال جاك بيرك، رغم مساره المهني، يحتل مركز الصدارة في كل اهتمامات باحثي الأطلس، من حيث تعبيد مسالك وطرق البحث.

يتألف معمار هذه الأطروحة من جزئين، جزء أول يدقق في تحليله جوانب من مونوغرافيا القبيلة في علاقتها بالرموز والقيم⁴، ويركز على خريطة الأولياء والصلاح فيها⁵. يتوقف هنا عند طقسي "تغربي نلعضا" لحظة تدشين

¹ - يمكن الإحالة إلى كتاب حمودا حنان، الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي، سلسلة بحوث ودراسات رقم 84، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2021. يتكون الكتاب من سبعة فصول، مذيّل بمقدمة تأطيرية، وخاتمة تتضمن استنتاجات وخلاصات عامة. يعتمد الكتاب إلى إقامة ربط منهجي بين التنظيم الاجتماعي والطقوس والرموز، ويعتبرها مدخلاً لتفكيك البنيات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والدينية بواحة سكورة. وتتوصل الباحثة إلى كون الماء أنتج حضارة واحة مركبة مستوعبة لعنصر الاختلاط البشري واللغوي والثقافي.

² - هناك دعوة في هذا الصدد إلى إعادة الصياغة، وإعادة الصياغة تفترض جهداً مفاهيمياً وإشكالياً وتأويلياً... ومن شأن هذه العمليات المترابطة أن تسهم في بناء خطاب معرفي محلي. كما تنصرف مجهودات هذا الغلاف نحو انتقاد العقم الشديد الذي اعتري محاكمة مباحث الاستغرافيا الأجنبية. والدعوة إلى بذل جهد نسقي لإنتاج متن محلي يعتمد على رؤية الذات لنفسها. تركز هذه الرؤية على المزج بين الأنثروبولوجيا والتاريخ الاجتماعي، بين المحلي والاجتماعي، وتدعو إلى عدم التسرع في الحكم على حصاد البعثة الأجنبية في المغرب من خلال تعميق المسافة المعرفية الكولونيالية واستثمارها في الإجابة عن الإشكالات التاريخية. أنظر: حمودي عبد الله، المسافة والتحليل، في صياغة أنثروبولوجيا عربية، دار توبقال للنشر والتأليف، الطبعة الأولى، 2019.

³ - سعت الاستغرافيا الاستعمارية إلى نفي العبقرية المحلية، وتشفعت ببحوث علم الأثرية لتأكيد وجهة هذه الفكرة، دافعت هذه الاستغرافيا عن فكرة تنوع الأصول، وتميز المجتمع المغربي بخاصية تجزئية تمنح طابعاً راكداً للماضي المغربي. للتوسع أكثر في هذه الفكرة يمكن العودة إلى: Laroui, A, L'histoire du Maghreb, Un essai de synthèse, t1, Maspero, Paris, 1976, pp 19- 23.

⁴ - لا يمكن للإنسان أن يعيش من دون نسق ثقافي يشتمل على الرموز والقيم. تاريخ الإنسان في كل المجتمعات هو تاريخ رموزه وإشارات ومعانيه... فالرمز هو الذي يربط الإنسان بعالم الموجودات المحسوس، وعالم الماهيات والماورائيات، وهو الذي يشكل سلطة لا مرئية، لكنها مؤثرة في حياة البشر. طبعاً أن يلجأ الإنسان إلى تشييد الزوايا والأضرحة بالقرب من الآبار والمجاري والينابيع والأنهار ومصب الخطارات والمزارات المائية... مثل ضريح لالة عيشة البحرية بضواحي أزمو المظلل على نهرام الربيع، وهو ضريح مختص في طرد شبح العنوسة عند الفتيات اللاتي فاتهن قطار الزواج. تقوم العانس/ البايرة في التحديد الاجتماعي داخل الضريح بمزج الحناء بماء الورد وبعض الأعشاب الأخرى، وتخط بيدها اسم زوجها الموعود على جدار الضريح بجانب كثير من الأسماء الأخرى... في واحة فركلة مثلاً في الجنوب الشرقي، نساء الواحة يعتقدن في لحظة انبثاق عين مائي في باطن الأرض أن ارتشاف الدفعة الأولى من هذه المياه يحل مشاكل العقم.

⁵ - إيكرا من: تعني في التداول الأمازيغي الولي الصالح، وهناك من الباحثين من ربط عبارة إيكرا من بفعل "إيسكرم" أي "حَلَقَ"، حيث دأب أهل الجبل بعد مرور أربعين يوماً من ولادة الطفل الذهاب به إلى ولي صالح من أجل حلق رأسه، وترك خصل من شعره إلى أن يبلغ الطفل سناً معيناً. حظيت هذه الفئة الاجتماعية بمكانة خاصة داخل نسيج المجتمع الأمازيغي بحكم وجود تهديد مستمر في موارده الاقتصادية والبشرية، وتوالي الكوارث الطبيعية وتحرك القبائل الدائم في المجال ويمكن اختصار هذا الدور في حماية الناس من قوى الشر المرئية وغير المرئية، وجلب الرضا والبركة في الأموال، وثانها ما تعلق بمجال التحكيم سواء بين الأفراد أو بين الجماعات في حالة نشوب نزاعات

أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م. س. ص 126

- Bel, A, La religion musulmane en Berberie, Paris, t 1, 1938, p 341.

موسم الحرث، وطقس معروف "إمي تعزا" ولاية الأطلس، وموسم سيدي فارس رفيق ولاية تمصلوحت. وجزء ثان، حُصص لدراسة آلية الترحال والانتجاع في نسيج قبائل غيغاية. الخلاصة الأساسية لهذا الجزء: البنية الاجتماعية والنظام القانوني والثقافي مُتغير حسب الفصول داخل مجموعة البحث. بالنهاية الفكرة تتقاطع من حيث البناء، مع تنظيرات مارسيل موس حول قبائل الإسكيمو.

في الأطلس الكبير، هذا - الجبل الحزين الذي يتغنى بسكانه- مثلما وصفه جاك بيرك¹ لم يكن رهان السياسة الاستعمارية تغيير بنية العامة، بقدر ما كان رهان أجهزة الحماية العمل على تحقيق السلم في سياق مسلسل التهدة العسكرية، عكس مناطق أخرى من المغرب، هنا نتوصل رفقة محمد مهدي إلى فكرة أن المجال هو من يتحكم في تدبير السلطة. حينما ننطلق من هذه الجزئية تتبدد صورة ثبات البنية وسكونيتها².

رفع الاستعمار رهان تحقيق السلم كأولوية في البداية. لا يمكن أن يتم هذا الطموح إلا عبر آليات مصاحبة: نزع السلاح، عزل الأطراف، وتجريد المؤسسات المحلية من فاعليتها الاجتماعية... وجد المستعمر نفسه بعد ذلك أنه لا بد من الانتقال إلى رهان الاقتصاد عبر اشراك الجبل في الضريبة. لا يصير ذلك ممكنا إلا عبر تشجيع الجبل على الاستمرارية والتكاثر³. هنا ظهرت مفارقاته الأساسية.

مهّد محمد مهدي لإطاره النظري بالحديث عن الاسهامات السوسولوجية التي تناولت النسق الديني في المنطقة المغاربية. ركز في هذا الشأن، على الباحث الفنلندي إدوارد وسترمارك الذي أحال نسق الطقوس الأمازيغية على نظرية الإله المحتضر، أكثر مما أحالها على الوقائع والأحداث المحلية⁴. وقبله، كان ألفرد بيل، مؤرخ الدين في غلاف الاثنولوجيا الفرنسية، في مقال له صدر له سنة 1934م، كان قد أقر بفرضية غياب "تاريخ ديني لشمال افريقيا"، شفيعه في ذلك، تمازج خليط من المخلفات والبقايا السحرية الوثنية والممارسات الما قبل اسلامية في ممارسات

- Dermenghem. E, Le culte des saints dans l'Islam maghrébin, Paris, 1945, p 162

¹ - الاسم المحلي لهذا الجبل: دُرْن. وتنطق الكلمة بتسكين الحروف الثلاثة. أطلق هذا الاسم المحلي حسب سترابون Strabon وبلين Plin على ما يسمى اليوم بـ "الأطلس الكبير"، تم اختص في ما بعد بأعلى جزء منه وهو الواقع ما بين تيزي ن وماشو وتيزي ن تلوات. في معجم شارل دوفوكو وخاصة في مادة "ديران" وجمعها "ديرانن" ومعناها الأمنية، أو التوق إلى شيء غير متوفر، و"ساداران" ومعناها التمني الشبه الدائم، و"أسداران" ومعناها التمني، أو الإنسان الذي يتمنى شيئا ما. وفي مادة "إيدر" ومعناها الحي، و"إيمسودر" ومعناها التعايش، و"تامدروت" ومعناها الحياة وتجاوزا الغذاء الضروري للحياة. يبدو أن هذه الكلمة تجمع الحياة والغذاء والأمان. انظر: أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 59.

De Foucauld. Ch, Dictionnaire, T1, p 23.

² - تظهر صورة الثبات في الأغلفة البحثية للبحث الكولونيالي، سواء في غلاف الأثنوبولوجيا الاجتماعية، أو في غلاف الاثنوغرافيا الدينية. جاك بيرك يخرج عن هذا التقليد، نظر إلى التنظيم الاجتماعي من زاوية المبادئ القانونية، وعمد إلى ربط الممارسة الاجتماعية بالممارسة القانونية.

³ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، الإنتاج الرعوي، القانون والطقوس. م س، ص 7.

⁴ - Westermarck. E, Survivants, Païennes dans la civilisation Mahométanes, Payot, Paris, 1953, p 12.

التدين الشعبي¹. واضح أن انشغالات الاثنوغرافيا الفرنسية كان ترمي إلى البحث عن أصول الطقوس الدينية المغاربية، عن تمثيل ديني تلتقي في إطاره الممارسات العقائدية بالطقوس السحرية²، بله عن أصول دين عتيق قبل المسيحية، دين فلاحين ورعاة³. الأمازيغ شأنهم شأن كل المجتمعات البشرية، ظل مبدأ الدين عندهم مرتبطا بقوى الخير والشر، لذا فإن ممارساتهم كانت تهدف إما إلى التعامل معها، أو إلى وقاية أنفسهم وخيراتهم منها⁴.

1- التنظيم الرعوي:

يضع محمد مهدي كلمة التنظيم الرعوي إطارا عاما لقراءة مفاصل الحياة الرعوية لقبائل الأطلس الكبير. صحيح أنه ينطلق من قبيلة معينة، وفي سياق مخصوص، إن زمانيا أو مكانيا، لكنه يُوسع من منظور التحليل في اتجاه أوسع وأشمل. حينما نُغير مقياس الملاحظة باستمرار من الجزء نحو الكل، ومن الكل نحو الجزء، تصير عبارة التنظيم الرعوي تشمل ثلاثة منافذ: استغلال مراعي، تنقلات مواشي، علاقة بين تربية الماشية والدين. وبالتالي، توضع المسألة الرعوية ضمن مقايضة مجالية، تختلف من فخذ إلى آخر، ومن دوار لآخر⁵. عبارة الانتجاع خلقت لتأخذ بعين الاعتبار تداخلات شتى، وتعقيدات لا يمكن احتواءها⁶. يتعلق الأمر، بنظام عتيق حاول جاهدا الحفاظ على بقائه رغم حوادث التاريخ.

في مجتمع مثل غيغاية، مارست الماشية دور المُكمل في دورة الإنتاج الجبلي، لكنها بالمقابل، وظفت توظيفاً اجتماعياً لقياس الوجاهة وصناعة ترابية المجتمع المحلي. خضع القطيع خضوعاً مُطلقاً لسلطة الأرض وتقلبات المناخ. وفي نسق ذلك، كانت للقطيع حياته الخاصة، بسيطة أو معقدة، قوية أو ضعيفة، حسب تواجده، إما في الجبل المنخفض والمتوسط، أو في أعالي الجبال⁷. ارتهن تنقله باللحظات الموسمية، وعكس ترابوية في المجال، بين

¹ - Bel. A, Survivances d'une fête de printemps à Tunis, Revue Tunisienne, 3^{eme} et 4^{eme} Trimestre, 1934, nouvelle série, n 19 et 20, pp 337- 345.

² - يمكن أن نسوق في هذا الصدد حكايتين من منطقة تودغي العليا كنماذج تمثيلية قد توجد في عدة مناطق أخرى. تقول الحكاية الأولى أن هناك عينا تسكن فيها أفعى مباركة لا تمس بسوء إلا من غسل ثيابه أو رجليه في العين، أما من يريد الشرب فقط، فالأفعى لا تمسه بسوء، بل تشكره على حسن صنيعه، وتيسر له كثيرا من الأعمال في حياته... وبهذا الاعتقاد فإن تلك العين لا تستعمل إلا للشرب، ولا تتعرض بالمرّة إلى التلوث. والحكاية الثانية حول عين السمك المقدس بالقرب من مضائق تودغي أيضا. يؤكد سكان المنطقة أن بها أسماكاً مباركة تظهريوم الجمعة. وتحمل أقرطا في زعانفها، لا ينبغي أن تصطاد أو تؤكل، ويحذر من إيدائها، حيث يشير سكان المنطقة إلى سوء عاقبة المعتدين على هذه الأسماك، ويحكى أنه من يصطاد هذا الأسماك يصاب بالعقم ويتبعه الأذى. أنظر: العطري عبد الرحيم، من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة. م. س. ص 81-82.

³ - Bel. A, La religion musulmane en berbérie, Esquisse d'histoire et de sociologie religieuse, Librairie Orientaliste Geuthner, Paris, 1938, p 71.

⁴ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، الإنتاج الرعوي، القانون والطقوس، م. س. ص 11.

⁵ - Dresch. J, Les genres de vie de la montagne dans le massif du Toubkal, R. G. M, n°1, 1939, p 37.

⁶ - Berque. J, Structures sociales du Hautes Atlas, PUF, 1955, 109.

⁷ - Dresch. J, Les genres de vie de la montagne dans le massif du Toubkal, op. cit, p 37.

الإسطل/ الاستقرار، والقطيع/ الترحال. سبق لصاحب البنيات الاجتماعية أن عبّر عن عمق هذه المفارقة المغاربية بالقول: جاك بيرك: "...فإن العبارتين طبعاً لا تتواجدان في حالتهما الخالصة ولا ترتكزان - ربما- إلا على علاقات متغيرة مع كل ساكنة معينة، وعلى اعتبارات متبادلة..."¹.

توقف جاك بيرك عند ملاحظة وجهة عند أهل سكساوة، بما أن بعضهم مربو ماشية، فإنهم يصبحون رحلاً ومنتجين...لقد قادته هذه الملاحظة إلى وضع تقابل بين المساحات الفلاحية الضيقة وشساعة المراعي التي يتطلبها عدد رؤوس القطيع. وعليه، ما يهم على حد قياس جاك بيرك في المجال هو ما يلزم القطيع.

أ- الماء والانتجاع في الأطلس الكبير:

توصل الأركيولوجي سيمونو Simoneau في مقال له في المجلة الجغرافية المغربية سنة 1967 إلى الاستنتاج التالي: "...لقد كان الجبل ملجأً لمربي الأغنام المتأخرين إبان استفحال الجفاف الصحراوي ما بين 2500 و1200 قبل الميلاد، الشيء الذي يربط المغرب بالعصر النيوليتيكي الرعوي ذي التقليد القزيري، لذا فإن تربية المواشي وكل التقاليد الرعوية مُنبعثة من هذه الحملة البوفيدية التي أورثت خرافة موت وبعث الإله الشاب الغربي الأصل، ألا وهو خُصرة فصل الربيع، والذي سيكون وارثه هو أمغارنتوكا- سيد فصل الربيع، بالنسبة للرعاة..."². فهل يمكن اعتبار البوفيديين أجداد رعاة الأطلس المعاصرين، وهل يمكن اعتبار سادة الأطلس وأولياءه "سيدي فارس وإمي زهرة" بقايا مؤسمة للإله أمون إله القطيع؟ وهل يشكل طقس "معروف نتوكة" الوجبة القرمانية للعشب الذي تحتفل به النساء ابتداء من شهر مارس امتداد لـ "خرافة الموت وبعث الإله الشرقي الشاب"³. الشواهد المتوفرة لحدود اللحظة لا تُعزز هذا القول.

اعتاد أهل الأطلس الكبير الانتجاع في مراعي النجود العليا للأطلس الكبير، واستقبال رعاة السهول الباحثين عن العشب والرطوبة. حركية مجالية دفعت التنظيم الرعوي إلى أن يتقاطع مع ثلاثة عناصر: المجموعة، الأرض، والثقافة⁴. نحن إزاء تركيبة رعوية لم تتغير في مكوناتها الكبرى، لكن في جزئياتها الصغيرة قد يطرأ عليها تغيير، إما قليلاً أو كثيراً، من مكان لآخر، ومن مصدر معلومات لآخر⁵. شُدَّت طقوس الانتجاع في مجالات الأطلس الكبير بمظاهر دينية قوية، مثل ضفيرة شعر، وأحالت النسق الرعوي على نسيج من الارتباطات: المجموعة/ التراب/

¹ - Berque, J, Structures sociales du Hautes Atlas, op. cit, p 109.

² - Simoneau, A, Les gravures du Haut- Atlas de Marrakech, R.G.M, n 11, 1967, p 73.

³ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 16.

⁴ - معنى الثقافة هنا عند محمد مهدي يعني بحث التصور المحلي للقانون، وتأويل المعتقدات، وتحليل الممارسات الدينية الخاصة بالنشاط الفلاحي- الرعوي...نفسه، ص 17.

⁵ - نفسه، ص 18.

القداسة. ظلت الشعائر تجسد في واقع هذه المجتمعات الرعوية دور الضابط الاجتماعي، وتطبعها بالازدواجية، في الزمن، وفي المكان.

ب- التنظيم الرعوي بالأودية:

حول مجال البحث غيغاية، في النطق الأمازيغي إغاغاين، وهم أهالي يستقرون في غرب الأطلس الكبير، في موطن يضم خمس وديان رئيسية: أسيف نايت مزان، أسيف نايت امنان، أسيف نيفغان، أسيف نسيدي فارس، أسيف نوسيرتاك. نظام السكن متقطع، يُخصص المستوى السفلي لسكن الحيوانات، ويسمى إكرار ومفرده أكرور¹، ويخصص المستوى العلوي لسكن الأهالي. بينما تتميز حقول الفلاحين بالتدرج، وتحتوي على بستان مسقي، وحقول الحوز باتباع خط الانحدار، وتخصص داخلها مربعات أرضية مخصصة للرعي، يطلق عليها اسم إكودلان ومفردها أكودال بجوار مجاري المياه. سمح هذا التنظيم بتكوين اقتصاد محلي، جعل الجبل ينتفع من كل مستويات الجبل، وفق مبدأ التكامل العمودي².

يتعلق الأمر، بالحديث عن مجتمع تمازيرت في التداول المحلي. لفظة تمازيرت تتحدد دلاليا بثلاثة مفاهيم، فلاحي، ديموغرافي، وسياسي³. وداخل تمازيرت تتحدد مستويات التنظيم الاجتماعي للقبيلة في تدبير الموارد الحيوية، وخاصة مؤسسة لجماعت، التي تسهر على رعاية المصالح والمنافع، المادية والروحية، وتفرض عقوبات أثناء موسم جني الأشجار المثمرة، مثل اللوز والجوز تدعى "أزاين" لمعاقبة السرقات وحماية الحقوق. مؤسسة لجماعت متعددة الوظائف، تسهر على تنظيم الأشغال الجماعية "توزا" أثناء الحصاد والدرس ونقل المحصول وحراسة القطعان والانتجاع نحو المراعي الجبلية والسهلية، وصيانة قنوات الماء، ومساعدة الأفراد "توزيعة"، وربط العلاقات مع الجماعات المجاورة. لقد فوّض المجتمع المحلي لمؤسسة لجماعت وظيفة توزيع المياه المخصصة بالسقي، حيث إن السلالة "تغسمة" هي التي تقرر استعمالها لسقي كافة أراضي الأسر "تكاتين" المكونة لها حسب طريقة السقي

¹ - يفترض علي صدقي أزايكو أن أكرور تعني المجرى المائي الواسع الذي كوّنه نهر ما عند خروجه من الجبل إلى السهل. وقد يصح هذا الافتراض، إذا ما استحضرنّا أن هذا الاسم أطلق على القبائل التي تستوطن الضفة اليمنى لنهر نفيس. يتعلق الأمر، بمجال حيوي كان مركزا لقواد المخزن المركزي، ظل متنازعا عليه من طرف قواد الأطلس الكبير، لأهميته الاستراتيجية التي أهلته لأن يكون نافذة على الحوز ومراكش الحاضرة من جهة، ولكونه يؤمن مراقبة الطريق الرابط بين وادي نفيس وحوز مراكش.

- أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 14.

De Segonzac. M, Voyage au Maroc (1899- 1901), Paris, 1903, p 238 ; et Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977, T1, pp 28-182, 274, 346, 348, 367 ; et Justinard. C, Le Caïd Goundafi, Casablanca, 1951, pp 38-39-46-47.

² - Greswell. M, Pasteurs- agriculteurs du Haut- Atlas: tribsmen ou peasants in Production Pastorale et société, MSH, n° 16, 1985, pp 5-31.

³ - Berque. J, Structures sociales du Haut- Atlas, op. cit, p 413.

"أغان سغان"¹. وتأتي بعد لجماعت الوحدة العائلية "تكات"²، عنصر فاعل في منظومة الانتاج الزراعي، تظهر كفاءتها وقت صيانة شبكات الري، وأثناء توزيع حصيص المياه وفق مبدأ التناوب "تاوالا".

ظاهريا، قد نسلم مثلما جنحت بعض تنظيرات الاستوغرافيا الأجنبية بوجود مجتمع ديموقراطي من حيث توزيع مصادره الحيوية، لكن هذه المساواة النظرية تكذبها وقائع البنية الفارقية للسلالات والاستراتيجيات الفردية التي لا تتبع دوما التفاوتات السلالية³. لكنه بالنهاية، لم ينجح هذا التمايز السلافي في تكوين الطبقات الاجتماعية⁴. مثلما لا يجب أن ننسى حضور معايير أخرى في هذا التمايز، ترتبط بالاستحقاق والنجاح الاجتماعي. لا نجد تسويغا لتلك المساهمات التي وسّعت من براديفم اللف في الحياة الجبلية، وتغافلت عن قصد أو دونه، عن أشكال الخصوصية، وعن العلاقات التاريخية/ السياسية للجبل⁵.

وسط هذه التراتبية الاجتماعية كانت النساء في المجتمع الجبلي يقمن بكل المهام المنزلية اليومية، من جمع الحطب، وسقي الماء، وحلب الماشية، وإعداد وجبات الطبخ...وفق نظام دوري دقيق ومحترم من طرف الجميع. لم يكن المجتمع الجبلي يسمح لحالة الترمّل، الزوج الذي ماتت زوجته، كانت حالات الترمّل منبوذة داخله، لما تلعبه النساء من أدوار وظيفية في مساعدة الرجال، وتقسيم العمل. رمزيا، كان الدخان المنبعث من أعلى السطوح يحيل على حياة العائلة، وحدتها وحيوتها. كما أن الزوجة الملتحقة حديثا بالزواج لا يحق لها الرحيل إلى أعلى الجبل من القيام بهذه الأعمال، حيث البنات يرعين الأبقار في الحقول قرب المنحدرات، والذكور يرعون الغنم والماعز في الجبال.

أهل جبل غيغاية مزجوا في معاشهم بين الفلاحة والرعي، فنتج عن ذلك تنقل دائم وحركية ذؤوبة بين مجال تمازيرت ومجال لعزيب. غالبا ما توفر إنسان الجبل على نوعين من السكن، الأول رئيسي في الوادي، يسمى تمازيرت، والثاني ثانوي، يكون في النجود العليا ويسمى لعزيب يخصص لإيواء الماشية في فصل الصيف⁶.

¹ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 23.

² - تكات: الأسرة. تعني تداوليا النار، الموقد باللغة العربية، والكانون بالدارجة...تكات عبارة مهمة وليست سهلة الفهم، يمكن أن تشمل كافة عناصر العائلة، أو تشمل كافة عناصر العائلة الممتدة...مهدي محمد، رعاة الأطلس، ص 27.

³ - نفسه، ص 24.

⁴ - وقف بول باسكون في الجنوب المغربي عند تازروالت عند تقسيم ثلاثي: طانفة الشرفا (المرابطين)، إيمازيغن، والحرائين...الفكرة الأساسية أن مجتمع تازروالت مجتمع مراتي.

⁵ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 35.

⁶ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 33.

ت- الرعي واستعمال المجال:

المجال أرض الرعي، استطاع محمد مهدي أن يبتكر مفهوم التراب الرعوي انطلاقاً من عينات البحث في حوض غياغية. ففي هذا الحوض، ميّز بين وجود مناطق فلاحية في الأودية، ورعوية في المرتفعات، ومناطق مشجرة في المناطق الوسطى¹. يمكن الحديث وفق منطقته عن تدرج زراعي² وحتى رعوي، حيث الأغنام والماعز ذات النشاط الحيوي ترعى في أعالي الجبال، والأبقار ذات الوزن الكثيف ترعى في المنحدرات وعلى ضفاف الأودية وقرب المناطق الوفيرة بالكلأ والعشب. من هذا المنطلق، يتميز الاقتصاد الجبلي بخاصيتين أساسيتين: الأولى تسمح له بالتنوع والتكامل بين النشاط الزراعي والرعوي، والثانية تجعله يحقق مبدأ التكامل الأفقي تناسباً مع التحولات البيومناخية.

يضم مفهوم المجال الرعوي ثلاث مركبات مجالية: الأولى رعوية، والثانية زراعية، والثالثة خارجة عن ملكية المجموعة³. انطلاقاً من هذه الترسيم، درج أهل الجبل على التمييز بين نوعين من المراعي: مراعي الصيف "أسكسا ن صيف" ومراعي الشتاء "أسكسا ن تكارست". إنه تعبير واضح عن تداخل الزمن في المجال، والمجال في الزمن داخل الحياة الجبلية. فرض هذا التقسيم ذي البعد المجالي نوعاً من الانشطارية في مسارات التنقل اليومي للقطيع، مرة في اتجاه المنحدرات المجاورة، ومرة في اتجاه الأراضي والنجود العليا، ومرة في اتجاه السهول. إننا في قلب الترسيم القاعدية التي وضعها الجغرافي جون دريش لقطعان قبائل الأطلس الكبير. يُخضع جون دريش هذا التنقل لتفاعل عنصري الزمن والمجال، ويُميز من حيث الحركة بين تنقل مرتفع، متوسط، وآخر ضعيف المدى.

تسير التنقلات الكبيرة المدى نحو السهول/الأزغار وفق اشتراطات اجتماعية محددة؛ وتسير التنقلات المتوسطة المدى في فصل الصيف نحو المراعي المرتفعة التي يزيد ارتفاعها عن 2300 متر، وتتقيد بشرط ذوبان الغطاء الثلجي؛ في مقابل ذلك، تتحرك التنقلات الضعيفة المدى/ تحركات يومية نحو المراعي في منحدرات الجبال، في ارتفاع مُحدد ما بين 1500 و2000 م، ما بين شهري شتنبر/ أكتوبر وشهر ماي، تهتم بالأساس الأغنام والماعز، حيث يقطع الرعاة مسافة تتراوح ما بين نصف كيلو و6 كيلومترات يومياً.

¹ - نفسه، ص 43.

² - شجر الجوز يغرس على مصب السيول وعلى جوار مجاري وقنوات السقي، في مكان لا يؤثر ظل أوراقه على زراعات أخرى. أنظر: مهدي محمد، م س، ص 43.

³ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 49.

على مستوى أدنى، يتألف المجال الترابي للقرية من ثلاث مناطق مختلفة ومتداخلة: الأسيف/ الوادي ومنحدرات الحوض المخصصتان لممارسة الأنشطة الزراعية، والثانية مراعي النجود والمرتفعات المخصصة للمجال الرعوي. تحيل هذه الفكرة على التقسيم الرباعي الذي ابتكره الاثنولوجي ميشو بليير لمجالات الجبل:

❖ الحوز/ السهل من 400 إلى 900 م ارتفاع؛

❖ الدير/ السفح 900م إلى 1200م؛

❖ أسيف/ السيل من 1200 إلى 3100م؛

❖ الجبل/ أدرار من 3100 إلى 4167م.

في حوض غيغاية تغلبت المهارة التقنية على تعقيدات الجغرافيا، تغلب الإنسان الجبلي بفضل خبرته وتراكماته على إكراه تقلص المجال وصراعاته المتكررة. درج الانسان الجبلي على سبيل المثال على غرس شجر الجوز على مصب السيول، بجوار مجاري وقنوات السقي في مكان لا يؤثر ظل أوراقه على زراعات أخرى.

عودة إلى قضية التراتب المجالي داخل وحدة الجبل، لم تمنع الملكية الجماعية الأكثر انتشارا داخل النسيج الجبلي، من ظهور ما يسمى "الأكدال"، عبارة عن ملكية خاصة، يُجاوز الأسيف (السيل)، حدوده عبارة عن جدران صغيرة من الحجر تدعى محليا بـ "امليل ن وكدال"، يستغل الأكدال مرتين في السنة، ويسمح بإنتاج الكلاً "أفاينو" في فصل الصيف، و"إميسي" في الشتاء. تبدأ عملية سقي الأكدال ابتداء من شهر مارس عبر حفر سواقي صغيرة "إرشمان" تغطي مجموع مساحة الحقل، تمكن من جريان المياه التي تبقى عائمة في الأكدال طيلة الفصل¹. لهذا، يبدو مشهد الأكدال آخذا في الانحسار والتقلص في مجال ظل مطبوعا بنزعة التدبير الجماعي المشترك؛ كما يُظهر آلية صناعة الواجهة الاجتماعية من طرف الأعيان² والشيوخ من ذوي المراتب والنفوذ.

عادة ما تعرض الأكدال إلى تهديدات الطبيعة، خاصة في لحظات وفرة الأمطار، التي كانت تُسهم في انجراف التربة. وبالتالي، فالاستثمار في الأكدال ظل محفوفاً بالمخاطر. وداخل الأكدال يمكن التمييز بين أكدال أمنزو أي أكدال المبكر، وأكدال أمازوز أو المتأخر³. وبما أن الأكدال ملكية خاصة، فهو بالاقترضاء خاضع لكل المقايضات والمعاملات من بيع، شراء، كراء وشراكة...عكس أراضي لجماعت. ففي أراضي لجماعت هناك مجال رعوي يسمى

¹ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 43-44.

² - حرص المارشال هوبير ليوطي في إطار العرف الاستعماري المعروف بالبأسفكاسيون Pacification إلى تأسيس بنيات النظام الجديد، من خلال استحداث مؤسسات سياسية وإدارية جديدة، واعتمد على ما سماه دانييل ريفي بـ "سياسة المراعاة" Politique des égards التي مكنته من اجتذاب الأعيان إلى دائرة النفوذ الاستعماري.

Rivet. D, Lyautey et l'institution du Protectorat, t II, Paris, édition L'Harmattan, 1988, p p 135- 136.

³ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 44.

أزلاك/ المحروم/ الشيع... يتحدد الأزلاك انطلاقاً من النواة المركزية للسكن، مجال حر على مشارف الدوار، بالقرب من مقبرة، أو ضريح ولي صالح...

خضع النظام الرعوي للمتغير الفصلي، وعكس الانتقال الفصلي من الأدرار نحو الأزغار، من لغابت نحو تاكانت. وإن ظل الأدرار بسفحيه الظليل والمشمس المرعى المفضل لكسابة الأطلس الكبير. ففي حوض غيغاية، السفح المنفتح على اتجاه الشمال يدعى "أمالو"، أي السفح الظليل، والسفح المنفتح في اتجاه الجنوب الشرقي يدعى "أسمار" وجمعه "إسومار" أي السفوح المشمسة. وعامة، يعتبر أسمار مرعى شتوي، وأمالو، مرعى صيفي¹.

على مستوى علاقة الأدرار بالأزغار، لا حياة للجبل من دون منتجات السهل، ولا ملجأ للسهل من منتجات الجبل. العلاقة بينهما تُشد برابط تاريخي أكثر منه رابط ساسي ظرفي، رابط متوسطي نوعي وفق ما نجده في إفادة صاحب البينات جاك بيرك². الجبل ينتج منتجات كمالية من عسل، جلود، صوف، وجوز... والسهل ينتج منتجات أساسية من قمح وذرّة وخضروات وفواكه. ولأهل الجبل أراضي في السهل "مجموعات تمارس الترحال الزراعي"³، حيث يتم تقسيم العمل بين رئيس تكات والأولاد المتزوجين.

على قدم الجبل، يتوطن مجال الأزغار، وحدة مجالية شاسعة، تضم ثلاث مجالات: مجال مزروع يدعى "البوري"، وآخر مسقي من مياه الأنهار والوديان، وثالث متروك ينعت بالمحروم أو الشيع. فكلما تردد الجفاف على الجبل تردد أهل الجبل على السهل، وربط زعماء الانتجاع علاقات قوية مع أهل السهل وفق القاعدة التالية: "...يُعرض ممثل عن السهل ضيافته على الرحل من الجبل الراغبين في ذلك... ويقدم ضمانته بأنه سيأوي الراعي وماشيته في مسكنه، ثم يأخذ موافقة لجماعت لاستضافة الرحل، وفي نهاية مرحلة الانتجاع يقدم الرحل هدية لجماعت عبارة عن كبش، يسمى كبش العشب أهروي ن توكا..."⁴.

عموماً، خضعت حركة القطيع لميكانيزمات عامة، تفاعلت فيها عوامل الطبيعة من مناخ ونبات وماء... وأخرى مرتبطة بالحيوان نفسه من حيث حركته وقدرته الفيزيولوجية. حيث كان بإمكان الغنم والماعز التنقل لمسافات طويلة بفضل رشاقته البدنية، وأبقى على الأبقار بالقرب من الموارد الحيوية، مع الأخذ بعين الاعتبار، لحظة ولادة القطيع. وثالث العوامل مرتبط بالوضع السوسيو اقتصادي من حيث توفير اليد العاملة، قوى الانتجاع ضمن دورة الإنتاج الرعوي.

¹ - نفسه، ص 46.

² - Berque, J, Structures sociales, op. cit, p 120.

³ - Ibid, p 104 .

⁴ - مهدي محمد، رعاة الأطلس، م س، ص 48-49.

ث- مونوغرافية إيركتين: الماء والتوزيع¹:

ضمن أنظمة المجال التقليدي يُقحم المهتمون في علم الهيدروليكا تديرها المائي ضمن تعبير جغرافي دقيق "بلاد الساقية"² Bled Seguia، حيث تندرج ضمنها الجبال والواحات. هذا التدير المائي الذي أثار خلال العقود الأخيرة انتباه كثير من الباحثين المحليين لفرادته وعبقريته لا يزال يكتنز كثيرا من الخبايا والأسرار³. ففي واحات درعة مثلا التي سبق أن خصّها عبد الله حمودي ببحث مميز وفريد، تم بحث فرضية وجود ارتباطات بين القواعد القانونية والبنيات الاجتماعية للمجتمعات الواحية. ومن خلال هذه الفرضية توصل نفس الباحث إلى وجود تماثل بينهما. هذا التماثل هو الذي يحدد إلى كبير الشكل النهائي للمورفولوجيا الاجتماعية للقبيلة بكل مكوناتها في ما يخص توزيع المياه. وقبل حمودي بسنوات، سبق لجاك بيرك في نموذج سكساوة في أعالي الأطلس الكبير الغربي أن وضع أصبعه على حقيقة مشكل النظام المائي في هذه الأنظمة التقليدية. يتعلق الأمر، بشكل خاص، بمشكلة الغرس المرتبطة بالنظام الميكانيكي للمياه...تضغط هذه الميكانيكية نفسها على حياة أهل الجبل، وتدفعهم إلى إحباط القوة العمياء لمياه المنحدرات، ومن تم استخلاص معالم حياة ممكنة منها. استعان الانسان في جبال الأطلس الكبير من خلال تراكم خبراته بنوعين من التقنيات التكميلية لتدير هذه الميكانيكية، واحدة تتبع الانحدار، وأخرى تتبع الجريان السطحي...إما عن طريق القنوات، أو عن طريق الانتشار المباشر⁴.

استثمر إنسان الجبل هذا الغنى الحيوي، مُبتكرا في هذا الصدد استنادا على رصيده وخبرته وعبقريته التاريخية تقنيات تكيفت مع ضيق المساحة الإيكولوجية وتقلبات المناخ. فاعتمد وفقا لذلك على الاستغلال المباشر للمياه من أنهار، وديان، قنوات...كما اعتمد على الساقية/ تاركا بالمعنى المحلي عن طريق استثمار الانحدار الطوبوغرافي للتيار من الأعلى نحو الأسفل⁵. هذه القنوات المائية التي قال عنها جاك بيرك أنها تُحرك الماء من حارس إلى حارس⁶، بله من سلطة إلى أخرى. في واقع الأمر، يظهر النظام المائي في نسيج الأطلس الكبير، في نجوده وحتى في بساطته، أكثر شمولاً⁷. بالنهاية، نستطيع أن نعتبره "ظاهرة مجالية شمولية" بالمعنى الفيبري للكلمة.

¹ - Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, Publication IRCAM, 2007.

² - Celérier. J, Le paysage rural au Maroc, Hesperis, n° 3 et 4 trimestres, 1943, p 146.

³ - Hammoudi., A, Substance and Relation Water distribution in the Dra valley, press California, University Press Berkley, p 2 et 3.

⁴ -Dresch, J, Les genres de vie de Montagne dans le massif central du Grand- Atlas, Tours, 1941, p 12.

⁵ - Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, Publication IRCAM, 2007, p 42.

⁶ -Berque. J, Structures sociales, op. cit, p 149.

⁷ - Mahdi .M, Irguiten, op. cit, p 42.

تفتقت العبقرية المائية الأمازيغية على حد تعبير بول باسكون P. Pascan عن إبداع ما يسمى في لغة تمازيغت عند أهل مصمودة الجبل بـ "أكوك" أي السدود التحويلية. أكوك هذا عبارة عن تجمع مائي كبير، يُمكن بتقنية فائقة من تحويل مجرى المياه من مجال لآخر¹.

وعلى العموم، ظلت خصائص هذا التدبير التقني للماء الذي أوجد حلولاً لمشاكل ذات بُعد سياسي، اقتصادي، واجتماعي... لم تتغير إلا على نحو جزئي². ففلاحو الأطلس عبر مسار احتكاكهم بالإيكولوجيا الجبلية راكموا خبرات وتجارب تقنية مهمة، غنية وثمانية، سواء من حيث طريقة تدبير مياه الوديان، أو من حيث طريقة تدبير مياه العيون... هذا الرصيد الزمني من التدبير أهلهم لقياس وحساب الفوارق الزمنية التي يُمضيه الماء من نقاط المصدر نحو الحقول والبساتين.

ج- الطقوس والرعي

يُشيد محمد مهدي بنيانه المنهجي على وظيفة الطقوس في ممارسة الرعي والانتجاع في جماعة البحث، ويحيلها على مفهوم أوسع، مفهوم الثقافة وفق التحديد الأنثروبولوجي لذلك الذي يشمل الدين/الأعراف/القانون... في شأن ذلك، يفتح سجل الخرافات التي التصقت في المخيال الرعوي لأهل الجبل مثل خرافة إمي زهرة. ننصت في البداية إلى مضمونها، قبل أن نحلل مستوياتها وبُعدها الإجرائي في أعالي جبال الأطلس الكبير، سواء في غياغة أو في سكساوة. ومعلوم أن كل تنظيم اجتماعي يُحوز أجندته الطقوسية (المعروف/الموسم/الذبيحة/طقس تدسين موسم الحرث)، ويضفي عليها معنى اجتماعيا، خاصة في اللحظات الاحتفالية المرتبطة بالأجندة القمرية الإسلامية، أو بالأجندة الشمسية اليولوسية التي تتقدم بثلاثة عشر يوما على الأجندة الغريغورية الإدارية.

د- خرافة إمي زهرة:

في بداية حياتها كانت إمي زهرة تعيش مع أبيها وثلاثة من أخواتها: للا عزيزة، للا مماس، وسطي فاطمة، في منطقة أساوان، كن يرعين قطيع والدهن، لكنهن كن لا يهتمن بالقطيع، ينصرفن إلى اللعب والمرح، ومرة شاهدهن أحد فذهب لإخبار والدهن الذي عاقبهن على فعلهم أشد عقاب، ومع الأيام، ذهب الأب ليتفقد حالة القطيع، وليتأكد فعلا بأن شياهه ترعى في تلك الأراضي القاحلة، حيث لا عشب ولا كالأ، لكنه لما فتح أفواه النعاج وجدها مليئة بالقمح، وبالرغم من ذلك ولكثرة انزعاجهن طلبت أربع بنات من الله أن يشتتهن في الجهات الأربع للعالم، فلبى الله رغبتهن ورمهن في الجهات الأربع للجبل، كل واحدة في جهة، حيث توجد مقابرهن الآن...

¹ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, T1, Rabat, 1977, p 84.

² - Dresch. J, Genres de vie, op. cit, p 13.

وتضيف الحكاية بُعداً آخر مرتبط ببركة الماء: يحكى أن "...إمي زهرة كانت تملك بقرة وقطيعاً صغيراً من الماعز، امرأة ضعيفة لا حامي لها، قطيعها مستهدف ومحط أطماع، لذلك، قرر سكان أمسكرو استهلاك ماشيتها. وبما أن قناة الري/ تاركة التي تسقي ناحية أمسكرو تمر عبر أراضي إكيس فقد تم اتهام عنزات الشريفة إمي زهرة بتلويث المياه. واحتجاجاً على ذلك، أخذوا عنزات من قطيع الولية، بعد أن لطخوا أرجلها بالوحل، وهكذا كانت الحجة والاحتجاج ذريعة ليزبحوا كل القطيع ويأكلوه. وبعد الانتهاء من هذا الفعل الدنيء لم تعد المياه تجري في القناة / تاركا، ولم يفلحوا في إيصال الماء إليهم بالرغم من كل محاولاتهم التي كانت تبوء بالفشل. فالماء كان يصل إلى دوار إكيس ويجف عند وصوله لقناة أمسكرو. ولما أصبح سكانه على حافة اليأس، انتبهوا إلى ذنبهم، وحاولوا التكفير عنه بتقديمهم أضحيات، وبدأت الأضحيات تأتي الواحدة تلو الأخرى، والدماء تسيل في تاركا تاركة الماء يسيل قليلاً، بيد أنه سرعان ما توقف مجدداً على مستوى ما سوف يسمى من جديد بـ "أنوقبي" سبب حجر كبير "أغوليد". لذا لم يكن من حل سوى المناداة من جديد على الشريفة للمساعدة. وبالمعزل الذي كان بيدها والذي كانت تستعين به لغزل الصوف، ضربت الولية الصخرة، وجعلت بها ثقباً كافياً ليجري الماء من تحتها. ...

لا تختلف كثيراً حكاية إمي زهرة في غياغة عن حكاية للا عزيزة في سكساوة. لقد نقل لنا جاك بيرك تفاصيل هذه الحكاية نقلاً عن الاثنولوجي بريف . تقول الحكاية: "...ولدت للا عزيزة هنا بنفس المكان، ومنذ صغر سنها كانت تذهب لرعي الماعز بالجبل، وبدلاً من أن تبقى ضمن مجموعة الرعاة، وأن تترك قطيعها يرعى بجانب الوادي، حيث العشب أخضر وكثيف، وكانت للا عزيزة تذهب إلى أعلى قمة في الجبل حيث لا توجد إلا الصخور. والغريب أن ماعزها كانت سمينه، ومن هنا كان الله يعطي البرهان أنه أحب تلك الفتاة. لكن رغم هذا لم يأبه أبوها بحالة قطيعه، بل فرض عليها أن تأخذ الماعز إلى الجهات السفلى من الوادي، وبما أنها كانت تصر على أخذ ماشيتها إلى الصخور القاحلة، كان يعاقبها كل مرة أشد عقاب. وفي يوم من الأيام، عندما كانت للا عزيزة ترعى قطيعها في قمة الجبل الذي لا ينبث فيه أي عشب ذهب إليها الأب ومعه أهل القرية ولامها بعدم احترام رغبتة وتعليماته. يا أبي أجابت الطفلة، أنظر يعينك ماذا يأكل قطيعك؟ لاحظ الأب أن أفواه الشياه مليئة قمحاً. وابتداءً من تلك اللحظة أصبح ينظر الطفلة كأنها رسولة الله، ونالت بذلك إعجاب الجميع، ولما أصبحت فتاة تميزت بعفتها، وكانت تحب الوحدة، تظهر دائماً في الصلاة، لكن شغلها كان دائماً منجزاً، وبما أنها كانت من حسناوات بنات القرية كانت مطلوبة دائماً للزواج، لكنها كانت ترفض كل خطاها، وفي يوم ما، وعندما كانت بجانب الطريق الذي يطل على الوادي، تبعها شاب كانت قد رفضته ولم تتمكن من الهروب، لأن الطريق كان مسدوداً، فلما أراد الشباب الإمساك بها فجأة اختفت في الجبل، تاركة وراءها الشاب في كامل اندهاشه، وساعتها شاعت بركتها كولية في كل الأرجاء. مما جعل السلطان يرغب في التعرف على للا عزيزة وطلبها إلى مراكش. ذهبت وثابتت على عفتها وبفعل الخير حولها، تم تشريفها لكن تأثيرها أصبح عظيماً حتى أن السلطان صار قلقاً ومستاء فرمى بها في السجن، وحاول مراراً تسميمها،

لكنها كانت ترفض الأكل من الصحن الذي يوجد به السم، وفي أحد الأيام قامت جارتها الشخصية والأكثر اخلاصا لها بتقديم الطعام المسموم. فقالت للا عزيزة: يا لله سأكُل ومن أجل الله سأموت، لكن قبل ذلك أوصت بأن يوضع جثمانها على بغل، وأن تدفن في المكان الذي سيقف فيه. فأكلت من الطبق المسموم وماتت، ولبت رغبةها، بأن ربطت جثتها على بغل وانطلق دون أن يقوده أحد. فوصل في نفس اليوم إلى سكساوة. حيث تعرف السكان عليها ووريت الثرى، وأقيم لها تأبين عظيم، فأقام لها سكان مراكش قبة جميلة تشريفا لها وطلبوا من السلطان أن ينقل جثمانها إليها، ففعل، لكن لوحظ بعد أيام أن الجثمان الشريف كان يتواجد في آن واحد في العاصمة، وفي سكساوة، فأمر السلطان بأن تقام لها قبة مماثلة في الجبل....

تسمح الحكايتين معا من إقامة تأويل يلامس جزئين متمايزين ومتكاملين: بنية الأسطورة أولا ، ومعناها ثانيا. الأول من الوجود بالفعل، أو الوجود بالقوة. لقد عثر جاك بيرك على نص يعود إلى أبي العباس أحمد الخطيب بن قنفذ القسنطيني (1349-1408)، الذي سبق له أن أقام في المغرب أواسط القرن الرابع عشر. التقى ابن قنفذ بللا عزيزة، وقد أثبت من خلال رحلته حقيقة وجود للا عزيزة. أما إمي زهرة وللا تاعزة فلا شواهد تعزز ذلك، باستثناء المأثورات الشفهية. والثاني من حيث المعنى، أو ما يسمى بـ "طقوس العبور"، حيث الانتقال من حياة الناس العاديين/ المهمشين نحو حياة الاعتراف بالقداسة والولاية...يتم هذا العبور عبر سلسلة من الاختبارات والامتحانات، ليصل في النهاية إلى الاعتراف والتصديق الجماعي بالمعجزة.

VII- الماء والمجال: من البسيط إلى المركب

ملكية الماء داخل القبيلة قضية حصرية لمؤسسة لجماعت، وتوازي ملكية الماء ملكية الأرض من حيث القيمة، ما يجعل الماء عنصرا استقرارا وهدم في الآن نفسه. يُفوض سكان القبيلة إلى أشخاص يحظون برصيد رمزي ومادي، يتم انتخابهم من أجل الحرص على ضمان استدامة ذوي الحقوق من الماء. هذا الاستنتاج هو من دفع جاك بيرك إلى القول أن ساقية إريكتا في الأطلس الكبير لم تكن تشكل رهانا سياسيا بين القبائل¹. لكن في بعض القبائل قد يتوحد السياسي والاقتصادي في بُعد واحد. تأخذ حقوق الماء بعين الاعتبار الاعتبارات الجغرافية والتاريخية والسياسية². ففي نموذجي تيكوليان وإد وافتكوت في الأطلس الكبير الغربي يُفسر التفرد بالحقوق المائية بالاعتبارات الجغرافية.

¹ - Berque. J, Structures sociales, op. cit, p 106.

² - Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, op. cit, p 44.

يجب أن نميز في هذه النقطة بالذات، بين نوعين من ملكية الماء، ملكية خاصة بتاقبيلت، وملكية خاصة بالدوار. ملكية على مستوى أعلى، وأخرى على مستوى أدنى، ما يجعلهما يخضعان للشاشة¹. وبالتالي، فتملك الماء من طرف الدوار يجعل الصراع مفتوحا وقائما، خاصة في لحظات ندرته وخصاصه.

تطرح قضية الملكية معها قضية التوزيع داخل تاقبيلت. تُعرف تاقبيلت بكونها وحدة اقليمية متكاملة في توزيع الموارد والمنافع المتاحة. يتخذ توزيع الماء داخلها شكلا هرميا: في قمته توجد تاقبيلت أو الدوار، في قاعدته يوجد الإخس...وبين تاقبيلت والإخس هناك تعارضات واضحة. تشطر هذه الهرمية ملكية ماء تاقبيلت اجتماعيا إلى مالكين ومحرومين. نسوق من أجل ذلك نموذجا تمثيليا قابل للتعميم، ففي قبيلة تامروت في أعالي الأطلس الكبير التي تمتلك ثلاث أحواض: واد تماروت، وإفري ن واسيف، وإفري ن ثلاث وازكيت. تدار هذه الأحواض الثلاثة من قبل ثلاث دواوير: إبدى، أسيف واكادير، تازعايت، بينما دواوير تاسكونيت، أعوفارينتميان إلى تصنيف المحرومين من المياه غير المالكين للحقوق².

الشكل رقم 7: جدول توزيع الماء بين دوار إفري ن واسيف³

الدواوير المالكة	نوبات السقي
تازايت	أيت وازير
تازايت	تازايت نايت وازير
¼ أسيف واكادير	أسنان
¼ تازايت	
¼ أسيف واكادير	أغيل
¾ تازايت	
¼ - تازايت	أيت إغير
أسيف واكادير	
½ أسيف واكادير	أنريغ
½ تازايت	
½ تاسكونيت	أيت إحيا ومحمد
½ تازايت	
½ تاسكونيت	أيت محمد أو محمد
½ تازايت	
تازايت	أيت إكران
تازايت	تازايت نايت إكران

¹ - Les deux formes collectives de la propriété de l'eau sont vulnérables. Voir :Mahdi Mohamed, Irguiten, op. cit, p 45.

² - Ibid, p 46.

³ -Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, Publication IRCAM, 2007, p 47.

أسيف واكادير	أيت ابراهيم أو حسين
أعوفار	أيت عبد الله أو ابراهيم
½ - أسيف واكادير	
تازايت	توفلا لحسن
½ أسيف واكادير	أكورا
½ تازايت	
أسيف واكادير	لعربية
½ أسيف	تافوسار
½ تازايت	
تازايت	تافارديت
½ أسيف واكادير	تافارديت تيسنات
½ تازايت	

بقدر ما تُحقق ملكية الماء وحدة المجموعة وتماسكها، إن على مستوى الاستيلاء القانوني على الماء، أو على مستوى إعداد التجهيزات الهيدروليكية الخاصة به من سدود تحويلية، سواقي، أحواض، وعيون... فإنها تؤكد على وجود اندماج شكلي بين مكونات القبيلة قائم على التعارض والاختلاف في الحقوق. تُحرك ملكية المياه آلية التضامن باستمرار بين وحدات المجموعة عبر تسلسل المستويات، سواء في حدودها الدنيا على مستوى الإخس، أو في حدودها العليا على مستوى تاقبيلت. وعليه، يستطيع هذا التنظيم المائي تحقيق تضامنه الجماعي في وجه كل اختلافاته، العارضة منها والبنوية¹. تُحدد قيمة التنظيم المائي بهذا المعنى ضمن مجالات الأطلس الكبير في كونه يُحدد هندسة المورفولوجيا الاجتماعية لوحدات المجال حسب الدوار والإخس.

على المستوى العملي، يتم توزيع الحقوق المائية لتاقبيلت إركيتا في شكل حصص، يُطلق عليها محليا "تيوالوين" بصيغة الجمع، مفردها "تاوالا" le tours d' eau. تتألف إركيتا من 18 دوار، وكل دوار يُقسم إلى نوبتين. واحدة في النهار، وأخرى في الليل، مثل أيت وايزير في النهار، وأيت إغيل في الليل كما في الجدول أعلاه². هذا التقسيم سيزيد عدد النوبات إلى ستة وثلاثين، وسيفتت الحصص المائية إلى أجزاء، نصف، ربع، ثمن. لكن علينا أن ننتبه إلى أن هذا التوزيع كان لا يطرح أية مشاكل لذوي الحقوق Les ayants- droits، حيث يسهل تحديد حقوق أصحاب ذوي الحقوق داخل الدوار... وبمجرد اجتياز هذه المرحلة من التوزيع يصبح توزيع الكميات الصغيرة بين أصحاب الحقوق أكثر حذرا. لكن نوبات التوزيع تظل جماعية دائما³... وكذلك توزيع نوبات الماء حسب الإخس لا تطرح مشاكل باستثناء حالات قليلة.

¹ - Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, Publication IRCAM, 2007, p46.

² - Mahdi. M, Ibid, p 47.

³ - يشرف على عملية التوزيع أمزوار، مفرد، وجمعها إيمزوارن. وتعني السابق أو الأول، المتقدم أو الرئيس أو المترئس... وتحمل الكلمة رصيذا من الحكمة والهيبة لصاحبها، بحكم أنها شخصية منبثقة من مؤسسة جماعية تفضي إليه حماية المصالح العامة. وتطلق هذه الكلمة على رئيس

الشكل رقم 8: توزيع الماء حسب الإخسان/ العظام

نوبات الماء حسب الإخسان/ العظام	المالكين حسب الإخسان/ العظام	الدوار
أيت فارس	أيت واحمان- إمزيلن	أسيف واكادير
أيت علي	إكاتزن	أسيف واكادير
أشوار	¼ إشوالن - ¼ تازايت	أسيف واكادير- تازايت
أودريس	½ تالبورت- ¼ إمزيلن- ¼ أيت البرجة	أسيف واكادير- تازايت
أيت إدير	إيحولين	أسيف واكادير- تازايت
أيت مبارك يوس	إيحولين	أسيف واكادير- تازايت
أيت لحسن أو بوزاد	½ إمزيلن- ½ أيت حمو	إلبدي
إحضران	أيت برجة	إلبدي
إزمزان	أيت برجة	إلبدي
أيت عبد الله	أيت حمو	إلبدي
أيت ابراهيم	أيت بوجمعة	إلبدي
أيت واكويلال	أيت واعيسى	إلبدي
أيت حماد أو عيسى	½ أيت مبارك- ½ أيت بلقاس	إلبدي
إزدودن	إشوالن	أسيف واكادير
إزدودن	½ إشوالن- ½ إخارزن	أسيف واكادير
أمازوت	½ إحولين- ½ أيت واحمان	أسيف واكادير
أيت ابراهيم أو حساين	½ إحولين- ½ أرازن	أسيف واكادير
أيت تامنت	إمجاط	أسيف واكادير
أيت موسى واكادير	½ تازايت- ½ أودمنا	تازايت- أسيف واكادير
أيت حماد	¼ أيت مبارك- ¼ أيت مسعود- ½ إمسيلسن	تازايت- أسيف واكادير
أيت إحيا	أيت البرجة	إلبدي
بوزيد	½ أيت حمو- ½ أيت واحمان	إلبدي- أسيف واكادير
أيت تاكوشث	أيت بوجمعة	إلبدي
أيت الحاج علي	½ أيت مبارك- ½ تالبورت	إلبدي- أسيف واكادير
أيت محند أو محند	أيت مسعود	أسيف واكادير
لعربية	أيت تاكوشث	إلبدي
أيت حماد الوالي	أيت بوجمعة	إلبدي
أيت حماد أو علي	أيت حمو	إلبدي
ولد عمار	½ أيت حمو- ½ أيت بوجمعة	إلبدي
ولد اسحاق	½ أشوالن- ½ أيت مجاط	أسيف واكادير
ثريم ولد بوبكر	أيت بوجمعة	أسيف واكادير

يتم تخصيص كميات كبيرة من الماء إلى الإخس كما في الجدول، حيث أن مياه حوض إفري ن ومان مملوكة من قبل الإخسان من نصفي دوار أسيف وكادير وإلبدي. وعدد نوبات الماء واحد وثلاثون. وهذا الرقم الغريب يحل

المنتخب لمدة سنة من بين أعضاء الجماعة من أجل تسيير شؤونها. كما تطلق على الشخص الذي يطلب منه أحيانا أن يكون أول من يدشن عملا هاما أو صعبا، تيمنا به واستجلابا للسعد والخير. وهذا المعنى تقترب من لفظ أنفلوس. انظر:

Encyclopédie Berbères, Edisud, Aix- en- Provence, IV, 1987, pp 622.

تتضمن هذه الموسوعة تفاصيل شمولية عن كلمة أمزوار، وتطور مدلولها في الفضاء المغاربي، إضافة إلى بيبليوغرافيا موسعة بهذا الصدد.

مشكلة حساسة من التناوب بين صاحب نوبة النهار وصاحب نوبة الليل. وهذه الدورة تتعقد في اللحظة التي يبدأ فيها استعمال مياه الحوض¹. تتميز هذه المشاركة في التوزيع بالبساطة، في الواقع، تتم هذه المشاركة في جميع الأجزاء، حسب الأنساب: أيت سعيد، أيت بلا، أيت عب الرحمان كما هو موضح في الجدول.

في واقع الأمر، كلما انحدر توزيع الماء من أعلى نحو أسفل، من تاقبيلت نحو تكات/ الأسرة أو الكانون كلما اعترضته مشاكل وصعوبات. لكنه، على العموم يتخذ شكلا هرميا خاصة على مستوى الإخسان. وهناك معطى آخر، كمية المياه، فصبيب المياه المتدفق من السواقي / Targa هي من تتحكم في نظام وطريقة التوزيع، كما يوضح الجدول الخاص بالتوزيع في دوار إيجولين.

الشكل رقم 9: جدول: توزيع الماء في الإخس²:

التوزيع الأصلي	نوبات الماء
أيت سعيد: نوبة واحدة أيت بلا: نوبة واحدة أيت عبد الرحمان	أيت إدير: نوبة واحدة أيت مبارك حوس: نوبة واحدة ½ نوبة أيت أمازول / ½ أيت أوحساين
المستوى الثاني من توزيع الماء	
أيت سعيد: 1/3 ← أيت القاضي ← عبد الرحمان بن سعيد ← ابراهيم بن سعيد ← ببي أولعربي	
← حماد بن محمد أوبادي 1/3 أيت بلا أيت أوكي ← وريث أحمد بن محمد نايت بلعيد	
أيت عبد الرحمان 1/3 ← ← أحمد أو ابراهيم ← محمد أو ابراهيم ← أيت شاكير	
المستوى الثالث من توزيع الماء 1/3	
أيت سعيد: قسمة داخل الخمس 1/3 2/5 عبد الرحمان بن سعيد و ابراهيم بن سعيد ← 3/5 ببي أولعربي	1/3 أيت بلا: قسمة داخل الثلث Talt أحمد محمد أوبادي 1/3 ← عيشة أوكاشة 1/3 ← ← 1/3 أيت أوكي- أوبادي وأحمد نايت بلعيد
أيت عبد الرحمان قسمة على الثلث 1/3	
ابراهيم نايت عبو 1/3 محمد بن ابراهيم الهاشي بن ابراهيم أحمد بن ابراهيم+ لعربي بن ابراهيم	أحمد نايت عبو- مبارك 1/3 أيت شكير 1/3 ← أيت شاكير معلم إمزيلان ←

¹ - Mahdi Mohamed, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, op. cit, p 49.

² - Mahdi. Mohamed, Irguiten, op. cit, p 50.

يتم توزيع الماء داخل الإخس من خلال تتبع أنسابه، أو من خلال دراسة مورفولوجية القبيلة¹. إذ أن البنية الأسرية للإخس هي من تتقاسم الممتلكات المشتركة أصلا، وكلما انحدر التوزيع في مستويات دنيا، كلما كان أكثر تعقيدا. ينتقل التوزيع من البسيط نحو المركب تبعا لامتلاك ذوي الحقوق وتطور الوحدات الاجتماعية. فمثلا يقسم الثلث الأصلي إلى ثلث ثاني أو إلى خمس، ويتطلب تتبع تلك التقسيمات الفرعية إلى تحقيق معمق من طرف لجماعات.

ارتبطت نُظم توزيع الماء وحصص السقي بنظام زمني دقيق جدا، جعل من النظام الشمسي المعيار الأساسي في ضبط عملية توزيع الماء على مالكي الحقوق. وقد تختلف هذه النظم من مجموعة لأخرى، حسب التقنيات المعتمدة في تجهيز المائي من ناحية، وحسب أهمية مواردها المائية في المجال من ناحية موازية. لكنها تظل في المحصلة تقنيات مشتركة بين كل المجموعات. دأب أهل الجبل على تجميع المياه في أحواض قبل التصريف. في بعض مجموعات تاقبيلت تامروت Tamarout ترتبط المعدات الهيدروليكية بحوضين، واحد رئيسي مثل الأحواض التي وجدت في إركيتا، وآخر ثانوي. الحوض الثانوي يأتي من السد التحويلي أكوك ويتجه نحو الحقول².

الحديث عن نُظم التوزيع داخل هذا المجال يجرى الانتباه نحو الحديث عن تقنية الأزمز Azmaz. تتخلل هذه التقنية مراحل توزيع الماء. وهي في معناها العام تُحيل على العلامة أو الإشارة. وفي معناها الخاص تحيل على تحديد الفصل في الموسم؛ فيقال أزمز الموسم بمعنى فصل الموسم، وقد تعطي معنى مشابها في قول "إيلا كيس أوزمز" بمعنى الدارج "فيك الهمزة/ الفرصة/ المناسبة". والأزمز في مناطق أخرى من الأطلس الكبير الغربي يحيل على كلمة "تيزي" أي تحديد الوقت أو الموعد، وتيزي أيضا ترتبط بتحديد المعلم المجالي le repère spatiale مثل تيزي ن أوماشو، تيزي ن تاست، تيزي ن تلوات...³.

بمجرد وصول الأزمز بواسطة أشعة الشمس، يفتح أول حوض، حيث تتراكم المياه، وتبدأ عملية غمر قطع الحقول والبساتين حسب التدرج الطبوغرافي، في إطار ما يسمى بـ "تيزي"، وعند إغلاق الأزمز يتم الاحتفاظ بمياه السد التحويلي أكوك. كلمة أزمز Azmaz غنية وثرية، يتلخص مضمونها في معنيين اثنين: علامة رحيل مياه السقي، وأيضا إلى تقنية ثانوية في تجميع المياه⁴. ويتم تحديدها بواسطة حجرة، أو شجيرة.

¹ - Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, op. cit, p 49.

² - Ibid, p 51.

³ - حوار مع الباحث محمد أقديم بتاريخ 29 ماي 2021 في امتنانوت.

⁴ - Mahdi. M, Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, Publication IRCAM, 2007, p 51.

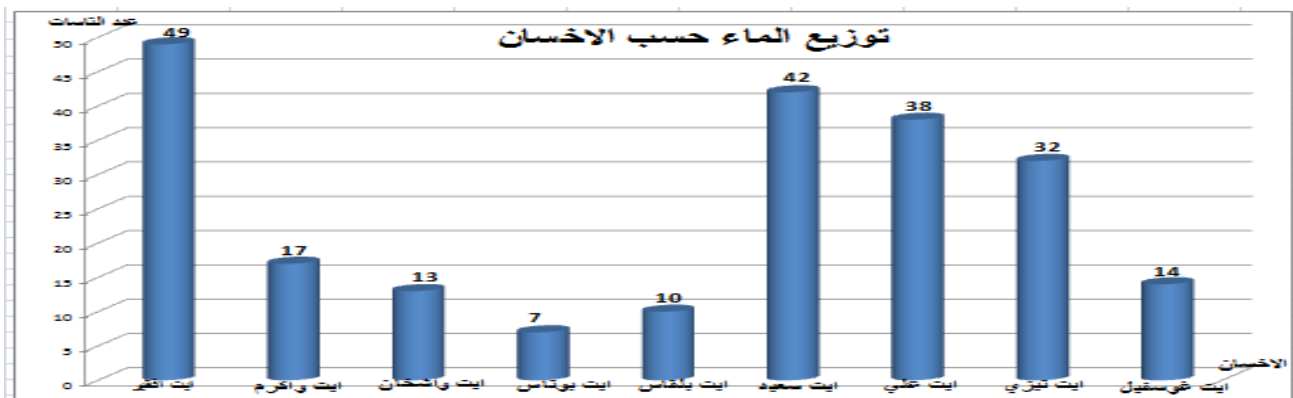
تحليل تقنية الأزمز عند أهل الجبل على سجل وقتي يرتبط بثلاث لحظات: اللحظة الأولى عند فتح مياه الحوض، والثانية عند قياس ثلث المياه، والثالثة عند قياس ثمنه... ويحدد بمنتصف النهار مع كل صلاة ظهر. ويُمكن لساعات الصلاة أن تعوض فشل هذا النظام في اللحظة التي تتلبد فيه السماء بالغيوم. تحددت قيمة هذا النظام في قدرته على توزيع حصص الثلث بشكل دقيق جدا. ومن أجل قياس مستوى الماء لجأ الإنسان الجبلي إلى نظام قياس بواسطة العصا التي تسمى بـ "أسكول" Askoul في كل من كل تيكولييان، أوزليدا، تاورامت... وعند جميع دوواير إدوافكوت Id Wafkout يُسمى نظام القياس عند هؤلاء بـ "تاخروبت" Takharoubt التي تمكن من قياس الثمن من مستوى مياه الحوض¹. والحال، أنه في دوار تيكولييان Tigouliane تساوي كل تاخروبت ما بين 20 إلى 22 سنتمتر. التناسب 8*22 تساوي 1,76 متر، ويقاس بالشبر Chber، ويتم تقسيمه إلى النصف، والرابع، وثمان تاخروبت. يستعمل هذا النظام من التوزيع اليد Afous كوحدة للقياس، وأيضا أصابع اليد التي تسمى Adad n' wamane.

الشكل رقم 10: جدول: التوزيع الشمسي للسقي²

المالكين	نوبات الماء	مرحلة إغلاق أزمز	توقيت السقي
المالك الأول	أزمز- الظهر	أزمز	قبل الظهر وما بعده
المالك الثاني	الظهر- المغرب	من الظهر	قبل المغرب وما بعده
المالك الثالث	المغرب	من المغرب	قبل منتصف الليل وما بعده
المالك الرابع	منتصف الليل إلى أزمز	منتصف الليل	قبل الأزمز وما بعده.

يوضح هذا الجدول مالكي المياه، نوبات السقي حسب الأيام والتوقيت، وحسب توقيت إغلاق الأزمز، وأيضا توقيت السقي.

الشكل رقم 11: توزيع يومين من الماء حسب الإخسان³



¹ - Ibid, p 52.

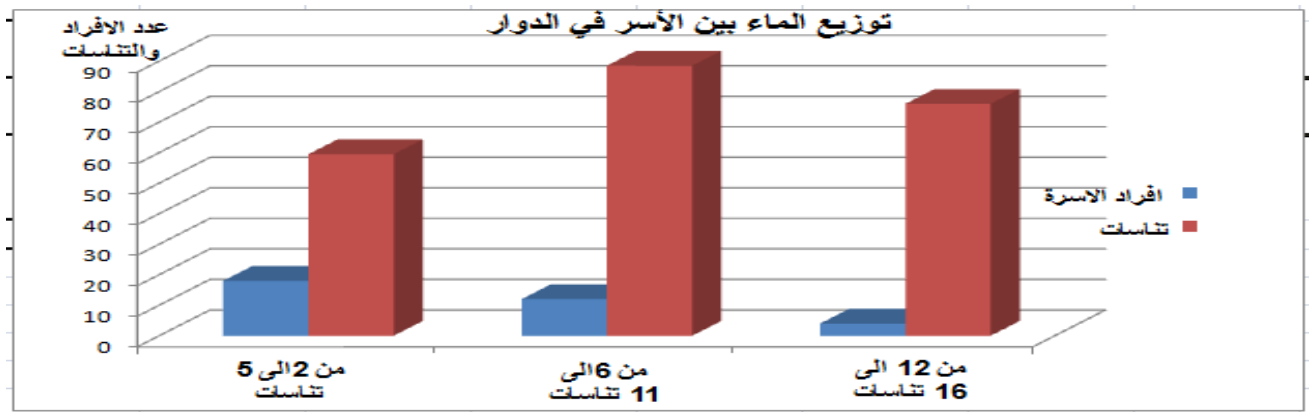
² - Ibid, p56.

³ - Mahdi. M, Irguiten, op. cit, p 58.

يوضح المبيان غياب المساواة في توزيع الحصص المائية داخل الإخسان، حيث أن أربع إخسان وهم أيت أوفقيير، أيت سعيد، أيت علي، أيت تيزي يهيمنون على 72 % من ماء الدوار، وباقي الإخسان يملكون فقط 27,6 % من الماء. هذا الوضع يفسر بالتراتبية والوضع الاجتماعي كما أبرز ذلك عبد الله حمودي في جماعات أخرى مشابهة¹.

هكذا نصل إلى اعتبار الإخس داخل القبيلة وحدة اجتماعية أكثر دينامية، صراعية، تمثيل مُصغر لصراع وحدات كبرى، وهو أيضا تعبير عن هوية جماعية تحافظ على المصالح الفردية للأعضاء. ما يجعل توزيع الماء في قلب الإخسان يعكس بكل وضوح حقيقة ملكية الماء. لنأخذ على سبيل المثال، إخس أيت أوفقيير، يتكون من أربع عائلات، وعشرات تكاتين/ الأسر، يستحوذ على 37 تاتاسين Tattasine من أصل 49 مخصصة للإخس، والباقي يقسم على باقي الإخوة. وبالتالي، يخصص الماء إلى وحدات مختلفة: الدوار، الإخس، الوحدات... وكلما ضعف التضامن بين العائلات كلما فقد الإخس بعض حقوقه المائية.

الشكل رقم 12: توزيع الماء بين الأسر في الدوار²:



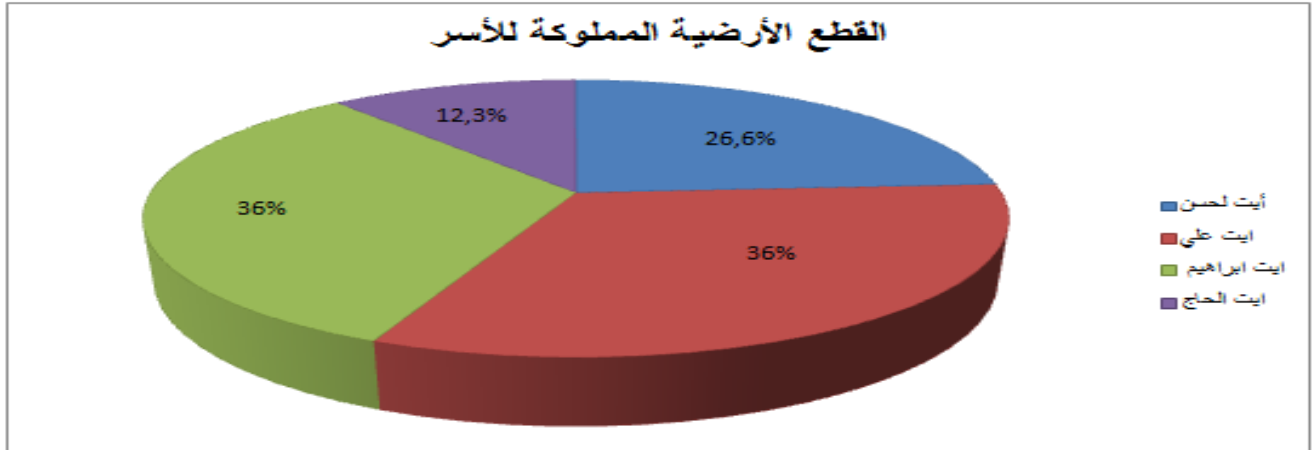
وحتى على مستوى الأسر أيضا يتوزع الماء بشكل غير عادل، يوضح الجدول أن العينة التي تمثل من 6 إلى 11 تناسك تمثل المالكين المتوسطين، ولكن غالبية الأسر توجد في أسفل سلم التصنيف، تمثل 26 بالمئة من الدوار. هذا التصنيف لا يزال قابلا للعكس بسبب التقسيمات الفرعية المحتملة التي من شأنها أن تفاقم حالة كل أسرة. الحصص الافتراضية في ما يقرب من نصف عائلات دوار وفعاليتها من شأنها أن تزيد من خفض الأسهم وتركيز الأسر

¹ - Hammoudi. A, Substance and Relation Water distribution in the Dra valley, press California, University Press Berkley, p 29.

² - Mahdi. M, Irguiten, op. cit, p 59.

في الفئة الأولى. ويتجلى اختلاف الحصص المائية تحديدا في لحظات السقي، إذ أن تظهر الكمية الحقيقية للماء¹. وفي أوقات نقص المياه، تستخدم كل مجموعة، إخص أو أسرة مياهها بشكل مستقل عن الآخرين².

الشكل رقم 13: مبيان حول القِطْع الأرضية للمملوكة للأسر



يظهر الرسم البياني التالي عدد القِطْع الأرضية المملوكة للأسر في قبيلة إيركتين، وتظهر من خلاله أسرة أيت عمر التي لا تحترث نفس عدد القِطْع من الأراضي، رغم أنها تحظى بمساواة في توزيع كمية الماء مع باقي الأسر الأخرى.

خلاصة:

منذ بداية تشكل الخطاب الأجنبي عن المجتمع المغربي حظيت المسألة الرعوية بفائق العناية والتقدير في أجندة اهتمامات باحثي الفترة الاستعمارية، من مقرب أن دراسة ميكانيزمات الإنتاج الرعوي تشكل مدخلا أساسيا من بين مداخل أخرى ممكنة لفهم مختلف جوانب النظام الاجتماعي. وبخصوص ذلك، أفادت مختلف هذه المناولات الأجنبية منها والمحلية، أننا أمام نظام رعوي على قدر كبير من التعقيد والتداخل، يستمد تعقيده من تراكم عناصره في إطار ترسيمة ثلاثية: الأرض، الإنسان، والثقافة.

على مستوى خاص، ارتبط هذا النظام الرعوي بنظمته الاجتماعية التي تنعت محليا بـ "لجماعت" على مستوى أعلى، و"تكات" على مستوى أسفل. وحدتين اجتماعيتين سيرتا عنصري الماء والمراعي، وأضفتا على ذلك بُعدا وظيفيا لا سبيل لتغافله في إطار معادلة التراب/ الأرض. لا يجب أن ينظر إلى هذا الزوج في هيكل جامد، ثابت، بل في إطار مجال منظم، مثنى، بفضل خبرات فاعليه تحت ضغط إكراهات الوسط الطبيعي.

¹ - Berque. J, Structures sociales, op. cit, p 413.

² - Mahdi. M, Irguiten, op. cit, p59.

يحيل النسق الرعوي في المحصلة على ضرورة التمييز المجالي بين مجال الزراعة في المنحدرات، والرعي في المرتفعات. وقد لا تكون بالضرورة ترسيمة نهائية وناجزة. الأول مُحدد، لكنه مشغل بشكل مكثف بواسطة تقنيات الري، والثاني مُستغل بشكل موسع بين المجموعات.

طرح هذه الوضع اكرها على الباحثين، مفارقة التمييز بين الحد الفاصل بين الخاص والعام داخل هذا التداخل. لا يتحدد الحد الفاصل بينهما إلا بنزوعات الاستحواذ التي تخرج عن مألوف لجماعت.

في مستوى آخر، ارتبط نمط استغلال القطيع بنمطين في المجال، الأول بالتوسع في إطار حركة دائمة تخضع للتوافقات بين أهلي الأدوار والأزغار، والثاني بالاستقرار قرب مكان الإقامة والموارد الحيوية. كل ذلك، في إطار منظومة قداسية، قوّت البعد القرياني في أعالي الجبال، إن على شكل هدايا (زبدة/ حيوان) تقدم للولي صاحب المرعى، أو في شكل أضحية تقدم لسلطان الجن للتحكم في القوى الغيبية.

الفصل الثاني:

الماء ورحلة البحث الدائم وراء العشب الهارب

مقدمة الفصل:

ظل تفسير تاريخ المغرب عموماً، وتاريخ جبال الأطلس على وجه التخصيص في جزء كبير منه رهين بما تجود به تقاطعات دراسات البيولوجيا والمناخ والبيئة مع دراسات العلوم الإنسانية، داخل علاقة انتظام تبرز بين معطيات الطبيعة والنظام العام الذي يتأطر داخله الوجود البشري¹. في الواقع، لا تكتسي الأحداث الكبرى التي صنعت تاريخ الأطلس الكبير أية قيمة تاريخية إن لم توضع ضمن سياق تقلبات الطبيعة المغربية، ومخاضات القلب البيئي. باختصار شديد إننا أمام "تاريخ بدون بشر" حسب العبارة الشهيرة لمؤرخ المناخ الفرنسي إيمانويل لوروا لادوري². من شأن الانتقال من التاريخ الطبيعي نحو التاريخ الزراعي، من تاريخ الأوبئة والمجاعات نحو تاريخ العقلية والذهنيات أن يحفز على إثارة قضايا تاريخية ذات صلة بوقع التقلبات المناخية على الحياة الزراعية. كما من شأنه أيضاً، أن يقف عند تمثيلات عامة للناس لهذه التقلبات، في مآثوراتهم الشفهية وحتى المكتوبة... قد يبدو السقف ههنا عالياً، إذا ما استحضرننا فقر وصمت النصوص الإخبارية، لكنه ورش طموح وواعد بما يحمله من نَفَس جديد لروح البحث التاريخي وتخصيب لمقارباته.

لطالما رددت الاستوغرافيا الاستعمارية عبارة "سوء الطالع"³. عبارة واحدة اختزلت مسيرة أمة بأكملها. أختصر تبعاً لذلك تاريخ المغرب كله في هذه العبارة. عبارة نبهة، لكنها غير مُوفقة بالمرّة... دورات من الشدائد كانت كافية لأن تُبدد رصيده الديموغرافي، وتجعل بواديّه شبه مهجورة، وأنعامه سائبة، وزراعاته بلا حصاد⁴... في البدء هناك خصوصية تاريخية يفرضها التاريخ الطبيعي للمغرب: ففي الوقت الذي كانت هذه الشدائد تعصف بساكنة الحواضر والسهول الخصبة، فارضة على نسقه الديموغرافي ضرورة العودة إلى نقطة البدء أو ما دونها، يشير ابن خلدون منذ وقت مبكر إلى جزئية هامة في تناول تاريخ المغرب على نحو طبيعي، تقضي بأن الأرياض (الواحات والجبال) هي من كان بمقدورها أن تحافظ نسبياً على مناعتها البيولوجية من هول هذه الآفات الطبيعية⁵.

على المستوى الاستوغرافي، تصف تقارير القناصل الأوروبيين الذين توافدوا على المغرب منذ حادثة الاحتكاك العسكري الفرنسي المغربي في واقعة إسلي 1844م مجالي الواحات والجبال بوصفها خَزَائِن ديموغرافية كانت لها

¹ - Aron. J. P, Biologie et alimentation au XVIII siècle et au début du XIX siècle, Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, n° 5, 1961.

² - Ladurie. E. Le Roy, Le territoire de l'histoire, Paris, 1973, p 417-423.

³ - Rosenberger. B et Triki. H, Famines et épidémies au Maroc aux XVI et XVIII siècles, Hesperis- Tamuda, 1973, p 171.

⁴ - Renaud H.P.J, La peste de 1789, PUF, p 170.

⁵ في الواقع هذه فكرة خلدونية الأساس، فابن خلدون هو من أشار إلى قدرة سكان البوادي على التكيف مع شروط البيئة وأحوال الفلاحة، وقدرة نحاف الأجسام في القرى والجبال والواحات على مقاومة الجوع، ف"الجوع أصلح للبدن من كثرة الأغذية" ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، ص 87-91. نفس الفكرة نجدها عند شارل كايزر انطلاقاً من أبحاثه المخبرية "أن الشخص النحيف يقاوم الجوع أكثر من البدين".

Kayser. Ch, Physiologie, t 1 : Les fonctions de nutrition, Paris, 1970, pp 828- 910- 920.

القدرة على تعويض أعداد الخصاص البشري الموجود بالمناطق الفارغة¹. ومع ذلك، نسلم اليوم بمقتضى التراكمات في هذا الجانب، أن التردد الدوري لمتواليات المجاعات والأوبئة يجعل مسألة تعويض الأجيال عسيرة جداً². يتعلق الأمر من وجهة نظر اجتماعية بتدافع قبلي نحو "الأراضي السخية" حسب عبارة القنصل الفرنسي لويس شيني L. Chénier المقيم بمغرب نهاية القرن الثامن عشر. تدافع اجتماعي وسياسي ظل يعيد نفسه باستمرار كلما اشتدت نوايب الطبيعة وأهوالها التي خنقت تاريخ البلاد في حلقات بيولوجية دائرية لا تكاد تنتهي حتى تبدأ حلقة أخرى جديدة. في شأن ذلك، نقف هنا عند توصيف دقيق لهذا التدافع القبلي الما قبل كولونيالي جاء على لسان المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل F. Braudel "...كانت الحياة اليومية في الحوض المتوسطي تجري وراء العشب الهارب..."³. هذا العشب الهارب هو الذي يدفع نحو تخرية "المجتمع المتنقل" كبنية اجتماعية واقتصادية يصعب ضبط تحركاتها المجالية انطلاقاً مما وقر في المصادر الإخبارية من شذرات متناثرة ظلت عموماً لا تلتفت إلى الهامش المغربي إلا وهو في حالة تصادم مباشر مع المخزن السياسي؛ أو في سياق حديث عرشي عن كبريات الحواضر السلطانية التي فتكت بها الجوائح و"تهدمت بها الديار، وانتشر فيها السعال والزكام بسبب اشتداد الريح والبرد" حسب الافراني... نستعير هنا العبارة اللاتينية الشهيرة لتوصيف الوضع "أراضي في حكم المجهول" incognita terra.

رحلة البحث الدائم عن مصادر الكلاً ومنايع المياه في خضم نظام إيكولوجي ظل يجمع بين هاجس الزراعة من جهة، والحاجة إلى الانتجاع من جهة ثانية، مثل البنية القاعدية للاقتصاد المغربي القروي ما قبل الحماية. هذه القاعدة من شأنها أن تُعصد تخرية "المجتمع المتنقل" الذي عبّرت تحركاته المجالية عن مسارين من الانتجاع: انتجاع عمودي من قمم الجبال نحو سفوحها صعوداً ونزولاً كما هو الشأن في حالي قبائل الأطلسين الكبير والمتوسط، وانتجاع أفقي كان يتم بين الجبال والسهول الأطلنتية⁴.

في مجال مثل الأطلس الكبير اتخذ الانتجاع طابعاً مزدوجاً باستعارة من صاحب البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير جاك بيرك⁵. فعلى سفوحه الشمالية كانت القبائل تذهب بمواشيمها نحو سهل الحوز قرب مدينة مراكش¹.

¹ - Rosenberger .B et Triki. H, Famines et épidémies au Maroc aux XVI et XVIII siècles, op. cit, pp 40-41, 71-72.

² - حبيدة محمد، الديموغرافيا التاريخية، ضمن كتاب بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2015، ص 88. صدرت الصيغة الأولى لهذه الدراسة بمجلة كنانيش، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، تحت عنوان "الديموغرافية التاريخية: ملاحظات على ضوء كتاب الأنساب"، عدد 4، 2002، ص 79-86.

³ - Braudel .F, Grammaire des civilisations, Paris, 1993, p 84.

⁴ - Dresch. J, Documents sur les genres de vie de montagnes dans le massif central du Grand Atlas, Rabat, 1941, pp 18-22 et P.

Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977, p 164-176- 177.

⁵ - ركز بيرك في هذه الأطروحة على "القصف المتعدد التخصصات" من خلال الإلمام بكل الجوانب التي تهم حياة المجموعة "إن التاريخ يمثل المنطلق والنتيجة في هذا البحث". هذه العودة إلى التاريخ هي في الأساس، إحالة على النظام التقني الذي عبر عن نفسه من خلال مجموعة من الأحاسيس والمشاعر المشتركة، ومن خلال تصور معين للعدل والجور. هذا الشعور الاجتماعي هو نتيجة للتاريخ أو بالأحرى هو من صنع التاريخ.

وأحيانا أبعد من ذلك حتى سهل الشاوية على الساحل الأطلسي²، بينما في السفوح الجنوبية كان الرعاة ينزلون بدواهم إلى سهل سوس جنوب المغرب³.

كانت القبائل المغربية قبل تدخل الاستعمار الذي كبح دينامية هذه الحركية المجالية تتسم بمسارين مجاليين: تحرك رعوي متصل بنمط العيش واکراهات الطبيعة، وتحرك سياسي واجتماعي متصل بتقلبات الأحوال السياسية ونظام المجتمع. من هنا نتفهم لماذا درج الجغرافي الفرنسي جون سيلريه J. Celérier إلى جعل ظاهرة الانتجاع مفتاح لتجميع وقائع تاريخ المغرب القبلي، بالقول "...أن ظاهرة الانتجاع لا تكتسي فقط أهمية جغرافية في الوقت الراهن (ق 20)، وإنما تسلط الضوء على كل التاريخ المغربي..."⁴.

هذه التقلبات استطاعت أن تفرز ذهنية اجتماعية واقتصادية حاولت أن تتكيف مع سنوات الجذب والعجف عبر ممارسة الانتجاع الرعوي المتعدد المسارات بحثا عن مصادر الماء والكلأ⁵. وبالتالي أن تحافظ على كيانها البيو-كيميائي والوظيفي للمغاربة على مر العصور⁶. تتقاطع هذه الفكرة مع ما خلصت إليه حديثا الدراسات في التاريخ مجال البيولوجيا في كون المناطق القاحلة وشبه القاحلة تُنمّي بشكل طبيعي "أشكال خاصة لتدبير الطاقة"، وتنتج نمطا بيولوجيا متكيفا مع شروط البيئة، وقدرة على تحمل قساوة الطبيعة⁷.

يتعلق الأمر بحركات الانتجاع والترحال التي وسمت تاريخ المغرب القبلي قبل الاستعمار؛ وهي في الآن ذاته، فعل اجتماعي وثقافي، وإحالة على حركية مجالية واقتصادية وسياسية ذات إحداثيات متغيرة: يومية، فصلية، ونهائية... انتظاما مع نظام ايكولوجي واقتصادي وسياسي شديد التحول واللاتوازن.

Berque. J, Structures, op.cit, p 392.

¹ - Ibid, pp 105-108.

² - Brignon. J (dir), Histoire du Maroc, Paris / Casablanca, 1967, p 260.

³ - Dresch J, Documents sur les genres de vie de montagnes dans le massif central du Grand Atlas, op. cit, p 20.

⁴ - Célérier. J, La transhumance dans le Moyen- Atlas, Hesperis- Tamuda, 1927, p 67.

⁵ - يمكن الحديث عن نمط الانتجاع الرعوي كفرضية لتفسير الاقتصاد المغربي الماقبل الكولونيالي حسب تأويلات الجغرافي الفرنسي جون سيلريه، هذا النمط الانتجاعي أفرز تنقلات بشرية، يمكن تتبعها مجاليا في ثلاث منحنيات: أولا ترددات يومية كانت تباشرها القبائل على مساحة جغرافية محدودة ما بين الصباح والمساء، وثانيا حركة انتجاع فصلية نحو السهول شتاء والجبال صيفا، وثالثا حركة ترحال تقوم بها قبائل بأكملها بحثا عن العشب والماء... من أجل التوسع أكثر في الموضوع يرجى العودة إلى:

Célérier. J, La transhumance dans le Moyen Atlas, Hesperis, 1927 et E. Laoust, L'habitation chez les transhumants du Maroc central, Hesperis, 1930, et J. Dresch, Documents sur les genres de vie de montagnes dans le massif central du Grand Atlas, Rabat, 1941. et P. Pascan, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977.

⁶ - حبيدة محمد، بؤس التاريخ، مرجع سابق، ص 132.

⁷ - Bellakhdar. J et Younes. Ch, La diététique médicale arabo- islamique à travers les traites arabes anciens et la pratique actuelle au Maroc, in Médicaments et aliments: approche ethno pharmacologique, Actes du 2 colloque européen d Ethnopharmacologie, Heidelberg, 1993, p 48.

هذه الملاحظة رغم وجاهتها تبقى ذات منزع نسبي في تفسير محطات تاريخ الأطلس الكبير بخلفية جغرافية. لقد تنبه الجغرافي محمد الناصري إلى أن عامل تغير الظروف المناخية من منطقة لأخرى نتيجة التنوع الطبوغرافي الهائل للبلاد، من حيث موقع كل منطقة بالنسبة إلى البحر، أو الجبل أو الصحراء... يدفع الباحث إلى ضرورة الاحتراس والاحتياط في تفسير الأشياء¹. قد يحتج علينا البعض أن نُدرج هذه الحركية المجالية الباحثة عن مواطن الماء والكلاً ضمن ثوابت البنية المغربية بحكم طابعها المتغير، وارتباطها بضرورات إيكولوجية واکراهات سياسية واجتماعية، انعكست على تدبير علاقة المخزن القبائل، التي توزعت باستعارة من صاحب صلحاء الأطلس الأنثروبولوجي إرنست كلنير E. Gellner إلى: "قبائل الكلاب، قبائل الشياه وقبائل الذئاب"². وقد يزيد هذا الاحتجاج إذا أخذنا في الاعتبار أن ظاهرة الترحال والانتجاع في أساسها قد لا تنضبط إلى ترسيمة الادخار الاقتصادي والاجتماعي (الإكودار) الذي كانت تميل إليه جُل القبائل المغربية، بقدر ما كانت ترمز حسب بعض الباحثين إلى سياسة مرحلية آنية اقتضتها مرحلة ترتيب وإعادة ترتيب تحالفات المخزن مع القبائل، ومضايقة قبائل أخرى، بحثاً عن توازن في سياسة التدبير الترابي للبلاد³.

الثابت، بمقتضى عطاءات البحث التاريخي في الجامعات المغربية أن الانتجاع الرعوي ميكانيزم مُهيكل للمعادلة السياسية والعسكرية والاجتماعية لتاريخ المغرب من جهة؛ وعنصر فاعل ومؤثر في تدبير علاقة المخزن بالقبائل، تبعاً لتجاذبات اللحظة السياسية من جهة ثانية، وميلان ميزان القوة والنفوذ من جهة ثالثة. "...فكلما كانت السلطة المركزية قوية، تتوفر على جيش منظم وقلاع لمراقبة تحركات القبائل، خففت (القبائل) من حدة تنقلاتها، واستطاعت التحكم في اتجاهها. وفي المقابل، كلما ضعفت الدولة، اتسعت حركة القبائل وامتدت حتى السهول الأطلنتية..."⁴.

من أجل نمذجة علاقة التجاذب السياسي التي تحكم في سير علاقة المخزن بالقبائل نستعين بمراسلة للقنصل الفرنسي لويس شيني L. Chénier نهاية القرن الثامن عشر مؤرخة بتاريخ 18 أكتوبر 1778 في إطار النمذجة التاريخية لا غير. يقول شيني "...قبيلة من قبائل الحوز في الجنوب، التي كانت قد هجرت في الماضي أراضيها

¹ - Naciri. M, Calamités naturelles et fatalité historique, op.cit, pp 87-88.

² - توقف إرنست كلنير في كتابه صلحاء الأطلس عند حدود العلاقة بين المخزن والقبائل من منظور أنثروبولوجي، خلص من خلاله إلى تقسيم ثلاثي قائم على ثلاث دوائر متراكزة: دائرة أولى تمثلها القبائل الحليفة للمخزن، التي توكل إليها مهمة جباية الضرائب، هذه القبائل يصفها كلنير بـ"كلاب الحراسة"، في مقابل دائرة ثانية وسطى تتألف من القبائل الغارمة التي تحرسها قبائل المركز، يصفها بـ"قبائل القطيع" أو "قبائل الشياه"، وأخيراً دائرة ثالثة خارجية، تجسدها القبائل الرافضة للسياسة الجبائية المخزنية، ينعته بـ"قبائل الذئاب"... للتوسع أكثر يمكن العودة إلى كتاب إرنست كلنير:

Gellner. E, Saints of the Atlas, London, 1969.

³ - De Lachapelle F, Le Sultan Moulay Ismail et les tribus Sanhaja du Maroc central, Archives Marocaines, vol 28, 1931, p 29.

⁴ - حبيدة محمد، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الطبعة الأولى، 2015، ص 96.

الخصبة، وشتها المخزن في أراضي رديئة بمنطقة تامسنا بالقرب من الرباط، تقوم اليوم ببعض المحاولات للرجوع إلى أراضيها الأصلية...¹

على المستوى المحلي، تطلعنا كتب النوازل في مصفوفاتها عن تداعيات سياسة التهجير القبلي على نمط الانتاج الزراعي. لم تسمح حركة التهجير بتراكم قوى الانتاج، وعلاقات الانتاج، وأنماط الإنتاج...لم يكن بمقدورها جر الاقتصاد المغربي نحو اتجاه اقتصادي واضح. كما أن مناطق الاستقبال ظلت بدورها عرضة للنهب والتطاول في لحظات الأزمة من طرف قبيلة جديدة وافدة؛ أو حتى تلك التي تملك حُلُم العودة إلى أراضيها الأصلية. في وضع كهذا يتأثر الاقتصاد القروي، وتضطرب دورته الزراعية، وتفسد عملية الانتاج، وتُنهَب المٌدخرات، ويتوقف تزويد الأسواق بالمنتجات الفلاحية، وتسوء أحوال الأسر، وتكثر المآسي...²

إن التدافع الدائم بين القبائل المغربية من أجل الوصول إلى مصادر الماء والكأ ساهم في خلق حركية مجالية اتسمت بوضع اللااستقرار الدائم. وهو وضع حال دون تحقيق تراكم اقتصادي، ووضع الاقتصاد القروي في حالة العود الدوري إلى نقطة البداية. وهكذا استنادا إلى مُنظر فرضية اقتصاد المبادلة Réciprocité الهنغاري كارل بولاني K. Polanyi التي شكلت إطارا نظريا لصاحب مونوغرافية إيناون عبد الرحمان المودن "...فقد انحبس الانتاج الزراعي في دائرة إعادة التوزيع في شكل خدمات اجتماعية متبادلة ضمن تقاليد التكافل الاجتماعي"³.

فكرة الانحباس الاقتصادي هذه أساسية في فهم تخریجة أحمد التوفيق القائلة باقتصاد زراعي قائم على الكفاف، على اقتصاد القلة، على المعاوضة. اقتصاد حسب التوفيق دائما ظل في عموميته يفتقد للتراكم وتتحكم فيه متوالية القحوط⁴، وسلطة الجماعة التي قيّدت كل إبداع خلاق. نستعير توصيفا دقيقا هنا من الباحث محمد حبيدة في وصف مغرب ما قبل الاستعمار "...خضع الفرد المغربي خضوعا مطلقا لتقاليد الجماعة، وارتسمت سياسة تقليدية بنيت على احتكار عمودي للسلطة، على الاستبداد، على أحادية التفكير، التفكير الديني أولا وأخيرا بسبب عتاقة تقنيات الانتاج، وغياب طبقة اجتماعية قادرة على فرض التغيير داخل المجتمع، وهيمنة بنية تقليدية ظلت دون تغيير يُذكر منذ قرون مديدة..."⁵.

والحق أنه يجب أن نحترس قليلا من الأخذ بمجمل الفرضيات التي أحاطت بتفسير نمط الانتاج قبل الحماية الأجنبية لعدة اعتبارات أساسية: أولها الطبيعة التركيبية التي تميز المجتمع المغربي من منظور باسكوني، وثانيها أن

¹ - Grillon. P, Un charge d'affaires au Maroc. La correspondance du consul Louis Chénier (1767-1782), Paris, 1970, p 697.

² - السكتاني عيسى، النوازل، مخطوط الخزنة الوطنية بالرباط، رقم ج 1016، ص 137-138.

³ - بولاني كارل، التحول الكبير، الأصول السياسية والاقتصادية لزمنا المعاصر، ترجمة محمد فاضل طباط، بيروت، منشورات المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 141-123.

⁴ - التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان (1850-1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1983، ص 619-621.

⁵ - حبيدة محمد، بؤس التاريخ، مرجع سابق، ص 117.

النصوص التي نتشفع بها قد تحمل أكثر من صورة حسب توجيه الباحث نفسه¹، وثالثها بحكم سياقها الزمني وطابعها المجالي، إذ قد تصح في منطقة ولا تصح في أخرى بحكم تعدد البنيات، من منطلق أن لكل منطقة منطق خاص، وقاعدة مفاهيمية مُحددة، وعَلَّه ما يفسر وجود نماذج تفسيرية كثيرة، من المجتمع الفيودالي إلى المجتمع العتيق مروراً بالمجتمع القبلي المخزني والمخامسي والقائدي²، بل وحتى مجتمع عبودي³.

يُعبّر المؤرخ الفرنسي هنري تيراس في كتابه تاريخ المغرب عن منطوق هذه الفكرة بالقول "...هناك مراحل من تاريخ المغرب كانت فيها المناطق شبه الصحراوية عامرة بالسكان، لكن مجالها الجغرافي لم يكن يمنحها سوى موارد ضعيفة، إذ أن الجفاف وقلة المراعي كانت تحد من نمو قطعان الماشية، فتضطر القبائل للتنقل باتجاه المجالات الخصبة..."⁴.

1- الماء في تجليات صورة الآخر:

1- الصورة: الجذور، التطور، الأثر

يطرح حقل الصورولوجيا⁵ المغربية، في تداخلاته المنهجية والمعرفية مع وقائع الماضي، وخاصة حول الدولة المغربية والمجتمع المغربي، اشتباكاً مع جُملة قضايا منهجية، تُجرد مسالك كتابة الغيرية⁶ (الشكل رقم 14)، وتُعري عن دواخل الذاتية المغربية، وتُمارس حفريات الأصوات المتعددة التي تسمح بإعادة تشكيل التجربة الغرائبية عن بلد أُدرج من طرف الكتابات الأجنبية ضمن المجتمعات السفلى ذات الميل الغريزي إلى الشغب والفوضى والنهب

¹ يمكن أن نعتمد نصاً لأحمد التوفيق لتعزيد راحة هذه الفكرة "...قد نستخرج من الوثائق عناصر توحى بصلاحية النموذج الخلدوني حتى القرن التاسع عشر، لتفسير هذا المجتمع، وقد كشف عن صراعات تغري بالميل إلى التحليل الماركسي عندما نلمس بعض سمات نظام فيودالي، أو متغيرة من متغيرات نمط الانتاج الاسيوي، كما أن المظهر الانقشامي لمجتمع القبيلة قد يوهنا بكفاية نظريات التوازن الاجتماعي التي لطالما أثبتت لتفسير دينامية هذا المجتمع..." التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان (1912-1850)، م س، ص 44.

² - حبيدة محمد، بؤس التاريخ، مرجع سابق، ص 109.

³ - Ennaji. M, Soldats, domestiques et concubines, L'esclavage au Maroc au XIX siècle, Casablanca, 1994.

⁴ - Terrasse H, Histoire du Maroc, Casablanca, t1, 1950, pp 217-218.

⁵ - الصورولوجيا Imagologie مبحث من مباحث الأدب المقارن يهتم بدراسة وتحليل ورصد الصور الثقافية وتمثيلاتها عبر الكتابة والرسم والتصوير... التي تُكوّنها الشعوب عن بعضها البعض في سياق شروط معينة، وهي تعنى بالوقوف على جدلية صورة الذات وصورة الآخر في ثقافة معطاة (أدب شفهي/ أدب مكتوب/ أدب مرئي...) يعود منشأ هذا المبحث في الأصل إلى ماراندون S.Marandon مؤسس علم الصورولوجيا Sciences des Images، وهو علم منبثق عن محكيات الرحلة، يمكن العودة إلى:

Brunel. P, Préface, In, Moupeau.F, Métamorphoses du récit de voyage, Actes du colloque de la Sorbonne et du Senat, 2 Mars 1985, Paris, Genève, 1986.

⁶ - يمكن تأصيل مبحث الأدب الغرائبي في أعمال تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي لدى كل من أندري تيفي André Thevet كأول من دشّن حقل الدراسات الغيرية عام 1557م، إضافة إلى أعمال جان دوليري Jean De Lury وميشيل دو مونطين Michel De Montaigne صاحب كتاب المحاولات... هذا المبحث سرعان ما سيتأثر خلال القرن التاسع عشر بالمدرسة التطورية في حقل البيولوجيا.

والسلب¹...لربما يبدو هذا الاختيار غير مألوفاً لدى مختصي الزمن، بحكم وقوعه ضمن دائرة اهتمام مختصي الأدب المقارن².

تلتصق صورة الماء في الكتابات الأجنبية دائماً بجدلية الصدق والكذب والاستهتام، بإشكالية التطابق والتناقض، وبمعيار المقارنة والمفاضلة...سيعتمد هذا المبحث إلى اختبار مسألة توصيف الصورة المائية عن مغرب الأمس ضمن سجل التصورات الذهنية التي التصقت بالواقع اليومي، إن على مستوى المطابقة، أو على مستوى الاستدساخ، أو على مستوى الإسقاط...وهي صورولوجيا مركبة مارست سلطة مُشوّهة، مُخاتلة، ومفارقة للواقع. وعلى أي، تشكل الصورولوجيا في حقيقة الأمر، مُختبراً لقياس مسافة الفصل والوصل بين مكر الصورة وبلاغة الواقع. غير أنها لا تسلم من تهمة التوريث، تُوريط الباحث في ثنائية التبرير أو الخيانة؛ تبرير العلاقة المُرببة التي نسجت في لحظة مخصوصة بين الاستوغرافيا الاستعمارية والسياسة الأهلية، وبين تصور الفرنسيين للمغرب عامة³؛ وتبرير الصورة الصادقة والأمانة⁴.

الصورة التي تشكلت عن مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اعتبرت من لدن جمهور كبير من الباحثين مُستفزة ومعيارية، تضطر الباحث إلى مراجعة نسق القيم والمعايير⁵، إلى القيام بتأملات حول هذا الآخر المُرتحل والذات المُرتحل إليها، وأساساً إلى إعادة النظر في مفاهيم ملتبسة في الكتابة الغيرية⁶ من قبيل: المسافة، الالتصاق، الشفافية، والتوتروفيق ما تظهر الخطاطة (الشكل رقم 14).

تميزت صورة المغرب في الأدبيات الاثنولوجية الفرنسية باشتمالها على تصورات متعددة جاهزة حسب إدموند بورك، قدمته في هيئة نظام مُمزق بين اتجاهين نقيضين: يميل الأول نحو المركزي، والثاني نحو الفوضي، من دون أن يُحقق أحد التفوق على الآخر. لحسن الحظ، تدخلت الاستوغرافيا المغربية مبكراً لتصحيح هذه الصورة⁷.

¹ - Piquet. V, Le peuple Marocain, Le bloc Berbère, Emile Larose, Paris, 1925, pp 115-116.

² - Loupais. B, L'image du Maroc dans la littérature Espagnole, Des origines ai terme des lumières, Doctorat d'Etat, Paris 10, 1987 et aussi, Pageaux D.H, Une perspective d'études en littérature comparée, L'imagerie culturelle, Synthèses, 1981.

³ - بورك إدموند، صورة الدولة المغربية في الأدبيات الإثنولوجية الفرنسية، رؤية جديدة حول أصل السياسة البربرية لليوطي، ترجمة المصطفى جامع ومحمد أوجطي، مجلة أمل، العدد الثالث، السنة الأولى، 1993، ص 91.

⁴ - يمكن هنا أن نستشهد بمقولة أوردها الحجمري في كتابه عن صورة المغرب في الأدب الفرنسي "...أي عمل يبحث عن تبرير دراسة الصورة الصادقة والأمانة فإنه يكون ضرب من الخيال...".

Lahjhomri. A, L'image du Maroc dans la littérature Française, de Loti a Montherlant, Alger, S.N.E.D, 1973, p21.

⁵ - يتحدث إدموند بورك عموماً أن الصورة التي نسجها الفرنسيون عن المغرب خلال فترات 1900-1904 و 1904-1912 و 1912-1919 مستقاة من الصورة التي تشكلت عن مجتمع القبائل بالجزائر.

Ageron. Ch-R, La France a-t-elle eu une politique Kabylie, Revue historique, 1960, pp 311-352.

⁶ - رهان تحطيم القوالب الجاهزة لم ننجح بعد، وهو رهان يتطلب بحثاً دقيقاً، وتقييماً تاريخياً صارماً.

⁷ - Lahbabi. M.A, Le gouvernement marocain a l'aube de XX siècle, Rabat, 1957. et Ben Abdellah. A, Les grands courants de la civilisation du Maghreb, Tanger, 1957.

الشكل رقم 14: خطاطة حول المفاهيم المتداخلة في الكتابة الغيرية.



غالبا ما ترتبط بالصورة مأزق تعذر قياس درجة الصدق من الكذب¹، ومن تم مرجعية الكتابة وواقعية التمثيلية... مأزق كيفية تخيل شعب ما لشعب آخر يقع خارج ذاته، كفضاء محتمل للهروب وتصريف المكبوتات والعيش على الطبيعة بتعبير تزفتان تودوروف T. Todorov²... هذا الهروب يفضي إلى توليف صور متشوية ومتناقضة في آن. "... يكمن جوهر الصورة في ارتمائها الكلي في الخارج دون حميمية، ومع ذلك تظل أكثر تمنا وإغازا من السريرة دون دلالة، ولكنها تستدعي عمق كل معنى ممكن، متكئة ولكنها جلية، لها ذلك الحضور الغائب الذي يشكل الفتنة والسحر...³".

وبما أن الصورة الأجنبية التي تشكلت حول مغرب القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين لا تترك القارئ/ الباحث هادئا محايدا موضوعيا في انتاج المعنى داخل النص الغيري، لأنها تعرضه للاستفزاز، وتورطه في اكتشاف العلاقة الجدلية بين "ال لماذا" le pourquoi، "الكيف" le comment، و"الماذا" le quoi... ما دامت كل الصور التي التقطت عن هذا المغرب لم تكن إلا تجليا للصورة الفنية العتيقة التي رسمها أوجين دولاكورا... صورة المغرب العتيق، "المتوحش الطي le bon sauvage الذي منذ أن تركه الرومان لم يخلف شيئا ذا بال، ولم يطور نفسه⁴.

2- الصورولوجيا المائية: تطبيقات تاريخية:

الصورولوجيا هذا المبحث الصبي والعجوز في آن يحاول أن يتقضى مستويات النمط الاثني الذي أنتجته مجتمعات مغايرة عن الاثنومركزية الأوروبية. يمر هذا الاقتفاء عبر سلسلة من المقارنات بين الثقافة الأصلية والثقافة الغرائبية، بين الهنا والهنالك، الأنا والآخر، الذات والغير، الماضي والحاضر، الناظر والمنظور إليه، العين

¹ - ذاكر عبد النبي، الصورة، الأنا، الآخر، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، عدد 43، أكتوبر 2014، ص 10.

² - Todorov Tzvetan, Nous et les autres, La réflexion Française sur la diversité humaine, Seuil, 1989, p 300.

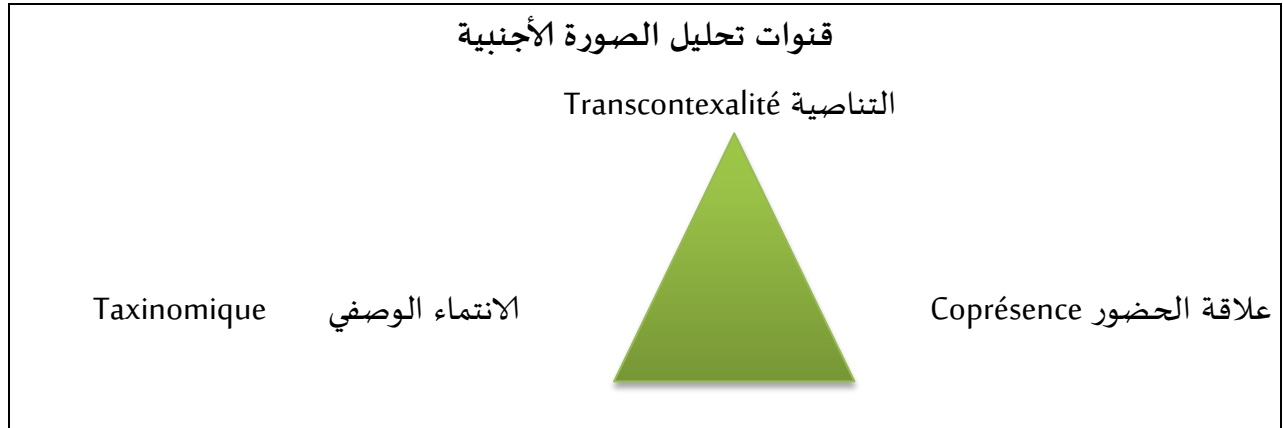
³ - البلغي محمد العلوي، فاس مقام العابرين، دراسة في كتاب الاختلاف، ترجمة محمد الشكري، افريقيا الشرق، 1990، ص 22.

⁴ - "... لقد احتل هؤلاء الرومان طفولتنا...".

- Fermeaux. J, Le Maghreb Fantastiques, Souvenirs de Rome et présence Française au Maghreb, Essai d'investigation du Maghreb, L.N.R.E, 1984, p 30.

والذاكرة...حينما تهتم الصورولوجيا بالغيرية فهي تشتغل على المقارنة¹...حاليا، تقدم الصورولوجيا نفسها كحقل للاشتغال على الصور والتمثيلات والطرق التي يرى بها مجتمع ما مجتمعا آخر². تبرز أهمية الصورولوجيا الأجنبية في تناول موضوعه الماء في تاريخ الماء في كونها تساهم في تبديد سوء الفهم الحاصل عن تناول أسئلة المثاقفة الحضارية والانحطاط الثقافي والاستيلاء الهوياتي وقضايا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي...إنها رؤية شاملة لإعادة توضيب المشهد المائي المغربي في توازن طبيعي بين الشغف بالرحلات وموهبة العالم المقارن³.

الشكل رقم 15: قنوات تحليل الصورة الأجنبية



يظهر هذا الرسم التوضيحي قنوات تحليل الصورة الأجنبية عن المغرب عبر موازنة الصورة المنتجة دلاليا، ارتكازا على مدخل تحليل مستويات الخطاب من حيث ثوابته ومتغيراته، خطوطه وتموجاته...أي الاقتراب من التصورات المفوضية إلى تمثيلية المغايرة. يتم هذا التحليل بالموازاة مع دعائمي الانتماء الوصفي من جهة (مرجعية القيم والمعايير)، وعلاقة الحضور (حضور بالفعل أو حضور بالإمكان) بين الرحالة الملاحظ والثقافة الملاحظة من جهة ثانية...يفضي هذا الاشتغال إلى تبديد الأحكام والكليشيهات والقوالب المُحاكاة Stéréotypes...عبر انفتاح الصورولوجيا على الأنثروبولوجيا والعلوم الانسانية والسميولوجيا وتاريخ الأفكار⁴، في إطار برنامج التكامل المعرفي. لا غرابة أن تستند الصورة في بنائها إلى موقف ثقافي مرجعي مرسوم تاريخيا، تمتع من مرجعية التفوق التاريخي والاستعلاء الحضاري، تُشيد فصلا بين الثقافة الناضرة (الذات) والثقافة المنظور إليها (الآخر)، وبالتالي، تُعبر عن حزمة علامات وملفوظات...من تم قد تسمح بإظهار الماء كإشكالية صورولوجية تسمح باكتشاف البنى الكبرى للنص الرحلي، وبتقفي الوحدات التيمية الكبرى، وأيضا بالقبض على الاستراتيجيات السردية والخطابية للصورة المشكلة عن مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

¹ - Zaleski. Z, La psychologie du voyage et la vocation de comparatiste, In Connaissance de l'étranger, Librairie M. Didier, Paris, 1964, p 115.

² - ذاكر عبد النبي، الصورة، الأنا، الآخر، م س، ص 27.

³ - علوش سعيد، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، الطبعة الأولى، 1987، ص 479.

⁴ - ذاكر عبد النبي، الصورة، الأنا، الآخر، م س، ص 37.

عادة ما خُنقت الدراسات التاريخية الحديثة في قوالب منهجية جاهزة وغير مرنة، ارتكزت على قراءة النصوص بعين واحدة، تبدأ بالنص وتنتهي به، عين منغلقة على النص دون سواه... فيكفي أن توجد النصوص في المضان حتى نؤمن بإمكانية تخريج اشكالية مناسبة واستنتاج نهائي سرعان ما يتم ترسيمه كحقيقة مقررة... يعتقد مؤرخو الأدب اليوم أن قراءة التاريخ صورولوجيا من شأنها أن تطبعه بالتعدد والثراء، أن تفتح النص على آفاق أخرى، وتخرجه من حالة الانحباس. وإذا كان البحث يشترط المنهج وليس العكس، لأن الأمر في المحصلة يتعلق بكسب رهان التفسير، والتفسير قرين الفحص والاستدلال... لهذا نجد مبحث الصورولوجيا يراهن في البدء والمنتى على شرط التداخل، تداخل المناهج Interdisciplinaire لإعادة توضيب عناصر المشهد التاريخي في تفاعلات بناءه وأنساقه وشخصه من ناحية، ولتبييد السرابات والأوهام التنقيصية التي رافقت المتخيل الأجنبي عن المغرب من ناحية ثانية.

قريبا من ميدان تاريخ المغرب، نستعيد صورة من بين الصور التي رسمت حول مغرب ما قبل الاستعمار. يرسم المؤرخ هنري تيراس H. Terrasse قبيل الاستقلال صورة مغرب متصادم بين فاعليه: مخزن ضعيف، وقبائل سائبة، ووهن مستدام. باختصار، صراع بين إدارة ومتمردين¹، يُظهره في ثوب التعارض المزمّن بين حضارة عربية اسلامية وعنصر بربري عريق². توازن هش بين طرفين، كتب له الاستمرار لأسباب مركبة، لا ينهض على تغيير حاله، ما دام هذا البلد شديد الانكماش على نفسه³.

قبل سنة 1904 م كانت الصورة المقدمة عن المغرب في الدوريات الفرنسية غير دقيقة، باستثناء ما كتبه بعض الرحالة والملاحظين الديبلوماسيين الفرنسيين المستقرين بالمغرب. يُفكر الأوروبيون انطلاقا من مفهوم الحدود الترابية، بينما يُفكر المسلمون انطلاقا من مفهوم بيعة السكان للسلطان⁴. بين المنطقين، تختلف النظرة وتضيع الحقائق. الملاحظ الأوروبي يقرأ في الصراع المستمر بين المخزن والقبائل مجرد فوضى. تتحسن هذه الرؤية شيئا فشيئا بعد تقدم الأبحاث حول قرى وجبال المغرب، فيضيف إلى ذلك دوتي E. Doutté أن هذه الفوضى جزء من النظام، جزء من التوازن... الذي يُفرض توازنا اجتماعيا في القبائل وفي المدن⁵. مع ميشو بليير Bellaire. E.M. يكتمل النسق في التحليل، مخزن منخور غير قادر على امتصاص الحيوية البربرية وتسخيرها لفائدته، فيعتمد إلى مقاومتها

¹ - يُظهر أوجين أوبان علاقة المخزن بالقبائل في شكل صراع مستدام.

Aubin. E, Le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1903, pp 238-241.

² - يُدمج هنري تيراس ضمن هذه الصورة شخصية السلطان المغربي المفتقد للسيادة الحقيقية، لكنه يظل مهّاب الجانب بوصفه زعيما روحيا، وبضيف في مقطع آخر أنه لم يكتب للمغرب أن يكون أمة إلا في فترة المرابطين والموحدين. انظر:

Terrasse. H, Histoire du Maroc, Casablanca, 1950, p p 412-418-433.

³ - Ibid, p 361.

⁴ - Doutté. E, Une mission au Maroc, 1910, p 171.

⁵ - Doutté. E, Une mission d'études, Renseignements coloniaux, 1901, p 172.

واحتوائها¹. بلير في الحقيقة، جمع ما تردد ذكره في الأوساط الفرنسية من طرف كتاب غير موهوبين من كلام مبتذل في مقال ثقافي محكم². وتزداد الأمور وضوحاً، حينما يتم الانتقال نحو الإسلام كمنتوج ثقافي وديني³. كل الذين درسوا الإسلام المغربي ربطوه بالركود والتحجر⁴. لقد كان هذا الإطار الثقافي بمثابة "مسمار الدولاب" الذي لعب دوراً في تماسك القالب⁵. أكد الملاحظون الفرنسيون فكرة هشاشة الإسلام المغربي، وأن الممارسات الإسلامية عبارة عن خليط من "الفيتشية" و"الأنثروبولاتريا" والخرافات وبقايا الوثنية والسحر واليهودية والكاثوليكية⁶.

في سياق آخر، رسم بول لوموان P. Lemoine سنة 1905 صورة جديدة مخالفة لنظرة عسكري المدرسة الجزائرية، اشراك القياد الكبار في الجنوب المغربي في توسيع دائرة النفوذ الفرنسي⁷. تعكس هذه النظرة انقلاباً في التصور، واقترباً من حقيقة الميدان. فسّر البعض صعوبة عمليات الاحتلال والإخضاع بجهل خصوصيات المجتمع المغربي⁸، وبخلط العمل السياسي واستعمال القوة ضمن نظام التهذية، وفشل استقطاب الوجهاء في بعض المناطق⁹. أخطأت فرنسا عندما راهنت في بعض المناطق على سياسة القواد، في حين أن السلطة الفعلية كانت بيد الجماعة والشيوخ.

يبدو واضحاً أن صورة المغرب المائبة ارتسمت أولاً في حُسن الأدب الفرنسي على مراحل متقطعة، صورة التصقت في البداية بمخيال الشرق، وفي مرحلة ثانية تغايرت عنه في حدود بسيطة، لكن ضمن نسق عام ظل محكوماً بطبائع التمايز والتفاضل الحضاري وإحياء المجد الروماني البائد بشمال إفريقيا¹⁰...نقترب هنا من تلك الاسهامات التي خلفها بيير لوتي وشاتو بريان والرسام أوجين دولاكورا...تظهر الطبيعة المغربية عند هؤلاء عذراء فاتنة، بلا حضور بشري، مثل طبيعة الشرق الراضة للموت، تنتظر حلول الرجل الأبيض لإتمام مهمته

¹ - Bellaire. E.M, L'organisme marocain, Revue du monde musulman III, 1908, p 258.

² - هذا الحكم أطلقه إدموند بورك على كتابات ميشو بلير...انظر: إدموند بورك، صورة الدولة المغربية في الأدبيات الإثنولوجية الفرنسية: رؤية جديدة حول أصل السياسة البربرية لليوطي، م س، ص 103.

³ - Doutté. E, Le fanatisme musulman, R.C, 1909, p 164.

⁴ - Doutée, Coup d'œil sur le Maroc, R.C, 1909, p 135.

⁵ - بورك إدموند، صورة الدولة المغربية، م س، ص 103.

⁶ - Bellaire. E.M, L'organisme, op. cit, p3.

⁷ - Lemoine. P, Mission dans le Maroc occidental, R.C, 1905, pp 86-89-92.

⁸ - لتأكيد هذه الفكرة نقتبس هذا النص من سيمون: "...إننا نجد أنفسنا اليوم في المغرب بحضور أكبر مجموعة من البرابرة ما زالوا يحافظون على طبائعهم الأصلية، يتعين علينا دراستهم كليا. إن العمل الذي أنجز بالجزائر وبالتحديد ما قام به لوترنو وهانوتو سيمدنا بأساس قوي في دراستنا هذه، غير أن التقاليد والأعراف تختلف من منطقة لأخرى، ولذا يجب تسجيل كل الخصوصيات وفحصها بعناية دقيقة، وذلك لوضع أسس وثائقية يمكننا بواسطتها إرساء قواعد السيطرة السياسية والإدارية على هؤلاء السكان...".

Simon, H, Les études berbères au Maroc et leur application en matière de politique et d'administration, Afrique française, 1915, p

4-5.

⁹ - Lyautey. P, Lyautey l'Africain, Paris, 1956, pp 252-255.

¹⁰ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية 1832-1912، إفريقيا الشرق، 2007، ص7.

الحضارية...هكذا يتهماً للباحثين في الأدب الغرائبي حول المغرب أن بييرلوتي أنهى تقليداً كان معروفاً لدى الرأي العام الفرنسي، نشأ مع عصر الأنوار وانتهى بلوتي، كآخر من شكل الصورة الغرائبية لمغرب نهاية القرن التاسع عشر، منهيًا بذلك تقاليد جيله وبادئاً مع جيل جديد¹.

مع شارل دوفوكو أخذت الأمور منحى مغاير، لم يعد المغرب يسكن أروقة الأدباء والتخيليين، لم يعد بطبيعته الخلافة ووديانه الذهبية وجباله الشامخة موضوع طلب شغوفي الدراسات الغرائبية...يتوقف الباحث في تاريخ الماء مع شارل دوفوكو عند لحظة انعطاف في التأليف الفرنسي، بله عند حدود مرجع جغرافي توثيقي دقيق، غني بمعطياته، زاحر برسوماته، وإن كان مؤلفه لم يحد عن مدار التسابق الاستعلاماتي الخدم للمدرسة الاستعمارية الجزائرية.

منشأ كل اهتمام ببلد ما تحدده نقطة بداية. كان لاحتلال الجارة الجزائر سنة 1830م أن حكمت على دخول المغرب رسمياً دائرة الاهتمام الأدبي والسياسي حينما أثبتت قضية الحدود والبيعة التلمسانية ومطلب الجهاد²...احتلال الجزائر هو في الأصل تجسيد لرغبة فرنسا في الانفراد بالمغرب³. أحد ذلك هزة نفسية عميقة في وجدان المغاربة "...هكذا خلق احتلال الجزائر ارتباكاً في النفوس، وبلبله في الأفكار، تمخض عن ظهور حركة انبعاث جديدة، ويقظة في البلاد، كانت النواة الأولى والحجرة الأساسية للوطنية المغربية الحديثة..."⁴. "يدشن بحق هذا الحدث للحظة ميلاد مبحث الصورولوجيا المغربية، بما هي تجسيد لروزنامة من "...الصور التمثيلية سواء أكانت فردية أو جماعية، تشمل عدة عناصر ثقافية وعاطفية، موضوعية وذاتية..."⁵. "حدث يستحث جماعة المؤرخين إلى إعادة بناء هذا الآخر بناء وجدانياً...لقد حان الوقت كما يدعو إلى ذلك شيفن أولمان Ch. Olmane إلى تحقيق نوع من التفاهم والتعايش العالمي، وتحطيم كل الأحكام الجاهزة، وتهشيم مجمل الصور المزيفة التي التصقت بالأدب الغرائبي⁶...

¹ - بوزوبته، م س، نفسه، ص 7.

² - ما يهم في حدث احتلال الجزائر هو تداعياته المباشرة على المغرب، مع إقدام الدولة الفرنسية على إرسال بعثة للتباحث في نقطتين رئيسيتين: مسألة ضمان حياد السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام تجاه البيعة التلمسانية، وإلغاء البيعة التلمسانية...هذه البعثة التي قادها السفير الفرنسي دمورني 1831م، وضمت كلا من المترجم ديكرونغ Desgranges (موظف بوزارة الشؤون الخارجية) والرسام المنبوذ في الأوساط الأكاديمية الفرنسية أوجين دولاكروا...غير أن هذه البيعة ستفشل...للتوسع أكثر في هذه البعثة يمكن العودة إلى:

Gourdin. A, La politiques Française au Maroc, Arthur Rousseau, Paris, 1906.

³ - Ben Mlih. A, Structures politiques du Maroc colonial, Histoire et Perspectives méditerranéennes, Paris, Harmattan, 1990, p80.

⁴ - المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الجزء الأول، مطبعة الأمنية، الرباط، 1973، ص 13.

⁵ - علوش سعيد، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، سوشبرس، الطبعة الأولى، 1987، ص 482.

⁶ - أولمان شيفن، الصورة الأدبية، بعض الأسئلة المنهجية. نقلا عن محمد أنقار، محمد مشبال، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد الرابع، 1990، ص 98.

كتب أندري جيد في يومياته 20 غشت 1926 مرددا تعبير مالارمي الشهير قائلا: "...ليس هناك عدو أسوأ للتفكير من شيطان التشبيه، وأي شيء أكثر ارهاقا من هوس بعض الأدباء، الذين لا يمكن أن يروا شيئا، بدون التفكير على التوفى شيء آخر..."¹... إن هذا التشبيه ينطلق من عنف الالتقاء، التقاء آلية الطين بآلية الحديد بعبارة بيير شوني P. Chénier ذهب البعض إلى القول أن الصورة المتشكلة عن مغرب القرن التاسع عشر كانت ناجزة ومكتملة، فقط كانت تحتاج إلى تعميم وتكييف مع المشهد التاريخي المغربي. لكن، هناك خيط ناظم يربط بين حلقات التأليف الفرنسي المبكر حول مغرب القرن التاسع عشر، حلقات متكررة من سرود الرحلات والسفاريات وأدب الحروب² ومدونات الخيال³... تطرح سؤالا ثانيا من ابتكار الغرائبية المغربية؟ أهو جمهور القراء أم الكتاب؟ أم وجود عرض وطلب متبادل بينهما؟

علينا أن نُقر من جانب آخر بأفضال هذا التأليف في إطلاع الجمهور الفرنسي المتعطش على منجزات فرنسا في شمال إفريقيا، إن على مستوى الاختراق المجالي لبلد ظل منيعا ومجهولا⁴ منذ أن غادره الرومان⁵... بلد عدواني ومنغلق يرفض تسليم مفاتيح أسرارهِ⁶، ويحتضن كل خاصيات الغيرية Altérité الجديرة بالاستكشاف، به حضارة جامدة، يسكنه إنسان مستسلم للقدرية ينتظم في مؤسسات ثابتة... تأليف فرنسي انخرط في البداية في رهان ما يسميه رولان لوبيل R. Lebel فهم "الروح المغربية"، لكنه ظل لصيقا بالنظرة الموروثة عن الرواية التقليدية، وفيها للتقاليد الفكرية اليونانية والرومانية، غير بعيد عن رؤى المسيحية واليهودية، وجد قريب من الوهم الإسباني الموريسكي⁷.

يُلح مؤرخ الأفكار على تأكيد فكرة خضوع صورة المغرب في السجل الأدبي الفرنسي لتقلبات مرحلية، تبعا لتجاذبات اللحظة السياسية وتموجاتها بين حرب عسكرية محتملة وتفاوض ديبلوماسي تتبعه مكاسب تجارية جديدة. يجيب الصورولوجي ومؤرخ التاريخ الاجتماعي نأخذ بهذا التحليل، لكن نضيف إليه المرجعية الشرقية حتى تكتمل الصورة النهائية. ما معنى ذلك؟ محاولة سجن المغرب في الرؤية الشرقية... الشرق كحضارة جامدة مقابل الغرب كحضارة متحركة، الشرق المعتنق لقدريته الدينية التي تعيق أي تطور وتقدم⁸... صورة قائمة على تضخيم الأنا وتقليل صورة الآخر... يصبح تاريخ شمال إفريقيا برمته مرآة للشرق، امتداد لصورة الشرق في نسخة

¹ - أولمان شيفن، م. س. ص 99.

² - يمكن العودة هنا إلى كتابات رجال الجيش الفرنسي بالجزائر حول المغرب مثل القائد أزان والقائد كراسيه والعقيد آماد.

³ - Le Bel. R, Le Maroc dans la littérature française, B.E.P.M, n°70, 1925, p 390-391.

⁴ - Lahjhomri .A, L'image du Maroc dans la littérature Française, de Loti a Montherlant, Alger, S.N.E.D, 1973, p 8.

⁵ - Le Bel. R, La littérature Nord-Africaine de longue Française, B.E.P.M, 1924, n°57, p 173.

⁶ - بوزيتة سمير، مكر الصورة، م. س. ص 13.

⁷ - Lahjhomri .A, L'image du Maroc dans la littérature Française, de Loti a Montherlant, op. cit, p 19.

⁸ - بوزيتة سمير، مكر الصورة، م. س. ص 15.

منقحة...لقد عمل التأليف الفرنسي المبكر على اختلاق شرق جديد، ذاكرة جديدة، يستطيع من خلالها أن يقيس المسافة التي تفصله عن باقي الشعوب الأخرى، جعلته يعمل على صياغة سردية غرائبية تتضمن مشاهد التشويق والإثارة تستهوي الرأي الفرنسي.

تنبه جان روبر هنري R. Henri إلى هذا الالتباس حينما قال "...يبدو أن العلاقة بالمغرب العربي تورطنا عميقا من خلال الصورة التي نبنينا عن هذه البلدان، والمكانة الرمزية التي نخصصها لها في رؤيتنا للعالم..."¹. يقول الحجمري في شأن ذلك، "...تبدو كل صورة، كل شعب نموذجي، كل حقبة مختارة، تستلزم إعادة منهج خاص، لا يمكن محاكاته إلا جزئيا في تحليل من نفس النوع..."². ينطلق الأجنبي في وصفه للمجتمعات الغريبة من رؤية التفوق الحضاري، تتبدى له هذه المجتمعات الغريبة كفضاءات للمقايضة الحضارية³؛ حيث الأنظمة السياسية فيها مطبوعة بالهشاشة، والنظم الاجتماعية والاقتصادية غارقة في الانغلاق والانقسام، وكره المغاربة للأجنبي أزلي شبيه بالمجتمعات البدائية المغلقة؛ بلد أتى عليه حين من الدهر وظل يدور في فلك ثلاثة أشياء: فوضى مزمنة، حروب أهلية، وهشاشة أمنية⁴...فهذا ميشو بليير عراب السوسيولوجيا الكولونيالية يثني كثيرا على أخلاق وتقاليد وطباع الإنسان البربري في شمال إفريقيا في محاولة لاستدراج الرأي العام الفرنسي نحو تقبل فكرة إلحاق "البربر" بالعائلة الفرنسية...هو نفسه الذي يكيل للإنسان العربي أشنع الأوصاف، ويتهمه بالخيانة والكسل والتواكل⁵...الخلاصة: إنسان واحد، مجال واحد، وتحليل متحيز غير منصف.

¹ - قوله أوردها محمد العلوي البلغي في كتابه "فاس مقام العابرين. دراسة في كتاب الاختلاق"، ترجمة محمد الشري، إفريقيا الشرق، 1990، ص 12، نقلا عن صاحبها جان روبر هنري، أصدا مغربية في المتخيل الفرنسي، إيدسود، 1985، ص 5 (بالفرنسية).

² - Lahjhomri, A, L'image du Maroc dans la littérature Française, de Loti a Montherlant, op.cit, p25.

³ - من بين النماذج التي يمكن نسوقها في هذا الصدد إتيان ريشي Etienne Richet (1873-1929)، كاتب وصحفي ومستكشف ورحلة ديبلوماسي فرنسي...يرسم إتيان ريشي في رحلته المغربية صورة مغرب مُعتم مُحتضر، يتصف بالانغلاق والغموض والأسرار...بسبب ضعف سلطته المركزية، ومخزنه الذي يُعادي كل تقدم (ص 23) "...حيث البلاد تُدار وتُحكم بطريقة سيئة للغاية..." (ص 42)، بينما مجتمعه يتصف بتمجيد السرقة والنهب؛ وعدالته تُباع وتشتري بدون هيبة (ص 84)...يُفضل المغاربة في الغالب الأعم حسب ريشي الظهور بمظهر الفقراء كي لا يتعرضوا للنهب، أو حتى يتم إثقالمهم بجبايات المخزن وأعدائه...مثلما نجده في مقاطع أخرى، يصف الشخصية المغربية بالتراخي وعدم اعطاء قيمة للوقت والزمن، لكنها بالمقابل ذات شموخ وعزة نفس وإباء وكبرياء لا توافق حالة الضعف التي تعترها...الشعب المغربي في رحلة إتيان ريشي لا يُدافع عن وطن، بل يحارب في أجل فكرة دينية متشددة نسجها ضد الكفار... (ص 111-113).

Richet, E, Voyage au Maroc, Edition Vasseur, Paris, 1909.

للإشارة صدرت ترجمة لهذه الرحلة باللغة العربية سنة 2016 عن دار إفريقيا الشرق تحت عنوان: رحلة إلى أسرار بلاد المغرب، ترجمة بوشعيب السائوري، مراجعة وتقديم المبارك الغروسي...كما ظهرت في نفس السنة متابعة نقدية لهذه الرحلة بعنوان: أرض الله والإنسان والسلطان: رحلة إتيان ريشي إلى مغرب مولاي عبد العزيز، بقلم المبارك الغروسي، ضمن: أدب الرحلة من وإلى المغرب، سؤال النهضة والتحديث، مجلة أفكار، العدد 8، يوليو 2016.

⁴ - بوزيطة سمير، مكر الصورة، مرجع سابق، ص 35.

⁵ - Bellaire Michaux, Fès et les tribus Berbères en 1910, Archives Berbères, 1920, p6.

واضح أن فرنسا حسب زعم جرمان عياش عمدت إلى قلب الحقائق حتى تصير هذه الفوضى نتاجا لداء داخلي فطري ومزمن، سببا أصليا يضع الضغوط الأوروبية بديلا ضروريا لتجاوز هذه الفوضى¹... نجد أن الفرنسي كان يدير ظهره للأحداث التي تتعارض مع وجهة نظره، يعرف كيف ينسق الأحداث لدمج بعضها في البعض الآخر²... لم ير في السببة سوى الميل الفطري لإحداث الفوضى لا الرغبة في الاستقلالية القبلية... السببة في هذا المقام، تعبير عن حيوية القبيلة وفعاليتها³.

وُصف المخزن المغربي مثل حكومة دائمة التنقل تقود حملة تأديبية لإخضاع القبائل على الطاعة والانصياع، قُدم المخزن في ثوب مقالة جبائية، وجدت لتأخذ لا لتعطي، لتسلب لا لتمنح، لتهدم لا لتبني... كأنه طبقة طفيلية دخيلة وصلت إلى الحكم بالقوة والغضب⁴... تحولت السببة في ثنايا الخطاب الكولونيالي من ظاهرة سياسية ظاهريا إلى أداة نقدية لتشريح دوايب المخزن الشريف⁵... روجت الكتابات الفرنسية مبكرا لفكرة الحماية كقوة موحدة للبلاد⁶، بمقدورها محو التناقض الأزلي بين الجبل والسهل، الشرع والعرف، المدينة والبادية، المخزن والسببة⁷.

3- دوفوكو: مغرب جديد يتشكل

يصطدم الباحث منذ البداية بشبكة من الأسئلة الحارقة حول رحلة شارل دوفوكو... تبدو رحلته كما لو أنها مفتوحة على زمن لاحق، حبلى بالقضايا والاشكالات. رحلة استكشافية تحتل عدة قراءات، وتصطبغ بعدة ألوان، وتعكس "نظرة الآخر" إلى مغرب نهاية القرن التاسع عشر⁸. فهل يتعلق الأمر برحلة استخباراتية أم برحلة اعتقادية روحية إلى مجتمع الطوارق والصحراء⁹؟ هل تُصنف ضمن جنس البعثات أم جنس الرحلات؟ هل تندرج ضمن نشاط سياسي أم نشاط ديني¹⁰ أم تمزج بينهما معا؟

¹ - عياش جرمان، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للنشائين المتحددين، الرباط، 1988، ص 18.

² - عياش جرمان، دراسات في تاريخ المغرب، م س، ص 20.

³ - نجد هنا ضرورة أن نتوقف عند التحديد الذي رسمه العروي لمفهوم السببة في مغرب القرن التاسع عشر، حيث لا ترتبط السببة عند العروي بنيويا بالتنظيم القبلي فقط، ما جعله يصل إلى استنتاج أن تمرد القبيلة المغربية يعني أنها حية وغير جامدة، كما أن السببة لا تنهي بالمرّة دور المخزن في المناطق القاصية الطرفية. ولا تقوم في المناطق المماثلة للمناطق المخزنية، كما أنها لا تأخذ شكل ثورات بمقدورها تغيير شكل وبنية السلطة.

Laroui .A, Les origines culturelles et sociales du nationalisme Marocain, François Maspero, Paris, 1980, p 338.

⁴ - بوزيتة سميز، مكر الصورة، م س، ص 37.

⁵ - Houroro. M, Sociologie politique colonial au Maroc, Cas de Michaux Bellaire, Casablanca, Afrique Orient, 1988.

⁶ - Sermaye .J, L'œuvre Française en terre Marocaine, Imprimerie Réunis, Casablanca, 1938, p5.

⁷ - Lyautey. P, Empire colonial Français, Troisième République, 1870 à nos jours, Edition De France, pp 143-146.

⁸ - دوفوكو شارل، التعرف على المغرب، الاستخبارات، ترجمة المختار بلعربي، افريقيا الشرق، 2015، ص 16.

⁹ - Merad .A, Charles De Foucauld, Au regard de l'Islam, Préface Michel Lelong, Edition Chalet, 1976, p 103.

¹⁰ - من بين الاسهامات الهامة التي تناولت شخصية دوفوكو المسيحية في الشمال الافريقي نستوقفنا محاولة جورج غوري Georges Gorée، ركز فيها على تأملات شارل دوفوكو الدينية القائلة بضرورة تمسيح سكان الأهالي الأفارقة، وتوجيه حضاراتهم المادية والفكرية نحو اتجاه واحد، مركزا

نصل إلى السؤال الأساس من وراء قراءة هذه الرحلة إلى من هي مُوجهة؟ هل إلى جمهور القراء وشغوفي أدب الغرابة؟ أم إلى مُدبري القرار السياسي والعسكري سواء بالجزائر الفرنسية أو بالميتربول الفرنسي²؟

لا شك أن الوقوف على مضمون هذه الرحلة قد يفيد في الإمساك ببعض من هذه الأسئلة. لكن بصرف النظر عن القضايا والتيمات التي ساقها عموم الباحثين حول هذه الرحلة، فإنها تدرج ضمن مصنف الرحلات الاستكشافية ذات النفس التفصيلي لاستكشاف مجال مجهول عن الدوائر السياسية الفرنسية؛ رحلة فارقة تفصل بين زمنين: زمن ما قبل الفيكونت دوفوكو، حيث المعارف الجغرافية المُشكلة حول المجال المغربي ظلت في عمومياتها ناقصة وغير مكتملة، والصورة عنه غير واضحة ومبهمة، استقت معطياتها من اخباريات المصادر الوسيطية مثل ابن حوقل والبكري والحسن الوزان، وبعض كتابات الرحالة الأجانب مثل بارت ورولفس ودوكايي ولينز وضموما... وزمن ما بعد الرحلة، التي بدا فيها المجال المغربي كمجال مُغري لممارسة الاستخبار والاستعلام، واكتسب فيه هذا المجال بُعدا استراتيجيا في مختلف التقارير العسكرية التي كانت تنادي باستكمال "المظلة الفرنسية" في الشمال الافريقي.

حاصل القول، رحلة شارل دوفوكو إلى المغرب رحلة جغرافية بمضمون جديد، تشفعت بالمعينة ومنهاج القياس الكمي؛ ركبت مسارا مغايرا لمسارات طريق المغرب السلطاني الذي سلكه في ما قبل عموم الأطباء والجغرافيين والمهندسين ورجال الدين والديبلوماسيين والقناصل... الذين وفدوا تباعا إلى المغرب منذ ثلاثينات القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر... قدمت نفسها كحلقة أساسية pièce maitresse ضمن برنامج سياسي عام، مدروس ومهيكل لاستكشاف مجال جغرافي مجهول بُعد استراتيجي مضبوط؛ في سياق تزامن مع سلسلة حوادث

على قول ماثور لشارل دوفوكو "...يجب العمل على تمسيح الإنسان الافريقي في هدوء تام..."، مطلقا عليه لقب الراهب المبشر Maine Missionnaire. خاصة وأن شارل دوفوكو كان يؤكد في مناسبات عدة أن "...تعاسة شعب معين ترتبط بكونه غير مسيحي..." هكذا يُظهر غوري دوفوكو خادما للكنيسة الكاثوليكية في اكتشاف الأراضي المجهولة، مجسدا لفكر وإيديولوجية الكنيسة، وأحد رموزها السريين ببلدان شمال افريقيا الذين راودهم حلم تمسيح القارة الافريقية برمتها، ألم يكن دوفوكو يصلي ويعمل ليهب المغرب للمسيح ولفرنسا في آن واحد؟ تم كيف يمكننا أن نفسر قضية الاغتيال بقبيلة تمنراست؟

- Gorée. G, Au-delà du père de Foucauld, Le père Peyriguere, Edition du Centrain, Paris, 1960.

¹ - Carrouges M, Foucauld devant l'Afrique du Nord, Essai critique, CERF, Paris, 1961, p 17.

² - هناك قول ورد على لسان القائد العسكري الفرنسي بالجزائر روبري بيجو بعد سلسلة الحوادث العسكرية التي حدثت بين الجيش الفرنسي والمقاومة الجزائرية. يحاول من خلاله أن يؤكد فاعلية القوة العسكرية في عملية الاخضاع السياسي لسكان المستعمرات. قبل بدء مرحلة الاستكشاف "...الآن يمكننا أن نكون كرماء دون أن نكون ضعفاء لأننا ضربناهم بقوة..." يمكن العودة إلى ميلار سوزان، بن الصغير خالد. صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا (1845-1846). منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، الطبعة الأولى، 1995، ص 20.

درامية وقعت في الشمال الإفريقي والسودان الغربي، مثل حادثي إبادة بعثة الضابط فلاتيرس Flaters سنة 1880، وقتل الرائد دولس Douls بالصحراء سنة 1886¹.

قوى هذين الحدثين من اهتمام الفرنسيين بالجنوب المغربي، وكشف عن جهلهم بكثير من خباياه وأسراره، واستحث الدوائر السياسية الفرنسية ومعها الجمعية الجغرافية بالجزائر إلى تأطير عمليات الاستكشاف والمسح الاستعلاماتي للجنوب المغربي، وبدأ وقتها التحضير لرحلات استكشافية تجوب المناطق المجهولة، وتقف عند جغرافيتها وسكانها، عاداتها وتقاليدها، أنظمتها وسلوكاتها، مؤسساتها وأنساقها... سمح ذلك بحدوث تراكم معرفي هام هيا أساليب ومناهج الهيمنة على المغرب²، حيث أضحت سلطة المعرفة سلاحا تمهيدا لاستعمار المغرب³.

أ- هندسة الرحلة:

تغطي زمنيا هذه الرحلة الاستكشافية قرابة 11 شهرا و15 يوما. صدرت في طبعة فرنسية سنة 1888م، أي بعد مرور 4 سنوات من عودة الفيكونت شارل دوفوكو من رحلته الاستكشافية 1883-1884م. تقع هذه الرحلة في 461 صفحة، مقسمة إلى: جزء أول حول معنون ب"الرحلة" Voyage. يحتل مساحة مهمة من الصفحة 1 إلى 258، وجزء ثانٍ معنون ب"الاستخبارات" Renseignements، من الصفحة 259 إلى 391، مع ملحق حول الإسرائيليين بالمغرب، يقع ما بين الصفحات التالية: 395-403، وأطلس من 20 خريطة، وفهرس المفردات الأمازيغية⁴.

لسنا في حاجة إلى كبير عناء للتأكيد على أن رحلة شارل دوفوكو بمثابة نافذة مفتوحة في قراءة وتشكيل صورة المجتمع المغربي خلال القرن التاسع عشر، بله مصدرا لا غنى عنه من مصادر التأريخ للجنوب المغربي بواحاته وجباله وصحاريه... وإن تمت في سياق واضح ومكشوف، سياق المسح الاستعلاماتي والاستكشافي لمغرب القرن التاسع عشر⁵.

¹ - بوطالب إبراهيم، البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية: حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، 1989، ص 108.

² - بوبكراوي الحسن، الفقير عبد العالي، المجال الصحراوي المغربي من خلال كتاب استكشاف المغرب لشارل دوفوكو، مجلة منتدى شمال المغرب، عدد ثلاثي، 6-7-8، يونيو 2012، ص 51.

³ - حسب الضابط الإنجليزي بليفير صاحب أول جرد بيبليوغرافي عن المغرب، وصل العدد الاجمالي للكتابات حول المغرب سنة 1892 إلى 2243 عملا، جلها مكتوب باللغة الفرنسية... يمكن العودة إلى بوطالب إبراهيم، البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية: حصيلة وتقويم، م س، ص 107-173.

⁴ - دوفوكو شارل، التعرف على المغرب، الاستخبارات، ترجمة المختار بلعربي، إفريقيا الشرق، 2015، ص 7. النص في صيغته العربية لم يظهر إلا سنة 1999 في مجلد واحد، في 259 صفحة، وبذلك يكون القارئ العربي لم يطلع على النص إلا بعد مرور قرن على صدور طبعته الأولى.

⁵ - يمكن أن نتتبع بعضا من هذه الكتابات الاستعلاماتية والاستخبارية حول مغرب القرن التاسع عشر: رحلة الاسباني دومينغو باديا (1803-1807)، ورحلة أوجين دولاكروا سنة 1831، وفرناند شيكليز سنة 1859، ورحلة الألماني رولفس جيرالد سنة 1861.

تتأتى فريدة هذه الرحلة الاستكشافية في ما يلي:

- تدوين ملاحظات يومية واستفسار السكان وقطع مسافة 2000 كلم من المسالك الوعرة؛
- تقديم أوصاف اثنوغرافية حول السكان والممتلكات والأسلحة والعلاقات السياسية والاجتماعية؛
- تطعيم الرحلة بصور شمسية (4) و101 رسم تخطيطي لمقاطع طبوغرافية؛
- وضع جداول راصدة للوضع الجوي بالمغرب (ص 417-446)؛
- وضع فهرس الأسماء الجغرافية (ص 451-461 في عمودين)¹.

ب- مضمون الرحلة:

كتاب شارل دوفوكو مرجع جغرافي بالدرجة الأولى، ضُبط بمنهجية جغرافية واضحة، وحفل بالمفردات والمصطلحات الجغرافية في وصف طبوغرافية المغرب (فج/ قمة/ عُرف، خانق...)، مع شرح وتعريف المصطلحات التي استقاها من عُمق الميدان في شكل إحالات في الهامش. ترسم هذه الرحلة "خُطة طريق" لمن سيأتي بعد دوفوكو، أنا ولاحقا، وتُدقق في المسالك، وتحسب طرق السير وتوقيتته بالساعة والدقيقة². لكن يبقى الأهم في هذه الرحلة، وصف المجاري المائية بدقة واضحة، وتحديد عرض الأنهار وعمقها، ودرجة تدفق المياه من أعاليها إلى أسافلها. عرض من خلالها دوفوكو أهم الأنهار في البلاد مثل أم الربيع ودرعة وسوس وزيز وملوية... عارضا عُمقها، ولون مياهها، وطعمها، وقوة تياراتها...

في النص الأول المعنون ب "الرحلة"³ Voyage يُقر محمد حجي الذي قام بكتابة تقديم الصيغة العربية المترجمة بأن هذه الرحلة لا تزال تُشكل مرجعا للباحثين في تاريخ وجغرافية المغرب حتى الآن (1999)⁴، جاب فيها دوفوكو سهول وجبال المغرب البعيدة عن الحواضر الكبرى، ومسالك الطرق السلطانية، من شمال البلاد إلى بلاد تادلا، عبر سوس ودرعة والصحراء... في قالب جغرافي يُدقق في قيمة المعلومة الجغرافية.

¹ - دوفوكو شارل، التعرف على المغرب، الاستخبارات، م س، ص 8.

² - نفسه، ص 26.

³ - القسم الأول من الكتاب تضمن الفهرس التالي: I- السفر من طنجة إلى مكناس؛ II- من مكناس إلى قصبة بني ملال؛ III- من قصبة بني ملال إلى تيكروت؛ IV- من تيكروت إلى تيسنت؛ V- من تيسنت إلى موكادور؛ VII- من موكادور إلى تيسنت؛ VIII- من تيسنت إلى دادس؛ IX- من دادس إلى قصابي الشرفاء؛ X- من قصابي الشرفاء إلى للا مغنية.

⁴ - شارل دوفوكو، التعرف على المغرب، 1883-1884، الجزء الأول، الرحلة، ترجمة المختار بلعربي، بإشراف الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1999، ص 5.

ت- الوصف المائي والوحدات المرافقة:

تهمنا رحلة شارل دوفوكو من زاوية الوصف المائي، وخاصة في مجال الأطلس الكبير¹ (الشكل رقم 21). يتحدث دوفوكو في تنقله من زاوية سيدي رحال إلى تيكريت يوم 9 أكتوبر 1883م عن مجرى مائي يخرج من الأطلس الكبير يدعى واد ردا، "...ينبع هذا الوادي من قمة السلسلة عند المنخفض المعروف بتيزي- ن الأكلوي، وينساب في اتجاه متعامد للأعراف، هكذا يرسم هذا النهر طريقا قصيرا، وسهلا لاختراق السلسلة الجبلية..."². ويظهر هذا المجرى حاضرا خلال الجزء الأكبر من رحلته في المنطقة. لا يتعدى عرض قعر الوادي 100 متر، وفي كثير من الأحيان دون هذا الرقم، تنمو الدفلى والصنوبر بين أحجاره، وبجانبه حقول مزروعة بالشعير والذرة تظللها أشجار التين والرمان والزيتون والعنب وكثير من أشجار الجوز. ويضيف في مقطع آخر: "...وادي ردا مياها صافية وجارية، وشيئا ما مألحة..."³، وهو جزء من روافد نهر تانسيفت، ويصب فيه بعد سقي أراضي زمران وكلاوة. وعن واد تطله، "...يظهر قعر الوادي ضيقا، لا تمتد بحواشيه المزروعات إلا على عرض 40 متر، وسط هذه المزروعات ينساب الجدول والجريان الدائم..."⁴. ومن تطله إلى فج تيزي- ن - تلوات⁵ يجف الماء في الجدول، وتنتهي المزروعات، وتنمحي المساكن، خلاء من صخور... وجبال عالية من الحث، لا شجرة ولا نباتا ولا أثر حياة نباتية، الكل صخور، الطريق جد وعرة⁶. ومن تلوات في اتجاه درعة يظهر نهر إونل، "...عرضه 4 متر، وتياره سريع جدا، مياها صافية وملحة في السفح الجنوبي للأطلس الكبير..."⁷. وفي طريقه إلى قرية تيزكي عبر دوفوكو مجريين مائيين: واد الملح، عرضه 15 متر، جاف، وواد إونل مياها عرضها 4 متر، وعمقها 30 سم، تيار سريع جدا.

ث- نص الرحلة: امتدادات مفتوحة:

وجب الاقرار منذ البداية قبل أن نستعيد بعضا من تفاصيل رحلة شارل دوفوكو إلى الجنوب المغربي أنها محصلة جهد جماعي، منظم ومؤطر بغايات واضحة، لعبت فيه مرحلة التحضير النفسي والمعرفي في الجزائر الفرنسية دورا مفصليا في إنجاح هذه الرحلة الاستكشافية، لحظة امتدت قرابة السنة قربت دوفوكو من الاطلاع على الرصيد الوثائقي للخزانة الجزائرية، وجعلته ينكب بمساعدة القيم المسؤول عنها على دراسة ذخائر ونفائس

¹ - تحدث شارل دوفوكو عن أدرار- ن- درن وفجاجة التي تؤمن الربط الجغرافي مع المجالات القريبة، ومن ضمنها: جبل أنغمر، تيزي ن تلوات، تيزي ن تشكا، تيزي ن تمننت، جبل تدلي، جبل سيروا... شارل دوفوكو، التعرف على المغرب، م س، ص 127.

² - دوفوكو شارل، التعرف على المغرب، م س، ص 108.

³ - نفسه، م س، ص 109.

⁴ - نفسه، ص 113.

⁵ - يتحدث شارل دوفوكو عن سهل تلوات، تسقى أراضيها من المجاري المائية النازلة من الأطلس، أشجار الرجراج والتين والجوز وبعض الكروم (العنب) نفسه، ص 115.

⁶ - نفسه، ص 114.

⁷ - نفسه، ص 116.

المخطوطات المكتوبة عن المجال المغربي. على هذا الأساس، تحيل الرحلة على لحظة الانعطاف في مجرى التقليد الثقافي الفرنسي، تعكس بداية اهتمام الاثنوغرافيا الفرنسية بدراسة القريب le proche، أو الحاضر le présent، أو الغريبة القريبة، التي تعتمد إلى البحث في المركزي والمحلي، الأصيل والثانوي... باختصار ما يصطلح عليه صاحب مدارات حزينة ب "النظام المعاش".

في الواقع، في كل الرحلات التي سبقت شارل دوفوكو إلى المغرب لا تستطيع كفاية أن تتبّع بشكل دقيق عنصر الجريان المائي في تاريخ المغرب عامة، وتاريخ الجنوب خاصة (الشكل رقم 16)، إلا فيما نذر من إشارات عابرة ركزت على أسماء الأنهار الكبرى المعروفة. لا غرابة أن يحتجب الجريان المائي عند هؤلاء، وحتى إن ظهر، فيما رصدنا لسيل غير معتاد، أو تذكيرا بجفاف حاد، الأول يحيل على الوفرة، والثاني يحيل على الشدة¹. غير خاف أن دراسة الطبوغرافيا المغربية ووحداتها الأساسية سيستتبعها حديث مواز عن عنصر الجريان المائي بالجنوب المغربي... يحتل هذا العنصر مساحة مهمة في رحلة شارل دوفوكو بحكم تلقيه تكويننا جغرافيا في الجزائر. تطرق دوفوكو بإسهاب كبير لهذا النظام المائي في المناطق التي زارها، وخصص لها ملحقا في الكتاب، في الجزء الثاني من الرحلة الذي حمل عنوان "معلومات". في هذا الجزء يتوقف شارل دوفوكو عند أسماء الأودية والشعاب والمنابع وفترات الجريان ولون المياه وطعمها، كما يجري قياسات كمية للمجري المائية الصغيرة والكبيرة، مرفوقا بطبيعة تصريف بعضها وتحديد تاريخ ومكان قياس هذه الأودية ووقت عبورها².

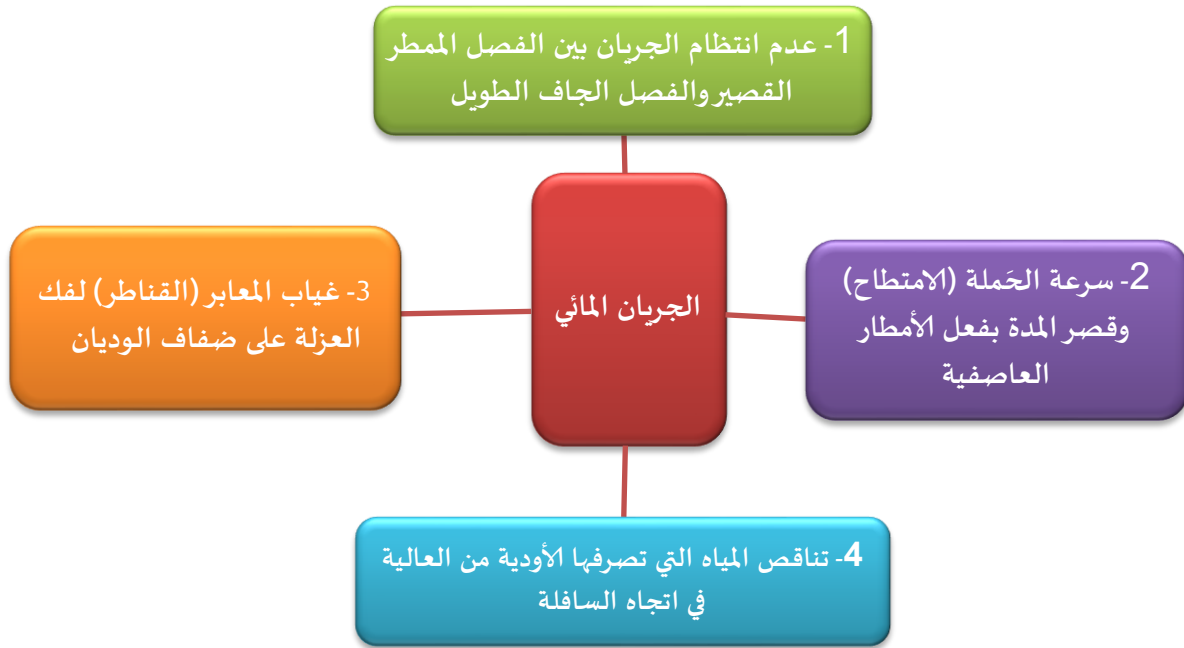
وعليه، توصل شارل دوفوكو في دراسته لنظام الجريان المائي بالمغرب إلى جملة ملاحظات أساسية³:

¹ بوبكراوي الحسن، الفقير عبد العالي، المجال الصحراوي المغربي من خلال كتاب استكشاف المغرب لشارل دوفوكو، مرجع سابق، ص 54.

² - نفسه، ص 53.

³ - نفسه، ص 53-54.

الشكل رقم 16: خطاطة حول نظام الجريان المائي في مغرب ما قبل الاستعمار:



من حق البعض أن يحتسب من شخصية دوفوكو المركبة، فيقرأ فيها حماس الجندي وتنسك الراهب وحس الجغرافي المستخبر... يجب أن نُسند كل محاولة لإعادة قراءة حلقات هذه الرحلة إلى السياق العام الذي سارت في ركابه. نقصد هنا سياق المعرفة التي سبقت الغزو، والقلم الذي أتى قبل السلاح، والاستكشاف الذي سبق الغزو... ما يعزز هذا الرأي اشتهار دوفوكو في أوساط الفرنسيين بفساد الأخلاق وضعف الإيمان في صبوة الشباب¹، ثم إن هناك معطى آخر لا يصمد في هذه القراءة، هو أن الانقلاب المعتقدى الكبير كما يشاع كان سابقا لمرحلة الاستكشاف المغربي (1883-1884)، والتي جعلته ابتداء من سنة 1910 يتلقب بالأب دوفوكو نظير تجربة الروحية في منطقة الهكار بالجنوب الجزائري.

نترك هذه الأسئلة جانبا، الثابت أن هذه المغامرة الاستكشافية قدمت المغرب إلى الجنرال ليوطي² عكس رحلتي أوجين دولاكروا وبييرلوتي اللذان أدخلوا المغرب غرفة أدب الاستشراق الفرنسي¹، وإن بدا للبعض خلاف ذلك،

¹ يتحدث رولان لوبيل عن شغف شارل دوفوكو بالنساء عندما كان مجندا في ثكنة سطيف بالجزائر، حيث وقعت له حادثة نسائية في صبوة شبابه، هذه الحادثة اضطرت رؤساءه إلى توقيفه مؤقتا عن العمل، لم يخرج منها إلا بعد أن أبلى بلاء حسنا في قمع تمرد الجنوب الوهراني كجندي وقائد، ماحيا تلك الصورة المتهورة التي ارتكها في سطيف... ذلك أن تغيرا حقيقيا سيطرأ عليه وبحس بحمية جديدة تغمر روحه... لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، تعريب حسن بحراوي، دارالامان، الرباط، 2017، ص 153.

² نستند إلى رسالة وجهها شارل دوفوكو إلى غيران Guérin فاتح يوليو 1908 "...لو نودي علي للمشاركة في هذه الحملة، لكنك قد لبيت الطلب بسرعة، وقطعت مائة كلمتر في الساعة حتى أصل في التاريخ المطلوب، لكنه للأسف لم يحصل ذلك، وبالرغم من ذلك فقد اطلعت ليوطي على بعض الجهات، فإن كان في حاجة بي، فسألي طلبه بسرعة...".

جاعلا منه حلقة امتداد مع الشرق، ومهندس صورة المغرب الكهل le vieux Maroc الذي يجترواؤه سنوات مديدة من الاحتضار البطيء². الثابت أيضا أن هذه الرحلة قدمت فيضا من التفاصيل مثلما رسمت مسارتحرك الجيش الفرنسي في تخوم الجنوب المغربي³، فاتحة مسالك وشعاب جديدة⁴، خارج ما كان يعرف بمسالك الطريق السلطاني المؤلف لدى مرتادي المغرب من الأجانب...مغامرة استكشافية بنفس جغرافي واضح، وعمق اثنوغرافي جلي، قربت بلدا كان مجهولا ومُلغزا لفرنسي الجزائر...كتاب في المقام الأول علمي من حيث مبناه مثلما يدافع عن ذلك رولان لوبيل R. Lebel، يُظهر مغربا جديدا في طور التشكل، مغرب نائي يختلف عن مغرب الحواضر السلطانية والمدن التجارية التي رسمها من أتوا قبل دوفوكو وحتى بعده⁵.

كتاب شارل دوفوكو هو في الحقيقة اسهام ضمن حلقة الاستكشاف الجغرافي المبكر لمغرب القرن التاسع عشر⁶. تأليف لا يقتصر على وصف مظاهر الحياة السياسية، بل يقدم معطيات حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمغرب الأمس. وهو ما يجعله يقطع مع تقليد أدبي غرائبي، مؤسسا لتقليد علمي جديد، برؤية اثنوغرافية تحاول أن تتقضى حياة المغاربة واليهود سواء بسواء، تقف عند معاشهم ونشاطهم، طبيعتهم ووديانهم، جبالهم وصحرائهم، أعرافهم وتقاليدهم⁷، في لحظة عكست انقلابا حضاريا بين الغرب والشرق، طبعت خلاله العلاقة بملامح التوتر

Gorée Georges, Une grande amitié, De Foucauld- Lyautey, In cahiers Charles De Foucauld, Marechal de France, 1954, p 255.

¹ - بوزيطة سمير، مكر الصورة، مرجع سابق، ص 98.

² - في الجانب الآخر من الاستوغرافيا الأنجلوساكسونية نهاية القرن التاسع عشر ترددت كثيرا مثل هذه الأصوات المنبهة إلى صورة المغرب الكهل، نتوقف عند اثنين منها تمثيلا لا تعميما، الأول خطاب للوزير البريطاني اللورد سالسبوري Lord Salisbury ألقاه بمدينة كلاسكو أواخر القرن التاسع عشر يقول فيه "...المغرب قصر من رمال، يمكن أن ينهار في أية لحظة وحين..."، والثاني تصريح للسفير البريطاني بالمغرب جون دريموند هاي "...سلطان المغرب يواجه مصاعب كبرى في إدارة القبائل المتوحشة القاطنة بمناطق البلاد الداخلية، ولا يتغلب على هذه القبائل ويرغمها على الامتثال لسلطته إلا بمشقة بالغة..." يمكن العودة إلى كنيبي محمد، المحميون، م س، ص 313.

³ - يدافع كاروج عن فرضية أن دوفوكو كان مخبرا ينتمي إلى منظمة استخباراتية سرية. ويعزز قوله بركام المراسلات التي تمت بين دوفوكو وأصدقائه الضباط العسكريين المؤكدة لجاسوسيته.

Carruges. M, Foucauld devant l'Afrique du Nord, Essai critique, CERF, Paris, 1961, p79.

⁴ - سيكتشف شارل دوفوكو طريقا جديدا يربط بين تازة والجزائر الفرنسية، لكنه لم يستغل من طرف القوات الفرنسية إلا سنة 1914...يمكن العودة إلى:

Lebel. R, Les voyageurs français au Maroc, L'exotisme Marocain dans la littérature du voyage, Librairie colonial et orientale, Larose, Paris, 1936, p 193.

⁵ - جعل هنري دوكاستري شارل دوفوكو واحدا من أهم الأسماء التي يمكن الاستناد إليها في تتبع البدايات الأولى للمشروع للمغامراتي الفرنسي، فقد استطاع دوفوكو بشجاعته ورغبته في اقتحام المغامرة المغربية، الخروج بعمل علمي وتاريخي ضخم، مكنه من التأريخ للاستعمار الفرنسي بالمغرب.

De Dampierre Jacques, Charles Foucauld, Lettres à Henry de Castries, Bernard Grasset, Paris, 1938, p 40

⁶ - لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين. مرجع سابق، ص 153.

⁷ - يرصد شارل دوفوكو بعض الأعراف المنتشرة في المغرب، مثل عرف الأكادير بالجنوب أو تيغرم في الشمال (المخازن الجماعية). يشترك ساكنة مدشر أو مجموعة دواوير في انشاء المستودعات الجماعية الآمنة، حيث يودع كل شخص ثروته ومدخراته من الحبوب.

والصدام، معلنة عن بداية الرحلة، رجّة البنيات ومراوحتها بين التقليد والتجديد¹، أو ما يمكن نعتة بصدمة التحديث².

يبيدي شارل دوفوكو افتتانه الواضح بالطبيعة المغربية العذراء المالكة للإلهام، يظهر ذلك خلال انتقاله من قصبة تادلا إلى بني ملال حيث جذبته البساتين الغنية بالفواكه، واستهواه التوزيع الذكي لمياه السقي³.

عودة إلى الرحلة، عندما ظهر هذا الكتاب حظي بإشادة منقطعة النظير في أوساط مجتمع الجغرافيين والكولونياليين، كما لدى عموم القراء، وجرى الاحتفاء به من طرف الانجليز، الذين أعجبوا بنتائج هذا الاستكشاف الاستثنائي. لهذا، يظل هذا الكتاب بلا منازع أهم رحلة استكشافية جابت قبائل ومداشر وجبال المغرب موفى القرن التاسع عشر، المنجزة من طرف أوربي على امتداد أكثر من قرن من الزمن. الكتاب الذي عبّد طرقا ورسم مسالكاً أمام جيل من الباحثين الجغرافيين لبدء المغامرة المغربية مع قوات الاحتلال. الرحلة التي وُسمت من طرف روني بازان بأنها "المنعطف الكبير" في حياة شارل دوفوكو، من شاب يافع عاشق للنساء إلى ناسك زاهد في صحراء تمنازست. الرحلة التي تبدت للسيد لادريت دولاشاريير ب"المدرسة الأخلاقية" في حياة شارل دوفوكو، مدرسة الواجب والتدبّر تجاه مصلحة فرنسا.

¹ - الحديث عن مراوحة البنية المغربية بين تقليد موروث وتجديد مأمول يستحث الباحثين في تاريخ الأنساق والتنظيمات ضرورة العودة إلى تفكيك عناصر ومكونات النسق المخزني المغربي... واضح أن هذا النسق المخزني ظل يستند في مرجعيته خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من سياسة السلطان أحمد المنصور السعدي، الذي طبعه بطابعه الخاص. ظل أحمد المنصور السعدي كما يقول علي المحمدي المرجع والمستند في كل إصلاح. يظهر ذلك في اعتماده الدائم على مداخيل المجال القروي، ورفع الاقتطاعات المرتبطة بالإنتاج، وضمان وصول المساهمات التي تؤديها الجماعات الفلاحية بمناسبة الأعياد الثلاثة... وهنا تكمن حلقة الضعف، حيث تنحدر مظاهر ضعف هذين الموردين في ارتباطهما المستمر بالإنتاج الفلاحي من جهة، وبميراث تشريعي يمتنع من سياسة التقدير كقاعدة لتحديد الضريبة على المنتجين في القطاع الفلاحي من جهة ثانية... المزيد من التوضيح والاستزادة، يمكن العودة إلى:

المحمدي علي، النسق المخزني ومسألة الاستمرار، التقليد والتجديد، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 59، الطبعة الأولى، 2010 وأيضاً، جادور محمد، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الانسانية، سلسلة أبحاث الدار البيضاء، 2011.

² - صدمة الحدائة تتأسس زمنياً بمتواليّة حوادث الالتقاء الأوربي بمجال النفوذ العثماني ودولة الأشراف المغربية، بدأت بحملة نابليون على مصر (1798-1801) في سياق تصدير الثورة إلى الخارج وإلهاء الرأي العام الفرنسي عن حوادث الداخل الفرنسي الدرامية، وتواصلت مع الغزو الفرنسي للجزائر 1830 في سياق حادثة المروحة الشهيرة، وامتدت إلى حوادث التصادم العسكري مع المغرب في واقعة إسلي 1844 وتطوان 1859-1860... ولأنّ الحدث في التاريخ هو ما يؤوّل إليه، أو الصدى الذي يتركه، فإننا نتوقف عند قرار على قدر كبير من الأهمية في تأكيد هذه الصدمة. فور تعيين الجنرال روبر بيجو على رأس قيادة الجيش الفرنسي بالجزائر سيحمل معه قرار عدم حرث وزراعة الأراضي المجاورة للمجال الفرنسي "...لن يسمح للعرب بالقيام بأعمال الحرث والحصاد، ولا حتى الرعي دون حصولهم على تصريح بذلك منا..." ميلار سوزان، بن الصغير خالد، صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصغار إلى فرنسا 1845-1846، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، الطبعة الأولى، 1995، ص 18.

³ - لوپيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، م س، ص 160.

وقع شارل دوفوكو في هوى الجنوب، وهو الذي لم يكن يتجاوز ربيعته الثالث (24 سنة). هوى الجنوب ساقه إلى مُباشرة تعلم اللغة العربية والعبرية من مضاهما الأصيلة، منكبا في نفس الإبان على دراسة الخرائط القديمة، ومتصفحاً لمتون المصنفات الجغرافية العتيقة التي هيأها له القيم على المكتبة الجزائرية أوسكار ماك كارتى، الرجل الخبير بهذا المجال الإفريقي¹. قبل السفر إلى تخوم الجنوب المغربي، واكتشاف المغرب الذي لا ترتاده طريق السفارات والبعثات الدبلوماسية أثيرت قضية التنكر، فكان أمام دوفوكو خياران: أن يختار بين لباس المسلم أو لباس اليهودي، بين العمامة البيضاء أو القبعة السوداء.

رحلة رجل المسارات الملتبسة كانت قد انطلقت يوم 20 يونيو من سنة 1883م، وانتهت يوم 23 ماي 1884م²، مستغرقة حوالي سنة من الزمن، في جو خيّم عليه وقتذاك السرية التامة³... شرع في تحرير مؤلفه المعروف لدى الجمهور بـ "التعرف على المغرب" Reconnaissance du Maroc سنة 1885م، انتهى منه بعد ثلاث سنوات (1887م)، معززا بحوالي مائة من الرسوم التخطيطية، وما يقارب عشرين خريطة أدرجت ضمن ملحق الكتاب في جزئه الثاني، علما أن الجمعية الجغرافية الفرنسية كانت قد أفردت تقريرا مفصلا سنة 1885 عن تفاصيل هذه الرحلة قبل صدور الكتاب سنة 1887م⁴ أنجزه المستكشف دوفيري الذي كان قد قرأ ما دونه دوفوكو في مخطوطته، انتهى من خلاله التذكير بالقيمة العلمية لهذا الكتاب⁵.

درج التأليف الجغرافي على وصف كتاب شارل دوفوكو بالأكثر ثراء في تقريب المناطق التي غابت عن مصنفات السفراء والقناصل والديبلوماسيين... فصار دليلا ومرشدا جغرافيا نظير دقة معطياته ووضوح أفكاره. إنه الوصف الأكثر شمولية وتحليلا الذي لم يسبق إليه أحد كما ذهب إلى ذلك رولان لوبيل، والمؤلف الأساسي الذي تجب العودة إليه في كل حين، بما في ذلك الوقت الراهن، كما أفصح عن ذلك لوي ماسينيون.

¹ - أوسكار ماك كارتى حلقة أساسية في مشروع دوفوكو العلمي، فهو القيم الذي وفروا ثائق الرحلة، بينما مردوشي هو المكلف بها، الذي تكلف بتدبير العلاقات مع الأهالي، ووفر لها المستلزمات العملية من تنظيم الحراسة، والبحث عن السكن والطعام، وشرح أسباب الرحلة للأهالي.

² - Lebel .R, Les voyageurs français au Maroc, L'exotisme Marocain dans la littérature du voyage, Librairie coloniale et orientale, Larose, Paris, 1936, p 190.

³ - Dhane. M, A propos de Reconnaissance du Maroc, Lamalif, n° 174, 1986, p 4.

⁴ - لكتاب استكشاف المغرب قسم ثان معنون بـ "معلومات" بمثابة القسم العلمي للكتاب، يعرض فيه معلومات حول القبائل المغربية المدعمة بأرقام حول البنادق والخيول، ومعطيات حول الأنهار والطرق والمسافات، ولائحة بالملاحظات الفلكية ومعطيات حول الأحوال الجوية، ودراسة احصائية تهم الساكنة اليهودية في المغرب.

Lebel Roland, Les voyageurs français au Maroc, L'exotisme Marocain dans la littérature du voyage, op.cit, p 190.

⁵ - يقول دوفيري عن هذا الكتاب في تقرير الجمعية الجغرافية بباريس الصادر سنة 1885 "...أنا حائر في ما يكون الثناء عليه، أولا هل النتائج السعيدة والمفيدة التي أسفرت عنها الرحلة أم مشاعر الوفاء والشجاعة والنكران القريب إلى الزهد والتنسك التي صاحبت الحصول على تلك النتائج..." لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، مرجع سابق، ص 166.

دخل إلى المغرب من بوابة لالا مغنية، وبدأ رحلته من طنجة، اختار رفيق طريقه الحبر اليهودي ماردوشي Mardochée الجدير بالثقة والقادر على تحمل عبء المغامرة المغربية... ظل دوفوكو محافظا على اخفاء هويته ومهمته وسط فضاء مأهول بالمخاطر والأهوال¹، مختارا إما مقدمة القافلة أو مؤخرتها حتى يتسنى له الإمعان أكثر في تسجيل ملاحظاته²، معرضا حياته للخطر من طرف الفضوليين وقطاع الطرق قبل أن تنتهي حياته بالاعتقال في صحراء تمناست الجزائرية³.

سدّ دوفوكو ثغرة جغرافية في بلاد المغرب، رسم مسالك لم تكن بعد مألوفة في مصنفات الجغرافيا الكولونيالية، يستوقفنا في هذا الصدد اقتباسه عن مدينة تازة ومجال قبائل غيثة المتمردة "...تأزة موقع معروف، لكن الطرق المؤدية إليها غير مدونة في الخرائط... سأحاول أن أسد هذه الثغرة وفق ما أستطيع..."⁴. نستعيد في البدء نصا لأندري ماري A. Marie حول ناسك الصحراء الكبرى l'Ermite du grand désert "...إنها الرحلة الجديرة بالملاحظة، والتي قام بها رحالة أوربي زهاء قرن أو أكثر... لم يفلح أي رحالة بعد دوفوكو في أن يكون في مستوى عطاءاته، لا في دقة ملاحظاته، ولا في تقديم رحلته... بل يمكن اعتبار جميع الرحلات التي جاءت بعده عبارة عن رحلات صبيان..."⁵ "...تظهر هذه الرحلة كما لو أنها يوميات سفر، تنأى عن شد الانتباه والاعجاب، وتتطلع إلى تقديم منفعة جغرافية للجيش الفرنسية التي ستخترق هذه القلاع المجهولة.

تبدأ رحلة شارل دوفوكو من طنجة إلى شفشاون، وتصل فاسا بتادلة عبر شعاب وواديان الأطلس المتوسط ومنه إلى الكبير، وعبر هذا الأطلس الكبير يستكشف الرحلة إلى الصحراء ومنطقة سوس ووادي درعة، وصولا إلى الحدود الجزائرية حيث نقطة البدء مع تنوع دائم للطريق والمسالك... سياحة عجيبة لا تسير في ركاب المناطق المعروفة، ولا يروقها السير على الطرقات التي عبدها سابقوه، بقدر ما تتطلع إلى استكشاف المناطق الوعرة من المغرب المجهول⁶. يحضر فيها الماء بشكل أساس منذ البداية، ويدخل ضمن استراتيجيات التخطيط لتفعيل اجرائيات المشروع الفوكوي، كما يحيل إلى ذلك ميشيل كاروج M. Carrouges "...ما هي الجهة التي اختارها لتأسيس هذا المشروع؟

¹ - تجدر الإشارة إلى أن دوفوكو استعان بعتاد من الأجهزة في رحلته الاستكشافية مثل البوصلة وجهاز قياس الضغط الجوي، كما كان يلجأ إلى أسطح المنازل المرتفعة لتدوين ملاحظاته الفلكية بمراقبة من صديقه ماردوشي في الأسفل تجنباً لافتناح أمره من طرف الفضوليين... مثلما كان دوفوكو يمسك بيده اليسرى دفترا صغيرا من خمس سنتمرات مربعة، وفي يده اليمنى قلما صغيرا لا يتجاوز طوله السنتمترين، معتمدا على ملابسه الفضفاضة التي تعينه على التستر أثناء عملية الكتابة... كما كان يتذرع بالصلاة أحيانا، منتحبا مكانا قصيا، مخفيا أجهزته تحت سترته العريضة من أجل تدوين ملاحظاته.

² - Marie André, L'Ermite du grand désert: Le père De Foucauld, Librairie Missionnaire, Paris, 1937, p20.

³ - Bazin René, Charles De Foucauld explorateur du Maroc, Ermite du Sahara, Paris, Plon, 1921.

⁴ - لوبيل رولان. الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، م س، ص 158.

⁵ - Marie André, L'Ermite du grand désert: Le père De Foucauld, Librairie Missionnaire, op. cit, p17.

⁶ - لوبيل رولان. الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، م س، ص 157.

والتي يمكن بواسطتها ربط علاقات مع المغاربة...على ما يبدو لي، إنه يجب أن يختار مكانا مائيا منعزلا يقع بين عين الصفراء وتوات...¹. في موضع آخر، يلح شارل دوفوكو على ضرورة التسرب من جهة الجنوب، لأنها الجهة الأكثر تقبلا للتمسيح...وفي هذا الجنوب يستحث الفرنسيين إلى التمرکز بإحدى النقط المائية الواقعة بين منطقتي عين الصفراء وتوات، حتى يتسنى استضافة المسافرين والقوافل والعساكر الفرنسية...عطفا على أن دوفوكو يخصص في مبدئي رحلته من طنجة وصفا غزيرا للطبيعة المغربية ولطبوغرافيتها الساحرة الغنية بالعيون والمجاري المائية.²

كتاب Reconnaissance du Maroc هو قبل كل شيء إسهام علمي وجغرافي وعسكري وسياسي لا نظيره في التأليف الفرنسي، عمل ضخم وثري، دسم بمعطياته وفراة أفكاره، على درجة عالية من الدقة والتناسق، بأسلوب رشيق يمزج بين البراعة في صياغة الأفكار، والسلاسة في تقديم المعطيات والرحابة في التنقل بين الفضاءات...حتى أن القارئ ليخال نفسه أمام عمل أدبي خالص يعكس عبقرية دوفوكو الابداعية...عمل رفع من خلاله صاحبه كما يقول روني بازان R. Bazin التحدي من أجل أن يعكس مستوى طموحاته وتطلعاته الاستكشافية³...كتاب تعرّف عليه قارئ لغة موليير بحر عام 1888م، وأعيد نشره مرة ثانية عام 1935 بباريس، تم أعيد نشره مرة ثالثة من طرف دار النشر المعروفة "اليوم" Edition d'Aujourd'hui سنة 1986م، كما صدرت له ترجمة إلى لغة الضاد أنجزها الباحث المغربي المختار بلعربي، عن دار الثقافة سنة 1999م.

عودة إلى سؤال التأليف عند دوفوكو، يدافع روني بازان عن فكرة أن كتاب استكشاف المغرب لم يكن موجها توجيها خاصا إلى جمهرة القراء، بل هو في الأساس عمل ميداني دقيق يهتم عسكري فرنسا⁴، يستحث همهم لبدء غمار الخوض في إحياء المجد الروماني وتكوين الامبراطورية الفرنسية في الشمال الإفريقي⁵...كتاب أتى محملا بأربع صور وزهاء المائة وواحد من الرسومات والأشكال التخطيطية، علما بأن لهذا الكتاب جزءا ثانيا معنونا بـ "إرشادات" Renseignement أضفى عليه طابعا علميا. يتضمن هذا الجزء الثاني معطيات ذات طابع كمي، وجردا إحصائيا دقيقا حول البنادق والخيول والمسالك، بل وحتى المراحل التي تفصل بين المناطق، مما يجعله دليلا

¹ - Carrouges Michel, Foucauld devant l'Afrique du Nord, Essai critique, op.cit, p 163.

² - De Foucauld. Ch, Reconnaissance du Maroc, (1883-1884), Edition d'aujourd'hui, p3.

³ - Bazin René, Charles De Foucauld explorateur du Maroc, Ermitte du Sahara, op. cit, p 45.

⁴ - نستحضر في هذا الصدد دعوة رايوند طوماسي Raymond Thomassy عموم المستكشفين الفرنسيين إلى ضرورة خوض المغامرة المغربية، ومعرفة "مجال الحرب"، حيث ينتظر الفرنسيين مصير أكثر فخرا، بأقل اراقة دماء، ونصر دائم بسلاح سلمي...مثل هذه الدعوة تجدد صداها باستمرار في الاستوغرافيا الكولونيالية:

Gentil L, Dans le Bled Es-siba :Exploration au Maroc, Masson, Paris, 1906.

Emilien R, Description géographique de l'empire de Maroc, Paris, 1846.

Segonzac R, Au cœur de l'Atlas, Mission au Maroc (1904-1905), E. Larousse, Paris, 1910.

⁵ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 108.

جغرافيا للجهات التي ستمهض بمشروع الاستعمار¹، إلى درجة أن الأوساط الجغرافية الفرنسية استقبلته بالحفاوة والإشادة نظير الجهد الضخم المبذول من طرف دوفوكو.

من حق البعض أن يحترس من شخصية دوفوكو المركبة، رجل المسارات الملتبسة، فيقرأ فيه الجندي والناسك والاستخباراتي والجغرافي... جعله البعض من الأصوات المدافعة عن أنسنة الاستعمار، المتلافية لتلك السيناريوهات الدرامية التي قلبت الاستعمار إلى مُدان في كثير من مناطق العالم. كما جعل منه بعض آخر داعيا إلى الاستعمار عن طريق التفتح الانساني والحضاري² "...إذا لم تنهج فرنسا سياسة إدارية جيدة تجاه سكان مستوطناتها، فإنها حتما ستفقدوها..."³، وفي موضع ثالث ألبسه البعض جلباب الحامل لمشروع بيداغوجي استعماري ذي آفاق واسعة، دوفوكو الناصح والمرشد والدليل "...يجب التقرب من السكان من أجل خلق علاقات معهم، حتى يغيروا نظرتهم تجاهنا، وذلك عن طريق الحوار... وإعادة تربيتهم تربية روحية بإعداد المدارس والاعداديات، كما يجب أن نمنحهم نفس التربية التي نتلقاها داخل المنزل الفرنسي..."⁴، كما يرتسم عند البعض بلقب "زاهد الهكار"، صاحب مشروع تنظيم الواحات الصحراوية فكريا وروحيا⁵.

يجب أن يستند كل مشروع لإعادة قراءة رحلة شارل دوفوكو إلى السياق العام الذي تنتمي إليه، سياق المعرفة التي سبقت الغزو... أو لم يكن هذا المشروع في أساسه مثار تصادم حاد مع رواد الأثرثوذكسية الاستعمارية التي رفضت فكرة الأخوة المثالية التي كان يدعو إليها الأب دوفوكو⁶؟ أولم تكن هذه الرحلة سر نجاح الحملة الفرنسية على المغرب مع ليوطي⁷؟

4- مشروع دوفوكو: من الوصف المائي نحو التحليل السياسي.

حديث دوفوكو عن ظاهرة السبية ينقله نحو تحليل ظاهرة الحركات السلطانية الحسنية (الشكل رقم 18)... يرسم دوفوكو استنتاجه حول هذه الحركات، جمع الضرائب، تأديب القبائل واحتجان السلطة... دونما تفكير

¹ - Bazin René, Charles De Foucault explorateur du Maroc, Ermitte du Sahara, op.cit, p75.

² - بوزويطة سمير، مكر الصورة، م س، ص 120.

³ - Merad .A, Merad Ali, Charles De Foucauld, Au regard de l'Islam, Préface Michel Lelong, Edition Chalet, 1976, p 103.

⁴ - Ibid, p 104.

⁵ - Gorée. G, Au-delà du père de Foucauld, Le père Peyriguere, Edition du Centrain, Paris, 1960, p 67.

⁶ - Merad .A, Merad Ali, Charles De Foucauld, Au regard de l'Islam, op.cit, p 108.

⁷ - يظهر أن شارل دوفوكو أصيب بخيبة أمل كبيرة جراء عدم مشاركته في الحملة الفرنسية على المغرب سنة 1907، استنادا إلى جورج غوري "...كم أتمنى أن تسير الأمور على ما يرام خاصة مع الجنرال ليوطي..."، وفي موضع لاحق، نجده يثني كثيرا على الأعمال التي قام الجنرال ليوطي رغم صعوبات المهمة "...من أجل رفاهية هذا الشعب، أتمنى أن تمكث في المغرب، بالرغم من الصعوبات التي تواجهها، إنني أحس باللحظات النعيسة التي تعيشها... لكن لا احد يستطيع أن ينجز ما أنجزته...".

Gorée. G, Une grande amitié, op.cit, p252.

في ظروفها وصعوباتها "...إن الدولة لا تعمل سوى على جمع الضرائب، دون أن تفكر في تقديم خدمات معينة إلى القبائل، كالقيام بمشاريع تعود بالنفع على السكان..."¹ هذا الاحتجان في نظره يجعل "...الكل مهدد بالتهب والسطو، فلا قانون إلا للأقوى...وحيث العدالة تباع وتشتري...إن الجميع يعانون من سطو القواد..."². يضرب شارل دوفوكو مثالا لذلك، قائد دمنات، نموذج لاحتجان السطلة في قبائل الأطلس الكبير والصحراء "...ففي هذه المرة، أرسل السلطان أمينا أظهر من الجشع ما جعل التجارة لم تعد ممكنة، فكل من يجتاز أبواب المدينة كيفما كان مصدره، كان يفرض عليه واجبا تعسفيا ومبالغا فيه...بحيث أسرع بعدول القبائل المجاورة وقوافل الجنوب عن هذه السوق، وتوجهوا جماعات نحو مراكش التي تتزود منها حاليا..."³. هكذا، يضع دوفوكو قضية السببية قرينة الاستبداد المخزني والعسف الضريبي والصراعات بين القبائل، يستشهد على ذلك بثلاثة نماذج، قبيلة إدوابلال وقبيلة ميسور وقبيلة غياثة، الأولى اشتهرت باستقلالها وعدم اعترافها بسلطة المولى الحسن، والثانية لم تعترف قط بنفوذ السلطان رغم استمرار الولاء الروحي له عليها⁴، وثالثة قبيلة غير آمنة، يتم التنقل فيها بواسطة زطاط، وتتحكم في المصادر المائية. (الشكل رقم 17).

هذه النماذج الثلاث التي يضعها دوفوكو تصب كلها في اتجاه واحد، قبول المغاربة للاستعمار الفرنسي نتيجة تعسف المخزن ودوابله، فهل كانت القائدية في تاريخ مغرب القرن التاسع عشر بنية مستقلة عن المخزن⁵؟ أم برزت كمتمة لبنيات السلطة المركزية⁶؟

¹ - De Foucauld .Ch, Reconnaissance du Maroc, (1883-1884), Op.cit, p40.

² - Ibid, p 40-41.

³ -Ibid, p 78.

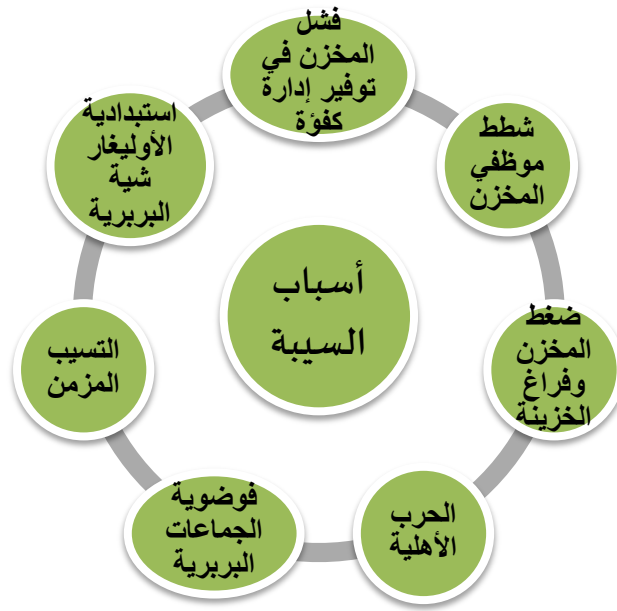
⁴ - Ibid, p241.

⁵ - يحدد محمد هورورو وظيفة المؤسسة القائدية في مراقبة مجال البادية وضبط الجماهير الفلاحية وتغيب الجماعة القروية لصالح السلطة المحلية.

Houroro. M, Sociologie politiques coloniale au Maroc, Cas de Michaux Bellaire, Afrique Orient, Casablanca, 1988, p17.

⁶ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 138.

الشكل رقم 17: خطاطة أسباب ظاهرة السيبة في المغرب



السيبة عند شارل دوفوكو تمثيل لعلاقات القوة والانتفاع، تبادل للمصالح المادية (الضرائب)، تعارض بين العرف والشرع (الشكل رقم 19)... لهذا حسب منطق لا ضير أن تقبل بعض القبائل نفوذ المخزن الروحي والديني، وتدعوا لسلطانه أو أن تناصروليا من أوليائه، أو شريفا من أشرفه... لكنها تظل رافضة لقراراته التشريعية والسياسية. هذا الرفض هو الذي دفع جون سليرييه J. Célérier إلى تأسيس نظريته حول مسؤولية المخزن في هدم البنيات البربرية الاجتماعية¹. فهل بدت له السيبة على مظهر واحد رغم أن أسبابها العامة تكون مماثلة؟ كلما ابتعد المخزن عن المجموعة المتمردة كانت منطقة السيبة هادئة وغير مواجهة له، وطالما دخل في اصطدام مع هذه المجموعة إلا وأعلنت في وجهه التمرد والعصيان².

عاب العروي على دوفوكو هذا التحليل المتهافت الذي يرقى بالسيبة إلى جعلها جوهر الذات البربرية، فالبربري عنده هو جوهر القبيلة، وحينما يصير ذلك يصبح هذا البربري جوهر الترحال، وحيث يكون الترحال تتكون بالضرورة المعارضة الحاضرة لظاهرة السيبة³... أو لم تكن السيبة وسيلة من وسائل الدفاع عن العرف والتقاليد من عدم الذوبان السياسي والاجتماعي في بلاد الشرع⁴. لذا يبدو جليا أن دوفوكو قد أضفى صفة الديمومة والاستمرارية على حالات كانت تبدو مؤقتة وظرفية تمر منها القبائل لحظة مسغبة وانقطاع مطر وجور خادم... على أية حال، لم تكن بلاد السيبة بلاد مفصولة بطريقة مرسومة عن بلاد المخزن، كما لم توجد بقع وفية للمخزن وسط قبيلة

¹ - Célérier J, Maroc, Berger- Levrant, 2 eme édition, Paris, 1945, p 105.

² - Laroui A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocaine, 1830-1912, François Maspero, Paris, 1980, p 182.

³ - Ibid, p 178.

⁴ - Ibid, p 166.

ثائرة¹... وإذا كان الحد غير ثابت، فقد كان يوجد مع ذلك وباستمرار، نواة وفية للمخزن وأخرى سائبة، في وقت كانت الجبال في حالة عصيان مستمر، وقبائل السهول الساحلية في خضوع دائم للمخزن بالغرب والشاوية ودكالة والحوز. (الشكل رقم 20).

عمل المخزن دائما على احتواء العُرف داخل الشرع، عبر شبكة من موظفيه (شرفاء/ صلحاء/ زوايا...) في إطار مشروع متكامل للسلطة المخزنية، يستهدف احتضان الهوامش، إذ يعلن المخزن الحرب الكلامية، وفي بعض الأحيان، ضد السيبة، وضد العرف والزوايا، ولكنه في نفس الوقت لا يمكن أن يستمر إلا عبر هذه الهوامش². يمارس المخزن واجب المراقبة والمعاقبة، ويعتبر أن الضريبة معيارا لقياس وجوده من انعدامه³، لضبط نوعية علاقته بمحكوميته⁴. ظاهرة السيبة خاصة بالجبال والأراضي القاحلة والأرباض الوعرة، يتعلق الأمر بمناطق تقطنها قبائل متمردة، يقودها أحيانا ولي ثائر أو منتسب لسلطة... انتفاضة وإن بدت للباحث المحلي مؤقتة، فإنها رغبت في التخلص من سلطة المخزن، من رجاله وضرائبه... لم يرد فوكو في المخزن سوى مستودع يجمع فيه كل ما يتم جلبه بواسطة الضرائب النقدية والعينية، مثل مقاوله عقارية وجدت لتسلب لا لتعطي، لتسبي لا لتنتج، لتقتل لا لتحيي، بل وقصرا في حالة ترحال دائم لا يتوان عن تأديب قبائله، إما استعراضا لقوته إن توفرت لديه، أو تحكيما لها إن أعوزته السلطة وقلة الحيلة.

ولئن بدت هذه القبائل في عيون دوفوكو ميالة إلى التمرد وعدم الانصياع، فإنها على خلاف ذلك لم تتطلع إلى تشكيل وحدات اقتصادية خاصة، انتاجا واستهلاكا، تنسف بها شروط بقاء المخزن وتحل سلطة بديلة عنه... بقيت هذه القبائل سواء أكانت تفضل الزراعة والاستقرار أو تفضل الرعي والانتجاع في علاقات حيوية مع نسيج المدن التجارية الكبرى وشبكة الأسواق التي يراقبها المخزن على مستوى التبادل الضامن لشروط البقاء... لكنه في المقابل، كان المخزن يعمل على حصر نشاطها الزراعي في المناطق التي يسيطر عليها، وحتى في أودية الجبال التي يسهل حمايتها من غزو قبائل العالية⁵.

يحاول شارل دوفوكو في تحليله لظاهرة السيبة القبلية أن يستدرج القارئ إلى تصديق فكرة أن هذه القبائل مارست سلطة الهدم الاقتصادي للإنتاج، أوقفت بالتالي دورة التراكم الانتاجي الذي كان يحتاجه المخزن لمباشرة

¹ - بوزينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 135.

² - بورقية رحمة، الدولة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل، دار الطليعة، بيروت، فبراير 1991، ص 47.

³ - يستدل الاقتصادي ادريس بن علي بقول مأثور لفضول بن غريبط "... ريش الطير قبل ما يطير، فإنه مثل الجابي، إذا تركناه يثرى يتمرد...".

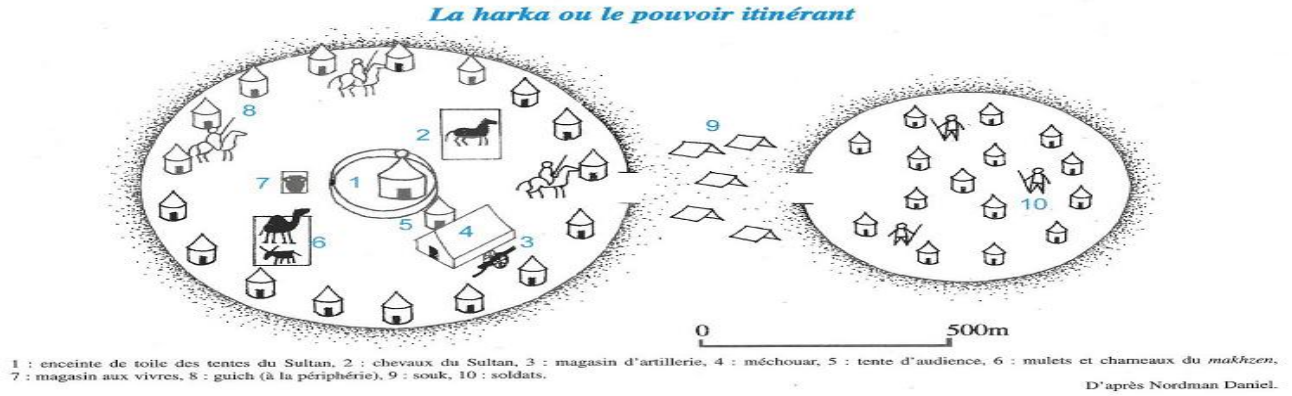
Ben Ali. D, Le Maroc précapitaliste, SMER, 1983.

⁴ - Benjelloun .T, Visages de la diplomatie Marocaine depuis 1844, Edition EDDIF, 1991, p 22.

⁵ - مفضال العربي، حول المسألة الزراعية في المغرب، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1985، ص 72.

سياسة إصلاحاته، خاصة في السهول التي كانت تتطلب زراعتها انشاءات مهمة من قنوات للري¹... لا حياة للمخزن إلا بضرائب مستخلصة، وعائدات هذه الضرائب ينفق جزء يسير منها على اعداد جيش الحُرَكَات السلطانية، وهذا الجيش هو من يتحمل مسؤولية استخلاص هذه الضرائب للقبائل التي تتمتع عن تأديتها²... بهذا التحليل يكون دوفوكو قد شكل حلقة الدائرية حول تاريخ المغرب موفى القرن التاسع عشر.

الشكل رقم 18: رسم توضيحي حول تنظيم الحُرَكة³



الحُرَكة في شريعة دوفوكو قرينة التخريب والهدم، هدم أسس ومراكز الاقتصاد الفلاحي المحلي ونسف لمجهوداته في التراكم الانتاجي. هذا الهدم هو الذي استرعى انتباه شارل دوفوكو في كل القبائل التي مرَّ عليها، وجعله مَعْبِرا نحو استنتاج أن سكان القبائل يكتفون بتدبير الندرة واقتصاد الكفاف⁴. عزَّز استنتاجه بالتسلسل الدوري لتوالي الأوبئة والمجاعات والقحوط التي ترددت على تاريخ مغرب نهاية القرن التاسع عشر، وإن بدت له هذه المتواليات الطبيعية عارضة لا فارضة.

¹ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 141-142.

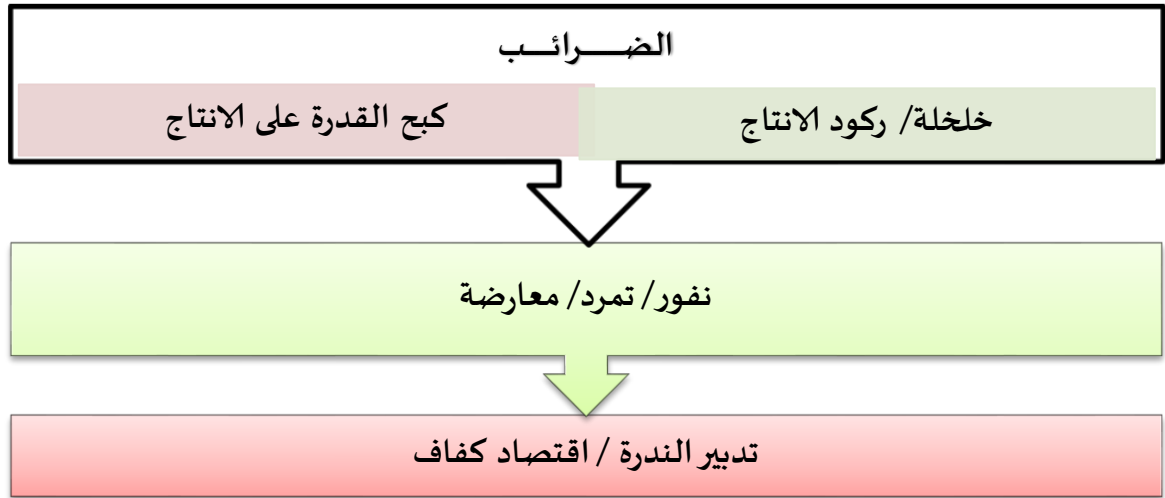
² - يعمد الأنثروبولوجي ارنست كلنير في دراسته حول صلحاء الأطلس Saints of Atlas إلى تقسيم ثلاثي لقبائل المغرب: قبائل الشياخ كنموذج للقبائل التي يلتهمها المخزن، وقبائل الكلاب التي تتأرجح بين الانصياع تارة والتمرد تارة على المخزن، وقبائل الذئاب الراضية لأداء الضرائب، والمعلنة عن المواجهة مع المخزن.

Gellner (E), Saints of the Atlas, London, 1969.

³ - Brignon. J et Grosrichard. R, Histoire du Maroc XVI- XIX Siècles, Centre d'études Arabes, Ambassade de France au Maroc, Rabat, 1994, p 43.

⁴ - بورقية رحمة، الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، فبراير، 1987، ص 92.

الشكل رقم 19: خطاطة حول أثر الضرائب المخزنية على الاقتصاد المحلي (شارل دوفوكو)



بهذا، ساهمت الضرائب المجببة في خلخلة قدرة الاقتصاد المحلي على بناء التراكم، وعملت على ركود الانتاج الزراعي والرعي، واكتفائه بسد الحاجات، النتيجة، كبح قدرة القبائل على الانتاج، واضطرابها إلى تدبير الندرة والعيش ضمن منظومة اقتصاد الكفاف.

5- الماء ضمن منظومة الانتاج القبلي الماقبل الكولونيالي:

عند مختصي شؤون المناخ وقرنوع من الاتفاق التاريخي على أن مناخ المغرب مناخ ناشز/ انتقالي¹، بخلاف كل أنواع المناخات الموجودة على سطح الأرض. من يغفل عن هذه الجزئية لا يستطيع فهم خلفية الانتجاع والترحال في

¹ - قدّم براتيويت توصيفا دقيقا لمناخ المغرب خلال القرن الثامن عشر، وهو توصيف ينسحب على مناخ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين "...مناخ بلاد المغرب معتدل، لا يقترب كثيرا من خط الاستواء ولا يبتعد عنه كثيرا. على السواحل وفي الجبال الهواء بارد أكثر منه حار، وذلك لوجود الثلج الذي يسقط في أوقات مختلفة من السنة، ويكسو بعض قممه على الدوام، وتبدأ الأمطار في النزول في أواسط شهر أكتوبر، أما فصل الشتاء فيبدأ في شهر دجنبر، وكما هو الحال في أوروبا، يكون البرد قاسيا خلال شهريناير، ولكن حدته تقل في شهر فبراير، حيث يصير الطقس متقلبا لدرجة يتغير معها الجو مرات كثيرة في اليوم، وفي شهر مارس تهب الرياح الغربية والشمالية بقوة مما يساعد على نمو جميع النباتات وإزهار الأشجار. وفي مطلع أبريل تنضج الفواكه، بحيث يجني الفلاحون، في مملكتي فاس ومراكش، الكرز في نهاية الشهر، والتين في أواسط مايو، وفي نهاية يونيو جميع النباتات، والإجاص والبرقوق، كما تنضج أنواع أخرى من الفواكه. وفي شتنبر تكثر محاصيل التين وفواكه أخرى. ويدوم فصل الربيع ثلاثة أشهر بجو معتدل جدا، من 25 فبراير إلى 28 مايو. وابتداء من هذا التاريخ ينطلق فصل الصيف الذي يدوم إلى غاية 16 غشت، حيث تكون الحرارة مفرطة، والسماء صافية لا تمطر إلا نادرا جدا، كما يتسبب الهواء الحار في الكثير من أمراض الحمى الخبيثة، ويبدأ فصل الخريف يوم 17 غشت، وينتهي يوم 16 نونبر، ويتبعه فصل الشتاء إلى غاية 14 فبراير، يزرع الفلاحون في بدايته مختلف النباتات، أما في المرتفعات فتنتطلق هذه العملية في أكتوبر، وفي نهاية فصل الخريف وخلال الشتاء حتى بداية الربيع تهب عواصف قوية مصحوبة بالبرد والرعد والبرق..." أنظر:

Brathwaite, J., Histoire des révolutions de l'empire de Maroc depuis la mort du dernier Empereur Mulay Ismail, Amsterdam, 1731, pp 466-468.

مأخوذ من كتاب، حبيدة محمد، المغرب النباتي، الزراعة والأغذية قبل الاستعمار، منشورات ملتقى الطرق، 2018، ص ص 144-145.

تاريخ المغرب¹...قدر بلاد المغرب أن تستوطن المنطقة الانتقالية للمناخ...ما بين المناخات المدارية بما فيها الصحراوية القاحلة والمناخات المُلَقة بالمعتدلة. هذا الوضع جعل البلاد تتبدد بين المناخ الجاف والمناخ الرطب النسبي الذي يحكم عليها بأن تتقبل الأمطار في الفصل البارد القليل التشميس، في الوقت الذي يتطلب فيه النبات ماء كثيراً². غير أن حضور السلاسل الجبلية يُغير شيئاً من الصورة العامة، ويجعله يتصف بخاصية التناوب، بين فترات إمطار غزيرة، وفترات شح مديدة...يستوقفنا كتاب "تاريخ المغرب تركيب وتكوين" عند هذه الملاحظة. حسب مؤلفي الكتاب ترددت على البلاد منذ الفتح العربي في القرنين 7 و 8 م إلى حدود بداية القرن 20م أزيد من 42 فترة جفاف...التناسب يُعطي فترة جفاف على رأس كل 23 أو 24 سنة...لم يسلم أي جيل من الأجيال المتعاقبة منذ أزيد من 1000 سنة تقريباً من تحمل آثار الجفاف، وعواقبه الوخيمة من مجاعات كبرى، مع ما رافقها من غزو جحافل الجراد وغلاء المعيشة ومُعاودة الأوبئة الفتاكة...

ينصرف القصد هنا نحو تحليل معادلة الماء والإنتاج الفلاحي في ثنايا الاستوغرافيا الفرنسية، وتحديدًا مع دوفوكو. وعبر ذلك سيتم الانتقال نحو تحليل واقع البنيات الزراعية لمغرب نهاية القرن التاسع عشر؛ ومحاولة إعادة رسم المشهد الانتاجي الذي ظل يقتصر على حدود الممكن من المعاش، ويتحرك ضمن حدود انتزاع الحد الأدنى من الحاجيات³، سواء في زراعته المعاشية أو في انتجاعه الفصلي. هذه المزوجة الانتاجية تمت بأساليب وتقنيات عتيقة لم يطرأ عليها تحول يذكر منذ عهد الرومان كما تلمح إلى ذلك لوسيت فالنسي L. Valensi، أو منذ نزوح الأندلسيين كما تشير إلى ذلك رحمة بورقية...

معلوم أن الاقتصاد المغربي ظل يتكئ على امتداد فتراته على الفلاحة في الانتاج. طبيعي أن يرافق ذلك اهتمام مُصنّفات الفلاحة والنبات بإحياء الأراضي الموات، واستنباط المياه الجوفية، وإقامة المنشآت المائية على الينابيع والأنهار، ومد قنوات الري⁴...الحاصل، يجب أن ننظر إلى المسألة من زاوية التجارب الانسانية التي تعكس التلاحق

¹ - يمكن أن نعصد هذا القول بما انتهى إليه علي صديقي أزاكيكو في ما يخص البحث عن التأصيل الإيثمولوجي L'Enracinement Etymologique لأسماء القبائل المغربية. يضع أزاكيكو كلمة "إزناكن" التي حُورت إلى العربية "صهاجة" وتعني "...مُربي الحيوانات الكبرى من إبل وبقر". بينما كلمة "إزناتن" التي ستحوّل إلى "زناتة" تعني "أولئك الذين يعتنون بتربية الشياه من أغنام وماعز...مثلما يمكننا أن نخلص إلى أن نمط الاقتصاد الرعوي القائم على الترحال أنتج ثقافة شفوية بالأساس، ما دامت الكتابة ترتبط بعنصر الاستقرار.

² - العلوي اسماعيل، دور البادية والأرياف في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 50، 2018، ص ص 8-9.

³ - بورقية رحمة، الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، مرجع سابق، ص 92.

⁴ - الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الاسلامي في العصر الوسيط، تحت إشراف حسن حافظي علوي، مؤسسة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، منشورات عكاظ، 2011 ص 5.

الانساني بين ضفتي المتوسط هنا وهناك، والتي سمحت بانتقال المعارف والأفكار والتقنيات¹، نهل فيها اللاحق من السابق.

عودة إلى مسألة التقنيات وأدوات الانتاج، نستند في تأكيد فكرة العتاقة إلى ملاحظتين عن منطقة زمور بغاية التعميم لكل من إميل لاووست E. Laoust والضابط كيرلو Querleux يقول الأول عن محراث قبيلة زمور "...محراث زمور كان أكثر عتاقة من حيث الشكل والتعقيد من محراث المناطق المجاورة كزغير والشاوية..."² ويعتمد الثاني إلى القول عنه "...محراث سرعان ما يصيبه القدم، ويحتاج إلى أن يعوض عدة مرات خلال وقت الحرث..."³، وقبلهما، كان دوفوكو في غير ما مقطوع يؤكد على استمرار المزاوجة الانتاجية بين انتاج زراعي محدود وتربية ماشية واسعة، سمحت للخيمة والنواله أن تطغى على حساب الدور والسكن والاستقرار.

ارتقى دوفوكو بالرعي إلى قائمة الأنشطة الاقتصادية الفاعلة في البنية الانتاجية المغربية قبل الاستعمار، وجعل منه مقياسا لإنتاج الثروة والجاء داخل المجتمع القبلي، بله ثروة متحركة يسهل أخذها للفرار نحو الجبال... حيث الجبل يشجع على التمرد والعصيان، والرعي يلائم قبائل السبية، والسبية تقود نحو التخريب والتضييق على الاقتصاد الفلاحي المحلي... من فرضت عليه الاكراهات أن يفضل النمط الثاني على الأول، لا يمكنه أن يفكر في انشاءات الري وعمارة الأرض ومراكمة الانتاج إذا سايرنا منطق دوفوكو.

لا يفتأ دوفوكو وحتى الذين تتبعوا مساره يُذكرون بعتاقة وسائل الانتاج وأساليب الري وطاقات الانتاج، التي كانت بشرية بدرجة أولى وحيوانية بدرجة ثانية... نظام اقتصادي مختلط لم يتكسر إلا بحلول الاستعمار⁴. ظل يستند إلى زراعة الحد الأدنى لسد الحاجيات الضرورية، مع تفضيل التعاطي لتربية الماشية⁵، ما دامت ممارسة

¹ - يجب أن ننظر إلى التراث المائي كتراث انساني مشترك عكس تبادلا للمعارف والأفكار والتقنيات بين البشر... اكتنز هذا التراث فيضا من المعلومات حول مصادر المياه وطرائق الاستنباط، مثلما اهتم بأساليب ممارسة الزراعة والغراسه، زيادة على تهيئة المساحات المزروعة، وتناوب مواسم الاستغلال وفترات الراحة وتنويع المشاتل... كما عُي هذا التراث بالتقنيات المائية الموظفة في استنباط المياه الجوفية، وتقنيات تشييد السدود وحفر الآبار ومد القنوات، إضافة إلى المنشآت المائية المستعملة في رفع المياه كالناعورة والدولاب والشادوف... يمكن تأصيل هذا التراث الانساني في المدونات الفلاحية البابلية والمدونات المصرية القديمة، والموسوعة الفلاحية التي ألفها ماكون في العهد القرطاجي، ناهيك عن مدونات التراث الفلاحي اليوناني والروماني والاسلامي... التمتع عدة أسماء ضمن هذا المصنف أمثال كاطون الشيخ وفارون وكولوميل وبلينيوس الشيخ، دون أن نغفل عن اسهامات علماء مسلمي الأندلس مثل ابن بصال وابن وافد وابن حجاج والطغفزي وأبو خير الاشبيلي وابن العوام... من شأن الاهتمام بهذا التراث المائي المشترك أن يجدد معرفتنا بحقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي مسنودا إلى اجتهادات الأبحاث الأثرية.

² - Laoust, E, Les mots et les choses berbères, Chalanal, Paris, 1920, p 283.

³ - Querleux, C, Les Zemmour, Archives berbères, 1915, p 13.

⁴ - بورقية رحمة، الدولة والسلطة والمجتمع، م س، ص 94.

⁵ - الإبل والماعز تمتلك قدرة كبيرة على مواجهة الجفاف، ففي لحظة نقص الأعشاب تستعوض عنها بالنباتات والشجيرات الشوكية المقاومة لقلة التساقطات. وللماعز قدرة رهيبه على تسلق الأشجار والوصول إلى الأوراق الخضراء، عكس الأغنام والأبقار التي يسرع إليها الهلاك بمجرد فقدان الحشائش والأعشاب. لهذا السبب كانت المناطق الجبلية والصحراوية أكثر مقاومة للجوع.

الرعي تتلاءم مع استراتيجية التوغل في الجبال، كلما حلت محلّة سلطان، أو غارت قبيلة غازية على قبيلة أخرى، فهل يمكن مسaire دوفوكو في القول أن الاقتصاد الرعوي صمام أمان القبائل المغربية من استبداد المخزن وجوائح الطبيعة؟

هكذا يريد دوفوكو أن يصل بنا إلى أن نفتنّع بأن الاقتصاد الرعوي الذي تبنته القبائل المغربية الهاربة من الكلف المخزنية، والمتمردة على تعسفات قواد الجنوب المغربي سمح بهدر كميات كثيرة من المياه دون استغلال فلاح، شفيعه في ذلك عتاقة المنشآت المائية التي ظلت دون تحديث يذكر، والتي كانت في مجملها بيد الوجهاء والأعيان وخاصة الخاصة، مُرسخة بذلك تمايزا اجتماعيا بين الأصيل والوافد في الحصول على الماء. عمل هذا الاقتصاد الرعوي المفروض قسرا على تدمير قدرة الاقتصاد المحلي على ضمان حاجياته، وحال دون استثمار جل طاقاته، بل وأجهز على قدرته في مراكمة الخبرات والمنافع، ورسخ بذلك القاعدة المادية لاقتصاد الكفاف¹، مُعمقا بالتالي لأزمة النقد المغربي²، التي سمحت بظهور وحدات نقدية جديدة³، ومُفوتنا على مغرب القرن التاسع عشر فرصة تأمين حاجياته الفلاحية نظير امكانياته المائية الغنية... لا يتعلق الأمر بجفاء الطبيعة حسب دوفوكو، بل بسوء التدبير ونقص الحكامة⁴.

ما الذي جعل القبائل المغربية ترتعن بالجمع بين النشاط الزراعي والرعوي دون غيره من الأنشطة الأخرى؟ هل نجد جوابا لهذا السؤال في طريقة تدبير الاقتصاد؟ في إكراهات الجغرافيا المغربية؟ في حسابات السياسة أم في تدافعات القبائل حول حياة المجال الخصيب؟

¹ - أظهر دوفوكو المناطق التي تضررت من عمليات الصرف في الجنوب المغربي:

حاحا- إيسافن- شتوكة- أكادير: 4.3 مثقالا

دادس: 4.5 مثقالا

درعة- تازران- فركلة- تافيلالت: 4 مثقالا

² - فشل المخزن الحسني في تثبيت عملته النقدية، قرر الحسن الأول ابتداء من 1881 أن يعطي لعملته النقدية عيارا فضيا، ضرب باسمه حوالي عشرون مليوناً من الفرنكات في الخارج، علما أن الريال الحسني يزن 25 غرام من الفضة الناعمة... ساهم هذا الإصلاح النقدي في خلق عدم التوافق بين الأسعار والأجور داخل السوق المغربية، وزاد من حجم التعاملات الربوية والمضاربات التجارية، ناهيك عن استفحال ظاهرتي تهريب العملة وتزوير النقود اللتان ساهمتا في انخفاض احتياطي النقد المغربي وانهياره... كلها عوامل ساهمت في تحطيم وتفكك الاقتصاد الفلاحي القروي، إذا ما أضيف إليها المزاومة التجارية للبضائع الأوروبية، ومضايقتها للبضائع المحلية، وبالتالي تعمقت أزمة المالية المغربية في البادية، وجرت معها نزيفا معدنيا لببت المال لصالح أروبا... نتيجة هذا الإصلاح انخفاض عام في المداخيل، ولجوء المخزن إلى الضرائب والكلف وفشل المشاريع الإصلاحية... يمكن العودة إلى أفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب، سوس 1906-1822، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، 1988، ص ص 49-55، وأيضا التوفيق أحمد، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان من 1850 إلى 1912)، الجزء الأول، مطبعة النشر العربية، 1978، ص ص 276-282.

³ - Miegé, J. L., Le Maroc et l'Europe, Edition la porte, Tome IV, Rabat, p 113-114.

⁴ - نفس الملاحظة يصطدم بها قارئ شارل دوفوكو في ما يخص الرصد المعدني لإمكانات المغرب، يتوقف دوفوكو عند بعضها في بعض القبائل، مثل قبيلة أيت واوغيث في الجنوب المغربي، يتحدث عن الفضة والنحاس والرصاص والحديد... إمكانات معدنية غنية، لكن تبقى دون استغلال يذكر... لا يقدم في هذا الصدد أرقاما احصائية دقيقة، بل يقتصر كلامه على استعمال مفردتي الوفرة أو النقص.

يجعل دوفوكو انهيار النقد المغربي رديفا لتحطم الاقتصاد القروي نهاية القرن التاسع عشر، جراء تحكم التوغل التجاري والمالي الأوروبي في المغرب الذي كان قد أجراه الحضور القوي لعمليته النقدية خاصة في المناطق النائية. هذا الانهيار لا يرجع في زعمه إلى العجز التجاري المغربي، أو إلى عدم التكافؤ بين الاقتصاد المغربي والأوروبي، بل أساسا إلى تفشي ظاهرتي التزوير والتهريب، سواء تعلق الأمر بالريال الحسني أو بالبسيطة الإسبانية، التي كانت تُسهل عملية إمحاء القطع النقدية القديمة¹. حيث يعمل هذا التزوير على فقد الثقة في العملة النقدية المحلية، "...فلا يتبايع شخصان إلا بعد أخذ الاحتياط الكامل، حيث لم يكن البائع يقبل قطعة نقدية، إلا بعد أن يشرك في فحصها شخصين أو أكثر، وإذا كان صانعا يهوديا فنعم الخبير..."².

يصل شارل دوفوكو بالقارئ إلى بناء تخریجة اقتصادية تكاد تغطي اقتصاد المغرب قبل الحماية، "...حيث التجارة لا تعرف ازدهارا بالرغم من السخاء الطبيعي الذي يتمتع به المغرب، وحيث السكان جد فقراء يكتفون فقط بما يسد حاجاتهم الزراعية..."³. وحيث أن هذا الانتاج الفلاحي برمته عاش رهين ما تجود به السماء وتسخر به الطبيعة، مترنحا بين وباء يفني ومجاعة تفتك وحركة تُؤدب، حصدت الانسان والمنتوج حصدا⁴؛ وحيث أن محاور التجارة المغربية التقليدية آخذة في الاضمحلال والتراجع، لفائدة ما سماه عثمان أشقري بـ "الاقتصاد الرأسمالي التابع"⁵، ومصير المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر صُنع ورُسم بصفة محسومة تجاوزت قدرة المخزن على الإصلاح والمناورة... كان أمام المخزن خيارين حسب العروي: الاستمرار في حالة الجمود والموت البطيء، أو القبول بالإصلاح بواسطة حماية "لينة"⁶. وبين تهديد العامة الجهال وتقاعس الأعيان الجبناء لم يبق أمام السلطان الأقرع "عبد الحفيظ" سوى الاستنجاد بالأجنبي⁷.

حلّ دوفوكو بالمغرب النائي، في وقت كان فيه المخزن الحسني منكبا على سياسة إصلاحاته، وبخاصة تحديث قطاعه الفلاحي عبر جلب آليات فلاحية عصرية⁸... في وقت تكاثفت فيه جهود الأوروبيين لإخراج هذا البلد من عزلة المزمنة من قبل التجار والمبشرين والقناصل الأجانب⁹... لكن علينا أن نقر، بما لا يدع مجالا للمواربة، أن دوفوكو الذي جاب المغرب الآخر المحتجب عن الاستوغرافيا الأوروبية وقتئذ، لا يجب تعميم ملاحظاته، وعكسها على صورة

¹ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 156.

² - De Foucauld. Ch, Reconnaissance au Maroc, (1883-1884), Edition d'aujourd'hui, 1886, p 23.

³ - Bazin .R, Charles De Foucault explorateur du Maroc, Ermite du Sahara, op.cit, p55.

⁴ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 141.

⁵ - أشقرا عثمان، في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث، عيون مقالات، الدار البيضاء، 1990، ص 10.

⁶ - العروي عبد الله، استبانة، م س، ص 72.

⁷ - نفسه، ص 74.

⁸ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص 142-143.

⁹ - حيمر عبد السلام، المغرب والحدثة، التكنولوجيا نموذجا، أبحاث، الجزء الثاني، العدد 26، 1991، ص 43.

المغرب خلال القرن التاسع عشر ككل، بقدر ما يجب أن ينظر إليها كصورة ظرفية ارتهنت بمعطيات وأحداث، وقد لا تنسحب بالإطلاق على مجمل تاريخ المغرب. هنا، عمد شارل دوفوكو إلى تسجيل المنتوجات الزراعية في الأسواق المغربية التي قد تحيل على تقدير الامكانات المائية. لا يتشفع دوفوكو بالقياس الكمي لمعايناته الاثنوغرافية، إذ لا يجد القارئ عنده أرقاما ومعطيات دقيقة لمقادير المنتوجات الزراعية، يكتفي إشارة إلى رمز الكثرة (+) أو القلة (-) وفق ما سيظهره الجدول التالي:

الشكل رقم 20: جدول: الأنشطة الفلاحية في الأطلس الكبير وأحوازه حسب شارل دوفوكو¹

تربية الماشية			الفلاحة			
الكميات	النوع	الري	التقنيات	المقادير	المنتوجات	المدن والقرى
+	الغنم	قنوات من وادي أم الربيع		-	الأشجار والفواكه	تادلة
+	الماعز			-		
+	الإبل					
+	الخيول					
				+	الرمان	أبي الجعد
				+	التين	
				+	العنب	
				+	الخضر	
				+	البطيخ	
				+	الحوامض	
				+	القرع	
				+	الفلفل	
				+	العنب	بني ملال
				+	التين	
				+	الرمان	
				+	الخوخ	
				+	الحوامض	
				+	الزيتون	
-	الغنم			+	الزيتون	واو زغيت

¹ - بوزوينة سمير، مكر الصورة، م س، ص ص 144- 147.

	الخوخ	+			الماعز	-
	البواكر	+			البقر	-
	الخضر	+				
	الفلفل	+				
	البصل	+				
	الجوامض	+				
دمنات	الفواكه	+		الجداول		
	العنب	+				
	الزيتون	+				
تيزنيت	الخضر					
	الشعير					
	التمر (بويطوب)/ بونثوس / بوسكري/ بواسواير.					
		+				

يُنبه دوفوكو إلى أهمية هذه المنطقة في الأطلس الكبير، مثلما يوجه أنظار الفرنسيين إلى أهمية مضيق تيزي ن تلوات الاستراتيجي في طريق التشوف إلى قبائل الأطلس الصغير حيث تنتصف المسافة بين الأطلسين انطلاقاً من وادي دادس ووادي تيكيرت... في هذا الأطلس الكبير تجري الأودية وسط نجد صخري هائل، وبقدر ما تبدو هذه الأودية زاهية تشع بهجة، فإن الامتدادات الشاسعة المحيطة بها قاتمة، تبعث على الكآبة¹. ينصرف دوفوكو إلى الاحتفاء بجمال الطبيعة في الأطلس الكبير في أعقاب المواقع الجرداء التي اجتازها، تعدو التجمعات السكنية بمجال الأطلس الكبير أشبه بواحات حقيقية، بساتين وأراضي موزعة إلى مربعات هندسية دقيقة، ترصعها حقول الذرة، وقنوات الري تحيط بكل شيء.

يُعبّر شارل دوفوكو وهداد العبيد "...يغادر الواد السهل، ويتوغل في شعب قديمة، وفي الأسفل يضيق اتساعه، وإلى جانبه يرتفع جدارين من الصلصال الرملي، يبلغ علوهما في بعض الأماكن أكثر من مائة متر، وفي الأعلى تنتصب كتل نصف ترابية ونصف صخرية، مشكلة سلسلة الجبال التي يخترقها الواد بعنف، ونحن نسير عبر هذه الأودية بصعوبة بالغة من خلال ممرات في غاية الوعورة، الأكثر وعورة من بين كل ما رأيته. العين لا تسأم من تأمل المياه المندفعة بين الأسوار الصخرية الشاهقة الجاثمة عند سفح هذه الجبال القاتمة، في هذه

¹ - لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، م س، ص 161.

المنطقة المتوحشة حيث الأثر البشري الوحيد هو تلك الـ "تغمرت" المعلقة في قمة الصخرة...¹. يُظهر دوفوكو براعته في جعل المشهد الطبيعي حي عندما يشاء، وريشته تبرع في رسم الخطوط دون ارتعاش.

يُطعم دوفوكو وصفه الجغرافي للفضاءات والأمكنة التي زارها ببعض العناصر الجمالية التي تمارس سحرا خاصا على القارئ، تجعلها أكثر واقعية وحضورا، فرغم وجود خطر قطاع الطرق، وجشع المرافقين، وصعوبة المسالك والممرات، إلا أن هذه الفضاءات تتبدى لديه كفردوس أرضي.

درج بعض الباحثين على تصنيف رحلة شارل دوفوكو ضمن غلاف الجغرافيا الكولونيالية الوصفية². بما هي عرض تفصيلي جاء حافلا بنفس توثيقي مغاير لما خطه التأليف الفرنسي الموروث عن غرائبية الشرق والاثنووغرافيا الأفريقية، وبما هي تشریح دقيق بمبضع رجل تلبس بمسارات مثيرة حد التناقض لعرض امكانات الطبيعة المغربية، متوقفا عند مواردها الطبيعية والبشرية، ساكنتها وعاداتها... دونما اغفال لعلاقة الدولة بالمجتمع المغربي قبل الاستعمار، مثلما حفلت هذه الرحلة بمعطيات على درجة عالية من التفرد حول المشهد المائي المغربي بأنهاره ووديانه وسواقيه... لأن أمكن لشارل دوفوكو أن يصل بالنهاية إلى تقعيد نظريته المركزية حول علاقة الدولة والمجتمع قبل الاستعمار، عاملا بالتالي على هندسة ثنائية بلاد المخزن وبلاد السيبة كثنائية مهيكلية للمجال المغربي³.

والحال، ينصب نص هذه الرحلة نفسه كنص متعدد المداخل ضمن حلقة التأليف الأجنبي عن مغرب ما قبل الاستعمار، تعدد يفرض تملك رؤية نقدية تنأى بنفسها السقوط في مثالب النزعة الوطنية، وتتعالى عن عقدة السجال والرد... مثلما يظل نصا وارفا بفيض معلوماته التاريخية والجغرافية التي ساقها عن مغرب القرن التاسع عشر شريطة أن يعتمد الباحث إلى فرز التصورات عن المعطيات⁴، الكليشيهات عن الوقائع... وأن يعمل على دمج الحدث المائي في سياق بنيته الناظمة. حصاد معرفي غني يفيد المؤرخ والجغرافي والأنثروبولوجي وعالم الاجتماع في إعادة رسم وتشكيل صورة المشهد المائي المغربي نظير ما يكتنزه من معلومات غزيرة عن المجال المغربي، وإن جاء

¹ - لوبيل رولان، م س، ص 160.

² - فلاح رشيد، الماء بين المعرفة والسلطة، جان دريش والجغرافيا الكولونيالية، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، موسم 2015-2016، ص 31.

³ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Chalanel, Tome 1, 1888, p 181.

والواقع أن ثنائية بلاد المخزن مقابل بلاد السيبة التي روج إليها شارل دوفوكو لا يمكا أن تقرأ إلا في سياق كانت فيها أوصال البلاد ممزقة، وارتد بلدا تنخره الفوضى من الداخل: حيث لم تكن قبائل السيبة تُعبر عن نفسها صراحة كقبائل متمردة، لكي لا يلفظها المجتمع، بل كانت تعتبر نفسها متمردة بالفطرة.

Jamous. R, Honneur et Baraka, Les structures traditionnelles dans le Rif, Edition de la Maison des sciences de l'homme, 1981, p 13.

⁴ - السبتي عبد الأحد، التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج، م س، ص ص 53-54.

خاليا من الخرائط، وتلك أحد نقائصه¹. تلتقي ضمن هذه الرحلة أشكال الطوبوغرافيا بأودية الشبكة المائية، عناصر السكان بأنماط الغطاء النباتي ووحداته، عادات وتقاليد المغاربة بمعتقداتهم الشعبية، دونما نسيان مجال الحرب والاقتصاد والمجتمع...وفق ما يظهره الجدول التالي:

الشكل رقم 21: جدول: الوصف المائي والمجتمع المغربي في مغرب ما قبل الاستعمار²

المجالات	الأشكال والمكونات
الطوبوغرافيا	الفج- العرف- السهل- الهضبة- الخانق...
الشبكة المائية	الأنهار- الأودية- البحيرات- الشلالات- الصهاريج- الشعاب- النطاف- المنابع (فترات الجريان- عمق المياه)...
المعطيات البشرية	العناصر- العدد- السكن...
الغطاء النباتي	أسماء النباتات- الكثافة- النوع
العادات والتقاليد	التدخين- النظافة
المجال الديني	الأولياء- الزوايا- مجالات النفوذ
الحرب	البنادق- الأسلحة- السيوف- الخناجر (العدد+ النوع)
المجال الاقتصادي	الفلاحة (أنواع المغروسات- المحصول- المجالات)+ الصناعة + التجارة والحرف
المجال الاجتماعي	المرأة (العربية- الشلحة- الحرطانية) الوظائف - الأنشطة- اللباس- الجمال- الملابس (أخنيف- الحايك)

بقدر ما تدفع هذه الرحلة إلى تشكيل انطباع أساس، مؤداه أن المجال المغربي مجال ساكن، لا يخضع لتفاعلات، ولا تنطوي تحته مجالات صغرى تتفاعل لتصيغ المجال الكلي ضمن صيرورة التراب الوطني بتعبير محمد الناصري³. مجال لا يتسم بحركية ويضج بالتفاعلات، بقدر ما يجب أن نثير الانتباه إلى أن دوفوكو أتى إلى المغرب في ظرفية مخصصة، طغت عليها تعددية مجالية:

❖ مجال هضبي: تسوده الزراعة والغراسة، مجال مهمل للاستيطان الفلاحي الأوروبي، يوطنه محمد الناصري في المغرب الأطلنطي.

¹ تجدر الإشارة إلى النص العربي حول الرحلة التي قدمه المختار بلعربي حمل جزءا ثانيا وسمه ب"أطلس الخرائط"، يتضمن توضيحا لمسار رحلة شارل دوفوكو...الفقيه عبد العالي، الحسن بوبكراري، المجال الصحراوي من خلال كتاب "استكشاف المغرب" لشارل دوفوكو، مجلة منتدى شمال المغرب، عدد ثلاثي، 6-8 يونيو 2012، ص 11.

² - De Foucauld .Ch, Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Chalanel, Tome 1, 1888, p 181- 182-186-189.

³ - الفقيه عبد العالي، الحسن بوبكراري، المجال الصحراوي، م س، ، ص 12.

❖ مجال جبلي: مجال للمراقبة والتأطير وضبط الحركات البشرية

❖ مجال صحراوي: مجال استراتيجي لمراقبة السكان والتحركات القبلية

عموما، مؤلف شارل دوفوكو حفل بمعطيات غزيرة عن حياة المغاربة، تضمن أوصافا مائية حول الشبكة المائية من أنهار وعيون وشلالات وآبار وقنوات وسواقي وصهاريج... أظهر من خلاله شارل دوفوكو اهتمامه الواضح بشبكة الأنهار والأودية، مقدما في نفس الصدد قياسات كمية تقديرية لهذه الأودية والأنهار، وموضحا طبوغرافيتها من حيث الصبيب والسرير والاتجاه واللون والجودة... إنها الرحلة التي سمحت بتقسيم الأنهار إلى أنهار كبرى مثل دواو أم الربيع الذي يسقي سهلا شاسعا بتادلة، وأودية متوسطة وأخرى صغيرة (واد تازة) الذي ليس إلا سيل تنحدر مياهه على شكل شلالات، مثلما يتوسل دوفوكو يتوسل بآلية المقارنة بين الأنهار من حيث كمية الماء على رتبة أو درجة الجريان.

II- الاستوغرافيا الأجنبية والمتخيل المائي:

ولجت كلمة المتخيل باحة العلوم الانسانية والاجتماعية انطلاقا من أدبيات القرن التاسع عشر، وصار يُنظر إليها كمفهوم اجرائي يوظف في دراسة الظواهر الاجتماعية والطبيعية والأعمال الأدبية والأساطير والمعتقدات والأديان... تدین هذه الكلمة في تبلورها وترسخها داخل حقل اجتماعيات المعرفة الانسانية إلى أعمال كل من كاستون باشلار Gaston Bachelard وكاستور ياديس Cornelius Castoriadis وجليبار ديان Gilbert Durand... أوضح المتخيل انطلاقا من هذه الأعمال المؤسسة "...حصيلة ما تفرزه عملية التخيل أو القوة التخيلية، الذي قد يكون فرديا أو جماعيا، وقد يكون متعلقا بحالة سوية، أو حالة مَرَضِيَّة...¹". جاء في لسان العرب عن المتخيل: خال الشيء يَخَالُ خَيْلاً وَخَيْلَةً وَخَيْلَةً وَخَالًا وَخَيْلًا بِمَعْنَى ظَنٍّ². تفيد هذه المعاني الوهم والظن والشَّبه أو المحاكاة. والمتخيلة هي "...القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني الجزئية المنتزعة منها، ويتم التصرف فيها بالتركيب تارة، والتفصيل تارة أخرى..."³.

هكذا نصل إلى أن المتخيل الأجنبي عن مغرب الأُمس متعدد ومركب، لا ينحصر في قالب واحد، بقدر ما يترجم سلسلة من الصور الذهنية التي تتصل برؤية استشراقية تشكلت في عصور التصادم بين دار الاسلام و"دار

¹ - شاكرب عبد الحميد، الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 360، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير، 2009، ص ص 46-47.

² - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ص 1304.

³ - الجرجاني علي بن محمد، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004، ص 167.

الكفر"، وجرى ترسيخها في كنف المركزية الغربية. تعود الكلمة من حيث التأصيل إلى الكلمة الاغريقية Imaginarius التي تعني: الشيء الذي لا وجود في الواقع، أو ذاك الذي لا وجود له إلا في ذهن الإنسان كصور ذهنية.

توقفت الاستوغرافيا الأجنبية عند مبحث المتخيل المغربي، وتحديد المتخيل المائي، في ارتباطه بالأنهار والبحار والقوى الطبيعية. لكن يبدو جليا أنها أضفت عليه صفة الثبات والاستقرار، وانتهت إلى تصنيفات ساذجة قد لا تنسحب اطلاقا على عموم الواقع التاريخي، بقدر ما قد تنسحب على لحظة مخصوصة منه ارتبطت بلحظة اختناق المسار التاريخي¹. فإلى أي حد نستطيع أن نتثبت من صحة الفرضية القائلة بأن المغرب كان بلدا ذو نزعة قارية، عواصمه السلطانية داخلية النشأة والتكوين، وملاحظته البحرية ذات ارتباط بالعناصر الخارجية²؟

مهما قيل عن مسألة الاختناق الاقتصادي فقد دشن احتلال مدينة سبتة 1415م بداية مرحلة الانكماش والانزواء المغربي عن البحر. صدف المغاربة عن شؤونهم، وتركوا أموره تحت مسؤولية القوى الأوروبية التي تسلحت وقتها بالتفوق التقني، وكانت الغلبة لسفينة "الكارافيل على القافلة" بتعبير أحد المؤرخين البرتغاليين. ورغم المحاولة اليائسة للسعديين من أجل إعادة بناء أسطول مغربي حديث، إلا أنها ظلت محاولة يائسة، وطموحا غير ممكن التحقق بسبب انقلاب الموازين وتبدل المسارات.

من هذه الخلفية، حملت الاستوغرافيا الأجنبية مسؤولية توتر العلاقات المغربية الأوروبية خلال العصر الحديث إلى المغاربة، وتعتمد مسح كل اضافة مغربية في أمور البحر، مثلما عمدت إلى ربط سلوكات اللصوصية والنهب والعنف بالمغاربة... مثل هذه المواقف لا يمكن أن تضمن لنفسها البقاء في صلب التاريخ، ولم تعد مقبولة في الكتابة التاريخية المعاصرة، ف"القرصنة" مثلما يقول فرناند بروديل F. Braudel "مغامرة وحرفة لا وطن لها ولا دين لها"³.

¹ - كيف يستقيم هذا الحكم على فترة العصر الوسيط مثلا، حين كان الأسطول المرابطي يتألف من مائة قطعة حربية، والأسطول الموحدوي يتشكل من حوالي أربع مائة قطعة حربية، موزعة على امتداد مجال الغرب الاسلامي، مائة قطعة مرابطة في الأندلس، ومائتان في المغرب الأقصى، ومائة في المغرب الأوسط والأدنى.. قدوري عبد المجيد، المغرب وأروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، مسالة التجاوز، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2012، ص 347.

² - تشكل هذه المسألة في واقع الأمر عصب تفكير الاستوغرافيا الاستعمارية في تاريخ المغرب، حيث يظهر الربط جليا بين الاهتمام بشؤون البحر والعناصر الأجنبية، مقابل استبعاد كل تدخل مغربي في البحر، وهو المعطى الذي تم حجب عنه قصد، ولا يستقيم تاريخيا في بعض اللحظات. حاولت هذه الاستوغرافيا أن تؤكد فكرة جوهريّة: بحرية الحضارات البشرية التي تعاقبت على حكم المغرب، من العهد القديم إلى تاريخ الحماية، من الفنيقيين والقرطاجيين والرومان والايبريين وصولا إلى الفرنسيين. مثلما طرحت فكرة ثانية لا تخلو من أهمية: القارية، حيث تحكم في تخطيط العواصم السلطانية قبل معي ليوطي النظرة الداخلية، بينما ارتبط ازدهار الملاحة البحرية في بعض اللحظات بالعناصر الأندلسية الموريسكية.

³ - Braudel. F, La Méditerranée, op.cit, Vol II, pp 191-192.

من شأن دراسة علاقة المغاربة بالبحر (الماء) أن تكشف عن طبيعة المواقف والذهنيات التي هيمنت على تفكير المغاربة منذ بداية العصر الحديث إلى لحظة حدوث الرّجة الاستعمارية مستهل القرن العشرين¹. وهو الاستغراب ذاته الذي حملته الاستوغرافيا الأجنبية عن المغاربة، وعن سبب اعراضهم عن شؤون البحر، وانكفاءهم بشؤون الداخل. نفس الاستغراب يقف عنده الباحث اليوم، لم تخلف الكتابة التاريخية المغربية شيئاً ذا بال يذكر عن البحر إلا فيما نذر. هذه الجزئية دفعت الباحثين الفرنسيين مستهل القرن العشرين (لوي برونو- إميل لاووست- جورج كولان- روبير مونتاني...) إلى اجراء تحريات ميدانية عكفت على دراسة المصطلحات البحرية داخل المناطق الأمازيغية. تحريات ميدانية ظلت مُغلقة بمواقف سلبية².

انشغلت هذه التحريات بالكشف عن أنواع الأسماك وتقنيات الصيد والقوارب... فهذا لوي برونو L. Bruno يرجع هذه المصطلحات البحرية ذات الاستعمال اليومي بكل من مدينتي الرباط وسلا إلى الأصل الاسباني بالقول: "...الصناعات البحرية الموجودة في المغرب صناعات مستوردة من اسبانيا..."³ مثلما يقول في موضع آخر، "أن... فزع الانسان المغربي من البحر يعود إلى جهله بأبسط المعطيات النفسية والطبيعية المتعلقة بشؤونه، بالإضافة إلى الأوهام والوساوس والخرافات والأساطير التي تهيمن عليه وتحدد علاقته بالبحر..."⁴ ما يجعل حسب خوف المغاربة حسب هؤلاء من البحر مسألة ثقافية ذات تجذر حضاري وتاريخي.

لا غرابة إذا ما استحضرنّا السياق العام الناظم لهذه التحريات أن يسير روجي كواندرو R. Coindreau صاحب كتاب "قراصنة سلا" نفس وجهة لوي برونو L. Brunot. يعتبر كواندرو أن البحر باب الخلاص ورمز الحرية للفرد والجماعة في أوروبا الحديثة⁵، وأن ظاهرة الخوف من البحر ظاهرة اسلامية عامة "...فالخوف من البحر ظاهرة عامة عند المسلمين، ويبقى هذا الرعب أشد حدة عند المغاربة مقارنة مع غيرهم من أهالي شمال افريقيا..."⁶ ويزيد على ذلك "...معرفة الأهالي بتقنيات البحر بسيطة جداً ومواقفهم منه ساذجة..."⁷. ما دفع المغاربة من

¹ - هناك قول مأثور ينسب للحسن اليوسي يعبر عن هذه الذهنية في بُعدها العالم خلال القرن السابع عشر الميلادي "...أن هناك ظواهر لا يجب الثقة فيها: البحر والزمن والسلطان..."

² - قدوري عبد المجيد. المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. مسألة التجاوز، مرجع سابق، 2012، ص 339.

³ - Brunot. L, Notes lexicographiques sur le vocabulaires maritimes de Rabat et Sale, Paris, édition Laroux, 1920, p 11.

⁴ - Ibid, p 3.

⁵ - Baccar. A, Histoire maritime et création littéraire, France 1640, In Revue historique, PUF, n° 572, Septembre- Décembre, 1989, p 347.

⁶ - Coindreau. R, Les Corsaires de Salé, Paris, 1948, p 53.

⁷ - Ibid, p 53.

الاستعانة بالخبرة الأجنبية¹. خوف المغاربة من البحر مصدره الجهل، ومبعثه الحذر. لقد خلفت الذاكرة الشعبية صدى عن هذا الخوف بقول مأثور: ثلاثة لا أمان فيهما: البحر والسلطان والزمان².

إذا تقدمنا في الزمن، يقف قارئ المتن الاستووغرافي الأجنبي عند حدود مشروعية سؤال جوهري صاغته تقارير وتحريات البعثة العلمية مستهل القرن العشرين: كيف يُعقل أن يتجاهل المغرب الخيرات التي توفرها له أنهاره وسواحلها البحرية التي تقدر بثلاث آلاف كلمتر³؟ هل من المعقول حسب زعم روبير مونتاني أن يعيش هذا البلد أسيرا تحت رحمة الأمطار، وأن يبقى مهددا على الدوام بشبح المجاعة، في الوقت الذي تعد فيه مياهه البحرية من أغنى المياه الأطلنטיكية؟ لماذا لم ينتبه هذا البلد إلى محورية الاقتصاد البحري في النمو، على غرار أوروبا التي انتهت إلى هذا الاقتصاد بشقيه العسكري والتجاري، وصار المحرك الأساسي للنمو لديها ما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر⁴. ما حقيقة أن المغاربة أداروا الظهر للبحر والماء كما تدعي الكتابة الاستعمارية؟ وهل يمكن الحديث عن الماء في مُتخيل واحد أم في مُتخيلات مختلفة؟ وهل علاقة المغاربة بالبحر والماء ظلت سطحية وارتبطت في أساسها بعناصر خارجية، وما الأسباب التي حالت دون اهتمام المغاربة بالبحر حتى يجعلوه محركا لاقتصادهم على غرار ما حصل في البلدان الأوروبية خلال العصر الحديث⁵؟

الاقتراب من قضايا المتخيل هو اقتراب من الذهنية المغربية في بُعديها العالم والشعبي. غير أنه يظل اقترابا ملغوما، لكونه يتطلب نوعا من الاحتراس والتهيب، ذلك أنه يتنوع بتنوع الظرفيات والمراحل، ويختلف باختلاف

¹ - Ibid, p 55.

² - ثمة مقولة لحليمة فرحات عن البحر في مقالها المعنون بـ " شياطين وعجائب: الأطلسي في المخيال المغربي في العصر الوسيط " بهذا الصدد: "... واعلم أن البحر هو العنصر الأعظم، والمخلوق الأكبر والعجب العجيب، وجمع العلم في دائرته... وهو على ما في ركوبه من الخطر العظيم والضرر الكبير... يفيد الأموال الجمّة والنعم الضخمة، ويخرج اللؤلؤ ويقذف العنبر وينفذ الذهب... البحر يعطي جزافا ويأخذ جزافا..."

Ferhat, H, Démons et merveilles: l'Atlantique dans l'imaginaire marocain médiéval, In Le Maroc et l'Atlantique, p 31.

³ - من الدراسات التي اهتمت بالبحر المغربي:

- Brunot, L, La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat- Sale, Paris, édition Laroux, 1920.

- Brunot, L, Notes lexicographiques sur le vocabulaires maritimes de Rabat et Sale, Paris, 1920.

- Montagne, R, Les marins indigènes de la zone française, Hesperis, 1923, vol III ; Coutumes et légendes de la cote berbères du Maroc, Hesperis, 1924, Vol IV .

- Coindreau, R, Les Corsaires de Salé, I.H.E.M, 1947.

Colloque, Le Maroc et l'Atlantique, Casablanca, 1992.

- Le Maroc et la mer, Revue Maroc- Europe, Rabat, 1992.

⁴ - قدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2012،

ص 337.

⁵ - قدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، م س، ص 339.

تجارب الأشخاص والجماعات، ويخضع لتحول ميزان القوة والنفوذ. فمنذ بداية العصر الحديث شعر المغاربة بالقلق والخوف من البحار لكونها من مصادر الأخطار الخارجية¹.

العامل الديني هو الذي يسمح بفهم وتفسير مراحل الاستمرارية والقطيعة التي عرفها التاريخ المغربي خلال أكثر من ألف سنة... أسس المغاربة مجتمعهم انطلاقاً من فكرة السعي نحو الخلاص، وخاصة وأنهم عاشوا في مجال جغرافي شبه قاحل قد تخفف من حرارته رطوبة المحيط الأطلسي². هذه الفكرة هي التي تنبه إليها دانييل ريفي D. Rivet حينما ألمح إلى إن كتابة تاريخ المغرب هي أيضاً كتابة تاريخ المعتقد الديني على هذه الأرض، وتاريخ البحث عن الرزق، وتاريخ السلطات السياسية التي تعاقبت على حكم البلاد وتحكمت في مصائر العباد.

نصادف باستمرار بين ثنايا الكتابة الاستعمارية إشارات متكررة تعمد إلى تهميش اهتمام المغاربة بشؤون البحر، وتعتبره اختصاصاً أجنبياً، من العهود القديمة إلى مجيء الاستعمار. لقد صوّرت هذه الاستوغرافيا المغاربة بمظهر "الشعب البدائي" العاجز عن إدراك المعطيات الطبيعية. لا عجب أن يلجأ المغاربة حسب زعم هذه الاستوغرافيا دائماً إلى تأويل الأشياء تأويلاً ساذجاً يمزج بين الانهيار والخوف، ويجعل وراء كل ظاهرة طبيعية قوة ربانية متحكمة. حينما نسلم بهذه الصورة الاستعمارية، يأخذنا نوع من الوجّل والتهيب من منطوق بعض الكتابة الاستعمارية، من ذلك الموقف الذي حاول أن يربط بين المتخيل المغربي في بُعد المائي والعجز الذهني عن إدراك الأمور.

ظل المغربي وفق ما يستفاد من تحليلات لويس برونو يعمد إلى تحويل الأشياء المستعصية عنه إلى قوة ربانية³، أو ليس الوراثة من هذا القصد جر القارئ إلى الاعتقاد بأن المغاربة ظلوا يستعينون في تدبير حاجاتهم المائية ببركة

¹ - من غير المنطقي أن نقبل بهذه التخریجة، نعلم أن المخزن المغربي كان له طموح سياسي في خلق فضاء متوسطي ومحيطي انطلاقاً من واجهة البحر. كما تملكه رهان استعمال البحر كمجال حيوي نفعي، لكن انقلاب الأحوال وتغير الموازين جعله يلجأ إلى تحويل البحر إلى حاجز أممي لصد الهجمات الإيبيرية... طبيعي أن تكون حروب الاسترداد والاحساس بفداحة التأخر في المجال البحري هي التي أرغمت على الانكماش، لكنه لم يتخل عن طابع الانفتاح مثلما تكشف عن ذلك تجارب بعض السلاطين. يتعلق الأمر بتكتيك دفاعي يستجيب لرهانات اللحظة دون التخلي عن البحر. ثم إن هناك معطى يدحض موقف الاستوغرافيا الأجنبية أو على الأقل يعيد النظر فيها، محاولة المخزن ادماج البحري في التجارة الدولية عن طريق مؤسسة تجار المخزن التي اشتهرت باسم "تجار السلطان"... من أجل التوسع أكثر يمكن العودة إلى كتاب دانييل شروتر، تجار الصويرة، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب، تعريب خالد بن الصغير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1997.

² - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب من مولاي ادريس إلى محمد السادس. م س، ص 11.

³ - نفس الموقف نجده عند روجي كواندرو R. Coindreau صاحب مؤلف قراصنة سلا، حيث يُعبر عن ذلك بالقول: "...الخوف من البحر ظاهرة عامة عند المسلمين، ويبقى هذا الرعب أشد عند المغاربة مقارنة مع غيرهم من أهالي شمال إفريقيا..." وفي موضع آخر "...معرفة الأهالي بتقنيات البحر بسيطة جداً، ومواقفهم من ساذجة..." (Coindreau. R, Les Corsaires de Salé, I.H.E.M, 1947, p3 et 53). ليس خاف على المؤرخين أن كواندرو استعان بقولة مأثورة للسلطان المولى اسماعيل في سياق متوسطي شديد الالتباس والحذر، تفصح المقولة "...أن الله وهب البر للمسلمين، وترك البحر للمسيحيين. لأن العرب تحسن ركوب الخيل والإبل لا السفن في البحر..." المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 11400، ص 104.

الأولياء، وخاصة أولياء البحر¹؟ لقد طالب جون لوي ميج J. L. Mieg بإعادة النظر في الفرضيات المألوفة التي تعود الأجانب ترديدها حول علاقة المغاربة بالبحر². يقدم لويس برونو تخريجة لهذه المسألة، السلوك المائي المغربي يعكس تمازج عادات وطقوس وثنية مع معتقدات اسلامية في ذهنية المغاربة³. فهل نجاري عبد المجيد القدوري في القول أن الكتابة الاستعمارية نجحت في حجب الواقع، وخلقت بالتالي متخيلا مغربيا كان يسعى بالأساس إلى دعم وخدمة مصلحة سلطات الحماية؟

تشفعت الاستوغرافيا الأجنبية وخاصة الفرنسية منها في سبيل تأكيد وجهة فكرتها بحجة أن المغاربة لم يستعملوا البوصلة اطلاقا، كما أنهم لم يراكموا خبرة ودراية تذكر في مجال البحر، حيث ظل الاعتماد على الأسرى والعلوج والأتراك والمسيحيين مستمرا في قيادة السفن. كما أن اللغة العربية تفتقد إلى المفردات والمصطلحات البحرية، حيث أن جلها مقتبس من اللاتينية، أو من اللغات المتفرعة عنها. بخلاف هذه الصورة، نجد الاستوغرافيا البرتغالية تنحى منحى آخر، حيث تؤكد على قوة العالم الاسلامي في البحر، خاصة مع الجغرافي الادريسي والرحالة ابن بطوطة، والبحار ابن ماجد الذي شارك في الكشوفات الجغرافية مع فاسكو دي كاما. ظل لفظ "أناس البحر" يتكرر في متون الكتابات البرتغالية كعبارة تطلق على المسلمين. لكن واقع الانكماش، الذي توقفت عنده الاستوغرافيا الأجنبية يرتبط بانقلاب موازين القوى لصالح أروبا الذي تجسدها واقعة أسر الحسن الوزان 1518م بما هي واقعة تعبر عن سيطرة أوروبا على البحار والمحيطات، وقبله احتلال سبتة 1415م التي شكلت إنذارا حقيقيا لفقد السيطرة على البحر.

مع تحولات العصر الحديث صار البحر لدى المغاربة مصدر قلق وتوجس وانشغال، منه تتأتى كل الأخطار والأهوال (الأسر/ الغرق/ الخراب...)⁴. صار البحر الأبيض المتوسط بمثابة الفخ الذي تصطاد به القوى المسيحية المسلمين بعدما أخرجتهم من الأندلس.

¹ - Brunot. L, Notes Lexicographie sur le vocabulaire maritime de Rabat- Sale, Paris, édition Laroux, 1920, p3.

² - ينبي طلب جون لوي ميج لإعادة كتابة التاريخ البحري للمتوسط. من كونه أجرى اعتمادا على أرشيف مدينة مارسيليا تحريا وثائقا حول عدد المراكب المغربية التي ولجت إلى الميناء، وأوضح أن عددها وصل ما بين سنتي 1685 و1792 إلى 1568 مركب، أي بنسبة 7 % من الحركية العام لهذا الميناء.

Mieg. J.L, Pour une méthodologie de l'histoire maritime du Maroc, In Le Maroc et l'Atlantique, p 11-17.

³ - Ibid, p 10.

⁴ - يمكن أن نستشهد في هذا الصدد بعدة نصوص تاريخية متأخرة تعكس علاقة العطب التي ربطت بين المغاربة والبحر في لحظة الانكسار التاريخي. يعود النص الأول لأبو القاسم الزباني، وزير ومؤرخ الدولة العلوية (1147هـ - 1249هـ / 1734م - 1833م) "...إنه البحر الكبير ويسمى المحيط، وهو البحر الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المفصلة، وهو بحر لا يعرف له ساحل، ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى، وفي هذا البحر عرش إبليس لعنه الله، وفيه مدائن تطفو على وجه الماء، وهي أهلة من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض..." الزباني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمر برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1967، ص 291-292... والنص الثاني عبارة عن مخطوط يعود إلى ابراهيم التادلي الرباطي (ت 1894م) بعنوان "زينة النحر يعلوم البحر". مخطوط ألفه التادلي لينتفع به من اضطر إلى ركوب البحر، حيث اعتبر البحر مصدركل البلايا "... إذا جاء القدر، عمي البصر، ولا ينفع الحذر من قدر، إلا أن استعمال الاسباب مشروع..." وانتبه إلى تفوق الانجليز في أمور البحر عن غيرهم من الأمم

تتبع المتخيل المغربي داخل متون الاستوغرافيات الأجنبية يجعله لا ينحصر في تفسير واحد، ولا يسير على نحو خطي، ذلك أنه يحيل على التباعد في الإدراك، بين مُتخيل الخاصة¹، ومُتخيل العامة. فإذا كانت وظيفة الأول تترجم الهواجس العامة داخل البيوتات الكبرى، فإن الثاني يُجسد وظيفة الاحساس بالضعف والعجز. هذا العجز هو الذي يجعل العامة لا تشعر بالطمأنينة، فكيف يرتاح الانسان إلى الماء في حين أن أصله من تراب؟ هذا الاحساس بالخوف يجعله يلجأ إلى تحويل هذه القوة إلى قوة ربانية لا بشرية، ويفرض عليه أسلوب عيش مخالف لما تعود عليه في اليابسة. في مقابل ذلك، ربط العامة البحر بالأولياء أو بالمدن، بحر مولاي بوسلهام، بحر مولاي بوشعيب، بحر مولاي عبد الله... أو بحر طنجة، بحر سلا، بحر أصيلا، بحر أكادير... صورة الولي الذي يمشي فوق الماء (الولي أبو بكر الورياغلي)، أو الذي يملك قدرة الاستشفاء من أمراض الجلد والعقم بواسطة الماء (عبد الله محمد بن أمغار الصنهاجي). فالأولياء يُجسدون في ذهن العامة الارادة الربانية، حيث تتدخل البركة لترويض قوى الطبيعة.

تاريخيا، شكل عبور المغاربة إلى عدوة الأندلس بداية السيطرة المغربية على البحر الأبيض المتوسط، وترسيما لقاعدة سياسية جديدة في هيكل الدولة المغربية، تتخذ من البحر ورقة سياسية في الصراع مع القوى الخارجية. لقد تحولت النظرة الوسيطية التي كانت تنطلق من أن البحر وسيلة لتزكية ودعم المصالح المغربية وتقوية أمن المسلمين، نحو موقف جديد يطبعه الخوف والخنوع والقلق والارتباب، وخاصة مع تراجع المرينيين عن دعم السياسة البحرية. والواقع أننا بصدد تحول حاسم ومصيري، ستترتب عنه ردود أفعال لا يمكن أن تقرأ إلا في سياقاتها وظروفها².

عن قضية ردود الأفعال، أثارت الاستوغرافيا الأجنبية مسألة القرصنة. قضية تاريخية تحتل ولا تزال قراءات متعددة. فهي من جهة، تعكس احساس المغاربة بحجم التفاوت، ورغبتهم في التقليص منه، ومن جهة موازية،

الأوروبية، بسبب الانضباط في الأمور التقنية أو في أمور التدبير. رغم أن معلوماته كانت محدودة بشؤون البحر...التادلي، ابراهيم الرباطي، زينة البحر يعلوم النحر، مخطوط الخزنة العامة، د 1347، ص 199. والنص الثالث يعود إلى المقرئ التلمساني، إذ يقول "...من ركب البحر عليه أن يعتبر نفسه ضائعا، يعيش وحيدا معزولا بدون عائلة ولا أهل ولا يبقى له من الأهل سوى البحر الذي هو قبر، والماء كفن..." المقرئ التلمساني أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الجزء الرابع، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص 304.

¹ نعني بمُتخيل الخاصة المتخيل الرسمي الذي تبرز معالمه في اتجاهين: الأول سياسي ينظر إلى البحر كأداة للتوسع والامتداد، والثاني أمني ينظر إلى البحر كمصدر قلق وأخطار ومهلك.

² احتلال الجيوش القشتالية لمدينة سلا سنة 1260م واحتلال البرتغال لمدينة سبته 1415م...حوادث من ضمن أخرى زعزعت بُنيان الذهنية البحرية المغربية، وكانت بمثابة الضربة القاصمة التي غيرت منظور المغاربة إلى البحر، وبدلت تعامل المغاربة مع الإيبيريين الذين تعود عليهم المغاربة كتجار لا كمحتلين للتراب المغربي...قوة هذه الحوادث هي التي ستحدد إلى حد كبير مسار تاريخ المغرب خلال العصر الحديث، فوجود الإيبيريين على الساحل المغربي ساهم في خلق الاقتصاد، وقاد نحو تحولات سياسية انتهت بقيام دولة الأشراف...وهي التي دفعت بالسعديين إلى انتهاج أساليب المضايقة والمحاصرة والتهريب والتفاوض التي مكنتهم من استرجاع أكادير وأزمور وأسفي وأصيلا...قدوري عبد المجيد، البحر في المتخيل المغربي، منشورات عكاظ، 1998، ص 24.

تعكس رغبة المورسكيين في الانتقام، ومن جهة ثالثة، رغبة الكنيسة المسيحية في مطاردة المسلمين...القرصنة قوس في تاريخ المغرب الحديث، يبدأ مع توحيد مملكتي قشتالة وأراغون 1492م وبداية مسلسل الطرد الموريسكي، وينتهي عمليا مع الوفاق التجاري لسنة 1856م الذي أعلن بشكل رسمي خروج المغرب من دائرة التنافس حول البحر. وهي بذلك، أي -القرصنة البحرية- لا تخرج عن إطار الرد الفعل الطبيعي تجاه واقع الاختناق الاقتصادي الذي فرضته القوى الأوروبية على العوالم الأخرى، وتجاه مبدأ "حق الانتقام" Lettre de reprisaille الذي صاغته الكنيسة الكاثوليكية ضد مُسلمي الأندلس. وكل ربط لها بالعالم الإسلامي دون غيره من العوالم يظل ربطا تعسفيا لا تَسُنُّده وقائع التاريخ¹. أفلا يحمل هذا الحكم في خلفياته نوايا اتهامية؟ ألا يهدف هذا الحكم وجوبا إلى حجب قضايا أعمق وأسئلة أخرى موازية عن تحولات العصر الحديث؟ ألا يمكننا أن نُسلم بأن القرصنة كانت الأداة المتبقية أمام المغاربة للضغط على الدول الأوروبية²؟

لم تكن تحولات "العصر الحديث" في صالح المغرب، انكفأ على ذاته، على عمقه القاري، وصدف عن شؤون البحر، واضطر مثل غيره من الأمم إلى التخلي عن البحر نتيجة التفوق التقني. فكان لهذا الانزواء أن تضررت مصالحه الاقتصادية والسياسية. النتيجة على المستوى الذهني: الاحساس بعمق التراجع والتفاوت الحضاري بينه وبين الآخر.

III- الاستوغرافيا الأجنبية: معادلة الماء والترتيب

ما الذي يستحث البحث في معادلة الماء والترتيب في بادية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في توافق مع خطة البحث وإشكاليته؟ موجبات هذا الطرح الإشكالي تستند إلى أن الاقتصاد القروي الذي توقفت عنده مجمل أدبيات الاستوغرافيا الأجنبية ظل نقطة ارتكاز المنظومة الانتاجية برمتها زرعاً وضرعاً³؛ ومن شأن أي تغيير أو إصلاح يلامس عمق بنيات الإنتاج القروي أن يؤثر على عملية التحصيل الجبائي، ومن ثم التأثير على عموم النسق

¹ - حدثت مراجعات تاريخية بخصوص هذه القضية، لم تعد القرصنة شأنا مغاربيا، تختص به المنطقة دون باقي المناطق. القرصنة ظاهرة ذات نزوع كوني، وكل محاولة لربطها بالعالم الإسلامي لا يعدو أن يكون سوى إرادة ونزعة مدعمة ومدافعة عن مركزية الغرب مثلما يقول ميشال فونتناي

Michel Fontenay

Fontenay. M, Les chevaliers de Malte, In Revue d'Histoire moderne et contemporaine, Vol XXXV, Juillet- Septembre, 1988, p 363.

² - مع السلطان محمد بن عبد الله 1757-1790م ستصير القرصنة مؤسسة تابعة للمخزن، سيوظفها لعقد معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية وفق أسس جديدة...كانت سياسة هذا السلطان تقوم على محاولة احتكار التجارة الخارجية لضمان الاستقرار الداخلي، وربط كل الأنشطة والممارسات التجارية بشخصه (تجار السلطان)...هذه الرؤية هي التي ترجمت في بناء ميناء الصويرة...هذا المنظور سيتوقف مع السلطان المولى سليمان 1792-1822م الذي قرر انهاء حركة القرصنة تحت ضغط القوى الأوروبية.

³ - نميل إلى الطرح الذي دافع عنه محمد حبيدة في كتابه المغرب النباتي عن كون المجتمع المغربي قبل الاستعمار مجتمع زراعي بالدرجة الأولى، في البوادي، كما في بساتين وعرصات ضواحي المدن. بالمقابل، احتل اللحم مساحة ضئيلة في النظام الغذائي المغربي، واقتصر حضوره بموائد الأعيان والوجهاء وخاصة الخاصة، واختصت تربية الماشية بإنتاج قوة الجر الضرورية لأشغال الزراعة، وإنتاج الصوف في الصناعة المنزلية، والألبان لتحسين القوت اليومي...انظر: حبيدة محمد، المغرب النباتي، الزراعة والأغذية قبل الاستعمار، منشورات ملتقى الطرق، 2018، ص25.

المائي سواء في لحظات الفيض أو في لحظات الجذب من جهة؛ كما من شأن هذه المعادلة أن تختبر مصداقية تلك النظرة المشروخة التي نسجتها الاستوغرافيا الأجنبية خلال القرن التاسع عشر المغربي وبداية القرن العشرين حول حدود العلاقة العابرة التي ربطت بين الفلاح المغربي بالأرض¹.

عمليا استهدفت سياسة الترتيب الحسني ضبط المجال، وإعادة تصحيح علاقة المخزن بالقبائل، وكان فرصة مواتية لإعادة ترتيب البيت الداخلي، وتقوية الجبهة الداخلية. لكنها بالمقابل عمّقت أزمة المخزن تجاه رعاياه. قبل البدء يفرض علينا القرن التاسع عشر سؤالاً وجيهاً: هل كان حقيقة قرن إصلاح أم قرن ترميم؟ وعبر هذه الإشكالية تتناسل أسئلة فرعية: هل يتعلق الأمر بسياسة جائرة من المركز؟ أم بتصريف محلي لقرارات فوقية؟ هل نحن بصدد سلوك سلطاني واعي لضمان موارد جبائية على حساب الرعية؟ أم بسلوك فردي يُنسب لقواد مستبدين؟

يدفعنا هذا الاستحضار لإعادة صياغة طرح إشكالي ينسجم مع معادلة الماء والترتيب في بادية القرن التاسع عشر الأنف ذكرها. الواقع أن هذا الطرح الإشكالي سبق وأن صاغه الاقتصادي نيكولا ميشيل N. Michel حول بنيات المجتمع المغربي خلال هذه اللحظة: كيف يمكن تأمين ضمان تغذية الإنسان والمواشي في ظل نظام معاشي قائم على ثنائية الاستغلال والكفاف؟ كيف يمكن ضمان استدامة النسق المعاشي في ظل منظومة انتاج غير مندمجة في شبكة المبادلات²؟

سارت بعض المساهمات الاقتصادية التي تناولت بنيات الاقتصاد القروي في تاريخ المغرب إلى الدفع بأطروحة الابتزاز الجبائي الذي تعرضت إليه عموم القبائل المغربية، الذي قتل في الفلاح المغربي روح الاستثمار والإنتاج، ونزع منه الثقة في المراكمة والادخار³. شعر الفرد المغربي بالتوجس والاحتراس من خطر التترك الذي كان يُشهره المخزن. كما تملّك الخوف على النفوس والممتلكات. وبمقابل ذلك برزت ثقافة استعراض الثراء لوجهاء وأعيان بعض

¹ - نقرأ عند الطبيب الإنجليزي وليام لامبريار نهاية القرن الثامن عشر "...أرض المملكة الشريفة خصبة على العموم، وبزراعة مناسبة قد تنتج محاصيل تساوي وفرتها محاصيل الأراضي الواقعة شرق أوروبا أو غيرها...".

Lempriere. W, Voyage dans l'empire de Maroc et au royaume de Fez (1789-1790), Paris, 1990, p 55.

هذه الفكر تصدى إليها عبد الله العروي معتبرا أن العلاقة العابرة التي توقفت عندها الاستوغرافيا الأجنبية لم تكن عامة، بقدر ما تخص فقط منطقة الغرب، ولا يمكن تعميمها على مجموع المجال المغربي. انظر:

Laroui. A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912, Edition Centre Culturel Arabe, 1993, p 34.

² - Michel. N, Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, op. cit, p 2-5.

³ - يمكن أن نحيل على بعض منها:

Rosenberger. B, Société, pouvoir et alimentation, Nourriture et précarité au Maroc précolonial, Rabat, Alizes, 2001.

البزاز، محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992.

احميقي، عبد العالي، التغذية بالغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط، رسالة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002.

القبائل. ارتقت إلى واجهة المجتمع سيكولوجية اخفاء وطمير الكنوز¹. يتعلق الأمر بمسارين متقاطعين، لكنهما متوازيين في توصيف حالة الهشاشة التي اعتبرت البنيات الاجتماعية والاقتصادية بمغرب القرن التاسع عشر².

معادلة الماء والأرض جسدت في واقع الأمر جوهر الممارسة اليومية في التجربة التاريخية المغربية، وعنوان التجذر والانتماء داخل المجتمع القروي، وأداة للسيطرة تتولد وتتشابك حولها وعلى رأسها علاقات سلطوية³، وبطاقة هوية لقياس موازين القوة والنفوذ، فكلما كبرت الأرض زادت حقوق الماء، وتعالى رهانات القوة والفاعلية؛ وكلما تقلصت حيازة الأرض، ضاعت أسهم التأثير والمشروعية⁴. دفع ذلك مونديراس Menderas إلى القول أن الأرض والماء أهم ثروة في المجتمعات الزراعية في السياق العربي الإسلامي⁵. وأندري بريف A. Brives إلى القول "يكفي أن نرmi الحب لكي ينبت"⁶ في السياق المغربي.

يتم هذا الجمع من طرف فئة اجتماعية تُحوز قسطا وافرا من الرساميل الرمزية والمادية داخل المجتمع القروي التي تؤهلهم لإنتاج وصناعة الواجهة الاجتماعية⁷، سنحت لهم الفرصة بإعادة تشكيل الخريطة العقارية¹، انطلاقا

¹ - يتوقف جون لوي مبيج عند ظاهرة اخفاء المدخرات والممتلكات والنقود. من أجل حماية النقود من الرطوبة كانوا يقومون قبل دفنها بوضعها في كسكاس وتعرضها بخار ماء يغلي في قدر تحته تم حكها بالنخالة. انظر:

Miege. J.L, Le Maroc et l'Europe, 1830-1894, T3, PUF, p 100.

² - يدافع الطيب بياض عن فكرة الهشاشة التي اعتبرت البنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، هذه الهشاشة التي اغتالت طائر الفينيق البدوي تحت رماده ممثلا في فئة المزارعين، وكسرت جناح عنقاء المدينة مجسدة في البورجوازية الحضرية. انظر: بياض الطيب، المخزن، الضريبة والاستعمار، م س، ص 37.

³ - Jamous. R, Honneur et Baraka, Les structures sociales traditionnelle dans le Rif, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris,, 1981, p 56.

⁵ - Menderas. H, Eléments de sociologie, Armand Colin, Paris, 1975, p 177.

⁶ - يتحدث أندري بريف عن تربة الترس بالقول: "... في المغرب، عندما يتحدث الناس عن الترس، يستعملون عبارات تدل في مجملها على إعجابهم بهذا النوع من التربة. فهم يقولون: "هنا يكفي أن نرmi بالحب لكي ينبت"، أو "هذه أرض دكالة سعيدة". وفي الواقع، نتفهم هذا الإعجاب إلى حد ما، فعندما نسافر من مراكش إلى الجديدة، مثلا نعبّر، لمدة يومين تقريبا، منطقة الرحامنة، وهي أرض قاحلة، غير مزروعة بما فيه الكفاية، ثم سرعان ما نصل إلى أرض الترس. هنا تظهر مفارقة عظيمة. فهذه الأرض لا وجود لأحجار عارية. لا نرى إلا حقولا ممتدة من الزراعات غاية في الروعة. السر ربما في هذه التسمية هو التباين بين منطقتين، الأولى قاحلة تقريبا، والثانية ذات محاصيل رائعة..."

Brives. A, Voyages au Maroc (1901-1907), Alger, 1919, p 580.

نص مأخوذ من كتاب حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 145-146.

⁷ - يتعلق الأمر بفئة الأعيان، حسب ريمي لوفو Remy Leveau فئة تُحوز ثلاث رساميل أساسية: سلطة التدبير، سلطة امتلاك المجال، سلطة تصريف القرار ومراكمة الرأسمال العلائقي... هذه الرساميل تؤهل هذه الفئة من بناء قاعدة سوسيواقتصادية صلبة، تجعلها قادرة على التحكم في الأرض والماء، وقادرة على بناء شبكة من العلاقات النافذة. انظر:

Leveau. R, Le Fellah marocain, défenseur du trône, Presse de la fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1976, p 7.

حول مفهوم الواجهة الاجتماعية من وجهة نظر تاريخية يمكن العودة إلى: المنصور محمد، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2006، ص ص 27-28.

من فائض القيمة الذي توفر لديهم داخل هذه المجتمعات. يتعلق الأمر بوجاهة اجتماعية تنتقل من جيل لآخر عن طريق الوراثة². وجاهة تأتي من بعيد مُعززة برصيد جينياالوجي وتاريخي وديني تناقلها عامة الناس بتعبيرات مختلفة من قبيل: "مول البلاد" "مول الماء" "مول الدار الكبيرة" "قريب من المخزن" "كلمتو متطيحش للأرض"³ "مول الشكارة" "صاحب العمامة" "مول خيمة الشوا"... يحيل هذا السجل الدلالي الشعبي على ظاهرة الاستعراض المتواصل لثراء الرأسمال الرمزي والمادي⁴، مثلما يسمح بالكشف عن صراع الفئات الاجتماعية الذي هو بالنهاية صراع مقولات⁵. ومن شأن المسألة التاريخية أن تكشف عن طبيعة الديناميات الخفية، وأن تتوقف عند حدود العلاقات والقطائع التي تنطوي عليها حقول النسق في اتساقه واختلاله، ثباته وتغيره، اتصاله وانفصاله عن باقي الأنساق الأخرى.

مصطلح النسق المائي في علاقته بالترتيب الجبائي كثيرا ما اعتراه بعض الانزياح والانعطاف في التجربة التاريخية المغربية، ما جعله يحتفظ بفائض الحضور والقيمة في مختلف تفاصيل وجزيئات الحياة اليومية، واقتضاء إحالة على تحول مجتمعي عميق أتى على انقسام العائلة الكبيرة، ودفع نحو تفتت الاستغلاليات الزراعية وتقلص الحصص المائية... هذا التحول هو من اضطرورثة الأرض إلى تفويت الأرض والماء، وجعل الأسرة المغربية تبدو كالكوكب المتفجر⁶.

ثمة ملاحظة وجيهة تسترعي بالانتباه، أغلب الرحلات التي جاب فيها الأوروبيون بادية المغرب في القرن التاسع عشر تمت خلال فصل الصيف. لا غرابة أن نُصادف داخل متن هذه الرحلات عبارات تُحيل على مواسم الحصاد وطقوسه وأدواته، على أنظمة الجريان المائي وروافده، على قطعان الماشية المنتشرة في السهول بعد الحصاد، أو المنسحبة إلى الجبال بعد استهلاك ما وفرته الأرض الواطئة من كلاً⁷... على هذا الأساس، تندرج الرحلة المرجعية

¹ - إعادة تشكيل الخريطة العقارية خارج مقاسات الضيعة الفيودالية أو الكومة الشعبية التي حاول البعض أن يقيسها على الجسد المغربي. هذه المسألة نبّه إليها جاك بيرك في أكثر من مرة، حينما دافع عن كون الخريطة العقارية المغربية قبل الاستعمار غير قابلة للنمذجة والاستنساخ من تجارب أخرى بالقول: "لم يعرف المغرب الكبير في الماضي لا نمط الضيعة الفيودالية، ولا كمونة حقيقية"، ما جعله يفضي إلى اعتبار أن الظاهرة القبلية برمتها ظاهرة ثانوية، اصطناعية إلى حد ما، ما يجعلها قابلة للانقطاع والانكسار... انظر: بيرك جاك، في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، الأنثروبولوجيا والتاريخ، م س، ص 123-125.

² - نفسه، ص 28.

³ - العطري عبد الرحيم، الأعيان في المجتمع القروي المغربي، مجلة إضافات، العدد العاشر، ربيع 2010، ص 179.

⁴ - الماء والأرض وثرء العلاقات ثلاثية صناعة الوجاهة الاجتماعية داخل المجتمع القروي، أو ما يصطلح عليه بـ "مول الدار الكبيرة" حتى شاع بين الناس قول: "دار الله يخلق عمرها ما تخرف" إننا نتحدث هنا عن استعراض الوفرة في مجتمع فقير من خلال تنظيم "الزرد" خسارة بطعم الريح في الأفق المنظور... العطري عبد الرحيم، الأعيان في تاريخ المجتمع القروي المغربي، م س، ص 18.

⁵ - زرين محمد، الاستراتيجيات العقارية باعتبارها رهانات اجتماعية تاريخية، المحيط القروي لسيدى قاسم نموذجاً، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2008، ص 83.

⁶ - التوفيق أحمد، المجتمع المغربي، م س، ص 118.

⁷ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 25.

لشارل دوفوكو، بما هي تصوير جغرافي لحالة الرخاء الزراعي التي عرفتھا بادية المغرب بعد سنوات العجف الخمسة (1878-1883). الحاصل أن الأطروحة الاستعمارية وجدت ضالتها في موضوع الجبايات كمقياس مُحدد لرسم جغرافية الحضور المخزني.

IV- الماء وأزمة المعاش في بادية القرن التاسع عشر:

أزمة المعاش هي في الأصل هيكل منسجم ومتوافق مع بنية الاقتصاد المغربي، بما هي امتداد لوضع مُزمن ضمن تاريخ طويل التشكل، وتعبير عن عجز دائم ومستدام لبنيات المجتمع القروي في معالجة مشكل الإنتاج...نمط اقتصادي تحكمت فيه مُحددات تقليدية ضمن بنية إنتاجية عليا فرضت نفسها على ايقاع الحياة البشرية. بنية كانت تسعى إلى ضمان تأمين المعاشات أكثر من تحقيق التراكم والفائض؛ مع ما رافق ذلك من تقديرات ديموغرافية غير دقيقة التوصيف¹.

حول هذه المسألة، تتأني للباحث في التاريخ المعاصر إمكانية الوصول إلى تقارير الأوروبيين عن مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فيخال نفسه أنه قادر على حسم النقاش الديموغرافي. سرعان ما يتبدد زعمه وسط زكام الأرقام التي يصادفها. وعلى أي، فمجمال الأرقام التي حاولت أن تقترب من النقاش الديموغرافي لا تعدو أن تكون سوى تخمينات شخصية تفتقد للمعقولية العلمية. في ماذا تفيد هذه الأرقام؟ إنها تسمح بقياس حجم الموارد المائية المتاحة مع إجمالي عدد السكان.

لنحاول أن نشرك القارئ في جزء من هذا النقاش، سبق لإيركمان J. Erckman في كتابه "المغرب الحديث" الصادر مؤلفي القرن التاسع عشر أن قدّر إجمالي السكان في 8 ملايين نسمة². وزاد عليه ايميليان رينو E. Renou بأن العدد يتراوح ما بين 5 و8 ملايين، في ما بالغ شارل تيسو Ch. Tissot حينما جعله في 12 مليون. ومع التاجر الانجليزي ج.ج. جاكسن J.G. Jakson وصل التقدير إلى 14.886.000 نسمة، منهم 380.000 في فاس، و270.000 في مراكش، و110.000 في مكناس، وبأحواز سوس 380.000 في اشتوكة، و87.000 في مزكينة، و80.000 في هواره³. وحاول الاقتصادي الفرنسي بول لوروا P. Leroy- Beaulieu الذي اعتمد على طريقة مخالفة لتقدير عدد السكان انطلاقا

¹ نجد عند الجغرافي دانييل نوان Daniel Noin محاولة احصائية لتقدير ديموغرافية المغرب ما قبل الاستعمار التي يحددها في 4.800.000 نسمة. بينما يصل تقدير ساكنة البادية المغربية عنده إلى حدود سنة 1900 حوالي 90%. أي بنسبة كثافة تتراوح ما بين 10 و35 نسمة في كلم مربع...من جهته يُفند الاقتصادي ادريس بن علي هذا التقدير ويعتبره مبالغ فيه. انظر

Ben Ali. D, Le Maroc précapitaliste, Société marocaine des éditeurs réunies, 1983, pp 42-43.

² Erckmen. J, Le Maroc Moderne, Aine coloniale, Paris, 1885, p 6.

³ استيتو محمد، الأزمة الديموغرافية في تاريخ المغرب الحديث، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، وجدة، 1999، ص 126. في الأصل، قُدم هذا العرض في يوم دراسي حول "الوضعية الديموغرافية في حوض المتوسط: مقاربات تاريخية ومنهجية"، ضمن الحلقة الأولى، 16، كلية الآداب والعلوم الانسانية، وجدة، 13 نونبر 1996، من تنظيم مجموعة البحث في الديموغرافيا التاريخية.

من افتراض أن الكثافة السكانية في الشاوية تصل إلى 20 ن في الكيلومتر مربع، وعمّم نفس القاعدة على مجموع المجال المقدرة بـ 180.000 كيلومتر مربع، فتوصل إلى 3.600.000 نسمة، مضيفاً إليها مليون نسمة، و320.000 كيلومتر مربع في المرتفعات والأراضي القاحلة، فوصل العدد إلى حوالي 4.860.000 نسمة¹. عموماً تكاد كل التقديرات الديموغرافية التي تتبع سكان المغرب قبل الحماية تحصرها ما بين 5 و10 مليون نسمة.

منهجياً، القرن التاسع عشر قرن مفاهيم ومقولات جديدة، أتى بها سياق الاحتكاك مع الآخر، في وقت لم تكن البنية العامة قادرة على استدماج هذا الجديد. قوبل تجديد القرن التاسع عشر بذهنية ثابتة تجري "الأمور على العوائد" و"ترك الحبل على الغارب" وتجعل "الخرق يستع على الراقع"².

من يعود إلى مُجمل الكتابات الإخبارية لهذا القرن يتوقف عند عنف اللحظة ورجّتها القوية في الوجدان المغربي. وأساساً، يتوقف عند عمق وفداحة الإحساس بهذا التحول الجديد في استوغرافيا المرحلة من خلال كتابات الناصري والمشرقي والسملالي...؟. وجد مغرب القرن التاسع عشر نفسه أمام موجات متعاقبة من الأجانب من ذوي الأغراض والمصالح المختلفة. مُتغيرات ناشئة أُجبرت سلطة المخزن ضرورة السهر على ضمان أمنهم وسلامتهم، وحرية مرورهم ومراقبة أنشطتهم... حتى كادت الأمة كلها أن تصبح حماية وخطأ وأصحاباً³. لقد أدرك المخزن الحسني أن فداحة العسف الجبائي الذي تعرضت إليه بوادي وسهول المغرب في فترات الهزات الكبرى من تاريخ البلاد هو من حَمَل العامة من البسطاء إلى البحث عن الاحتماء بالأجنبي، مثلما أيقن هؤلاء القواد أن عهد التدخل الأجنبي سيحرّمهم من عادة الإثراء الفاحش وقت الأزمات على حساب الرعية⁴، وأكسبها أخلاقيات تتميز بالمخاتلة والمُداهنة: ثعالب مأكرة أمام الخصوم، وخدام وضعاء أمام أولياء النعمة⁵.

كل الملاحظات التي دوّنها الملاحظون الأوروبيون عن السلطان الحسن الأول صنفته في خانة السلاطين العظام في تاريخ البلاد. سلطان رفع سقف الطموحات السياسية، وضمن استمرارية التوازنات، وراهن على ورقتي القواد في

¹ - نفسه، ص 127.

² - سجل دلالي تكرر في متون الكتابة الإخبارية للقرن التاسع عشر. انظر: بوجندار الرباطي، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، مخطوط الخزنة العامة، رقم د 1287؛ السباعي محمد بن ابراهيم، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، مخطوط الخزنة العامة، رقم د 1346، وأيضاً: المشرقي محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل المهيبة في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق بوهيلة إدريس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف ابراهيم حركات، الرباط، 1992-1993.

³ - فقهاء الوقت ربطوا ظاهرة الحماية القنصلية بضعف الإيمان وغياب الحمية الوطنية، وقاموا بتكفير أصحابها أو الساعين إلى طلبها...راجع: المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الطبعة الثانية، 1985، ص 326.

⁴ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، مرجع سابق، ص 145.

⁵ - نتحدث بعض النصوص الإخبارية عن سيادة عقلية النهب والسلب، ونماء مظاهر الجشع والسرقة واللصوصية داخل المجتمع المغربي كسلوكيات مألوفة ومتداولة.

البوادي والأمناء في المدن، وأحيا سلسلة الحركات المخزنية التي توقفت بتوقف نبض قلبه¹. ارتدت البلاد على عقبها، وأحالتها على قوس مفتوح من المحن والفوضى والاضطراب.

أ- الماء والحركة: تأديب/ تعطيل الانتاج

كانت الحركة السلطانية ترسم غاياتها وأهدافها بعناية فائقة، وتحدد ترتيباتها المجالية واللوجستكية بكياسة واضحة خلال فصلي الخريف والشتاء عموماً. يخبرنا الدكتور وايسجربير أن الحركة كانت تترجم معنى رمزياً في نفوس العامة، من خلال استعراض مظاهر الأبهة والفخامة وعناصر الهيبة². استعراض القوة دون رغبة في استعمالها إلا عند الاقتضاء. لم تكن الحركة المخزنية تسير في منحى خطي، بل كانت تنقلاتها بين القبائل تختبر قدرة المخزن على دقة انتقاء المواقع، وقدرته على اختيار نقاط الماء الوفيرة التي تؤمن شروط الراحة والأمان.

طبيعي أن تُضفي عليها الكتابات الإخبارية مُسحة دينية، وتقارنها بحركة الفتح الإسلامي، لكن ذلك لا يعدو أن يكون كما انتبه إلى ذلك الطيب بياض "تعويضاً سيكولوجياً عن مشروعية مفتقدة لتجاوزات ظلت ملازمة للتحرك المخزني"³. مثلما لا نوافق الرأي الأجنبي الذي دافعت عنه عموم الاستوغرافيات الأجنبية الذي انتصر إلى أن الحركة فرصة لتأديب وجبي واخضاع واستعراض القوة. الحاصل، أننا أمام مشهد سياسي مركب، يرتقي لأن يعتبر "ظاهرة شمولية مركبة" بتوصيف مارسيل موس، لا يمكن فصل جزئه عن كله، يقرأ في مُشتملاته الكبرى.

عملية الحركة المخزنية كان تتحرك لردع المتمردين ورد المظالم، لعزل العمال واستيفاء الجبايات، وتحديد الإبراز سلطة المخزن⁴. باختصار لحظة سياسية يترتب عنها تغيير جديد: تولية عمال وقضاة جدد، إصدار ظهائر توقيع واحترام، وفصل وتحكيم في نزاعات الأرض والماء... لكن هذا لا يجب أن يحجب وجهها آخر أشد قتامة في المشهد، مشكل تموين جيش عاطل لا يتلقى رواتب نظامية من المخزن. نقرأ عند نيكولا ميشيل توصيفا دقيقاً لهذا المشكل المزمن "...فقد كانت حركاته (الحسن الأول) بركات ومنافع، من أجل تهدف إلى تأمين مئونة جيش متحرك، كان

¹ - سبق للاقتصادي نيكولا ميشيل أن اعتبر الحركة مؤسسة في تاريخ المغرب العلوي، ظاهرة مركبة ومُعقدة تضرب بعمق في تاريخ المغرب، أداة ضبط وتحكم في المجال، وعاصمة متحركة للسلطان تترجم حضور المخزن في الأطراف. انظر:

Michel. N, Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, Edition Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, T2, 1997, p 572.

² - Weisgerber. F, Au seuil du Maroc, Ed La Porte, Rabat, 1947, p48.

³ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص ص 156-157.

⁴ - المودن عبد الرحمان، البوادي المغربية قبل الاستعمار. م س، ص ص 340-347.

مُجرد توقفه ينذر بانتشار المجاعة والفوضى في صفوفه، فكان لا بد من حل ترقيعي لمشكل التموين عبر تحرك الجيش في المجال وأكل أرزاق سكان البوادي...¹.

كثير من الملاحظين الأوربيين وضعوا الحركة المخزنية في تاريخ المغرب بمنزلة الجائحة التي تنزل على البلاد والعباد مثل "الجراد الذي يحرم القبائل من معاشها"². لا سبيل بعد كل ما تقدم إلا إعادة طرح الإشكالات التي ساقها الطيب بياض في مؤلفه "المخزن والضريبة والاستعمار" عن الحركة في تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر: فهل كانت الحركة ضرورة لا تنازل عنها؟ هل كان بالإمكان الاستعاضة عنها بأساليب أخرى؟ هل كانت حلا وحيدا من بين حلول أخرى ممكنة، وحتى إن كانت حلا وحيدا هل كان تديرها قابل للتغيير³؟

الأكثر من ذلك كان تحرك المخزن عبر المجال يشبه إلى حد ما عملية طبية مستعجلة. كان يروم من خلالها توريد جسده بدماء جديدة لإحياء أنسجته وخلاياه... وأساسا "ثيرمومتر" لقياس درجة حضوره أو غيابه في الهوامش والأطراف. لكن عوض أن تؤدي هذه الحركة وظيفتها، ارتدت على عقبها، وعمقت فداحة الاحساس بتغول المخزن الأمني الجابي، وبلورت اقتصاد الغنائم والجبايات، وأنتجت عقلية الحراك الانتهازي الذي يهتبل أي فرصة لمراكمة الثروة عوض أن تؤدي إلى تعزيز فاعلية الفلاح المنتج في النسيج الاقتصادي، وعطلت بذلك آليات الإنتاج، وأعادت دورة الإنتاج إلى الوراء.

سلاطين القرن التاسع عشر ضحايا قرن حُسمت فيه المقادير، وتحددت فيه معالم الوعي بالتفاوت. لم يكن بمقدور أي سلطان مهما بلغت جدارته كياسته السياسية أن يتفادى قدرا محتوما إلا عملا على تأجيله أو تعطيله أمام عقلية تقليدية قررت إبقاء الأمور على عوائدها. عدم الرغبة في الخروج عن العوائد والتقاليد والمألوف ارتسمت كخيارات استراتيجية للمخزن على حساب أي تكتيك مرحلي ذي نزوع تجديدي⁴. نحن إزاء بادية منخورة، مشلولة، معاقة، مصابة بمرض مزمن... ومخزن هجر أطرافه لمدة ستة عقود⁵ تأكيداً لمقولة خلدونية تشفعت بها كثيرا ملاحظات الأوربيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر "دولة قوية في المركز، ضعيفة في الأطراف".

¹ - Michel. N, Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, op. cit, p 575.

² - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 158.

³ - نفسه، ص 159.

³ - نفسه، ص 206.

⁴ - نفسه، ص 214.

⁵ Laroui. A, Les origines, op. cit, p 159.

بادية تتوفر كل شروط وعناصر الإعاقة التي حالت دون تراكم الإنتاج المُولد لطبقة اجتماعية واضحة المصالح جراء آفة الإرهاق الجبائي¹.

قدّر ميشو بليز قيمة التملص الضريبي بحوالي النصف وثلثي القدر الحقيقي الواجب أدائه². مقابل هذا الوضع سمح غياب المساواة في أداء الضرائب بين الناس في تزكية قيم الزبونية في الممارسة الجبائية³. دفعت بعض خُدام المخزن إلى احتجاج قدر كبير من الأموال قبل إرسالها إلى دار المخزن⁴، أو ما كان يُنعت بلغة الوقت بـ "الكشينة السعيدة". فـ "المبالغ المبعوثة كانت تفقد قيمتها بمجرد ما كانت تقطع المسافة الفاصلة بين دار القايد وأبواب البنيقة"⁵. نسوق في شأن ذلك، مثال قبيلة الرحامنة، لقد سبق للباحث عبد الرزاق الصديقي في مونوغرافية حول الرحامنة أن وقف عند فداحة الإرهاق الضريبي عند هذه القبيلة التي كانت تدفع ست مرات في السنة على الأقل مؤونة إلى الخليفة السلطاني إبان غدوه إلى المناسبات السلطانية ورجوعه منها⁶.

تجربة الترتيب بالنهاية لم تكن تمتلك عناصر النجاح التي قد تحولها من حُلْم إلى حقيقة، عناصر الإخفاق توجد في ذاتها. لأنها اصطدمت بجدار سميك يفصل بين محافظة دينية متشددة، وانفتاح إجباري. نقرأ عند الفقيه السباعي محمد بن ابراهيم هذا النص المُعبر: "...السلطان أنشأ ترتيباً عجيباً، استحسنة العامة لأن به سيحصل الرفق بالرعية، وتنحسم مادة جور العمال بالكلية، وحسرة الفقيه عليه لأنه انخرم ولم يدم..."⁷. لم يكن لهذه الضريبة إلا أن تزيد في ترسيخ سيرورة المخزنة داخل البلاد، خاصة في لحظات الحاجة والعوز. ظهر المخزن الحسني وكأنه يمتلك سلاحاً سيكولوجياً فعالاً يشهر به بركته في آخر لحظة لينقذ رعيته من الموت جوعاً بفضل ما أخفاه في

¹ - يُقدم جرمان عياش في هذا الصدد بعض الأرقام التي تؤكد فكرة ارتفاع التكاليف الضريبية على القبائل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان مجموع ضرائب دكالة 70000 ريال سنة 1861، تم ارتفع هذا الرقم إلى 90000 سنة 1862 ليصل سنة 1963 إلى 100000. التناسب هنا يعطينا ارتفاعاً بنسبة 43 % خلال عامين. أما بخصوص الشاوية فقد رجح جرمان عياش أن تكون حصتها من الجبايات قد تضاعفت أربع مرات، في حين انتقلت مداخيل عبدة من الضرائب من 30000 مثقال سنة 1864 إلى 50000 سنة 1865 بزيادة تقدر بـ 65 %. راجع: عياش، جرمان، دراسات في تاريخ المغرب، م س، ص 92.

² - Bellaire. E. M et Salomon. G, Les tribus arabes de la vallée du Lekkous, Archives marocain, Vol VI, 1906, pp 269-279.

³ - Bellaire. E. M, Les impôts marocains, Archives marocains, n° 1, Mars 1904, p 62-64.

⁴ - تجب الإشارة إلى التحول الهام الذي طبع السياسة الجبائية بمغرب القرن التاسع عشر، تحويل الضرائب من عينية إلى نقدية، وهو ما جعل عهد الحسن الأول يبدن بثورة الدباغين لمجابهة هذا التحول.

⁵ - الصديقي عبد الرزاق، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ تحت إشراف ابراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988-1989، ص 175.

⁶ - نفسه، ص 203-204.

⁷ - السباعي محمد بن ابراهيم، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، مخطوط الخزنة العامة بالرباط، رقم د 1346، ص 126.

مخازنه من عائدات ضرائب عينية¹. نجد ذلك صدى في كتابات وتقارير الملاحظين الأوروبيين "كسب قلوب الجياع واخضاع المتمردين".

كان مخزن القرن التاسع عشر واعي الإدراك بأن هذا الترتيب لا يمكن أن يكتب له النجاح دون ترتيب لأمر آخر خاصة على مستوى تأهيل البلاد إن على مستوى البنية الذهنية، أو على مستوى التأهيل المادي والقانوني.

ب- الماء والترتيب في الأطلس الكبير الغربي:

في مجال الأطلس الكبير عزز الترتيب الحسني من توغل سلطة قواد الجنوب المغربي. حول هذه المعادلة أفاضت الاستوغرافيا بكثير من الاسهاب². تجربة ذات خصوصية لا نجد لها مثيلا في مناطق أخرى، جعلت ما سموها بـ "أسياد الأطلس/ سادة الأطلس" يُراكمون اقطاعات زراعية وحقوقا مائية في جهة، ويدفعون عامة الجنوب نحو مراكمة الفقر والبؤس وأعمال السخرة. نقرأ عند بيير كليين ما يلي: "...الفلاح لم يكن جائعا، ولكنه في حاجة دائمة إلى المال لإشباع قائه، فبدأ يقوم بالادخار والاكتناز، فكان لهذا الموقف الجديد مفعولوه القوي على التجارة الأوروبية، حيث انخفضت الصادرات..."³، وفي موضع آخر نقلا عن شهادة ضابط من البحرية الألمانية يدعى كارو Karow حول تلقيه شكاوي التجار الأوروبيين سنة 1905 المقيمين بالموانئ يفيد نفس الباحث "...لم تُجَب الضرائب، ولم يعد الأهالي يعتبرون انتاج ما يفوق قوتهم أمرا ضروريا، ولذلك لا يوجد شيء للتصدير تقريبا..."⁴.

وعليه، توزعت أراضي بادية المغرب إلى أراضي غير مسقية، بلاد البور، وأراضي مسقية تعرف باسم بلاد الساقية. عن هذه الثنائية يتحدث جان دريش Dresch. [قائلا: "...في مقابل الأراضي غير المسقية، بلاد البور، هناك أراضي مسقية تعرف باسم بلاد الساقية... ويمكن التمييز بين نمطين رئيسيين من السقي: سقي بأسداد (السدود) تحويل الماء، وسقي بأسداد جمع الماء. في الأحواض النهرية الكبرى التي تغذيها السيول الآتية من قمم الجبال ذات المطر الغزير، والمكسوة بالثلوج مدة طويلة من السنة، يكون الماء وفيرا خلال السنوات العادية، إذ يكفي تحويله دون الحاجة إلى جمعه في أسداد. في بداية فصل الربيع يعمل الفلاحون على إنشاء أسداد تحويلية، تعرف باسم "أكوك" بواسطة الأحجار وأغصان الشجر، وهي أسداد هشة بطبيعتها، تدمرها السيول بسهولة، لكنهم يعيدون بناءها بسرعة. ومن هذه الأسداد تخرج سواقي تحويلية يسميها سكان الأطلس "تاركة"... تجري على السفح من الأعالي نحو الأسافل فوق الحقول المحروثة في شكل مدرجات، فتسقيها حقلا

¹ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، مرجع سابق، ص 233.

² - Jouannet. J, L'évolution de la fiscalité marocaine depuis l'instauration du Protectorat, Librairie général de droit et de jurisprudence, Paris V, t2, 1953, p119.

³ - كلين بيير، الاقتراضات المغربية، م س، ص 53.

⁴ - نفسه، ص 53.

بعد حقل...ومعلوم أن مزارعي الأعالي أوفر نصيبا من مزارعي الأسافل، لأنهم يأخذون ما يحتاجونه من الماء. وإذا كان الجبل يرتبط بأكمله بنفس القبيلة أو بقسم منها، فإن الاتفاقيات المبرمة من طرف الأجداد تلزم سكان الأعالي باستفادة سكان الأسافل من الماء في أوقات محددة، وفي حالات أخرى تكون هذه الاستفادة مقابل عطية عينية، أو بالقوة، كما يحصل في الماضي...وعموما تفسد هذه الاتفاقيات في نهاية فصل الصيف أو خلال السنوات الجافة، حيث لا تكفي المياه لسقي المزروعات الصيفية...¹

فكيف تأتي هذا الصعود لأسرة الكلاوي؟ يُجيبنا بول باسكون P. Pascan في هذا الصدد بما مفاده "....يتفق كل المؤلفين المغاربة والأجانب الذين درسوا هذه الحقبة أن الصعود الحقيقي لكلاوة كان إثر مرور مولاي الحسن في الأطلس، ونعلم أنه بعد القيام بحملة على تافيلالت أراد أن يعود إلى مراكش عن طريق مضيق تلوات، وقد استقبله المدني استقبالا حافلا فخما بحيث جعل تحت تصرفه الخيول المُسرّجة من فركلة إلى سيدي رحال، ومد كل حاشية السلطان بالمواد الغذائية لمدة 25 يوما. وقد أكد المعاصرين لذلك الحدث على فخامة وأبهة الاستقبال وعلى الفضل الكبير الذي أولاه للمدني بتعيينه خليفة على كل الجنوب وأهداه مدفعا من نوع كروب Krup وأسلحة حديثة..."².

يعكس هذا الاقتباس تلاقي وانصهار مصطلحين سياسيتين، مصلحة المخزن في تأمين رقابته على الأطراف والهوامش، ورغبة الأسرة الناشئة في تزكية شرعيتها بمباركة السلطة المركزية. تقارب مصطلحي فتح قوسا تاريخيا امتد طويلا في تاريخ منطقة الجنوب المغربي، وفوّت على البلاد والعباد فرصة الانتقال من اقتصاد يطبعه الكفاف والقلة إلى اقتصاد رأسمالي منفتح على تحولات الضفة الأخرى للمتوسط.

عودة إلى مسألة الترتيب، كشف هذا الإصلاح الضريبي عن شيئين أساسيين: الأول مجالي، حيث تعكس ضريبة الترتيب تغييرا في مقاييس السلطة، بدأ الترتيب من الجنوب أولا ثم انتقل إلى المركز عكس باقي الضرائب الأخرى...والثاني بلاغي خطابي، يُظهر فشل المخزن في إقناع الرعايا، ونجاح العلماء في التحريض على الرفض. عموما لم يتوفق المخزن في خلق الإجماع والتوافق حول مبادراته الإصلاحية بسبب تصدع أجهزته وانشقاقها. كما أحدث الإصلاح الجبائي بمغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اهتزازا عميقا في وجدان مغاربة العالم القروي، وذكّى نار الاضطرابات والفوضى والفتن، وأخضع المجتمع برمته لتحول قيمي جعل خاصته وخاصة خاصته تحتمي

¹ - Dresch. J, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du Grand Atlas, Paris, 1941, p 11-13.

ورد هذا النص مترجما في كتاب حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 149.

² - باسكون بول، الفترات الكبرى للقايدية، ترجمة زبيدة بورحيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد الخامس والسادس، 1989، ص 83.

بالأجنبي ضد أي تسلط مخزني، مركزي أو محلي¹...وأناخ بكلكله وفق العبارة الوقتية المعروفة. عبئ ضريبي جرّ المجتمع جراً نحو التطبيع مع قيم الزبونية والمصلحة والانتهازية...وإلا كيف نستطيع أن نفهم جشع الكلاوي وورع الوزاني قبيل الحماية إن لم ندرجه في إطار المصلحة الوقتية²؟

يُسجل المؤرخ دانييل ريفي موقفه بهذا الخصوص، حينما يقول أن كبار القواد باستثناء المتوكي وسعيد الكلوي بحثوا عن الحماية الفرنسية بعد 1909 بمن فيهم كبار مساندي الحركة الحفيظية³. وجد السلطان عبد الحفيظ أمامه "أرستقراطية عسكرية" وفئة من التجار تجمعهما مصلحة مشتركة، وزعماء قبائل ألفوا الجشع والنهم الجبائي ورجال الدين والشرفاء التي اعتادوا الإعفاء⁴ من جهة، وقروض بنكية بدت مثل حبل يخنق ما تبقى من سيادة البلاد⁵. التي أعدم أي إمكانية للرجوع إلى الوراء، أو تجريب مناورة اللعب خارج قطعة الشطرنج الفرنسية.

يتعلق الأمر عموماً بالحديث كما يقول نيكولا ميشيل بـ "اقتصاد معاشي" ظل يعيد نفسه من دون طبقة مزارعين. نمط معاشي تربى في حضن علاقات ثنائية مطبوعة بالتشنج؛ بين بادية ظلت سجيناً اقتصاد القلة والكفاف، وحاضرة ظلت محرومة من وسائل تحقيق التراكم المفضي إلى التحول⁶. وكلاهما، يندرجان ضمن ما يسميه نيكولا ميشيل بـ "تراكم الأزمة" التي تدمر شروط أي تطور أو تراكم، وتحكم بالتالي على الهياكل الانتاجية بالثبات والركود⁷.

ت- الماء وفرضية الركود الديموغرافي:

إذا عدنا إلى أدبيات التاريخ الحديث، نستطيع أن نعاين بسهولة فرضية وجود ركود ديموغرافي، تحكمت فيه متلازمة الحروب والمجاعات والأوبئة...رغم ميل المجتمع القبلي نحو الإنجاب والتكاثر، وهيمنة قيم اجتماعية تعلي من العصبية القوية اجتماعياً التي توفر السواعد البشرية القادرة على مواجهة المستوى التقني الضعيف لوسائل

¹ - أزمة الهوية والوجدان التي جعلت الناس يتنكرون لهويتهم ويطلبون الخلاص بواسطة الحماية الشخصية تظهر في قول محمد الحجوي "ولم يبق غني بفاس بل وبالقبائل القريبة من فاس أو الثغور وبمكناس ومراكش وغيرها من المدن إلا وقد نال الحماية الأجنبية".

² - يورد كوستاف بابان مقولة ترددت على لسان المغاربة: "...يوم تطردون الكلاوي سيحكمكم الشلوح فوق أعناقهم إلى أعلى قمم الأطلس. بابان كوستاف، الباشا الكلاوي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا الكلاوي، م س، ص 79.

³ - Rivet. D, Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc, 1912-1925, Ed. Harmattan, Paris, 1988, pp 88-89.

⁴ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 306-307.

⁵ - Allain. J.C, Agadir 1911, une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc, Publication de la Sorbonne, 1976, p 41-69.

⁶ - يتحدث أحمد التوفيق بخصوص هذه العلاقة عن ظهور فتاوي فقهية تدعو إلى تكفير أهل البادية. انظر: التوفيق أحمد، المجتمع المغربي، مرجع سابق، ص 595. وأن هذه الفتاوي تقرأ في سياق الرعب السيكلوجي للمدينة المغربية التي كانت ترتعب من أي اجتياح قبلي محتمل، ما فوّت على تاريخ المغرب تشكيل علاقة جدلية بين بادية تنتج ومدينة تستهلك وتستثمر.

⁷ - حبيدة محمد، عرض لكتاب نيكولا ميشيل: اقتصاد المعاشات في مغرب ما قبل الاستعمار، هسبريس تمودا، العدد 40، 2005، ص 119.

الإنتاج¹. وجب الإقرار بتفصيل أساس، رغم عنف الهزات والوثبات الدورية التي كانت تصنعها الأوبئة والجوائح والمجاعات (مجاعة 1878-1883) من حين لآخر، فقد استطاع هذا النظام المعاشي أن يحافظ على توازنه واستقراره بسبب الجبال التي كانت تعيد بانتظام لعب دور الخزان البشري المزود بالسكان للمناطق الفارغة.

صراحة لا نوافق رأي بعض باحثي المرحلة الكولونيالية وحتى ما بعدها حينما يتم اعتبار التعاقب الآلي للمجاعات في تاريخ المغرب مظهرا من مظاهر غياب الإرادة في التدبير الاقتصادي. لكننا نتوافق معهم في جزئية غياب صلة الوصل بين الإنتاج الزراعي القروي والرواج التجاري المدني كخلل بارز في مشهد القرن التاسع عشر الميلادي.

ظلت البنية العامة لمجتمع القرن التاسع عشر تفتقد إلى طبقة قائدة بالمعنى الصريح للكلمة²، طبقة واعية بذاتها، قادرة على أن تدافع عن مصالحها في الزراعة أو التجارة³؛ مثلما افتقد مخزن الأمس إلى سند اجتماعي يُدافع له عن اصلاحاته⁴ يترجمها عبر مشاريع ملموسة، ويجعلها مقبولة من طرف العامة. وحتى إن دافع البعض عن اقتناع بعض أطر نظيمنة المخزن بسياسة الإصلاح، فإنه لا تظهر في المحصلة على أنها خلاصة لمصالح مهيكلية ومُتدرجة؛ كما لا تظهر مسنودة بتنظيم اجتماعي يحتضنها في شكل طبقة تدافع عنها⁵. المخزن الذي نتحدث عنه هو بناء تراكمي مُركب، لا يتخذ دلالة اقتصادية ولا معنى سياسي ولا مضمونا اجتماعيا⁶.

الواقع، أننا نتحدث عن نظيمنة نسجت نفسها في سديم علاقات الولاء والزبونية والالتكالية، أعاقت تطور المجتمع في كثير من اللحظات، ولم تسمح بأن تظهر متجاوزة في مسيرة الركب، حتى وإن أظهرت بأنها مقتنعة بالتغيير، فالأمر لا يعدو أن يكون مُناورة تكتيكية لخلط الأوراق، وكسب رهان التأجيل، تأجيل قدر محتم. نظيمنة راهنت على منطق إظهار القوة لتجنب استعمالها. ففي غياب فرز اجتماعي واضح، وإطار حاضن لتشابك المصالح

¹ - استيتو محمد، الأزمة الديموغرافية في تاريخ المغرب الحديث، م س، ص 129.

² - حاولت دراسة نورمان سيكار أن تدافع عن وجود بني مجتمعية اقتصادية هيأت شروط نشوء بورجوازية عصرية في المغرب قبل الاستعمار. لا تخفى دواعي هذا التأليف، محاولة تبرير وجود بورجوازية فاسية قبل الاستعمار. انظر: سيكار نورمان، البنى المجتمعية الاقتصادية ونشوء بورجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار، ترجمة محمد نجمي الروداني، مراجعة محمد معتصم، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد 20، 1995، ص 151-204.

³ - دفع القرن التاسع عشر بمفاهيم اقتصادية جديدة في سياق الاحتكاك مع الآخر. من بين المفاهيم التي تثير تحفظ بعض المؤرخين خلال هذه الفترة نجد مفهوم "البورجوازية المغربية" الذي استعمله نورمان سيكار وجون واتربوري. يرد بوطالب حول أحقيتنا في استعمال مفهوم البورجوازية في السياق المغربي، ويدعو إلى الحذر من مزالق الأنكرونية التي تعتمد على إسقاط قوالب مفاهيمية على سياقات تاريخية مغايرة. انظر: بوطالب إبراهيم، مفهوم البورجوازية في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 18، 1999، ص 43-59.

⁴ - نحيل هنا إلى أن كل المتابعات التاريخية التي توقفت عند نظيمنة المخزن في السياق المغربي استوتحت ما كتبه ميشو بليير في الموسوعة الإسلامية: Bellaire. E.M, Makhzen, Encyclopédie de l'Islam, t4, Nouvelle Edition, 1991, p 131-135.

⁵ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 37.

⁶ - أكنوش عبد اللطيف، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987، ص 118.

والرهانات، وتنافس شرس حول وسائل وعوامل الإنتاج، وفي غياب أي طموح استثماري لكل الفاعلين...تكون بذلك كل عناصر الإعاقة الإنتاجية مكتملة الأركان.

لم تسمح ظروف ذاتية وموضوعية بظهور جماعة متماسكة واعية بذاتها، كما لم تسمح الشروط القائمة وقتئذ بإنتاج طبقة قائدة قادرة على سحب المجتمع المغربي نحو توجه واضح. يتعلق الأمر بمبادرات فردية لم ترق إلى ما عرفته المدن الإيطالية خلال القرنين 14 و15م مثلما يقول العروي¹. وحتى فئة تجار السلطان التي تحدث عنها دانييل شروتر في مدينة الصويرة كانت تتحرك داخل الهامش المتاح. عموما وقع تهويل في تناول مسألة نمط الانتاج، ما جعل البعض يستنسخ نماذج، وآخر يبتكر قوالب جديدة².

تردد المجاعات في تاريخ المغرب عامة، وتاريخ الجنوب خاصة، قد لا يجد تفسيره بالضرورة في عتاقة تقنيات الإنتاج، ولا في سطوة المحددات المناخية على مجمل عمليات الإنتاج...بل في النزوع الذهني لفئة الفلاحين نحو المحافظة والتقليد، في طريقة تسويق الإنتاج، في مورفولوجية البنيات الاجتماعية وشكل تنظيمها، في طغيان التدبير الإداري والهاجس الأمني لتنظمة المخزن، وأخيرا في غياب التخطيط الاقتصادي الذي يقود نحو التراكم المفضي للاستثمار. من دون أن نغفل عن طريقة توظيف المخزن للمجاعة.

حول مسألة عتاقة وسائل الإنتاج وعلاقتها بالأرض يستوقفنا نص لجودارد L. Godard كتب سنة 1860م يصف من خلاله المحراث الخشبي والمنجل المستعملان في عملية الحرث في مغرب ما قبل الاستعمار "...بقيت الزراعة في المملكة الشريفة على حالة بدائية، بسبب كسل الفلاحين وجشع المخزن، لأنه يثقلهم بضرائب مُرهقة، ولا يسمح لهم بتصدير منتوجاتهم في ظروف مناسبة. الناس هنا يجهلون معنى توزيع الأراضي واستعمال السماد. أما الأدوات الزراعية فهي عتيقة، إذ يبدو أن المحراث الخشبي يعود إلى أربعة آلاف سنة لما يظهر عليه من بساطة وضعف. فبإمكان الفلاح لوحده أن يحمله على ظهره بما في ذلك جهاز الجر المرتبط به. ونادرا جدا ما يجره هذا المحراث، الذي لا يتجاوز عشرة أقدام طولا، وزوج من الثيران أو الخيول، ففي معظم الأحيان يجره بغل أو حمار أو بقرة. وقد رأينا أزواجا مكونة من حمار ومعزة، أو حمار وبقرة، وكذلك حمار وامرأة. هذه الحالة الأخيرة رأيناها بأم أعيننا في الجزائر...ويستعمل الجمل أيضا في عملية الحرث. ولا يحدث هذا المحراث سوى أخاديد سطحية وضيقة جدا. أما الأحجار فلا يهتم الفلاحون بإزالتها. وتقتصر خدمة الأرض على زرع القمح والذرة البيضاء لمدة سنتين وترك الأرض للاستراحة والرعي خلال السنة الثالثة. وبالرغم من هذا الاحتياط،

¹ - Laroui. A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op.cit, p 107.

² - يمكن أن نستدل بنموذج دافع عنه محمد صلاح الدين يتمحور عن نمط انتاج قبلي متداخل ومتفصل مع نمط انتاج مخزن. انظر: Salahdine. M, Le Maroc Tribus, Makhzen et colons, essai d'Histoire économique et sociale, Edition Harmattan, Paris, 1986.

تفقد التربة خصوبتها، حيث لات يكفي رماد التبن المحروق بعد الحصاد لتسميدها، ولذلك يلجأ المزارعون إلى اجتثاث الأحراش وحرقها، ولكن بعد محصولين أو ثلاثة تفقد الأرض طاقتها من جديد... وفي وقت الحصاد يحش الفلاحون سنابل القمح بمناجل صدئة... لو كانت ظروف الإنتاج مواتية لاستطاع المغرب توفير الغذاء بسهولة لضعف سكانه، وتصدير القمح بكميات توازي ما ينتجه الآن، بحيث تعطي الحبة الواحدة من ستين إلى مائة حبة، عوض خمس وعشرين أو ثلاثين حبة...¹

كان مخزن القرن التاسع عشر يهتبل كل لحظة مجاعة ليفرض سطوته على القبائل السائبة؛ إنه نوع من استعراض القوة زمن المسغبة عن طريق مخازن الحبوب التي يملكها. قرأ البعض في هذه المسألة بأنه نوع من إعادة التوزيع² Redistribution الذي يكفل حق الجياع من الحبوب. يجيب المؤرخ عبد الرحمان المودن عن ذلك بالقول: "...لم يكن فتح مخازن الحبوب زمن المجاعة وليد شفقة سلطانية، بل غالبا ما كان يتم تحت ضغط قوة شعبية واقعة، أو وشيكة الوقوع بالمدن...³". لا يجب أن نقرأ في هذا التوزيع مثلما يشير المودن دائما تعبيرا عن انفعال عطوف، بقدر ما هو تعبير عن موقف تجاري بارد. بالنهاية الجوع في عُرف التقليد المخزني حل سحري وضارة نافعة تُرى الوضع لتهدئة الجماعات السائبة بتعبير الحجوي⁴.

نفس الفكرة يُردها ميشو بليير بنوع من التحوير الذي تفرضه رهانات اللحظة السياسية وقتئذ: "جهاز تسلطي طفيلي يشتغل داخل فوضى اجتماعية"⁵ يجثم على الرقاب، يعتاش بالسلب والنهب، يمارس الإكراه، ويعطل مسار الديمقراطية المحلية⁶. من جهته، يدافع كلود آلان Claude Alain عن كون السيطرة على الأرض والماء مرّت من ثلاثة مراحل: في ظل المخزن، مع المخزن، وباسم المخزن⁷.

¹ - Godard. L, Description et histoire du Maroc, t1, Paris, 1860, pp 185-187.

ورد عند حبيدة محمد، المغرب النبائي، م س، ص 147-148.

² - وظف مخزن القرن التاسع عشر ورقة الحبوب توظيفاً تكتيكياً لامتصاص غضب الجياع وتصحيح الاختلال بين منظومتي العرض والطلب، لكنه كان يُقدم سكان العواصم والحواضر على سكان الجبال والبادي، وهو ما جعل نيكولا مشيل يعتبر أن تقديم الحبوب لسكان سوس وقت المسغبة أسلوباً فعالاً في سياسة الإخضاع. انظر:

Nicolas. M, Une économie de subsistances, op. cit, p 571.

³ - المودن عبد الرحمان، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص 235.

⁴ - الحجوي محمد بن الحسن، اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 114، ص 382.

⁵ - نظر ميشو بليير إلى مؤسسة المخزن مثل جسم غريب مهندس في بلد محتل، مسير من طرف طبقة مغلقة بتقاليدها ونمط وجودها، وأثائها وتغذيتها ولغتها الخاصة التي تتوسط الفصحى والعامية المشحونة بتعايير رسمية وإحشاءات غير واضحة، ولباقة محتالة لا تلتزم بأي شيء... أنظر:

- Bellaire. E.M, Makhzen, op. cit, p 134.

⁶ - تصدى محمد عزيز الحبابي منذ وقت مبكر للرد على أطروحات ميشو بليير حول النسق السياسي المغربي. أنظر:

Lahbabi. M.A, Le gouvernement Marocain a l'aube du XX siècle, Rabat, 1985.

⁷ - Alain. J.C, Agadir 1911, Une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc, Publication de la Sorbonne, 1976, p 194.

ليست المسألة بهذه الميكانيكية الفجة التي عرضتها مصنفات الاستوغرافيا الأجنبية. تجربة المخزن عصية عن الإحاطة والإدراك، مُنفلة من كل التصنيفات النظرية¹... في الحقيقة يتعلق الأمر بفاعل محوري تنتظم حوله كل القوى السياسية يُحيل على صدى تاريخي طويل انصهرت داخله مكونات شتى؛ ونظام إداري تعايش داخله بشكل توافقي قبائل مختلفة، وحتى إن كان قاسيا عليها في عمليات الجبي، فقد أسدى لها خدمات تحكيمية كانت في حاجة إليها². لكن استمراره في ممارسة التقليد والمحافظة في لحظة مخصصة من التاريخ جسّد اخفاقه في ذاته. فضلّ الوهن على القوة، التواكل على التجديد... باختصار توازن هش لكنه فاعل في تحريك بلازما الأحداث.

ظهر المخزن في التجربة التاريخية المغربية مثل مقاوله عقارية تتحكم في الأرض والماء، وُجدت لتأخذ لا لتعطي، أنتج وأعاد انتاج ما سماه ميشيل فوكو ب"المراقبة والمعاقبة"³ عن طريق شبكة من الزوايا والأولياء أوكلت لهم مهمة الإخضاع والضبط في المقاطع الحدودية لمراقبة المبادلات التجارية، وحين لا تفلح هذه الآليات يلجأ المخزن إلى أسلوب الحُرْكة للتأديب والجبي. نظر المخزن إلى باديته الخصبة مثل بقرة حلوب، لا يوفر لها مواد العلف والتسمين، لكنه يطالها بتوفير الحليب باستمرار. وحتى إن أرادت هذه البادية أن تظهر نوعا من الرفض، يشهر عليها سيف الخنق والتتريك. لم يكن لمخزن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أي نزوع اقتصادي واضح المعالم، بمقدوره استغلال خيرات وثروات البلاد لتخفيف الجوع وضنك العيش وعسف القواد عن الناس⁴، ما دامت القبائل غير قادرة على تنسيق تحركها ضد المخزن، لكنها بالمقابل كانت قادرة على رفض الانصياع في وجه كل قرار مركزي⁵... حتى المدن لم تكن لتعيش لولا المخزن، كانت في حاجة دائمة ل حمايته من هجومات القبائل المجاورة، ومن تم لم تتشكل تاريخيا مدن معارضة لسلطة المخزن.

ننصت في شأن ذلك لنيكولا ميشيل: "...لا يسمح المخزن بظهور الجماعة السياسية التي تنجح في احتكار الإكراه المادي المشروع، ولا يسعى إلى عقلنة القانون، ولا إلى خلق إدارة حقيقية"⁶. وفي موضع آخر: "لم يكن هناك أي مشروع تنموي لدى المخزن تجاه البادية، ظل يعتمد سياسة الخنق والتضييق..."⁷. قوة المخزن الحسني استمدت من حُرْكاته المتكررة. لا يخفى أن حدث وفاة السلطان الحسن الأول 1894م حظي بعناية فائقة

¹ - يُظهر المخزن فُصاميته: يخلص للموروث فيعجز عن صيانتها، ويظهر انفتاحه على الجديد فلا يقوى على إغرائه. وحين يحاول التوفيق بينهما يزيد في تعقيد الأمور.

² - يتعلق الأمر بوظيفة التحكيم نوع من الاستثمار المربح في الرأسمال الرمزي... أنظر: عياش جرمان، دراستا في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص 145-163.

³ - فوكو ميشيل، المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ترجمة علي مقلد، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

⁴ - بياض الطيب، المخزن، الضريبة والاستعمار، م س، ص 85.

⁵ - واتربوري جون، الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1982، ص 24-25.

⁶ - Nicolas. M, Une économie de subsistances, op. cit, t2, p 539.

⁷ - Ibid, t1, p 2.

من طرف المراقبين الأوروبيين وأعداد الصحافة الفرنسية¹. حدث قُدم كمنعطف حاسم في تاريخ البلاد، فاصل بين لحظتين: لحظة القوة وشخصنة السلطة، ولحظة فقدان السيادة والمبادرة والقدرة على المناورة².

عموما لم تكن القضية الانتاجية بمغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تتعلق بإمكانات أو مؤهلات، وإنما بمبادرات وأشكال تدخل محدودة وغير فاعلة، ظلت تعيد انتاج ذاتها رغم اختلاف السياق. لا شك أن تطرف المناخ خلال هذه الفترة شكل معطى فائق الحضور خلال لحظة البحث³. "...الغلال تكون رديئة على الأقل مرة واحدة كل خمس سنوات..."⁴ على امتداد القرن التاسع عشر (1800-1912) جحافل من الجراد تكتسح غلال البلاد. توقف نيكولا ميشيل عند تردد الجراد لما ينيف عن 32 مرة بمختلف جهات المغرب، خلف أضرارا متفاوتة من جهة لأخرى، ومن سنة لأخرى⁵.

لم ينسج تكامل بين استغلال الأرض وتربية المواشي. ظل قطاع الماعز يرمى في المناطق شبه الجافة والمناطق الجبلية، والأغنام ترعى إلى جانب الخيل والبغال والحمير والأبقار في مجال فسيح ممتد غير مرتبط بحضائر⁶. وحتى تربية الماشية في المجتمع القروي فرضت على السكان مجهودا شاقا لتوفير المياه للدواب، خاصة الأبقار. فبقرة واحدة مثلا تستهلك ما بين 30 إلى 40 لتر يوميا، وقد يتطلب توريد 100 رأس خمس ساعات من العمل لجلب الماء من بئر يبلغ عمقه 60 مترا، ويتضاعف هذا المجهود لنفس العدد من الإبل، علما أن الوسائل المعتمدة في سبيل ذلك تقليدية تحركها سواعد الرعاة بالاستعانة بالحمير⁷.

¹ - الصحافة الفرنسية خلال هذه اللحظة عملت على تجيش الرأي العام الفرنسي بخصوص اهتبال الفرصة السانحة من أجل إكمال المظلة الفرنسية على شمال إفريقيا. واستغلال جلوس شاب يافع على عرش المملكة لإقناعه بضرورة التغيير والتجديد، واستغلال انشقاق الجهاز المخزني بين فريق انجليزي يمثل المهدى المنهبي، وفريق فرنسي يقوده عبد الكريم بن سليمان وزير الشؤون الخارجية، وفريق يمثل التيار المحافظ يمثلته قدور بن غبريط الوزير الأعظم. انظر:

Baida. J, La presse marocaine d'expression française, des origines a 1956, Cahiers de la recherche sur l'éducation et les savoirs, 2002.

² - Bellaire. E.M, Au Maroc, L'héritage de Moulay El Hassan, R.M.M, t9, 1919, pp 412-442.

³ - سارت بعض الأبحاث إلى اعتبار قساوة المناخ في مغرب القرن التاسع عشر هي من عمقت معاناة الفلاح المغربي. من خلال تردد ظواهر انحباس الأمطار وعدم انتظامها، وشدة الصقيع، وارتفاع درجة الحرارة، وهبوب رياح جافة، وزوابع رملية، وأمراض مضرّة بالزروع والضرع والغرس... حيث سجل رئيس البعثة العسكرية الفرنسية المرافقة لمحلة السلطان الحسن الأول أنهم وجدوا في طريقهم من حاحا إلى سوس سنة 1881 جثث أشخاص قضوا في منازلهم من جراء المجاعة، وفي تافيلالت لجأ الناس حسب نيكولا ميشيل إلى أكل العنب اليابس شتاء، والزرع الأخضر ربيعاً. انظر

بياض الطيب، الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 33.

⁴ - Nicolas. M, L'économie de la subsistances, op, cit, p 64.

⁵ - Nicolas. M, op.cit, p 70-74.

⁶ - Ibid, p 177-184.

⁷ - Salahdine. M, Le Maroc :Tribu, Makhzen et colons, Essai d'histoire économique et sociale, Edition Harmattan, Paris, 1986, p 67.

رصد الرحالة الأجانب قطيعا مهما من ماشية القرن التاسع عشر يتحرك في الفيا في القفار دون مأوى، يتكاثر ويتناسل بشكل طبيعي، دون أن يتدخل مالكه في انتقاء أجود السلالات الحيوانية¹. وهناك من تحدث عن قطعان سائبة بلا مالك خلال اللحظات التي يشتد فيها الاضطراب السياسي والتطرف المناخي... ظلت تربية الماشية في مغرب القرن التاسع عشر تسير على نفس ايقاع الأنشطة الزراعية الممارسة في الأرض، تُكرر الاعتماد على وسائل وتقنيات وخبرات لا تؤهلها لمواجهة مشاكلها وتأمين معاش أصحابها². داخل هذا النمط، كانت مهمة الراعي، الفاعل الأساسي في عملية الإنتاج، حراسة ورعاية وتربية القطيع، وهو شخص يتلقى الحرفة بالتدرج تجعله يميز بين صوت الماشية، نوعها، أصلها، جنسها، وشكلها³... لا يخلو هذا التدرج من ممارسات مطبوعة بالعنف والإكراه⁴، في ما تختص المرأة، بتنظيف الحظيرة، وجلب المياه، ومراقبة صغار القطيع.

ليس من الغرابة في شيء أن يخلص البعض إلى المعادلة التالية: أراضي مُتاحة، مراعي فسيحة، ومجاعات متكررة، وتقنيات متواضعة... تنتج اقتصادا قرويا لا يتعدى حدود القلة والكفاف، ولا يضمن تغذية ساكنيه بشكل منتظم⁵. ترسخت خلال هذه اللحظة، مظاهر خلخلة وارتجاج مكونات النسق الاجتماعي. وتراكمت خلالها مظاهر الاحتقان والضغط النفسي والاجتماعي والسياسي عوض استمرارية عملية الانتاج الاقتصادي... مُتغيرات جديدة حادثة خلال هذه اللحظة أتت بها التحرش الأجنبي لكنها ووجهت بصلاية البنية النازمة. مع ما استتبع ذلك من نمو ديموغرافي وحركية اجتماعية كثيفة نحو المدن الداخلية العريقة أو الساحلية الناشئة⁶... إنها اللحظة المفصلية التي يظهر فيها إنسان البادية مُنْهَك من حيث المجاعات والأوبئة، ومُتعب من حيث أعمال السخرة، ومُفَقَّر من حيث حَرَكَات المخزن المتوالية... مثل هذا الوضع هو من سمح لأجهزة الحماية الفرنسية بادعاء إعادة ترميم البيت المغربي، وتضميد جراح الجسد المثخن بالندوب وترميم البيت الآيل للسقوط.

¹ - بياض الطيب، المخزن، الضريبة والاستعمار: ضريبة الترتيب 1880-1915، م س، ص 31-32.

² - Ben Ali. D, Le Maroc précapitaliste, op. cit, p 37- 40.

³ - الراعي هو من يحدد تبعا لخبرته في الرعي فترات التزاوج التي تسمى باللغة الأمازيغية بـ "تراريت"، وتبدأ هذه الفترة مع بداية كل فصل الصيف، وتتحكم فيها شروط الموسم الفلاحي من حيث وفرة المياه ووفرة العشب. كما يقوم الراعي أيضا بإزالة صوف ذيل الأنثى لتيسير عملية الاتصال الجنسي. وتسمى هذه العملية بـ "أهلاب"، وهناك أيضا "أمخسي" حيث يتدخل الراعي لدعم الألفة بين الأم وصغيرها، و"أغراي" حيث يتدخل الراعي لجلب الحليب إلى المولود الجديد بسبب نقص حليب الأم، و"أسلمي" من أجل ترويض الأنثى الراضية لصغيرها.

⁴ - Mahdi. M, Pasteur de l'Atlas, Production pastorale, droit et rituel, Fondation Konrad Adenauer, Prem, Edition, 1999, p 125.

⁵ - بياض الطيب، المخزن، الضريبة والاستعمار، م س، ص 32.

⁶ - التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان 1850-1912، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، الطبعة الثانية، 1983، ص 193.

نقرأ بخصوص هذا التوازن الهش نصا لميشو بليير من دون إغفال شروط إنتاجه، أو حتى الانسياق وراء خُدعة النظام القبلي التي صدحت بها مُدونات الأجانب¹ "...إن الدولة المغربية كما وجدناها منذ 14 سنة مضت، ليست إن شئنا الدقة، لا امبراطورية ولا ديموقراطية بالمعنى المتعارف لدينا، ولكنها عبارة عن توازن من الضروري عدم الإخلال به، بل بالعكس من ذلك تعزيره بما يناسب وما يفيد من التعديلات غير المتسعة، ومن ثم يجب أن يكون دراسة شروط هذا التوازن هي الشغل الشاغل للسوسيولوجيا المغربية..."². الأساس أن الضامن لاستمرارية هذا التوازن الهش مؤسساتها هو تلك العلاقة الجدلية التي نسجت بين المركزي والمحلي، قد تبدو متقطعة وغير منتظمة المسار، لكنها فرضت نوعا من الانسجام والتكامل، وعوضت بعض لحظات التوتر والانفعال³.

قرأ البعض في وضعية الشغور التي ميزت منطقتي السوس والشرق زُهاء ستين سنة دليلا على تمتعهما بنوع من الاستقلال الذاتي في تدبير الأراضي والمياه وتصرفهما في الإنتاج. والحال أن الأمر يتعلق بمجالين جغرافيين عانا بدرجة أفدح من تطرف المناخ وقساوته. لم يشأ مخزن القرن التاسع عشر أن يرهقهما ضربيبا، وحين بدت له الأخطار الأجنبية تترص بهذه المجالات الشاغرة عيّن قوادا وعمالا جدد. لا غرابة، أن يستتبع هذا التعيين الجديد رد فعل محلي قوي من طرف جيل جديد من السكان المحليين، ليس لهم عهد سابق بحكم مخزني وضرائبه، ولم يستأنس بوجوده ردحا من الزمن⁴. مع كل وباء أو مسغبة كانت البنية القروية تهتز اهتزازا، وكانت الأنظار تنصرف نحو مالكي الأرض والماء. تفتح متواليات القحوط والأوبئة الحديث عن أعمال العنف والفضوى، ويبدأ قوس جديد في تاريخ البلاد يعلن عن نفسه كما لو أنه هو الأصل، تاريخ تطغى على أفرادها قيم الأنانية وأخلاقيات الخلاص الفردي؛ تتقطع فيها سبل الاتصال بين أطر الدولة؛ تنخرقوة الجيش؛ ترتقي الميولات الانفصالية؛ وتشل سلطة الدولة⁵... كل مجموعة أو قبيلة أو أسرة داخل هذا النسق تستحث البحث عن حلول خاصة بها في ما يقع لها من محن ومصاعب¹.

¹ - قضية خدعة النظام القبلي أنتجت سجالا حادا بين العروي وروبير مونتاني عراب السوسيولوجيا الكولونيالية. يضفي مونتاني مسحة فيسيفسائية على تركيبة المجتمع المغربي تتميز بالثبات، ويُصور المخزن مثل جهاز طفيلي يجثم على العباد والرقاب... فيرد العروي على هذا التحليل، أن مونتاني قدم بالنهاية تحليلا متافتا يتجه لتأكيد أصالة النظام القبلي البربري، عبر البحث له عن جذور رومانية المنشأ... لم يشيد المجتمع المغربي حسب العروي بالتناسل الانشطاري والتحرك في مجال فارغ، ولا من ترسب انطلاقا من حقيقة أولية.

² - Bellaire. E.M, Sociologie Marocaine, Archives marocains, XXVII, 1927, p 297.

³ - Laroui. A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op. cit, p 172.

⁴ - Laroui, op. cit, p 175.

⁵ - نتوقف هنا عند نص تاريخي لبرنار روزنبرج وحמיד التريكي يهم ظاهرة الارتداد عن الدين، وانتعاش السحر والشعوذة زمن الأوبئة والقحوط عند الجماعات اليهودية "...لم يكن من المستبعد أن يلجأ الناس متى أعيتهم الوسيلة إلى حلول متطرفة، كان أكثرها فردية، كالانتحار وقتل الأطفال والخروج إلى التمرد... وكثيرا ما كان يحدث الارتداد عن الدين عند الجماعات اليهودية، وهو أمر تعتبره كتبهم الإخبارية شرا أهون منه الموت الزؤام، فهل كان أكثر وقوع هذه الارتدادات عند الأشد فقرا من أفراد الجماعة والأقل تعلقا بالدين؟ إن ما يمكن قوله بصفة خاصة أن هذه الأقليات تكون في بعض الأحيان أعجز من أن تواجه الأزمة التي تحيق بها، بحكم وضعها القانوني الخاص، وربما بلغ منها اليأس إلى أن تصبح تنذر إلى إله آخر أو

ظلت العملية الانتاجية في مُجملها مندورة لنمطي القلة والكفاف داخل بادية ينخرها الفقر والفاقة والجوع وجحافل الجراد وشطط الجُباة وعسف الولاية... تُدار من بعيد أو قريب من طرف جهاز مخزني محلي لم يكن في واقع الأمر سوى مُترجم حقيقي لقوة ضاغطة تجاوزته هو نفسه، وكان أول ضحاياها². جهاز أعرض عن الكسب والاستثمار والانتاج، واكتفى بجبي القبائل بديلا؛ وحواضر مُصابة بداء عضال، ظلت تعاني من مرض مزمن، جعلها تفتقد إلى فئة اجتماعية قيادية قادرة على سحب المجتمع المغربي نحو أساس صناعي حديث.

قد يخال البعض أن حقبة القرن التاسع عشر تؤسم بـ "الحقبة المحظوظة"³، وهي بذلك تستحث عديد الباحثين لإعادة اكتشاف اعتلالات الجسد المغربي في لحظة تحول حاسم، وضعت القرار المغربي بيد العواصم الأوروبية وسفاراتها بالمغرب. قرن فرض على المخزن الحسني اللعب بورقة التوازنات لتأجيل المصير المحتوم، في وقت تزايد فيه مظاهر الشرخ المغربي بين داخل هش وخارج مُتربص بسيادة البلاد والعباد. ولعل أصدق تعبير يمكن أن يلتقطه المؤرخ لتوصيف هذه اللحظة، ما أشار إليه محمد بن ابراهيم السباعي في مخطوطته البستان الجامع "...فاستحسن ذلك وإن لم يعم، لكنه انخرم ولم يدم⁴..." والقصد انخرام النظام الجبائي، قوام الدولة وبنائها⁵.

يجب أن نقرأ من ضريبة الترتيب مثل رجع صدى لارتدادات عكسية: رد فعل الدولة ضد آفة الحماية القنصلية؛ هروب المجتمع من عسف وابتزاز المخزن المحلي؛ وتكثيف ضغط الدول الأجنبية بضرورة تعميم هذا الإصلاح على كل المغاربة قرين فرضه على الأجانب والمحامين والخلطاء. فهل كانت بوادي المغرب قبل الاستعمار مؤهلة إنتاجا لتقبل هذا الإصلاح؟ وهل كانت للمخزن القدرة مؤسساتيا على تطبيقه وتعميمه؟ وهل ابتغى هذا الترتيب الترميم أم

تستنجد بقوى شيطانية، وعلى الرغم من أننا لا نجد في المصادر التي بين أيدينا ذكرا لهذا الأمر، فسيكون من المستغرب أن لا يلجأ الناس في ذلك الظروف إلى السحر والشعوذة..." روزنبرجي برنار والتركي حميد، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و 17، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دارالآمان، الطبعة الثانية، 2010، ص 167.

¹ - نفسه، ص ص 247-248.

² - Laroui. A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op. cit, p 154-190.

³ - بياض، الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 8. وردت هذه العبارة في التقديم الذي خصه المصطفى بوعزيز لهذا الكتاب بعنوان: الترتيب: التاريخ الملتوي لضريبة فلاحية.

⁴ - السباعي، محمد بن ابراهيم، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 1346 د، ص 120-121.

⁵ - من بين الدراسات الأجنبية التي اهتمت بموضوع التجربة الجبائية المغربية نذكر:

Bellaire, E.M, Les impôts Marocains, Archives Marocains, n°1, Mars, 1904, pp 56-96.

Lebel. R, L'impôt agricole au Maroc, Le Tertib, Emile Larose, Paris, 1925.

Cattenoz. M.G, La fiscalité marocaine, PUF, 1927.

Jouannet. J, L'évolution de la fiscalité marocaines depuis l'instauration du Protectorat, Paris V, 1953.

الإصلاح؟ ألا يُعبر هذا الإصلاح في مقتضياته عن إرادة مخزنية في كسر حلقة الطوق المضروبة عليه؟ أم يعكس عن دهاء وحنكة الدبلوماسية الأجنبية في تقويض أركان السيادة المغربية¹؟

من يقرأ تآليف الاستوغرافيا الأجنبية تستوقفه إشارات تعبر عن موقف مجروح، بله عن تناقض، موقف أول يشيد بالإصلاح الجبائي الحسني، ويجعله محط قبول واستحسان، وموقف ثان يستنكر الإصلاح الجبائي العيزي، ويجعله محط نفور واستهجان، أو ليس أصلاً لترتيب واحد؟ نفس الموقف نجده في الاستوغرافيا التقليدية المغربية، فنطرح السؤال، من ورث من؟ الثابت أن هذا الإصلاح حسب المنوني شكل عتبة ليقظة المغرب الحديث، وإن زاد في تباعد الدولة والمجتمع. ارتد الترتيب إلى نقيضه، فتحول إلى حبل وحلقة طوق تُقيد هامش المناورة المتبقي لمخزن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من جهة؛ وساهم في تقويض وهدم ركائز التوازن الاجتماعي من جهة ثانية... إنه التحول الذي زاد من إقبال المغاربة على آفة الحماية الأجنبية، وجعل من استفحال الفتن وانعدام الثقة واهتزاز القيم علامات دالة على نهاية قرن وبداية قرن جديد.

يُصور الفرنسي كابريل فاير Gabriel Veyre في كتابه "في صحبة السلطان" بدقة متناهية خبايا مغرب متحول بين لحظتين: لحظة شخصنة السلطة في يد الحسن الأول، ولحظة تداعيا في يد عبد العزيز². على المستوى السياسي، ورث الحسن الأول مغرباً مثخناً بالجراح، ووجد أمامه توازنات صعبة. لم يكن أمامه سوى أن يلعب على حبلين؛ أن يُظهر مسأيرته لخطة الإصلاح مُطاوعة لأجانب يتربصون بسيادته، ويتلبّس بجلباب المحافظة على الوضع القائم مطاوعة لنخب مخزنية تقليدية. بينما المولى عبد العزيز هيأته اللحظة السياسية لأن ينزل نحو عالم أوروبي جذاب³، جرّ عليه نقمة الأوساط المحافظة التي رأت فيها سلطاناً لا يناسب المرحلة، وتعالّت الأصوات بعزله عن سدة العرش. وبعدهما سلطان جديد (عبد الحفيظ) لم يكن من بُد سوى أن يستثير العاطفة الشعبية لعامة البلاد، ويلعب على وثر إيديولوجيا الجهاد⁴.

¹ - بياض، الطيب، م س، ص 16.

² - Veyre. G, Au Maroc, dans l'intimité du Sultan, Librairie universelle, Paris, 1905.

³ - نستشهد في ذلك بنص لببير كليين: "السلطان عبد العزيز يتزيا بزي الأوروبيين، ويلعب البلياروكرة المضرب مع الأجانب، ويركب الدراجات، ويقود السيارات، ويكثر من الحفلات، ويرمي بالشهب الاصطناعية" أنظر: كليين بيير، الاقتراضات المغربية 1902-1904، ترجمة وتقديم المصطفى برنوسي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992-1993، ص 14.

⁴ - يُصور أحمد التوفيق السلطان عبد الحفيظ في ثوب سلطان يمتلك خطبة دعائية لمرشح يائس من الفوز بالحكم، يفضل لغة الإعجاز على تصور برنامج عملي لتحقيق تلك الشروط. أنظر: التوفيق أحمد، تأملات في البيعة الحفيظية، ندوة المغرب من العهد العيزي إلى سنة 1912، الجامعة الصيفية، المحمدية، يوليو 1987، ص 343.

نقل السلطان عبد الحفيظ هذه الإيديولوجيا إلى مستوى المشروع السياسي، من دون أن تكون له القدرة على تصريحها¹. في عهده تعمقت علاقات التشنج بين القبائل وسكان الحواضر². وبذلك يكون هذا السلطان ضحية التعايش المزمّن بين الاستمرارية والهشاشة داخل دواليب جهاز مخزني مُثخن بالندوب والجراح، ويكون عهده عهد تمزيق آخر قطعة من حجاب الهيبة الذي كان يُغطي عورة البلاد. لم يكن بمقدور هذا الوضع المتسم بالشرخ الاجتماعي أن يسمح ببروز "طبقة" من المزارعين قادرة على خلق منافع مادية وتحقيق تراكمات إنتاجية تدافع عنها. فوضع البادية عموماً لم يسمح بظهور بورجوازية زراعية حقيقية قادرة على التطور والاستجابة لتحولات السوق ولطلبات المجتمع الجديدة³.

خلاصات وامتدادات:

ننتصر هنا إلى الفكرة التي تقول إن المجتمع المغربي ظل بالنهاية مجتمع مراتبي (هيرارشي). نستعير من السوسيولوجي مارسيل كوشيه توصيفا لهذا الوضع "مفهوم الشرخ الاجتماعي"، الذي رسم في تاريخ البلاد هُوة فاصلة بين فئة محظوظة ومندمجة، وأخرى مقصية ومهمشة. لكن بوجود قوى خفية مُحركة لم يكن بإمكان أي تنظيم قبلي أن يُغيّر قواعد النسق، وأن يفرض نفسه بديلاً. ملاحظة لا نصادفها في متون الاستغرافيا الأجنبية خاصة في شقها الانقسامي. لعبت مؤسسة الشريف أدواراً قيادية في تاريخ المغرب، جعلت من الشريف (أولياء/ صلحاء/ أعيان) يبدون أحياناً كزطاطة طرق، وتارة كوسطاء لفض النزاعات، إنهم بذلك يعملون على تسكين روع القبائل وهناء الطرقات⁴. لا يخفى أن هذه المؤسسة الضابطة لسير التنظيم الاجتماعي والاقتصادي بمغرب ما قبل الاستعمار نسجت مصالح قوية مع جهاز المخزن، يُدارها ويذر عليه العطاء⁵. بالنهاية، كان القائد دائماً محور توازن بين القبيلة والمخزن، فالمخزن هو قوته أمام قبيلته، والقبيلة هي سنده أمام المخزن، وبذلك، كان طرفاً في معادلة توازن لا يجب أن تميل كفتها لطرف دون آخر.

كشفت بعض المونوغرافيات المغربية عن جوانب من هذه المسألة بدقة واضحة، فهذا حسن كفناني الذي اشتغل على قبائل أولاد أبي السباع بالجنوب المغربي خلال القرن التاسع عشر يرصد كيف أن المرشح لمنصب

¹ - اعتبر عبد الله العروي الحركة الحفيظية أملاً وهمياً وحُلماً متبخراً، لأن الفرقاء لم توحدهم المصلحة العامة للبلاد، وبرا عبد الحفيظ من كل مسؤولية لأن الأسباب العميقة لإخفاقه كانت موضوعية، وجراحات المغرب تتجاوز كفاءات وقدرات كبار الجراحين على تضييدها... انظر:

Laroui, A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocaines, op. cit, p 392 et 400.

² - الشابي مصطفى، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص 168-169.

³ - Michel, N, Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, op. cit, p 339.

⁴ - المودن عبد الرحمان، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، مرجع سابق، ص 301.

⁵ - حمودي عبد الله، الانقسامية والتراتب الاجتماعي، م س، ص 78.

القائد يُدلي بـ "رسم الرضا" للتعبير عن موافقة الأعيان¹. والحال، أن ما مَيَّز مجريات هذا القرن بخصوص هذه المسألة هو تغيير استراتيجية التعامل مع التعيينات والتزكيات من سلطان لآخر. دشن السلطان عبد الرحمان بن هشام مسألة رفض الرضوخ لطلب القبائل على تبديل العمال والقواد حفاظا على هيبة المخزن، وغَيَّر خلفه الحسن الأول هذه القاعدة باستبدال العمال والقواد كلما ثارت عليهم قبائلهم². والثابت، أننا بصدد تحول مؤسساتي هام، من وساطة تفويضية إلى "مقاوله استثمارية" تجر على أصحابها فوائد شتى³. وفي مستوى أقل، لم يكن الفلاح المغربي منشغلا كفاية بتنويع محاصيل إنتاجه، ظل يعيش وضع ارتجاج بين واقع غير مستقر، وطموح محدود. لا يجب أن نقرأ هذا الوضع مثلما سارت على نهج ذلك ملاحظات المراقبين الأوروبيين كما لو أن الأمر يتعلق بتقاعس أو تكاسل أو خمول ذهني عام، بقدر ما يجب أن ننظر إليه من شُرْفة شروط عامة ضاغطة لم تسمح بمراكمة وسائل الانتاج، شروط تأتي من بعيد لتعبر عن وضع انتاجي ثابت موروث.

فرضت الآلية الإيكولوجية ايقاعها على نمط الإنتاج ووثيرته. اضطر الفلاح المغربي تبعا لذلك أن يُراوح بين زراعة الحبوب وتربية الماشية، أو في مناطق أخرى أن ينهج مبدأ التكامل أو التخصص حسب الوضع السياسي. ما جعل اقتصاد البلاد يقتصر عموما على محاصيل الزراعة الواحدة في مغرب ما قبل الاستعمار. حول هذه النقطة يستوقفنا بحث غاية في الأهمية للاقتصادي لروني هوفير R. Hofherr بعنوان "أخطار الفلاحة الأحادية". يُحذر هوفير من أخطار الاقتصاد على نوع واحد من الزراعة، الذي من شأنه أن يرهق خصوبة الأرض، ويقود نحو السقوط في الجمود والروتينية⁴. كما يضيف في مقطع آخر، أن المساحة المخصصة للحبوب من طرف المغاربة والأوروبيين ظلت إلى حدود 1929 تتجاوز 90 بالمئة من مجموع المساحة المزروعة.

الحاصل، أن الأرض المغربية ظلت في وضعية انتظار متواصل، وتكرارية انتاجية لم تضيف شيئا لبادية مغربية تعاني باستمرار من الإرهاق والروتينية⁵... وبينهما فلاح لا يتطلع بأفقه الإنتاجي إلا لتدبير معاشه، ولا يحلم بتحقيق الفائض وتنويع الإنتاج.

¹ - كفنان مولاي الحسن، قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، تحت إشراف أحمد التوفيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1987-1988، ص 321.

² - Laroui. A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op. cit, p 158.

³ - بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، م س، ص 143.

⁴ - Hofherr R, L'économie marocaine, T3, Sirey, Paris, 1932, pp 145- 146.

⁵ - بياض الطيب، المخزن، الضريبة والاستعمار: ضريبة الترتيب، 1915-1880، م س، ص 30.

الفصل الثالث:

طبيعة تقترح وانسان يقرر

عبارة "طبيعة تقترح وانسان يقرر" تنسب إلى بروديل في توصيف معاش أهل الضفة الجنوبية للمتوسط الغربي. ارتهن التنقيب عن الماء في معاش هذه المجتمعات بكثير من المعطيات، بيولوجية، ثقافية وتقنية... بل وكان انشغالا يوميا مؤرقا ينتمي إلى سجل الثقافة اليومية من أجل ضمان سقي الأراضي وتوريد المواشي. يتعلق الأمر بعنصر حيوي ظل يسم حياة البادية المغربية بطابع المفارقة؛ بقدر ما يندر وجوده بقدر ما تثمن قيمته؛ بقدر ما يتأرجح في تشكله بين البسيط والمركب حسب المناطق، بقدر ما تنشأ عنه ديناميات ومصالح وشبكات هيمنة... من هنا، قد نتفهم افتتاح الأجنب بغناه وفقره، بوفرته وندرته... نقرأ عند الجغرافي جون سليرييه توصيفا لهذه المفارقة في المجلة الجغرافية المغربية: "...كلما كان الماء نادرا كلما كان البحث عنه وتعبئته يتجاوزان الإمكانيات الفردية، ويتطلب مشاركة واسعة وتضافرا للجهود..."¹.

قبل ذلك، تحدثت المصادر الدفينة لتاريخ المغرب في صيغتها الفرنسية عن مفارقة الخصب والعقم في سياق مقارن. نقرأ من خلالها "...بلاد المغرب جميلة وثمارها طيبة، عندما يصحو الجو بعد الأمطار يظهر فصل الشتاء كما يكون عليه حال الربيع في فرنسا، حيث تبدو البادية في غاية الهاء... الحمد لخالق السماء والأرض على هذه النعمة، نعمة الخضرة والأزهار التي تكسو بلاد المغرب... لكننا نستغرب من كون المغاربة لا يستغلون أراضيهم بما فيه الكفاية، حيث هناك الكثير من الأراضي الخصبة التي تظل مع ذلك غير مزروعة وقاحلة. فمن سلا إلى مكناس هناك بوادي ممتدة تتخللها أودية صغيرة وتلال جميلة المنظر، إذ بإمكان هذه الأراضي التي تسقيها الأنهار والمجاري والعيون أن تنتج كمية كبيرة من القمح وحبوب أخرى وأعنان في غاية الجودة، وكذلك الكثير من الأشجار ذات الثمار الطيبة. لكن هذه البوادي، التي من المفروض أن تزخر بكل أنواع الخيرات لو كانت مزروعة؟ توجد في وضع من الإهمال والعقم..."².

في جبال الأطلس الكبير لم تكن المسألة مسألة موارد وإمكانات، بله مسألة مبادرات وأشكال تدخل... ما جعل الإنتاج يقتصر على حدود المعاش. يبتكر العروي في هذا الصدد تقسيما للأنشطة الفلاحية في بادية القرن التاسع عشر إلى حدود القرن العشرين، اختص سكان الغرب بتربية الماشية³، وأهل درعة في الزراعات المسقية، وسكان

¹ - Celérier, J, L'organisation hydraulique des oasis sahariennes, In RGM, n° 3, Tome VI, 4 trimestres, Rabat, p 330.

² - Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Archives de France, 2 séries, t6, p 641.

نص مأخوذ من كتاب حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س ، ص 146.

³ - يقر جون لوكوز بوجود ترابط ميكرو- حميمي بين الراعي ومكونات قطيعه، هذا الترابط يدفع الراعي إلى "تغيير المورد" أي المكان الذي تشرب منه الماشية لعدم صلاحيته، أو تجنب بعض الأمكنة التي توجد بها أعشاب صارة وقاتلة.

الريف في الغرس والأشجار¹. ينضاف إلى هذا التقسيم سوء تدخل في المجال "...الغابات في المغرب كانت مُعرضة للخطر بفعل استعمالها المكثف كمجال رعوي، إذ كان الماعز يبذل قصارى جهده لابتلاع البراعم والنباتات الجيدة، بينما استمر سكان البلاد في ممارسة عاداتهم القبيحة في تحطيم جدوع الأشجار لاستخدام خشبها في تحضير الفحم، واستعمال الأغصان الشائكة لتزريب حقولهم..."².

1- الماء: التوزيع، التقنيات والمؤسسات

رسم الماء نظاما اجتماعيا بالغ التعقيد، جعل منه منتوجا أكثر منه وسيلة إنتاج³، مثلما رسم فصلا بين عمليتي تعبئة المياه وسقي الأراضي. يوقفنا كل من جاك بيرك J. Berque وبول باسكون P. Pascan عند عملية الفصل هذه من حيث توزيع المياه التي تظل اجتماعية بالأساس⁴، بين ثلاثة مستويات: القبيلة في مستوى أعلى، والعظم في مستوى متوسط، وجماعة في مستوى أدنى. هذه الأخيرة التي جعلها غريغوري لازاريف تتلخص مهامها في تعيين مراقبين لتوزيع المياه، وابداع تقنيات خاصة لقياس مد وجريان مياه السقي، كما تعنى مؤسسة اجماعة باستصلاح المنشآت المائية وعقد المصالحات وتخفيف التوتر وفرض نظام حد الصايم⁵.

هذا التقسيم الاجتماعي في المناطق الجبلية يُعطي أولوية العالية على السافلة حسب العوائد والأعراف المحلية، لكن قبائل السافلة تستغل في لحظات الفيض فائض الجريان من أجل إقامة نشاط زراعي مؤقت. نميل إلى التحليل الأنثروبولوجي الذي توصل إليه عبد الله حمودي عن قبائل وادي درعة حينما وسم مبدأ أولوية العالية على السافلة بمضمون اجتماعي لا مجالي⁶، حيث سكان العالية يشتغلون بمبدأ "أونا إزوارن"⁷ الذي يُحول مجرى الساقية نحو مزارعه أولا. ما دفع جاك بيرك إلى استنتاج علاقة الترابط بين طريقة توزيع المياه (الدورة السقوية أو النوبة/تاوولا) وشكل تنظيم المورفولوجيا الاجتماعية⁸.

¹ - Laroui. A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op. cit, p 37.

² - ميلار سوزان، صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا (1845-1846)، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1995، ص 113-118.

³ - Martin. A, Quatre siècle d'histoire marocaine d'après les archives et documentations indigènes, 1923, p 95-96.

⁴ - Berque. J, et Pascan. P, Structures Sociales du Haut-Atlas, suivi de retour au Seksawa, 2 eme édition, PUF, Paris, 1978, p 153.

⁵ - نظام حد الصايم يفرض على البالغين والراشدين للمشاركة في انجاز الخدمات العمومية المجانية.

⁶ - Hammoudi. A, Droit d'eau et société dans la vallée de Dra, In Homme, Terre et Eau, n° 48, 1982, p 111.

⁷ - "أونا إزوارن" من سيسبق للماء (الي سبق لما) هذه الجملة تعطي للماء مضمونا اجتماعيا لا مجاليا، وتضفي عليه نوعا التدافع والصراع. انظر:

Tamim. M, Reproduction sociales, Territorialité des populations et de pouvoir local, Cas de la vallée d'Ouneine dans le Haut-Atlas, Thèse de Doctorat d'état en géographie, Faculté des lettres de Rabat, 2005, p 115. (Ouneine est une vallée dans le Haut-Atlas).

⁸ - Berque. J, Structure sociales du Haut- Atlas, op. cit, p 178.

في واقع الحال، فرض التنقيب عن المياه في المجتمعات الزراعية استدعاء خبرات تخص في المقام الأول تقنيات "جيو-فيزيائية"¹ حول طبيعة السطح، وحول الإمكانيات المائية، وحول الأعماق الممكنة². من بين هذه الخبرات التي أبدعها الإنسان المغربي تأتي الخطارة في البوادي³، والناعورة أو السانية في المدن على رأس القائمة⁴، ورغم عبقرية هذه الخبرة التقنية، إلا أنها تظل نظاما هشا خاضعا لتقلبات المناخ، ما يجعل نظام الماء في الخطارة مثلا حسب أندري روبرو A. Robaux نظاما مُكلفا سواء من حيث البحث عنه أو لحظة إعدادة وتجهيزه وتهيئته⁵.

مورفولوجيا، الخطارة سلسلة من الآبار في خط مستقيم يتم تجميع أعماقها بواسطة قناة جوفية، يكون ميلها أدنى من ميلها على وجه الأرض. وعند الاقتراب من سطح الأرض يلامس الماء السواقي ويُغذيها لتروي الأجنة والمزارع⁶. نقرأ عند كاستون دوفيردان G. Deverdun أن أكبر الخطاطير وصل طولها إلى خمس كيلومترات، وعدد آبارها إلى ثلاث مائة وحدة⁷. لا نعلم بدقة تاريخ هذه التقنية الهيدروغرافية شبه الصحراوية⁸. لكننا على يقين أنها عمل تقليدي غاية في الإبداع، وفعل اجتماعي طويل الأمد. باختصار هي أولا وقبل كل شيء "حرفة صحراوية"⁹.

سبق لبول باسكون P. Pascan في تحرياته الميدانية عن منطقة الحوز أن قَدَّر صبيب الخطارات، حيث البئر لا يمنح إلا 200 متر مكعب في اليوم على أكثر تقدير، ما من شأنه أن يُمكن من سقي هكتار واحد تقريبا، أي "عشر صبيب الخطارة"¹⁰. هذا التقدير دفعه إلى استنتاج أن النظام السقوي التقليدي في الحوز هش وضعيف¹، يساهم

¹ - حبيدة محمد، الماء في المغرب: التقنية والتنظيم، ملاحظات حول القرنين 17 و18م، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 11، 1999، ص 128.

² - Berthier. P, Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Rabat, 1966, p 89-127.

³ - الخطارة قناة باطنية تمكن من حمل مياه الفرشة الباطنية المتواجدة في مناطق الهضاب نحو المزارع المنتشرة بسافلها، وتكون قناة الخطارة ذات انحدار أقل من انحدار مستوى الفرشة الباطنية...وهي حسب كوبلو Goblot تقنية ذات صفة منجمية تستعمل لاستغلال المياه الجوفية بواسطة تقنية الساقية.

Goblot. H, Les quanats, Une technique d'acquisition de l'eau, Paris, 1979, p 27.

⁴ - في الظواهر الزراعية المرتبطة بالمدن تمت تعبئة المياه بتقنية الناعورة أو السانية. انظر:

Colin. G.S, La noria marocaine et les machines hydraulique dans le monde arabe, Hesperis, 1932, p 22-60.

⁵ - Robaux. A, L'eau et la vie dans le sud marocain, In RGM, n° 1-2, Rabat, p 30.

⁶ - Dresch. J, L'agriculture en Afrique du Nord, Paris, 1956, p 69.

⁷ - Deverdun. G, Marrakech des origines a 1912, Rabat, 1959, p 16.

⁸ - تطرح هذه المسألة اختلافا بين الباحثين، ترجع أغلب المصادر الوسيطية تاريخ تقنية الخطارة بالمغرب إلى العهد المرابطي، وأخرى تُقدرها أبعد من ذلك خلال القرن التاسع وربما الثامن. لمزيد من التوسع يمكن العودة إلى:

Ajloui. M, La mine d'argent d'Imidar et la question de Tadgha VIII-X siècle. Vers une hypothèse, Hesperis. Tamuda, Vol XXXII, 1994, p 11.13.

⁹ - عكس الأطروحات التي دافعت عن الأصل الصحراوي للخطارة (كولان- دريش- دوفيردان- باسكون...) نجد كوبلو يدافع عن الأصل الأندلسي.

Goblet. G, Les quants une technique d'acquisition de l'eau, Mouton éditeur, 1979, p 152-155.

¹⁰ - Pascon. P, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1983, t1, p 114.

في ضياع كمية مهمة من المياه كلما قطعت أكثر من عشرين كلم، حيث لا تتعدى مردوديته 50 بالمائة، إذا ما قورن بشبكة عصرية منيعة قد تصل إلى 80 أو 90 بالمائة.

من جهته تحدث إميل لاووست E. Laoust عن "ماف أمان" ببلاد انفيضة، فئة من الناس تمتلك الخبرة التقنية لاستنباط المياه الجوفية وفق طقوس خاصة، مقابل منحهم نصيبا من هذه المياه كأجرة لهم². ما يجعل هذه الفئة تستفيد بدورها من الحقوق المائية الفردية والجماعية، لكن في توافق مع ضوابط القانون العُرفي. وعند دولاشابيل De La Chappelle نتوقف عند غرامات المجتمع القبلي المؤطرة لعمليات التدبير الاجتماعي للماء، فمن لم يُوفر عاملا أو عدة عمال حسب ما طلبه منه الشيخ/ الأمغار يُؤدي غرامة قدرها 12 موزونة³، وجرت الأوفاق على ألا يُقبل الأمغار حضور الأطفال الذين لم يبلغوا بعد سن الصيام، ومن أرسلهم يؤدي غرامة قدرها مئقال واحد⁴، ومن كسّر الساقية أو خرّب جزءا منها يعمل على اصلاحها على الفور، وإذا رفض يؤدي غرامة قدرها مئقال واحد. وقد تصل عقوبة تبرم الناس من المشاركة في حد الصايم، أغنياء وفقراء، إلى غرامة مقدارها مئقال واحد.

في حقيقة الأمر، استطاع المجتمع القبلي قبل الاستعمار أن ينتج تنظيمات اجتماعية مائية مستجيبة لشروطه الطبيعية، ومُعبرة عن ثرايته الاجتماعية. تصدّر الماء جُل الاهتمامات، وحظي بالعناية والتدبير من طرف شرطة الماء/ حراس السواقي... ففي المجتمعات الواحية وجد شخص يدعى "أنكيفي" يصعد مع الساقية حتى مفترق السواقي الرئيسية بالعالية لمراقبة السقي لتفادي تسرب المياه، ولمنع أي سرقة لها، والتأكد من صلاحيتها، وقدرتها على تزويد سكان القصر أو القصور المختلفة بالماء⁵. هذه المهمة نجد لها تسميات مختلفة، ففي واحة درعة تسمى "إمزورفا"⁶، وفي المجتمعات الجبلية مثل اسكساون سمي ب "إمازالن"⁷. هذه المجتمعات التي سبق أن عاينها جاك بيرك تميز تنظيم الماء بها بطابع التركيب.

¹ - يمكن الحديث هنا عن نظام "الأغرور" الذي رصده كل من إميل لاووست وبواحات الجنوب الشرقي وبول باسكون في منطقة الحوز، والأغرور نظام تقليدي يعتمد على الطاقة الحيوانية في رفع مياه الآبار، ومياه بعض الأودية أحيانا. انظر

Pascon. P, Le Haouz du Marrakech, Thèse d'état, 2 vols, Rabat, p 114.

² - Laoust. E, Mots et choses Berbères, Notes de linguistique et d'ethnographie, Société marocaine, 1920, p 426-427.

³ - De La Chappelle (L.T), Note sur la confédération des Ait Atta (Ait Izza), Centre de documentation sociologique, 1931, p 23-24.

⁴ - Ibid, p 23.

⁵ - مهديان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي بواحة تودغي، جامعة ابن زهر، أكادير، 2012، ص100... والكتاب في الأصل أطروحة جامعية نوقشت يوم 8 ماي 2007 لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، تخصص علم الاجتماع بجامعة الحسن الثاني بالمحمدية، تحت اشراف رحمة بورقية، ضمن وحدة التكوين والبحث في الماء والحضارة.

⁶ - Ouhajou. L, Espace hydraulique et société au Maroc, Cas des systèmes d'irrigation dans la vallée de Dra, Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines d'Agadir, Série, Thèse et mémoires, n° 7, p 131.

⁷ - Berque. J, Structures sociales du Haut- Atlas, op.cit, p 107.

الشكل رقم 22: جدول نموذج عن التنظيم المركب لنوبات السقي في قبيلة سكساوة¹:

المستفيدين من نوبات الماء	أيام الأسبوع					
	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
أيت داود	ابتداء من الصباح	إلى صلاة العصر				
أيت منصور		ابتداء من العصر	طيلة اليوم			
بين وادي بوخمسين وزيت باشتوت			ابتداء من العصر	طيلة اليوم	إلى غاية صباح يوم الجمعة	
أسفل وادي بوملوان وأورتي ن سعيد					طيلة يوم الجمعة	
ساقية وخربين تابارتجوت	*	*	*	*	*	*

تتدخل مؤسسة اجماعة بتكليف شخص أو عدة أشخاص حسب الحاجة بحراسة ومراقبة السواقي بالتناوب بين المستفيدين من الحقوق المائية. بمقابل ذلك، لا يوجد انتظام في أنظمة السقي بين القبائل المغربية؛ فبقدر ما اعتمدت بعض التنظيمات الاجتماعية على نظام "حد الصايم" وخاصة في المناطق الواحية، بقدر ما وُجد نظام مائي اعتمد على تحديد حجم العمل بمدة الجريان التي تحصل عليها كل عائلة من المياه يدعى نظام "تاكورت". نظام تاكورت هذا هو من يُحدد الواجبات المترتبة عن حقوق الأرض والماء، ويُوزع الأشغال المرتبطة بمختلف عمليات السقي... إنه يتخذ دلالة خاصة داخل هذه المجتمعات، إذ يُعبر عن عملية الانتقال، من توزيع مياه الخطارات إلى توزيع الأراضي الزراعية، وبالتالي يسند حقوق عائلة من مياه الخطارة بحقوقها من الأراضي الزراعية. كل عائلة تشارك بعدد من أيام العمل حسب عدد "تيكورا" التي تتوفر عليها من مياه السقي ومن الأراضي الزراعية داخل القطاع الزراعي².

¹ - Berque, J, Structures sociales du Haut- Atlas, op.cit, p 156.

² - مهديان امحمد، المصطلحات الخاصة بتوزيع الماء عند أيت عطا بالجنوب المغربي، المصطلحات الجغرافية الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الندوات والمناظرات، رقم 27، 2011، ص 137.

رهنت مؤسسة اجماعة توزيع المياه حسب عدد أيام العمل التي شاركت بها كل عائلة، وداخل كل عائلة يتم تقسيم الماء حسب عدد أفرادها وعظامها، وقد يصاحب ذلك تقسيم مواز بسبب عملية الإرث إلى نصف وربع وثمان... وبإمكان كل عائلة أن تزيد حصتها من الماء عن طريق شراء الحقوق المائية، دون تمكينها الحق من شراء الأراضي... يُسمى هذا النوع من الماء بالماء الأعزب. نظام يتميز بالتقلص والتمدد حسب نفوذ ووجهة كل عائلة.

أشرفت مؤسسة اجماعة داخل المجتمع القبلي على عملية توزيع الماء بالاعتماد على قياس مدة الجريان باتجاه المزارع عن طريق النوبات المائية، والنوبات كانت تقاس بالأيام والليالي ومواقيت الصلوات¹ أو الساعة الشمسية² أو نظام احتساب الظل³... أو بالقياس مع ظل بعش الأشياء الثابتة كالجدران، أو احتساب حركة النجوم بالليل⁴... (الشكل 10-11-12). ففي منطقة الحوز كما يؤكد على ذلك البوغالي كانت تتم معرفة توقيت منتصف النهار بقياس ظل الشخص الواقف بأقدام نفس الشخص، حيث يتم تحديد عدد الأقدام في صلاة الظهر حسب الأشهر والفصول، مع وجود قاعدة تقول بضرورة إضافة 7 أقدام على هذا العدد المحصل عليه لمعرفة توقيت أذان العصر⁵. لذلك كان أصحاب الحقوق المائية ينتظرون حتى يصل الظل إلى ذلك العدد من الأقدام ليتم تحويل المياه إلى حقولهم.

الشكل رقم 23: جدول قياس مواقيت صلاتي الظهر والعصر بعدد الأقدام حسب أشهر السنة⁶

الأشهر	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليو	غشت	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر
أذان الظهر	9	7	5	3	2	1	1	2	4	5	8	10
أذان العصر	16	14	12	10	9	8	8	9	11	12	15	17

ميزت الباحثة الفرنسية شيش Chiche بين ثلاث طرق في تقسيم الماء بالمناطق المغربية⁷:

❖ نظام ذو نقط محددة، حيث يتم اللجوء إلى جدول لتحديد المدة الزمنية:

¹ - يتم توزيع الماء حسب مواقيت أذان الصلوات حيث نصيب عائلة x من الماء يبدأ من أذان العصر حتى توقيت أذان المغرب، ونصيب عائلة y من أذان صلاة المغرب إلى أذان صلاة العشاء.

² - التوقيت الشمسي نظام يعتمد على توزيع نوبة السقي إلى نوبتين: نوبة النهار ونوبة الليل، وكل نوبة قد تنشط إلى أربعة أرباع.

³ - نظام احتساب الظل حيث يتم تتبع ظل بعض الأشياء أو حتى ظل الرجل الواقف لمعرفة مواقيت توزيع المياه واحتساب حقوق الماء.

⁴ - Hammoudi. A, Droit d'eau et société dans la vallée de Dra, op. cit, p 113.

⁵ - Boughali. M, La représentation de l'espace chez le marocain illettré, Edition. Afrique Orient, p 157-158.

Ibid, p 157-158.

⁷ - Chiche. J, Description de l'hydraulique traditionnelle, In Bouderbale, et al : Petite hydraulique au Maroc, La question hydraulique 1, Rabat, pp 119-319.

❖ نظام ذو نقط غير محددة، حيث الزمن يساوي المدة التي يستغرقها الظل من نقطة إلى أخرى؛

❖ نظام يقسم اليوم إلى نصفين، النصف الأول يمتد من طلوع الشمس حتى منتصف النهار، والنصف الثاني من منتصف النهار إلى غروب الشمس.

جدير بالإشارة أن نظام "تناست" أو الساعة المائية الذي اعتمد في ضبط مقادير المياه اتخذ أسماء متعددة. شاع عند واحة نفزاوة التونسية تحت مسمى "القادوس"، وعند أهل الجزائر تناقل الناس فيما بينهم اسم "العالية"، و"الخروبة" بواحة فكيك، و"انفطر"¹ بدكالة، و"قسطاست"² عند سكساوة الأطلس الكبير الغربي، وعند أولاد جرار بتزنيت نجد "تيغيزا"³، و"تاناست"⁴ عند القبائل الأمازيغية بالجنوب المغربي وقبائل سوس مثلما يقول إميل لاووست⁵. واضح أن ظهور الساعة اليدوية أحدث تحولا في تدبير الماء بالمناطق المغربية، وأعاد ترتيب العلاقات بين ذوي الحقوق والزمن مع المجال المسقي، بل حرّر شيوخ الماء "إمغارن ومان" من احتساب عدد التناسات وحراستها من عمليات الغش والتدليس.

نظرت الاستوغرافيا الأجنبية إلى نظام تناست كأبداع تقني محلي مكن من خلق توازن واستقرار التنظيم الاجتماعي المغربي، وحافظ على استمرارية الحقوق المائية في مجتمع لم يخلف عقودا مكتوبة. بيد أن هذا النظام المعقد تطلب جهدا كبيرا ومراقبة دؤوبة على امتداد الليالي والفصول من أجل ضمان فاعليته في سير النسق القبلي. وإن بدت الضرورة أحيانا إلى الإشارة إلى بعض التجاوزات التي كانت تقع من حين لآخر من لدن بعض ذوي الحقوق من خلال رمي الأحجار الصغيرة أو عظام الثمر أو حصى الرمل داخل إناء تناست بهدف تأخير امتلاء الإناء، بهدف الزيادة في مُدد الحصص المائية⁶.

¹ - انفطر تعني إناء الكيل المستعمل في تقدير زكاة الفطر.

² - Berque. J, Structure sociales du Haut- Atlas, op. cit, p 150.

³ - Ftaita. T, Anthropologie de l'irrigation, Les oasis de Tiznit, Maroc, Harmattan, Paris, 2006, p 84.

⁴ - تاناست مشتقة من أناس التي تعني في الأمازيغية النحاس...تعود سكان المناطق الواحية والجبلية على حساب مدة امتلاء الإناء بعد وضعه في إناء كبير مملوء بالماء، حيث يتسرب إليه الماء بشكل طبيعي إلى الفتحة الموجودة أسفله إلى أن يسقط بعد امتلائه، ليتم وضعه من جديد فوق سطح الماء...نعثر على تعريف نظام تناست عند عمر أفا "...إناء بسيط =مصنوع من النحاس على شكل نصف كرة، بأسفله ثقب دقيق يتم تزويده بقطعة نحاسية سمكة للحيلولة دون توسيعه من طرف الماء أو أي تدخل خارجي، ليضل بذلك ثقبا ثابت الفتحة، ويعتبر مقدار فتحة هذا الثقب وحجم الإناء المقياس الذي تقاس به المدة الزمنية اللازمة لضبط حجم الجريان أثناء توزيع المياه..." أفا عمر، تاريخ أنظمة السقي التقليدي وتقنية تقسيم المياه في أحواض تزنيت، أعمال الأيام الدراسية حول مدينة تزنيت وباديتها، من 12 إلى 14 نونبر 1993، منشورات كلية الآداب بأكادير، دار المعارف الجديدة، الرباط، ص 115-145، صفحة الاقتباس ص 120.

⁵ - Laoust. E, Mots et choses berbères, op. cit, p 414.

⁶ - مهدان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي بواحة تودغي، مرجع سابق، ص 111.

ويحدث في الفترات الوافرة المطر أن تلجأ القبائل المغربية إلى نظام "تراشت" لاحتساب المجرى المائي، وهي طريقة تحتسب المدة التي يستغرقها وصول الماء إلى مختلف مناطق القطاع الزراعي التي تسمى تراشت¹. يتم هذا الاحتساب بنظام تناسبت من خلال حساب التناسبات التي يستغرقها وصول الماء من مفترق السواقي الرئيسية إلى مفترق السواقي الثانوية.

مُجمل الإنتاجات الاجتماعية التي اقتربت من موضوع الهيدروليكية الجبلية ركزت عموما على ثلاث مداخل أساسية²: الماء كمادة لإنتاج الغذاء؛ الماء كميكانيزم اجتماعي، وأخيرا الماء كوسيلة دفاعية³. وبقدر ما استحدثت محدودية الموارد المائية مغاربة الأمس على تطوير تقنيات الاستغلال، ودفعهم نحو تشكيل تنظيمات اجتماعية مُحكمة، وتطوير زراعة متكيفة مع بيئتها ومحيطها...بقدر ما ظهر الماء داخل المجتمع المغربي بمثابة الضابط لسير المؤسسات الجماعية عن طريق التسيير والصيانة، وعنصر عاكس للحظات الانعطاف الكبرى في تاريخ البلاد⁴.

يحدث حينما يلتقي الماء بمجال جغرافي معين، أن تطرح منذ البداية أسئلة حول مصادر المياه، وأشكال الاستقرار البشري المرتبطة به، وأنماط التعبئة والتدبير التي تمارسها التنظيمات الاجتماعية والسياسية⁵، وأخيرا فرز مستويات التراتبية الاجتماعية...لقد أكدت بعض المونوغرافيات المغربية في المجال الواحي والجبلي تحديدا صفة الثبات التاريخي للنسق المائي بمغرب ما قبل الحماية⁶.

¹ - نفسه، ص 112.

² - من بين الإسهامات التي أغنت موضوع الهيدروليكية الجبلية بالمغرب نذكر:

Dresch. J, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du grand- Atlas, pub I.H.E.M, 1941, et Berque. J, Les structures sociales de Haut Atlas, Paris, P.U.F, 1955.

³ - مهديان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، مرجع سابق، ص 6. دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي بواحة تودغي، جامعة ابن زهر، أكادير، 2012، ص 6.

⁴ - يُبرز الماء لحظات الانعطاف الكبرى في تاريخ المغرب، بدأ هذا التدبير المائي من أساس قبلي تضبطه الأعراف والتقاليد المحلية. تم انتقال في مرحلة ثانية نحو أساس مؤسساتي تضبطه القوانين والمراسيم، قبل أن ينتهي في كنف جمعيات المجتمع المدني...وراء هذا الانتقال تبرز لحظات زمنية فارقة مهمة للمؤرخ، إن على المستوى الذهني أو على المستوى القانوني...

⁵ - يقصد بالتدبير الاجتماعي تتبع ظهور وتطور أنظمة توزيع السقي، كشفا للأصول والاختلالات...ومعرفة طرق السقي حسب الحيازات والمزروعات، إضافة إلى أشكال حماية التربة والمجاري المائية من الفيضانات...لهذا فالتدبير الاجتماعي للماء هو محاولة للكشف عن طبيعة الصراعات والمنافسات التي يكون محورها الماء، واستدعاء خبرات المجتمع المحلي للحفاظ على التوازن والتماسك وضمان الاستمرارية انطلاقا من ثنائية المراقبة والمعاقبة.

⁶ - ركزت الدراسات المونوغرافية على أهمية الماء داخل مجتمع الواحات، وخاصة على مستوى التدبير الاجتماعي وتحويل المياه وتوزيعها وحل النزاعات...يمكن العودة إلى:

Mezzine. L, Le Tafilalet :Contribution à l'histoire du Maroc au XVII et XVIII siècle, 1977, Rabat.

أعفيف محمد، مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي، توات في القرن التاسع عشر، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1982، مرقونة.

مزبان أحمد، فكك، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1903-1945)، 1986، مطبعة فجر السعادة، 1988.

من شأن كل تساؤل حول حجم ونوعية الموارد المائية أن يصب في تناول اشكاليتي الوفرة والندرة في تاريخ المغرب، وأن يكشف عن التضامات والصراعات والتحالفات، وحتى الأدوات والتقنيات والممارسات¹. فإذا كان الجبل يجعل من مسألة "تجميع الماء واعداد التراب أمرا واحداً"²، فإن الواحات ميزت بين الأداتين، ووضعت الأولى موضعاً أكثر حيوية³. لأن البنية الزراعية كما يقول دريش تتميز بخاصية فريدة، حيث "للماء الحكم الأول والأخير"⁴. لا زراعة بدون سقي، ولا سقي بدون منابع ومصادر. ففي مجالات الندرة المائية كما مجال الأطلس الكبير-مجال المعينة- كان السقي يتم بعدة طرق. يتم ذلك بالاعتماد على استغلال مياه العيون والأنهار ومياه الآبار...بتوظيف الطاقة الحيوانية، أو اللجوء إلى تقنية الخطارة...هذا الوضع سمح للبعض بالحديث عن "حضارة مائية" بمكونات تقنية، تعتمد على أشكال تعبئة المياه وطريقة توزيعها، وتدفع نحو تشكيل نظام اقتصادي قائم على التكامل مسنود بنظام اجتماعي تراتبي في توزيع حقوق المياه في إطار قوانين محلية تضمن استمرارية التنظيم الاجتماعي...فوجود الماء يدفع نحو تشكيل حضارة مائية تعمل على خلق التوازن بين العناصر المكونة للمجال، كالمناخ والتربة والنباتات والانسان والماشية⁵. (الشكل رقم 27).

حاولت بعض الدراسات الاقتصادية أن تنطلق من افتراضات نظرية، تقيس من خلالها علاقة السلطة بالمجتمع قبل الاستعمار. لا سبيل لاستعادتها في الجملة والكلية، إلا تأكيداً أو دحضاً لافتراض أساس، يسمى بـ "إنتاج

البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن السابع عشر- مطلع القرن العشرين، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1988، مرقونة.

أنكام علي، اسهام في دراسة زاوية قصر تمكروت، 1645-1729، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1991، مرقونة.

¹- أكلزيم (أداة السقي) إمغارن ن تركا (شيوخ السواقي)، تاوالان ومان (نوبات السقي)، أوك (السد التحولي) عبارة عن مرتفع بسيط يتكون من الأحجار وأغصان الأشجار المثبتة بالطين، حيث يتم وضع هذه العناصر وسط سرير الوادي من أجل تحويل جزء من الجريان نحو المزارع. عبر سواقي يتم حفرها من طرف المستفيدين منها، ويتم وضع هذه السدود في الأماكن التي يضيق فيها مجرى الواد، ويكون الانحدار بسيطاً، كي يتمكن الماء من التحول نحو الساقية بسهولة. (مهدان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، مرجع سابق، ص 60). وتاركا (الساقية) قناة تمكن من حمل مياه الواد من السد التحولي نحو الحقول المزروعة، التي تتواجد عادة في منطقة مرتفعة عن مجرى الواد، وهو ما يفسر كون رأس الساقية يتواجد على بُعد مسافة طويلة عن الأراضي الزراعية. تكون الساقية غالباً على شكل موازي لخط مجرى الوادي، كما تتميز بانحدارها البسيط، وذلك لتمكين الماء من السيال بشكل بطئ دون إحداث خسائر في جنبات السواقي...

Benchrifa. A, Le monde rural marocain :diversité spéciale et culturelle, In, Sous la direction d'Agoumy. T, et Benchrifa. A, La Grande Encyclopédie du Maroc, Géographie humaine, p 40.

² - Berque. J, Les structures sociales du Haut- Atlas, op. cit, p 146.

³- في هذا الصدد يقول كرانكيوم "...في الواحات الأرض متوفرة، لكن انتاجيتها مرتبطة بسقيها، وعليه فإن ملكية الماء تظهر أكثر أهمية من ملكية الأرض وتكتسي بالتالي مكانة حاسمة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية الصحراوية..."

Granguillaume. G, de la coutume a la loi :droit de l'eau et statut des communautés locales dans le Touat précolonial, Peuples Méditerranées, n° 2, 1978, p 122.

⁴ - Dresch. J, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du grand- Atlas, op. cit, p 72

⁵- مهدان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي بواحة تودغي، مرجع سابق، ص 13.

الشتات" في المناطق القاصية عن مركزية المخزن، التي تفترض انعدام وحدة القياسات في الموازين والمكايل¹، القائم بالأساس، على معيار التقويم²، بمقتضى تعدد مراكز ضرب العملة داخل البلاد. يعلم مؤرخ اليوم أن واجب التفكير في أحوال المعاش البشري وسبل الكسب المادي هو من هيا له الشروط المعرفية لمحاورة ورش الاقتصاد المغربي قبل الاستعمار، وأحيا لديه فكرة التفكير في علاقة الإنسان بأدوات الإنتاج من أرض وماء ووسائل عمل...مثلما يعلم أن هذه الشروط هي التي سمحت له بإعادة دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة في تاريخ المغرب في علاقتها بالماء وإن على نحو ذهني³.

عمدت الاستوغرافيا الأجنبية منذ بداية تشكلها حول المغرب مؤوفي القرن السادس عشر أن تُشَرِّح علاقة التناقض بين الدولة والمجتمع. ستزكي في ما بعد أجهزة الحماية هذا التوجه⁴، وتستثمر هذا التناقض قصد حمل الأمة على التغيير، قبل أن تكون الأمة قد غيرت ما بنفسها⁵. مع الحماية أزيلت الأسباب الثلاثة التي كانت تحول دون تطور البلاد من قحوط ومجاعات وأوبئة⁶، بالقدر نفسه نجحت الحماية في تخليص المخزن من شبح القبائل دون أن تفلح في تجريدها من السلاح ونزعة التمرد. بفضل الحماية تمكن المخزن من وضع هندسة نهائية لتحركات قبائله، واستطاع ضبط وضعه الصحي، وانتقل كما يقول بوطالب من "معادلة العيش والبقاء للأقوياء" إلى "معادلة

¹ - عدم توحيد مسألة النقد في التعامل التجاري أثار استغراب الأوروبيين الذين وفدوا على المغرب ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر: Laroui A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1984), Maspero, 1977, p 49.

² - Berque J, Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, In Annales Eco. Soc. Civ, n° 3, 1953, p 292.

³ - في هذا السياق، نشير إلى أن معظم النصوص الاخبارية صممت عن طرح قضية المجذومين في تاريخ المغرب، وقد يعزى هذا الصمت إلى موجبات دينية وأخلاقية بالأساس، تُحرم مسألة التشفي في ما قد رآه وحكم...وتبقى هذه النصوص على العموم قليلة وغير كافية لتكوين تصور عن علاقة المجالات الهامشية بالفئات المنبوذة. سبق للحسن الوزان أن وقف عند حارة المجذومين، أو كما سماه بـ "ربض" المجذومين "...ومن هنا ربض آخر يسكنه المجذومين يحتوي على مائتي دار تقريبا، ولهم رئيسهم الديني الذي يجمع دخل الأملاك العديدة الموقوفة عليهم لوجه الله من طرف الأعيان وغيرهم من المحسنين، ويقدم إلى هؤلاء المرضى كل ما هو ضروري لهم بحيث لا يحتاجون إلى شيء، ويقوم رؤسائهم بتخليص المدينة من كل مجذوم، ولهم السلطة لإخراج كل من رآه مصابا بهذا الداء من فاس وإسكانه بهذا الربض..." الوزان الحسن، وصف افريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ص 278.

⁴ - ضمن هذا الإطار يمكن إدراج مساهمات إدوارد ميشو بليير وجورج سالمون، لقد اعتبروا هذان الباحثان أن الدولة هي أولا وقبل كل شيء جهاز يستخلص الضرائب من الناس مثله مثل المضخة التي تضخ الماء بلا توقف...ما يدفعها إلى القيام بجولة ضريبية تمثل نوعا من "الترويض والاخضاع"...حيث لم يكن تعامل السلطة دائما مطبوعا بالقسوة، بل هو نوع من التعايش الممزوج بالفوضى وبعض التجاوزات.

Bellaire. E.M et Salmon. G, Les tribus arabe de la vallée du Lekkous, 1905, Archives marocaines, t IV, p 134.

⁵ - بوطالب ابراهيم، معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد 12، 2006، ص 22.

⁶ - لتجذير النقاش التاريخي حول هذه الثلاثية يمكن العودة إلى كتابين مرجعيين: الأول يعود إلى روزنبرج برنار، التريكي حميد، المجاعات والأوبئة في المغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حزل، الطبعة الثانية، دار الأمان، الرباط، 2010. والكتاب في الأصل دراسة مطولة نشرت في مجلة هسبريس تمودا سنتي 1973 و1974، ضمن عدديها 14 و15. صدرت الترجمة العربية في طبعتين لنفس المترجم، الأولى في 2007 عن دار النشر جذور، والثانية في 2010 عن دار الأمان...والكتاب الثاني يعود إلى البزاز محمد الأمين. تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.

الحياة للجميع"¹، وأساساً، من اقتصاد الحانوت والدكان إلى اقتصاد المعمل والفابريكة. الحاصل، مع الحماية ارتسم مشهد اقتصادي بالغ التفاوت، بين من أخذ بناصية تقليد المعمرين، وبين من بدا وكأن الركب قد توقف به قبل سنة 1912م.

عودة إلى نظرية "إنتاج الشتات"، واضح أن معظم الأبحاث الأجنبية سارت في منحى الإجابة عن إشكال مركزي يرتبط بإشعاع الدولة وفعاليتها داخل المجال، في لحظة زمنية مخصصة تميزت بالارتداد والتراجع، وبتوتر العلاقة بين مكونات الجهاز المركزي والمحلي. وعبر هذه الإشكالية تعمدت الاستوغرافيا الأجنبية في تحليلها لبنية التنظيم الاقتصادي قبل الاستعمار السكوت عن الإطار المذهبي المرجعي الناظم لكل الممارسات والتدخلات، نقصد به المذهب الفقهي، أفلا يقود هذا السكوت بالضرورة نحو إحداث خلل في سرد الوقائع والأحداث؟ أفلا ينتج عنه بالاقتضاء تشكيل صورة ذي نفحة امبريالية، لا تنفك عن إبراز نقائص الترابط الاجتماعي المغربي؟ أفلا يقود نحو توجيه الوقائع نحو هدف معلوم؟ هذه الرؤية هي التي دفعت التحليل الأجنبي إلى أن يجعل من العسف الداخلي سبباً في تباعد السلطة والمجتمع. لا غرابة، أن يصرف هذا التحليل جهده في بحث أسباب الاهتزاز الاجتماعي خارج مدارات السلطة المركزية. لكنه أن يعرض عن ربط هذا الاهتزاز بالنأي عن فاعلية العلاقات الإنتاجية فإنه يكون قد أنتج نظرياً تحليلاً غير مكتمل الجوانب.

من حق البعض، مثلما يميل إلى ذلك صاحب أطروحة "اقتصاد المعاشات" الفرنسي نيكولا ميشيل N. Michel أن نعتبر انصراف عموم هذه الأبحاث عن التفكير في أنماط الإنتاج في مرحلة من المراحل، قد يجد تعليله في ببطء حركة الإنتاج خلال القرن التاسع عشر، ما دام هذا الإنتاج ظل مُقيداً باقتصاد بطيء يؤطر ضمن حلقة الاكتفاء الذاتي، وعلى مشاركة الأغلبية في الإنتاج دون أحقيتها في الاستفادة منه في التوزيع، بتقنيات موروثية عن الزمن البائد، وخبرة محلية أمنت حدود الاستهلاك المحلي دون تطلع إلى مراكمته، وإنتاج صناعي منزوع بطابع فردي داخل البوادي مثلما استنتج ذلك أحمد التوفيق².

¹ - بوطالب إبراهيم، معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين، م س، ص 23.

² - نجد عند أحمد التوفيق هذا الترابط، بين الاقتصاد القروي والأسواق الأسبوعية في منطقة إينولتان (التوفيق، أحمد، م س، الجزء الأول، ص 249-268). وهي نفس الفكرة التي نصادفها عند دانييل شروتر في مجال الصورة وظهرها، إذ عدّد حوالي 34 سوق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بكل من حاحة والشيظامة وشمالي إداوتنان.

Schroter, D, Merchants and Peddlers of Essaouira, A social history of Morocco Trading Town (1844-1886), Ph.D. Thesis. Manchester 1984, p85.

كما عمد عمر أفا في منطقة سوس إلى إحصاء حوالي 55 سوق و29 موسم...أفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، سوس 1822-1906، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 96...كما نجد عند بول باسكون في تازروالت بناء على سجل الحسين بن هاشم رواج ما يقارب 87 مادة تجارية.

عموما ظلت المواد المتبادلة داخل الأسواق تحتفظ بطابعها الخام، دون تصنيع يذكر، مما يؤدي إلى توجيه الإنتاج نحو الاستهلاك، أو التحويل الجرفي أو التصدير بعد عقد وفق 1856، مع احتمال غيابها أكثر من احتمال وجودها، كما يقول المختار السوسي مُعلقا على المواد المتبادلة في موسم تازروالت¹. هكذا، طُبِع القرن التاسع عشر بازداوجية في الإنتاج، فردية وجماعية، زراعة معاشية تعايشت جنبا إلى جنب مع رعي متنقل²، تبعا لتعاقب أحوال الجذب والخصب، وسنوات العجف والسمان...والحال، أن مسألة الفردانية في الإنتاج هي من تفسر إلى حد كبير طبيعة الإنتاج المغربي قبل الاستعمار. لقد ظل الفرد المغربي مثلما عاين جاك بيرك في مجموعة سكساوة³ لا يستطيع الانفصال عن جماعته⁴، مثلما ظلت المشاركة في كل الأشغال رهينة تحقيق المصلحة الفردية والجماعية.

يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، تعدد السلطة القضائية على المستوى القانوني في مغرب ما قبل الاستعمار، ذلك أن القاعدة القانونية في مغرب الأُمس اتسمت بالاتساع، بين شرع إسلامي اعتبر هو الأساس، وعُرف محلي تركت له الصلاحية في المناطق التي لا تنالها الأحكام الشرعية. ولعل هذا ما يفسر إنتاج الشرع لأحكام عامة، بينما اتصف العُرف بالمواءمة والمحدودية في الزمان والمكان⁵.

-II- الماء بين زمنين: النقاشات وردود الفعل

قُدِم مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن الذي يليه في صورة البلد المنخور، المُمزق بالنزاعات، القريب من الانهيار...بلد يسكنه هدوء قاتل في انتظار المُنقذ. فبين المغرب الذي نقله عليه دولاكروا سنة 1832م، والمغرب الذي

Pascan. P, Le commerce de la maison d'Iligh d' après le registre comptable de Husayn b. Hachem, Tazeoualet 1850-1857, In Annales Eco. Soc. Civ, Mai, 1980, p 714.

¹ - "...ليس في كل وقت يوجد ما يراد من هذه الأشياء الحيوية..." السوسي محمد المختار، إيليج قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، 1966، ص 253.

² - Dresch. J, Le devenir des populations montagnardes du Maroc, In Bulletin économique et sociales du Maroc, n° 159-160, pp 227-229.

³ - يقول جاك بيرك: "...خلال الفترة التي كنت أحوار في أثناءها أهل سكساوة، لم أكن أتوفر على تكوين تخصصي في مجال الأنثروبولوجيا، وكانت كل معرفتي في هذا الميدان تقتصر على رغبة ملحة تدفعني لفهم سكان المغرب العربي...إن الشروط الخاصة لإقامتي في امتنانوت هي التي حددت توجهاتي الأساسية..." لا يجب أن نقرأ في هذا الإقرار بغياب إطار نظري مرجعي، بل فقط من زاوية التواضع العلمي لصاحبه.

⁴ - Berque J, Structures sociales du Haut- Atlas, PUF, 2 eme édition, Paris, 1978, p 459.

⁵ - ينتج عن هذه الفكرة تعدد الأعراف بين القبائل، نجد الألواح في منطقة سوس التي توقف عندها عمر أفا (مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، سوس 1822-1906، مرجع سابق، ص 419)، وأزرف في قبائل صنهاجة (التوفيق أحمد، م س، الجزء الثاني، ص 55)، وتايسا في قبائل الجنوب الشرقي كما هو الشأن عند العربي مزين.

Mezzine. L, Contribution à l'histoire du Tafilalet, Aspects d'histoire économique et sociale à travers l'analyse de quatre documents inédits, Tome II, Paris, 1977, p 252.

رسمه الرسام ماتيس 1911 يبدو أن شيئاً لم يتغير¹. المغرب الأول عُرض في أروقة المعارض، وقُدّم في ثوب "العنقاة"؛ والثاني تهافت عليه رجال الأعمال، وقُدّم في ثوب "جَنَّة الأرباح". صورة واحدة وزمن واحد. يجيب مؤرخ الاستوغرافيا: صورة مشروخة، متصدعة، منكسرة، لم تعد تجذب المؤرخين في كتابة تاريخ المغرب.

لم يلج الاستعمار إلى هذا البلد صُدفة أو مفاجأة، ما دام كان هناك وقت كاف لتلافي مصير مُنتظر، لكن نقطة الضعف التي كانت بادية عليه تتلخص في تعمق الانفصام بين الدولة والمجتمع من جهة²، والتشدد الإداري من جهة ثانية³، وتفسخ الرابط الاجتماعي بسبب شيوع ظاهرة الحماية الأجنبية من جهة ثالثة⁴. من المؤكد أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر لحظة حملت معها مؤشرات حاسمة: انعدام الأمن، انتشار عادة اختطاف الخيول وسرقة القمح، وحتى اختطاف النساء⁵. نقل إلينا شارل دوفوكو مشاهد كثيرة عن هذا الواقع، "كل واحد يكسب قوته ببندقيته" "لا يعرفون لا السلطان ولا الله، بل لا يعرفون إلا لغة البارود"⁶.

هكذا بدأت ممارسة العنف تنفلت من الضوابط القبلية. حتى في الجبال، كتب السلطان الحسن الأول رسالة إلى قاضي مراكش عام 1893 م "...لقد وصلني خطابك حين تخبرني أن أداء اختطاف الأحرار (النساء والأطفال) قد تفشى في الجبال، وبيعهم في الأسواق نظرا إلى كثرة الطلب على العبيد من طرف الأعيان والأغنياء..."⁷. وقبله كان السلطان مولاي عبد الرحمان أن أصدر ظهيرا عام 1863 م يقول فيه "...إن كل عبد استجار بالمخزن من أجل إنقاذه، لا يتم إعادته إلى سيده، إن كان يمارس عليه العنف أو يضربه..."⁸.

تمرد سكان مسفيوة سنة 1859 بقيادة بوخبزة على قائدهم الذي استحوذ على الأراضي، وقام بتحويل مجرى نهر أوريككة لسقي مزرعة يمتلكها السلطان في تسلطانت؛ وتمردت قبيلة الرحامنة عدة مرات في سنوات 1822 و 1861-

¹ - ريفي دانييل، تاريخ المغرب من مولاي ادريس إلى محمد السادس، المركز الثقافي العربي، ترجمة المهندس أحمد ابن الصديق، الطبعة الأولى، 2020، ص 239.

² - ريفي دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 240.

³ - Bellaire. E. M et Salmon. G, Les tribus arabes de la vallée du Lekkous, In Archives Marocains, t4, 1905, p 134.

⁴ - لقب المحميين ب "أهل الباسبور"، وشكل تزايد عددهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر شوكة في خاصرة المخزن، وخاصة من طرف أصحاب الامتياز ورجالات المخزن، تحصل المنبهي وزير الحربية على الحماية الأجنبية، والقائد المدني الكلاوي على الحماية الفرنسية، واحد أبناء يبروك تيكني التاجر الكبير في جنوب تزنييت على الحماية الاسبانية. وحتى البسطاء هروبا من تعسفات المخزن المحلي.

⁴ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 253.

⁵ - ينقل محمد الناجي شهادة أحد البدويين الجبليين حول ظاهرة استغلال النساء وبيع الأطفال في مغرب القرن التاسع عشر: "...إنها تمنحني اللذة والمتعة، وتمنحني الربح أكثر من أربع بقرات، فأنا أضاجعها وهي تحمل وتلد مولودا كل تسعة شهور، وعندما تلده ويبلغ أربع أو خمس سنوات أذهب به إلى المدينة، وأبيعه بثمن جيد..."

Ennaji. M, Soldats, domestique et concubines, L'esclavage au Maroc du XIX siècle, Ballond, 1994, p 71.

⁶ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance du Maroc, op. cit, p 24.

⁷ - Ennaji. M, op. cit, p 124-125.

⁸ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 274.

1862 و 1894 التي كانت تطالب بالعودة إلى منطقة الحوز، وإعادة إدماجها ضمن قبائل الكيش¹. وحينما بالغ المخزن في إنهاك قبائله جراء تسديد مستحقات الهزائم العسكرية، انتفضت بعض القبائل بدون مقدمات مطالبة برحيل السلطان².

1- الماء وأزمة النقد: التأسيس وفقدان السيادة

ظل اقتصاد القبيلة يُدار داخل نسق مغلق، لم يكن يسعى إلى تحقيق الربح، ولا إلى مراكمة عناصر الإنتاج. كان الهدف تأمين الاستهلاك الذاتي، وضمان الكيان البيوكيميائي. لهذا، كان التنظيم الجبائي منسجم مع هذه المنظومة الاقتصادية عن طريق الدفع العيني. اعتبر بعض المؤرخين أن رواج النقد هو من فُكَّ البناء الاجتماعي، وقوض التوازن الداخلي، وأدخل عادات استهلاكية جديدة إلى البوادي والجبالي في اللباس والطعام (الملابس العصرية- الشموع- القناديل- السكر- الشاي...).

ثمة تحول أساس يقف عنده جُل مؤرخي التاريخ المعاصر، تحويل الضرائب في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان (1859-1873) من عينية إلى نقدية لتعويض نزيف معركة تطوان. حينما تتغير طريقة الدفع، بالضرورة تتغير شروط العيش، ويرافق ذلك الانتقال من نمط المعاش نحو نمط الاقتصاد المفتوح غير المتكافئ. والنتيجة تفكك الهياكل القبلية، وتحطم وسائل النضال التقليدية (المطامير) بحثا عن النقد³، واختلال منظومة المدخرات الغذائية مقابل ازدهار اقتصاد المُرابين والسماسرة. مضمون هذه الفكرة نلتقي به عند إفادات المراسلات الأجنبية حينما تصرح بأن ثروة المغرب تستند على امتلاكه عدد كبير من المطامير المملوءة بالقمح. يؤكد الرحالة الألماني لينز Lenz هذه الملاحظة بالقول "...يبدو أن المطامير الكبيرة لم تعد اليوم مستعملة، فلقد وُجدت جُلها فارغة، ومزاليجها مكسرة..."⁴.

عودة إلى مسألة النقد، نستعيد مشهدا صغيرا لتوضيب صورة مغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر. بصمت اللحظة الفارقة ما بين 1844- 1873 عن انهيار حقيقي في قيمة العملة المغربية، جعلتها تفقد تسعة أعشار قيمتها. انخفضت الأجور، وغلت المعيشة، وارتفعت الأسعار، وحدث تضخم نقدي. معلوم أنه في لحظة التضخم،

¹ - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, Maisonneuve et Larose, 1978, t1, p 35.

² - النموذج قبائل الحايانة شرق فاس، انظر:

- El Moudden. A, Etat et société rural à travers la harka au Maroc du XIX siècle, Dans The Maghreb Review, vol 8, p 141- 145.

³ - يقدم أحمد التوفيق في هذا الصدد نموذج الغدامي الذي باع ما تحصل عليه من انتاجه الزراعي، وقدره 12 صاعا من الشعير بست أواق للصاب، حتى إذا أملت مجاعة 1878 قل الزرع، وغلا ثمنه حتى بلغ 18 مثقالا للصاب، فندم حينئذ حيث لا ينفع الندم. التوفيق أحمد، إينولتان، م س، ص 326.

⁴ - Lenz. O, Tombouctou, Voyage au Maroc, au Sahara au Soudan, 1880, traduction Lehaut court, Paris, 1886, t1, p 196.

لا يصير حديث الناس عن الخبز، عن وجوده من عدمه، بل عن ثمنه في السوق. تحت تأثير ذلك قلص مغاربة النصف الثاني من القرن التاسع عشر من غذائهم اليومي إلى الحد الأدنى، وخلت موائد البيوتات الكبرى وخاصة الخاصة من الحليب والبيض واللحم والمواد الدهنية...¹.

2- متوالية الضغط المتسلسل: التسرب، الأوبئة، الاعتصار:

يُطلعنا جون لوي مياج J. L. Miegé عن حدوث أزمة غذائية ما بين 1847-1851 نتيجة نقص حاد في محصول سنتي 1845-1846²، وضعف محصولي 1848-1849. عادة ما صاحب هذه الأزمات الغذائية ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية في الأسواق. ففي الجنوب اشتدت المجاعة في سوس، عبدة، حاحا، دكالة، حوز مراكش... وهي الأقاليم التي يصعب تموينها من السهول الأطلنטיكية جراء صعوبة المواصلات وهلاك الدواب. نجد لهذه الأزمة صدى في رسالة أرسلها قائد السراغنة إلى العربي بن المختار بتاريخ 8 جمادى الأولى 1266/22 مارس 1850 "وهذا القطر الحوزي في شدة وضيق من عدم المطر، وغلاء الأسعار، وصل الزرع سبعة مثقالا، ووصل عندنا اثنا عشر مثقالا..."³. علّق مياج عن وَقَع هذه الأزمة قائلا: "...الناس يتساقطون صرعى جوعا..."⁴.

جاء القرويون الحقول والبراري بحثا عن الجذور والأعشاب، حتى سُمي هذا العام من طرف أهل البادية بـ"عام الخبيزي وإيرني"⁵. وصل بهم المطاف إلى أكل الجيف والميتة، وصاحب ذلك حدوث حركة نزوح قوية من الجنوب نحو الشمال، وخاصة من تافيلالت نحو فاس ومكناس⁶. ومن قبائل بني مسكين ودكالة وعبدة نحو الغرب والفحص⁷. من الناحية الاجتماعية، افترق الآباء عن الأبناء، وهربت الزوجات من البيوت، وبحث الناس عن الجبال ومواضع العيون والأشجار، وكثر الهرج والقتل بين الناس، وقطعت الطرق...⁸.

¹ - ن سجل في هذا الصدد ملاحظة أوردها القنصل العام البريطاني فليكس ماثيوس حول الغذاء في منطقة الشمال سنة 1887، وهي ملاحظة قابلة لأن تسحب على مجموع البلاد: "...يقتصر الغذاء اليومي في الأقاليم الشمالية على الخبز المصنوع من الذرة، وعلى وجبة من النباتات البرية، بينما الزبدة والحليب يعبران عن البذخ، أما اللحم والحوث فلا مكانة لهما في الغذاء..."

T61, Roll 14, Tanger, 27.9, 1884

أورده البزاز، محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 161.

² - Miegé. J. L, Le Maroc et L'Europe, op. cit, t2, p 220.

³ - أورده البزاز في هامش الصفحة 184.

⁴ - Miegé. J. L, Le Maroc et L'Europe, op. cit, t2, p 221.

⁵ - الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا، م س، الجزء التاسع، ص 61.

⁶ - Miegé. J. L et Hugues. E, Les Européens à Casablanca au XIX Siècle (1856- 1906), Hesperis, 1954, t XLI, 3 eme et 4 trimestre, p 220.

⁷ - Le Coz. J, Le Gharb, Fellah et colons, Rabat, 1964, t1, p 259.

⁸ - السوسي المختار، المعسول، الجزء 15، ص 10-11.

موسم 1864 في جُل المناطق الجنوبية جاء عاطلا جراء تراكم سنوات الجفاف وانحباس الأمطار طيلة فصلي الخريف والشتاء¹. انعدمت المراعي وجفَّت العيون فاخفتت البهائم والأغنام. وحلَّ الجراد الذي "...أكل النجم والشجر، وأعقبه فرخه المعروف بـ "أمرد" الذي أكل كل خضراء على وجه الأرض، واستلب الأعواد من أوراقها وقشَّرها من لحائها، وفاض في الأمصار حتى دخل على الناس في بيوتهم..."². ولم يكتف محتكرو الأقوات بقمح الأسواق، بل استحوذوا على مطامير البلاد. حيث ارتفع القمح من 17 فرنك تم 28 فرنك للهيكتولتر، والشعير إلى 12 فرنك، والذرة ما بين 12 و13 فرنك، والحمص ما بين 40 و50 فرنك³. ومع كل سلسلة جديدة من الوباء⁴، يكثر الفرع بين الناس في القرى والجبال وحتى الحواضر. وتترصد المنيّة بالناس، وتصير أقرب إليهم من حبل الوريد "...ومات من المسلمين كثير ومن الاسرائيليين أكثر..."⁵. كان البدوي بإفادة من المشرفي يأتي ليتسوق في الحاضرة فلا يرجع لأهله إلا ميتا محمولا على الدواب، وحتى المياومين الذين يشتغلون في أعمال الحصاد، لا يرجع منهم إلا القليل إلى أهله، "...حتى حُكي عن ابن السلطان أنه بعث يوما لحصاد الزرع نفرا كثيرا، مات منه 40 رجل في يوم واحد، بل في ساعة..."⁶.

نتوقف هنا عند توصيف الناصري لوباء 1854-1855 ضمن السلسلة الثانية من وباء الكوليرا، أو ما يسمى محليا بـ "بوكليب" "...اسهال مفرط يعتري الشخص ويصعبه وجع حاد في البطن والساقين، ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد اللون، فإذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعاً وعشرين ساعة فالغالب السلامة، وإلا فهو حتفه..."⁷. وقد سجَّل القنصل العام للولايات المتحدة أسوء مجاعة خلال القرن التاسع عشر 1878-1883، التي أتت بعد توالي المحاصيل الرديئة. يتعلق الأمر بعام يبس وقحولة حسب كل المصادر، المغربية والأجنبية على السواء، امتدت خلالها جيوب الجفاف إلى مختلف أنحاء البلاد. هلكت فيها الدواب بالآلاف من خرفان وماعز وأبقار وخيول وجمال... حسب رسالة قنصل فرنسا بالجديدة والدار البيضاء...⁸، وهي مجاعة غطّت على مرحلة السنوات الطيبة (1870-1876) التي اتفق الأجانب بجودة محاصيل القمح والشعير والذرة والفل والزيوتون.

¹ - البزاز، محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س ، ص 195.

² - الناصري، الاستقصا، الجزء 9، ص 119.

³ - Miegé. J. L, Une enquête agricole sur le Maroc en 1867, Bulletin E. S. M, n° 70.

⁴ - السلسلة الأولى من وباء الكوليرا (بوكليب) كانت ما بين 1834-1835، والسلسلة الثانية ما بين 1854-1855، والسلسلة الثالثة ما بين 1859-1860.

⁵ - الصديقي محمد، ايقاظ السريرة لتاريخ الصويرة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 76.

⁶ - المشرفي العربي، أقوال المطاعين، م س، ص 18.

⁷ - الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصا، الجزء التاسع، ص 69.

⁸ - يتحدث القنصل العام للولايات المتحدة إلى أن خيول السلطان قد أصابها الهلاك، ووصلت نسبة هلاك الدواب غي عبدة وحاحا مائة بالمائة. انظر:

حسب فون كورونغ Von Conring الذي أقام في المغرب عام 1877م فإن القحط بدأ من منطقة الغرب خلال هذه السنة، وسرى في أنحاء البلاد، مُسببا هبوطا كبيرا في أثمان الماشية والخيول¹. استمر الجفاف طيلة شتاء 1878 ولم تنزل ولو قطرة واحدة من السماء في أقاليم حاحا والحوز والرحامنة². يُدعم السفير البريطاني جون دريموند هاي في إحدى مراسلاته هذا الوضع بالقول: "...لم تبلغ الأمطار من شتنبر 1877 إلى بداية فبراير 1878 سوى 76 ملم مقابل 762 ملم إلى 1000 ملم في الأوقات العادية..."³. وحتى الذين حلوا خلال العقدين الأخيرين إلى المغرب لا يزالون يشاهدون في رحلاتهم بقايا عظام الماعز والبقر والخيول في البوادي والجبال. ويزيد ماتيوس على ذلك "...البقرة تباع بدولار واحد، أي ما يعادل خمس فرنكات، والكبش ب 0.20 دولار..."⁴ علما أن ثمن الكبش في الأوقات العادية يساوي ريالين، أي 10 فرنكات.

في مراكش بلغت خروبة القمح في شهر ماي 64 مثقالا، وخروبة الشعير 35 مثقالا، والزيت 22 مثقالا⁵. وفي دمناات وصل صاع الشعير 18 أوقية، بعدما كان ثمنه في الأوقات العادية 6 أواق⁶. وفي فكيك بلغ المد الواحد من القمح 6 ريالات فرنسية⁷. والأمثلة كثيرة من مناطق مختلفة من البلاد.

وجب الاقرار بمعطى أساس. لم يقتصر القحط على منطقة دون أخرى، تكون ملجأ للمتضررين والهاربين من مناطق الضرر. وإذا حضرت الأرقام بكثافة في توصيف مناطق الشمال بحكم تركيز مقر البعثات الديبلوماسية الأجنبية هناك، فإن مناطق الجنوب كانت أكثر تضررا في كل من حاحا والحوز وسوس وأيت باعمران. هكذا كتب ماتيوس في 14 يونيو 1878 يقول: "...إن الأقاليم الجنوبية (حاحا، سوس، مراكش) تعاني من المجاعة، وأن الغذاء الوحيد للفئات الفقيرة في هذه الأقاليم هو عروق إيرني...حتى لو تهاطلت الأمطار، فإن المجاعة لن تخف وطأتها بأي وجه..."⁸.

بالنهاية، كانت القحوط تُعري عن حقيقة التوازن الغذائي، تنحط المشاعر تحت وخزات الجوع، تتفكك الروابط الأسرية، تسود الهمجية، يكثر السطو على الأراضي والممتلكات من طرف ذوي النفوذ، يسيطر المرابون على المطامير،

A. T / 607, Casablanca, 15 Mars 1878.

أوردها البزاز محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، هامش ص 240.

¹ - Von Conring, Marruecos, El pais y los habitantes, 1677- 1878, 2 édition, Madrid, 1881.

² - البزاز، محمد الأمين. تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 238.

³ - Hay. J. D, A Memoir, Muray, London, 1896, p 323.

⁴ - T 61, Roll 11, 1878.

⁵ - البزاز محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 242.

⁶ - التوفيق أحمد، إينولتان، م س، ص 326.

⁷ - مزيان أحمد، دراسة في المجتمع الواحي بالجنوب المغربي الشرقي، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1985، الجزء الأول، ص 252.

⁸ - تقرير ماتيوس أورده البزاز، ص 246.

وتظهر في العلى عادة أكل اللحوم البشرية التي أطلت بوجهها الكريه في مثل هذه الظروف¹. وقف كامبو Campou على واقعة "...امراتين وهما تفترسان فلذتي كبديهما..."² هل هي من الحقيقة في شيء؟ هل تحتل المبالغة؟ الثابت أن القحط أناخ بكلكله على عموم البلاد. مقابل هذه الصورة، رصدت عدسة الملاحظين الأجانب بعض الفترات المطيرة، وإن كانت قصيرة زمنيا، مقارنة مع سنوات الجذب والقحط، إلا أنها استرعت بالانتباه. يتحدث قنصل فرنسا في الدار البيضاء عن شتاء 1878 "...منذ زهاء 12 يوما والأمطار تتهاطل بغزارة على طول السواحل، فار توت الأرض بعد أن كانت تحترق ظمأ للماء، كما أن عملية البذر بدأت على الأقل من الرباط إلى الجديدة..."³ بينما الجنوب لم تصله إلا قطرات مائية قليلة لم تحسن من وضعه⁴ بخلاف بعض الوثائق المغربية التي أكدت عكس ذلك.

في أعقاب كل لحظة أزمة هناك ممارسة وتدبير، ما إن تمسك السماء عن المطر، وتتبدى حقيقة الموسم العجيف، حتى يعمد السماسرة والمرابون إلى حجب الغلال عن السوق حتى يرتفع ثمنها حسب قانون العرض والطلب. يعمد أهل اليسار إلى شراء الأقوات وخزنها، و"...يبيع الناس أولادهم، ويأكلون ثمنهم، ويهجمون على بعضهم بعضا بقصد أكل متاعهم واشباع بطونهم"⁵. عادة ما كان أهل اليسار والمحامين بمنجى نسبيا من خطر الجوع وشبح الهلاك. سجّلت ملاحظات الأجانب بخصوص هذه الفترة ظهور عادة جمع الفلوس من مراكش وبيعها في فاس. "...قلّت الفلوس بمراكش، وتقاعد الناس عليها لما فيها من الريح وتعطل معاش الضعفاء بذلك، ولحق الناس ضرر كبير، فكان الرجل يطوف بالبيضة والريال في الأسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشتري من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بيضة..."⁶.

دفعت الجوائح نحو استيراد الأقوات من الخارج، خاصة الدقيق والقمح. استورد المغرب حسب جون لوي ميغ J. L. Mieg دائما حوالي 229.253 طن بقيمة 3243495 فرنك⁷. وبذلك، انخفضت قيمة العملة المغربية، وارتفعت قيمة صرف العملة الأجنبية. فمثلا ارتفع صرف الريال الإسباني من 13.5 إلى 20 أوقية عام 1853⁸. في كل جفاف

¹ - البزاز محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 248.

² - Campou. D. L, Un empire qui croule, Paris, 1986, p 40.

³ - البزاز محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 248.

⁴ - تقول وثيقة مغربية: "وأعطى الله المطربسوس والحوز، واخضرت البلاد وتنورت واهتزت وربت من كل زوج بهيج" من عبد السلام بن علي التهامي إلى محمد بركاش، 22 ذي الحجة 1295 / 18 دجنبر 1878...وردت هذه الرسالة ص 248.

⁵ - رسالة من مولاي الحسن إلى قائد اكدير عمر بن سعيد المتوكي، 16 جمادى الثانية 1297 / 26 ماي 1880، مجلة الوثائق، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، العدد 3، الوثيقة 500...وردت عند البزاز محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 253.

⁶ - الناصري، الاستقصا، الجزء 9، ص 163.

⁷ - Mieg. J. L, Le Maroc et L'Europe, t2, p 242.

⁸ - Ibid, p 242.

جديد يعود إلى الواجهة مسلسل النكبات الغذائية، ففي مدينة الصويرة يتحدث ميج عن هطول 46 ملم من التساقطات ما بين أكتوبر 1880 إلى فبراير 1881¹. وفي مراكش كان جون دريموند هاي قد عاين انهيار المحاصيل وموت الدواب وتفشي الجوع بين القرويين الذين كانوا يقتاتون على عروق النباتات².

بالنهاية، انهيار المحاصيل الزراعية كان يرهن البلاد بخيار الاستيراد من فرنسا وانجلترا³. وحتى توزيع الأقوات لم يكن ينتقل من منطقة التحسن إلى منطقة الخصاص بالسعر المقبول. ففي صيف 1882 بلغت الأزمة الغذائية ذروتها من الإملاق والموت الجماعي خاصة في الجنوب المغربي⁴. وضرب الناس المثل بسوس، حيث قلّت المياه، وتفشى الموت الزُّؤام على حد تعبير المختار السوسي⁵. وفي مراسلة سلطانية: "...بلغت المسغبة فيها حدا حتى خرجت صدور أهلها وضافت البلاد عنهم وهلكت مواشيهم ونفذ قوتهم واشتدت فاقتهم فلا ترى بها إلا من الفترة بادية على وجهه والفقر بين عينيه..."⁶. ما جعل القمح حسب ماتيوس يباع ب 40 فرنك لكل 100 كلغ، والشعير ب 22.50 فرنك⁷.

موسم 1883 وُصف في المصادر التاريخية المغربية بـ "ميمون خصب"⁸، لكنه جاء في وقت تقلصت فيه رقعة المزروعات جراء جفاف 1877-1882. تفيد مراسلة مخزنية بين قائد قلعة السراغنة والسلطان الحسن الأول حدوث تراجع في الانتاج. قابل السلطان الحسن الأول سنة 1883 بين خرص شيشاوة سنة 1300 / 1882 وخرص 1299 / 1881، فبعث إلى قائد السراغنة الذي أجابه: "...فالناقص بين خرص الحمري ست وستون خروبة، وفي ثمن البحائر سبعمائة مثقال وأربعة وسبعون مثالا وثلاث أواق، والناقص في خرص البزيوي مائة خروبة وسبع خرايب...". والجلي أن السلطان لم يفهم منطقا لهذا النقص "الذي له بال" وعندما استفسر عن سببه أجيب بما نصه: "...إن موجب النقصان في هذه السنة (1300 هـ) هو أن أهل شيشاوة والجعافرة وأهل رأس العيون ضعفوا ولم يبق فيهم من يقدر على كثرة الحرث وخدمة السواقي، وقد حرثوا بالبور من أجل ذلك ومن قلة

¹ - Mieg. J. L, Le Maroc et L'Europe, t2, p395.

² - رسالة سفير إنجلترا دريموند هاي. 26 مارس 1882 FO 99/202

³ - رسالة ماتيوس 29 يونيو 1882. T61/ Roll 13.

⁴ - البزاز محمد الأمين، تاريخ المجاعات والأوبئة، م س، ص 258.

⁵ - السوسي المختار، المعسول، الجزء 11، ص 89.

⁶ - رسالة مولاي الحسن إلى محمد بركاش، 5 ذي القعدة 1299 / 18 شتنبر 1882.

⁷ - رسالة ماتيوس، فاتح يوليوز 1883 T61/ Roll 14

⁸ - البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س، ص 260.

الزريعة عندهم إبان الحرث...وقد كانت المسغبة وارتفاع الأسعار في إبان الحرث ولم يحرث إلا من له القدرة على الحرث...¹.

حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الملاحظات تخص أقاليم الشمال، بينما حضر الجنوب لمأما في معاينات الأوروبيين. وكان علينا أن ننتظر حتى العقد ما قبل الأخير من القرن التاسع عشر لنكتشف مع دوفوكو واقع الجنوب المغربي، ولنتأكد من حقيقة تضرر المجالات الهامشية من وطأة الجفاف ومن وقع الأوبئة على البلاد². جاب دوفوكو أرض المغرب ما بين 1883-1884 من شماله إلى جنوبه. وعاین قری مُخرِبة، وساكنة منهكة³، وساكنة غير دقيقة العدد خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر⁴:

الشكل رقم 24: جدول تقديرات ساكنة المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الفترة	التقدير	المصدر
بداية القرن XIX	14.886.600	J. G. Jackson, 1809.
بداية القرن XIX	8.500.000	J. Graberg di Hemso, specchio geographico...Genova, 1834
منتصف القرن XIX	4.500.000	E. Renou, Description géographique de l'Empire du Maroc, Paris, 1856.
النصف الثاني من القرن XIX	12.000.000	Tissot. Ch, Itinéraire, Bulletin Soc. Géo, Paris, 1876.
النصف الثاني من القرن XIX	3.000.000	Rohlfs. G, Die Bevolkernug Marokkos, Brême, 1892.
النصف الثاني من القرن XIX	5.500.000	Jannash. R, Die Deutschehandels, Expédition 1886, Berlin, 1887.
النصف الثاني من القرن XIX	8.000.000	Erckman. J, Le Maroc moderne, Paris, 1885.
النصف الثاني من القرن XIX	24.000.000	Moulieras. A, Le Maroc inconnu, t2, Paris, 1899.
النصف الثاني من القرن XIX	7.000.000	Mathews. F, Lettre d Avril 1880, t61/ Roll 13.
بداية القرن XX	4.000.000	Canal. J, Géographie générale du Maroc, Paris, 1902.
بداية القرن XX	4.000.000	Piquet. J, Le Maroc, Paris, 2 eme édition, 1918.
بداية القرن XX	6.000.000	Goulven. J, Le Maroc, Paris, 1919.
بداية القرن XX	4.500.000	Laras. N, La population du Maroc, Bulletin. Soc. Géo, Paris, 1906.

¹ - رسالة من قائد السراغنة إلى مولاي الحسن، 28 صفر 1301 / 21 دجنبر 1883، مخطوط الخزانة الحسنية. وردت عند البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س، ص 260.

² - بخصوص وباء الكوليرا بمراكش يتحدث الطبيب الفرنسي ليناريس عن كون الجثث كانت توجد كل صباح على قارعة الطريق، وعدد الضحايا يقدر بحوالي 300 ضحية في اليوم. وفي مراسلة ماتيسوس بتاريخ 20 أكتوبر 1878 م يذكر أن عدد موتى الوباء بلغ 150 ضحية في اليوم، لترتفع حصيلة الخسائر خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة إلى 12.000 ضحية.

³ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance au Maroc, 1883-1844, 1 édition, Réédition, 1939, pp 207-213.

⁴ - البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س، ص 289.

من كل ما سبق نصل إلى بناء المعادلة التالية: بقدر ما دفع التسرب الأوروبي نحو استنزاف مكثف لموارد وخيرات البلاد، وتركها عارية أمام عنف الطبيعة وتطرف المناخ. بقدر ما لجأ محزن النصف الثاني من القرن التاسع عشر نحو تشديد قبضته على رعاياه ضريبيا. وبالتالي، هناك انتظام بين ثلاث مسارات نسميها بـ "متواليّة الضغط المتسلسل": التغلغل الأوروبي من جهة، وارتفاع قسوة المجاعات من جهة ثانية، والاعتصار الضريبي من جهة ثالثة.

حينما كانت الظروف المناخية والصحية تشتد في الحواضر، كانت الفرصة مواتية لبدء مسلسل التخلص من الأفاقين الملتجئين إليها، ومطاردة المتسولين المرابطين في الأسواق والزوايا قصد ترحيلهم مقابل مساعدات نقدية وغذائية. يجب قراءة المسألة من جانبين: لحظة الجفاف أتت على قوة العمل والانتاج، والأمطار المفرطة أتلقت المزروعات البكرية.

لجأ غالبية المزارعين في الجنوب المغربي، وخاصة في سهول الأطلس الكبير إلى حصد محاصيل الشعير المبكرة واستهلاكها عن آخرها¹. ومع هطول أية قطرة مطر يسود الاعتقاد بعودة الرخاء، ولو أن الأمر يتطلب سنينا عددا. كانت مجاعة 1880-1879 ذات طابع محلي، جعلت مخزن الحسن الأول يعتمد إلى أسلوب تحريك الغذاء من مناطق التحسن النسبي نحو مناطق الخصاص.

تاريخيا لم تُسعف المجاعات والأوبئة في إمداد جسور التضامن الاجتماعي بين مكونات المجال المغربي مدينة وبادية وجبلا، بقدر ما زادت من تعميق جراحاتها. دفعت هذه اللحظات الصعبة من تاريخ البلاد إلى حدوث نزوح كثيف للقرويين نحو مناطق التحسن النسبي. مثلما لم تكن المدينة ذلك ينبوع الفيض القادر على تشكيل قاعدة متينة لإرجاع دورة الحياة إلى سابق عهدها كما حدث في تاريخ أوروبا². كانت الوظائف الحضرية مخصصة حصرا لإشباع حاجيات أهل الحواضر أكثر مما هي موجهة إلى تنمية وسائل الانتاج³. ظل القروي لا يثق في الحضري، وبينهما مُسحة من العنف والحقد المتبادل.

في نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وبعد استراحة قصيرة دامت من 1885 إلى غاية 1889م، عادت موجة جديدة من النكبات. تتحدث المصادر الأوروبية عن فترة الاستراحة القصيرة، يبقى القمح مكدسا على ارتفاع المنازل، ويوجد منه بقارعة الطريق 120.000 كيس⁴. ويذكر جون لوي مياج J. L. Miegé غلات الزيتون التي جادت بإنتاج وافر، جعلت السلطان الحسن الأول يخرج للبيع 600 طن من الزيت بعد أن لم تكف مخازن مراكش لادخار

¹ - رسالة ماتيوس بتاريخ 20 ماي 1897 ضمن T61/ Roll 12, 1897.

² - Roupnel. G, La ville et la campagne au XVII siècle, Paris, 1955, p 101.

³ - البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س، ص 308.

⁴ - Boix. Ch, Années de disette, Années d'abondance :sécheresse et pluies au Maroc, In Revue des calamités, Genève, 1949.

الفواض منه¹. وانتقل القمح من 10 فرنك و20 سنتيم عام 1884 إلى 7 فرنك و75 سنتيم عام 1886، واستقر متوسطه خلال سنة 1887 في 7 فرنك وما دونها خلال السنة الموالية². هكذا يتفق المؤرخون على أن نهاية فترة الحسن الأول شهدت رخاء ومعالم انتعاش. لكننا سرعان ما نتفاجأ مرة أخرى بتقرير للبعثة العسكرية الفرنسية مؤرخ بتاريخ 17 فبراير 1890 يحمل تحذيرا واضحا: "...إن كل المناطق الممتدة من مراكش إلى طنجة مُهددة بالمجاعة..."³. هذا التخوف الذي أبدته البعثة العسكرية تجسد عمليا في جفاف عام 1891م الذي ضرب عموم المناطق الجنوبية، وقاد نحو ضياع المحاصيل، ونضوب المراعي، وهلاك عدد كبير من الدواب⁴، مع ما رافق ذلك من غزو كثيف للجراد في مراكش. لقد عاين لامارتنير La Martinière أثناء مروره بتارودانت الأضرار الجسيمة التي ألحقها الجراد نواحي المدينة. بقيت مدينة مراكش حسب قول لامارتنير "...أشجار عارية، وأرض يابسة بعدما كانت عبارة عن بساتين فيحاء..."⁵. وفي مدينة الصويرة في أعقاب هذا الجراد تفشى وباء الجدري، الذي كان يخلف يوميا ضحيتين إلى ثلاث⁶. ومن الصويرة انتقل هذا الوباء إلى مراكش وسوس⁷.

هناك وجه آخر لهذه المسألة، ردود الفعل العالمية والشعبية تجاه تردد الأوبئة والمجاعات في تاريخ المغرب. جوبهت لحظات المجاعة والأوبئة بقاموس فقهي/ شعبي ينزع إلى تحويل ظواهر الطبيعة إلى عالم الغيبيات. أدرج الانسان المغربي قحوط المواسم الفلاحية، وتسלט جحافل الجراد، وانتشار الجوع والمسغبة...ضمن سلسلة العقاب السماوي جراء ذبوع المناكر ونزول المصائب، وتوالي الآثام التي زاغت بالإنسان المغربي عن الطريق القويم. يمكن أن نميز في هذا المستوى من التحليل بين منظورين: منظور أول ألقى بمسؤولية الكارثة على الحكام، ومنظور ثان اعتبرها عقابا سماويا لانتشار المعصية بين الرعايا⁸. لا نستغرب حينما نجد الخطاب العالم يربط بين رفع السلطان الحسن الأول ضريبة المكس ونزول المطر الغزير. قوبل اسقاط مستفاد المكس برضا السماء التي جادت بأمطارها

¹ - Miegé. J.L, Le Maroc et L'Europe, op. cit, t IV, p 12.

² - Ibid, p 92.

³ - A. M. G. V, L6, Fez 17. 2. 1890.

⁴ - A. T/ 96, Mogador, 15.2.1892.

⁵ - De La Martinière. H, Souvenirs du Maroc, paris, 1919, p 260.

⁶ - A.T/ 96, Mogador 3.1.1892.

⁷ - Miegé. J. L, Le Maroc et L'Europe, op. cit, p 90.

⁸ - تفيد رسالة بعثها الفقيه عبد القادر الفاسي إلى الحاج محمد بن المديني يوم 25 صفر 1285 خ/ 17 يونيو 1868 م "...الجوع قاهر بالسطوة الإلهية وإن كنا مستحقين لجميع ما يحل بنا لما نحن عليه من العصيان والمخالفة..." يورد الناصري وصفا دقيقا للتمثل العالم والشعبي لهذه المسألة "...إن البدع والمناكر إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمت، ووقعت العلات، وشحت السماء، وسبحت النقماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفت الفروع، ونقصت بركة الزروع، لأن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد ويسد طريق المنافذ..."

بعد سنوات عجاف. ومنهم من دافع مثل الفقيه محمد بن جعفر الكتاني إلى قطع جميع العلاقات مع المسيحيين، واعتبرهم أصل المصائب والبلايا التي أمت بالبلاد¹.

في المحصلة، رافقت اللحظات الكبرى لتعدد الأوبئة والمجاعات في تاريخ المغرب عامة، والقرن التاسع عشر خاصة، لحظات انهيار اقتصادي شامل، مع ما استتبع ذلك من تقوقع اجتماعي، وانكماش صناعي وتجاري، وتخريب شروط الاستقرار الحيوية لانتشار الزراعة، وحكم بالتالي على الهياكل الانتاجية بالثبات والركود. ظل هذا البلد طيلة القرنين اللذين سبقا الحماية يعيش على أنماط انتاج قروسطوية تعيد إنتاج ذاتها دون أن تكون لها القدرة على مراكمة الانتاج؛ وكانت لحظات الأوبئة والمجاعات مناسبة للتذكير بالعطب المستمر في الانتاج. لكن لا يجب أن نحجب حقيقة التسرب الأجنبي الذي رعا بنية الجوع في المغرب، ووسّع قاعدة الفقر والبؤس، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. نصل في النهاية إلى بناء الخلاصة التالية: هكذا تحالف العامل الخارجي مع العامل الطبيعي بطريقة جدلية لتكريس واقع العطب التاريخي، وكان لانحباس المطر في لحظات مديدة عن مجال الأطلس الكبير أثر بالغ في فهم واقع ركود الإنتاج.

III- الماء والآخر: "التأقلم الصامت"

غيّر الانفتاح القسري على أوروبا مركز الثقل ومحور الارتكاز، من الداخل نحو البحر، وساعد على تغيير التوازنات الكبرى دون قدرته على تقويضها. دخلت البادية المغربية مرحلة "التأقلم الصامت" مع اقتصاد السوق، وخاصة البوادي القريبة من الساحل. برزت فيها قوة أخذة في الاتساع، فئة جديدة من الفلاحين يستفيدون من القروض بفضل شركائهم الأوروبيين. وإن كانوا قلائل عددا. مقابل هذا الوضع، عدّد نيكولا ميشيل نسبة ما بين 30 إلى 40 بالمئة من الفلاحين لا يمتلكون أراضي، ولا حيوان لجبر المحراث². بينما كانت الزوايا تشتغل كـ "عزّابة" كما هو الحال لزوايا تامصلوحت في الحوز التي تمتلك مساحة قريبة من 10000 هكتار من الأراضي تستغل في إنتاج زيت الزيتون³. بيد أن مخزن القرن التاسع عشر ظل يُشهر سيفه فوق رقاب الأغنياء، يُصادر ممتلكاتهم لتسديد ديونه، كما فعل الحسن الأول مع أمين الأمناء الطالب بنجلون⁴. لا غرابة أن تنتشر داخل هذه الأوساط عقلية إخفاء عناصر الثراء، وإضممار روح أي مغامرة اقتصادية خوفا من أي تترك مُرتقب. وحرصت على أن يكون لديها فقير من الشرفاء، وآخر من الفقهاء شأن الغني المسيحي⁵.

¹ - Laroui. A, Les origines, op. cit, p 331.

² - Michel. N, Une économie de subsistances, op. cit, p 117.

³ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 263.

⁴ - نفسه، ص 269.

⁵ - Sebt. A, Aristocratie citadine, Pouvoir et discours savant au Maroc précolonial, Thèse inédite, Paris VII, 1984, p 197.

نعلم الآن قيمة الخلاصة التي انتهى إليها جون لوي ميج، حينما أسند الفقر في مغرب القرن التاسع عشر إلى عامل التضخم المرتبط بالانفتاح على أوروبا¹. يُدقق الاقتصادي نيكولا ميشيل في هذا الوضع الاجتماعي أكثر قائلا: "...غالبية الشعب كانت فقيرة، ولكن ليست بئيسة جدا، مستواها المعيشي لا بأس به..."². ويعود ذلك، حسب دانييل ريفي إلى جنوح المغاربة نحو تنوع النظام الغذائي، حيث بدأ الانفتاح على الحبوب والفواكه والزيت والبيض واللحم...

أ- الماء والحماية: من التصور القانوني نحو الاستغلال الاقتصادي:

روجت الاستوغرافيا الفرنسية لاعتقاد وجود مغربيين زمن الحماية: مغرب أطلسي قُدم غنيمة لصالح الرأسمال الأجنبي، ومغرب داخلي يربط فيه الجيش الفرنسي لاستكمال مظلة التهدة العسكرية. والحال، لا ينتظم نظام الحماية وفق مسار تاريخي خطي، بله ضمن مسار يحمل في ثناياه لحظات الانقطاع والاستمرارية... لم يكن نظام الحماية في بداية عهده مقتصرًا على صيغة قانونية مُحددة. ظاهريا، كان محاولة تنتهج مبدأ التدرج في تحديث البلاد³، تحت وصاية مقيم عام وصي على السيادة، بجانبه سلطان يُمثل ملكية غارقة في التقليديّة. صاغت هذه الحماية تصورا عاما أوليا باستثمار التراكم المعرفي المنجز عن المغرب: خلق جسر بين بلدين كبيرين وشعبين عريقين، باختصار بين تأمين حلقة الوصل الشرق والغرب. لكن بالنهاية، ظل جسرا بين نخبتين، لكنه ترك شعبا مقهورا قابعا في غياهب الإهمال، مُنزويا في أعرافه وعاداته القديمة.

هنا يبدو ليوطي شديد التأثير بعمق لوحات الرسام دولاكروا. رغب ليوطي في تحديث البلد عبر حقنه بجرعات الحداثة دون زعزعة هياكل وقوالب المجتمع التقليدي. واضح أن نباهة ليوطي قاداته إلى فهم المُعادلة المغربية، في البدء كان يعتقد أن استراتيجية اللعب على الفوضى المغربية سبيل جر المغاربة نحو التحديث، لكنه، سرعان ما اكتشف أنه في حضور شعب لا يحب أن يرى سلطانه رهينة بين أيدي الأجنبي، قرر أن يواجه المجتمع بخطاب حماسي يُحافظ شكلا على التوازنات القائمة، ولا يستعدي الموروث التاريخي. لكن بالمقابل لم تلق سياسة ليوطي ترحيبا في أوساط النخبة الفرنسية حين اتهم بالتعاطف المبالغ فيه مع السكان المحليين.

¹ - Mieg. J. L, Le Maroc et l'Europe, 1830- 1894, PUF, 1961, p 27.

² - Michel. N, Une économie de subsistances, op. cit, p 430.

³ - يمكن الحديث عن حصيلة التحديث وتأهيل البنية التحتية زمن الحماية الفرنسية على المغرب: انجاز 6000 كيلومتر من شبكة الطرق المعبدة، بعد أن كان 2900 كيلومتر سنة 1920، انتقل النقل البري من 625 وحدة عام 1930 إلى 2631 وحدة عام 1955، وأجهزة الراديو المملوكة للأوروبيين من 21554 عام 1935 إلى 128702 في عام 1955، وعند المغاربة من 1525 سنة 205480 في المنطقة السلطانية... وتشيد سدود مائية في أراضي قاحلة مثل سد بين الويدان وإيمفوت على نهر أم الربيع، إنشاء الأحواض المسقية في بني عمير في تادلة... ريفيه دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 307.

خلال سنواته الأولى، اعتمد مخططا طموحا للتجهيز، يستند إلى جرد مفصل للثروات المعدنية والموارد المائية والطاقة والإمكانات الزراعية في البلاد.¹ مُخطط تطلب اعتمادات مالية ضخمة، فرضت على سلطات الحماية الاقتراض العمومي مرتين في عام 1914 وعام 1920 لتمويل أوراش الموانئ والطرق وخطوطك السكك الحديدية، والتنسيق مع عدة شركات للتنقيب عن المعادن (الكوبالت والمنغنيز والرصاص) بجبال الأطلس الكبير.

يُقدم دانييل ريفي تلخيصا لسياسة ليوطي في هذا الصدد، في خمس نقاط أساسية²:

- الحفاظ على مشاهد الحياة اليومية؛ عبر بناء مدن جديدة خارج المدن العتيقة، وسحب الأراضي الجماعية من مجال أطماع المعمرين الفرنسيين وإسنادها إلى الجماعة؛
 - توقيف عملية فرنسة البلاد؛ والحفاظ على المقدس المغربي؛
 - غض الطرف عن الزوايا لأنها كانت تمتص غضب المهزومين؛
 - التقرب من السلطان لأنه حجر الزاوية ورأس الهرم في بناء المجتمع المغربي؛
 - استخدام المغرب الناشئ بوصفه أداة من أدوات التعامل على الساحة الدولية وتأكيد حضوره كبلد مستقل في المحافل الخارجية (مؤتمر السلام 1919، وفي عصبة الأمم عام 1922م).
- فترة ليوطي تمثل انقطاعا في مسار، وبداية مسار جديد، مسار انحسار الحماية بفعل ظهور فاعل سياسي جديد (الحركة الوطنية) في بُعدها السياسي. "...الشباب المغاربة المثقفين الذين حرصت السلطات الاستعمارية على تكوينهم من الناحية الفكرية كانوا في طليعة الذين يسائلون سلطات الحماية..."³.
- ب- رجّة الحماية: من المحرث الخشبي نحو الخمّاس الحديدي.

سلطات الحماية كانت تلقي باللوم على الفلاح المغربي عند كل تعثر اقتصادي. كانت توجه إليه النقد، وتعتبره ضيق الأفق الاقتصادي، بلا تخطيط، يُنفق ماله في التباهي الاجتماعي، ويشارك في الفانتازيا، أو شراء الحلبي والقفاطين المطرزة بالذهب لزوجته، ويُقيم حفلات الأعراس الفخمة. والواقع، كما يُقر بذلك جاك بيرك الذي خَبر

¹ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 290.

² - نفسه، ص 286-287.

³ - Hoisingtan. W.H, L'héritage de Lyautey, Noguès et la politique française au Maroc, 1936-1943, Harmattan, 1935.

دهاليز الإدارة الفرنسية في مناطق مختلفة من البلاد، حدث اصطدام مستمر بين موظفي الحماية والفلاحين المحليين¹. ما جعل إدارة الحماية ما بين 1940-1946 تدور وتتعثر في حلقة فارغة، وتكتفي بالتدبير اليومي².

عمليا، دفعت سلطات الحماية الأجنبية بتجربة التحدي الزراعي، وحملت الفلاح المحلي على تعويض المحراث الخشبي بالآلات العصرية، حتى قيل إن "الجرار هو الخماس الحديدي" على حد تعبير جوليان كولو و جاك بيرك. الفترة التي يتحدث عنها جاك بيرك حملت معها تغيرا عميقا في المغرب. اللباس الذي خاطته الحماية الأجنبية لم يعد مُناسبا، تزايد اختلال التوازن بين المدن والبوادي من جهة، وبين المدن العتيقة والعصرية من جهة ثانية. صاحب ذلك تحول ديموغرافي، ونزوح قروي³؛ وبرز مشهد اجتماعي واقتصادي جديد، عمّق فداحة الاحساس بالتفاوت الاجتماعي من طرف طبقة البروليتاريا المغربية⁴. بلغة الأرقام، انتقل عدد السكان من 7.6 مليون نسمة إلى 8.7 مليون نسمة خلال سنة 1952، وتضاعف عدد السكان الأوروبيين من 205000 نسمة سنة 1936 إلى 410000 سنة 1952⁵.

تنبّه جاك بيرك إلى أن الثورة الفلاحية في المغرب إما أن تكون شاملة، أو لا تكون أصلا⁶، وهنا يكمن اخفاق تجربة الحماية في الميدان الزراعي⁷. تجند المعمرون الاستعماريون إلى معارضة تجربة التحديث الزراعي⁸، واقتصرت أجهزة الحماية على انشاء تعاونيات تقترض الآلات الزراعية للاستعمال الجماعي تحت إشراف إداري صارم. لخص بيرك عملية تحديث القطاع الزراعي في عبارة "الجماعة فوق الجرار"⁹ انطلاقا من تجربته في العالم القروي. مشروع التحديث الزراعي الذي أطلقت عليه الإدارة الفرنسية "قطاعات تحديث الوسط الفلاحي" Secteurs de modernisation du paysant من خلال التوفيق بين التقنية العصرية وتقاليد العمل الجماعي في الوسط القروي¹⁰.

¹ - Berque. J, Le Maghreb entre deux guerres, Seuil, 1962, p 73.

² - Berque. J, Mémoires entre deux rives, Seuil, 1989, p 60-73.

³ - تفيد الدراسات الاحصائية التي أنجزتها مصالح الإقامة العامة من عام 1948 إلى غاية 1950 بتنسيق روبرت مونتاني ان ما يناهز مليون شخص هاجروا موطنهم الأصلي.

⁴ - Montagne. R, Naissance du Prolétariat marocain, Enquête collective, Peyronnet, 1951.

⁵ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب، م س، ص 306.

⁶ - نفسه، ص 309.

⁷ - "...لم يستطع المعمرون أن يقبلوا لحظة واحدة إتاحة الفرصة للفلاح المغربي بأن يكون سيد أمره ويحرث أرضه بنفسه، ويعمل فوق أراض جماعية، لقد تعود هؤلاء المعمرون أن يعمل الفلاح المغربي لصالحهم كعامل زراعي. إن الفكرة القائلة بإمكانية تحقيق تحديث زراعي دون الاعتماد على المعمرين كانت تضرب في الصميم أسطورة الاستعمار...".

Berque. J, Dépossession du monde, Paris, Seuil, 1964, p 146.

⁸ - هناك فرنسي يقول: "الجيل الأول جاء لكي يفيد، والجيل الثاني لكي يستفيد".

⁹ - Berque. J, Dépossession du monde, op. cit, p 145.

¹⁰ - الدهان محمد، جاك بيرك والمغرب، م س، ص 62.

وحتى حين بدأت الحماية تخط أوراق الرحيل، أظهرت الحوادث الدامية أن المغرب العميق الذي استيقظ متأخراً قادر على مواجهة الحماية. أكدت حوادث خنيفرة وواد زم مثلاً عام 1955م أن المجال الجبلي ليس بمنأى عن الأحداث والوقائع، وليس جزيرة معزولة عن التأثيرات والأفكار والقناعات¹. بدا في نهاية فترة الحماية، أن تجربة الاستعمار لم تمسس كثيراً من عمق البنية الاجتماعية، وظهر أن الاستمرارية التاريخية انتصرت على كل محاولة للتحديث. وحدها الانتظارية هي من بمقدورها تفسير حالة التذبذب التاريخي الذي ما فتئ يعيش على ايقاعها هذا البلد، بين فترات طويلة من الاستقرار، وفترات موازية من الاضطرابات. ولكأن قدر المغرب مثلما يقول ليوطي "...أن يكون المغرب بلد العواصف التي لا يمكن توقع حدوثها...".

ت- الماء داخل معادلة الاندماج الاجتماعي:

ليست القبيلة بالنهاية نسقا مغلقا على ذاته، منكفئا على عناصره. هذا ما نبّه إليه جاك بيرك في دراسته لقبائل الأطلس الكبير الغربي. تظهر هذه القبائل على شكل بنية مفتوحة على متغيرات طارئة أو هيكلية. يستحثنا هذا التوصيف البيركي نحو التركيز على آليتي الاندماج الاجتماعي والاقتصادي التي تمارسها القبائل في إطار مؤسستي "الجماعت" و"الإيروبا" داخل النسيج القبلي، بما هما مؤسستان اجتماعيتان تساهمان في تطعيم القبيلة بروافد بشرية جديدة تضمن لها الاستمرارية والبقاء².

قبل البدء في تفصيل آليتي الاندماج الاجتماعي والاقتصادي نبدأ بتوجيه أساس. يؤكد المؤرخون على فكرة جوهرية انفصال المسار التاريخي منذ القرنين 17 و18م للمغرب عن جيرانه الأوروبيين: انفصام علاقة الدولة بالمجتمع، بالموازاة مع جمود جهاز الدولة. ظل المجتمع قادرا في كثير من اللحظات على المبادرة في محاولة لإعادة إنتاج نفسه وتدير شؤونها، لكن السلطة لم تكن قادرة على جر المجتمع إلى تجديد قدرته على التحرك. فهل كان هذا الانفصام حتمية تاريخية؟ أم يتأصل تاريخيا في تجربة الانفتاح الذي انتهجها السلطان سيدي محمد بن عبد الله في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؟ لماذا نميل إلى ذلك؟ لسبب بسيط، أن ملامح المجتمع المغربي في بداية القرن العشرين شبيهة بالحالة التي تركها عليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

¹ - Lazrak, S, La France et le retour de Mohamed V, Harmattan, 2003.

² - يمكن استحضار طقسين اجتماعيين لضمان الاستمرارية داخل هذه التنظيمات الاجتماعية: طقس "التأدة" (الأخوة) حيث نجد أن المرأة التي تُرضع طفلها الصغير في الوقت نفسه طفل جارتها لتنشأ مشاعر الأخوة بين الطفلين مدى الحياة، ويصبحان أخوين من الرضاعة (ريفيه، ص 227)، وطقس "العار" حيث الرجل الذي تطرده قبيلته قد يأتي بزوجه وأولاده عند أحد الأقرباء في قبيلة أخرى. ويطلب منه حمايته، وهو يقول له " هؤلاء أبنائي إنهم في عار الله وعارك"، ثم يرمي بسلهامه وبنديقته أمام باب الرجل القوي، وكأنه يقول له " عار عليك أن ترفض طلبي أنا الذي أستجير بك" (ريفيه، نفس الصفحة).

خضع اقتصاد المغرب لدورة اقتصادية، تبدأ الدورة بسنة مطيرة وتنتهي بسنة أو سنتين من الجفاف القاسي، وبينهما سنتان أو ثلاث سنوات متوسطة. ورث مغرب القرن التاسع عشر عن مغرب القرنين 17 و18م مغربا جافا، كان عدد السنوات الجافة يفوق عدد السنوات المتوسطة مرة ونصف، ومرت فيهما خمسة وعشرون سنة من سنوات المجاعة. لكن بفضل احتياطي الحبوب تمكن سكان المغرب من البقاء على قيد الحياة في سنوات القحط. عندما تنتشر المجاعة تحتفظ الذاكرة الجماعية بأوصاف رهيبة، مثل عام الجوع أو عام البقولة، لحظتها يضطر المغاربة إلى أكل الحشيش والبقول في الغابات¹.

عودة إلى قضية الماء والاندماج. الواقع لا يحصل اندماج الوافدين إلا على مراحل، كما لا يتحصل الفرد على حقوق مائية إلا بعد أن يستوفي شروطا معينة داخل مجتمع تاقبيلت². وإذا ما استحضرنّا الإطار الناظم لهذه العلاقات على المستوى العمودي، في علاقة القبائل بالسلطة المركزية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وسائرنا إلى حد ما تخريجة زرهوني محمد الموسومة بـ "نمط انتاج الشتات"³ الذي يقصر دور السلطة المركزية في التدخل في حل نزاعات حول الأرض والمياه، فإن النزاعات القبلية تشكل عنصرا حيويا في المجتمعات الزراعية، وتنصب حول نزاعات الأراضي من جهة، ونزاعات المياه من جهة ثانية، ما يفرض على مؤسستي "الجماعت" و"الإيروبا" تجيش عناصر جديدة لمواجهة النزاعات المستمرة عن الأرض والماء. وفي حالة عجزهما عن تدبير هذا الخلاف، تتدخل السلطة المركزية لفرض التحكيم. يبدأ الوافد خماسا أو راعيا أو عاملا... ويُطلب منه أن يستوفي على الأقل مدة عشر سنوات، حتى تتأكد مؤسسة "الجماعت" من انحلاله من أية رابطة قرابية أو صلة دموية، مثلما عليه أن يبدي انخراطه التام في كل الأنشطة ذات الطابع الجماعي التضامني للقبيلة (تيويزي- المعروف-

¹ - ريفيه دانييل، تاريخ المغرب من مولاي ادريس إلى محمد السادس، م س، ص 233.

² - في مجتمع رعوي مثل مجتمع أيت عطا بوادي درعة الذي يتسم بالتنظيم الهرمي، يضع على رأس السلطة زعماء يسمون "ايخطارن" فئة تتصف بخصائص معينة: الشهامة والشجاعة وكرم الضيافة وأخلاق الفروسية ومبادئ التحكيم...بعد ذلك يمكن تقسيم مجتمع عطا إلى ثلاث مراتب مختلفة: إكرامن الذين يزعمون انتماءهم إلى النسب الشريف من جهة الأدارسة، وإحرضان الذين يشكلون فئة من العمال الفلاحين والحرفيين والتجار، وإيمازيغن الذين يشكلون طبقة وسطى من مربي الماعز والإبل...هذه الهيرارشية هي التي حصنت مجتمع أيت عطا من النزاعات والانانيات الفردية بإنتاجه لتلك المضادات الحيوية التي يفرزها التضامن والعيش المشترك.

³ - يوظف زرهوني "نمط انتاج الشتات" كإطار ناظم للعلاقات الانتاجية بين الفاعلين، ويجعله طابعا عاما لاقتصاد المغرب بمدنه وأريافه. وهو تطبيق من بين تطبيقات أخرى اختبرت لدراسة الاقتصاد القروي قبل الاستعمار، تنتمي جلها إلى سجل الدراسات الاقتصادية الاشتراكية، التي تردد صداها في أعداد مجلة الحوليات خلال سبعينيات القرن العشرين مع كل من بيير شونو Pierre Chaunu وبيير فيلار Pierre Vilar. وفي تطبيقات صادق أحمد حول تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي...يرتكز "نمط انتاج الشتات" على مشاركة الأغلبية في الإنتاج، في وضعية تقنية موروثية عن العهود البائدة، ما يجعل الإنتاج موجه للاستهلاك المحلي، وبالتالي يحول دون تشكل طبقة من الحرفيين والصناعيين قادرة على جر المجتمع القروي إلى أساس صناعي. حيث ينعكس نمط انتاج الشتات على التبادل التجاري ومقاييس الأوزان وعملات النقد وعلاقات التنظيم الاجتماعي والقانوني...لمزيد من الاستزادة يمكن العودة إلى الفصل الأول من أطروحة زرهوني محمد المتعلق بالإطار المنهجي لدراسة العلاقات التاريخية الاجتماعية والسلطوية بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في الستينات من القرن التاسع عشر...زرهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر 1863/1280 - 1873/1290م، ص ص 3-30.

أدوار- شرط تيمزكيدا...). بعد ذلك تُقرر مؤسسة "الجماعت" منحه حق الاستفادة من الأراضي الجماعية للدوار، وإذا كان متزوجا، يستفيد من أراضي "الحصيت" في عملية التوزيع السنوية أو الدورية¹.

في مستوى ثان، يتم نقل عملية الاندماج من مؤسسة "الجماعت" إلى مؤسسة "الإيروبا" (الأخماس)، بما هي آلية اجتماعية أفرزتها الهياكل القبلية لحماية أراضي الملك الخاص من التجزئة والتفتت، وثانيا من أجل التوزيع العادل في أداء الجبايات المخزنية². لحظة تحصل الوافد الجديد على قطعة مسقية خاصة به، إما عبر الشراء أو الرهن... تربط مؤسسة "الإيروبا" هذا الانتقال بمساهمة الوافد الجديد على القبيلة في أداء الضرائب والكلف المخزنية، وانخراطه في كل الأشغال والمهام والأنشطة التي يفرضها المخزن على القبيلة³.

عبر هذا الانتقال، تمنح "الإيروبا" للوافد الجديد "تاوالا ن واما ن" (نوبة الماء) لسقي قطعتة الأرضية. مع ما يستتبع هذا الاعتراف من خضوع الوافد الجديد لضوابط ومقتضيات نظام السقي العُرفي المعمول به. ولا يمكن أن يقبل في أي "ءارابو" إلا إذا كان مستعدا لأداء قسطه من الجبايات المخزنية، حينها تكتمل عضوية الوافد الجديد داخل القبيلة⁴.

هكذا يُكسب المرور من مؤسستي "الجماعة" و "الإيروبا" الوافد الجديد شهادة العضوية داخل القبيلة، تتيح له حيازة قطعة أرضية بحقوق مائية معترف بها (تاوالا ن واما ن) مقابل أن تضمن الجماعة البشرية من جهتها تجديد رصيدها البشري، وتطعيم قوتها الدفاعية في وجه القبائل التي تنازعها "الأزغار" و "الأدرا". تتلخص مهمة "الجماعة" في تسهيل تبيئة الوافد الجديد، إن على المستوى الثقافي، أو على المستوى الاجتماعي، عبر عملية الاستدماج التدريجي.

تُرى القبيلة في البداية أمام الوافد الجديد كل فرص الانصهار في الدوار (السكن- العمل- الزواج...)، وحين يتم الاقتناع بتحلل روابطه القرابية وصلاته الدموية عن طريق المعاشرة والمشاركة... تمنح له "الجماعت" قطعة فلاحية (الحصيت) من مجموع الأراضي الجماعية البورية التي تملكها القبيلة، تأهila لحصوله على قطعة فلاحية خاصة عبر الشراء أو الرهن، مصحوبة بحقوق مائية عندما يُحوز المال والثروة. وحتى لا تتعرض الأراضي الجماعية للتقسيم تتأكد مؤسستي "الجماعت" و "الإيروبا" من تحلل الروابط القرابية الأصلية عن طريق الإشهاد الذي

¹ - أقديم محمد، التحولات السوسيو تاريخية في منطقة الأطلس الكبير، م س، ص 262.

² - نفسه، ص 422.

³ - نفسه، ص 262-263.

⁴ - نفسه، ص 422.

يمارسه السكان . وقد يحدث في بعض الأحيان، أن تتجاوز مدة مكوث بعض الأفراد في الدوار عشر سنوات، دون أن يستفيد الوافد الجديد من الأرض والماء، ما لم تنقطع صلاته بقبيلته الأصلية¹.

استحكم الاستياء عند عامة الناس، وطُبعت مجمل تصوراتهم بخلفيات أخروية ممزوجة بمعتقدات شيعية (المهدي المنتظر)، كما سادت على امتداد القرن التاسع عشر فكرة متشائمة تقول بأن العالم ماض نحو الفساد والخراب والانحراف عن التعاليم الإلهية²، بالقدر الذي اعتقد فيه الناس أن الزمان يسير بهم نحو التهلكة بعد انصرام زمن الانبياء والخلفاء والملوك...وبدأت لحظة انتظار المهدي المنتظر في آخر الزمان.

حينما ننظر إلى انفصام علاقة السلطة بالمجتمع من زاوية تاريخية وليس بنيوية، يتبين لنا أنه لم توجد أبدا فئة مجتمعية استطاعت أن تقف أمام المخزن وقفة الند للند. بمقدروها التغلب عليه على المدى الطويل، مثلما لم يوجد أي سلطان نجح فرض سلطته أبعد من نطاق نفوذه الشخصي³. كلما تغير السلطان كان على الوافد الجديد أن يعيد ترتيب الأوراق من جديد لفرض أسلوبه في الحكم. مزج سلطان المغرب خلال القرن التاسع عشر بين الشرعية والواقعية، مارس شرعيته من كونه إمام تجب طاعته؛ وواقعيته من محلته المتنقلة التي أظهرته بمظهر السلطان...محلة السلطان مُخيم متنقل، كأنه قصر يُجسد السلطة في حلها وترحالها. كان السلطان يتموقع في ملتقى الطرق، يمسك بجميع الخيوط، ويشغل كبؤرة التقاطب بالنسبة لكل النخب التي لا يعرف بعضها بعضا.

من جهة أخرى، صحب الحديث عن الماء في التجربة التاريخية المغربية حديثا موازيا عن سجل الرموز والطقوس التي تنتهي إلى الثقافة الشعبية في مناطق الأطلس الكبير. في هذا الصدد، ركز الوصف الاثنوغرافي على طقوس الاستسقاء والاستمطار والتبرك والاستشفاء والتطهير كتعبيرات ثقافية شعبية تحيل على حركية اجتماعية ذائبة في شرايين إنسان الجنوب المغربي⁴. يتعلق الأمر، باجتماعيات المقدس والمُدنس وبالعوالم الفوقية.

IV- الماء والحماية: التحول المعاق

الماء نافذة على استكشاف رؤية الآخر للمجال، بما هي رؤية تتيح تحديد خصائص شبكة الأنهار والأودية والمنابع والمصبّات من جهة، وبما هي إمعان وتدقيق في جوانبها التقنية من حيث صبيب المياه وطعمها ولونها من جهة موازية...زمن الحماية، بدا الماء مثل آلية للقوة والإخضاع، ومرجعا أساس يحتكم إليه في ضبط وهندسة المجال.

¹ - أقديم محمد، التحولات، م س، ص 421.

² - نفسه، ص 55.

³ - نفسه، ص 57.

⁴ - فائز فاطمة، الماء المقدس: دراسة للاستعمالات السحرية للماء بالجنوب الشرقي، واحة امحاميد الغزلان نموذجا، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 20، 2016، ص 155.

وفي بعض اللحظات، صار الماء يدخل ضمن استراتيجيا التهدئة Pacification حينما ترك الاستعمار لأعيان القبيلة تقسيم المياه (الشكل رقم 5) دون أن يتدخل لفرض صيغه قانونية. وأتى له أن يلجأ إلى فرض القوة حينما يحصل التوافق بالصيغة التي يريد حتى لو تطلب الأمر إحياء تنظيمات كانت على وشك الانقراض¹. وبين هذا وذاك، يمكن النظر إلى الماء بوصفه مقياسا للحكم على نجاح أو فشل سياسة الحماية برمتها، ومدخل رئيس لبناء حكم نهائي حول صدق أو زيف الأهداف والنوايا... في المحصلة، الماء منهل التاريخ ومصدر غدائه في الآن عينه.

مع الحماية أجرى الماء انقلابا في نمط الانتاج، من بلد كان يستند في اقتصاده على ثنائية الرعي وتربية الماشية، سجين ما تجود به عطايا السماء من أمطار، وما راكمه الانسان من خبرة في التدبير التقني²... إلى بلد صار يعتمد على الفلاحة العصرية، وإن في نطاق مجالي محدود؛ من بلد كانت فيه الملكية الجماعية أساس البنية العقارية إلى بلد صارت تهيمن عليه الملكية الخاصة للأرض والحقوق المائية الخاصة التي جلبها الاستعمار من السدود المشيدة³؛ وأيضا من مجال كان يجعل لكل قبيلة مجالا فسيحا يفتح على السهل والجبل في إطار دورة رعوية متوافق عليها اجتماعيا أتاحت استغلال الأرض والماء⁴، إلى وضعية تقلصت فيها امكانية تنظيم الحياة الرعوية بين السهول والجبال، وتجزأت فيها ملكيات الفلاحين المعارضين، وتكثفت من خلالها أعمال السخرة والكورفي ونظام الخماسة والعمل المجاور... من بلد كان فيه الصلحاء يساعدون على تنظيم المعاهدات الفصلية، ويسهرون على تنظيم دورات الانتاج في المراعي الجبلية⁵، وتوزيع المياه على السكان... إلى بلد يضع مقدراته تحت تدبير الإدارة الترابية الجديدة. (الشكل رقم 7-8-9).

قبل الحماية، كان الماء يوزع بنوع من المساواة لتفادي انفجار النزاعات⁶، ورغبة من الفاعلين من مالكين أصليين وذوي حقوق الانتفاع الحفاظ على التماسك الاجتماعي. لقد سبق لجاك بيرك في معابنته لنموذج سكةساوة أن ألح

¹ - أيت ادير المصطفى، مجتمع الاختلاف ومؤسسات التحكيم بتادلا ومجالاتها، م س، ص 277.

² - في حوز مراكش كان الري يعتمد على تقنية اعداد القنوات الكبرى لتحويل منافذ سيول الأطلس الكبير، وعلى حفر الخطارات. وصل عدد الخطارات في مراكش 650 خطارة تحتوي على ممرات باطنية طولها 70 كلم، ومقدار مجراها ما بين 3,6 و 6,1 متر... وفي السهول السفحية للأطلس الكبير جرى الاعتماد على حفر الابار لاستخراج المياه بواسطة الدواب أو عضلات الرعاة أو بواسطة النواضح. يمكن العودة إلى: الهروي الهادي، المغرب من الاستبداد إلى الدولة الوطنية، م س، ص 124.

³ - Dresch. J, Réforme agraire et sous- développement dans le monde arabe, In réforme agraire au Maghreb, séminaire sur les conditions d'une véritable réforme agraire au Maroc, Maspero, Paris, 1963, p 12.

⁴ - "...الماء كان يوزع حسب تقاليد قديمة، فكل قرية أو كل عشيرة أو كل قطعة أرض لها حصتها من الماء الموزع بالتناوب حسب طرق متنوعة، وبوحدات زمنية متعارف عليها...." عياش ألبير، المغرب والاستعمار، م س، ص 249.

⁵ - ظريف محمد، مؤسسة السلطان الشريف، محاولة في التركيب، الدار البيضاء، 1988، ص 91.

⁶ - ينشب الصراع بين الملاك الأصليين وذوي حق الانتفاع، وكانت هذه الصراعات تحل استنادا إلى قواعد شرعية تعطي الأولوية إلى الإقامة في المكان وقاعدة الاستخراج (باطن الأرض- الصخور- الأحجار...) الهراس المختار، القبيلة والسلطة: تطور البنيات القبلية في شمال المغرب، منشورات الرسالة، الرباط، 1988، ص 225.

على هذا الجانب، واعتبر أن نظام السقي في الحوز كانت له أبعاد اجتماعية واقتصادية، حيث أن مرور المياه بمجال عدد كبير من الدواوير والمداشر (إدويران- أولاد بوسباع- سكساوة- مزوضة- كدميو...) يجسد نوعا من التضامن بين الدواوير والمداشر¹. والحال، أن التضامن الذي جسده عنصر الماء داخل مجالات الأطلس الكبير الغربي كان تعبيرا صريحا عن رغبة هذه الوحدات المجالية في تكسير الانغلاق الانتاجي، وتأكيدا واضحا لفكرة محدودية الموارد، إذ يتعذر أن يحقق دوار أو مدشر اكتفائه الذاتي دون الاعتماد على موارد الجوار. لذلك، لا نستطيع أن نفهم حقيقة الأطلس الكبير خارج خصوصياته التضاريسية والمائية، بله خارج اختلافاته الاثنية (سهل مُعرب/ جبل ممزغ).

في واقع الأمر لقد اخترقت مجتمع الحوز مثلما عاين بول باسكون P. Pascan "...صراعات، وتنافست داخله أنماط متعددة، القديم والجديد، التقليدي والحديث... كانت نتاجا لتداخل أنماط انتاج لكل منها نصيب في تحديد تشكيلته الاجتماعية: الأبوية، القبلية، الفئودالية، الاشتراكية... رغم انحصار هذا النمط الأخير في مستوى الإيديولوجيا والتنظيمات السياسية، إذ لا يستند إلى أسس مادية وأعمال منتجة..."²، وتعايش الأنماط لا يعني بالضرورة تنافسها، بل التناقض يسمح بالتجديد والحركة³. بمقتضى شرطي ينفي وجود استراتيجيات فردية خارج منظومة جمعية وجماعية ترسم حدود السلوك والتصرف⁴.

مع الحماية، سيخضع الماء لعملية انزياح في أبعاده، من أبعاد اجتماعية تضامنية ترتكز على الانفتاح والتقسام بواسطة مؤسسة اجماعة⁵، إلى أبعاد سياسية ووطنية فرضه شروع المعمرين في الاستحواذ على مياه الأنهار،

¹ - Berque. J, Structures sociales du Haut- Atlas, suivi de retour à Seksaoua, Par J. Berque et P. Pascan, Edition PUF, 2 eme édition, Paris, 1978, pp 105- 188.

² - Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, op. cit, p 591.

³ - Pascan. P, La formation de la société marocaine, op. cit, p 203.

⁴ من هنا سيعمد باسكون إلى استعمال مفهوم المجتمع المركب لتوصيف وتحليل التشكيلة الاجتماعية في الحوز أولا. والمغرب ثانيا. (الشكل رقم 22). حضر هذا المفهوم لتحليل سيرورة التاريخ الاجتماعي المحلي للحوز وتازروالت وبني بوفراح. وقد استدعى ذلك القيام بعمليات النحت والتبئية والتأصيل وإعادة البناء. انظر: ياقين محمد، اللغة السوسولوجية عند بول باسكون، ضمن قسطنطين بن محمد وفيليب كورنكوف (تنسيق) أعمال ندوة السوسولوجيا كعلم والتزام جماعي: مرصدا ابستمولوجية 3-4-5، يناير 2013، مكناس، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة الندوات، 39، 2014، ص 33- 54.

⁵ - مؤسسة اجماعة حظيت بمتابعة دقيقة من طرف الباحثين المغاربة، وهي مؤسسة تنظيمية جسدت دور الحصن المنيع أمام الاختراق التجاري الرأسمالي الأجنبي، وحتى اختراق الدولة الكامل للقاعدة الاجتماعية للقبيلة... كانت اجماعة تقوم بعدة أدوار ووظائف، من ترميم المساجد، وإقامة الطرق والسوقي وتنظيم عمليات التعاون في الحرث والحصاد، وحماية الغرباء، وتنظيم الولائم الجماعية، وإقامة الأموكارات (المواسم)... ويتم تدبير هذه الأعمال في إطار تقسيم العمل، فئة يوكل إليها الدفاع عن الإشراف على الشؤون المائية المرتبطة بالتوزيع، وفئة يوكل إليها السهر على حماية وأمن الأكادير... والواقع، يجب أن نضع مؤسسة اجماعة كاستجابة لتقلبات الطبيعة ورجات الاقتصاد. على هذا الأساس يمكن فهم الآليات الاجتماعية التي أنتجت مؤسسة اجماعة مثل: لوزيعة (الوزيعة) وتايسا (رعاية الأبقار) وأخرى مثل تويزي وتيسنت وتكالين وتيغريسي وأسماص وأوضوض... الهروي الهادي، المغرب من الاستبداد إلى الدولة الوطنية، م س، ص 182. كما يمكن الإشارة إلى مؤسسة الأعيان أو الإنفلاس التي تدبر شؤون القبيلة في إطار ما يعرف بـ "مجالس الأعيان" وتتكلف بضبط وتوزيع ماء السقي على السكان، وتهيئ الماء لوضوء المصلين مقابل حصولهم

وتحويل مجراها واحتكار مياه السدود، كما حدث في واقعة أيت ايمور سنة 1937. بلغة الأرقام أنشأ معمرو الحماية محطات الضخ الكبرى لسقي ضيعاتهم، وقد كان مقدار مجراها يتراوح في سهل حوز مراكش ما بين 10 إلى 20 لتر في الثانية¹. كما عمدت الإدارة الفرنسية إلى أحداث تجهيزات مائية لسقي الأراضي في حوز مراكش ما بين 1929 و1939 على وادي نفيس الذي تقدر حملته ب 50 مليون متر مكعب، وقد جُهِز بمركزية كهربائية تنتج سنويا حوالي عشرة ملايين كيلوات.

حينما نُقِيمُ حصيلة هذه التحولات نصل إلى ما سماه جان دريش J. Dresch بوضعية "البنية الاجتماعية السيئة"². بنية انطلق تشييدها بالرهان على تجزئ الأراضي الفلاحية، وفي مرحلة موائية على ضرورة تركيزها في يد معمرى وخدام الاستعمار، وفي مرحلة أخيرة على دمجها قسرا في بنية النظام الرأسمالي. وإذا أضفنا إلى ذلك، تواتر سنوات القحط والجفاف وقلة التساقطات، وعتاقة وسائل الانتاج وضعف قوى الانتاج... نكون قد جمعنا كل عناصر الإعاقة في جانب، وكل عناصر التطور في جانب آخر³.

اجمالا، عوامل الإعاقة تتحدد في مستويين: داخلي وخارجي، الأول في تخلف بنيات المجتمع، والثاني في ما فرض على البلاد من قوة طبيعية وبشرية.

في ما مضى توجهت أبحاث الفترة الكولونيالية إلى تفسير هذه الإعاقة بالارغامات الطبيعية⁴، وتخلف التقنيات، وغياب عنصر المبادرة... لكن سيتضح في ما بعد مع تطور الظاهرة الاستعمارية أن تأخر التنمية كان صناعة بشرية،

على نصيب من الغرامات المحصلة من المخالفين للأعراف، وتشكيل شرطة من ثلاث مندوبين عن كل قرية... مثلما نجد في قبائل تيديلي وتامسطين وإيخازمن وأيت ماغليف، وأيت توابا وتيفنوت وأيت لتي واينماراغت وأيت عثمان وأيت أوبال وإيدويلون وبعض فرق قبيلة أزيلال. انظر: Montagne. R, Notes sur les Ait Waouzigit, A.D.N, Maroc, 1925, p 10.

ياسين ابراهيم، جنوب أطلس مراكش، م س، ص 98.

Hammoudi. A, Segmentarite, Stratification, Pouvoir politique et sainteté, Réflexion sur les thèses de Gellner, In. Hesperis Tamuda, Vol XV, année 1974, p 155.

كما أنها واصلت جهودها على الرغم من التغيرات التي لحقت التديير الإداري للمجال في المغرب:

Rachik. H, Jma'a tradition et politique, Hesperis Tamuda, vol 39, fascicule 2, 2001, p 147- 157.

¹ - الهروي الهادي، المغرب من الاستبداد إلى الدولة الوطنية، م س، ص 124.

² - انتقال الماء من وظيفة الحفاظ على التضامن الاجتماعي إلى التحكم السياسي كانت له تبعات اجتماعية خطيرة، حيث جرَّ معه فئات اجتماعية عريضة إلى الفقر والتجوع وبيع الأراضي وهجرها. من هنا يمكن أن نفهم الخلفية السياسية التي حركت المظاهرات والانتفاضات الشعبية في المغرب الحماية (حادثة 2 ستمبر 1937 في بوفكران).

³ - حول مسألة عتاقة وسائل الانتاج، يمكن أن نستشهد بنص للمؤرخ ابراهيم بوطالب: "...إذا كان المجتمع قاطبة قائما على الدواب، فهي ضرورية في أربعة مرافق حيوية من العيش، إذ لا بد منها للتغذية، ولا بد منها للباس، ولا بد منها للنقل، ولا بد منها للقتال والمباهاة..." بوطالب ابراهيم، معالم التغيير في تاريخ القرن العشرين. دراسات، العدد 12، 2006، كلية الآداب والعلوم الانسانية، أكادير، ص 16.

⁴ - تعرض المغرب عبر مراحل تشكله إلى رجأت طبيعية متواترة. ساهمت في هندسة خريطته المجالية، وزاد عدم عناية المغاربة بوضعهم الصحي من قوة انتشار الأوبئة والجوائح في تاريخه، من كوليرا وجذري وحمل صفراء... تاريخيا اجتاحت المغرب موجة جفاف وجائحة جراد سنوات 1866- 1878-

واخفاقا إداريا، وسوء تقدير اقتصادي... وجرى تعليل ذلك، بتعدد أنماط الانتاج، ومزاوجته بين قطاعين متناقضين: تقليدي معاشي صرفت مواده داخل شبكة محدودة من الأسواق الداخلية، وانحصر انتشاره في نطاق ضيق جدا... مقابل قطاع عصري وجه انتاجه نحو تلبية رغبات الميتربول الفرنسي:

✓ قطاع تقليدي - ملكيات صغيرة- وسائل سقي تقليدية - انتاجية ضعيفة؛

✓ قطاع عصري- ملكيات كبيرة - وسائل سقي عصرية- انتاجية مرتفعة.

الماء في البدء والانهاء زمن الحماية كان موضوع صراع سياسي واجتماعي دائم في مدار جغرافيا ظلت موصوفة على الدوام بالندرة والخصاص، لكن في مجتمعات الندرة كما يقول جورج بلاندييه G. Balandier هناك ثراء كبير. انتظمت حول الماء مجموعات بشرية، وامتدت على طول جريانه قبائل المنبع (العالية) وقبائل المصب (السافلة). من يقطن العالية يُحوز قدرا كبيرا من النفوذ السياسي، ويُجري تدبيره على الماء؛ ومن يستوطن السافلة يدرج ضمن المستضعفين، ويبحث عن توافقات مجالية للبقاء. هكذا، نُظر إلى الماء في كل مجتمعات الندرة والهشاشة مثل الوقود الحيوي الذي يدير عجلة الانتاج. وبقدر ما كان عامل استقرار في لحظات، بقدر ما كان عامل صراع في أخرى، يجمع ويؤلف، يقسم ويفرق. وكان في كثير من اللحظات يفوق الأرض من حيث القيمة الاجتماعية، يرسخ الهوية، ويجدر انتماء البشر مثل أي بناء اجتماعي مشبع برموز ومعان ثقافية¹. وفي جانب منه كان موضوع عبادة وقداسة، رمز نقاوة وطهارة، والعنصر الكاشف عن استمرارية الرواسب الثقافية... هو الذي يحكي أحسن عن المجتمع بتعبير بيدوشا Bédoucha. صديق الأقوياء ونقمة المهزومين. ورغم توافق المجتمع المحلي على أسس عرفية كانت تعطي الأولوية للعالية على حساب السافلة في توزيع المياه، فإن ذلك كان يستدعي عقد تحالفات ومعاهدات لتحسين هذه القاعدة...

مع الاستعمار، جرى قلب كل هذه التوافقات². خضع الماء في إبانته لتدبير خاص تسنده القوة العسكرية والقانونية التي انتزعت الحقوق من أصحابها وأعدت توزيعها حسب حاجيات الزراعات العصرية. الأكيد أن علاقات القوة لا تشتغل بعيدا عن علاقات المعنى. لا غرابة تبعا لكل هذه الاعتبارات يقع الماء ضمن دائرة انشغالات

1894...وعليه، لم تساعد العوامل الطبيعية على تقدم البلاد وتحول بنيات المجتمع المغربي. وكانت هذه العوامل الطبيعية تدخل المغاربة في دوامة الاقتتال وقطع الطرق ونهب القوافل... الهروي الهادي، المغرب من الاستبداد إلى الدولة الوطنية، م س، ص 106.

¹ - غريترز كليفوردي، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2009، ص 43.

² - البعد عن المركز هو من يؤمن استمرارية البنيات التقليدية.

كل المباحث والتخصصات العلمية بما فيها التاريخ، الجغرافيا، الأنثروبولوجيا، والجيولوجيا...¹ لتحليل طبيعة العلاقات التي تربط بين عنصر الماء والممارسات البشرية والديناميات الاجتماعية والثقافية.²

تكررت في حضان الحماية المقولة التي تزكي الزعم بأن الماء رهان سياسي قبل أن يكون شأن تقني وتدير ديني.³ الماء بالنهاية، أشر على حيوية المجتمع وديناميته، وقبل كل شيء، أكد على قيم الحرية والكرامة، الهوية والأصالة، الثروة والجاه... وانتقال الماء والأرض إلى مالكيين جدد سيعجل بتبديد الموروث العقاري، وبغرس قيم الفردانية الجشعة، وتوسيع دائرة الاغتراب الاقتصادي والأخلاقي، وبظهور فلاحين مقتلعي الهوية⁴ dépayssanne يعيشون الغربة والفصام. لقد كان أندري آدم على حق حينما قال أن التدخل الأجنبي ساهم في انسلاخ العلاقات الاجتماعية عن عمقها القبلي.⁵

قد ينافح البعض عن كونها كانت قوسا مهما في تاريخ تحديث البلاد وعصرنة قطاعاته، لكنها لا تبرا بالمرّة من تهمة تفقير البلاد، وتكثيف الضغط الجبائي على البسطاء والمعدومين، وتفكيك مشتركهم الجماعي، وضرب قيم التلاحم والتعاون والتماسك... وبذلك، تكون هذه التجربة قد دغمت سلطة الأفراد ضدا على سلطة الجماعة، وقوّت من السلوكات الانتهازية التي جعلت الجميع يتدافع للبحث عن طوق النجاة، وسبل الخلاص الفردي. وبالتالي، تهيأ المناخ السياسي لظهور أسرو عائلات اقطاعية جعلت من السيطرة على الأراضي والمياه مبتغى الوصول إلى قمة الهرم الاجتماعي.

على المستوى الإحصائي، غداة نهاية الحماية عدّد ألبير عياش عدد الأعيان⁶ الذين صاروا يهيمنون على القطاع الفلاحي سنة 1950 ما بين 500 ألف و 600 ألف فلاح.¹ فعلى ماذا يحيل ذلك؟

¹ - بوزيد أحمد، الماء والبناء الاجتماعي ومفهوم الزمن، المجلة العربية للثقافة، العدد 36، مارس 1999.

² - Helene. A, Anthropologie maritime ou anthropologie de la mer? Revue d Ethnoécologie, 2018, mise en ligne le 25 juin 2018, consulte le 28 septembre 2021, URL: <http://journal. Open édition, org/ Ethnoécologie/ 3484>.

³ - التصق الماء في تاريخانيته بالعديد من الممارسات الدينية والديناميات الاجتماعية والثقافية، واعتقد الإنسان القديم بقدرسية الينابيع والبحار والأنهار والمجاري المائية في الأساطير النشونية وحتى في الديانات السماوية. في ما بعد، صار ينظر إلى الماء من زاوية السلطة التي تضع الغلبة في يد من يمتلكه، ويُعمر ضفاف الأنهار والأودية والمصببات. على المستوى المنهجي، يجب النظر إلى الماء من زاوية العنصر الناطم للعديد من التيمات الدينية والثقافية والاجتماعية. في هذا السياق، يمكن الحديث عن أسطورة "تسليت أونزار" عروسة المطر أو "عتي أونزار" عمت المطر في شمال إفريقيا، وكلاهما، يؤكدان العلاقة الحميمة مع الأرض. أنظر: جبران حسن، عنصر الماء بين المعتقدات الدينية والممارسات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية، مجلة مؤمنون بلا حدود، أكتوبر 2019.

⁴ - شقرون محمد، من أزمة المجتمع إلى أزمة السوسيولوجيا، المجلة المغربية للاقتصاد والمجتمع، العدد 8، 1986، ص 64.

⁵ - Adam. A, Casablanca, Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'occident, Paris, Edition Centre National de la recherche scientifique, seconde édition, 1986, p 765.

⁶ - ثمة دراسات عديدة تبنت الموقف القائل بنجاعة " سياسة الأعيان" من أجل احتواء النخب المغربية، والتحكم في المجال وأهله. أعيان المخزن كانوا يتعاملون مع الإقامة العامة باعتبارها القوة القادرة على ضمان حقوقهم وحماية مصالحهم، وبذلك أصبحت دولة الحماية تظهر بمظهر

مع انحلال الأصول الجماعية وتعزز نمط الملكية الخاصة كان الماء في صلب التحول، ومصدرا للصراع والفارقة داخل المجتمع. تجلّى مسلسل التملك لصالح الأقوى، الأكثر ثروة، الأكثر كاريزما، والأكثر علائقيا... وانتقلت ملكية الماء من ماء السماء إلى ماء الدولة، من ماء اجماعة إلى الماء المُسَعَّر الذي تديره الدولة²، أكانت حامية، أو دولة الاستقلال. وبالتالي نجحت الحماية في سماه محمد شقير ب "دولنة المجال"³. نستعير من حقل العلوم السياسية مفهوم الدولة التراسبية Etat Sédimental لوصف الالتقاء الحادث بين الدولة السلطانية والدولة الاستعمارية⁴.

الخلاصة أن مجتمع الأطلس الكبير شديد الارتباط بثوابته وأصوله رغم عنف الرجات التي لحقت به، بدت كل الأشياء التي تتفاعل داخله تأتي من بعيد جدا، وتعبّر عن صدى عميق في الماضي؛ مجتمع تكيفت ذهنيته مع التنظيمات التي أبدع في انتاجها بنفسه.

V- الماء جوهر الصراع:

هل كان قدرا على الجبال والواحات والسهول أن تعيش ضحية نظام مائي غير عادل يُعيد انتاج تفاوتاتها باستمرار؟ هل كان مبدأ أحقية سكان العالية على السافلة مُنصفا للجميع ومقبولا من الكل؟ ألا تعكس المنظومة العُرفية المتبعة نوعا من الاستضمار للقوة والنفوذ، ونوعا من الاقصاء والتمييز؟

صنع الماء في تاريخ المغرب تراتبية اجتماعية خاصة، وفرّق بين قبائل العالية وقبائل السافلة. خلق صراعات محلية تطلّب حلها إيجاد تضامانات وتوافقات لخلق التوازن وضمان استمرارية التنظيم الاجتماعي القبلي ما قبل الكولونيالي. لم تكن القاعدة العُرفية التي وضعت مبدأ الأولوية لقبائل العالية على قبائل السافلة سوى ترجمة عملية لأهمية الموقع الجغرافي على حساب الانتماء العرقي أو الديني، لكنها قاعدة قد لا تنسحب على مجموع النسق القبلي، فاتحادية أيت عطا مثلا كسرت هذا التعميم الذي انتهت إليه الاستوغرافيا الأجنبية، حيث كانت تقوم بتسبيق الانتماء القبلي على الموقع الجغرافي، وقبائل أخرى أثرت مبدأ المشاركة الجماعية في تعبئة المياه باستثناء اللاجئين والحراطين والخماسة والرعاة والنساء والأطفال الذين لم يكن لهم الحق في ملكية الأرض والماء داخل هذه القبائل.

الدولة العادلة، الحريصة على تحقيق العدل، وعلى رعاية مصالح الناس. احساين عبد الحميد، الإدارة المركزية في عهد الحماية الفرنسية 1912-1940، م س، ص 115.

¹ - الهروي الهادي، المغرب من الاستبداد إلى الدولة الوطنية، م س، ص 110.

² - يقف ريمي لوفوعند هذا عمق هذا التحول الذي أوكل للدولة حل مشاكل العالم القروي على حساب مؤسسة اجماعة التي كانت في ما مضى تفرض أعرافا تكتسي صبغة التنفيذ والتعجيل بالإقرار. أنظر في هذا الصدد: لوفوريمي، الفلاح المغربي مدافعا عن العرش، ترجمة محمد بن الشيخ، منشورات وجهة نظر، الطبعة الأولى، 2011، ص 28.

³ - شقير محمد، تطور الدولة في المغرب، اشكالية التمركز والهيمنة، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ص 311.

⁴ - Ben Mlih. A, Structures politiques su Maroc colonial: d'un état sultanien a un état Sédimental, Thèse manuscrit, 1988, p 14- 15.

ثروة المغرب الأولى القابلة للاستغلال هي أرضه ومأؤه، وتطوره سيمتج طويلا في ذهن سلطات الحماية بتطور زراعته وتحديث هيدروليكيته. تلك كانت هي نظرة الرعيل الأول من المعمارين الفرنسيين لبلد قُدم في ثوب الخامل المستسلم لنزوات القدرية. في سبيل ذلك، شرعت الحماية في عملية استصلاح الأراضي غير المزروعة، وتغطيتها بضيعات المعمارين، وادخال الطرق والأدوات الحديثة، وجلب الاستثمارات والرساميل¹. لم توجد قط أراضي خالية من دون مالك كما ادعى الحقوقيون الاستعماريون، بل كانت الأرض دائما موضوعا لحقوق محددة، وهي في الغالب تتوزع بين خمسة نماذج كبرى:

- الأرض الموات؛

- الأراضي العمومية في المناطق الخاضعة لبلاد المخزن؛

- الأراضي الجماعية (بلاد الجماعة) في ملكية القبائل؛

- الأملاك المُحبسة: هبات ورعة قدمها أصحابها لصالح الجماعة الإسلامية أو الأولياء الصالحين؛

- بعض الأراضي الخاصة وهي ممتلكات فردية أو مشتركة².

لا نعدم بداهة في هذا التصنيف الميل العام نحو تشكيل الملكية الفردية، لكنها غالبا ما كانت تواجه بمعارضة القانون الإسلامي أو العُرُفي من جهة، أو بمعارضة الممارسة الاجتماعية. ظلت الحماية عاكفة على عملية تملك الأراضي بطرق مشبوهة وملتوية³، تُسهل انتقال الأراضي من الأجانب نحو المغاربة بشكل قانوني⁴. تكشف الإحصائيات المقدمة سنة 1913 مساحة الأراضي الفلاحية التي تملكها المعمرون الأوروبيون بالمغرب.

¹ نستدل هنا بنص لفرانك مالي Mallet. F مدير الفلاحة والتجارة والتعمير في برنامج التعمير بمجلة فرنسا- المغرب، العدد الرابع، بتاريخ 15 أبريل 1918، في صفحته الثانية: "...إن استصلاح الأراضي غير المزروعة، وتغطيتها بالضيعات، وكذا خلق منتوجات بها وتعميرها بالمواشي، لن يكون إلا من صنع مُعمرينا، القادرين وحدهم على هزم الخمول العام، وادخال الطرق والأدوات الحديثة، وكذلك عادات الوقاية والرسوم الطويلة. ينبغي أن نطلب من المعمارين الفرنسيين فكرا مُوجها وبعض الرساميل لمصلحة البلاد، التي لن يكون من الحكمة في شيء عزلها عن بلاد الأهالي..." ورد هذا النص ضمن مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، أكتوبر 1986، ص 127.

² بلكندوز عبد الكريم، الاستعمار الزراعي بالمغرب وطرقه في التغلغل، مجلة بيت الحكمة، م س، ص 128.

³ نستشهد هنا ب ف. بيكي V. Piquet كاتب مقرب من الأوساط الاستعمارية الذي ينقل اعترافا صريحا بهذا الاحتيال المشبوه والملتوي على أراضي المغاربة "...حقا، تتعرض كثير من مقتنياتنا للطعن من قبل الأهالي، ولا يمكن لها أن تصبح مقتنيات نهائية إلا إذا طبق النظام الجديد..." أورده ألبير عياش، المغرب حصيلة السيطرة الاستعمارية، مرجع ساب، ص 149.

⁴ النصوص القانونية المؤسسة لنظام التحفيظ العقاري في المغرب:

- ظهير 9 رمضان 1331، الموافق ل 12 غشت 1913 المتعلق بتحفيظ العقارات؛

- ظهير 18 رجب 1333 الموافق ل فاتح يونيو 1915 المطبق على العقارات المحفظة؛

- قرار وزير ي مؤرخ ب 20 رجب 1333 الموافق ل 3 يونيو 1915، حول تفاصيل تطبيق نظام التحفيظ العقاري؛

الشكل رقم 25: جدول : مساحة الأراضي الفلاحية¹:

الأراضي الفلاحية	المساحة بالهكتار
ناحية الرباط	934 38
الشاوية	5 920
ناحية مكناس	1580
ناحية مراكش	185
دائرة دكالة وعبد	750
المغرب الشرقي	25 685
المجموع	73 054

عودة إلى قضية التراتب المائي، يُخبرنا بول باسكون P. Pascan بأن الأمر يتعلق بظاهرة قديمة، مُستمرة ومُتكررة داخل نسيج المجتمعات القروية المغربية، تتميز بالثبات الذي لا تسمح بتغيير قواعد توزيع الأراضي الجماعية بين السكان الأصليين والدخلاء من اللاجئين والخماسين والرعاة الذين لم يكن الحظ في الحصول على ملكية الأراضي وحقوق الماء². لكنه في الأساس يظل ثباتا نسبيا، ما دامت قضية التراتب الاجتماعي حول الماء انطبعت بتحولات مستمرة عبر عامل الهجرة الخارجية الذي سمح بتوافد عناصر جديدة، وحرّر العديد من الأسر ومكنهم من شراء حقوق الماء والأرض. إن عامل الهجرة هو الذي سمح لبعض الوافدين شراء وبيع حقوق الماء وأعاد ترتيب ملكيات الماء³.

الماء صديق الأقوياء L'eau, l'amie du puissant بتعبير بيدوشا سواء بقوة السلاح قديما أو بقوة المال حديثا⁴. ظل منطق ابراز القوة وتقنينها عبر منظومة الأعراف المحلية عن طريق تكوين التحالفات هو أساس خلق "توازن القوى

- قرار وزيري مؤرخ ب 21 رجب 1333، الموافق ل 4 يونيو 1914، حول تقنين مصلحة المحافظة على الأملاك العقارية (بدّله قرار 16 ذو القعدة 1351، الموافق ل 13 مارس 1933، وقرار 26 شوال 1326، الموافق ل 26 أكتوبر 1943) في المنطقة الخليفية الشمالية: ظهير خليفي بتاريخ 14 يونيو 1914 حول تحفيظ عقود الملكية، وإرساء مستندات الملكية من طرف مصلحة الملكية Servicio de la Propiedad...انظر: بلكندوز عبد الكريم، الاستعمار الزراعي بالمغرب وطرقه في التغلغل، م س، ص 130.
¹ - ر. بسناروس. إيمار.

² - Pascon. P, Segmentation et stratification dans la société rurale marocaine, In Actes de Durham, Recherches récentes sur le Maroc moderne, In BESM, n° 138-139, p 113.

³ - Bédoucha. A.G, L'eau, l'amie du puissant, Une communauté oasisienne du sud Tunisien, Publication de CNRS et CNL, 1987, p 112.

⁴ - مهدان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، م س، ص 118.

المحلية". القوة هي من فرضت صياغة علاقات التضامن والتآزر من جهة، وعلاقات التوتر والصدام من جهة ثانية. بالمقابل عمل التدخل الاستعماري على "تهدئة الأوضاع"، ووضع حد للصراعات والحروب الدموية بين القبائل حول حقوق الماء وتوزيعها¹، عن طريق اجراءات قانونية للسيطرة على الموارد المائية بالدول المغربية². حاصل القول، لم يكن نظام الحماية بالنهاية سوى نظاما مُتصلا من التزاماته، وسرابا قانونيا ظل يُغطي في الواقع على علاقات استعمارية كلاسيكية³، وصيغة إدارية مبتكرة ستزلق انزلاقا سريعا من إدارة غير مباشرة إلى إدارة مباشرة⁴. حماية فُرضت بقوة السلاح، وشيدت واقعا جديدا للسيطرة الاستعمارية المباشرة الذي جعل من البوادي المغربية تُفرغ مطاميرها خدمة لحاجات المتروبول.

عملت فرنسا على استعمار الجنوب المغربي قبل توقيع معاهدة فاس 1912م بكثير، كل تقاريرها العسكرية تظهر ذلك، وحينما لم تُسعف الظروف الدولية لحسم القضية المغربية مبكرا، بدأت تتحرك في اتجاه التقرب من شبكة "الفيوداليين"⁵ المحليين. كان الكلاوي وقتئذ قد حوَّز روضا سقويا ضخما في الجنوب المغربي، ضمن له عيش الرفاه ومظهر الأسياد. هرع الكلاوي إلى استقبال الكولونيل مانجان Mangin القادم من الدار البيضاء سنة 1911م ليسلمه مفاتيح المدينة مقابل أن يزكيه في روض مسقي بمراكش⁶. مع ضمان توقيع اتفاقية بينه وبين بنك أعمال فرنسي، يضع بموجبه رؤوس أموال بعض خريجي مدرسة البوليتكنيك تحت تصرفه لتحديث نظام روضه السقوي.

¹ - Pérnnes. J.J, L'eau et les hommes au Maghreb, Contribution a une politique de l'eau en Méditerranée, CNRS, Karthala, 1983, p 58.

² - يمكن تتبع هذه الإجراءات القانونية عبر التسلسل الكرونولوجي في المنطقة المغربية:

قانون 16 يونيو 1851 حول ادماج المياه داخل الملك العمومي بالجزائر

قرار 24 شتنبر 1885 حول ادماج كل المجاري المائية والعيون والآبار وقنوات السقي في الملك العمومي بتونس

ظهير 1 يوليوز 1914 الذي تم تعديله بظهير 8 نونبر 1919 وبعده بظهير 1 غشت 1925 حول ادماج الموارد المائية في الملك العمومي...انظر مهادن امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي، م س، ص 135.

³ - بلكندوز عبد الكريم، الاستعمار الزراعي بالمغرب وطرقه في التغلغل، ترجمة مصطفى كمال، بيت الحكمة، م س، ص 121-122، والمقال في الأصل ورد بالصيغة الفرنسية ضمن R.J.P.E.M، العدد 4، يونيو 1978، ص ص 127-136.

⁴ - تم هذا الانزلاق في صيغة اشراك الأطر المحلية لتأمين السيطرة، والبحث عن مساهمة ومعاونة "الفيوداليين" بتحديد الكتابات الماركسية المغربية للاستفادة من بنية الحكم التقليدي.

⁵ - نعلم أن هذا التوصيف لا يحظى بقبول المؤرخين أو بعض منهم. لكن نستعمله فقط وفق المقاس الماركسي للدلالة على الفيودالي الذي يستمد قوته من إقطاعيته، ومن تضامن رعاياه، لكنها فيودالية تختلف عن فيودالية أوروبا أو آسيا، إذ ليس للفيودالي أفنان، والخادم ليس مدينا بأي شيء لسيد، لكن وفاءه له يظل شاملا وغير مشروط. وقد يتحول الفيودالي إلى قائد محلي تفوض له السلطة فضاء ضريبيا، كما قد تتعرض ممتلكاته إلى الحجز والتربك. يصعب رسم خطوط فاصلة وواضحة بين الفيودالية والقائدية، ما دامت ظاهرة الامتلاك العقاري تتم طوال مدة الخدمة العسكرية. انظر: باسكون بول، نظام فيودالي أم نظام قائدي، ترجمة محمد بولعيش، بيت الحكمة، م س ص 160. نقل النص عن المقال الفرنسي ضمن مجلة لاماليف، Lamalif، عدد 120، نونبر، 1980، ص ص 24-28.

⁶ - باسكون بول، نظام فيودالي أم نظام قائدي، م س، ص 124.

الحقيقة كان ليوطي بين منزلتين: الحيلولة دون اتساع مجال احتلال مانجان في الجنوب، ومحاشاة الانقياد لسلطة كلاوة في الحوز. لكن يبدو أنه أذعن لمشينة الكلاوي، وبلغ تساهله معه بأن شجعه على ركوب جميع الوسائل لتحقيق طموحاته في الجنوب. من هنا قد نفهم تلك الأصوات العسكرية التي كانت تلح على إبعاد الكلاوي¹.

يُقر برين Pérnnes بحقيقة أساسية واجهت سلطات الاستعمار جراء ضغوط المالكين لحقوق المياه المتزايدة. فبموجب العُرف المحلي الذي جرى تداوله بين القبائل اعترفت فرنسا بحقوق الماء التقليدية لما قبل 1914، تناغما مع سياسة ليوطي الهادفة إلى الموازنة بين حقوق الأهالي المحليين ورغبات المعمرين غي آن واحد². لا تخفى دواعي السياسة الاستعمارية في المحافظة على تدابير العُرف المحلي، لكن مع فرض الأداء العيني أو النقدي لكل من يستفيد من مياه السقي. حقيقة تميز العهد الاستعماري باستمرارية مبدأ أولوية العالية على السافلة، لكن وفق توقيت محدد، وتقدير خاص. لم يسمح مثلاً لقبائل عطا المقاومة للوجود الاستعماري الاشتغال وفق هذا المبدأ، لاعتبارات ترتبط بمناهضة الاستعمار الفرنسي. كانت مهمة ليوطي أنذاك ألا يسمح بالتحام المقاومة، مقاومة الهيبة الصاعدة من الجنوب، ومقاومة الأطلس المتوسط، لأن في ذلك، انهاء لحلم فرنسا في المغرب. لهذا، راهن على استراتيجية التفكيك التدريجي لجيوب المقاومة، و"هضم" الأراضي المحتلة بحقوقها المائية، وفي مرحلة ثانية تقوية المكاسب عبر خلق جو سيكولوجي قادر على توفير تعاون حقيقي ومستدام مع المعمرين والمغاربة. ومرحلة "الهضم" أساسية في حيازة السهول والهضاب والمياه الوفيرة التي تحدها قدم الجبال الأطلس الكبير والمتوسط.

ثمة من نظر إلى قضية التدبير الاستعماري للماء على أنه نوع من إعادة التوازن المفقود إلى قبائل السافلة، ودعم لخلق الاستقرار لها. لكن المسألة تتجاوز ذلك، ذلك أن الاعتبارات التي تحكمت لدى سلطات الحماية ترتبط بتباين توزيع الحصص المائية حسب أهمية المجال الزراع، وعدد سكانه، ودرجة نفوذه لدى السلطات الاستعمارية، وموقعه ضمن خارطة المقاومة المغربية.

بين التضامن والتوتر برزت آلية جديدة للتدبير الاجتماعي للماء، يتعلق الأمر بآلية الاستعطاف كميكانيزم اجتماعي. لجأت قبائل السافلة إلى استعطاف قبائل العالية من أجل الحصول على مياه السقي لمدة ثلاثة أو أربعة أيام لإنقاذ محاصيلهم الزراعية. هذا الاستعطاف غالبا ما تصحبه طقوس دينية واجتماعية مرافقة، كتقديم ذبيحة أو تقديم طعام جماعي. في وقت كان سكان الواحات المغربية حسب جاك بيرك يلجؤون إلى صيغة "الفيضانات الاصطناعية"

¹ - مشروع اللواء دوكان Dugan الذي كان يروم إبعاد الكلاوي، وإحلال النظام المدني محل النظام العسكري، وإجراء تحقيقات معمقة للوقوف على حقيقة انتهاكات الكلاوي في مراكش والحوز، لكنه أجهض بفعل تدخل "قبيلة كلاوة على ضفتي وادي السين" بتعبير كوستاف بابان. أنظر: بابان كوستاف، الباشا الكلاوي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، ص 88.

² - Pérnnes, J.J, L'eau et les hommes au Maghreb, Contribution a une politique de l'eau en Méditerranée, op.cit, p 122.

للتعبير عن التضامن في توزيع الماء¹ في أجل لا يتعدى أربعة أيام، بعدها يقوم سكان قبائل العالية بوضع سدودهم التحويلية من جديد على مجرى الواد.

يُفيد جاك بيرك أن التضامن بين سكان العالية وسكان السافلة مر بمرحلتين أساسيتين: مرحلة أولى تتم وفق ما سماه بالشرف الجماعي l'honneur collectif الذي يقضي بعدم ترك ساكنة السافلة بدون ماء، ومرحلة ثانية تقتضي وجود اتفاق ذو صبغة دينية طقوسية وفق ما سماه وسترمارك Westermarck بالعار.

هذا الوضع فرض على المجتمعات المغربية عقد أوفاق محلية للدفاع عن حقوقها المائية. أسبقية العالية على السافلة فجرت نزاعات وتصادمات قوية مثلما عاين ذلك جاك بيرك في مجتمع سكساوة². صراعات عادة ما كانت تطفو في فترات انحباس الأمطار أو حدوث هزات سياسية مركزية... تلجا قبائل السافلة حسب لاشابيل إلى فرض استفادتها بالقوة، باللجوء إلى تخريب السدود التحويلية "أكوك" لجيرانها من أجل تحويل مياه الواد نحو مزارعها³. في المقابل، تلجا قبائل العالية إلى وضع حراسة دائمة على سدودها ورؤوس سواقيها للدفاع عنها ضد أي هجوم عليها.

هذه المواجهة بين احترام الضوابط المحلية والرغبة في تغييرها هي التي دفعت روبير مونتاني إلى الدفع بأطروحة أن الاستقرار يقود نحو تراجع التضامن القبلي، وتفكك العلاقات والروابط⁴، بينما الحركية الاجتماعية هي التي تعيد انتاج وضعيات مائية جديدة قابلة للرصد والملاحظة والقياس.

عادة ما صاحب تحرك القبائل داخل المجال، لدواعٍ طبيعية (جفاف- مجاعة- أوبئة- جراد...) أو بشرية (حروب- احتلال- نزاعات قبلية⁵...) نشوب خلافات حول أحقيتها في الأرض والماء. من هذه الزاوية ركزت عديد الأبحاث الاجتماعية والتاريخية الأجنبية على دراسة وتأصيل ظاهرة البداوة في تاريخ المغرب. البداوة بالأساس، مثلما نجدها عند كثير من مؤرخي الفترة الاستعمارية ثمائل عمران الحرب⁶. من يقول بذلك، يحيل على قضية "بدونة السهل" التي قضت بأن تكون مثل ساحة قتال تتشوف إليها الأنظار والبصائر.

¹ - Berque. J, Structure sociales du Haut- Atlas, op. cit, p 108

² - Berque. J, Structures, p107.

³ - De Lachapelle. F, L'irrigation par Khetara dans l'extrême Sud- marocain, In RGM, n° 14, p 135.

⁴ - Montagne. R, Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Paris, Alcan, 1930, p 35.

⁶ - الواقع أن تراجع البداوة المغربية يعود من حيث التأصيل إلى أواخر العهد المريني، كل المصادر التاريخية تقر بحالة الفوضى والاضطراب التي قادت إلى انكفاء البادية على ذاتها. فهذا ابن الخطيب يصور هذه الفوضى: " فهم لا يرجعون إلى سياسة ناظمة، ولا شريعة حاکمة، ولا عفاف وازع، ولا خوف من الله رادع..."، ويزيد في موضع آخر "...مدائن دورها شعر، ووقودها بعر، وسورها سدر..." ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب، الجزء الثالث، تحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، ص 85-90.

حينما ننظر إليها من هذه الخلفية لا غرو أن تبرز لنا البداوة مثل آلية من آليات الدفاع والمواجهة والتكيف مع واقع منذور بالصراع المتواصل حول الماء والأرض. ما أبلغ التعبير الذي خطه المؤرخ دانييل ريفي عن هذه البداوة المغربية حينما وسمها بـ "البداوة المفارقة والمُرتحلة"¹. مُفارقة لكونها انتشرت وسط سهول خصبة كانت تمتلك كل امكانيات الاستثمار الزراعي²، والقطع مع موجبات اقتصاد الكفاف، وامتلكت وفرة مائية لم تنتج لا فلاحه قوية ولا اقتصادا متماسكا ولا مجتمعا يدور في فلك الزراعة المائية؛ ومُرتحلة لكونها ترافقت مع التراجع الملحوظ للقرى، وللحقول الزراعية، وللأشجار وللمجالات المسقية البسيطة³.

البداوة ثروة متنقلة هاربة عن سيطرة المخزن، تساق إلى المناطق والآفاق التي لا تطالها الأحكام، ولا تمتد إليها مؤسسات المخزن... البداوة استثمار مستمر في الحركة، وتوظيف ذكي واستراتيجي لخصائص المجال من أجل تأمين ثلاثية العيش: الماء والكلأ والأمن... جُل الدول التي تعاقبت على تاريخ المغرب لم تجد حلولاً لأزمة البداوة، ما دامت نظيمة الدولة كانت ترث كل شيء، حتى الأمراض المزمن والهيكلية. فكلما وهنت السلطة المركزية وبدت أعراضها، تعمقت البداوة في الهوامش والأطراف، وترسخت الانقسامية بين مكونات المجتمع، وظهرت مخادع جديدة تأوي العصاة والمنشقين. من هنا قد نتفهم عقيدة التخريب التي طالت العمران في تاريخ المغرب، كما نتفهم الإهمال المزمن للجبل والإحجام عن خوض حروب قاسية لإخضاعه من طرف المخزن.

مع البداوة ظهرت المطامير، عبارة عن حفر كبيرة تلجأ إليها القبائل لتخزين الزرع، وكثيرا ما كانت تُخفي الحلي والنقود والأواني النفيسة... لا تبدو الفكرة التي تقول بفقر وبؤس القبائل المغربية جذابة، بقدر ما نجد فقط سوء توزيع واحتكارات واقتسام مصالح، صنعت تراثية اجتماعية مشكلة من محظوظين وبؤساء. علينا أن نعيد الاعتبار

¹ - Rivet .D, Histoire du Maroc, Fayard, 2012, p 153.

² - حول هذا القضية نعود إلى نص تاريخي، يُقدم من خلاله هنري دو كاستري وصف دقيقا لمزروعات المغرب زمن أحمد المنصور الذهبي. نركز فيه فقط على منطقة الأطلس الكبير والجنوب المغربي يقول النص: "...وتنتج الشاوية بوفرة كبيرة كل الأغذية من قمح وشعير، وقطاني كالقول والحمص والعدس، وبعض الخضراوات، وكل أنواع الماشية، الكبيرة منها والصغيرة، وكذلك الجمال، كما تنتج الكثير من العسل والزبد والشمع والصوف وبعض الخضراوات... وبالأطلس الكبير يوجد الكثير من القمح الجيد والشعير والدخن والحمص والفل واللوب والعنب والرمان والسفرجل... وفي أغصان حقول من القمح... وفي دمنات أيضا، إذ يوجد الكثير من القمح والزيتون والفواكه... وبضواحي مراكش، باتجاه الشرق، يملك معظم قواد المدينة قطعة أرضية تعطي الكثير من القمح... وعلى الطريق بين مراكش وسوس، أي على طول جبل درن، يكثُر القمح والجوز واللوز والمواشي والماء... كما تتوفر على شجر الأركان الذي تعطى ثماره الصفراء زيتا جميل اللون، لكن مر المذاق. وبمنطقة تارودانت قمح كثير وأنواع من الفواكه... وفي منطقة رأس كير (قرب أكادير) التي يخترقها نهر سوس تنتج الأرض القمح... وفي سهل تادلا يوجد القمح وبعض الخضراوات..."

De Castries. H, Une description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed El Mansour (1596), texte portugais et traduction français, Paris, 1909, pp 89-137.

ورد هذا النص عند حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 150.

³ - جويطي عبد الكريم، تاريخ بلاد تادلا، تحيين وتركيب، م س، ص 143.

إلى ما توصل إليه إدموند دوتي حينما قال أن المشهد الاقتصادي المغربي ما قبل الحماية ظل يسير بإيقاعين: اقتصاد عمودي يطبعه الكفاف والعوز في الانتاج، وعلاقات اجتماعية أفقية قائمة على البذخ والثراء.

عندما تشج الأمطار لا يكتفي الرعاة والفلاحون بالتفرج والانتظار، بل يعتمدون خطة دفاعية زراعية. قدم برنار روزنبرجي توصيفا لذلك. يعلب هؤلاء على الفرق بين المواسم والفصول، ففي الخريف يبذرون القمح والشعير والفل، وفي نهاية فصل الشتاء يبذرون النباتات التي تتحمل الرياح العاتية كالذرة الرفيعة... وإذا ما استمر الجفاف يتم قطف ما ينبث في الغابات من نباتات مثل الخروب والبلوط وطحنها لتصبح دقيقا صالحا للأكل مثل دقيق القمح المعروف، بالإضافة إلى النباتات الخضراء المغذية التي تكبر في ظل الأشجار مثل القوق والخرشوف¹. هكذا عمل المغاربة على تكوين احتياطي كبير من الحبوب والمواد الغذائية وقت الجفاف في ما يسمى بـ"المطمورة"، التي ارتسمت في المخيلة الشعبية بالبقاء على قيد الحياة، وإلى استمرارية القبيلة².

حاول جرمان عياش أن يكشف عن دور المخزن في ممارسة التحكم بين القبائل ردا على الطروحات الاستعمارية التي أدرجته ضمن خانة الأجهزة الطفيلية³.

نسوق في هذا الصدد، مثالا من منطقة الأطلس الكبير الغربي، يتعلق بزحف قبائل أولاد أبي السباع على المجال الديري لقبيلة انفيضة (أفيغن) خلال أربعينيات القرن التاسع عشر⁴. نتج عن هذا الصراع تحكم مخزني يقضي بتخلي أولاد أبي السباع عن الأملاك التي احتلوها لأصحابها انفيضة. لكن كيف تم ذلك؟

يتضح من خلال مقابلة شواهد القبيلتين اختلاف مدة احتلال أولاد أبي السباع لمجال انفيضة. فرواية جرمان عياش قدّرت مدة الاحتلال في أربع سنوات، قبل لجوء قبيلة انفيضة إلى رفع قضيتها إلى السلطة المركزية⁵، وحسب رواية شفوية استقاها الباحث محمد زرهوني من عين المكان، قدّر أن مدة الاحتلال لا تتجاوز عشر سنوات، وهي

¹ - Rosenberger. B, Société, Pouvoir et alimentation, Nourriture et précarité au Maroc précolonial, op. cit, p 168-169.

² - هناك مثل شعبي يقول: "...من ليس له صوف فقلبه مظلم، ومن ليست له مطمورة فالموت أولى به..." أورده ريفيه ص 234.

³ - عياش جرمان، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدّين، الطبعة الأولى، الرباط، 1986، ص 45.

⁴ - لا أحد يملك الجدارة التاريخية والاقتدار المعرفي والكلمة الفصل في تأكيد أصول القبائل المغربية. لا أحد يستطيع ضبط وتأطير وتتبع عمليات التحرك والتنقل بين السهول والجبال، بله استيعاب قضية التمازج الإثني بين بطون أمازيغية بأخرى عربية التي صنعت نسيجاً ثقافياً فريداً وتلاقحاً إثنياً متعددًا للعادات والتقاليد، في اللباس وأنماط العيش والسكن والغناء والحلي والطعام وطقوس الأعياد والمواسم الفلاحية والازدواجية اللغوية... هذه الجزئية هي التي تعقد مهمة البحث في الأصول القبلية... نلتقي هنا لتعصيد هذه الفكرة مع نص للناصري "...وهكذا وقع في سائر المغرب الأقصى المواطنون بتلوله، فإنه وقع منهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الأولى إلا في النادر، وذلك بسبب تعاقب الأعصار وتناسخ الأجيال، وتوالي المجاعات والانتجاعات، ووقعات الملوك بهم في كثير من الأحيان وتفرق بعضهم ونقل بعضهم إلى بلاد بعض... الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، دار الكتاب، الجزء الخامس، الدار البيضاء، 1997، ص 66-67.

⁵ - يشير زرهوني إلى أن جرمان عياش اعتمد في تقديره لمدة الاحتلال على محضر مؤرخ ب 20 ربيع الثاني 1270 / 20 يناير 1854 م، بينما أن هناك رسالة بعث بها قائد مزووضة للسلطان عبد الرحمان، مؤرخة ب 19 ربيع الثاني 1270 / 19 يناير 1854 تسهم في توضيح مدة الاحتلال. وبالتالي يجعل زرهوني الرسالة أسبق من تحرير المحضر... لمزيد من التوضيح، يمكن العودة إلى زرهوني محمد، م س، ص 287.

مدة في اعتقاده لا تنهض حجة ودليلا كافيا لإثبات أحقية أولاد أبي السباع في امتلاك الأرض والماء. والحال، أن أولى العقبات التي تصادفنا في تحليل مجريات هذا النزاع ترتبط بتحديد مدة الاحتلال، ما دام الأساس، الذي يستند إليه كل باحث في النازلة، رسالة ومحضر معاينة. وهو ما يُصعب على الطرف المدعي انفيضة، إثبات حق ملكيتها لتلك الأرض¹.

عودة إلى أسباب المغادرة، غادر سكان انفيضة مجالهم الديري سنة 1850م نتيجة قحط حاد وفق ما يكشف عنه جرمان عياش²، ونتيجة قنبلة الأسطول الفرنسي لميناء الصويرة سنة 1844م وفق ما ينقله محمد زرهوني عن رواية محلية مستقاة من أولاد أبي السباع³. حينما انجلى القحط، عاد سكان انفيضة إلى أرضهم، فوجدوها محتلة من طرف سكان ينتمون إلى أولاد أبي السباع، الذين ادعوا أنها ملكهم، فثار النزاع بين الطرفين من أجلها. واضح أن الحل المحلي لم يجد طريقه لتسوية النزاع، ولم يُرض الطرفين، ما دام كل طرف، تمسك بأحقية في الأرض. هكذا تكتلت فروع قبيلة انفيضة: أيت امتنانوت وأيت البور وأيت أمزناس لمواجهة قبيلة أولاد أبي السباع.

تتحدث الرسالة التي بعث بها قائد مزوضة أن السلطان أصدر له الأمر بـ "...أن نتوجه مع نفيفة وأولاد أبي السباع، للوقوف على البلاد التي يتنازعون فيها، وننظر من يعتمرها منذ سنين، ومن الظالم من الفريقين، ونخبرك بالجميع، فبادرنا بالامتنال، وشمرونا على ساعد الجد في الحال، فطفنا بها من النواحي، فألفيناها مشحونة بعمارة أولاد أبي السباع، بناء وغرسا وسكنى، وحرثا ونطاقي وغدراننا وأمراسا، اعتمروها منذ سنين عديدة، من أول نصر سيدنا أيده الله للآن..."⁴.

منطوق هذه الرسالة يعطي الحق لأولاد أبي السباع في تملك الأرض، حيث يقدر القائد المزوضي بأن مدة الاستقرار تزيد عن ثلاثين سنة من تاريخ النزاع، كما أنهم عملوا على إحيائها وإعمارها بالمباني والغرس والنطاقي.

هكذا اضطر السلطان إلى توجيه لجنة لعين المكان، تتكون من ثلاثة عدول وقائدين عسكريين، تمزج بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية، لمعاينة الأرض المتنازع عليها. فتبث لهذه اللجنة بعد المعاينة، قدم الاستغلال لوجود

¹ - زرهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر 1863/1280- 1873/1290م، م س، ص 286.

² - Ayache Germain, Etudes d'histoire marocaine, Rabat, 1979, p 169.

³ - "...سبب احتلالهم (أولاد أبي السباع) لتلك الأرض ترجع إلى الظروف التي سادت المنطقة، غداة قنبلة الأسطول الفرنسي للصويرة سنة 1844، مما أحدث رعبا في المنطقة تحركت معه القبائل، فانجلى أهل تلك الأرض من انفيضة، وحل مكانهم سكان من أولاد أبي السباع..." زرهوني محمد، النزاع حول الأرض والماء بمنطقة الأطلس الكبير الغربي في ستينيات القرن التاسع عشر، مجلة أمل، العدد 9، السنة الثالثة، 1997، ص 30.

⁴ - رسالة من قائد مزوضة أحمد بن مبارك المزوضي إلى السلطان المولى عبد الرحمان بتاريخ 19 ربيع الثاني 1270 / 19 يناير 1854، وردت ضمن كتاب زرهوني محمد، م س، ص 287.

خرائب دور، ومطامير، ونطافي، وبقايا غرس، تعود لفترة قديمة¹. ما جعل اللجنة تقرباً نفيضة هم الملاكون الحقيقيون للأرض. وقد عززت قبيلة ادويران المجاورة ما توصلت إليه اللجنة بشأن مطالب قبيلة انفيضة، في مقابل التزمت قبيلة سكساوة نوعاً من الحياد، بادعائهم عدم معرفة الحقيقة².

بعد أن رفعت اللجنة تقريرها إلى السلطان المولى عبد الرحمان، أقر السلطان بتخلي أولاد أبي السباع عن الأملاك، التي احتلوها لأصحابها نفيضة، لكن بعد حصاد ما زرعه³.

أ- مياه الدير بطرفي الأطلس الكبير الغربي: النزاع والتحكيم

✓ نزاع ادويران وأولاد أبي السباع 1868م:

نسوق مثالا ثانيا حول نزاعات الأرض والماء بطرفي الأطلس الكبير الغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. نشب نزاع بين قبيلتي دويران وأولاد أبي السباع حول الأرض والماء، قاد إلى حدوث مناوشات بينهما، لم ترض بالتحكيم المحلي. ما استدعى رفع القضية إلى السلطة المركزية، بتاريخ 28 محرم 1285 هـ / 21 ماي 1868م، التي أقرت ب "إلزام أولاد أبي السباع، بالتخلي عن بلاد الدويران"⁴، بناء على تقدم شيوخ قبيلة دويران بحجج كافية تثبت للمخزن أحقيتها في الأرض المتنازع حولها. لكن يظهر أن قضية البلاد المتنازع عليها بين الطرفين، لم تنته بهذا القرار السلطوي مثلما نجد في رواية زرهوني، وربما قد يكون لأسباب توفر أولاد أبي السباع على حجج جديدة، جعلت السلطة المركزية، تراجع الأمر بعد أزيد من شهر، عن قرارها السابق "بإجراء قضية أولاد أبي السباع ودويران، في البلاد التي بينهم، على ما حكمت به الشريعة".

هكذا يظهر أن السلطة المركزية في نازلة صراع دويران وأولاد أبي السباع تراجعت عن قرارها الأول، لظهور حجج جديدة أدلت بها قبيلة أولاد أبي السباع. على وقع ذلك، أحييت القضية من جديد على المحكمة بتاريخ 7 ربيع الأول 1285 هـ / 28 يونيو 1868 م، وتم الاستناد إلى حجج الأطراف المتنازعة، وإعمال النظر بشأن ما أدلى به الطرف الثاني "أولاد أبي السباع" أو إهماله⁵.

¹ - زرهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر 1863/1280- 1873/1290م، م س، ص 288.

² - Ayache .G, Etudes d'histoire marocaine, Rabat, 1979, p 169.

³ - Ibid, p 170.

⁴ - زرهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر، م س، ص 288.

⁵ - نفسه، ص 289.

✓ نزاع مزوضة ومجاط وفروكة حول مياه أسيف المال:

تستمد قبائل مزوضة ومجاط وفروكة مياهها من سواقي مياه أسيف المال. تقدم قائد قبيلة عثمان المجاطي بشكوى إلى السلطة المركزية في 4 شعبان 1285/ 20 نونبر 1868م حول تحكم قبائل أسيف المال في ماء العالية "ما طلبه عثمان المجاطي، من عدم إجابة فروكة، اما راموا أخذ ما بيد إخوانه من ثلث الماء، الذي ناههم من الماء المقسوم، بينهم وبين أهل أسيف المال، ومزوضة¹، أثلاثا بينهم لتضررهم²". كانت قبيلتي مجاط وفروكة يعمدان إلى عرقله استفادة قبائل أسيف المال من القسمة التي ناهتهم في توزيع المياه. لسبب أساس، أن فروكة لم تتقبل التحكيم الذي أقربه المولى الحسن في مسألة توزيع مياه أسيف المال، بين كل من أهل أسيف المال وفروكة ومجاط ومزوضة³.

تدخلت السلطة المركزية بحل النزاع بين القبائل الأربعة، أوفد المولى الحسن لجنة مكونة من عدلين يمثلان السلطة القضائية، وقائد يمثل السلطة المركزية، و "أرباب المعرفة" من ذوي الخبرة في تدبير نزاعات الماء، وبعض أعيان القبائل المتنازعة⁴. واضح أن هذه اللجنة تمزج بين السلطة القضائية والتنفيذية والخبرة المحلية. وُجهت هذه اللجنة إلى عين المكان " حتى وقفوا على محل مجرى الماء المذكور، وطافوا به طوافا ماشيا، بمحضر الأعيان المشار لهم". بناء على معاينة اللجنة، قرر المولى الحسن الأول تقسيم الماء بين القبائل (أسيف المال، فروكة، مزوضة، ومجاط) وفق ما يلي: " اقرار أهل أسيف المال على ثلثهم المعين لهم من قبل، من الماء المذكور، على حاله من غير إدخال نقص عليه فيه" تم " تقسيم الثلثين الباقيين بين مجاط وفروكة ومزوضة أثلاثا سوية بينهم⁵". أعطى المولى الحسن أوامره إلى الجهاز المخزني المحلي بالسهر على تطبيق هذا الاقرار " فعلى الواقف عليه من عمال سيدنا، وولاية أمره الشريف المعتز بالله، أن يعمل بمقتضاه، واقفا عند حده ومقتضاه". ما يفيد أن هذا الاقرار اكتسى طابع إلزاميا لا يجوز نقضه أو تغيير مقتضياته.

يبدو جليا أن هذا الإجراء في تدبير النزاع يخالف القاعدة المائية المرعية " امتياز العالية على السافلة" وفق مبدأ التدرج الطبوغرافي. أقر هذا الإجراء على تقديم ثلث المياه إلى قبائل أسيف المال، وقسم الثلثين الباقيين على ثلاث

¹ - حول مزوضة يقول الرائد كورني الذي شارك في طابور مانجان سنتي 1912-1913 "....مررنا يوم 7 نونبر من سنة 1912 بهضبة غنية ومحروثة في أسفل الجبل، تحيط بها أشجار الزيتون الخضراء...لا يسكنها سوى القبائل البربرية التابعة لنفوذ المتوكي...وكان القايد محمد الذي عينه أحمد الهيبة بعد وصوله إليها قد ندم على بيع ساقية غنية تسقي كل البلاد بستة آلاف ريال (24000 فرنك)...الرائد كورني، رائحة البارود: في طريق احتلال الجنوب المغربي مع طابور مانجان 1912-1913، ترجمة ناجي بن عمر، منشورات الزمن، 2018، ص 36.

² - كناش 47، 4 شعبان 1285/ 20 نونبر 1868، أورده زهوني محمد، م س، ص 294.

³ - زهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر، م س، ص 294.

⁴ - كناش 664، 22 جمادى الثانية 1285/ 10 أكتوبر 1868، أورده زهوني محمد، م س، ص 294.

⁵ - كناش 47، 4 شعبان 1285/ 20 نونبر 1868.

قبائل: فروكة، مجاط، ومزوضة. يُقدم محمد زرهوني تفسيراً لهذا التقسيم، بكون القبائل الثلاثة متساوية من حيث الموقع، وتقع مباشرة على السهل، عند مخرج الوادي في شكل مخروطي، فلا امتياز لقبيلة على أخرى، وفقاً لمبدأ التدرج على الوادي¹.

الحاصل، لم تتحكم قاعدة واحدة في تدبير نزاعات المياه بين قبائل العالية وقبائل السافلة، بقدر ما تحكمت الخصوصية المحلية، والموقع السياسي والجغرافي والاقتصادي والاجتماعي. تُظهر النزاعات على وادي القهرة وأسيف المال، أن السلطة المركزية قادرة على تغيير القاعدة المرعية حسب ظروف كل وادي، وقوة كوانينه وبيوته. فإذا كان النزاع الأول قد انتهى بتطبيق القاعدة العرفية، بمراعاة لمبدأ التدرج، فإن النزاع الثاني عكس أسلوب الالتزام السلطوي.

عموماً، تكثرت حوادث ونزاعات المياه والأراضي بمنطقة الأطلس الكبير الغربي التي لم يكن القرار المحلي قادراً على الفصل فيها. ما جعل هذه القبائل تلجأ إلى تحكيم السلطة المركزية، التي بدورها راعت الحفاظ على التوازن بين القبائل في استغلال المجال الاقتصادي².

ب- نزاعات الماء: نسق اجتماعي مركب

تُظهر بعض الأحداث المائية بمجال الأطلس الكبير أن المؤسسات المحلية لم تكن قادرة في كثير من الأحيان عن إيجاد تسوية لمشاكل الأرض والماء والانتاج؛ خاصة حينما تشح مصادر المياه أو تنضب، وتُمسك السماء عن الأمطار، أو تتردد على المجال موجة جديدة من الجوائح والأوبئة والحركة السلطانية... داخل مدار جغرافي تشابكت فيه المصالح الاقتصادية بين القبائل لتضع من قضايا النزاع حول الأرض والماء والانتاج عناصر حيوية داخل نسيج الأطلس الكبير... مجال جغرافي وهبته الصحراء جزءاً من روحها، وظهر بحدود غير ثابتة ودوائر نفوذ متغيرة³... رعا ثقافة الرفض والمواجهة، وفتح ذراعه للخائف والغاضب والمقهور والمهزوم.

ولئن كانت البنية العقارية لمغرب ما قبل الحماية تناوبت عليها فترات امتداد وفترات انكماش، تبعاً لتغير موازين القوى والفاعلين في المجال، فإن النزاع حول مصادر الانتاج القروي مثّل عصب الحياة الزراعية والرعية، سواء في

¹ - زرهوني محمد، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر، م س، ص 295.

² - نفسه، ص 296.

³ - يتحدث هنري تيراس على أن كثير من قبائل الأطلس الكبير ظلت بدون خضوع لأي سلطة، تستقبل المهزمين أو الذين أرهقهم الصراع المتواصل. وحده المنطق القبلي هو الذي كان يحكم خارطة التحالفات والنزاعات مع القبائل المجاورة... لكن يجب أن نقر أن اللحظات الانتقالية الكبرى في مجال الأطلس الكبير لم تفقد الاستقلالية والخصوصية.

Terrasse. H, Histoire du Maroc, T1, Edition Atlantide, Casablanca, p 108.

فترة الحرث، أو السقي أو الرعي¹... ولئن كانت أيضا شبكة وديان الأطلس الكبير تمتد عبر سلسلة من القبائل، من عاليتهما إلى سافلتها، عبورا بقبائل الدير والسهل عبر شبكة كثيفة من السواقي الفرعية، فإن هذا النزاع كان يشتد لحظة نزوب المياه أو نقصها أو شحها².

نزاعات الماء في مجال الأطلس الكبير لا تستقيم على شكل واحد، ولا تنضبط وفق قاعدة واحدة. تظهر صعوبة إيجاد حل محلي، ما يفسر التجاء الأطراف إلى تدخل السلطة المركزية للحفاظ على التوازن. ذلك ما تظهره حالتي وادي القهرة ووادي أسيف المال التي توقف عندهما جاك بيرك في مونوغرافيته حول قبائل سكساوة. لكن علينا أن نقر أن هذا الاختلاف في الأحكام من طرف السلطة المركزية يفسر باختلاف الظروف الطبوغرافية وموقع التجمعات السكانية وحجم ومساحة الأراضي الزراعية وقوة القبيلة داخل النسيج الاجتماعي في المنطقة. هذا ما يضع الباحث أمام نسق مائي مركب ومعقد. فبقدر ما راعى المخزن في حالة وادي القهرة مبدأ الالتزام بالقاعدة العرفية المألوفة التي تعتمد مبدأ تدرج السكان على الوادي، لجأ في حالة وادي أسيف المال بأسلوب الإلزام والإكراه السلطوي.

هذا الوضع الذي عاشت على إيقاعه جل البوادي المغربية قبل الاستعمار هو الذي كان يسوغ للسلطة المركزية التدخل لحل نزاعات الماء والأرض والإنتاج. عموما تركزت نزاعات الاقتصاد المحلي لمغرب ما قبل الاستعمار في محورين رئيسيين: محور أول حول الأراضي المنتجة، ومحور ثاني حول المياه وتوزيعها. نزاعات ما تكاد تتوقف حتى تبدأ من جديد، يشتد النزاع عنها في لحظات الحرث والسقي.

تدخل السلطة المركزية لا يتخذ شكلا واحدا، ولا ينضبط لقاعدة عرفية مؤطرة، ممارسة سياسية تحيل على نسق مائي معقد ومركب³... ظل هذا التدخل المركزي يختلف من مجال قبلي لآخر، وإن راهن على احترام مبدأ التوازن، وفق ما نجده في العبارة التي توضح بها الكنانيش المخزنية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر "

¹ - ذهب الجغرافي فليكس غوتيه إلى التأكيد على طابع التركيب الذي يميز تاريخ المغرب، حيث يؤكد في أكثر من موضع أن الخاصية الكبرى التي ميزت تاريخ المغرب عن باقي بلدان البحر الأبيض المتوسط هي بطء تطوره، وأن لا اعتبار للزمن في المغرب بخلاف إمكانية أخرى، وخاصة في الممارسات الانتاجية التي تطبع الاقتصاد القروي.

² - يمكن أن نحيل على نص لابن خلدون في تأكيد هذه الفكرة، ذلك أننا نعتبره مؤرخا كتب التاريخ بصيغة التركيب "...فلذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانقبضت الأحوال، وبذعر الناس في الأفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق، فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وملت دياره وخربت أمصاره..." ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 223-224.

³ - ارتبطت أسماء بعض التجمعات البشرية بأسماء الموارد المائية (العيون أو الوديان)، معلوم أن الموارد المائية سابقة عن العمران، وهي التي تكون سببا في استجلاب العمران. لا غرابة أن تظهر أسماء مدن بأسماء الأودية التي أنشئت بجانبها، مثل مدينة نفيس على وادي نفيس، وزير على وادي زيز، ودرعة على وادي درعة، وأزقور على وادي أزقور... جويطي عبد الكريم، تاريخ بلاد تادلا، تحيين وتركيب، الجزء الأول، م س، ص 75.

صرف الماء على وجه الخير"... فإنه كان لا يتم في العادة إلا عندما تعبر مؤسسة الجماعة والسلطة المحلية عن عجزهما في تدبير تفاصيل النزاع.

فإذا كان السلطة المركزية قد راهنت في فصل خلاف سكساوة وادويران وأولاد أبي السباع بخصوص توزيع مياه وادي سكساوة " وادي القهرة" على قاعدة عرفية موروثية تستند على مبدأ التدرج من العالية إلى السافلة، فإن الحال، اختلف في فصل نزاع أهل أسيف المال ومزوضة وفروكة ومجاط حول مياه واد أسيف المال الذي جعل السلطة المركزية تجنح إلى مبدأ الالتزام السلطوي.

حاصل القول، تركز النزاع حول المياه على طول الوديان، من عاليتها إلى سافلتها، مروراً بالقبائل المستوطنة لمنطقة الدير. صحيح أنه في اللحظات التي كانت تعرف جريانا مهما للوديان ظل احترام التنظيم الدقيق لتوزيع المياه عبر السواقي الفرعية قاعدة أساسية، لكن في اللحظات التي كانت تشهد موجة جفاف وإقبال مناخي تظهر النزاعات والخلافات حول المياه، ما يساهم في تأثر المساحات المزروعة امتداداً أو تقلصاً، واضطراب في ضبط التوزيع.

ينتصر جاك بيرك في دراسته لقبائل سكساوة إلى فرضية أن السلطة المركزية ظلت تحترم القاعدة العرفية التي درجت قبائل الأطلس الكبير على تطبيقها في توزيع المياه، القائمة على مبدأ احترام تدرج التقسيمات السكانية على طول الوادي من العالية نحو السافلة¹. شكلت هذه القاعدة حسب بيرك مبدأ عاماً في توزيع المياه وقت النضوب، ولعل هذه القاعدة هي التي جعلت السلطة المركزية تعمل بقاعدة " صرف الماء على وجه الخير" حيث يعتمد سكان العالية على تفويت جزء من المياه لسكان السافلة مراعاة لتقلبات المناخ. وحتى عندما تتعقد الأمور، ويستحيل بناء التفاهم بين القبائل المتنازعة يفتح الباب أمام تدخل السلطة المركزية التي تبعث بلجنة مختصة تعتمد إلى تجميع المعطيات والاستماع إلى الأطراف المتنازعة وجمع الشهادات.

نسوق في هذا الصدد، بعض النزاعات التي توقف عندها جاك بيرك في مجال الأطلس الكبير الغربي، ففي أعالي واد سكساوة نشب نزاع بين فريقين من قبيلة سكساوة، حول ساقية تعود إلى فريق "إدما" تستمد مياههما من أعلى الوادي عند فريق " أيت حدو يوس". نزاع مائي يتجدد باستمرار كلما نضبت الساقية، أو شحت التساقطات... إلى أن تم عقد اتفاقية جماعية بينهما أوائل القرن الثامن عشر، أقرت أن يكف فريق "أيت حدو يوسف" عن الاضرار بساقية فريق "إدما"². وفي أسفل وادي سكساوة الذي يحمل اسم " وادي القهرة " نسبة إلى

¹ - Berque, J, Les structures sociales des Hautes-Atlas, op. cit, p 108.

² - Ibid, p 107.

القلعة المرينية الشهيرة في المنطقة¹. تشترك قبيلتان في استغلال مياه الوادي، هما سكساوة ودويران. تتوزع القبيلتان على امتداد الوادي بشكل متداخل، فينتج عن هذا التداخل حدوث تأثير متبادل بينهما. يتأثر فريق "أيت موسى" من سكساوة في استغلال مياه رافد يدعى "أدوز" بفريق "أيت تادرات" من دويران، بحكم أن الرافد يأتي من منطقتهما. وعند مخرج وادي سكساوة يتأثر دويران في استغلال المياه بفريق "أيت عبد الله" من سكساوة، فيكون التداخل بين القبيلتين، سكساوة ودويران. ما دفع جاك بيرك² إلى أن يقر بضرورة إقامة توازن قائم على التناوب في استغلال مياه وادي سكساوة³.

المثال الثالث، نزاع قبيلة أولاد أبي السباع ودويران وسكساوة حول مياه واد سكساوة ما بين 1865 و1868م⁴. يمتد الوادي إلى الأسفل عبر سواقي تعبر إلى أراضي دويران، تستفيد منه قرى سباعية كـ "أيت سعادة" و"أولاد سولة"⁵. بدأ هذا النزاع في 24 فبراير 1866م/ 8 شوال 1282هـ حينما تقدم قائد أولاد أبي السباع بشكوى تفيد انقطاع الماء عن ساقيتهم⁶. فأصدر المولى الحسن الأول قراراً بأن " يؤمر دويران بإطلاق لهم شيئاً من الماء".

في هذه الحالة اختلف تدخل السلطة المركزية عن تحكيم مياه أعالي وادي سكساوة. فقد صدر أمر السلطة المركزية لجعل قبيلة دويران تطلق شيئاً من الماء لقبيلة أولاد أبي السباع، لكن يظهر أن هذا القرار لم يتخذ بُعداً إلزامياً يطبعه الغصب والاكراه، بل تم بطريقة ودية حبية تنزيلاً للقاعدة المخزنية المعروفة " على وجه الخير"⁷. هنا يظهر أن تدخل السلطة المركزية لم يلق استجابة لدى دويران الذين امتنعوا عن تفويت المياه لأولاد أبي السباع، وانضم إليهم في هذا الرفض قبيلة سكساوة. هل يقرأ هذا الرفض كنوع من الامتناع عن تطبيق قرارات السلطة المركزية؟ أم يقرأ في سياق وجود قوة مناخية قاهرة تحول دون الالتزام بالتحكيم المخزني؟ لا مِرية أن مثل هذه الحوادث هي التي دفعت البعض إلى القول بتمرد القبائل عن المخزن، وبزوعها نحو الاستقلال عنه.

¹ - وادي سكساوة يسمى أيضاً وادي القهرة عندما يدخل إلى السهل عند دويران نسبة إلى قلعة القاهرة التي شيدها المرينيون عند مدخل الوادي... زرهوني محمد، النزاع حول الأرض والماء بمنطقة الأطلس الكبير الغربي في ستينات القرن التاسع عشر، مجلة أمل، العدد التاسع، 1997، ص 36، ضمن هامش المقال.

² - يمكن التمييز في مسار جاك بيرك بين مرحلتين: مرحلة التكوين التي توافق مؤلف "حول الموائيق الرعوية عند قبيلة بني مسكين"، وهي أول بحث ميداني استوحى من خلاله بعض النظريات والمفاهيم التي كانت سائدة في المدرسة السوسيولوجية الفرنسية وخاصة أعمال لويس جيرنيه Louis Gernet ومارسيل موس Marcel Mauss، ومرحلة النضج المعرفي التي توافق أطروحة "البني الاجتماعية في الأطلس الكبير" التي أنجزها أواخر الأربعينات، حين كان يشغل منصب المراقب المدني في امتنانوت. انظر: الدهان محمد، جاك بيرك والمغرب، مجلة إضافات، العدد السابع، صيف 2009، ص 54.

³ - Berque. J, Les structures sociales des Hautes-Atlas, op. cit, p 106.

⁴ - Ibid, p 106.

⁵ - Ibid, p 107.

⁶ - كناش 47، الخزنة العامة، مؤرخ ب 8 شوال 1282هـ / 24 فبراير 1866م، أورده محمد زرهوني ضمن هامش المقال.

⁷ - زرهوني محمد، النزاع حول الأرض والماء بمنطقة الأطلس الكبير الغربي في ستينات القرن التاسع عشر، مجلة أمل، العدد التاسع، 1997، ص 34.

دافع الرفض دفع المولى الحسن الأول إلى طلب بيان موجب امتناع دويران عن تفويت جزء من الماء على وجه الخير. لكن حينما كانت تستنفذ كل الامكانيات والاحتمالات والتدخلات الودية، كان قرار السلطان في القضية بأن " يأمر بالخمس يفوت لأولاد أبي السباع، والباقي للأولين (دويران وسكساوة)¹.

في مثال آخر بمجال الأطلس الكبير الغربي، نشأ نزاع حول الماء بين أهل أسيف المال وقبائل مزوضة ومجاط وفروكة حول مياه وادي أسيف المال. تقدم قائد مجاط عثمان المجاطي بشكوى إلى المولى الحسن الأول بتاريخ 4 شعبان 1285هـ/ 20 نونبر 1868م تتضمن عدم امتثال فروكة لقرار السلطة المركزية. تتضمن الشكاية إشارة إلى أن فروكة رامت أخذ حصة الثلث من الماء، الذي ناهم من الماء المقسوم بينهم وبين أهل أسيف المال ومزوضة أثلاثا بينهم لتضررهم. غير خاف أن هذه الشكاية نسجت في سياق زمني خاص، مرتبط بتحكيم مخزني لم يرض قبيلة فروكة. كان المولى الحسن الأول قد اتخذ في مسألة توزيع مياه أسيف المال بين أهل أسيف المال وفروكة ومجاط ومزوضة، ما جعل قبيلة فروكة تعمل لعرقلة هذا الحل، مما دفع بالقائد عثمان المجاطي إلى تحرير شكاية ضد قبيلة فروكة.

لحل هذا النزاع، عمد المولى الحسن الأول إلى إيفاد لجنة متخصصة إلى المنطقة. قررت اللجنة تقسيم الماء بين القبائل المتنازعة (أسيف المال- مزوضة- مجاط- فروكة)، فأقرت لأهل أسيف المال ثلثهم المعين لهم من قبل من غير ادخال نقص عليه، وأقرت تقسيم الثلثين الباقيين بين مجاط وفروكة ومزوضة أثلاثا سوية بينهم².

خالفت السلطة المركزية في توزيع مياه أسيف المال القاعدة المألوفة، التي تقر بأولوية قبائل العالية على قبائل السافلة التي اتبعت في حالة مياه وادي القهرة، فأبقت على امتياز أهل أسيف المال باعتبارهم الأعلىيين على الوادي على القبائل الثلاثة الأخرى. امتياز منح لهم فقط الثلث من المياه، في حين قسمت على الثلثين المتبقين من الماء على القبائل الثلاثة. ربما يفسر ذلك بتقدير خاص، جعل السلطة المركزية تقدر تساوي موقع القبائل الثلاثة في السهل عند مخرج الوادي في شكل مخروطي.

¹ - Berque, J, Les structures sociales des Hautes-Atlas, op. cit, p 106.

² - زرهوني محمد، النزاع حول الأرض والماء بمنطقة الأطلس الكبير الغربي في ستينات القرن التاسع عشر، مجلة أمل، العدد التاسع، 1997، ص 35.

خلاصات وامتدادات:

منتهى القول، اتصف النظام المائي بخاصية الازدواجية، ولئن اعتمد في توزيع الحصص المائية على مبدأ تدقيق الأيام والساعات لحظة الخصاص المائي، فإن مبدأ الترتيب المجالي من الأعلى إلى الأسفل لحظة الفائض المائي كان يظهر من فترة لأخرى. بيد أن سلطات الحماية الفرنسية لم ترفي الماء إلا ذلك العنصر الحيوي الذي يكافئ ويحرم، يكافئ الذين يقبلون الاشتغال في الأعمال المجانية، ويحرم أولئك الذين يرفضون الاشتغال مع الاستعمار بخصم حصة يومين من نوبة قبيلة وإضافتها إلى نوبة قبيلة أخرى. لم يكن التنظيم الاستعماري في واقع الأمر يهدف إلى تنمية الموارد المائية داخل البلاد وإنعاشها بمصادر جديدة، بقدر ما كان يسعى فقط إلى تنظيم توزيعها وفق ثنائية المستفيد والمحروم. وعليه، وجدنا أن الاستعمار الفرنسي وظف في سبيل ذلك مبدئين أساسيين، فمن جهة أولى وزع المياه بين المشيخات إلى نوبات محددة زمنيا، ومن جهة ثانية وزع المياه حسب المساحة المزروعة بإلحاق حقوق الماء للملكية الأرض. وضع أتاح للفرنسيين بدرجة خاصة احتكار استغلال الحقوق المائية في المجالات الخصبة على حساب الملاكين الأصليين وذوي الحقوق. وبالتالي، غيّر الهندسة الاجتماعية لتقسيم الماع في جُل مناطق المغرب.

أتاح تتبع توزيع الحصص المائية وتباينها ربطها بالمحددات الطبيعية والأسباب السياسية التي ترافق تغير المشيخة المحلية. كما سمح بالاقتراب من ذهنية السكان المحليين الذين آثروا التمسك بنظامهم العرفي الذي يجعل أولوية العالية على السافة إطارا قانونيا لتوزيع المياه، ورفضهم للقانون الوضعي الذي أقرته السلطات الاستعمارية.

لا سبيل لنفي علاقات الانقسامية التي طبعت علاقة الإنسان المغربي بالماء، في الجبال كما في الواحات... حيث القوة هي التي تسير الماء، والماء صديق الأقوياء، بله الرهان الذي تقاس به جميع مستويات التنظيم الاجتماعي والاقتصادي. فرغم وجود اجراءات عُرفية ضابطة تسبق توزيع الماء، فإن تملكه يبقى مرهونا بتنافس مفتوح، ونتاج علاقات القوة والخضوع، التضامن والتقسام. ما جعل الماء في تاريخ المغرب يقترن بالقوة التي تدافع عنه. وقد يحدث أن تتدخل الزوايا في المناطق الواطئة بنفوذها الروحي لتكسير هذه القاعدة.

مع دخول الاستعمار فرض نظام خاص لتوزيع المياه عن طريق القوة العسكرية والقانونية. استصدرت سلطات الحماية قوانين جديدة لنزع ملكية المياه والأراضي من السكان، وفرض إعادة توزيعها حسب حاجيات الزراعات العصرية. فهل ساهمت تحولات العهد الاستعماري في اختفاء الأنظمة التقليدية للماء؟ هل بإمكان هذه البنيات التقليدية الاستمرار في ظل التحولات المناخية والاقتصادية والديموغرافية؟ من جهته ظل المخزن المركزي يتجنب اللجوء إلى استعمال القوة العسكرية ببعض المناطق تفاديا لتواطؤ الأحزاب المحلية.

الفصل الرابع:

الماء والنظام الغذائي:

يضع هذا الفصل فوق مجهر التحليل والمعالجة مسألة العادات الغذائية التي لها علاقة بالمحدد الإيكولوجي (الماء). يستثمر الفصل بداية الخلاصة التي توصل إليها المؤرخ البولوني وعالم النبات موريزيو حول انتظام العادات الغذائية مع طبيعة التنظيم الاجتماعي¹. في سبيل ذلك سيتم التشوف عبر مقاطعه القيام برحلة في الزمن والمكان للأغذية والأطعمة التي تناولها مغاربة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كما رصدتها عدسة الملاحظين الأوروبيين، وفق بناء زمني مفتوح، يفتح على ملاحظات القرن 16م التي سجلها الحسن الوزان، وينتهي بملاحظات الأجانب لحظة اكتمال البناء الاستعماري. تنزيل هذه الرؤية سيتخذ ثلاث مستويات: تتبع الأطعمة التي لها علاقة بنمط الإنتاج أولا، بالماء ثانيا، وبصمود الكيان البيوكيميائي للمغاربة ثالثا.

مارس الماء بإفادة من كلود ليفي ستراوس مارس "عملية وساطة"² في كل العمليات المرتبطة بالمطبخة. يكفي أن نعرف مثلا أن طبق الكسكس المنتشر في كل مناطق المغرب كان يُحضر بطرق مختلفة. هذه الأكلة التي شدد انتباه الأجانب، كانت تُطبخ فوق الماء، وتستغرق قرابة أربع ساعات، من صلاة العصر إلى مغيب الشمس، وتعتبر اختصاصا نسائيا بامتياز، بينما اختص الرجال بالمشويات، الأول يوجه للاستهلاك العائلي، والثاني للتباهي والرخاء أمام الضيوف³. وعموما، عكست المائدة المغربية الطابع الذكوري، ليس من حيث التحضير، ولكن من حيث حضور الأب الذي كان ينعت بـ "رب المائدة". تنبّه الأجانب إلى هذه المسألة "كان رب الأسرة يسطو على الطبق بمفرده"⁴. جرت العادة أن يمر الأكل بعد شبع الرجل إلى الأطفال، أما المرأة فتأكل بقايا الطعام⁵.

انتهت الدراسات الاجتماعية والتاريخية مؤخرا إلى كون الغذاء في تاريخ المجتمعات يشكل نسقا معياريا مُشيدا تشييدا اجتماعيا⁶، يتحكم على نحو قوي في إيقاع الحياة الاجتماعية⁷. تظهر "جماعية الأكل" كتعصيد لأواصر

¹ - المدني نعيمة، تحول العادات الغذائية بالمغرب القروي، دراسة أنثروبولوجية، منشورات دار الأمان، 2015، نحيل أيضا إلى أطروحة جامعية ناقشت هذا الموضوع خلال فترة الحماية من إنجاز نجاح نزهة، العادات الغذائية في المغرب زمن الحماية الفرنسية: الثابت والمتحول، أطروحة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2015.

² - Strauss. C.L, Mythodologiques III, op. cit, p 397.

³ - يتحدث جون وندوس عن ذلك بالقول: "...كان الرجال يذبحون خروفا، ويشوونه فوق نار حامية في سفود خشبي كبير في سمك ساق إنسان، ويقدمونه كاملا أو مقسما إلى أجزاء كبيرة في المناسبات العظمى..." وندوس جون، رحلة إلى مكناس، 1721، ترجمة زهراء إخوان، مكناس، 1993، ص 33.

⁴ - Poirer. A, Lettres de Barbarie, 1785-1786, Paris, 1980, p 78.

⁵ - Ibid, p 78.

⁶ - Fischner. C, L'omnivore, Le goût, la cuisine et corps, Paris, 2001, p 18.

⁷ - Aymard. M, Grignon. G, Sabban. F (dir), Le temps de manger, Alimentation, emploi du temps et rythmes sociaux, paris, 1993, p6.

القرباة، وتعزيز للثقة بين الأفراد والمجتمعات¹. هذا التشييد ترتبط به سلوكيات، تطويعات، وتقويمات على المستويين البيولوجي والفيزيولوجي²، في إطار زمني طويل ومُمتد في الزمن صعودا ونزولا³.

لا يفهم هذا التوجه إلا في نطاق مفهوم مُواز، مفهوم "البنية"⁴. هذا المفهوم الجذاب الذي تلتصق به الآماد الثلاث. فتاريخ الغذاء بالنهاية تاريخ بنيات جغرافية واقتصادية واجتماعية وذهنية البطيئة التطور. منطق المؤرخ يقول: إذا تكررت الدورات والأزمات باستمرار، ولم تؤدي إلى تحصيل تراكم حامل لتغيير نوعي؛ فإنها تندرج في البنية، وتصبح جزءا لا يتجزأ من الزمن الطويل، لأنها "تُخفي انتظامات واستمراريات الأنساق، أي الأساليب القديمة للعمل والتفكير والأطر المستعصية المقاومة للموت..."⁵.

1- الأظعمة المائية:

عادة ما كانت لحظات الجوع والفاقة تُعري عن وجه المجتمع، وتدفع نحو قبول الناس لسلوكيات غذائية جديدة، وتصرفات غير منسجمة مع تقاليد وضوابط المجتمع المغربي التقليدي⁶. من منظور البيولوجيا، الأظعمة النباتية ليست ناقصة، فقيرة، أو هشة. من هذه النقطة، يمكن أن نتجاوز فكرة الاستوغرافيا الأجنبية (لويس شوني) حول مسألة النحافة. فنحاف الجسم حسب الدراسات الطبية الحديثة هم من لهم القدرة على مقاومة الجوع، لأن البدن النحيف "يُني أشكال خاصة لتدبير الطاقة"⁷.

¹ -Valensi. L, Fellahs tunisiens, L'économie rurale et la vie des compagnes aux XVIII et XIX siècles, Paris/ Le Haye, 1977, p 240.

² - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 102.

³ - قبول المؤرخ بهذه الرؤية يحدث تحولا في الرؤية، تهيئنا لتغيير في الأسلوب والموقف، انقلابا في نظام التفكير، وأساسا، ابتكار تصور جديد لقراءة الواقع الاجتماعي.

Braudel. F, Histoire et science sociales, La langue durée, Annale ESC, n° 4, 1985, p 54.

⁴ - البنية عند بروديل هي تركيب، هندسة، بل أكثر من ذلك، واقع يتصرف فيه الزمن بشكل سيء، ويقوده على نحو بطي. تثقل البنية كاهل التاريخ وتعرقله، وتتحكم في صيرورته، وهي بذلك عبارة عن حواجز ترسم حدودا يعجز الإنسان بتجاربه عن تجاوزها. طيلة قرون والإنسان سجين مناخات ونباتات ومواشي وزراعات في إطار توازن بطيء البناء يصعب تجاوزه. لمزيد من التوسع يمكن العودة إلى: حبيدة محمد، مفاهيم التحليل البروديلي، مجلة أمل، العدد الثالث، السنة الأولى، 1993، ص 82-83.

⁵ - Braudel. F, Histoire et science sociales, La langue durée, op. cit, p 53.

⁶ - يُصور لنا المختار السوسي في كتابة المعسول فصولا من هذه التصرفات التي تطبع حياة المغاربة وقت الشدة والمسغبة، تنتعش ظاهرة بيع الأطفال للأجانب، وتكثر الدعارة وبيع النساء مقابل الغذاء، وهروب الرجال عن زوجاتهم...السوسي المختار، المعسول، الجزء 15، الدار البيضاء، 1963-1960، ص 10-11.

⁷ - Bellakhdar. J et Younes. Ch, La diététique médiévale arabo- islamique à travers les traites arabes anciens et la pratique actuelle au Maroc, In Médicaments et aliments, Approches ethno - pharmacologique, Actes du 2 eme colloque européen d'ethnopharmacologie, Heidelberg, 1993, p 48.

نقلا عن حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 119.

ما دواعي هذا الربط؟ لربما كان هذا القرن هو اللحظة الزمنية التي سافت أكثر من غيرها تغييرات غذائية ذات صلة بالقرب الجغرافي مع أوروبا، أو لها علاقة بتردد آلية الجوع التي كانت تُعيد إلى الواجهة الأطعمة النباتية حسب الفصول¹. تتبع الموضوع من هذه الزاوية يكشف عن مفارقة أساسية: تحول المغاربة زمن المسغبة من كائنات لاحمة إلى كائنات نباتية، وبالتالي هدم المعيار الديني²، والبحث عن تأمين البقاء في بيئة شديدة التحول. وبالفعل، كان الجوع في تاريخ البلاد آلية من آليات العطب التاريخي المزمّن³. ظل هذا الجوع يفرض إيقاعه بشكل متكرر على اليومي المغربي⁴، ويفرض تطويع الذوق، كما يضطر الناس إلى تغيير سلوكياتهم، ذهنياتهم وقناعاتهم... سبق لكلود ليفي ستراوس أن أحال على فكرة غاية في الأهمية "مطبخ مجتمع ما، يُترجم بنيته بطريقة لا واعية، ويكشف عن تناقضاته"⁵.

تتحدد هوية الإنسان بما يأكله، وأيضا بوسطه الجغرافي⁶... إجمالاً، الجوع في تاريخ الأطلس الكبير الغربي تحديداً فرض نفسه كآلية اجتماعية ونفسية رهيبة حملت معها مفعولاً عميقاً في حياة الناس، وتبدلاً في معاش الناس تبدلاً كاملاً؛ حيث يؤدي إلى "تغيير في البدن، تقلص في القوة والتحمل، رغبة حادة في الأكل، انطواء شديد على الذات، انشغال الأذهان بالطعام، انفعال واكتئاب، سرعة التوتر، ضعف الرغبة الجنسية، غياب التفاعل الاجتماعي خلال الأكل، استهلاك مفرط للأكل عند وجوده"⁷.

¹ يتحدث جولي عن خضوع الغذاء لإيقاع الفصول والمناسبات، في فصل الشتاء يمتنع الأعيان عن أكل الأطعمة الباردة، يستهلكون الكثير من الثوم والشحوم واللحوم، وفي فصل الربيع يظهر الأكل الخفيف، وفي الصيف يتم الإقبال على لحم الماعز، مع تناول الفواكه الطرية الغنية بالماء. انظر: Joly. A, Un calendrier agricole marocain, Archives Marocaines, vol III, p 304.

² ترصد كتب النوازل التي تعتبر بمثابة مرآة المجتمع عن عمق هذه المفارقة حينما تنعدم الحشمة في سلوك المغاربة الغذائي. وقفت المصادر الأجنبية عند لجوء المغاربة زمن الجوع إلى تسويف أكل الحمير والقطط والجراد والضفادع والزواحف والحلزون غيرها... وهو ما كان يجعل من المعادلة الدينية القائمة على ثنائية: طبيبات/ خبائث، حلال/ حرام لا تنفذ إلى واقع الناس.

³ حملت كتب النوازل تصوراً مخالفاً حول الجوع، نُظر إلى الجوع كشفاء للأرواح، خضوع وخشوع، الجوع يورث العلم والحكمة. بينما الشيع يورث الجهل والمعصية، وبالتالي، فالإنسان المثالي في المجتمع هو الذي يصوم مرتين في الأسبوع، وثلاثة أشهر في السنة (رجب- شعبان- رمضان)... انظر: كناشة، مخطوط الخزنة الوطنية بالرباط، رقم د 3734، ص 15.

⁴ تتبعت المؤرخة حليلة فرحات حالة الولي الصالح عبد الله الهزميري، الذي يمثل شيخاً يتبعه مريدون، يظهر هذا الولي كثير الصيام، حتى التصق جلده على عظمه، واتخذ ردفه لون الباذنجان... انظر:

Ferhat. H, Frugalité soufie et banquets de zaouias, L'éclairage des sources hagiographiques, Médiévales, n° 33, 1997, p 70-72.

⁵ - Strauss. C.L, Mythologiques III, L'origine des manières de table, Paris, 1990, p 411.

⁶ قام الجغرافيات البريطانيان دايفيد بيل وجيل فالنتاين بتعديل المقولة الألمانية " قل لي ماذا تأكل أقول لك من أنت" إلى صيغة جغرافية: " قل لي أين تأكل، أقول لك من أنت".

Bel. D and Valentine. G, Consuming Geographies, We are Where We Eat, London, 1997.

⁷ - Germov. J and Williams. A, Sociology of Food and Nutrition, Oxford, 2004, p 301.

نقلا عن كتاب حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 96.

في شهر رمضان يصف جورج هوست G. Horst الوضع قائلاً: "بطون فارغة، توتر بين الناس، وسلوك صعب التحمل"¹. الجوع يزيد من توتر الناس، ويجعل المجتمع يتخلى عن رصيده القيمي والأخلاقي. ففي اللحظات الصعبة يخرج إلى العلن أسوء ما في المجتمع، ويأثلف الناس مع السلوكيات البهيمية التي تنزع من الإنسان كل مضمون أخلاقي.

من المعلوم حسب مقياس الأزمنة البروديلية أن العادات الغذائية لشعب معين تنتمي إلى سجل الزمن الطويل، ذي الوتيرة البطيئة، بما هي عادات تتيح إمكانية الوقوف على ثبات البنية واستمراريتها من ناحية، وإمكانية قياس مستويات التحول التاريخي والاختلاف الثقافي. الغذاء من هذا المنظور، ليس احتياجاً بيولوجياً وفقط، بل ثقافة، ونسق من القيم والمعايير، وطقوس وتمثيلات وحساسيات وتميزات اجتماعية. باختصار، المائدة عاكسة لبنية المجتمع، ثقافته وعقليته².

موضوع الأغذية حسب المختصين مرآة لقياس درجة ثبات أو تحول البنية الاجتماعية الداخلية. وبدرجة أساس حديث عن العادة واليومي³، عن نظام غذائي تكيف مع اقتصاد القلة والكفاف، وتحدي قساوة الطبيعة عن طريق التقشف والاستعاضة، وبالأخص، عن طرق ومقاييس تدخل ضمن رافدين أساسيين: شعبي بطيء التغيير، وآخر مُتعالِم ينتهي إلى سجل التجديد والتغيير⁴. نعلم أن سُكر الشمندر مثلاً تطلَّب أكثر من مئة سنة ليتوطن في موائد الأوربيين، والذرة والبطاطس والبهارات أخذت وقتاً طويلاً حتى تترسخ كعادات غذائية مقبولة فوق موائد الطعام. بالنهاية تاريخ الدواقة سلسلة من التبادلات، الصراعات والمصالحات والتجارب جعلت من الغذاء طبقاً مُفعماً بالدلالات التاريخية والخصائص الجغرافية، وقبل كل شيء، وسمته بالتباين المجالي، بين شمال مُنتج للقمح، وجنوب مُنتج للشعير.

في البدء يعتورنا سؤال أولي، كيف تمثل المؤرخ موضوع الأغذية؟ لا شك أن كل المساهمات في هذا الجانب اندرجت في نسق عام، نسق الأزمة (مجاعات/ جراد/ أوبئة، قحوط...). لم تكن الأزمة الغذائية في واقع الأمر، سوى

¹ - Host, G, Relations, op. cit, p 155.

² - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 121.

³ - مسألة العادة تطرح بعض الأسئلة من قبيل: كيف تحول الشاي مثلاً إلى مشروب وطني؟ كيف تم تثبيت هذه المادة في عمق التقاليد المغربية؟ كيف تحول استهلاك الشاي إلى عادة اجتماعية محوطة بالطقوس والرموز؟ ولماذا الشاي وليس مشروباً آخر؟ لمزيد من الاستزادة يرجى العودة إلى كتاب عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي، من الشاي إلى الأتاي: العادة والتاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.

⁴ - يمكن أن نضع فصلاً في الدواقة على أساس اجتماعي ومجالي، الأطعمة الحلوة ارتبطت بالوجهاء والأعيان وخاصة الخاصة والبيوتات الكبرى في المدن، أما الأطعمة المالحة ارتبطت بالفئات الدنيا والعامة وبسطاء المجتمع في السهول والجبال والواحات.

Guindeau. Z, Fès vu par sa cuisine, Rabat, 1957, pp 81-82.

تكثيفا لواقع مأساوي يجري يوميا فصول البؤس الاجتماعي¹. ففي تاريخ المغرب، الأزمات الغذائية هي من كانت تدفع نحو جلب النقود إلى الأسواق، وتزيد من ترسيخ ثقافة الادخار الفردي والجماعي لمواجهة أزمة الغلاء، وتفرض وثيرة خاصة على نمط التبادل التجاري... المعاناة التاريخية تفيد أن النظام الغذائي يسمح بالكشف عن مفارقة جوهريّة: بطئ التحول من جهة، وشدة التنوع من جهة ثانية. المعاناة الجغرافية تفيد أن المحدد الإيكولوجي لم يسمح بتعميم العادات الغذائية، وداخل المنطقة الواحدة تبرز الاختلافات الغذائية.

غير بعيد عنا حوِّز موضوع الأغذية عناية فائقة في المنجز الاستوغرافي (التجربة التونسية). صارت دراسات الفود ستاديز Food Studies موضحة الكتابة التاريخية الراهنة، ورش معرفي يدفع نحو تلاقح مثمر بين منهج المؤرخ ومنهج البيولوجي في مدار متعدد الاختصاصات Pluridisciplinaire. بين الأول والثاني تختلف النظرة والمعالجة، لكن تلتقي المعاناة المجهرية. المؤرخ عادة ما ينظر إلى موضوع الأغذية من خلفية الهشاشة والندرة²، والبيولوجي ينظر إليها من مبدأ الاستعاضة³.

تفيد مجمل الملاحظات التي خلفها الملاحظون الأوروبيون خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن الذي يليه بالدفع نحو معادلة تختزل الوضع الإنتاجي: خصوبة التربة وعقم المجتمع. مُعادلة فرضت شروط إيقاعها على المجتمع ككل. لعل هذه الملاحظة هي التي دفعت محمد حبيدة إلى تبني تخریجة وجود "نظام نباتي" في دراسته المعنونة بـ "المغرب النباتي: الزراعة والأغذية قبل الاستعمار"⁴. حلّ الكسكس في كثير من اللحظات محل الخبز، واحتل اللحم مكانة هامشية في المائدة المغربية، متصلا باللحظات الاحتفالية. نحن بصدد كما يقول محمد حبيدة "نظام نباتي عفوي" أملتة محددات إيكولوجية خانقة، وشكل السلطة بين المخزن والقبائل. لكن يجب أن يقرأ من زاوية "الاستعاضة البيولوجية"⁵ التي مكّنت من خلق توازن بيوكيماوي ضمن صموده وبقاءه رغم غُنف وهول صدى الأوبئة والمجاعات التي ترددت بشكل منتظم على تاريخ المغرب. والواقع، أن هذا النظام النباتي لا يمكن أن يفصل

¹ - Meurret. J, Les crises de subsistances et la démographie de la France d'Ancien Régime, In Etudes d'histoire économique, Paris, 1971, p 278.

² - Rosenberger. B, Société, Pouvoir et alimentation, Nourritures et précarité au Maroc précolonial, Rabat, 2001.

³ - Kayser. Ch (dir), Physiologie, t.1, les fonctions de nutrition, Paris, 1970.

⁴ - حبيدة محمد، المغرب النباتي: الزراعة والأغذية قبل الاستعمار، منشورات ملتقى الطرق، 2018.

⁵ - مبدأ الاستعاضة البيولوجية يعتبر أن النظام الغذائي، وإن كان فقيرا من حيث البروتينات الحيوانية، فإنه يُمكن الإنسان من العيش في توازن بيولوجي. انظر:

Kayser. Ch (dir), Physiologie, op. cit, 828-910-920.

عن مُسبباته الكبرى، التي تنتمي إلى عامل الندرة الدائمة من جهة، وعدم انتظام التساقطات المطرية، وعتاقة التقنيات الزراعية، وثقل الاقتطاع الضريبي، والعودة المنتظمة للأزمات الديموغرافية من جهة موازية¹.

ولئن أسعفت الوثائق الأجنبية وحتى المغربية في استعادة مشهد من مشاهد هذه "النباتية العفوية" ذات الارتباط الجدلي بعامل الأرض والماء داخل نسق عام يُصنف المجتمع المغربي ضمن المجتمعات الزراعية²، لئن وجب الاقرار بأنها "نباتية عفوية" خالية من أي تصور طبي أو بيئي أو أخلاقي³. إنها الآلية التي تعكس بوجه أو بآخر، تراتبية المجتمع المغربي من حيث موائد الخاصة، وموائد خاصة الخاصة، وموائد العوام. ارتبط اللحم والبيض في كثير من اللحظات بالطابع الاحتفالي عند مغاربة الأمس، واقتصر أكله في المناسبات الكبرى، الدينية أو العائلية. وكان الكسكس⁴ يؤكل في كل مساء في البيوتات الكبرى مُحضرا باللحم والدجاج وغيره. إنهما مؤشران دالان على ظاهرة التمايز الاجتماعي والهندسة الاجتماعية للأكل بين فئات المجتمع.

عودة إلى معادلة خصوبة التربة وعقم المجتمع كمعادلة حاولت من خلالها الاستوغرافيا الأجنبية أن تلخص بها الوضع الاقتصادي لمغرب ما قبل الحماية. سبق للطبيب الانجليزي وليام لامبرير W. Lampriere خلال القرن الثامن عشر أن ساق تفسيراً حول ضعف هذا الإنتاج في سياق مقارن. نقف معه عند إشارات توحى بذلك من قبيل "الأرض شاسعة وخصبة على نحو طبيعي" "الزراعة لا تستخدم الأسمدة، اللحم الحصيد المحروقة في نهاية فصل الصيف" "الحقول تُقَلَّب مرة واحدة قبل عملية البذر" "الحراث يتم بواسطة محراث خشبي". تفضي هذه المقاطع إلى تشكيل قناعة بأننا إزاء جهاز تقني ضعيف (المحراث/ أو زوجة الحراث) لم يطرأ عليه تغيير يذكر منذ العهد الروماني كما تستند إلى ذلك المؤرخة الفرنسية لوسيت فالنسي. هذا المحراث الذي لا يُقلب إلا الأراضي الخفيفة

¹ - راجع التقديم الذي خصه عبد الأحد السبتي لهذا الكتاب، ص 10.

² - انصبت جهود الأجانب الذي زاروا المغرب خلال الثلاث القرون التي سبقت الحماية على وصف المشهد الزراعي، واعتبرته مشهداً رئيسياً في كل فضاءاته ومجالاته. هذه الملاحظة تفضي إلى استنتاج أولي حول أن النظام الغذائي لم يعتمد على مادة اللحم إلا في المناسبات الاحتفالية، واقتصر حضوره بدرجة أساس في موائد الأعيان ودخل البيوتات الكبرى، ما جعل بعض الملاحظات تنصرف نحو اعتبار تربية المواشي في مغرب ما قبل الحماية وخاصة الأبقار والأغنام والماعز موجهة بالأساس نحو توفير قوة الجر المرتبطة بالأنشطة الزراعية، وتوفير الصوف لأنشطة الصناعة المنزلية، والألبان لتحسين القوت اليومي... راجع، حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 26.

³ - نفسه، ص 15.

⁴ - طعام الكسكس يعكس التلاقح بين شعوب المتوسط، يأتي تحضيره بطرق مختلفة ومتنوعة بين ضفتي المتوسط. فسر الأوربيون الذين زاروا المغرب طعام الكسكس بجودة القمح المغربي، واعتبروه طعام وزدة، يغذي كثيراً ولا يكلف إلا قليلاً. كشف الرحالة الإسباني دومونيكو باديا المعروف باسم علي باي العباسي الذي زار المغرب في بداية القرن التاسع عشر عن طريقة تحضير وجبة الكسكس، وتمييزه بين موائد الأغنياء وموائد الفقراء الذين كانوا يكتفون بالماء في تحضيره، بينما الأغنياء يحضرونه بالدهون واللحوم. والملاحظ أن الأواني المستعملة في تحضيره وُجدت في مدافن رؤساء القبائل الأمازيغية منذ القرن الثالث. انظر:

Bolens. L, L'étonnante apparition du couscous an Andalousie, XIII siècle, Essai d'Interprétation historique, In Mélanges en l'Honneur Marie Puz, Genève, 1989. et aussi Badia. D, Voyages a Ali Bey El Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années 1803-1807, Paris, 1814.

المُرطبة بأمطار الخريف¹، ويعتمد في جَرِّه على حيوانات منهكة جراء ضعف تعليفها وتراجع العناية بها، وحتى التيران ذات طاقة الجر القوية ظل وجودها محدودا جدا، وارتبطت فقط بنسبة قليلة من الملاك العقاريين²، بينما عموم الفلاحين لم يحرقوا سوى الأراضي ذات التربة الخفيفة، أو التي تُرطبها الأمطار، وفي المناطق الجبلية اعتمد على الفأس لحرث الأراضي³.

لم يَدُر في خُلد هؤلاء الأجانب أن هاجس البحث الدؤوب عن الماء لضمان سقي الأراضي وتوريد البهائم في بيئة جدياء غير رحيمة على الدوام شكل لوحده إكراها فوق القدرة البشرية، يفوق باقي الاعتبارات الأخرى. وإذا ما سايرنا على نحو ما فكرة خصوبة التربة، لماذا لم يكن بمقدور هذه الأرض أن تُؤمن الغذاء بشكل متواصل؟

تدفعنا هذه القضية إلى إعادة بناء العوائق البنيوية التي أعاقَت تطور الإنتاج الاقتصادي، وحكمت عليه بالكفاف والمعاش والقلّة... يتحدث الديموغرافيون على أن المجتمع المغربي عانى خلال القرون الثلاثة التي سبقت الاستعمار من "نظام ديموغرافي منشاري" رسم منحنيين فاصلين: منحني "التراجع المبالغت" ومنحني "النمو البطيء" في شكل تعرجات تشبه أسنان المنشار⁴. نتشفع هنا برقم استدلال قدمه الجغرافي دانييل نوان D. Noin الذي قدّر عدد سكان المغرب قبل الحماية في حدود أربعة ملايين ونصف المليون نسمة⁵. ما يهمنا في هذا النظام الديموغرافي قدرته الفائقة في إنهاك الحياة العامة، وتعطيل قوى الإنتاج، وفرض إيقاعه على مجمل الدورة الإنتاجية. الحصيلة: "كلما استفاق النجاة من هول الكارثة إلا ووجدوا أنفسهم يبدأون من جديد دون تراكم"⁶.

لا سبيل إلى التذكير بمعطى أساس، ارتباط النظام الغذائي القائم على الحبوب بعامل الملكية العقارية⁷، وخاصة الملكية المجهرية التي طغت على عموم المنظومة الإنتاجية. حينما نضع خاصية الملكية العقارية في واجهة

¹ - ظل المحراث الخشي المسمى "أوالو" هو الأداة المعتمدة في قلب الأرض خلال مرحلة الحرث، وهو من حيث التوصيف محراث خشبي بسيط يتكون من قطعتين خشبيتين، إحدهما تسمى "تكدت" وتكون طرف مقبض المحراث وتنكسر من وسطها تقريبا، وفي طرفها الآخر توضع السكة "تامكرازت" وهي الحديدية التي تشق الأرض. أما القطعة الخشبية الثانية "تاغدا" فتقبض في الأولى عند انكسارها، وهي القطعة التي تشد إليهما الهيميتان اللتان تجران المحراث. راجع التوفيق أحمد، المجتمع المغربي، م س، ص 211، وأيضا:

Laoust. E, Le nom de la charrue et ses accessoires chez les Berbères, Archives Berbères, Vol III, fasc 3, 1918, pp 1-30.

² في منطقة الأطلس الكبير الغربي وتحديدًا في جبال سكساوة هناك مثل مأثور يتناقله الناس بالأمازيغية يقول: "أُولُو دَوِيلِي تادرات أيت تالنيان" ويعني أن مرتكزات الثروة تستند إلى ثلاث ركائز: المحراث والبهائم وتربية النحل.

³ - توقفت كتب النوازل كثيرا عند مسألة النزاعات الحادثة بين مالكي الأرض والخماسة أو الرباعة في إطار الشركات الزراعية بسبب انكسار المحراث وسقوط الهيمة أو موتها.

⁴ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 28.

⁵ - Noin. D, La population rurale du Maroc, Paris, t1, 1970, t1, pp 239-240.

⁶ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 28.

⁷ - من أجل التعمق أكثر في موضوع الملكية العقارية في مغرب ما قبل الاستعمار يمكن العودة إلى:

التحليل، ونعتبرها علامة مميزة لأي نمط إنتاجي، فإنه يسهل علينا أن نُدرجه ضمن خانة المجتمعات العتيقة¹. هذه الملكية المجهرية هي التي فتحت الحقوق المائية بين أفراد القبيلة.

جعل البعض من هذه الأراضي المجهرية ذات الحجم الصغير عائقا يحول دون تحقيق تراكم الإنتاج وتطلعه نحو تحقيق فائض القيمة. وبالفعل، لم يكن للملكيات الزراعية الكبيرة تأثير واضح على بنية المجتمع ككل، إذ اقتصر تملكها في يد فئات قليلة عدديا ارتبطت بخدام المخزن، أو شيوخ الزوايا وكبار التجار... وإذا أضفنا إلى هذه الملكية المجهرية ضعف التقنيات وعتاقتها وتجزؤ الحقوق المائية بسبب حركية التنظيم الاجتماعي وتعاقب عوامل الجذب المناخي ونمط الاستغلال الزراعي وثقل النظام الجبائي... يكون بذلك المشهد المعاشي مكتمل الأركان في مغرب ما قبل الاستعمار حسب المفهومية الكولونيالية terminologie coloniale

II- الماء وأنظمة الاستغلال في مغرب ما قبل الحماية

على مستوى نمط الاستغلال رصدت عدسة الملاحظين الأوروبيين ارتباط الزراعة المغربية بنظام الخماسة. يُفصح هذا الربط عن معادلة أساسية: بنية الاقتصاد غير مفصولة عن بنية المجتمع في حركة جدلية مستمرة من جهة، وتخصيص الإنتاج للأداء العيني عوض رواج النقود وإنعاش البادية من جهة ثانية. يرتقي هذا النظام إلى مؤسسة عُرفية مؤطرة لمجمل البوادي المغربية حسب إفادة جاك بيرك²، كما نجد له صدى واسع في مُدونات النوازل الفقهية عند ابن رحال في رفع الالتباس عن شركة الخماس. يُسمى مُمتن هذا النظام بـ "أخماس"، يهتم بحرثاة الأرض، وغرس النخيل، وزرع الشعير والفلول وحبوب أخرى، وسقي الجنان، وتخصيب النخيل في وقت الإزهار، وحراسة الحقل عندما ينضج الثمر³. وجب في هذا المستوى أن نميز بين الخماس "أخماس" والفلاح، الأول يرتبط بالشركة، وقد ينعت بالشريك⁴، والثاني يرتبط بالأرض، ويمتلك وسائل الإنتاج وخبرة التدبير. لقد سبق لجاك موني J. Meunie أن شبّه وضع الخماس بوضع العبد وإن كان حرا في تغيير سيده⁵. وعلى مستوى أفقي نقله

Bellaire. E.M et Aubin. P, Le régime immobilier au Maroc, Revue du monde Musulman, 1912, pp 1-105; Milliot. L, Les terres collectives, Etude de législation marocaine, Paris, 1922; Lazarev. G, Les concessions foncières au Maroc, Annales Marocaines de Sociologie, 1968, pp 99-135.

¹ - Valensi. L, Archaisme de la société maghrébine, In Sur le féodalisme, Paris, Publication du Centre d'Etudes et de Recherches Marxistes, 1971, pp 223-226.

² - Berque. J, Etudes d'histoire rurale maghrébine, Tanger- Fès, 1938, pp 119-196.

³ - Meunie. J, Hiérarchie sociale au Maroc présaharien, Hesperis, 1958, p 250.

⁴ - Berque. J, Etudes d'histoire rurale maghrébine, op. cit, p 140.

⁵ - Meunie. J, Hiérarchie sociale au Maroc présaharien, op.cit, p 250.

المؤرخ التونسي الهادي التيمومي إلى نظام اقتصادي "نمط الإنتاج المخامسي"¹ كتعبير عن تشكيلة اجتماعية واقتصادية ما قبل رأسمالية.

هناك معطى أساس تكرر باستمرار خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ارتباط الإنتاج الزراعي بالقلقل السياسية خلال فترتي الحرث والحصاد، ثمة تزامن بين عامل الاضطرابات السياسية ولحظات الحصاد. أُجبر الفلاح المغربي في كثير من اللحظات على حصاد زرعه مُبكراً أمام تواتر الأخبار بقُدوم حملة عسكرية، أو هجوم قبلي محتمل. والنتيجة هبوط الإنتاج إلى أربعين بالمائة بالقياس إلى فترة الحصاد في الفترة العادية. وإذا كان الإنتاج الزراعي في مغرب ما قبل الاستعمار ارتهن بالجهد التقني المادي، خاصة على مستوى الري، من حيث حفر الآبار وبناء الخطارات، وجمع الماء في الأحواض، وشق القنوات لجلب المياه الظاهرة والمياه الباطنة، فإن القهر الضريبي المتمثل في الواجبات الشرعية من عشور وزكاة، 10% من محصول الزراعة و 2.5% من رؤوس الماشية، أو الجبايات المُرهقة مثل النايبة والمكوس خنق المجهود البشري، وعطلَّ وثيرة الإنتاج. والحال، شكلت الضريبة في تاريخ المغرب عنصراً أساسياً لسير نظيمة المخزن. ظل المخزن في حاجة دائمة إلى الضرائب من أجل تمويل تحركاته العسكرية. والواقع الضريبة والجيش عنصرتين أساسيتين في معادلة مُعقدة، الأول ضروري لسير الثاني، والثاني ضروري لتحصيل الأول.²

من زاوية العسف الجبائي يمكن أن نقرأ بوؤس المشهد الزراعي، ونعيد قراءة بعين النقد أحكام القيمة التي وسمت أوصاف الملاحظين الأوروبيين³. وأن نحترس من الأحكام التالية: "المزارعون كسالى، بالرغم من خصوبة التربة وجودتها" "المغاربة يُفضلون الاكتفاء بقطعة واحدة من الأرض عوض قطعتين أو أكثر". اقتباسات يجب أن تُقرأ في سياق القهر الضريبي الذي كان عاملاً من عوامل انحسار الإنتاج الفلاحي. وإذا ما عُدنا بالزمن إلى الوراء، وخاصة في النصف الأول من القرن الثامن عشر، يُطلعنا القبطان الانجليزي جون براتيوايت J. Brathwaite بملاحظة وجيزة "...تتوفر بلاد المغرب على طاقات فلاحية هائلة، بحيث بإمكانها أن تنتج ما يعادل إنتاج أوروبا بأكملها من جلود وقمح وزيت وشمع وعسل وصوف ناعم، لو كانت تنعم بحكم عادل وإدارة منظمة..."⁴. وقبله مع ابن خلدون الذي ربط بين الجباية والاعتماد في قوله "...لما تثقل المغارم على الرعايا وتهضمهم يذهب الأمل من

¹ - التيمومي الهادي، الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، الكادحون "الخماسة" في الأرياف التونسية 1861-1943، تونس، صفاقس، الجزء الأول، 1999، ص 375-382.

² - Laroui. A, Histoire su Maghreb, Paris, 1976, t2, p50.

³ - حبيدة محمد، المغرب النبائي، م س، ص 38.

⁴ - Brathwaite. J, Histoire des révolutions de l'empire de Maroc depuis la mort du dernier Empereur Moulay Ismaïl, Amsterdam, 1731, p 423.

نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمره وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتماد...¹.
والحالة هذه، لم يرغب الفلاح المغربي في نماء ثروته خوفا من الجباية وسلاح التتريك الذي يشهره المخزن باستمرار على القبائل في سنوات العجف. يتعلق الأمر، كما يقول محمد حبيدة بانحباس نفساني أكثر منه اقتصادي²، في ظل افتقار النظام الجبائي المغربي إلى قواعد مضبوطة وعادلة تضمن نماء الثروات وتضمن بالتالي منافع قارة لخزينة الدولة. فعندما تسوء الظروف، يرتد الناس إلى أشكال وقواعد الاقتصاد البدائي من حيث استغلال الأرض، ومن حيث ممارسة الرعي الكثيف. وبالتالي، فالأزمة هي التي تجعل الرعي يتفوق على الزراعة³، وفي وقت الاستقرار يجنح القبائل المعروفة بتنقلاتها الكثيرة إلى الاستقرار من أجل الإنتاج.

انقسم المجال الزراعي في مغرب ما قبل الاستعمار إلى ثنائية زراعية مُهيكلّة تحكمّت في الحياة الزراعية فرضت تعددا على مستوى المجال، على مستوى الإيقاع، على مستوى الإنتاج⁴. ترتبط هذه الثنائية ببلاد البور وبلاد الساقية. الأولى ارتبطت بالأمطار، والثانية ارتبطت بالسقي. اختصت الأولى في زراعة الحبوب من قمح وشعير⁵ وأيضا القطاني، والثانية في الخضروات والأشجار المثمرة. تناوبت داخل المجال الزراعي ثنائية البكري (الزراعة المبكرة) والمزوزي (الزراعة المتأخرة). البكري اعتمد على أمطار فصلي الخريف والشتاء، وقدم القمح الصلب والشعير وال فول... والمزوزي عوّل على تساقطات فصل الربيع، وجاد بالدُّخْن⁶ من بشنة/ إيلان أو نلي ودُرة بيضاء وعدس وحمص. قدّر برنار روزنبرجي B. Rosenberger مساحة البكري بالثلثين والمزوزي بالثلث⁷.

رصد الأجانب بخصوص هذه المسألة، تباين زمان ومجال حصاد المزروعات البكرية، كان موسم حصاد المزروعات البكرية في الحوز وسوس يبدأ في شهر مارس، بينما يبدأ في السهول الأطلسية في شهر ماي، ويتأخر موسم الحصاد في أعالي الجبال إلى نهاية شهر يوليوز وبداية شهر غشت⁸. الثابت، أن الفلاح المغربي عاش على وَقْع انتظارية قاتلة، ظل يتضرع إلى السماء، يقيم صلاة الاستسقاء متشبثا بقليل من الأمل.

¹ - ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار القلم، الطبعة السابعة، 1989، ص 279-280.

² - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 39.

³ - نفسه، ص 49.

⁴ - نفسه، ص 47.

⁵ - رصد الباحثان بيرو وجونني تفوق إنتاج الشعير على إنتاج القمح في مغرب ما قبل الاستعمار، الأول يصل إلى 937.266 هكتار، والثاني يصل إلى 784.678 هكتار. يمكن العودة إلى:

Perrot. E et Gentil. L, Sur les productions végétales du Maroc, Paris, 1921, p 15.

⁶ - الدُّخْن نبات عشبي، من الفصيلة النجيلية، حبه صغير أملس محب السمس، ينبت برياً أو مزروعاً، يُزرع كدرة أو علف أو كمصدر لشراب حلو كثيف.

⁷ - Rosenberger. B, Cultures commentaires et nourritures de subsistances au Maroc XV- XVIII siècle, Annales, ESC, 1980, p 482.

⁸ - Michel. N, Une économie de subsistances, op. cit, pp 137-138.

في الجنوب، تفوّق انتاج الشعير على انتاج القمح في مغرب ما قبل الاستعمار، الأول قُدرت مساحته في 937.266 هكتار، والثاني في 784.678 هكتار بإفادة الباحثان بيرو وجونتي Perrot et Gentil. هيمن الشعير على المشهد الزراعي في أراضي جبال الأطلس الكبير وسهلي الحوز وسوس والواحات والسهول الأطلسية. الشعير طعام الفقراء والبسطاء، والقمح رمز الثراء وصانع الوجاهة. فضّل الفلاح المغربي انتاج الشعير لأنه يستجيب أكثر من غيره من الحبوب لحاجيات الإنسان والحيوان من جهة¹، ولكونه ينبت في تربة فقيرة، يتطلب أمطارا ضعيفة، ينضج مبكرا، ومردوديته تفوق باقي الحبوب. بينما القمح كان يتطلب تربة خصبة وأمطارا منتظمة²، ما جعل القنصل الدانماركي جورج هوست يعتبر أن "...القمح الأحسن جودة والأكثر وفرة يأتي من اقليمي تامسنا ودكالة اللذان يتوفران على تربة خصبة جدا..."³.

تركزت بلاد الساقية في ضواحي المدن، في مُدرجات الجبال، في حقول الواحات. انتظمت داخلها الزراعة المتعددة من حراثة وغراسة وبستنة... واختصت أساسا بزراعة الذرة الصفراء، هذه النبتة القادمة من العالم الجديد نحو المغرب خلال القرن التاسع عشر مع موجة التغلغل الرأسمالي⁴. سجل الأجانب اندهاشهم من تداخل حقول القمح مع حقول الخضراوات في ضواحي المدن⁵. بينما في الجبل فرض البستان وجوده على المجال والإنسان، في إطار مُناوبة زراعية بين اللفت والجزر من جهة، والشعير من جهة ثانية. نستعير من الجغرافي جون دريش J. Dresch مفهوم "التحول الوظيفي"⁶ لتوصيف حالة الجبل في تاريخ المغرب. حيث يتم تعويض نقص القمح بزراعة الأشجار وخاصة الزيتون⁷ واللوز⁸ والجوز والأركان.

¹ - Michel. N, Une économie de subsistances, op. cit, p 160-161.

² - يورد المؤرخ هنري دو كاستري نصا برتغاليا يعود إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي (1596) يفيد تخصص أعالي جبال الأطلس الكبير في انتاج القمح الجيد وبكميات مرتفعة رغم قساوة الظروف البيئية، وهو ما يجعلنا نصل إلى بناء استنتاج أولي حول هذا المجال في كونه عرف تحولا زراعيا من انتاج القمح الجيد إلى انتاج الشعير، مع ما يصاحب هذا التحول من تغير في دورة المناخ وتقلص نسبة التساقطات المطرية. راجع:

De Castries. H, Une description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed El Mansour (1596), Texte portugais, Paris, 1909, p 97.

³ - Host. G, Relations sur les royaumes de Marrakech et Fès, 1760-1768, Traduction F. Damgaard et P. Gailhanou, Rabat, 2002, p 242.

⁴ - Michel. N, Une économie de subsistances, op. cit, p 108.

⁵ - Lempriere. W, Voyage, op. cit, pp 25-63.

⁶ - Dresch. J, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du Grand. Atlas, Paris, 1941, p 16.

⁷ - يتحدث نيكولا ميشيل على أن المغرب في بداية القرن العشرين كان يملك أربعة ملايين شجرة زيتون.

Michel. N, Une économie de subsistances, op. cit, p172.

⁸ - يتحدث جاك موني عن احتكار التجار الإنجليز للزيتون خلال القرن السادس عشر في سنوات 1574-1576-1577 م على التوالي بإنتاج وصل 604 و 676 قنطار بقيمة 1208 و 1952 جنيه. انظر:

Caille. J, Le commerce anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI siècle, Revue Africaine, 1940, p 215.

عموما تكشف المعاينة الزراعية ما بين مغرب الحسن الوزان (ق 16م) ومغرب المراقبين الأجانب (ق 19 وبداية ق 20م) عن نوع من التماثل والتشابه. ولكن قبل هذا التشابه الذي يحيل على وضع البنية الإنتاجية داخل زمن طويل ثابت إلى شبه ثابت، وجب أن نستعيد الفكرة المحورية الذي طرحها برنار روزنبرجي B. Rosenberger قبل اقتحام البنيات الحديثة. يطرح روزنبرجي فكرة خضوع المشهد الزراعي لمفارقة واضحة: تتركز الزراعات الكثيفة في الأراضي الضيقة بحواشي المدن وأعالي الجبال وحقول الواحات، أما السهول الخصبة الممتدة فكانت الزراعات فيها ضعيفة، تظهر كـ "جلد الفهد" بقعة متفرقة ومتقطعة¹.

لا نشك في استمرار التوصيف الذي صاغه روبير ريكارد R. Ricard حول مغرب القرنين الخامس عشر والسادس عشر إلى ما قبل ظهور بوادر التحرش الاستعماري بسيادة البلاد خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كل الأجانب الذين زاروا مغرب ما قبل البنيات الحديثة أخذوا في الاعتبار توصيف روبير ريكارد من أن المغرب لا يزال "خزان القمح"². طبعي أن تتكاثر الاتصالات والمراسلات الديبلوماسية منذئذ لحث المخزن السعودي والعلوي على تصدير القمح المغربي نحو أوروبا خاصة في فترات وفرة المحصول³. لكن تصدير القمح نحو الخارج كان "تجارة تحكمها المناسبة" كما عبّر عن ذلك القنصل الفرنسي لويس شوني.

شكل قمح السهول والمناطق الخصبة ذات التربة النفاذية مادة أساسية في طعام المغاربة، وخاصة الوجهاء والأعيان وخاصة الخاصة. لقد أظهرت الدراسات الحديثة أن القمح يستهلك ما يعادل ستة آلاف متر مكعب للهكتار الواحد في ظرف زماني لا يتعدى أربعة أشهر إلى خمسة. وقبل ذلك فهو طعام يحيل على قوة التمايز الاجتماعي وفق مقولة مارك بلوك⁴. تأخذنا كتب النوازل في رحلة كمية حول مقدار الاستهلاك، يصل استهلاك فرد بالغ وصل حد الصيام عشر ساعات في الشهر، أي ما يعادل 20 كلف شهريا، و 240 كلف سنويا⁵. تحتفظ الثقافة الشعبية في مختلف مناطق المغرب بمأثورات تحيل على ظاهرة خزن وطمر الحبوب⁶. يتعلق الأمر بهاجس مغربي مُزمن يتربا بدلالات رمزية ومادية، وحمولة تضامنية. فعملية الخزن تبقى في نهاية المطاف، اقتصاد، احتياط، وبرنامج

¹ - Rosenberger. B, Cultures, op. cit, p 495.

² - Ricard. R, Le commerce de Berberie et l'organisation économique de l'empire portugais aux XV et XVI siècles, Annales de l'Institut des Etudes Orientales, Volume II, 1936, p 10.

³ - Chénier. L, Journal du consultât général de France au Maroc (1767-1785), Edition C. Penz, Casablanca, 1943, p 28.

⁴ - Bloch. M, Les aliments de l'ancienne France, In Pour une histoire de l'alimentation, op. cit 232.

⁵ - العباسي أحمد، الأجوبة، الجزء الأول، طبعة حجرية، ص 113... ورد عند حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 52.

⁶ - "إياك والتفريط في الأقوات، فهي إمام الدين والحياة" أشعار مغربية تعود إلى بداية القرن الثامن عشر.

اجتماعي¹ داخل فضاءات اختلفت تسمياتها من منطقة لأخرى، من المطمورة² إلى الإيغرم³، ومن الهري⁴ إلى الإكودار⁵.

حول مسألة النظام الغذائي دائما، اقتصر حضور الخبز الأبيض على موائد الأعيان، خاصة خبز القمح الآتي من السهول الخصبة، أما بقية الناس فكانوا يتناولون خبز الشعير الأسود، والحساء في الجبال في شكل عصيدة، والدشيش في الواحات⁶. ومعلوم أن القمح يستهلك كمية وافرة من الماء، بينما الشعير لا يتطلب ذلك. لقد أظهرت أبحاث هنريش جاكوب حول "تاريخ الخبز" أن الخبز الأبيض لذيد من حيث الذوافة، فقير من حيث القيمة الغذائية بسبب عملية الطحن والغلبة التي تقتل العنصر الحيوي في القمح⁷. كما رصد الأسير موييط عادة طهي الخبز يوميا عند المغاربة⁸. وعند شارل دوفوكو بخصوص سكان الواحات "إذا استقبل الناس ضيفا مميّزا، فإنهم يقدمون له في الصباح حساء من الشعير "الحسوة" ورغائف ساخنة مصحوبة بالعسل والتمر"⁹.

على عكس ما يعتقد، أظهرت الأبحاث الزراعية أن الخبز الأسود الذي كان يرمز إلى طعام الفئات الدنيا من المجتمع، المصنوع من الشعير أو الدُّخن، يحتوي على طاقة غذائية متكاملة، فهو مغذي بالبروتينات والفوسفور والمغنيزيوم وبالفيتامين B1، وبالمواد السكرية خاصة النشويات والسيليلوز وحتى الكالسيوم¹⁰. وهو عموما غذاء

¹ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 57.

² - يُعرف نص فرنسي يعود إلى سنة 1675 م ورد في المصادر الدفينة لتاريخ المغرب المطمورة أو المرس بكونها "خزائن عميقة يُسميها الناس مطمورات، وهي حفر كبيرة وعميقة في الصخر... من ست إلى سبع باعات، في أماكن بعيدة عن الماء، وتتميز بالاتساع في الأسفل بمقدار ثمانية إلى عشر باعات. ومدخل الحفرة يشبه البئر، ضيق جدا، ينزل إليها المرء بواسطة سلم مصنوع من حبل بصعوبة جمة، وتقفل بحجرة تناسب عرض المدخل. ففي هذه الأماكن يخزن العرب القمح والشعير وحبوب أخرى والزبد والزيت والمؤن..." انظر:

SIHM, Archives Francises, 2 Série, t2, p 84-103.

³ - الإيغرم أو الأكادير بناء على الأبحاث اليت أنجزها روبرت مونتاني وجاك موني عبارة عن مكان لخزن الحبوب، بناية مُكونة من طبقات، ذات هندسة بديعة، وقلعة من حجر تحفها أبراج، تحتوي على ما يقرب من ثلاثمائة حجرة صغيرة يضع فيها أفراد القبيلة موادهم الغذائية، وأيضا أسلحتهم ووثائقهم... كانت المؤن تحفظ مدة طويلة، بحكم أن الإيغرم يحظى بتهوية مناسبة... انظر:

Montagne. R, Un magasin collectif de l'Anti- Atlas :L Agadir des Ikounka, Hesperis, 1929, pp 145-266; Meunie. J, Greniers collectifs, Hesperis, 1949, pp 97-137.

⁴ - الهري محلات توجد في المدن تحت رعاية الدولة، وتتخذ شكل قباب، تمكن من خزن الحبوب بطريقة بديعة، وكان الهري تحت رعاية الدولة التي كانت تعتبر أكبر ثمالك لمخزونات الحبوب في البلاد". انظر:

Rosenberger. B, Calamites, sécurité, pouvoir. Le cas du Maroc XVI- XVIII siècles, In Peuples Méditerranéens, n 27- 28, 1984, p 262.

⁵ - الإيكودار جمع كلمة أكادير، وتدلل على الحصن أو المخزن الجماعي، ومن حيث الهندسة المعمارية عبارة عن بناء معماري ضخم على شكل حصن تتوسطه مجموعة من الغرف في طوابق قصيرة العلو وشديدة الضيق.

⁶ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، مرجع سابق، ص 59.

⁷ - Jacob. H, Histoire du Pain depuis 6000 ans, traduction de l'allemand par M. Gabelle, Paris, 1958, 372.

⁸ - Mouette. G, Relation de la captivités du Sieur Mouette dans les royaumes de Fez et de Maroc, Paris, 1689, p 177.

⁹ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Paris, 1985, p 125-130.

¹⁰ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 63.

أهل البادية في الجبال والواحات والسهول. يُدعم جورج هوست G. Host هذه الفكرة حينما يتحدث أن طعام أهل البادية "يتكون من خبز الشعير المعجون من دون خميرة في شكل رغائف سميكة مطهية في مواقد من طين"¹. فضل أهل الجبال خبز الشعير في شكل عصيدة، حتى سُمي طعام الأطلس بامتياز، وأحيانا مطحونا في شكل زميتة، مخلوط بقليل من الماء، ومُنَسَّم بالعسل. ويبدو حسب إفادة طوماس بيلو عن برابرة الأطلس الكبير الغربي أن الناس كانوا يحملون الزميتة لحظة التوجه إلى العمل أو في أسفارهم، يضعون قدرا منها في قرح ويخلطونها بالماء ويشربونها².

ارتبط النظام الغذائي لمغاربة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالأرض والزراعة والماء، أكثر ما ارتبط بالماشية واللحم والوحش، الأول طعام خاضع للعادة والمألوف، والثاني طعام خاضع للإكراه والضرورة. عادة ما كان اللجوء إلى اللحم يتم في اللحظات العجفاء التي ترددت على بادية المغرب. تسير بعض الإشارات إلى تأكيد ذلك. يشير ميشو بليير أن "المغاربة لا يأكلون اللحم أبدا، وحتى الميسورين منهم لا يأكلونه أكثر من مرة في الأسبوع"³. وعند شارل دوفوكو أن "اللحم لا يُعد طعاما مألوفاً، وحتى على موائد الأغنياء لا يظهر إلا نادرا"⁴، وحتى في مناسبة عيد الأضحى كان استهلاك الفرد الواحد من اللحم يصل إلى ما يقرب من كيلوغرامين⁵. يتحدث مورييس غو M. Gaud عن "نحافة الأبقار، وعن لحوم جافة وعديمة الطعم"⁶. كان البكري (البقر) يُستخدم في صنع لحم مجفف على شكل شرائح على شكل "خليع" محتفظا به في قلال صغيرة لمدة طويلة⁷. وفي المناطق الصحراوية، صنع أهل الصحراء من لحم الجمل مرقا أبيض اللون "عديم الطعم" حسب ذوق لويس شيني⁸. أما السمك الغني بالبروتين والليزين والفوسفور والفيتامينات فقد احتل حيزا هامشيا في المطبخ المغربي⁹. الأمر ذهني، سياسي، تقني، وعقدي مُرتبط بالرواسب البورغوازية. يُدعم جيرار رولف G. Rohlf هذا الموقف في رحلته التي قام بها إلى المغرب

¹ - Host. G, Relations, op.cit, p 88.

² - Pellow. T, Relation, op. cit, p 217.

³ - Bellaire. E.M, Quelques tribus de montagnes de la région du Habt, Archives Marocains, Vol XVII, 1911, p 119.

⁴ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance, op. cit, p 125.

⁵ - Baron. P et Hammoudi. A, Alimentation et nutrition dans les Chiadma, Bulletin Economique et Social du Maroc, n° 128-129, 1975, p 104.

⁶ - Gaud. M, L'alimentation indignes au Maroc, Bulletin de l'institut d'Hygiène, n° 1-2, 1933, p 8.

⁷ - توقف أحمد التوفيق في المجتمع الإينولتاني عند بين دمناتي أنفق 6703 مثقالا لتحويل سبعة ثيران إلى خليع سنة 1873. التوفيق أحمد، إينولتان، م س، ص 334.

⁸ - Chénier. L, Recherches, op. cit, t3, p 137.

⁹ - هناك إخبارية برتغالية تعود إلى القرن الخامس عشر تتحدث عن جمل المغاربة للسمك. أنظر:

Ricard. R, Le Maroc Septentrional au XV siècle d'après les chroniques Portugaises, Hesperis, 1936, p 187.

سنة 1861-1862م على أن الأنهار والأودية المغربية غنية بالسّمك، لكنها لا تُزود إلا موائد سكان المدن، أما أعراب السهل فلا يأكلونه¹. وقد نجد له تفسيراً في التأخر التقني والطرق البدائية التي لجأ إليها المغاربة لصيد الأسماك².

في علاقة البنية الاجتماعية النازمة لكل هذه التحولات بسجل الطقوس والرموز³، وقف جاك موني J. Meunie في المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي عند مشاركة النساء في موائد الرجال في مناسبة عاشوراء. ألف أهل الواحات كما في الأطلس الكبير خلال هذه المناسبة تحضير طبق الكسكس بالكرداس. يسعى هذا الطقس التشاركي إلى تحقيق نوع من التآلف والتوافق الزوجي، ضداً على أعراف المجتمع الذكوري التي عادة ما تضع تصنيفاً للموائد حسب الجنس خلال السنة. كما جرى إشراك الأطفال في هذا الطعام الاحتفالي لرغبة في التحلل من عقدة الخوف من الأبناء تجاه الآباء. يُقدم الرجال على تقديم لقمة من كسكس عاشوراء، شديدة السخونة، تسمى محلياً بـ "تاهماموت" توضع في أيدي الأطفال، وتُغلق بإحكام، حتى تبرد، ثم تؤخذ وترمى لتلتهمها الكلاب⁴.

نساء الأطلس كن يتوجهن صوب المنابع المائية من أجل الماء خلال مناسبة عاشوراء للاعتقاد بقداسته وقدرته على الاستشفاء من الأمراض وإبطال أنواع السحر⁵، وأيضاً استجلاب المطر⁶. تعتمد النساء إلى جلب الماء من هذه المنابع ورش كل زوايا البيت وحظائر الماشية وخزائن المؤونة استدراكاً للبركة⁷. ومنهن من يحتفظن بجزء من الماء لاستعماله وقت الحاجة طيلة السنة. وعند استواء الشمس يندفع الأطفال والشبان للتبرك بالمياه، حيث يتسابقون إلى إلقاء الماء على بعضهم البعض في جو من المرح.

¹ - Rohlf. G, Voyages au Maroc, 1861-1862, Revue Africaine, 1986, p 208.

² - Laoust. E, Pêcheurs Berbères du Sous, Hesperis, 1923, 2 Trimestre, pp 237-264. Et aussi Miegé. J.L, Des pêcheries traditionnelles a la pêche moderne, Maroc Europe, n° 9, 1996, pp 17-21.

³ ارتبط لفظ الماء "أمان" في حياة الأطلس الكبير بالحياة وقيم الاستقامة والحقيقة والشفافية. اعتقد الإنسان الأمازيغي أن الماء كان موجوداً قبل الأرض، ما جعله يربطه بالولادة والموت، بالتوالد والخصوبة... ترسخ اعتقاد أن بين الماء والأرض علاقة جنسية... كل هذه الصور الذهنية والتمثيلات الرمزية أضيفت على الماء في حياة الأطلس الكبير طابعاً مقدساً، جعلت الإنسان الأمازيغي يعبد ويقدر الماء وكل أشكال الحياة المائية من بحار ومحيطات وأنهار وبحيرات ونباتات وأبار... باعتبارها مظاهر خالقة للحياة... راجع أوعشي مصطفى، أمان، ضمن كتاب المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الأول، 2004، ص 40-45.

⁴ - Meunie. J, Sur le culte des saints et les fêtes rituelles dans le Moyen Dra et la région de Tazarine, Hesperis, t38, 1951, p 378.

⁵ - Doutté. E, Magie et religion dans l'Afrique du nord, Jourdan, Alger, 1908.

⁶ يمكن الحديث عن طقس "تيسليت ن وانزار" عروسة المطر من أجل استجلاب المطر، يتم هذا الطقس عن طريق موكب يتجول بـ "أغنجا" وهي ملحقة كبيرة من الخشب، ترمز للأرض المتعطشة إلى الماء، كانت تغطي بثياب على شكل دمية يطلق عليها اسم "تيسليت ن وانزار"، وتتم هذه الطقوس على شكل زواج رمزي بين الأرض والمطر من أجل الخصوبة وتجديد حياة النبات والزرع. راجع بخصوص ذلك:

ID, Aznar, Encyclopédie berbère VI, Edi sud France 1989, pp 795-797 ; Basset. R, Recherches sur la religion des Berbères, R.H.R, LXI, Mai- Juin, 1910, pp 291-342 ; Driss Abdelaziz, Les Religions des eaux, In Revue Carthage, n°7, Octobre, 1966, pp 62-68 ; Joleaud. L, Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord, Journal de la société Africanistes, t III, Fascicule I, 1993, pp 197-282.

⁷ - فائز فاطمة، الماء المقدس: دراسة للاستعمالات السحرية للماء بالجنوب الشرقي، واحة امحاميد الغزلان نموذجاً، م س، ص 158.

تحرص النساء والفتيات على الاستحمام بماء النهر تبركا بماء عاشوراء اعتقادا منهن بقدرته على إرواء الأرض وتخصيبها. لا تتأتى مسألة فهم هذا الطقس إلا بربطه بعامل ثقافي يضفي نوعا من القدسية الدينية على مياه البئر المكية (زمزم). يخرج النساء في المناسبات الاحتفالية نحو المنابع المائية من أجل الاغتسال بمياه الأنهار والعيون والآبار لطرد النحس والحسد والعين الشريرة، أو بهدف الإخصاب أو الزواج¹، أو للتبرك والتطهر والاستشفاء عن طريق الاغتسال².

في واقع الأمر، تُعبر عملية الاغتسال عن رغبة في الزواج أو الانجاب. تُمرر المرأة رجلها أولا بماء الينبوع، ثم تُمرر بعض من الخبز فوق خصرها، وتقدمه طعاما للسّمك، لاعتقاد بأن هذا الفعل يُبطل السحر، ويُلجم القوى الخفية. وقفت الكتابات الاثنوغرافية كثيرا عند اعتقاد سكان الأطلس بوجود قوى خفية تسكن المنابع المائية³. كانت النساء ينزلن قبل طلوع شمس اليوم الحادي عشر من شهر محرم من أجل فك طلاسم السحر الأبيض⁴. ما دفع إميل لاووست E. Laoust إلى استنتاج أن نساء الأطلس يعتقدن أن ماء الآبار والمطفيات والبرك يتحول إلى ماء مقدس يُبطل كافة أشكال السحر والنحس وسوء الطالع⁵.

حول مسألة الغذاء، فرض الإكراه الإيكولوجي إيقاعه على نظام الغذاء، وعلى أسعار المواد الغذائية. كان نزول المطر عادة ما يفتح قوسا جديدا في حلقة الاقتصاد المغربي، وفرة إنتاجية، أسواق عامرة، مع ساكنة قليلة، مرفوقة بانتعاش محدود للرواج النقدي...عكس لحظات المجاعات والأوبئة التي كانت تُعيد دورة الإنتاج إلى نقطة البداية⁶. كانت هذه اللحظات تدفع بفئة اجتماعية جديدة نحو الظهور، فئة الوسطاء والمحترفين وكبار الملاك والتجار الذين يستثمرون في السوق السوداء من أجل الرفع في الأسعار. عن هؤلاء يقول لويس شوني "الأسوء في هذه الحالة، هو أن المغاربة الميسورين الذين لا تأخذهم في الناس رافة، يستفيدون من حاجة العامة للإبقاء

¹ - أوعشي مصطفى، أمان، ضمن كتاب المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الأول، 2004، ص 41.

² - طقس الاغتسال طقس قديم لا زال يمارس في بعض المناطق مثل سيدي سليمان مول الكيفان، سيدي عبد الرحمان بالدار البيضاء، لالا عيشة بسيدي أحمد الدغوي، وسيدي موسى بسلا، وسيدي اليابوري بالرباط، وسيدي محمد بن إدريس ببرشيد، ولالا عيشة البحرية قرب أزمو...وعن طريقة ممارسة هذا الطقس، يخبرنا المراقب المدني الفرنسي في تونس Gabriel Péréه أنه عند طلوع الفجر تخرج النساء سواء كن متزوجات، أو شابات، أو عجائز من أجل الاستحمام في الوادي بعد حل شعرهن، تبدأ الفتيات في التصريح برغباتهن قائلات: أطل شعري يا فرعون، ووسع حوضي، فرعون أطل شعري مثل النخلة.

-Akhmisse. M, Croyances et médecine Berbères a Tagmout, Edition Dar Kortoba, Casablanca, p 115.

³ - Akhmisse. M, Rites et secrets des marabouts à Casablanca, Dar Kortoba, Maroc, deuxième édition, Maroc, 1999, p 114-115.

⁴ - واعراب مصطفى، المعتقدات والطقوس السحرية بالمغرب، دار الحرف، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص 133-134.

⁵ - Laoust. E, Noms et cérémonies de feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti- Atlas, Hesperis, t1, 1921, p 58.

⁶ - Rosenberger. B et Triki. H, Famines et épidémie, op. cit, 1974, p 73.

على غلاء الأسعار، استجابة لشجعهم...¹. نعلم دواعي تصدي الاستوغرافيا المغربية لمضمون هذه الفكرة. ما فتئت هذه الاستوغرافيا تُذكر بتدخل المخزن الدائم لمعاقبة المحتكرين والوسطاء، وإشهار سلاح التتريك والمصادرة قصد إعادة توازن العلاقة بين العرض والطلب.²

ولكي تتضح صورة هذه الوضعية الغذائية أكثر يستوجب فهم سيرورة تشكلها في الزمن. يتعلق الأمر بـسيرورة تشكلت حسب العروى منذ القرن 5هـ/ 11م إلى غاية مطلع القرن 20م، على مدى زمني طويل جدا، أفضت إلى "تحول الحقل إلى مرعى"، نقلت الانتاج من الزراعة إلى تربية الماشية³. أو لم يكن هذا التحول مسؤولا عن تراجع الرصيد الديموغرافي؟ أو لم يساهم الانتقال من الزراعة نحو تربية الماشية في استفحال عمل المجاعات؟

يجيب البعض، أن هذا التحول كان استجابة لقلّة الأمن في البلاد، باعتبار أن الإنتاج الزراعي يتطلب فترة من الهدوء لا تقل عن ثمانية أشهر، لاستكمال عمليات الحرث ونمو الصابة، تم الحصاد والدرس وجمع المحصول وتخزينه...وهي أمور كانت متعذرة في البلاد. كانت الماشية في تاريخ المغرب ثروة متنقلة تستجيب للظروف الأمنية ولحظّات الاضطراب. وبشأنها ظل السؤال حول قيمتها الاحتياطية على المستوى الغذائي قائما، فغالبا ما كان يسرع إليها الهلاك قبل الإنسان خلال القحط⁴. ففي لحظات الجوع وتراجع الأقوات، انتشر أهل الأطلس الكبير في البراري والخلاء، بحثا عن نباتات برية تسد الرمق، وتقي من موت محقق يهدد الأرواح. كان البحث جاريا عن الثمار والأعشاب والجذور الحلوة وغيرها. تطرقت الكتابات الأجنبية كثيرا إلى نبتة يَرْزِي، نبتة مُبَصِّلَة تُعرف أيضا باسم الدغفل، غنية من الناحية الغذائية⁵.

¹ - Chénier. L, Correspondances, op. cit, p 834.

² - البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س، ص 364-368.

³ - العروى عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، الطبعة الثانية، ص 222.

⁴ - ضعف الاحتياطات الغذائية هو من سهّل عمل المجاعات، وزاد من انتشارها في أرجاء البلاد. علاقة التناسب بين نزيف السكان وانتشار الرعي واقع لا يمكن تفاديه، وبالتالي، تراجع القوى العاملة في الانتاج لحظات وفرة الإنتاج. ينقل محمد المنصور مشهدا تعبيريا عن هذا الوضع نهاية القرن الثامن عشر (1213هـ/ 1799م) في شأن ذلك: "...ظل القمح ظل دون حصاد في أماكن عديدة، وقطعان الماشية ظلت هائمة في البوادي من دون رقيب..." المنصور محمد، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792 - 1822) ترجمة محمد حبيدة، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص 77.

⁵ - Gaud. M, L'alimentation indigènes, op. cit, p 42

ورد عند حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 89.

الشكل رقم 26: جدول: الماء وأطعمة القحوط والأوبئة¹

المادة	البلوط	يرني
الماء	%51	%54.43
رماد	%1.75	%1.31
مواد أزوتية	%5.25	%0.76
مواد دهنية	%5.25	-----
مواد هيدروكربونية	%38.75	-----
مواد نشوية	-----	%37.65
كلوكوز	-----	%0.90

الملاحظ أن هذه النبتة رغم قيمتها الغذائية، إلا أن استهلاكها بشكل مفرط يؤدي إلى الانتفاخ والوفاة. واضح أنه في كل لحظات الخصاص والجوع ينتعش اقتصاد القطاف والقنص، تتلبس حياة الأهالي بأنماط خشنة وعتيقة². يبحث الناس عن صيد الوحيش، عن الأسود والثعالب والخنازير والضباء والقنافذ والطيور الوحشية في الغابات والسهول، حتى الخنازير تسقط عنها المعايير والأحكام الدينية في البوادي³. كما يتم اللجوء إلى صنف البقوليات، وهي نباتات فصلية خبازية ذات أوراق عريضة وزهور مُلينة⁴. إضافة إلى البحث عن الخروب، وهو عبارة عن ثمرة حلوة، والترفاس ذلك الفطر الذي ينبت تحت الأرض الرملية الحارة على شاكلة البطاطس، والكرنية النبات الشوكي، رقيق الشكل يشبه الخرشف، ونباتات أخرى مثل الكليخ والخردل والدفلى كما يظهرها الجدول التالي⁵:

¹ Gaud. M, L'alimentation indigènes, op. cit, p 39.

² - Rosenberger. B, Cultures, op. cit, p 494.

³ - Chénier. L, Recherches, op. cit, t3, p 145 et Moulieras. A, Le Maroc inconnu, t2, Exploration des Djebala, Paris, 1999, p 492. Et Doutté. E, Marrakech, Paris, 1905, p 43.

⁴ - Perrot .E et Gentil. L, Sur les produits végétales du Maroc, Paris, 1920, p 81.

⁵ - جدول حول النباتات البرية مأخوذ من كتاب حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 92.

الشكل رقم 27: جدول: الماء والنباتات الفصلية الخبازية¹

الاسم	الخاصية	المذاق	المعالجة الغذائية
بسباس بري	نبات ورقي	عذب	يطبخ مرقا
بقول (خبيزة)	نبات ورقي	عذب	يطبخ مرقا
بلوط	ثمرة لبية	عذب	يؤكل نينا/ مطهيا/ يعجن مخلوطا بالشعير.
ترفاس	فطر تحت التربة بحجم الليمونة	عذب	يطبخ مرقا/ يشوى على الجمر
خروب	حب	عذب	يؤكل نينا/ مطهيا/ يعجن مخلوطا بالشعير أو الدخن
خيزو (جزر بري)	من الخضراوات	عذب	يطبخ مرقا
دفل	نبات زهري	عذب	يطبخ مرقا
رجلة (البقلة الحمقاء)	نبات ورقي من فصيلة الرجليات	عذب	يطبخ مرقا
زريعة الخردل	حب	مر	تسحق/ تؤكل نيئة
سلجم (لفت بري)	من الخضروات	عذب	يطبخ مرقا
سلق	نبات ورقي من فصيلة السرمقيات	عذب	يطبخ مرقا
عبطار (ثمرة العرعر)	نبات لبي	مر	يؤكل نينا
كرفس	نبات ورقي من فصيلة الخيميات	عذب	يطبخ مرقا
كرنينة (قوق بري)	نبات شوكي	عذب	يطبخ مرقا
كلخ	نبات من فصيلة الخيميات	حلو	يؤكل نينا
نيق/ سدر	نبات شوكي	عذب	يؤكل نينا
برني (لوف)	نبات من فصيلة القلقسيات	عذب	يطهى بالبخار أو يعجن مخلوطا بالشعير

كان البقول يُطبخ بالماء ويؤكل في شكل مرق في العشاء²، والحلزون يُطبخ في الماء مع الزعتر بإضافة مُنكهات أخرى³. وقد تبدو هذه البدائل فقيرة من حيث الكالوريميات، لكنها ضمنت البقاء للمغاربة، وكَيِّفَت وعيهم مع تبدل الظروف والأحوال⁴.

يسمح هذا التناول أيضا، بإقامة تباين مجالي⁵، بين مدينة حضر فيها الخبز المصنوع من القمح، وبوادي حضر فيها الكسكس في المساء، وجبال تسيّدت فيها العصيدة حتى لقبت بـ "سيدة المائدة" في الجبال، مع بعض القطاني⁶،

¹ - جدول حول النباتات البرية مأخوذ من كتاب حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 92.

² - Laoust. E, Mots et choses berbères, Notes de linguistique et d'ethnographie, Dialectes du Maroc, Paris, pp 107-108.

³ - Pellow. T, Relations, op. cit, p 217 et aussi Levi- Provençal, Pratiques agricole et fêtes saisonnières des tribus Djebalas, Archives Berbères, Vol III, 1918, p 96.

⁴ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 103.

⁵ - يمكن تتبع هذا التباين خاصة في مادة الحليب، فضل أهل الجبال حليب الماعز، وأهل السهل حليب الشياه، وأهل الواحة حليب الناقة، وسكان المدن حليب البقر...حبيدة محمد، المغرب النباتي، م س، ص 109.

⁶ - القطاني غنية بالحديد والفيتامينات A و B1 و B2 و BB

وبين شمال مغربي فضّل زيت الزيتون¹، وجنوب فضّل زيت الأركان². كما يسمح أيضا، برصد مواقيت الأكل كما رصدها الطبيب الانجليزي. لقد تناول المغاربة وجبة الفطور عند طلوع الشمس، ووجبة الغذاء عند الظهر، ووجبة العشاء مع غروب الشمس³. وأخيرا، بإقامة تباين اجتماعي تراتبي بين كبار الفلاحين والتجار وخدام المخزن الذين تصل حصتهم من الكالوريميات 500 غرام أي ما يعادل 1600 كالوري. وتصل حصة الفرد الواحد أربعة كليوغرامات من الحبوب في الشهر، أي 133 غرام في اليوم. يُظهر الجدول التالي نسبة استهلاك القمح في الشهر حسب السن وفق الجدول الآتي⁴:

الشكل رقم 28: جدول: نسبة استهلاك القمح في الشهر حسب السن⁵

السن	الكمية بالمد / شهريا
2	2
3	2.5
4	3
5	3.5
7	4
8	4.5
9	5
10	5.5
11	6
12	6
13	7
14	7
شخص بالغ	7.5

¹ - الزيت مادة غنية بالدهون، تتوفر على فيتامينات A و B، توفر نسبة 100 % من الدهون، وتحتوي على كمية مهمة من الأحماض الدهنية غير المشبعة. انظر:

Laval. D.M et Mazaliak. P, Physiologie végétales, t1, Nutrition et métabolisme, Paris, 1995, p 255.

² - حول زيت الأركان يقول أوسكار لينز " يأكل أهل الجنوب زيت الأركان بعد طهيها على النار لغزالة عناصرها الدسمة والمُرّة حتى يصير لونها صافيا مائلا إلى الأسمر المفتوح.

Lenz. O, Voyages au Maroc, au Sahara et au Soudan, Edition .P. Lehautcourt, Paris, 1886, t1, p 335.

³ - Lempriere. W, Voyages, op. cit, pp 178-179.

⁴ - حبيدة محمد، م س، ص 106.

⁵ - نفسه، ص 107.

لاحظ الطبيب الفرنسي موريس غو Maurice Gaud في بحث أجراه لحظة الحماية كيف أن الجنود المغاربة يقبلون في البداية على اللحم، وسرعان ما يتركونه ويطلبون ما اعتادوا عليه من خضر¹. إنه يشبه صراع الرغبة والعادة، تنتصر العادة على الرغبة ولو كانت مادة ليست في متناول الجميع. يطلعنا الطبيب لامبريير أيضا "أن عامة الناس يأكلون خبز الشعير والفاكهة، وعند الظهر يأكل المغاربة الخبز مصحوبا بالعنب والتين والبطيخ"².

ألفت البيوتات الكبرى أن تختتم الوجبات الأساسية بالفاكهة من تين وتمروعنب وبرقوق وإجاص ومشمش وخوخ وبطيخ وتفتح وليمون ورماني وسفرجل... لكنها عموما تبقى طعاما عابرا. تتميز فواكه الليمون والإجاص والبطيخ بخاصيتين مزدوجتين: سريعة الاستهلاك، وغنية بالماء الذي يروي الظما³.

عن الليمون الحلو كتب الطبيب الفرنسي أدولف مارسي في رحلته إلى بلاط مراكش سنة 1882 "...لا يوجد الليمون الحلو إلا في الأراضي السلطانية، وفي ضواحي المدن، إذ لم أصادف شجرة ليمون واحدة في الطريق من الجديدة إلى مراكش، أو من مراكش إلى الصويرة. هذه الفاكهة لذيذة، لكن الناس لا يأكلونها إلا لإطفاء العطش... فالبرتقال من الفواكه التي لا تحفظ مدة طويلة، إذ كان عليهم أكلها في غضون أيام قليلة عقب جنيها... لكن في كل هذه المناطق تنتشر حول الدواوير أشجار اللوز والتين والمشمش... لماذا إذن يفضلون حضريا هذه الفواكه على البرتقال؟ السر في ذلك هو أن هذه الفواكه تجفف وتخزن وتصلح طعاما لوقت طويل. أما البرتقال فهو ذو قيمة مرطبة، ولا يقدم سوى طعام عابر..."⁴. أما الليمون الحامض فكان من نصيب موائد الأعيان، وقد استعمل نيئا أو مرقدا، ففي "...ضاحية مراكش كانت إحدى بساتين السلطان ذات المنظر الجميل، تتوفر على خمسة عشر ألف شجرة ليمون حامض تسقى بواسطة قنوات مائية محكمة الصنع"⁵. وبخصوص العنب، تحدث لويس شوني عن عنب منطقة دمنات الحلو⁶. وتحدث البعض عن صنع الخمر منه⁷. في مقابل ذلك، ضمنت التمور في الواحات (بوفقوس - بوزكري - الجمل) الغنية بالسكريات السريعة الامتصاص والمغنسيوم والبوتاسيوم والفوسفور توازن الحياة الواحية بمغرب ما قبل الاستعمار. سبق لشارل دوفوكو أن توقف عند أهل

¹ - Gaud. M, L'alimentation indigènes, op. cit, p 11.

² - Lempriere. W, Voyages, op. cit, p 179.

³ - حبيدة محمد، المغرب النباتي، ص 111.

⁴ - Marcet. A, Le Maroc :Voyages d'une mission française à la cour du Sultan, Paris, 1885, pp 249-251.

⁵ - SIHM, AF, t IV, p 596.

⁶ - Chénier. L, Recherches, op. cit, t3, p 86.

⁷ - Houbaïda. M, Le vin au Maroc précolonial, de la discrétion à l'exhibition, Horizons Maghrébins, n° 55, 2006, pp 97-102.

الواحات عن طريقة ادخار التمر في قلال من طين، وسحقها وتحويلها إلى عصير حلو المذاق يشبع العسل من حيث اللون والتركيب¹.

في أعالي الأطلس الكبير واضب الناس على تربية النحل، وهي ممارسة إنتاجية قديمة مؤطرة بقواعد عُرفية تحرسها مؤسسة الجماعة. النحل في الأطلس الكبير يُعطي نوعين من العسل، عسل أبيض كاللبن، وعسل أصفر فاتح كالذهب، وفي السهل يتخذ لونا أبيضاً، جليل المذاق²، بينما في المدين اعتبر مادة ترف ورمز الثراء عند الوجهاء والأعيان. ومع تقدم القرن التاسع عشر ستوسع قاعدة استهلاك السكر المستورد من الخارج، وستظهر عادة غذائية جديدة يتزاج فيها السكر بالشاي³.

لقب الأجانب طبق الكسكس بـ "سيد المائدة"، مؤثثاً بالحمص، بحضور القرع الغني بالماء⁴. حرصت الإماء المُشرفات على موائد الميسورين على تنظيم وإعداد الطعام بدقة وعناية فائقة⁵. الغذاء في هذا المستوى، لا يُنظر إليه من منظور تجديد الطاقة، بل من منظور حفظ المراتب الاجتماعية وإعادة إنتاجها⁶. ما جعل الأجانب يتحدثون عن لحظات غذائية تتميز بالرخاء والوفرة في دار المخزن، حيث تحضر "ثيران الخليع" و"خوابي السمن" و"قوالب السكر"... وعند الفقراء نُظر إلى الخبز كـ "نعمة من عند الله"، حيث كان الناس يُربون أطفالهم على تقبيل الخبز قبل أكله، والتقاط الفتات اليابس من على الأرض ووضعه في مكان آمن حتى لا تدوسه الأقدام⁷.

¹ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance, op. cit, p 125.

² - SIHM, AF, 2 eme série, t2, p 389.

³ - Miegé. J.L, Le Maroc et l'Europe, 1830-1894, Paris- Rabat, 1989, t2, pp 71-74.

⁴ - Provençal. L, Pratiques agricoles et fêtes saisonnières des tribus Djebalabs, Archives Berbères, vol III, 1918, p 101-102.

⁵ - Brunot. L, Au seuil de la vie marocaine, ce qu' il faut savoir des coutumes et des relations sociales chez les Marocains, Casablanca, 1946, p 46.

⁶ - Valensi. L, Consommation et usages alimentaires en Tunisie aux XVIII et XIX siècles, Annales ESC, 1975, p 600.

⁷ - Brunot. L, Au seuil de la vie marocaine, op. cit, p 64-65.

خلاصة:

حاول هذا الفصل أن يُعيد تشييد الواقعة الغذائية بمغرب ما قبل الاستعمار، في علاقتها بعنصر الماء الحيوي، سواء في لحظات الوفرة، أو في لحظات العجز، انطلاقاً من عدسة الملاحظين الأجانب. وتدخل في كثير من اللحظات لنقل وجهة النظر المغربية، من خلال كتب النوازل، التي تعتبر نافذة على قراءة اليومي المغربي.

مارس الماء مثلما يقول كلود ليفي ستراوس "عملية وساطة" وتفاوض دائم بين الأطعمة النيئة التي قدمتها الطبيعة في لحظات الجوع، والأغذية المطبوخة التي عكست عملية الانتقال الثقافي. أظهر الغذاء بأنه مرآة لتأويل واقع البيئات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأظهر كذلك قدرة الانسان المغربي على التكيف مع المحدد الايكولوجي الضاغط، سواء في بعده السياسي أو في بعده الطبيعي. لكن يظل الإكراه الاقتصادي أقوى من الطبيعي، ذلك أن الإنتاج المغربي لم يكن مُوجهاً بدرجة أولى نحو خلق الرواج التجاري، بل فقط لتأمين البقاء، وحتى الإنتاج النباتي قيّدته شروط بيئية وتقنية واجتماعية واقتصادية خانقة. لكنه أمّن بقاء الكيان البيوكيميائي للمغاربة في التاريخ.

بمقتضى المراجعات القائمة اليوم لم يعد النظر إلى هذه الأطعمة النباتية ذات الأصل المائي يقتصر على سجل الفقر والهشاشة والندرة، بل أصبح يُنظر إليها من زاوية الاستعاضة الغذائية. ولئن لم تسمح أدوات التاريخ في تعقب الواقعة الغذائية تعقبا كميّا، بسبب الافتقار إلى وثائق مضبوطة حول كميات الإنتاج، الاستهلاك، الحصص الغذائية... فإن تبني رؤية المنهج التقديري الذي صاغه إرنست لافروس يُمكن من الاقتراب، لو بشكل نسبي ومحدود، من جرد الأطعمة والأشربة بمُتغير التباين المجالي والاجتماعي، وبرصد الغذاء كمنتوج رمزي يحيل على المواسم الفلاحية والطقوس الاحتفالية، وأخيراً برصد آليات الانتقال الغذائي زمن الحماية من غذاء نباتي طبيعي نحو غذاء كيميائي مُصنع تطغى عليه اللحوم والدهون¹.

¹ - نحيل هنا على أطروحة جامعية ناقشتها الباحثة نزهة نجاح حول العادات الغذائية في المغرب زمن الحماية، الثابت والمتحول، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الانسانية، القنيطرة، نونبر 2015، تحت إشراف محمد حبيدة.

الفصل الخامس:

التأليف الفرنسي: بورتريهات مائية¹:

¹ - نقصد بالبورتريه Portrait فن رسم المشاهد الطبيعية في لوحات، صور، نحت، تمثيل فني...عكس البورتريه المؤلف الذي يتناول الأشخاص من حيث الملامح والتعبيرات والأحاسيس...ويعتمد البورتريه الطبيعي على فن الإضاءة الطبيعية الذي يسهل عملية قراءة اللوحة.

1- التأليف الفرنسي: نماذج وأغلفة؛

1- لويس شوني: المشهد الأخير من مغرب نهاية القرن الثامن عشر

قبل القرن الثامن عشر كان ملف القرصنة البحرية يُضفي على أجواء العلاقات الثنائية بين المغرب وفرنسا نوعا من التقلب الدبلوماسي، ويُعكس صفو العلاقات بين المغرب وفرنسا. ابتداء من هذا التاريخ طبعت الكثير من المنعرجات المناخ الجيو- إقليمي لبلدان الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. في سياق ذلك، أوفدت فرنسا عام 1765 زمن حكم الملك لويس الخامس عشر قطعا حربية إلى ساحلي العرائش وسلا لقصفهما جراء تداعيات القرصنة، تلتها بعد ذلك سفارة فرنسية إلى مراكش سنة 1767 لتوقيع معاهدة السلام. كان من ضمن مبعوثها لويس دوشوني الذي سيعين في ما بعد قنصلا عاما في المغرب نهاية القرن الثامن عشر¹.

على مدار الخمسة عشر سنة التي قضاها هذا القنصل (1767-1782)، والتي تخللها عدة محطات من التنقل في كل من أسفي، سلا، مكناس، مراكش... خَلَّفَ لويس شوني مؤلفا ثريا يمكن أن يُدرج ضمن تصنيف الأدب الغرائبي. يُقدم شوني من خلاله صورة عامة عن مغرب النصف الثاني من القرن الثامن عشر زمن حكم سيدي محمد بن عبد الله. من حيث الامتداد الزمني، لا يزال هذا المؤلف يجذب إليه جمهور الباحثين والمهتمين بالتفاصيل الأخيرة للقرن الثامن عشر إلى غاية احتلال الجزائر 1830م². بله يحظى بامتياز خاص، يؤكد بأنه آخر عمل يُظهر مغرب نهاية القرن الثامن عشر بعدما لم تفض محاولات البحث عن عملي النائب بروصوني وعالم النبات القس دوران عن أي جديد يذكر³.

يبدي هذا التأليف انشغاله بالمسائل الاقتصادية لمغرب القرن الثامن عشر، ويحيط ببعض من أقاليمه ومدنه، ويُمكن النظر في ملاحظة مراسيه، ويعاين بدقة حصافة واقع انتاجه الزراعي والرعي، مثلما يتنبأ بمستقبله انطلاقا

¹ - دامت فترة إقامة القنصل لويس شوني في المغرب من 1767 إلى سنة 1782 على امتداد حوالي 15 عاما.

² - مباشرة بعد إحالة لويس شوني على التقاعد شرع في ترتيب ملاحظاته وذكرياته عن المغرب في مؤلف ضخيم حول المغرب، سينشر سنة 1787 تحت عنوان: أبحاث تاريخية حول المغاربة وتاريخ امبراطورية المغرب". وسيصادف هذا التأليف نجاحا باهرا جعله يترجم إلى اللغة الانجليزية. يتبع هذا الكتاب الإحاطة بهندسته، ففي مجلده الأول يتتبع شوني تاريخ موريطانيا الطنجية من بداياتها إلى لحظة مجيء العرب إلى المغرب، وفي مجلده الثاني يترصد تاريخ المغرب والأندلس، وفي مجلده الثالث يتتبع تاريخ الامبراطورية المغربية مع دولة الأشراف مع تضمينه ملاحظات حول الإدارة والعوائد والطقوس.

De Chénier. L, Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire du Maroc (1787).

³ - يتعلق الأمر بالنائب السابق بروصوني الذي عين قنصلا في موغادور خلفا لشوني، وقام برحلة استكشافية في المغرب لفائدة أحد المعاهد بين 1797 و 1801، بمشاركة عالم النبات القس دوران.

من مواقعه الاستراتيجية¹. كل ذلك في إطار قالب كلاسيكي جعله يهتدي إلى تدوين ملاحظاته في أسلوب بسيط، لكنه في المقابل مثخن بالأحكام والتصنيفات.

منذ أول لقاء بمجال المغرب لا يبدي لويس شوني انطبعا طيبا بخصوص جغرافيته. يعتمد إلى إشراك القارئ في تخيل مشاهد رتيبة من الأراضي الجرداء وكأن حرائق قد أتت عليها، ومياه متدفقة غير مستغلة. يبدي شوني Chénier أسفه من ترك الأراضي عارية من أي مزروعات. ففي ضواحي مراكش، حيث الأراضي الشاسعة كثيبة وقاحلة، تفتقر إلى الماء والزراعة، وسكانها يتميزون بالفظاظة والتمسك بالخرافات والتقاليد². يتغير الوصف جذريا عند حديثه عن سهل الشاوية المسمى بتامسنا، حيث "...حقول القمح الشاسعة، تجعل السنبلة الواحدة في المعتاد تحتوي على سبعين حبة..."³.

بحكم خلفيته الكلاسيكية، وجفاء أسلوبه في الوصف، جاءت ملاحظاته خالية من أي تعبير أدبي، وفاترة من أي إحساس. فقط تعبيرات من جمل بسيطة وظفت لتصوير مشاهد من الطبيعة والعمران المغربي. في شأن ذلك، نقتبس منه وصفا عن عاصمة الجنوب مراكش بالقول: "...تقع المدينة في سهل منبسط مزروع بأشجار النخيل، وتحيط بها جبال الأطلس التي تعطيها مظهرا جذابا..."⁴. ومع ذلك، ظهر وصفه دقيقا في نقل الجزئيات التي تميز المشاهد بمنهج مقارن لا يخلو من إفادة. يقول في شأن ذلك عن مكناس: "...في مكناس، بساتين مغروسة بأشجار الزيتون التي تسقيها جداول الماء الوفير، وهضاب مزروعة تملأ الضواحي، وتقدم خضرا وفواكه ذات مذاق سائغ..." بينما مراكش "...مدينة مهملة ذات أحياء متباعدة عن بعضها البعض، وبيوتها مقفرة ومتسخة حتى صارت ملجأ للعقارب والثعابين والذباب..."⁵.

في وصفه لمظاهر الحياة القروية في المغرب لا يخرج شوني عن أفكار مجايليه من فلاسفة القرن الثامن عشر. تظهر أفكاره كما لو أنها جزء من نظرية العصر الذهبي ونظرتها إلى "المتوحش الطيب". ننصت إلى هذا المقطع "...يعيش المغاربة الذين يقيمون في البادية حياة غاية في البساطة أشبه ما تكون بحياة الانسان في عهوده الأولى، وتعمل التربية والمناخ وصرامة الدولة على التقليل من حاجات السكان الذين تمدهم أراضيهم بحليب وصوف قطعانهم، وكل ما يحتاجونه من مأكّل وملبس..." وفي مقطع موالى: "...يتميز المغاربة بحرارة استقبال

¹ - يتنبأ لويس شوني بالأهمية الاستراتيجية لمدينة الرباط، ويعتبرها مؤهلة لاستقبال الواردات من أوروبا، وبأنها ستكون عاصمة المغرب الجديد. نفس الشأن بخصوص مرفأ أنفا الذي سيجعل منه ليوطي في ما بعد منفذا على البحر.

² - لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، تعريب حسن بحراوي، دار الأمان، الرباط، 2017، ص 81.

³ - De Chénier. L, Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire du Maroc, 1787, p 18.

⁴ - لوبيل رولان. م س، ص 84.

⁵ - نفسه، م س، ص 85.

ضيوفهم من الأجانب، يهيئون قضبان الخراف المشوية، تم يقدمونها في صحون من خشب، وقد أتيح لي أكثر من مرة أن أدعى لمثل هذه الولائم التي تحظى عندي ببساطتها بكل الاحترام، وتجعلني أحلم بأني في خيمة أحد شيوخ القبائل البدائية...".

وحتى إذا ما أردنا أن نحاكم أفكار لويس شوني علينا أن نضع أنفسنا زمنيا في أفكار عصره. إذ لا معنى لأوصاف من قبيل: "...حكومة المغرب مستبدة لا تعمل سوى وفق ما يمليه عليها مزاجها، فهي تأمر وتقرر وتجزم من دون أن تستشير في ذلك أحدا..." من دون أن توضع في سياق مناخها الفكري وعصرها الكلاسيكي وفق التحقيب الفلسفي المعروف. وطيلة الفترة الممتدة من بداية الثورة الفرنسية إلى غاية الاحتلال الجزائري ستشكل أفكار لويس شوني الإطار الفكري الوحيد للتفكير في المغرب، بحكم أن الاتجاه الغرائبي في الأدب الفرنسي شهد انزياحا من حيث الاهتمام بتركيزه على بلاد الشرق (تركيا، فارس والهند). ما جعل توصيفات لويس شوني تغطي مساحة الفراغ هاته. وقد كان لزاما انتظار الثلث الثاني من القرن التاسع عشر لاستئناف مسيرة الرحلات الفرنسية إلى المغرب¹.

2- أوجين دولاكروا²: الرسم المائي في صورة العتاقة:

بين رحلة القنصل الفرنسي لويس شوني (1767-1782) ورحلة أوجين دولاكروا (1832) تستوطن مساحة فراغ طويلة في حلقة التأليف الفرنسي حول المغرب. نفهم ذلك حينما نستحضر تفصيلين: الرجة السياسية التي خلفتها الثورة الفرنسية ضد النظام البائد من جهة، وانتقال اهتمام الاستشراق الكلاسيكي نحو عوالم الشرق (فارس، تركيا...) من جهة موازية. كان من الطبيعي أن تضم البعثات السفارية الموفدة إلى مغرب القرن التاسع عشر إلى جانب الصحفيين والمصورين والسينمائيين ورجال الأدب الفنانين والرسامين... وكان من ضمنهم الرسام أوجين دولاكروا الذي وفد ضمن أعضاء سفارة م. دو مورناي إلى المغرب سنة 1832. معلوم أن هذه البعثة السفارية جاءت في سياق خاص حيث التحول بين ضفتي المتوسط أخذ مسار التباعد بين أقطاره. كانت أولى ضحاياه إيالة

¹ - في ما يخص الرحلات الفرنسية في المغرب الممتدة من القرن السابع عشر إلى مطلع القرن العشرين يمكن العودة إلى الجدول الذي وضعه رولان لوبيل وفق الإحصاء التالي:

القرن السابع عشر: 15 رحلة؛

القرن الثامن عشر: 10 رحلات؛

القرن التاسع عشر: 27 رحلة؛

من 1900 إلى 1912: 28 رحلة.

المجموع: 80 رحلة.

تفصح هذه الأرقام عن كثافة الاهتمام الفرنسي بالمغرب بمتواليته الزمن، وهو أمر يمكن تفسيره بشدة التنافس الأوروبي حول المغرب، كما أن هذه الرحلات الفرنسية لا تنسجم من حيث المنطلق والغرض وحتى من حيث التخصص. وقد نصادف في بعضها أسماء قامت بأكثر من رحلة... لكنها عموما، بحكم الانتماءات المختلفة لمنتجها تسمح بمعاينة المغرب من زوايا وأبعاد مختلفة.

لوبيل رولان، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، م س، ص 325.

² - Delacroix. E, Journal au voyage au Maroc, 1832.

الجزائر العثمانية سنة 1830. لذلك كان هدف هذه البعثة السفارية واضحا منذ البداية: ضمان حصول حياذ السلطان مولاي عبد الرحمان تجاه ردود الفعل الجزائرية، ومحاولة ثنيه عن نواياه التوسعية في إقليم تلمسان¹.

قبل أن يُقرر دولاكروا التوجه إلى المغرب ضمن بعثة م. دو مورناي بدافع الفضول الفني لمعاينة سحر الجمال الإفريقي، ويتوقف عند بأنواره وألوانه وشخصه... كان قبل ذلك اكتسب صيتا واسعا في الوسط الفني الفرنسي برسمه للوحي "قارب دانتي" و"ومذبحة سيو" إلى جانب لوحات أخرى. وقد مكنته رحلته المغربية من وضع عدد هائل من التخطيطات والرسوم، وكتابة مجموعة من الرسائل التي كان يبعث بها من المغرب إلى أصدقائه، إلى جانب أنه خلّف دفتر سفر سينشر بعد ذلك ضمن مذكراته. لكن للأسف لم يُقدر لدولاكروا نشر رحلته المغربية مصحوبة برسوماته، عدا رسائله ودفاتر يومياته وألبومات تخطيطاته التي ظهرت نهاية القرن التاسع عشر².

ما إن يلتقي بصر دولاكروا بجغرافية المغرب بعد رحلة بحرية انطلقت من تولون الفرنسية نحو طنجة في فاتح يناير من 1832م حتى يطلق العنان لمشاعر التلذذ والإعجاب بتذوق الجمال المغربي، ويُظهر تلهفه لاكتشاف أسرار حياة المغاربة المحتفظة بعظمة الأزمنة الغابرة. في شأن ذلك كتب إلى صديقه بييري رسالة يقول: "...لقد جُبت تَوّا أطراف المدينة (طنجة)، وعدت وأنا دائخ مما رأيته... ينبغي أن يتوفر المرء على عشرين يد وثمان وأربعين ساعة في اليوم لكي يعطي فكرة عن كل ما يراه... إنني الآن أشبه ما أكون برجل يحلم ويرى أشياء يخشى أن تفلت منه..."³. بعد بضعة أيام يكتب من جديد: "...إن كل ما أستطيع إنجازَه لن يكون سوى شيء قليل مقارنة بما يمكن القيام به هنا، في بعض الأحيان تتداعى ذراعاي من العمل، وأنا على يقين من أنني لن أعود من هنا سوى بالظلال...". وفي طريقه من طنجة إلى مكناس، ينقل إلينا دولاكروا مشاهد من وقائع السفر: مشاهد طبيعية متنوعة، أنهار سائلة⁴، ألعاب فروسية، وحفل استقبال السلطان⁵ وطائفة عيساوة⁶... لم يكتب لدولاكروا أن يكتب لكي ينشر، بل ليصور ويرسم. فقد كانت ملاحظاته عبارة عن وثائق لرسم لوحات وليس لتأليف كتب⁷. علينا أن ننتبه إلى الطابع التصويري لهذه الملاحظات فقط، وأن نُركز على دقة ملاحظاتها ووضوح إشاراتها.

¹ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، تعريب حسن بحراوي، دار الأمان، الرباط، 2017، ص 91.

² - نشرت رسائل المغرب من طرف م. بورتى سنة 1888م ضمن مجلد كبير جمعت فيه مراسلات دولاكروا. بينما مذكرات السفر فقد أدمجت في كتاب نشره بول فلات سنة 1893م.

³ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، م س، ص 91.

⁴ - لوحة نهر سبو سنة 1839.

⁵ - لوحة "حفل استقبال السلطان عبد الرحمان" التي عرضت سنة 1845م، توجد اليوم في متحف تولوز.

⁶ - لوحة عن طائفة عيساوة تحت عنوان "مختلجو طنجة" سنة 1838.

⁷ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، م س، ص 97.

في سياق انكبابه على رسم مائي لأحد العيون المائية في ريف طنجة الذي للأسف لم يكتب له الكمال. يسرد دولاكروا واقعة طريفة عن ما جرى: "...بينما كنت مستغرقا في رسم عين للمياه في ريف طنجة، كانت هناك فتاتان تغسلان الثياب، وبما أنهما كانتا وحيدتين فإنهما لم تحتجبا عن أعين الغريب، بل يبدو أن إحداهما زادت من جرأتها، وتطوعت للوقوف أمامي كاشفة عن شيء من محاسنها...وعلى حين غرة سمعت أصوات غاضبة وظهرت جماعة من المغاربة مزبدين ومرعدين، ولم أسلم من هذا المأزق إلا بفضل خفة فرسي الذي كان قد بقي، لحسن الحظ، على مقربة مني..."¹.

يعمد دولاكروا إلى استدراج القارئ عبر لوحاته إلى استكشاف روح العتاقة في حياة المغاربة. يُظهر دفتر الرسم الذي تبقى من رحلته المغربية تعبيرات دالة على هذا المنحى من قبيل: "هذا شعب شديد العتاقة" "إنها العتاقة التي ليس أجمل منها شيء"..."وكلما زاد في إمعان النظر في حياة المغاربة كلما زاد تأكيده على عتاقة هذا الشعب، وترسخ في ذهنه بتوالي المشاهد، وتعدد الأشخاص المغاربة الذين لاحظهم: "...إن مشاهد هذا البلد ستظل ماثلة بين عيني، وأناسه سيظلون يتحركون على الدوام في ذاكرتي. ذلك أنني عبرهم اكتشفت حقا العالم القديم...".

عموما نقلت لوحات دولاكروا إشارات حول الأشياء والناس والألوان والحركات والإيماءات والألبسة والأثاث والمعمار والجياد² والزفاف³...بدقة فائقة جعلته ينقل أدق التفاصيل والجزئيات.

3- الماء في بورتريهات الفن الفرنسي:

تمتزج داخل مرسوم دولاكروا ريشة الرسام وحنس المؤرخ وعين السوسيولوجي، لوحاته الفنية حملت ملاحظات مسافر، تشوف الوصول إلى عالم عتيق نظيرا لعالم الشرق. رسام عاش حالة قلق نفسي، وعكست رسوماته ذهنية الرجل الباريسي⁴...دولاكروا جلس على طرفي نقيض من صراع فني قائم وقتئذ بين منتسبي المدرسة الرومانسية والمدرسة الكلاسيكية، راسما خط وحدود الغرائبية المغربية مثلما أسس لحلقة مفصلية في التأليف الفرنسي كأول من دشن حقل الصورولوجيا الغرائبية حول المغرب.

سند هذا القول دفتر رسوماته الذي اكتنز روزنامة من الملاحظات الدقيقة حول الأشياء والرجال والألوان والحركات والسكان والهندسة⁵...تخلص من أغلال المدرسة الكلاسيكية، مستحدثا عقيدة فنية جديدة...تدخل

¹ - لوبيل رولان، م س، ص 100.

² - لوحة " صدام فرسان مغاربة " سنة 1834 التي تظهر معركة بين جوادين.

³ - لوحة زفاف "يهودي في المغرب" التي عرضت في متحف اللوفر سنة 1841.

⁴ - Lahjhomri. A, L'image du Maroc dans la littérature Française, de Loti a Montherlant, op.cit, p753.

⁵ - Le Bel .R, Les voyageurs français au Maroc, L'exotisme marocain dans la littérature du voyage, Librairie coloniale et orientale, Larose, Paris, p108.

رحلته ضمن بعثة دومورني التي تكلم الكثير عن فشلها سياسيا، لكنها نجحت فنيا في تقريب المغرب من دوائر الرأي العام الفرنسي.

بدأت محاولة دولاكروا تبحث عن امتداد جديد للشرق داخل المغرب ضمن لعبة الفضاء الشعري l'espace poétique المنفلت من تحديد لعبة الزمان والمكان¹... لكن ما يهم استنادا إلى الخطيبي هو "...فنه لا إديولوجيته، حيث أنه عاش تجربة الشرق في حالة سكر محرقة، فتعمد بذلك تلفيف الأشياء بحركة رحبة مبتكرة، ليجعلها تتماشى مع أشياء الأرض والسماء..."².

مسألة التلصيف هاته التي تحدث عنها الخطيبي أساسية في فهم صورة دولاكروا حول مغرب الأمس، لأنها لازمتها طيلة مقامه بالمغرب، ولم يستطع ادراك وملامسة الأشياء المغربية، يقول في هذا الصدد الخطيبي "...بدون شك، إن كل الأشياء الكبيرة والساطعة آلت تربط الشرق بالغرب، لم تبق على حالتها العذراء..."³. وفي موضع آخر يقول "...إذا حدونا حذو هؤلاء الرحالين، بمعنى أن نقتفي أثارهم على الخريطة الأدبية في الزمن والمكان، وداخل كل استعارات التجوال، هادفين بذلك إلى تقريب أوجه صور الآخر، ولنقترب من هذه الصورة، يجب علينا أن نسلك نفس الطرق التي عبروها، من الانطلاقة إلى النهاية، وعلى الخصوص عودتهم إلى فرنسا..."⁴. استهواه الإنسان المغربي المتصف بالضيافة والمضايقة بالأسئلة والفضول المتعدد الأوجه أكثر مما استهوته الطبيعة المغربية التي تأتي لديه في درجة ثانية في تشكيل الصورة المغربية بألوانها الجذابة وخصوصياتها المحلية... من طنجة المغربية سيعلم دولاكروا طلاقه مع الاستشراق الفني التقليدي، معلنا عن ميلاد مدرسة فنية جديدة⁵.

ملاحظاته لم تكن سوى ملاحظات مسافر عابر تشوف إلى الوصول أكثر من تشوفه إلى الإمعان في خبايا "الروح المغربية" باستعارة من جورج هاردي، لم ينسلخ عن نظرتة الباريسية تجاه ما كان يفيض به المجتمع المغربي من غرائبية وجاذبية⁶... دولاكروا يأتي لسد مسافة إثنية تفصل بين مجتمعين كما يقول أندري شوفيريون⁷.

¹ - بوزويطة سمير، مكر الصورة، م س، ص 80.

² - Khatibi .A, Maghreb pluriel, Emer Denoël, 1983, p 221.

³ - Ibid, p 223.

⁴ - Khatibi A, Figures de l'Étranger dans la littérature française, Denoël, Paris, 1998, p13.

⁵ - ألبس دولاكروا اللون الأبيض على مدينة طنجة الذي يكتسي دلالات متعددة:

* رمز البدائية (انعدام الحضارة)

* رمز الموت (العودة إلى الأصل)

* رمز الخداع (المدينة فقدت بكارتها)

يمكن العودة إلى بوزويطة سمير، مكر الصورة، م س، ص 72.

⁶ - نفسه، ص 61.

⁷ - Chevrillon. A, Un crépuscule d'Islam, Fès en 1905, Edition Hachette, Paris, 1906.

واضح أن دولاكروا أفرغ المغرب من كل مقوماته الحضارية والتاريخية، جاعلا منه فضاء للاستلهامات الشعرية...بلد يجهل ما يجري في العالم، يجتر وراءه تأخره الحضاري، ويعكس إنسانه فكرا بدائيا أصيلا¹...عالم غريب وبدائي، يعيش في بساطة لا متناهية، يعكس نوعا من النوستالجيا المعكوسة التي سنجدها فيما بعد تتردد كثيرا في صور بيير لوتي حول مغرب القرن التاسع عشر حينما تحسر على ما أصاب أوروبا من دمار حضاري².

لا تخلو ملاحظات دولاكروا عن المغرب والمغاربة من أحكام قيمة "...إن هذا الشعب حافظ على مظهره القديم..." تم يضيف في مقطع آخر "...إن الحياة في الشوارع والبيوت المسدودة النوافذ والأبواب بحرص تحدد كل شيء..."³ وفي مقطع ثالث "...إن هذا الشعب عتيق كليا..." نقلا عن فيليب بورتى دائما. كان المغرب بالنسبة لدولاكروا محطة فنية لإعادة اكتشاف جديدة لماهية الفن والحضارة ومفهوم الجمال والكلاسيكية والأصالة الجمالية، وإن كانت غالبا ما تنتهي مقارنته لصالح الانهيار بحضارة الشرق، حيث المغرب يبدو كما لو أنه آخر معاقل الجمال والابداع الفني التي يجب تصويرها فنيا قبل أن تزول. شخصية ظلت في تعارض دائم مع النظام الفرنسي، منبوذ من طرف الحكومة وأكاديمية الفنون الجميلة التي لم تعترف به كفنان وطني⁴.

نشأ دولاكروا في صراع بين مدرستين فنييتين: مدرسة كلاسيكية ومدرسة رومانسية. حافظ دولاكروا على أصوله الثورية إلى درجة أنه كان يرفض أن يكون أرستقراطيا. لوحاته تجسد فضاء جامدا، يعيش لحظة الاحتضار⁵. كان المغرب بالنسبة لدولاكروا مشروع تجربة حاسمة في حياته الفنية، عالم جذاب وغرائبي، منبع التأملات والابداعات الفنية⁶، مختبر للافتتان وظلال الوجهة "...إنني أهرب من قساوة واقع الأشياء، حينما أنزوي إلى الإبداع الفني..."⁷. "...لقد شرعت في التجوال داخل المدينة، لقد أثقل كاهلي بكثرة ما شاهدت...يجب أن يكون لدي عشرون يدا وثمانية وأربعون ساعة لإعطاء فكرة عن هذه الأشياء...إنني في هذه اللحظة شارد في حلم، أتمنى ألا ينتهي..."⁸. "...كل ما أستطيع فعله، لن يكون سوى عمل ضعيف جدا، مقارنة بما يمكن فعله هنا، إلى درجة أن يدي تشل أحيانا من كثرة العمل، إنني أتخوف من أن لا أنتهي سوى إلى ظل هذه الأشياء..."⁹.

¹ - Hardy .G, L'âme Marocaine, Larose, Paris, p 5.

² - بوزيطة سمير، مكر الصورة، م س، ص 68.

³ - Écrits d E. Delacroix (1942), Extrait du journal, Des lettres et des œuvres littéraire, Paris, Edition d'Histoire et de l'art, Librairie Plon, p20.

⁴ - بوزيطة سمير، مكر الصورة، م س، ص 41.

⁵ - Baudelaire .Ch, Écrits esthétiques, Union générale d' Edition, Paris, 1986, p 440.

⁶ - بوزيطة سمير، مكر الصورة، م س، ص 56.

⁷ - Burty .Ph, Lettres d E. Delacroix (1815 à 1863), A. quantier Imprimerie, Editeur, Paris, 1878, p 122.

⁸ - Ibid, p 121.

⁹ - Burty. Ph, Lettres d E. Delacroix (1815 à 1863), op.cit., p 127.

يُعبّر دولاكروا عن رؤية مرتبكة إزاء ما يشاهده في المغرب، رؤية تستند على الاندهاش والانهار والخوف، مثلما تحاول أن تدفع نحو صياغة صورة مغربية جديدة عن مغرب القرن التاسع عشر، مكتشفة سر السحر المغربي، حيث الرحلات الجميلة لا قلب لها¹. اعتقد الفنان دولاكروا وهو يرسم مغاربة عهد المولى عبد الرحمان أنه "...يقف على بقية اللباس الروماني في شكل العباية غير المخيطة، والكساء الذي يلتف فيه الإنسان، والقمصان الطويلة الفضفاضة التي تحزم بمضمضة مطرزة لدى الخاصة، وبحبل عمامة كثيفة، ولحية موكول بلونها أن تفصح عن درجة صاحبها من الكهولة..."².

4- أندري شوفريون: جدارية المغرب العتيق

أندري شوفريون ناقد أدبي ورحالة في نفس الوقت. وبينهما يتقاطع لديه الفكر الفلسفي مع الحس النقدي³. يهمننا بالأساس الجانب الثاني، التصوير المشهدي الذي أهله للنفاذ إلى عمق ودلالة الأشياء. تظهر رحلاته في أقطار العالم الإسلامي مصطبغة بعمق ثقافي وتأمل فلسفي موروث من أفكار عصر التنوير⁴. رحلته المغربية التي تمت على مرحلتين قبل وأثناء الحماية⁵ تشبه إلى حد ما التحليل النفسي للمغاربة⁶، وهي تنصرف إلى فهم الإنسان المغربي أكثر ما تنصرف إلى فهم الأشياء. يظل شوفريون علامة فارقة في التأليف الفرنسي لاعتماده بدرجة أكبر على التوثيق التاريخي. في الأصل، تعود صلة شوفريون بالمغرب إلى سنة 1906 التي كتب فيها كتابا تحت عنوان: "أفول الاسلام"⁷. وهو في الواقع، كتاب عن رحلته إلى فاس سنة 1905⁸. قبل أن يعود بعد خمس سنين إلى جنوب المغرب ويكتب كتابا بعنوان: "مراكش بين النخيل"⁹ الذي يجمع بين دفتيه رحلتين، الأولى سنة 1913، والثانية إلى سنة 1917، أي خلال الحرب وأثناءها.

¹ - كانيي إلياس، أصوات مراكش، ترجمة حسونة المصباحي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، 1988، ص 15.

² - بوطالب ابراهيم، معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد 12، 2006، ص 18.

³ - لوران لوبيل، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، م س، ص 215.

⁴ - رحلات شوفريون في كل من الهند ومصر وسوريا والشرق الأقصى.

⁵ - فترة الحماية رغم كثرة المادة المصدرة وضخامة الرائد والأرشيفات إلا أنها لا تزال مستشكلة على الفهم. انظر: احساين عبد الحميد، نصوص عن النخبة والسلطة في بداية عهد الحماية الفرنسية بالمغرب 1912-1925، ضمن الثقافة والمجتمع، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد فلاح العلوي، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الانسانية بنمسك، الدار البيضاء، 2019، ص 33.

⁶ - يتوسل شوفريون بالمنهج المقارن بين الإنسان الأوروبي والإنسان الأفريقي، الأول يتميز بقيم العمل واليقظة والحماس، والثاني بقيم الخمول والخنع والانفعال... ويقف عند الإنسان المغربي حيث الفضاءات تكتنز المزارات والأضرحة، تحتشد فيها الوجوه الشاحبة بشكل يوحي بأن حياتهم لا تختلف في شيء عن الحياة في عهد المرابطين.

⁷ - Chevrillon. A, Un crépuscule d'Islam, 1906.

⁸ - بدأت الرحلة من ميناء العرائش يوم 2 لأبريل 1905، وتنقسم الرحلة إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول عني بوصف الطريق إلى فاس، القسم الثاني اختص بوصف لحظة الدخول إلى فاس، والقسم الثالث تحت ظلال فاس يخصص لأفول الإسلام.

⁹ - Chevrillon. A, Marrakech dans les palmes, 1920.

في الرحلة الأولى يرسم شوفريون لوحة فنية تنشُدْ انشدادا إلى عصور غابرة: "...وقد شعرت لأول مرة منذ حلولي بالمغرب بأنني إزاء شعب عاش أطوار حضارته الخاصة مخلفا وراءه قرونا متشابهة لم يتغير فيها أي شيء...حتى أنه يمكن القول أن العصر الوسيط قد طال أمده إلى الآن...وفاس التي ندخلها تشهد على بداية القرن الرابع عشر المظلم¹". ففي طريقه إلى فاس بدت له الطبيعة المغربية عذراء تبسط مفاتها بصمت مثل قطعة بربة تعود إلى ما قبل ظهور الانسان، وسلسلة الأكواخ تنتشر على مصب الأنهار، ومشهد نساء يصعدن عبر مجرى النهر، وهن يحملن جرار الماء² التي ترزخ تحتها ظهورهن بينما تشدها حبال تَزْتر رؤوسهن...³.

لا يكتفي شوفريون بوصف المشهد ونقل انطباعاته عنه، بل يعبر بالقارئ نحو تفسيره والحكم عليه⁴: "...لقد قامت إدارة مجرمة باستنزاف نسغ الحياة، وجرى الاجهاز على كل إرادة للعمل لدى السكان بسبب أشكال النهب التي ظل ينهجها أولئك الولاة ممن لا شغل لهم سوى التشجيع على التواكل الاسلامي الذي يغري بالتعطيل والكسل، وهكذا تنفصل الروابط التي تدعو إلى الالتزام والنهوض. والنتيجة أنه لا يعود هناك من قيمة للزمن بحيث تمضي الساعات بلا حساب، وتفترهمة البشر والأشياء تحت تأثير الصمت والموت، ويتحول الانسان من جراء ذلك إلى مخلوق بين المخلوقات يفلح بالكاد في لعب دوره في هذه الجوقة الهائلة والغامضة التي هي

¹ - لوران لوبيل، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، م س، ص 219.

² - أمان Aman: لفظ أمان يعني المياه في صيغة الجمع، وقد أشار الأمازيغ إليه منذ فترات تاريخية قديمة تعبيراً عن الحياة ومشتملاتها من قيم الاستقامة والحقيقة والشفافية. التصق هذا المصطلح منذ بداياته بسجل المقدس، واعتقد الإنسان الأمازيغي القديم بأن الماء وجد قبل الأرض، واتخذ معنيين: معنى الولادة ومعنى الموت. في المعنى الأول نُظر إلى الماء كرمز للذكورة، حيث تظهر الأرض مُحاطة بالماء من كل جانب، والبحار والمحيطات تحتضن الأرض وتضاجعها في علاقة جنسية توحى بالولادة. وفي المعنى الثاني نُظر إليه خالقا للحياة، وظهر الانسان الأمازيغي يقدس البحار والمحيطات، والبحيرات والينابيع والآبار كما في تأليف تيرتوليان Tertulien حول الماء De Baptima. يلقي هذا التأليف الضوء على قداسة الماء وقوته الخلاقة والمخصبة والمطهرة. ساد الاعتقاد في جل الشعوب القديمة أن طقس الانغماس في الماء إحالة على موت كائن قديم وولادة كائن جديد مطهرا من الأثام والذنوب. ظهر انشغال الانسان الأمازيغي القديم واضحا بالماء، وقدرته على إخصاب الأرض، وحمايته من الأمراض والأرواح الشريرة. يظهر ذلك من خلال طقوس الاغتسال بمياه الأنهار والعيون والآبار بهدف الإخصاب أو الزواج، او طرد النحس والعين الشريرة والسحر...التي لا تزال ممتدة في الزمن الحاضر. أنظر: أعشي مصطفي، أمان، ضمن المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، م س، ص 40؛ إلياد مرسيا، المقدس والديني، الطقوس والأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، الطبعة الأولى، دمشق، 1987، ص 18،. باسكون بول، المعتقدات والأساطير المغربية، مجلة بيت الحكمة، العدد 3، السنة الأولى، 1986؛ أعشي مصطفي، العقائد والمعبودات في المغرب القديم، دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، فاس، ص 156-170.

³ - لوبيل لوران، ص 217.

⁴ - يضع شوفريون الانسانية المغربية فوق مبضع التفسير، بنقد قاسي جدا. لا يتوقف عن مقارنة الانسانية المغربية بالإنسانية الفرنسية. يتشفع في سبيل ذلك بمنهج التوثيق التاريخي لتأكيد وجهة الأطروحة التي ينافع عنها. كل شيء من أجل حمل القارئ على الاقتناع بفكرة: أقول وانحطاط الحضارة الاسلامية في المغرب: "...هذا الشعب نصف ميت، ويعاني من الانحطاط والأفول إسوة بمدينة العتيقة وأسواره ومقابر...المسؤول عن ذلك ليس إرادة الانسان وإنما الطبيعة...". وفي مقطع آخر يمني النفس بأن لا تشوش الصناعات الأوروبية على الجمود المغربي، وأن هذا المجتمع المحتضر سيستعيد حيويته عند لقائه بحياة أجنبية. هنا يبتكر شوفريون مفهوم التلقيح، تلقيح المغرب العتيق، ذلك اللقاح الذي لا بد منه لاتبعث البلد.

الحياة...¹. قبل أن يستدرك بالقول، "...لا يغير هذا المشهد سوى الاقتراب من ضفاف الأنهار، وما كان يشوش على تلك العزلة هو ظهور حشود من الحيوانات وقطعان الثيران التي تعب الماء على هواها وهي غاطسة في مجرى النهر مادة خطمها إلى الأمام ورافعة عثيرة خوارها في الفضاء..."².

تاريخ ظهور كتاب "مراكش وسط النخيل" يوجي بتزامنه مع كتاب الأخوين طارو "مراكش أو سادة الأطلس". لكن الزمن لا يلغي جزئية أساسية في التحليل، في الكتاب الأول يبدو أن شوفريون عاد لنفس الأحكام التي سجلها عن فاس في كتاب "أفول الإسلام"³، ويبدو أنه كما يقول المثل الفرنسي لم ينس قديما ولم يستوعب جديدا، ما يجعل كتاب "مراكش وسط النخيل" يقترب من جنس الشهادة التاريخية منه إلى العمل الرحلي، بينما الكتاب الثاني عبارة عن رحلة قام بها الأخوين إلى مراكش. كتاب "مراكش وسط النخيل" موضوع رحلتين، الأولى تمت سنة 1913، والثانية سنة 1917، وبين الزمنين هناك لحظتين فارقتين من تاريخ مراكش، قبل الحرب وأثناءها.

في ربيع 1913، رست سفينة فرنسية في ميناء الدار البيضاء، وكانت فكرة شوفريون استعجال التوجه إلى الجنوب، وخاصة مراكش، التي كانت وقتها عذراء من أي وجود فرنسي إلى غاية شتنبير من نفس السنة. تطلب الانتقال من الدار البيضاء مراكش أحد عشرة ساعة بالسيارة عبر طريق ريفي مقفر إلى أن وصل إلى منطقة "الجبيلات الكثيبة"، ومنها بدأت تظهر له بقعة داكنة في الأفق: واحة مراكش: "...مراكش عاصمة بدوية، صحراوية تقريبا، جد مختلفة عن فاس العربية والبورجوازية. تتوزع المدينة إلى فضاءات هائلة تحيط بها أسوار من الطوب الأحمر، مزيج من الأطلال والصحراء والواحات..."⁴. يستمتع شوفريون بسكينة الحقائق المامونية، وبمنظر الجبال الشاهقة للأطلس الكبير المجلل بالثلوج من أعلى الشرفات. لا يمل شوفريون من تكرار لازمة أننا إزاء عالم بكر يستمتع فيه الإنسان بالبساطة، ملفوفا في قطعة قماش واحدة، ويتمتع ببراءة المخلوقات الأقرب إلى البدائية "...إن ما يثير انتباهنا ليس الطابع المحلي للناس والأشياء، ولكنه على الأصح المظهر العتيق

¹ - لوران لوبيل، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، م س، ص 217.

² - نفسه، ص 218.

³ - "...فاس تشبه باقي حواضر المغرب، الإسلام فيها مظهر لأزمة تشمل كل حواضر العالم الإسلامي التي جاءها شوفريون..." "...فاس تجمع سكاني لا عمر له، ووعاء ينطوي ليس فقط على متواليات من الحيوانات الفردية، بل على حياة واحدة تتواصل وتمتد ذاتيا من قرن إلى قرن آخر، بنفس الوجود ونفس الحركة ونفس الميول. إن المدينة تواصل الحياة على نحو سلمي، أي دون أدنى رغبة حية للتكيف مع الوظائف الجديدة. إنها لا تتحول إلا من تلقاء نفسها، تحت تأثير الزمن ومن خلال الأحجار التي تفتت، والجدران التي تهالك، والبناءات التي يطالها الإهمال، وكل تلك الأشياء الأخرى التي تتولى الطبيعة أمرها بعد أن تعجز الإرادة الإنسانية عن صيانتها، وتتوارث الأجيال هذا النمط من المدن التي عاشت في الماضي وتستمر في الحياة راهنا. وعلى هذا النحو تهدأ مدينة فاس سائرة نحو فناء محقق مثلما تنهوى بلاد المغرب بأجمعها...".

⁴ - لوران لوبيل، ص 226.

والمتموسطي لهذه الحضارة...¹". فالمتسول الذي يمدُّ طاسته، ويرفع عينه المطفأتين يشخص الصورة الخالدة والمباشرة للبؤس، والمرأة التي تقتعد الأرض وبين ذراعها جسد طفل عار، تمثل الصورة نفسها للأمومة في كل الأزمنة، والرجل المتكى على عصاه ذو اللحية البيضاء يعطي فكرة عن الشيخوخة المثيرة للشفقة... هذه الوجوه التي نقلها شوفريون تقع في دائرة خارج الزمان والمكان تُذكر بمتسولي بروتانيا.

ورغم حسه النقدي لم يستطع شوفريون أن يكسر عنه طوق جدارية الشرق الخرافي. تخيل قياد الجنوب الكبار مقرفصين تحت زخرفة السقوف، وبين الأعمدة التي تخلتها صورة السماء الزرقاء وواحة النخيل، سادة ببرانس وهيئات عجيبة مثل الوجوه التي رسمت في ألف ليلة وليلة. ففي محيط قصر الكلاوي، باشا مراكش، كل يوم حشود من العامة واقفة بغير نفاذ صبر تذكر بصفوف المنتظرين أمام أبواب القيصر أو غيره من العظماء. وفي رحلته الثانية سنة 1917 أظهر شوفريون اندهاشه من معجزة نقل الحياة إلى جسد جامد، وبدا معجبا باستيقاظ البلد بتأثير من الشرارة الفرنسية.

5- تجميع البعثات السفارية الفرنسية 1875-1890:

أ- من الوصف الانطباعي نحو الوصف المكثف

حينما نطالع نصوص البعثات السفارية في مغرب الربع الأخير من القرن التاسع عشر تكاد الصورة المشكلة عنه في عمومياتها تتطابق إلى حد التماثل². لا تختلف رحلة الدكتور بليشير Bleicher التي تمت في صيف 1875 عن رحلة بيير لوتي Pierre Loti سنة 1890 رغم اختلاف الزمن وتبدل الأحوال. داخل هذا الغلاف الزمني يمكن حصر خمس بعثات سفارية عززت رصيد المكتبات الفرنسية في سياق النزعة الغرائبية المعاصرة³.

¹ - نفسه، ص 227.

² - الصورة من حيث التحديد السيميولوجي عبارة عن حزمة علامات وإشارات ومعاني ورموز... وهي مدخل لإدراك وتركيب وتفكيك دلالة الملفوظات les énonciations. الصورة ضمنية مؤرخ الأدب، بما هي إمعان في عالم المتخيل وتوغل في دروبه. تسعى بذلك إلى نمذجة الواقع Typologie، وصياغة رؤى على المقاس، أو تحت الطلب شأن الصورة التي أبدع بيير لوتي في نقلها إلى القارئ الفرنسي عن مغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يرثي لوتي صورة الشرق المفقود، ويأسى على جماليته المفقودة من خلال المزاوجة بين التمثيلية الذاتية l'autoreprésentation، والتمثيلية الغيرية l'hétéroreprésentation.

³ - Bleicher. Dr, Un voyage au Maroc, 1875.

- Tissot. Ch, Recherches sur la géographie comparée de la Mauritanie Tingitane, 1876.

- Marcet. Dr, Le Maroc: Voyage d'une mission française à la Cour du Sultan, 1885.

- Charmes. G, Une Ambassade au Maroc, 1887

- Loti. P, Au Maroc, 1890.

في البدء، يثير هذا النوع من الكتابة ملاحظتين أساسيتين، أولها من حيث المضمون، وثانيها من حيث الشكل: من حيث المضمون: نقرأ في أحد النصوص: "...المناظر تفتقر إلى التنوع أو الفخامة. أما الغابات ذات الأشجار المتباعدة جدا عن بعضها البعض فلا تشبه في شيء الصورة التي لدينا عن الغابة في فرنسا. وأما الأرض فهي في الغالب غير محروثة وتنبت فيها أعشاب البطم وشجيرات الدوم ونباتات البرواق. وأحيانا تصادفنا حقول من القمح والشعير التي تدوس عليها الخيول بقوائمها. وفي كل مكان تنتشر المروج الشاسعة المكسوة بالزهور البرية التي تخلصها المستنقعات. أما الطرقات المعبدة فلا أثر لها في أي مكان، فقط هنا وهناك بعض المسالك التي تتشابه بغير انتظام. وكذلك السكان لا وجود لهم تقريبا، لأن الأهالي يتجنبون الاقتراب من الأماكن التي يوجد فيها أصحاب المخزن. الوحيدون الذين يظهرون هم فرسان القبائل الذين يؤمرون بأداء ألعاب الفروسية ترحيبا بالبعثات عند حدود القيادات...¹". وثانيا، من حيث شكل الكتابة: يبدأ جنس الكتابة السفرية بتصوير مراحل الرحلة أولا، وينتقل بعد ذلك إلى سرد وقائع الطريق من نصب المخيم ومشاق السير وتقديم "المونة" من طرف القبائل، وينتهي بسرد مصاعب عبور الأنهار وحفاوة استقبال رؤساء القبائل ومشاهد من الاستقبالات الرسمية...إجمالا هذه هي التلوينات الكبرى التي تطبع الأوصاف والمشاهد في مجمل الرحلات...حاصل القول، بين المضمون والشكل، تفوق العنصر الجمالي على المضمون التاريخي.

ب- رحلة الدكتور بليشير: 1875

شغل الدكتور بليشير Bleicher مهمة ملحق ببعثة الوزير المفوض شارل تيسو Ch. Tissot إلى مكناس². وقد ظهرت هذه الرحلة في المكتبة الفرنسية سنة 1875 تحت عنوان "رحلة إلى المغرب"³. يلاحظ القارئ منذ البداية اهتمام بليشير بالتاريخ الطبيعي وتاريخ الجيولوجيا في المغرب وفق ما يستنتج من تقسيم نص الرحلة. ففي الوقت الذي جاء فيه القسم الأول من الرحلة وجيزا في استعراضه لرحلة الذهاب نحو المغرب، جاء القسم الثاني من الرحلة كثيفا في تناول التاريخ الطبيعي والجيولوجي للمغرب.

ت- رحلة الدكتور ديكيجي Decugis : 1877

تمت هذه الرحلة في إطار بعثة رسمية قادها السيد فيرنوني نحو فاس سنة 1877. وقد كُلف الدكتور ديكيجي الذي يشغل في الأصل منصب طبيب رئيسي في البحرية الفرنسية بمهمة تدوين تفاصيل الرحلة. والحال، أننا لأول

¹ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، م س، ص 128.

² - شارل تيسو الوزير المفوض لفرنسا في المغرب ما بين 1871 و 1876. له اسهامات عديدة حول المغرب " أبحاث في الجغرافية المقارنة لموريتانيا الطنجية" وأيضا: "الطريق من طنجة إلى الرباط" وكلاهما صدرا سنة 1876.

³ - Bleicher. Dr, Un voyage au Maroc, 1875.

مرة أمام رحلة حقيقة بما تتضمنه الكلمة إحياء. تتوسل الرحلة بأسلوب الاقتضاب والاختزال، وتعمل على تصوير الوقائع، من دون استغراق في غواية التفاصيل، وتتعرّز هذه الفرضية بتضمن الرحلة ليوميات توثيقية تضع على رأس كل صفحة تاريخ اليوم والساعة سواء في مقامه بفاس أو في طريقه إلى مكناس. طالع القارئ الفرنسي تفاصيلها ابتداء من سنة 1878 تحت عنوان: " وقائع رحلة إلى المغرب¹". من خلالها، يلتقي القارئ مع وصف دقيق لبعض الأنهار والوديان وأوصاف عن الشبكة المائية في مغرب ما قبل الاستعمار.

ث- رحلة الدكتور مارسي Dr. Marcet : 1885

قاد الوزير الفرنسي أورديغا المعين حديثا في طنجة بعثة سفارية رسمية نحو مراكش سنة 1885²، وقد جادت هذه الرحلة بمؤلف ضخم يضم أزيد من 300 صفحة ألفه الدكتور مارسي بعنوان "رحلة بعثة فرنسية إلى بلاط السلطان"³. تتأتى قيمة هذه الرحلة في كونها تحقق سبقا تاريخيا في نقل تفاصيل عن الجنوب المغربي إلى القارئ الفرنسي⁴. تحتل هذه الرحلة مكانة هامة ضمن حلقات السرد الرحلي الفرنسي حول مغرب القرن التاسع عشر لسببين أساسيين⁵: أولهما مرتبط بدقة تفاصيلها، وكثافة معطياتها، وخاصة حول مراكش التي أفرد لها مارسي ما يناهز 150 صفحة. وثانيهما في اطلاع القارئ الفرنسي على تفاصيل مدينة مجهولة في التأليف الفرنسي، كانت المعطيات بشأنها تفتقد إلى الدقة والاكتمال⁶.

يبدو هذا النص متخلصا نوعا ما من الكليشيهات التي رافقت أوصاف الفرنسيين عن جنوب المغرب. يرسم مارسي مسافة بينه وبين الصور الجاهزة التي انطبع بها التأليف الفرنسي، ويعتمد إلى إشرارك القارئ في تتبع وصف

¹ - Decugis. Dr, Relation d'un voyage dans l'intérieur du Maroc, 1878.

² - وقتها كان السلطان الحسن الأول يقيم في مراكش عاصمة الجنوب، التي تبعد حسب مارسي بحوالي 25 يوم من السير عن طنجة.

³ - Marcet. Dr, Le Maroc: Voyage d'une mission française à la Cour du Sultan, 1885.

⁴ - ابتداء من سنة 1885 بدأ الرصيد الفرنسي حول مراكش يتعزز بنصوص جديدة. طالع بخصوص ذلك مقال موريس بالبولوغ في مجلة العالمين بعنوان: المغرب: ملاحظات وذكريات، 1885 الذي يُضمنه زيارته إلى مراكش.

Paléologue. M, Le Maroc: Notes et Souvenirs, 1885.

⁵ - حقيقة لا يمكن أن يتوافق تحقيق الخطاب مع التحقيق الكلاسيكي المعروف. كل المراجعات التحقيقية حاولت أن تعيد النظر في هذه الجزئية. تنطبق عبارة القرن التاسع عشر على التحولات التي عاشها المجتمع المغربي من احتلال الجزائر إلى إمضاء معاهدة الحماية (1830-1912). الحدث الأول أوجد خصما على الحدود، والثاني أشر على نهاية سلطة وبداية أخرى. وثمة محاولة ثانية أعادت القرن التاسع عشر إلى سنة 1790 التي تؤرخ لبداية عهد جديد من الاضطرابات السياسية والأزمات الديموغرافية والاقتصادية. يمكن العودة إلى: السبتي عبد الأحد، التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج، ملاحظات أولية، م س، ص 44: القبلي محمد وآخرون، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، الطبعة الأولى، 2011، ص 446.

⁶ - قبل رحلة الدكتور مارسي إلى جنوب المملكة الشريفة كانت الساحة الثقافية تحتفظ فقط بثلاثة نصوص حول فرنسيين زاروا مدينة مراكش. ويمكن أن ندرج حصيلة هذه النصوص ضمن غلاف الكتابات الانطباعية التي تغالي في رسم الكليشيهات والأحكام المسبقة.

الأحياء الضيقة، والأسواق المسقفة بالقصب، ومنازل الملاح، والقصب¹، وحدائق الأكدال².... مثلما ينتقل به حينما تسنح له الفرصة بذلك إلى وصف عروض الشارع، فرجات الساحة، والمواقع الأثرية. دون أن ينسى تضمين رحلته إشارات عن مناخ مراكش التي لا يكون فيها الطقس حارا إلا عندما تشرق عليها الشمس.

ج- غابريال شارم 1887: G. Charmes: رحلة في ثوب التاريخ.

غابريال شارم في الأصل محرر صحفي في Journal des débats كان قد ذاع صيته في الوسط الثقافي الفرنسي بدراساته العميقة حول السياسة الخارجية لفرنسا، وكذلك برحلاته إلى أقطار العالم الاسلامي في كل من تونس، فلسطين، وتركيا. ورحلته الموسومة بـ "سفارة إلى المغرب"³ من حيث المضمون تقطع مع التقليد الفرنسي ذي النفحة الغرائبية الذي كان قد استهل مع الرسام أوجين دولاكروا سنة 1832، وهي تدشن لولادة تقليد جديد سيظهر ثلاث سنوات بعد ذلك مع بيير لوتي سنة 1890. لا يجب أن نقرأ غابريال شارم من شُرفة العمل الرحلي فقط، بل يجب أن ننظر إليه من شُرفة العمل التاريخي المقارن⁴.

صادف غابريال شارم لحظة وصوله إلى طنجة أمطارا طوفانية لم تثر إعجابه. وكان أن قد خيم هذا الجو الكئيب عن طريقة الحكيم في رحلته من طنجة إلى فاس. لا يعثر القارئ في رحلة شارم عن مغرب آخر خارج مألوف السرد الغرائبي الفرنسي. سوّد معظم صفحاته بأفكار لا تخرج عن نعث البلد بالمتأخر والمتخلف.... "كانت الطرقات رديئة، والناس غير متحضرين، ومفتقرين إلى النظام وإلى اللباقة. تظهر عليهم العجرفة التي لا تتوافق مع خضوعهم المنحط الذي يظهر عند تقبيلهم أيادي السادة"⁵. لكننا نصادف مقابل هذا التجهم نوعا من التغني بسحر الجمال الطبيعي حينما يعبر نهر سبو ويتشوف نحو فاس. هنا يمتزج السرد بنوع من الإعجاب، وتظهر بساطات

¹ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، باريس 1936، تعريب حسن بحراوي، دار الأمان، الرباط، 2017، ص 131.

² - أكدال: كلمة أمازيغية من فعل "كُدَل" بتسكين الحروف الثلاثة. وتعني تبعا لذلك، الحماية والمحافظة والمنع أو التحريم. كما تفيد كلمة "إيكدال" أو "إيكدالن" المكان المحمي حماية مادية أو معنوية. مؤقتة أو دائمة. للاستفادة منه. تطلق كلمة أكدال على منطقة الحرم التي تجاور ضريح ولي. وتطلق الكلمة أيضا على المراعي التي يمنع فيها الرعي مؤقتا، كما أطلقت على الحدائق السلطانية بظواهر العواصم الكبرى، وتطلق أيضا على المروج المتناثرة على ضفاف الأنهار الجبلية المَحُوطة بسياج من الحجر حفظ من دخول المواشي إليها. وبما أن حياة أهل الجبل ارتبطت بمجالهم الرعوي، فإن تعاقب سنوات الجفاف وتدافع المجموعات البشرية حول المراعي جعل الأكدال مؤطرا بطقوس وأعراف وعقود من أجل تنظيم استغلال هذه الأماكن. يرجى العودة إلى:

أزايكو علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 108.

- Dresch, J, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du Grand- Atlas, Commentaire, Paris, 1941, p 18.

³ - Charmes, G, Une ambassade au Maroc, 1887.

⁴ - تقوده مشاهد الرحلة ووصف الاستقبال المهييب وطبائع السكان وعذرية الفضاءات إلى بناء استنتاج بمضمون تاريخي: حاضرا المغرب أشبه بماضي فرنسا.

⁵ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، م س، ص 133.

الزهور تُرُصع المروج خلال الربيع. وتتبدى فاس مثل عروسة عذراء "...ففي فاس كانت الشمس تصفو شيئاً فشيئاً، وكلما ازداد الضوء لمعانا، كان يبدو أن فاس تغادر مكمنها بين الجبال لتقترب منا، تصير الصوامع أكثر جلاءً، والجدران مشعة بالألوان، والأسقف الخضراء لقصر السلطان لامعة متألقة. كانت المدينة قائمة هناك، غامضة، تنسحب عندما تغطي غمامة عين الشمس، وتعود عندما ينقشع السحاب... ظللنا مشدودي الأبصار إلى فاس، إلى هذا المجهول الذي خلب لُبَّنَّا..."¹.

تتابع فصول الكتاب بالحديث عن شخصية السلطان مولاي الحسن، ووصف البلاط السلطاني والجيش والمخزن والحريم الملكي. كل ذلك في إطار مقارن مع تركيا. ويختتم الكتاب بحديث عن فاس وعادات أهلها. تبدو فاس في نهاية الحكي مدينة معزولة عن كل تأثير أوروبي، وأهلها يكرهون الأوروبيين ويجهلونهم... إذا ما قورنت بالقاهرة أو دمشق أو القيروان "...لا شيء يشكل مصدرا للتسلية في الحياة العربية التي تتوالى في كامل بدائيتها، فبعد أن يقضي المرء بضعة أسابيع في فاس فإنه يشعر بأن ابتعاده الجغرافي عن أوروبا لا يوازيه سوى ابتعاده عنها زمنياً..."². لا يكتفي غابريل شارب بنقل انطباعاته حول فاس، بل يحاول أن يقحم القارئ في ما هو حميمي داخل المدينة بتصوير لا يخلو من ذاتية فجّة "...ما إن توغلنا في الأزقة حتى بدا لنا أننا نتقدم في مدينة غريبة ومسكونة بالأشباح. كانت الأزقة بالغة الضيق، تعصب مرور شخصين أو أكثر في نفس الوقت. يُخيم عليها الظلام بشكل لا يصدق... أما النور الواهن للقناديل فكان يكفي بالكاد لإلقاء بعض الضوء على أقدامنا... عندما نعبر الأحياء الأكثر اكتظاظاً بالناس، أو في الأسواق المليئة بالحشود، لم يكن صمتنا بأقل عمقا... وكان الباعة وهم يمدون أشياء يحجم المشترون عن لمسها، والسقاؤون يحملون قراهم على ظهورهم من دون أن يفتحوها..."³.

يختتم الكتاب بمشاهد توجي بكابة حزينه خاصة في اللوائم التي دُعيت إليها البعثة. نبرات حزينة، وشعور خائر يمتزج بالضعف والهوان، وكأن شارب يكتب وصيته الأخيرة، ويحاول توديع قرائه بأخر نص رحلي.

ح- رحلة بيير لوتي: P. loti (1890)

قبل رحلة بيير لوتي كان الكونت دو شافانياك قام برحلة قصيرة الأمد إلى المغرب سنة 1885 حملت عنوان "خمسة عشر يوماً في وزان"⁴. وكان دو شافانياك قد رافق شريف وزان المحمي الفرنسي وقتئذ قبل أن ينتقل في رحلة ثانية نحو الحدود مع الجزائر. ترك دو شافانياك نصاً رحلياً تحت عنوان "مذكرات رحلة من فاس إلى الحدود

¹ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، م س، ص 134-135.

² - نفسه، ص 137.

³ - نفسه، ص 138-139.

⁴ - De Chevagnac. C, Quinze jours à Wazzan, 1885.

المغربية". سنة بعد ذلك، يُطلعنا الأرشييف الفرنسي على رحلة شخصية قام بها المهندس المدني دو كامبو De Campou في إطار شخصي حملت عنوان "امبراطورية تنهار"¹ يعرض فيها دو كامبو آراءه حول نظام الحكم في المغرب ونظرة عن اقتصاد البلاد.

نأتي إلى رحلة بيير لوتي حول المغرب سنة 1890 التي لا تخرج عن سلسلة رحلات الأدب الغرائبي المعاصر؛ لكن الشهرة التي حازها مؤلف هذه الرحلة ضمنت لها حضوراً أقوى في الوسط الثقافي الفرنسي، وجعلت البعض ينتصر لفكرة أن لوتي هو من أدخل المغرب بصورة فعلية حظيرة الأدب الفرنسي². شهرة لوتي ارتبطت في تعرف القارئ الفرنسي عليه من خلال ست روايات تنسجت بسرد روائي حزين، ونفس حالم متهور بفتنة الحكي. وقبل ذلك، لا يتعلق الأمر، بوصف انطباعي، بل بملاحظ ومدقق ينقل تفاصيل دقيقة عن الأرصاد الجوية في المغرب.

وفد لوتي إلى المغرب سنة 1889 صحبة الوزير الفرنسي المفوض باتنوتر أنثذ في سفارته إلى فاس، ومنها سيطلع على القارئ الفرنسي بكتاب سينشر سنة 1890 تحت عنوان: "في المغرب"³. ينقل فيه انطباعاته وملاحظاته حول مغرب نهاية القرن التاسع عشر. لا يعير لوتي كما يصح في مدخل الكتاب بتفاصيل البعثة الديبلوماسية للسيد باتنوتر، ولا بمعاش السياسة في البلاد ومستقبلها، بقدر ما يشرك القارئ في لعبة اكتشاف عمق هذا "...البلد العجوز، المغلق والمتحجر تحت الشمس، باتجاه المدن الكبرى النافقة التي يُهددها همس الصوت الخالد"⁴. لهذا يبدو الكتاب رغم خلفيته المعلنة أول كتاب وصفي خالص عن مغرب ما قبل الاستعمار.

في الطريق من طنجة إلى فاس، يتوقف لوتي عند مشهد "المونة" التي تؤديها القبائل للسفارة عند العبور، وهي أطعمة محلية توضع في جرار من الطين، وتتضمن زبدة الماعز، وقلالا من الحليب، وسلالا من البيض، وأقفاصا تغص بالدجاج، وبغال تحمل الخبز والبرتقال، وخرفان مربوطة من قرونها مهيأة للذبح. فهل يتعلق الأمر في نقل هذا المشهد بوفرة غذائية مؤقتة؟ أم بتكلف فوق الطاقة لتمويل حاجيات البعثة؟

يرافق هذا المشهد وصف لوتي لحقول القمح والشعير الخضراء، والبساطات الخضراء الفسيحة الموشاة بصنوف الألوان خلال فصل الربيع. وقد ينقلب المشهد إلى نقيضه، ويرتد على عقبيه: "...على هذه الضفة تتغير طبيعة التربة والنبات بشكل كامل، فبدل الأرض الرملية وأزهار الزنايق سنصادف الآن باندعاش تربة خصبة سوداء اللون مثل تلك التي نجدها في السهول النورماندية، وهي مكسوة بطبقة كثيفة من أزهار السلجم والأذريون والخبازي نغوص

¹ - De Campou. L, Un Empire qui croule, 1886.

² - لوپيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، باريس 1936، م س، ص 141.

³ - Loti. P, Au Maroc, 1890.

⁴ - لوپيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، م س، ص 142.

فيها إلى الركب طالما هي غزيرة وكثيفة. كانت الشمس قد شارفت على الغروب فصار ضوءها صافيا وهادئا، وبالنظر إلى خطوط الأفق المستقيمة والمتصلة يتهيا لنا أننا في منطقة بحرية. إن بحرا هادئا لا يكون أكثر استواء من هذا السهل المتوحش الذي يمتد على مسافة ستين كيلومترا. وعلى جهة واحدة فحسب في أعلى هذه البراري المعشوشبة تبدو سلسلة من الجبال المتصاعدة التي تشبه إكليلا من الزهر ذا لون أزرق براق. وفي الخلفية البعيدة تتلون الأرض كليا بالأزهار الصفراء في لون الذهب، بينما تصطبغ السماء الخالية من الغيوم بصفرة مخضرة شاحبة. وتهب ربح المساء البارد على هذه البرية المكسوة بأزهار الأذريون والخبازي، فتبعث فينا قشعريرة بعد شمس النهار الحارة، وتغمر مكان إقامتنا كآبة يوم شتوي...¹.

يمزج لوتي في توضيب المشهدين بين دقة الملاحظة وبلاغة التصوير. وكأنني به يقترح الصورة، ويترك الحلم يتواصل في الذهن. وكلما زاد ابتعاده عن طنجة وظهيرها، كلما تضاعف الإحساس عند القارئ بالانقطاع عن العالم المعاصر، والتوغل في رحاب هذا المغرب القاتم² الذي يضفي مسحة من الخوف على الجميع لاشتهار قبائله بالنهب والعناد والتمرد على السلطان...عالم يُذكر بالعصر الوسيط الأوروبي حسب بيير لوتي.

يُذكر بيير لوتي مغرب نهاية القرن التاسع عشر بغطاء العناقة والشيخوخة، ويظهره في ثوب المتمسك بتلابيب القرون البائدة التي لا تزال تفعل فعلها في كل معالمه، أسوار متداعية، وبيوت متهالكة، وأحجار متلاشية الزوايا. حينما نلقي نظرة على الفصول الختامية للكتاب، نستطيع أن نسلم بيير لوتي برائد الغرائبية المغربية في اكتمالها النهائي إن على مستوى الشكل، أو على مستوى اللون والمضمون.

وحتى تتدقق الصورة أكثر نترك للقارئ أن يحكم على هذا المقطع الأخير من رحلة بيير لوتي: "...أهمها المغرب المعتم، ابق ما وسعك ذلك مُسورا ومُحصنا ضد المحدثات الجديدة، وأدر ظهرك إلى أوروبا، وتجمد ما استطعت في لحظات الماضي، نم طويلا وواصل حلمك القديم، على الأقل لكي تبقى آخر بلد يؤدي فيه الناس الصلاة...وليحفظ الله (وردت بالصيغة العربية) للسلطان قبائله المتمردة على سلطته، وأراضيه المفروشة بالزهور، وبواديه المغمورة بنباتات البرواق والسوسن، لكي يمارس فرسانه في فضاءاتها الفسيحة رشاقتهم وهم يعدون بخفة على ظهور جيادهم القوية، ولكي يحارب على أديمها كما في الماضي عصابات المغامرين ويجز رؤوس الخارجين عن القانون. ليحفظ الله لهذا الشعب العربي أحلامه الروحانية، وأسماله القاتمة، ونظرة

¹ - لوبيل لوران، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، م س، ص 145-146.

² - نفسه، ص 146.

الاستخفاف التي يرمق بها العالم... ليحفظ للمزامير البدوية صوتهما الحزين الذي يبعث على الارتعاش، وللمساجد العتيقة أسرارها المنيع، وللأطلال أكفانها الجيرية البيضاء...¹.

6- البورتريهات المائية: محاولة في التركيب

ركز المتن الاستوغرافي الفرنسي بشكل مكثف على وصف المادة المائية في مغرب ما قبل الاستعمار؛ وتكررت باستمرار عبارات جغرافية ذات مضمون مائي بين ثنايا هذه النصوص مثل الواد والنهر والسير والعمق والقعر والمجرى... ومعلوم أن تحليل التعبيرات المائية داخل الخطاب الاستوغرافي الأجنبي في مغرب ما قبل الاستعمار وحتى بعده يلقي بمعلومات علمية ثرية قد تعيد النظر في جملة من الفرضيات الاقتصادية والانتاجية التي راكمها البحث الاجتماعي حول المغرب. لا يجب أن تختزل المادة المائية في معطيات جغرافية وفقط، بله في سياقات تفاعلية أنتجت نمطا مائيا بصفاف الأنهار والأودية والمجاري، وأبدعت في تشكيل بنيات اجتماعية واقتصادية وسياسية لا تزال عصية عن الإدراك والتحليل من شأنها في الراهن المغربي أن تساهم في هندسة مشاريع الإعداد والتهيئة².

منهجيا، تكشف هذه النصوص عن تفاوت في التناول، فبقدر ما نعاين كثافة التعبيرات المائية في رحلتي دوفوكو ودوسيكونزاك، نصطدم بتقلصها في رحلتي بريف ودوتي. فعلام يحيل ذلك؟ لربما قد تجد المسألة تفسيرها في اختلاف الانتماءات العلمية للمستكشفين (دوفوكو جغرافي- بريف جيولوجي- دوتي اثنولوجي...)، وحده هذا التعدد في حاجة إلى قراءة تركيبية قادرة على توضيب المشهد المائي في علاقته بالمتغيرات التاريخية. وفي مستوى ثان، قد تنسحب هذه الكثافة على التوصيفات المائية لشبكة الأودية والأنهار: عرض أو ضيق الوادي، عمقه وتياره، لون الماء وطعمه³، استعمالاته، مكوناته المعدنية⁴، وتكوينه الطوبوغرافي... وقبل ذلك، لم تتردد هذه الأدبيات الاستكشافية في كل مناسبة التذكير بالوضع السياسي الذي كان يُخيم على لحظة عبور الأودية والأنهار، مثلما لم تتردد في لفت انتباه الرأي العام السياسي إلى الوحدات السياسية والاجتماعية التي كانت تشيع سيطرتها عليها⁵. هكذا يصادف القارئ على الدوام عبارة تحيل على سيادة بعض الوحدات السياسية على الماء، وإلى اعتبار الأنهار والأودية معالم

¹ - لوبيل لوران، م س، ص 151.

² - أنظر ندوة: الماء ورهان التنمية المستدامة، دراسات مجالية جهة مراكش تانسيفت الحوز، العدد 6، تنسيق محمد أيت حسو وعبد العزيز يحيوي، سلسلة ندوات ومناظرات، مجموعة البحث حول التديير الجهوي والتنمية الترابية، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الانسانية، أبريل 2012.

³ - "...هذا الماء مالح، لهذا يفضل سكان المنطقة شرب ماء الأمطار والتي تحفظ في حفر بعض الصخور..." يتعلق الأمر بنهر تيسنت. انظر: دوفوكو شارل، التعرف على المغرب، ترجمة المختار بالعربي، م س، ص 17.

⁴ - واد القصبوب قليل المنغنيزيوم.

Brives. A, Voyages au Maroc, op.cit, p 84

⁵ - نموذج واد نفيس كجزء من سيادة القائد الكندافي

Doutté. E, En tribu, op.cit, p 207.

حدودية بين أسياذ الأطلس، وفي جانب مواز تم استدراج القارئ إلى توضيح مسألة سهولة أو صعوبة عبور مجاري الرحلة، وتقديم معطيات حول القياس التناسبي لكمية المياه، وإشارات حول وجود قناطر من عدمها في اجتياز مياه الأودية والأنهار.

سبق للإثنولوجي إدموند دوتي في كتابه "بين القبائل" أن نبّه إلى تفصيل جوهري. ينصرف القصد نحو قضية تغيير أسماء الأودية بتغيير مجال جريانها، أو عند التقائها برافد جديد (الشكل رقم 31): "...إن الأنهار في شمال إفريقيا تغيير اسمها في كل لحظة وخصوصا عندما تلتقي برافد جديد..."¹. وفي بعض الأحيان، حينما لم تسنح الفرصة بتدقيق المعلومة الجغرافية يتشفع المستكشفون بمحاورة الأهالي لمعرفة منابع وروافد بعض الأودية والأنهار. وقد يأتي ذكر لبعضها قربنا لفضاءات للاستراحة من مشاق التنقل، كما في حالة دوتي مع مصب وادي تساوت ودمنات². عموما، لقد وقفت هذه الرحلات الاستكشافية عند صعوبات اجتياز بعض الأودية والأنهار في مغرب ما قبل الاستعمار. وفي الغالب الأعم خضعت هذه الرحلات للمسار الطبيعي الذي شكلته الأودية والأنهار، ما جعلها تنقل جانبا من الغطاء النباتي على ضفافها، وبعض الزراعات التي يفلحها السكان المحليون، وأسماء القرى والمداشر التي تقطن بجوارها وحتى الأسواق والمواسم والأضرحة³. وفي بعض المقاطع صوّرت مشاهد من فيض بعض الوديان التي كانت تفرض توقف السفر. جزء من هذا المشهد نجده في رحلة بريف بخصوص واد تانسيفت "...كان التيار قوي، ونحن قلقون على باقي سفرنا..."⁴. لقد كان اجتياز هذه الأودية والأنهار مناسبة لرسم خطوط السيادة بين القواد والزعامات المحلية كما في حالة واد نفيس الذي يشكل حد فاصلا بين مجال سيادة الكلاوي ومجال سيادة المتوكي⁵، وواد أيت سميح كحد فاصل بين نفوذ الكلاوي والكندافي⁶.

¹ - Ibid, p 208.

² - Ibid, p 224 - 225.

³ - أرسل دوتي بعد شغله عدة مهام في الجزائر في أول مهمة له إلى المغرب، طالت به هذه الرحلة سنة كاملة 1900-1901، وكان حينها يتشوف بدعم مباشر من مصلحة التعليم العمومي والشؤون الخارجية إلى دراسة المناطق التي بقيت دون اتصال ب "التحديث الفرنسي" في إطار عمل استخباراتي واضح. توسل دوتي بأسلوب الوساطة المحلية من خلال اعتماده على مرافقين مثل سي علال العبدوي وسي بومدين بن زيان في التعرف على قبائل المغرب. الحاصل، لا يمكن أن نفعل عن كون جل مؤلفات دوتي تقترب من التحليل الإثنوغرافي أكثر منها أكثر أبحاث تنتمي إلى علم الاجتماع؛ أبحاث وصفية/ ميدانية منها تفسيرية. يصدق هذا التحليل على كتاب مراكش 1905م؛ الذي يتقضى مسار رحلة ابتدأت من الدار البيضاء إلى أبواب مراكش مروراً بالشاوية ودكالة والرحامنة، لكننا أمام عنوان خادع لا ينطبق عنوانه على مضمونه. بالنهاية، الكتاب تجميع لرحلات، لا رحلة واحدة، وأزمة لا زمن واحد، وهناك حلقة مفقودة بين كتاب مراكش وكتاب بين القبائل. أنظر مقدمة المترجم في كتاب دوتي إدموند، مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، مرسوم، مطبعة أبي رقراق، 2011، ص 5-15.

⁴ - Brives. A, Voyages au Maroc, op.cit, p 241.

⁵ - Douité. E, En tribu, op. cit, p 336.

⁶ - De Segonzac. M, Au cœur de l'Atlas, op. cit, p 194.

الشكل رقم 29: جدول: الأوصاف المائية في الرحلات الفرنسية¹:

الرحلة	استكشاف المغرب: شارل دوفوكو	رحلات إلى المغرب: بريف	في قلب الأطلس: دوسيكونزاك	بين القبائل: دوتي
موضوع الوصف	قياسات سرير الواد (العمق - العرض) طعم الماء ولونه المجرى المائي روافد الأنهار	طريقة العبور (قنطرة- جسر- دابة...) قياسات سرير الواد المجرى المائي منبع الواد ومصبه	مسارات الأودية بين الجبال والسهول والهضاب عالية وسافلة الواد منبع ومصب الواد مجري الأودية	طريق الواد تجمعات قائمة قرب الواد (قرى- زوايا- أسواق...) التيار المائي (ضعيف- قوي) روافد الأنهار والأودية
	مسارات الأودية والأنهار (السهول - الجبال) منايع الأنهار ومصباتها استعمالات مياه الأودية (الشرب- السقي...) أماكن حملت اسم الواد (أسواق- قرى- زوايا...) أهمية وحجم الواد	مكونات الماء (المنغنيزيوم) أنشطة قرب الأودية (السوق) أهمية المجرى (العمق، العرض...) مقارنة بين الأنهار (الحجم- الأهمية...) تغير أسماء الأودية	التقاءات الأنهار قياسات السرير التيار المائي (قوي- سيل- جاف...) الزراعات بجانب الأودية الأودية كمسالك طرقية وجود الأسماك في الأنهار الأنهار كمجالات حدودية ومعالج مجالية للسيادة السكنة المجاورة للأودية (الأصول، اللغة...)	الماء المقدس سرير الواد (عميق- ضيق) تغير أسماء الأودية مجرى الواد وقعر الواد منبع ومصب الأودية والأنهار الأودية والأنهار كمجالات حدودية
	طريقة عبور الساكنة المجاورة	مسارات الأودية روافد الأنهار والأودية		

¹ - البيار عبد المالك، الأنهار والأودية في الرحلة الفرنسية الاستكشافية إلى المغرب (1883- 1912) / (1300- 1330) دراسة حالة رحلة شارل دوفوكو، تحت إشراف المنصف الكريسي، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الانسانية، مراكش، السنة الجامعية 2017- 2018، ص ص 164- 165.

الشكل رقم 30: جدول: بعض العبارات الواصفة في الرحلات الفرنسية¹

الأنهار	العبارات الواصفة			
	دوفوكو	بريف	دوسيكونزاك	دوتي
واد نفيس		منخفض قوي يشكل أصل واد أغبار الذي يعد رافدا رئيسيا لواد نفيس	يغير السهل مظهره بجوار واد نفيس	من هنا انطلقت قبائل مصمودة نحو وادي نفيس على سهل مراكش
واد تساوت	لم أصادف بتاتا مياه ذات قيمة مقل نهر تساوت، كان عرضه 15 م، وعمقه 80 سم، مياه صافية، تيار سريع، سرير، ذات انحدار منتظم علوها ما بين 1 و 1,5 متر.		بلغنا تساوت، وهو واد بعرض ثلاثين مترا، وعمق يقدر بثمانين سنتمتر. هذا الواد صاف وبارد وسريع، سريره محصور بين حافتين يبلغ ارتفاعهما حوالي أربعين مترا.	واد تساوت ذو سرير ضيق، يتعمق كثيرا من السهل، يجري به حاليا قليل من الماء، لكنه عنيف، ويعتقد انه من الصعب أو المستحيل عبوره هنا في الفترات المطيرة من السنة.

وقد نصادف أحيانا بين ثنايا هذه الرحلات أوصافا تقنية لبعض الأنهار والأودية حول قياس السرير من حيث العرض والعمق، ووصف المكونات الصخرية، وتقدير التيار المائي ومجرى المياه... وإذا ما تم تركيب هذه الأوصاف بمنهجية نسقية فإنها قد تفضي إلى تشكيل صورة متكاملة عن عمق المياه وجريانها واستعمالاتها ضمن فترات زمنية متقاربة. وبقدر ما قد تكون صورة متطابقة في أوصاف، بقدر ما قد تكون متعارضة في أخرى. فمثلا واد تساوت الذي خصه الرحالة الفرنسيون بفائق العناية والاهتمام قدر دوسيكونزاك عرضه ب30 متر، ودوفوكو ب15 متر. والأمثلة كثيرة في هذا الشأن.

الشكل رقم 31: جدول: أودية وأنهار الأطلس الكبير في مرآة رحلة إدموند دوتي "بين القبائل".²

المادة المائية	الوصف	المنطقة أو المدينة	تاريخ الزيارة	صفحة الكتاب
واد إسيل	خلال مسيرتنا بجاني واد إسيل	ضواحي أغمات	فاتح ماي 1901	3
واد أغمات	بقينا بشكل متواصل قرب الساقية الكبيرة، القناة القادمة من أوريك	أوريكة	-	9

¹ - البيار عبد المالك، الأنهار والأودية في الرحلة الفرنسية الاستكشافية إلى المغرب، م س، ص 168-169.

² - تم الاعتماد في هذا الجدول على بحث الطالب الباحث البيار عبد المالك، الأنهار والأودية في الرحلة الفرنسية الاستكشافية إلى المغرب (1883-1912) / (1300-1330) دراسة حالة رحلة شارل دوفوكو، تحت اشراف المنصف الكريسي، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الانسانية، مراكش، السنة الجامعية 2017-2018، ص ص 94-100.

Doutté. E, Missions au Maroc, En tribu, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1914.

			تؤدي إلى حدائق السلطان، ومن واد أغمت تنبعث نسائم خفيفة.	
12	-	نفيس	نفيس تقع تقريبا عند تقاطع وادي تانسيفت ونفيس	واد تساوت - واد نفيس
22	2 ماي	-	بمدخل مضايق واد أغمت، "قم الواد" مهيم ببعض آلاف الأمتار من قمم الجبال الثلجية.	واد أغمت
23	-	واد أوريكّة	بالواد، وبعبدا عن أي قمة حادة نلاحظ أطلال تازريموت.	واد أوريكّة
30	-	أغمت	يذكرنا الحبيب أم منبع واد أغمت يوجد في بحيرة أو "كلثة" تسقي إفني، يخرج منها ثلاثة أنهار: واد الزات بالشرق، واد أغمت بالوسط، وواد نفيس بالغرب.	واد أغمت واد الزات واد نفيس
34	-	مسفيوة	مدخل مضايق واد مولاي ابراهيم التي يسمى هنا واد غيغاية	واد مولاي ابراهيم واد غيغاية
40	4 ماي	زاوية مولاي ابراهيم	أسفل موقع الزاوية، قطعنا سرير واد مولاي ابراهيم	واد مولاي ابراهيم
41	-	زاوية مولاي ابراهيم	الطريق شاق كثيرا، خلال هذه الفترة يجري ماء قليل في الواد لا يصل حتى المستوى الأدنى.	واد مولاي ابراهيم
43	-	أسني	بعد مرورنا دون توقف من أمام أسني، تركنا واد مولاي ابراهيم وواد غيغاية من اجل صعود أحد روافده القصيرة.	واد مولاي ابراهيم واد غيغاية
44	-	نواحي أسني	مررنا بحوض واد نفيس	واد نفيس
47	-	قرية ورغام	أخيرا وصلنا واد نفيس، عند المصب حيث توجد قرية "وركّم" التي كانت سابقا جزءا من تراب القائد	واد نفيس

			الكندافي.	
48	-	قصبة الكندافي (تكاديرت البور)	في الجهة الأخرى للواد، على هضبة صغيرة وعلى مقربة منها توجد منازل محيطة بالقصبة.	واد نفيس
50	-	قصبة الكندافي	عندما يسقى هذا الواد (نفيس) معامل سوداء تقضي على الأجسام البشرية	واد نفيس
64	6 ماي	تينمل	من هنا انطلقت قبائل مصمودة نحو وادي نفيس على سهل مراكش	واد نفيس
86 - 87 - 88.	-	قصبة الكندافي	يحكي لنا سي الطيب أن طالبا سوسيا جاء للبحث عن الكنوز بواد نفيس بمنطقة تسمى " تودما فكوم" تم رميه بعنف في واد نفيس تم إلى واد نون، وبعد 18 يوما من السير على الأقدام تم ايجاده وحمله إلى بلده.	واد نفيس
92		كندافة	في واد أكوندار ليس في فترة محددة من السنة الهجرية، بل في شهر غشت من السنة الميلادية	واد أكوندار
123			عندما طرد المرابطون المتعصب الجديد (المهدي بن تومرت)، سلك هذا الأخير طريقه في الجبال، يا لها من أحلام اصلاحية ومشاريع انتقامية...لقد تسلقوا منحدرات واد نفيس.	واد نفيس
152	9 ماي	قرية تزاكة	من هننا يبدأ واد أنوكال الذي اتبعنا فيه السهل من اجل الصعود إلى حوز مراكش	واد أنوكال
158	-	دشر تيمزار	الواد لا يمكن أن يوصلنا إلى الطريق بسبب عمق مياهه وطبيعة سريرة	واد أنوكال

158	-	سهل مراكش	يسعى هنا واد أمزميز، لأن الأنهار في شمال إفريقيا تغير اسمها في كل لحظة وخصوصا حينما تلتقي برافد جديد	واد أمزميز
164-163	-	مسفوية	خلال هذه المرحلة الصعبة لم نقطع فقط واد إسيل، ولكن تجاوزنا إلى واد أوريككة وساقية السلطان، ثم واد مسفوية، وأيضا بعض الأنهار التي لا توجد أسماؤها بخرائطنا. كانت كلها ذات خصائص مشتركة: قاع عريض، عميقة جدا، مفروشة بالحصى ولا يوجد بها ماء.	واد إسيل واد أوريككة واد مسفوية
178	-	زاوية سيدي رحال	واد غدات كان أيضا نهرا كبيرا مشتعلا كالنار، حيث كان الولي يقطعه حافي القدمين، لكن قدماه كانتا باردتين وتبردان ماء النهر.	واد غدات
207	-	دمنات	واد تساوت ذو سرير ضيق يتعمق كثيرا في السهل، يجري به حاليا قليل من الماء، لكنه عنيف، ويعتقد أنه من الصعب أو المستحيل عبوره هنا في الفترات المطيرة من السنة.	واد تساوت
207	-	-	يصب واد تساوت في واد أم الربيع الذي عبرناه	واد تساوت
225 -224	-	قلعة السراغنة	بعد ستة ساعات من السير ببطء على الأقدام، نصبنا خيامنا بالقرب من مصب واد تساوت وواد دمنات، ليس بعيدا من زاوية سيدي عيسى بن سليمان، التي تبعد حسب الأهالي بنفس المسافة عن القلعة ودمنات.	واد تساوت واد دمنات
237	11 ماي	كدمية	عبرنا واد عكار ونحن نتبع الحدود الشمالية لكدمية وأولاد مطاع	واد عكار

249 - 248	-	سكساوة	عبرنا الآن الجبال التي مرمها الرحالة أبل بريف A. Brives ويمتد بين واد إدويران وواد امتنانوت	واد إدويران واد امتنانوت
258	13 ماي	حدود متوكة وأفيغن	واد أمزماز هنا هو الحد بين متوكة وأفيغن	واد أمزماز
336	2 يناير	أيت ايمور	يفصل واد نفيس حاليا التراب الخاضع بين القايد الكلاوي عن ذلك التابع لمتوكة	واد نفيس
339	4 يناير	-	واد أيت سيميك رافد واد زكموزن الذي يحد مناطق الكلاوي والكندافي	واد أيت سيميك واد زكموزن
345	-	شيشاوة	السهل الكبير والخصب لواد شيشاوة	واد شيشاوة
370	226 ماي		نحن بسهل واد تانسيفت على الجانب الذي توجد به زاوية سيدي عيسى بوخابية	واد تانسيفت
422	25 يونيو		المضيقان الأخيران اللذان يعبران الأطلس الكبير واد غريس يخرج من المضيقي الأول، بينما يخرج واد زيز من الثاني	واد غريس واد زيز

7- آدموند دوتي: طقسي الاستمطار والاستجفاف في حوز مراكش:

بحكم خلفيته الاثنوغرافية رصد إدموند دوتي في كتابه مراكش الصادر سنة 1905 طقوس المطر في الجنوب المغربي التي تقام إما بغرض استجلاب المطر، أو طلب تغيير الأحوال المناخية. وعند كثير من المجتمعات البدائية كثيرا ما وسم الإثنوغرافيين هذا الطقس بالتعارض بين الفصل الساخن والفصل البارد، أو الصراع بين فصلي الشتاء والحر. وربما هذا ما تومئ إليه أصوات الصباح التي ترافق طقوس الاستمطار. كان الناس في مراكش يقبلون أيام عاشوراء على طقس رش الماء لحظة استطالة الجفاف، نفس الأمر في مازغان والشيظمة أيام عيد المولد النبوي التي يأخذ الناس يتراشون بالماء إلى أن تبتل ثيابهم، وقد وقف أوبان عند الفاسيين على طقس جمع سبعين

ألف حصى في سبعين ألف كيس تم يسدونها ويتلون عليها من آيات القرآن في أحد الأضرحة، ويلقون بها في وادي سبو¹.

لا يعدو الأمر أن يكون سوى طقوس سحرية توظف لاستدراار الماء، مثل ما وجدت أيضا في المجتمعات الأوروبية من خلال تغطيس تماثيل القديسين في الماء²، أو حتى عند الشانات من خلال غطس تماثيل بودا، وعند الرومان بغطس دمية في واد تابير.

يرتكز هذا الطقس في الجنوب المغربي على عملية التراش بالماء، وتسمى هذه العملية بـ"حليلو". تفصيل هذا الطقس على النحو التالي: "...إذا استطال الجفاف واشتدت وطأته احتشدت النساء والأطفال وأخذوا مغرفة (تاغنجة) وشدوا إليها قصبة طويلة الى القصبة قصبة أخرى صغيرة على هيئة صليب، ويفرغون فيها من أجمل الألبسة النسائية التي يجدونها في الدوار، ويكون فيها قفطان الحرير وسبنية الحرير...تم يجعلون يطوفون بها في الحقول، وتسير ترافقها النساء والأطفال وهم يرمونها بالماء ويرشون بعضهم بعضا، ويرددون³:

تاغنجة حلات راسها

يا ربي بل خراسها

تاغنجة يا مرجة

يا ربي اعطينا الشتا⁴

ما دلالة الدمية في طقس تاغنجا؟ توصل جيمس فيزر إلى أن الدمية التي يفرغ عليها اللباس تدخل ضمن سجل الطقوس السحرية التي يُتوسل به لزيادة قوة الروح الكامنة في الحب¹. وهو ما عثر عليه دوتي في قبائل بني خنوس

¹ - Aubin. E, Maroc d'aujourd' hui, op. cit, p417.

² - Frazer. J, Golden Bough, I, p 111.

³ - دوتي إدموند، مراکش، ترجمة عبد الرحيم حزل، م س، ص 384.

⁴ - وردت في الصيغة الفرنسية على النحو التالي:

Târounja hallet râsha

Târounja a dénoué ses cheveux

Ya rebbi bell khrasha

O mon Dieu, mouille ses boucles d'oreille

Târounja ya morja

Târounja Ô notre espérance

Ya rebbi atîna chta

O mon Dieu, donne- nous de la pluie

والشلف في الجزائر. نفس الأمر عند قبائل جباله في الريف الذين يطوفون في أواسط فبراير في الحقول وهم يحملون دمية قد ألبسوها من الثياب الفاخرة ويسمونها ماطا². وقد أضاف كودار Godard أن الدمية تُحرق بعد الانتهاء من الطواف، بيد أنها تبدو إفادة مشكوك في صحتها، وتتطلب إلى ما يسندها من وقائع وقرائن. وعند الرحامنة هناك طقس يسمى بطقس الحبل، "...تقف النساء على جانب من الحقل والرجال على جانب آخر، ويأخذون يجذبون في ما بينهم حبلا إلى أن ينقطع وحينذاك يجعل المتفرجون يرشون الفريقين بالماء إلى أن يبتلا، ثم يجتمعون على كسكس³".

عند دوفوكو، كان بعض الرجل في جنوب المغرب إذا خرجوا في غزواتهم حملوا معهم أولياءهم ليتبركوا بهم، فإذا لم يوفقوا إلى ما يريدون أنحوا عليهم بأحط السباب وشنيع الشتائم⁴. وفي مراكش كان الناس إذا اشتد بهم الجفاف توجهوا إلى سيدي بلعباس وجعلوا غطاء على أحد الشمعدانات التي تضيء الولي دلالة على الحط من قدره. وعند أهل الرحامنة لحظة استطالة الجفاف يخرج الناس للبحث عن الأولياء من أجل الدعاء لهم بجلب الماء. هذه الحالات وغيرها، هي التي تجعل الطلب يكثر على الأولياء في لحظات الجفاف.

تبعا لذلك، يتوشح طقس الاستحمام في مناطق الجنوب المغربي بدلالاتين رمزيتين: أولاها بتعذيب الشخص الموقر بسبب إخلاله بوظيفته، وثانيها بالتوسل لجلب واستدراار الماء. هذه الدلالاتين ترافقهما طقوس فلاحية مصاحبة في جل المناسبات الفلاحية.

في عموم الحواضر الكبرى كان الناس يلجؤون في لحظات الجذب والاستجفاف إلى إحياء صلاة الاستسقاء، وهي صلاة تقام على صورة واحدة في عموم البلاد بطلب من السلطان. يلجأ الناس إلى قلب ثيابهم بناء على حديثين أوردهما البخاري في صحيحه⁵. وفي العادة تقام بالقرب من الأضرحة والأولياء، ترفقها وليمة جماعية تسمى "الموسم". ويجري في أعقابها ذبح وليمة سوداء اللون لطلب الأمطار، وفي منطقة الحوز يجري في هذا الطقس رش الأطفال بالماء، وفي الشياظمة تتم كتابة بعض الآيات القرآنية وتعلق على لوح في المسجد وتترك هناك طالما احتجب المطر. على مستوى الذهنيات، انشطرت ذهنية العامة إلى مستويين في التفكير، دنع البعض إلى ربط انحباس المطر

¹ - Frazer. J, Golden Bough, I, p 192.

² - Drummond Hay, Maroc et ses tribus, op. cit, p 30.

³ - دوتي إدموند، مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، م س، ص 387.

⁴ - De Foucauld. Ch, Reconnaissance, op. cit, p157.

⁵ - حدثنا اسحاق قال: حدثنا وهي قال: أخبرنا شعبة عن محمد عن أبي بكر عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم استسقى فقلب رداءه. وحدثنا علي بن عبد الله بن أبي بكر أنه سمع عباد بن تميم يحدث أباه عن عمه عبد الله بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المصلى فاستسقى فاستقبل القبلة وقلب رداءه وصلى ركعتين...صحيح البخاري، ج1، ص 238، ضمن هامش المترجم، الإحالة 260، ص 425.

بحضور المسيحيين في بلاد العالم الاسلامي، وذهب البعض إلى طلب المسيحيين الدعاء للمسلمين من أجل هطول المطر.

وبقدر ما همّ تفكير الأوروبيين في طقوس الاستمطار عند المغاربة مثلما نعاينه عند دوتي وألفرد بيل، بقدر ما انصرف تفكير الاثنولوجيين نحو طقوس الاستجفاف بغرض منع الأمطار. كان الرحالة والبغالة والمرافقون للمواكب والقوافل يأخذون ابريقا من الفخار كان قد حوى من قبل زيتا ويجعلونه تحت سقف قد اخترقه المطر ولا يزال يرشح منه الماء أو يضعونه تحت خيمة، في موضع ينفذ منه الماء ويتساقط قطرات على الأرض، فإذا امتلأ الابريق قاموا بدفنه في التراب فتقطع الأمطار. وبما أن أهل مراكش أهل تشجير النخيل، فقد كانوا شديدي التوجس من الأمطار الفائضة، وإذا أرادوا وقاية أنفسهم الطقس السيء أخذوا غرابا وبقاؤا عينه تم شدوه إلى نخلة. وفي سبيل ذلك، لجأ المراكشيون إلى صناعة محراث خشبي صغير يشدون إليه قطا ويجعلون يحرثون به الحقل، فيكون وقف للأمطار. لا غرو أن تحدث المماثلة في هذا الطقس مع عديد من المجتمعات البشرية التي كانت توظف المحراث والقط لتوقيف سقوط الأمطار¹.

8- أبل بريف A. Brives: خمس رحلات ومضمون واحد.

في خضم تحقيق السبق الفرنسي في استكشاف معالم المجال المغربي، وفد أبل بريف A. Brives من الجزائر نحو المغرب، وقد استعان بالخرائط العسكرية التي أنجزها الضابط لاراس، وتزود بمعدات جد متطورة (ساعة، بارومتر، بوصلة) أهله بعد خمس رحلات إلى المغرب من وضع خريطة جيولوجية. في الواقع، تتضمن هذه الرحلات إشارات ثرية عن نباتات المغرب، ومعطيات عن الطبقات الجيولوجية وخاصة الطبقات الفوسفاتية التي ستستثمر في مغرب الحماية. الرحلة الأولى: زمنيا انطلقت هذه الرحلة من يوم 3 دجنبر 1901 واستمرت إلى 25 فبراير من سنة 1902. انطلقت من الدار البيضاء وعبرت عدة مدن مغربية: مراكش – مازاغان- الرباط - فاس - مكناس...بينما الرحلة الثانية: بدأت يوم 23 يوليوز 1903 إلى غاية 7 أكتوبر من نفس السنة. جابت مناطق مוגادور والشياطمة ومنتانوت ومزوضة وتامصلوحت ومسفيوة قبل أن تعود إلى مراكش ومنها إلى عبدة ومازاغان. وكانت الرحلة الثالثة التي امتدت من 3 يناير إلى 30 ماي من سنة 1904، وهمت مدن الشمال مثل تطوان ووزان وفاس والعرائش...وفي مرحلة ثانية أسفي وجبال سكساوة وإدواتنان وسوس...ورابعة: ما بين 15 غشت و10 أكتوبر 1905، شملت العودة إلى مناطق من مراكش ومازاغان. وخامسة: 10 نونبر إلى 24 يوليوز من سنة 1907، تنقل فيها بريف في موغادور والشياطمة.

¹ - دوتي إدموند، مراكش، م س، ص 390.

الشكل رقم 32: جدول: أنهار وأودية الأطلس الكبير من خلال رحلات أبل بريف¹ Abel Brives (1901-1907)

المادة المائية	الوصف	المنطقة أو المدينة	صفحة الكتاب
واد تانسيفت	تتبعنا واد تانسيفت وسط مجال غابوي كثيف مكون من السدر البري والأثل	مراكش	11
واد تانسيفت	التيار قوي جدا، ونحن قلقون على ما تبقى من سفرنا، هل نستطيع العبور؟	زاوية إرثانة	241
واد مرامر	الواد يمتد إلى رافد واد المرامر، والمجرى الآن أقل قوة.	تانسيفت	247
واد أمزماز	واد أمزماز آت من تيزي ن أوماشو	امتناوت	251
واد سكساوة	هدفنا التقدم في سهل واد سكساوة حيث التيار جد قوي	إمين العين	252
واد أغبار	إيداومحمود توجد بقرى واد أغبار	سكساوة	265
واد نفيس	منخفض قوي يشكل أصل واد أغبار الذي يعد رافدا رئيسيا لواد نفيس	جبل أكورسي	265
واد شيشاوة	تمت إقامة معسكر مولاي عرفة على ضفاف واد شيشاوة في رأس العين	شيشاوة	319
واد أسيف	في التاسعة صباحا من 12 شتنبر 1905 وثلنا إلى ضفاف واد أسيف المال	أسيف المال	320
واد أولاد عبدي	أقيم معسكر مولاي عرفة على هضبة كلسية عند ملتقى واد شيشاوة وواد أولاد عبدي	راس العين	322

¹ - كان قبل أن يقدم بريف إلى المغرب ذائع الصيت في المجتمع الجغرافي الفرنسي بأبحاثه الميدانية عن الجزائر، خاصة عن منطقتي الشلف وجبال الظهرة. هذه الشهرة هي التي اكسبته صفة العضو المرافق للبعثة الفرنسية زمن المولى عبد العزيز، وقد كان الرهان وقتها من طرف فرنسا محاولة أحداث نوع من التوازن السياسي والدبلوماسي مع البعثة الانجليزية التي كان يقودها مالك لين. انظر في شأن ذلك: فيير غابرييل، في صحبة السلطان، المغرب (1901-1905)، ترجمة عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2009، ص ص 77-78.

Brives. A, Voyages au Maroc, 1901- 1907, Impression et édition Adolphe Jourdan, Alger, 1909.

يضم هذا الكتاب من حيث هندسته حوالي 612 صفحة، وقد نشر سنة 1909 في جزئين: الجزء الأول يتتبع مسار الرحلات الخمس في مناطق المغرب في حوالي 411 صفحة، والجزء الثاني يحتوي على القسم الخاص بالأبحاث والدراسات الجيولوجية في حوالي 189 صفحة. من الناحية التقنية، ضم الكتاب 247 صورة، و4 مقاطع لوحات، وخريطة للطرق، و3 خرائط جيولوجية ملونة حول الغرب والحوز والأطلس وسوس، بالإضافة إلى رسم تكتوني.

366	سي الركري	ابتعدنا قليلا عن واد تالميسست لكن التحقنا مع واد تانسيفت	واد تالميسست
371	شيشاوة	مع العشرة صباحا، نحن على جوانب واد شيشاوة	واد شيشاوة
374	قبة سيد الزوين	ملتقى واد نفيس في الشرق، ونحن نراه بوضوح	واد نفيس
394	أوريكة	قليلا نحو الغرب، يظهر جبل أسوج كبير يسهل التعرف عليه يمثل بداية السلسلة الواقعة جنوب واد أوريكة	واد أوريكة
395	زاوية بن ساسي	واد إمنزات الذي عبرناه بعد ساعتين، فندخل منطقة تانسيفت	واد إمنزات
406	سيدي رحال	واد تساروس الذي يأتي من الجهات الأمامية للجبل، يمر في كل منطقة الهضبة الكلسية في خوانق ضيقة	واد تساروس
408	حاحا	لم نتبع لاحقا الطريق الطويل الموازي لواد القصب والتي تعد الأقصر للوصول إلى موكادور	واد القصب
417	متوكة	نحو الشرق يقود الوادي المتعمق إلى وادي آخر ضيق قادم من الجنوب حيث يلتقي واد تساروس	واد تساروس
436	زاوية تاسافت	صعدت في مجرى واد تاسافت (نهر السنديان) عبر مسلك منحوت في الصخور الكلسية المشكلة للضفة اليسرى للواد	واد تاسافت

9- رحلة ماركيز دوسيكونزاك: في قلب الأطلس¹:

تُمثل هذه الرحلة من حيث القيمة المعرفية والتدقيق العلمي رحلة شارل دوفوكو. يكفي أن نقرأ في تقديم صفحاتها الأولى التي خُطت بقلم أوجين أوبان Eugene Aubin هذه العبارة: "...يستحق هذا العمل أن يكون خليفة لشارل دوفوكو..."²، ويكفي أن تتردد في كل التأليف الفرنسية عبارات الثناء والتقدير لهذا العمل الاستكشافي. زمنيا لا تتأتى عملية محاورة هذه الرحلة الاستكشافية إلا على ضوء استحضار سياقها التاريخي، في مدار سياسي عام

¹ - De Segonzac. M, Au cœur de l'Atlas, mission au Maroc (1904-1905), notes de géologie et géographie physique, librairie Emile Larose, Paris, 1910.

² - Ibid, p 1.

جعل "المسألة المغربية" تقترب من لحظة الحسم النهائي¹. تتبدى هذه الرحلة "في قلب الأطلس" للقارئ ثرية من حيث معطياتها الجغرافية والاثنوغرافية والهيدرولوجية والتاريخية...بله تكاد تُكمل من حيث المضمون بعض الفراغات التي تركتها رحلة شارل دوفوكو².

تتألف هندسة الرحلة من ثلاثة أجزاء رئيسية: الجزء الأول يتضمن ثمانية فصول يستعرض مسار الرحلات بين الصويرة ودمنات وواد أم الربيع وتزات، بينما الثاني، خصص للمعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، وأخيرا الجزء الثالث الذي يتضمن ملاحظات ومعطيات فلكية وجغرافية وجيولوجية عن الأطلس المغربي. وقد جاء هذا الكتاب في حوالي 789 صفحة، مرفق بجداول ونقوش ووثائق وخرائط داعمة. هكذا أمكن لدوسيكونزاك العسكري أن يجوب مناطق مجهولة من أرض المغرب، وأن يتوغل في المجال الممتد من موكادور إلى الأطلس الكبير مروراً من أكادير وتارودانت وتزنيت. النتيجة توثيق رحلة استكشافية في حوالي 150 صورة.

الشكل رقم 33: جدول: الأودية والأنهار في رحلة "في قلب الأطلس"³:

المادة المائية	الوصف	المنطقة أو المدينة	تاريخ العبور	صفحة الكتاب
واد شيشاوة	منذ البداية وبعد حوالي تسع ساعات، قطعنا واد شيشاوة الذي يسمى في عاليته واد سكساوة	شيشاوة	-	11
واد نفيس	يغير السهل مظهره بجوار واد نفيس	مراكش	29 دجنبر	11
واد تساوت	تتسطح الجبيلات في الشمال الشرقي لتفسح المجال لمروور واد تساوت العليا	الجبيلات	2 يناير 1905	14

¹ - دوسيكونزاك في حقيقة الأمر رجل ميدان عسكري، تدرج في صفوف القوات الفرنسية من خريج المدرسة العسكرية في Saint- Cyr سنة 1888م إلى ملازم Lieutenant وأخيرا ريان طائرة برتبة نقيب Capitaine. قبل ذلك، كان دوسيكونزاك قد راكم خبرة استكشافية مهمة في تجربته إلى ساحل العاج سنة 1890م، ما جعل وزارة الحرب الفرنسية تقرر صيف 1899 توجيهه إلى المغرب.

² - بعث شارل دوفوكو برسالة إلى دوسيكونزاك منشورة في نهاية الكتاب، يقول فيها: "...لقد جبتهم ليس فقط المناطق الأقل معرفة من طرف المستكشفين، بل أيضا الأكثر صعوبة كدبل العياشي وبني مكليد وأيت سغروشن وغياثة...".

De Segonzac. M, Au cœur de l'Atlas, mission au Maroc (1904- 1905), op.cit, pp 624- 627.

³ - تمت الاستعانة في جرد هذه المعطيات الوصفية على بحث الطالب الباحث البيار عبد المالك، الأنهار والأودية في الرحلة الاستكشافية إلى المغرب 1883- 1912، دراسة حالة شارل دوفوكو، تحت إشراف المنصف الكريسي، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، السنة الجامعية 2017- 2018، ص ص 122- 134.

15	3 يناير	سيدي رحال	ينبع واد غدات من الجبل	واد غدات
16	4 يناير	الأطلس الكبير	بلغنا في نهاية سهل مراكش حيث تبتعد الجبيلات في الشمال الشرقي وتنخفض، بينما الأطلس يقترّب ويرتفع، ويتخلله منفذان: يخرج من أحدهما واد غدات الذي يفتح فج كلاوة، بينما يخرج من الآخر واد تساوت	واد غدات واد تساوت
17	4 يناير	زمران السراغنة	بلغنا تساوت وهو واد بعرض ثلاثين مترا وعمق يقدر بثمانين سنتمتر، هذا الواد صاف وبارد وسريع، سريره محصور بين حافتين يبلغ ارتفاعهما حوالي أربعين مترا.	واد تساوت
22	8 يناير	زاوية أيت محمد	مرحلتنا تنتهي في زاوية أيت محمد، وجب علينا اجتيازها لبلوغ واد تساوت العليا التي تشكل في هذا المكان عند مخرج الجبل نهرا رائعا عرضه ثلاثون مترا، وعمقه متر واحد، حيث يسيل ماء صاف جليدي يتحرك فوق سرير من الأحجار.	واد تساوت الفوقانية العليا
25	8 يناير	زاوية أيت محمد	تركنا الزاوية مستقلين مسيلا متعامدا مع واد تساوت. كان الصعود قاسيا	واد تساوت
27	-	واوزغيت	برج ووازغيت وتقاطع واد أحنصال وواد العبيد	واد أحنصال واد العبيد
27	9 يناير	سهل انتيفة	تكثر العيون، والجداول تنحت طريقها في الأنهار، أحدها واد تعانيت الذي ولد في طريقنا في أبار أغبالو تازروت. إنه يفصل كطيوّة عن انتيفة	واد تعانيت

30	12 يناير	سوق الجمعة	واد أسمديل بعيد عن واد احنصال، مغطى عرضه ثلاثون مترا، والذي يتدفق امامنا في واد العبيد، أكثر عرضا وينساب بهدوء على سرير الطيني.	واد أسمديل واد احنصال
32	13 يناير	دمنات	واد العبيد الذي اجتزناه وصعدنا الضفة المقابلة بممر متعرج	واد العبيد
36	14 يناير	دمنات	يجري واد العبيد الذي صعدنا بمحاذاة النهر، في قعر فج...	واد العبيد
39	15 يناير	زاوية احنصال	الطريق قصير لكنه شاق، ويمتد على طول منحدر يشقه واد العبيد	واد العبيد
44	17 يناير	زاوية احنصال	اتخذنا طريقنا زوايا، في اتجاه الشرق دون هدف محدد اللهم تجنب نهرواد العبيد وروافده الخطيرة	واد العبيد
59	23 يناير	الأطلس الكبير	وأخيرا لاحظنا بشكل جلي ثلاث انقطاعات، ثلاثة فجاج في الأطلس الكبير: فج إغيل، الذي سميته أنفا، والذي يأخذ إلى واد تودغة، وفج تونفيت الذي يصب في واد غريس، ثم فج زاوية سيدي حمزة، الذي يأخذ إلى زيز وتافيلالت.	واد تدغة واد غريس واد زيز
443 505	-	الحوزية قيادة كلاوة	الحدود: الشمال واد أم الربيع، أزمور، الشرق واد الأخضر، جنوبا كلاوة، وغربا عجدامة.	نهر أم الربيع واد الأخضر واد تساوت
516	-	قيادة الكندافي	تمتد منطقة نفوذ الكندافي على طول واد نفيس	واد نفيس

514	-	قيادة الكندافي	من أكدر نقيك إلى النهر ساعة واحدة، اكدر نقيك تساوي مسافة واد نفيس وواد غيغاية ونقيك على واد غيغاية	واد نفيس واد غيغاية
544	-	قيادة المناهية	يتحكم القائد حيدة أوميس قائد المناهية في جزء من الواد العلوي لواد سوس بدء من تقاطع وادي تيفنون وزكموسن إلى تارودانت	واد تيفنون واد زكموسن
720	-	مولاي ابراهيم الحوز	يعبر واد غيغاية فجاجة بجدارات شديدة الانحدار تتكون من الشيسست الطيني الأسود الأردوازي، بسك 500 متر على الأقل.	واد غيغاية

10- مياه ونباتات الأطلس:

من بين الذين انشغلوا بنباتات الأطلس هناك عالم النبات الفرنسي بنيامين بلانسا B. Balansa الذي عاين الأعشاب والنباتات الممتدة على طول مجالي الصويرة ومراكش عبر الأطلس¹. يندرج هذا العمل في أساسه ضمن مشروع علمي ضخمة أشرف عليه إرنيس كوسون E. Cosson² بمعية فريق من علماء النباتات والجيولوجيا لتحري كتاب ضخمة حول "نباتات بلاد الأطلس" بدعم من الحكومة الفرنسية³.

¹ - Balansa. B, Voyage de Mogador a Maroc, Bulletin de la société de géographie, Avril 1868, p 312- 334.

أنظر ترجمة نص هذه الرحلة في كتاب المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م- 1868م، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، إفريقيا الشرق، 2018، ص 9-36. تغطي نصوص هذه الترجمة جوانب مهمة من تاريخ المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتُسهل مهمة كل مقبل على دراسة المغرب على حد تعبير جيمس كريك؛ نصوص تسرد كثيرا من الجزئيات والتفاصيل التي تعكس نظرة الأجنبي لبلد ظل غامضا وحابلا بالألغاز. من ضمن النصوص المترجمة نجد أوجست بومي A. Beaumier، وهو عبارة عن تقرير مفصل ودقيق عن الطرق والمسالك والتزلات القائمة بين الصويرة ومراكش وأسفي. وأيضا، نص لامبير P. Lambert الذي ينقل القارئ إلى وصف ديموغرافية مدينة موكادور، ويرصد حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وتصميمها ومرافقها العمرانية. إضافة إلى نص جيمس كريك J. Craig الذي وجه عنايته إلى مسألة البنية التحتية (الطرق- الجسور- الموانئ) والجغرافيا والثروات المعدنية والتكوين الجيولوجي للمغرب والمؤهلات الفلاحية والمائية والمكونات السكانية...وأخيرا بنيامين بلانسا الذي رصد عالم نباتات الأطلس.

² - إرنيس كوسون Ernest Saint- Charles Cosson منسق كتاب نباتات بلاد البرير، عالم نبات فرنسي (1819- 1889).

³ - يمكن تتبع كرونولوجيا هذه الرحلات المدعومة من طرف الحكومات الأوروبية، على الأقل منذ بداية القرن التاسع عشر إلى حدود رحلة بنيامين بلانسا 1867م، والتي يمكن عدّها في خمس رحلات:

رحلة الملازم واشنطنون (السفير) Lieutenant Washington سنة 1830؛

قبل ذلك، يمكن فرز ثلاث مستويات رئيسية في تناول هذه مضامين هذه الرحلة العلمية:

أولا على المستوى الزمني: بدأت رحلة استكشاف بلانسا من شهر أبريل من عام 1867م، وانتهت في يونيو من نفس العام.¹ وحده توقيت الرحلة يعطي الانطباع لأول وهلة بأن حالة الجفاف التي أصابت مجالات الأطلس منذ بداية العقد السابع من القرن التاسع عشر لا تزال بادية للعيان. هذه الملاحظة، ربما هي التي صبغت عملية جمع الأعشاب والنباتات²، وجعلته يظهر فقيرا في رصيده النباتي باستثناء امتنانوت وتامصلوحت التي عثرفها على بعض من النباتات والأعشاب.

ثانيا على المستوى المنهجي: نستثمر معطيات هذه الرحلة النباتية في التقرب أكثر من الوضعية الهيدروليكية لبلاد الأطلس، انطلاقا من الوصف المكثف الذي تضمنته بخصوص نوعية الأعشاب والنباتات والأشجار.

ثالثا على المستوى المجالي: توجه بنيامين بلانسا من موكادور نحو جبال إيداومحمود في الأطلس، وحاحا وامتنانوت وفروكة ومجاط وتامصلوحت...توقف عند مشاهد مختلفة، تلال مقفرة وثلوج مكسوة بالبياض، وأراضي بدأت تستعيد بعضا من حيوتها³. لا يفتأ بلانسا التذكير في كل مناسبة بالوضع السياسي المضطرب الذي يحول دون اتمام مهمة الاستكشاف النباتي للأطلس، في غياب أمر مباشر من السلطان، وخوف زعماء الأطلس من هذا التحرك المشوب⁴. وهي عبارة مألوفة ضمن متن الخطاب الاستوغرافي الأجنبي عن مغرب ما قبل الاستعمار خلال هذه الفترة. تتكرر باستمرار عبارة "جبال تسكنها قبائل مستقلة، غير آمنة" في كل المناطق التي عبرها في الأطلس الكبير الغربي. وهو نفس الاحساس الذي كان ينقله له أسياد الأطلس للتخلص منه، أو تعبيرا عن امتعاض الناس من وجوده.

✓ مضمون الرحلة:

ضمن هذا السياق، وجّه قائد حاحا بلانسا نحو متوكة للتخلص من مقامه⁵ "...ستجد هناك جبالا مرتفعة، وسيسمح لك هدوء البلد باكتشافها في أمن تام..."¹. في طريقه نحو متوكة عاين بلانسا حقول القمح المحاطة

رحلة السيدان دو شاستو وليون روش De Chateau et Léon Roches سنة 1847:

رحلة السور دجوهن دراموند هاي Sir John Drumond Hay سنة 1856:

رحلة دون ميري أي كولون Don Merry y Colon سنة 1863:

رحلة السير موزيس مونتفلور Sir Moses Monteflore سنة 1864.

¹ - نشر هذا المقال في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية، عدد أبريل، 1868، ص 312-334.

² - Balansa. B, Voyage de Mogador a Maroc, op.cit., p314.

³ - Ibid, p 315.

⁴ - نفس الأمر في رحلة خواكيم كاتيل إلى واد نون وتكنة في الجنوب المغربي. أنظر:

Gatell J, L'Ouad Noun et le Tekna a la cote occidentale du Maroc, Bulletin de la société de géographie, Octobre 1869, pp 257-287.

⁵ - شُيدت متوكة على ارتفاع 910 مترا، على هضبة قاحلة يلتف حولها واد القصب، وهو عبارة عن جدول صغير، ينبع على مسافة بالقرب من جبال الجنوب.

بأغصان العناب Zizyphus Lotus اليابسة، وبدأت أشجار الأركان تظهر في كل مكان. بعد هذا المنظر الذي يشبه منظر حاحا²، ينصح قائد متوكة بلانسا بالذهاب إلى امتنانوت الموجودة في سفوح قمم الأطلس، والمكسوة بالثلوج.

في طريقه إلى امتنانوت عبّر بلانسا عين تارسيل، ممر ومنبع بوادي شيشاوة في منطقة متوكة، وهي اسم قرية تصب في سهل مراكش الشاسع. لا يختلف المنظر من متوكة إلى امتنانوت عن منظر من حاحا إلى متوكة، حيث القحولة والجفاف وتموج التضاريس عناصر مميزة لتركيبه هذا المجال.

يختلف المنظر بمجرد الوصول إلى امتنانوت. توجد امتنانوت على سفح الأطلس، مدخلها يتيح الوصول إلى الأودية العليا للسلسلة الأطلسية، ذات تنوع نباتي غني، تتشكل من أربع أو خمس قرى، تابعة سياسيا إلى قائد حاحا. في مقامه في امتنانوت صعد بلانسا إلى جبل أوركيز³... الذي تزين بغابات صغيرة من أشجار البلوط Quercus Ballot والعرعار Thuya وشجر الخروب Caroubier، وأراضي خصرء مغطاة بشاي الحلفاء Stipa Tenzcissma، وعلى غرب هذه الغابة الصغيرة يوجد وادي مسدود، مغطى بمزروعات وفيرة، ومحاط بأشجار الزيتون⁴.

✓ رحلة بلانسا: التشخيص النباتي للأطلس الكبير الغربي

شجر البلوط/ السنديان Quercus Coccifera

أظهرت الأبحاث النباتية التي أجريت مؤخرا عن كون المنطقة المتوسطية الموطن الأصلي لشجرة البلوط، وخاصة البلوط القرمزي أو السنديان القرمزي الذي يشار إليه بالاسم العلمي Quercus Coccifera. وهي شجرة دائمة الخضرة ومنتشرة الأغصان، لا تحمل ثمارا حتى تبلغ 20 عاما من العمر، ويتراوح متوسط عيشها ما بين 200 إلى 400 سنة. تعزز هذه التوقيقات ما توصل إليه عالم النبات الفرنسي بنيامين بلانسا بخصوص نباتات الأطلس الكبير الغربي في رحلته من موكادور إلى مراكش⁵.

¹ - Balansa. B, Voyage de Mogador a Maroc, op.cit., p316.

² - يُصرح بلانسا بأن حاحا ومتوكة لا تصلحان لأبحاثه النباتية بحكم الجفاف الذي يظهر بادية عليهما.

³ - الأصح أوركوس بعقف الكاف مثلما تنطق باللسان المحلي.

⁴ - Balansa. B, Voyage de Mogador a Maroc, op.cit., p321.

⁵ - في اللغة الأمازيغية يتم استعمال تعبير "تاسافت"، تعني كلمة "تاسافت" الأمازيغية شجر البلوط، وخصوصا في وادي نفيس بأطلس مراكش. وقد أطلقت "تاسافت" على مجموعة من القبائل التي تحاذي السفح الشمالي لجبل ويشدان الممتد من وادي نفيس وبلاد ءونين. ومن أهم قرى تاسافت نذكر: أغباران وتاكاديرت ن ءوميوس وتاركا وأزرو وأكني والزوايت. وقد اشتهرت تاسافت بزوايتها التي شيدها الشيخ سيدي أحمد بن محمد الإفرائي سنة 1007هـ/ 1598م، وهو من أصحاب الولي الصالح سيدي أحمد بن موسى دفين تازروالت بالأطلس الصغير حسب صاحب المعسول. وقد كتب لهذه الزاوية أن تُخلد صفحاتها عن طريق أحد حفدها الذي كتب كتابا سماه "رحلة الواقد في أخبار هجرة الوالد في هذه الأحوال بإذن الواحد" يُظهر من خلاله محنة والده وعائلته وسكان وادي نفيس من ظلم باشا مراكش عبد الكريم بن منصور التكني والي السلطان مولاي اسماعيل على

تتميز شجرة البلوط بكونها دائمة الاخضرار رغم تبدل أحوال المناخ. والبلوط المنتشر في منطقة الأطلس الكبير الغربي هو من نوع البلوط الأبيض ذي اللحاء البني، المتميز بقشور مُتحدة المركز، التي تنسجم مع خصائص المناطق المعتدلة والمناطق الرملية الجافة.

يستغرق هذا النوع من شجر البلوط زمنا طويلا من أجل النمو، ويصل ارتفاعه إلى حوالي 3 أمتار إلى 4 ونصف تقريبا بعد 10 إلى 12 سنة. وقد استعمل في المنطقة كعلف للحيوانات البرية والداجنة. وهو مصدر غني بالعناصر الغذائية وبالألياف والنشويات والفيتامينات (أ + ج) لاحتوائه على 92 % من المياه، إلى جانب كونه غني بالمعادن من منغنيز، نحاس، حديد، مغنسيوم، كالسيوم، وبوتاسيوم... لكنه ضعيف من حيث السعرات الحرارية. (الشكل رقم 33).

حديثا في دراسة علمية نشرتها مجلة Journal of Food Engineering سنة 2005 توصلت إلى احتواء ثمرة البلوط من النوع المتوسطي على مركبات مضادة للأكسدة، وخاصة في قشرة اللحاء.

✓ العرعار: Thuya

العرعر باللاتينية Juniperus جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة السروية التي أظهرت الأبحاث الطبيعية أنها تضم حوالي خمسين نوعا من النباتات الدائمة الخضرة. والعرعر الذي ينبت في جبال الأطلس الكبير هو من نوع العرعر الشربيني Juniperus oxycedrus الذي يتميز بقوة تحمله لظروف الطقس وتقلباته، وطول عمره، وخضرته الدائمة¹... غني بالعناصر الغذائية ومضادات الأكسدة، وبالمعادن والفيتامينات من كالسيوم وحديد ونحاس ومغنسيوم وبوتاسيوم وفيتامين C.

✓ شجر الخروب: Caroubier

يُنعت الخروب عند المختصين بـ "بازلأ البحر الأبيض المتوسط" في إحالة على قدم تاريخه. والخروب يشار إليه بالاسم العلمي Ceratonia Siliqua. يبدو من الوهلة الأولى أن الخروب يحمل أصلا عربيا. الخروب شجرة دائمة الخضرة تنتشر أكثر في مجال البحر الأبيض المتوسط.

جنوب البلاد إلى أن تمكن المخزن الاسماعيلي سنة 1715 م من هدم زاوية تاسافت. ورغم ذلك، أعيد بناؤها من جديد، إلا أن إشعاعها تراجع خلال القرن التاسع عشر مع ترسخ أسس النظام القيدوي تحت وصاية الأسرة الكندافية في المنطقة... للتوسع أكثر يمكن العودة إلى:
- أزيكوي علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، م س، ص 38.
- السوسي المختار، المعسول، الجزء 12، م س، ص 54.
- أزيكوي علي صدقي، زاوية تاسافت، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد السادس عشر، الرباط، 1991، ص 71-107.

¹ - Delpioux. D, Comment sauver l'arbre de fer de l'Atlas, Vie locale, Toulouse, 2000, p76.

تاريخيا، دأب الناس هنا منذ تاريخ غابر يصعب تحديده بدقة على استخراج شراب حلو المذاق من الخروب يسمى " الرُّب¹ " تُنسم به أطباق العصائد، كما كان يعطى للمواشي من أجل التسمين.

شجرة الخروب ممتدة الظلال، دائمة الخضرة، يصل ارتفاعها إلى ما بين 15 و 17 متر، ذات أوراق ريشية تتكون من عنق طويل يحمل من 6 إلى 10 وريقات متقابلة، يبلغ طولها ما بين 2,5 و 6,25 سم. ينحصر الحد الأعلى لشجر الخروب في مستوى 600 متر على المنحدرات، ويتطلب وضعها مناخيا تتراوح ما بين 20 و 30 درجة حرارية، وتربة من أصل رسوبي أو جيبي أو بركاني. ومعلوم أن شجرة الخروب تحمي التربة من الجفاف، وتساعد على التقليل من أضرار العواصف.

✓ شاي الحلفاء: Stipa Tenzcissma

نبات عشبي ينتمي إلى فصيلة النجيليات ذات الرائحة العطرية الشبيهة برائحة الورد. وهو من النباتات الصحراوية التي تتحمل ندرة المياه. يصل متوسط ارتفاع ساق هذا النبات ما بين 30 إلى 60 سم، ويتميز بتشعباته الكثيرة وأوراقه الشريطية الخشنة. يعتبر شاي الحلفاء مصدرا لرعي الماشية خلال سنوات الجفاف، حيث يقطع وهو أخضر ويقدم بهيئة علف أخضر، وفي أحوال كثيرة يتم تقطيعه إلى قطع صغيرة ويخلط مع نباتات أخرى لقدرته على تحسين إنتاجية الحليب.

ت- تغيير المشهد النباتي:

بمجرد الخروج من امتنانوت، يعود المنظر السالف إلى الواجهة. في طريقه إلى تامصلوحت، بمحاذاة قاعدة الأطلس، يظهر سهل شاسع قاحل، كثير الحصى، وحقول قمح نصف محروقة، وجفاف دائم، لا وجود لشجرة تكسرتابة الطريق سوى بعض نباتات رمرم² Chénopodées suffrutescentes وأشجار العناب³ Zizyphus Lotus والشيخ⁴ Artemisia Herba- Alba والحرمل⁵ Peganum Harmala... يؤثث هذا المنظر الكثيب مجرى نهر جاف قبل

¹ - يحتوي رُب الخروب على مواد غذائية من أهمها السكر بنسبة 55%، والبروتين 15%، والدهون 6%. كما يتميز خشب الخروب بالقوة والمتانة وسهولة الطلاء.

² - الرمرم جنبه معمرة، يتراوح ارتفاعها ما بين 30 إلى 50 سم، ساقها خشنة عديدة الفروع، أوراقها بيضاوية الشكل ذات قمة مدببة منشارية، يكسوها زغب خشن الملمس، ولونها أخضر داكن، أزهارها صغيرة بيضاء اللون.

³ - شجر العناب نبات جبلي شائك يبلغ طول الشجرة من 7 إلى 10 أمتار، أوراقها مستطيلة، سميت بالعناب لأنها شبيهة بعناقيد العنب، تنتج هذه الشجرة فاكهة حلوة تتحمل الحرقلة المياه.

⁴ - الشيخ Artemisia نبات عشبي من الفصيلة النجمية متعدد الأنواع.

⁵ - الحرمل Peganum Harmala نبات عشبي، يبلغ ارتفاعه 60 سم، ذو أوراق مفصصة، ورائحة مميزة، وأزهار كبيرة بيضاء، ويعطي ثمارا علبية بيضوية، بها بذور سوداء صغيرة.

الوصول إلى فروكة¹. ومن فروكة في اتجاه تامصلوحت يقف بلانسا عند مجرى وادي النيف، أهم مجرى مائي في سهل الحوز. تحيط بتامصلوحت أشجار الزيتون من كل الجهات التي تسقى بمياه مجلوبة عبر قنوات تحت أرضية، مقطوعة من مسافة إلى أخرى بآبار مفتوحة على سطح الأرض سبق أن سماها دوفيري Duveyrier آبار الرواق. يسمح الميل العام للسهل من الجنوب إلى الشمال لهذه المياه، بعد مسار طويل نسبياً، بالانجاس من سطح التربة كما هو الشأن في الواحات المغربية². وقبل انتقاله إلى مولاي ابراهيم في قمة جبال الأطلس، يُذكر بلانسا وفقاً لعادة مُجاليه بأن الحكومة المغربية لا تعمل على حفر الآبار الارتوازية داخل الشروط الجيولوجية في سهل الحوز، ما من شأنه أن يساعد على تخصيص سهل الحوز، وأن يزيل عنه طابعه القاحل.

في مولاي ابراهيم التي تسبح قاعدتها الجيولوجية في مياه واد غيغاية "إغاغاين" المعبر التاريخي إلى قلب جبال الأطلس الكبير، ومنها إلى سوس ودرعة عبر فج تيزي-ن-تاست. تظهر بعض النباتات في واد غيغاية: الكفعمان *Selaginella Rupestris* والسالمية *Salvia Taraxacifolia* والخزامى *Lavandula Pedunculata*.

سته أشهر بعد رحلة بلانسا، سينشر أجيست بومي A. Beaumier قنصل فرنسا في موكادور رحلته الجغرافية في المجلة الجغرافية الفرنسية³. يبدأ بومي وصفه الجغرافي من مراكش وعنها يقول: "...في الواقع ما تزال مراكش اليوم أكبر مدينة عربية بلا تحصينات وبلا أي وسيلة دفاع أخرى سوى أسوارها المبنية بالطابية... لا يتجاوز عدد سكانها بكل تأكيد 50000 نفسا. الماء متوفر بها وجيد، مناخها صحي ومعتدل شتاء... وبها العديد من صهاريج المياه..."⁴. في مراكش وقف بومي عند بساتين حكومية شاسعة، بداخل وخارج المدينة، لكنها غير معتنى بها، كثيرة ومثمرة، ومن بينها على الخصوص أشجار الزيتون، أما بخارجها، فهي محاطة بغابة جميلة من النخيل⁵.

تبدو الطريق من مراكش إلى موكادور رتيبة جدا، أشجار الأركان تبهج وتنعش المنظر قليلا، لا توجد سوى الرمال، وطرق كثيرة الأحجار، وحقول غير مزروعة بدون ماء إلى غاية سهل مراكش لا محدود، حيث لا يمكن الالتقاء من انقباض في القلب وقت رؤية هذه الأراضي العذراء الخصبة، في غالب الظن أنها مكدسة فوق طبقة مائية نابعة من الجبال، وللأسف الشديد متخلى عنها ومتركة للهمجية⁶. ومن سيدي المختار إلى شيشاوة لا يوجد أي مورد مائي،

¹ - سهل بامتداد شاسع يضم أشجار الزيتون.

² - Balansa. B, Voyage de Mogador a Maroc, op.cit., p327.

³ - Beaumier. A, Itinéraire de Mogador a Maroc et de Maroc a Saffy, Bulletin de la société de géographie, Octobre 1868, p321-339.

⁴ - بومي أجيست، مسار رحلة من موكادور إلى مراكش ومن مراكش إلى آسفي، ضمن المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م، ترجمة وتقديم بوشعيب الساورى، إفريقيا الشرق، 2018، ص 40.

⁵ - نفسه، ص 41.

⁶ - بومي أجيست، مسار رحلة من موكادور إلى مراكش ومن مراكش إلى آسفي، ضمن المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م، ترجمة وتقديم بوشعيب الساورى، إفريقيا الشرق، 2018، ص 43.

ومن الضروري، خصوصا في فصل الصيف، أن يحمل المرء معه الماء لأن الطريق طويلة ومتعبة. يوجد بـ "حنك الجمل" صهيرج ماء كبير، وفي غياب الأشجار للاحتماء من حرارة شمس الصيف، لكن هذا الصهيرج كان خاليا من الماء بسبب بعض الثقوب التي ينبغي أن تصلح¹. يحيل بومي الانتباه إلى لا مبالاة المغاربة في تدبير مواردهم المائية، حيث لا يمر صيف دون أن يموت بعض الأفراد، وتنفق بعض الحيوانات من جراء الحرارة والعطش.

في هذه الرحلة وقف بومي على أهم مورد مائي في الحوز، وادي نفيس بين موكادور ومراكش، الذي بدا له أنه يستحق اسم نهر. عنه يقول: "...حين عبرناه، لم يصل الماء إلى ركبنا خيولنا، لكن المجرى كان مغطى بالحصى وعريضا جدا...من الأكيد أن وادي نفيس² ينبع من سفح الأطلس ويصب في نهر تانسيفت، بعد أن يعبر سهل مراكش، على طوله من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي³.

من جهتها، تُلقي رحلة المهندس الانجليزي جيمس كريك James Graig أضواء كاشفة عن التصورات العلمية للمجال المغربي متم عقده السابع من القرن التاسع عشر⁴. وبالمناسبة، فهذه الرحلة هي ثمرة خمس سنوات من المعاينة الجغرافية، استثمر من خلالها كريك رصيد علاقاته الخاصة، سواء مع كبار الأعيان وموظفي المخزن، أو مع الأهالي العاديين. قبل كريك لم يكن المجتمع الجغرافي الأوروبي يعرف عن المغرب غير خريطة قائد الأركان العامة بودوين Boudouin المنجزة خلال نهاية القرن الثامن عشر رغم ما يعتريها من أخطاء جغرافية، ولا يمكن اعتبارها سوى بمثابة رسم تخطيطي أولي⁵. لكن كل الفقرات التي استشهد بها كريك لا تعدو أن تكون سوى اقتباسات من عمل الفرنسي Beaumier الصادر في مجلة الجمعية الجغرافية بباريس شهر يوليو 1867م⁶. يبدو المغرب الذي عاينه جيمس كريك زائرا بالموارد المائية من أنهار ومجاري مائية (اللوكوس/ سبو/ أم الربيع/ تانسيفت/ ملوية/

¹ - نفسه، ص 46.

² وادي نفيس: نفيس أو واد نفيس أو أيت نفيس أو أسيف - ن- نفيس، وادي نفيس أو النفيس، نفيسة أو نفيس... اختلاف في الكتابة يقابله تطابق في المعنى. ويبدو أن كنفيسة " إيكنفيسن" هي الأصل وأن نفيس مجرد ترخيم لها. ونعلم أنه في اللغة الأمازيغية يحيل إضافة "الكاف المعقوف" الانتساب إلى شيء ما... فبعد أن كانت "أسيف ن وكنفيس أون- كنفيس" أصبحت أسيف ن- ونفيس أون- نفيس وهو النطق الحالي. يمكن العودة إلى:

- Basset. H et Terrasse. H, Sanctuaires et forteresse Almohades, In Hesperis, IV, 1924, p 27.

- أزاكوي علي صدقي، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية. م س، ص 62.
³ - نفسه، ص 46-47.

⁴ - Graig. J, Un aperçu du Maroc, Bulletin de la société de géographie, Mars 1870, pp 177-203.

⁵ - يعاتب جيمس كريك الرحالة الفرنسيين على عدم دقتهم في ضبط إحداثيات المجال المغربي، وينتقد تقديرهم المعتمد على "الأيام" و"ساعات السير". أنظر:

Graig. J, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 178.

⁶ - Beaumier. A, Description sommaire du Maroc, Challamel Aine, Librairie- Editeur, Paris, 1868.

درعة، واد نون/ واد سوس...¹، لهذه المياه مزايا خاصة، عجيبة وفريدة تساعد على الاستشفاء من بعض الأمراض الجلدية لتوفرها على عناصر هيدروكبريتية.²

يتحدد وجود المغرب بتعبير جيمس كريك بوجود الأطلس، سلسلة تمتد على طول البلد، من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ويقسم إلى منخفضين كبيرين؛ شمالي وجنوبي، يمكن أن ينقسما بدورهما إلى عشرة أحواض مجاورة لمجرى الأنهار الرئيسية...تسير هذه المجاري المائية النابعة من جبال الأطلس، تقريبا، مباشرة في اتجاه الغرب لتصب في المحيط الأطلسي...ويقدر عرض السهل الكبير لمراكش ب 32 كلم³. قام جيمس كريك بقياس سعة تذبذب مقياس الحرارة في موكادور التي لا تتجاوز بها 35 بمقياس فهرنهايت، وكمية الأمطار بمعدل 21 بوصة. وكلما ابتعدنا عن الساحل، تلتطف تيارات الجبل الجو في أعاليه⁴. تربة الأطلس عموما رملية، تصل فيها نسبة الحجر الكلسي 15 بالمائة، ما يجعلها أهلة بالمعادن حسب إشارات العديد من الكتاب القدماء. مكّن الفرز الذي أجراه بومي في مختبر بمارسيليا من التعرف بدقة على المعادن الخام الموجودة في الأطلس.

الشكل رقم 34: جدول: معادن الأطلس⁵:

المعادن	النسبة المئوية %
أوكسيد الحديد	84
كربونات الجير	15
المنغنيز	0,35
السليس وأوكسيد الألمنيوم	0,65
المجموع	100

¹ - كريك جيمس، لمحة عن المغرب، ضمن كتاب المغرب بعيون أوروبية (1862- 1868) ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، الطبعة الأولى، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2018، ص 146.

² - يقصد بها مياه مولاي يعقوب نواحي فاس التي تستعمل مياهها في الاستشفاء من الأمراض الجلدية.

³ - Graig James, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 180.

⁴ - أجري هذا التدقيق في موكادور من فاتح شتنبر 1864 إلى 31 غشت 1865.

⁵ - Beaumier. A, Description sommaire du Maroc, Challamel Aine, Librairie- Editeur, Paris, 1868, p 308.

أسفر تحليل المعادن الخام عما يلي:

الشكل رقم 35: جدول: تحليل المعادن الخام¹:

المعادن	النسبة المئوية %
النحاس	29,95
الحديد	33, 10
أجزاء ترابية	6,85
الكبريت	23, 75
الأوكسجين المركب مع الحديد	0, 95
الماء	5, 10
الخسائر	0, 30

يقر المهندس الانجليزي جيمس كريك J. Graig بأن أئمن منجم للمغرب فلاحته، رغم غناه المعدني². بإمكان هذه الفلاحة التي تنعم بكل امتيازات الطبيعة من تربة خصبة، أمطار معتدلة في فترة الزرع، أنهار مزودة بوفرة المياه على طول السنة، وشمس شديدة تنضج المحاصيل...أن تبوء البلد مكانة مهمة ضمن خزانات أوروبا للحبوب³، لكنها لا تحظى بالرعاية من طرف الحكومة. يبقى الإنسان في نظر كريك هو الوحيد المتخلف. يضعنا جيمس كريك في صلب الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي ذي المنحى الكمي. قاده الاهتمام بالوضع الفلاحي لمغرب ما قبل الاستعمار إلى استنطاق محاضر عائدات الجمارك في الموانئ المغربية. فقد بلغت الصادرات سنة 1861 م 27000 طنا، وانتقلت سنة بعد ذلك إلى 30000 طن. حينما نعاين هذه الأرقام مقارنة مع حجم الأراضي الصالحة للزراعة نشعر بالصدمة⁴. يتعلق الأمر، حسب كريك بعقاقة وسائل الإنتاج.

¹ - Graig. James, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 182.

² - يثير جيمس كريك مسألة توجس الحكومة من إثارة مسألة المناجم رغم تنبيهه للسلطان بشأن الثروة الهائلة الموجودة بالتربة وبالأنهار.

³ - سبق للديبلوماسي الفرنسي لويس شوني (1723-1796) الذي مكث في المغرب ما بين 1769 و1782، قبل أن يُعين قائما بالأعمال، تم قنصلا سنة 1781، أن قدّر امكانية السهول المغربية على انتاج محاصيل تتراوح ما بين 30 إلى 60 من الانتاج. هذا التقدير بإمكانه تلبية الحاجيات الذاتية، وتصدير كميات وافرة نحو الخارج.

⁴ - Graig. J, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 184.

تستغل الأراضي بطريقة بدائية، وتعتمد المحاصيل على الأمطار البكرية، التي تسقط عادة في شهر أكتوبر. تُلين هذه الأمطار التربة المتصلبة من شدة حرارة الصيف، وتسهل عملية الحرث الذي يبدأ في العادة منتصف نونبر. يعتمد الفلاح إلى إلقاء البذور على التربة، ويتم الغرس بعمق ثلاث بوصات على الأكثر بواسطة محراث بسيط يتكون من فرع مقوس يجره ثوران مقرونان، أو زوج غير متجانس يتكون من جمل وبقرة، أو من حصان وحمار، أو من بغل وامرأة! في فترة الحصاد يحصد الفلاح محصوله تاركا كثيرا من التبن ليحرقه فيما بعد. ويدرس الزرع بواسطة ثيران وينسف الحب ويغربل في الهواء الطلق.

في خضم هذه المشاهد العتيقة توجد فقط نسبة ضئيلة من الأراضي المسقية بطريقة عصرية حسب كريك. توجد في البساتين الامبراطورية التي تعتمد على المنابع بواسطة الناعورات.

والحال، لا يوجد خصاص في المياه لإنتاج محاصيل زراعية وافرة من كل الأصناف، لكن يتم فقدان ثروات كبيرة بترك مياه الأنهار تضيع في البحر¹. من جهة أخرى، غالبا ما كان عبور الأنهار يؤرق المغاربة في فصل الشتاء المطير، يلجأ المغاربة كما عاين ذلك جيمس كريك إلى نوع من الطوف البدائي المكون من عدد من الجلود المنفوخة بالهواء والمشدودة بواسطة أعمدة، فوقها توضع حمولات الدواب كلها، ويدفع مقابل العبور إلى المكان الذي يراد الوصول إليه في الجهة الأخرى مُقَدَما، ويوجه الملاحون الطوف عبر التيار بالتجذيف بأيديهم، أما بالنسبة للحيوانات فيتم إدخالها وسط الماء، وتشد من ذيولها، وتقاد إلى الضفة الأخرى. هذه العملية في الغالب، ما تستغرق يوما كاملا لعبور قافلة مكونة من 30 إلى 40 جملا...وفي حالة إذا ما كانت هناك أنهار بلا طوف، تنتظر القافلة انخفاض مستوى الماء، وهو الأمر الذي كان يتطلب وقتا طويلا².

الشكل رقم 36: جدول: قياس مياه الأنهار التي تصب في المحيط الأطلسي³

الأنهار	القياس بالقدم المكعب في الثانية
تانسيغت	1000
أم الربيع	2500
بورقراق	1000
سيو	2500

¹ - Graig. J, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 188.

² - يسرد المهندس جيمس كريك واقعة بناء جسر بولعوان الرابط على نهر أم الربيع، ويضيف كيف أن الملك أمر بوقف الأشغال، بسبب خوفه من أن يُسهل الجسر عبور القبائل للنهب والحرب.

³ - Graig. J, Un aperçu du Maroc, op. cit, p 189.

اللوكوس	1000
المجموع	9000

مكّن قياس جيمس كريك لمنسوب مياه الأنهار الرئيسية من بناء استنتاج عام: هدر 9000 قدم مكعب من المياه في عرض البحر دون استفادة الفلاحة منها. في المقابل، يُقرب وجود ما يكفي من الماء لسقي 600 ألف هكتار عبر الماء النازل من الجبال في المجاري. لكل هذه المجاري المائية مستويات مرتفعة تمكن بسهولة من صب الماء بالسهول والأودية المجاورة. كما يمكن حفر آبار ارتوازية في كل مكان، لكن ينقص فقط الذكاء والطاقة لجعل هذه الأراضي القاحلة بساتين مزهرة.

وفي سياق حديثه عن المطاحن المائية توقف جيمس كريك عند المطاحن التي تديرها الخيول، وهي ذات تركيب بدائي، يشتغل بعضها بواسطة العجلة، والبعض الآخر بواسطة نظام الأدوات. يُدقق جيمس كريك وصفه أكثر لهذه المنشأة بالقول التالي: "...يتم رسم هيكل مظلة قطرها ستة أقدام، منحرفة على مستوى الطرف، مستقيمة الأضلاع، مصنوعة من خشب رقيق يبلغ طولها ثلاثة أقدام وعرضها نصف قدم، ومفصولة بثلاثة أقدام عن المحيط، وموضوعة عموديا في اتجاه الأشعة. يصب الماء، المجلوب من علو ما بواسطة أنبوب، في اتجاه تماسي داخل المدارات ويدير العجلة. هناك حيز جر متروك بين الأضلاع والمحور، يسمح للماء بالانفلات من الأسفل. ويمر مقبض المظلة عبر الرحى السفلى، ويتم إسناده بواسطة الرحى العليا، التي تطبع حركته. تشتغل هذه الآلة الصغيرة العجيبة، على نحو يرضي طحانا بارعا، وعلى نحو يفاجئ ويعجب الزوار الأقل ذكاء...¹".

¹ - كريك جيمس، المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م و1868م، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، إفريقيا الشرق، 2018، ص 139.

في الختم، فتح الماء في جغرافية الأطلس الكبير كما في مناطق جغرافية من المغرب أقواسا تاريخية لاتزال تُغري بالبحث والاستقصا. وكان في كل نقطة من جريانه يُمعلم المجال، ويُظهر مستويات بناء وتصريف السلطة بين فاعليه، ويحدد مستويات التراتب السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويتحكم في معاش وأحوال الناس، فيضيا أو غورا. كان الماء أيضا يصنع في كل نقطة يصل إليها معالم تحول حاسم في المجال، ويجري تقسيمه عليه ضمن شبكة ثلاثية الاحداثيات: مجالات الوفرة، مجالات الكفالة، ومجالات الندرة.

في واقع الأمر، ظهر النظام المائي في نسيج الأطلس الكبير، في نجوده وحتى في بسائطه، أكثر شمولاً. بالنهاية، نستطيع أن نسمه بـ "الظاهرة المجالية الشمولية" بالمعنى الفيبري للكلمة؛ عنصر أساس في إنتاج الرخاء والشقاء، الوفرة والكفاف... تأثرت العامة بندرتيه، ورغدت الخاصة بوفرته. وفي جانب منه برزت حوله صراعات وانقسامات كانت تفتح دوما مجال الأطلس الكبير الغربي على موجة متكررة من غلاء الأسعار واحتكار المواد واحتجان السلطة... كان هذا الوضع دائما يجد أمامه أطرافا وفاعلين قادرين على إعادة ضبط محور التوازن بواسطة أعراف وأنظمة استغلال تقترح حلولاً فردية وجماعية لتدبير معاش الأزمنة الطويلة للندرة.

تبعا لذلك، على المستوى المحلي، اهتدى الانسان المغربي إلى ابتكار تقنيات لتحويل مجرى المياه من مجال لآخر. بله من سلطة لأخرى. هنا بالذات، أخطأت الاستوغرافيا الأجنبية التقدير حينما أحالت هذا التدبير التقني على سجل الشعوب البدائية. والحال، بعد تراكم حادث، صار ينظر من زاوية الابداع المحلي الذي أوجد حلولاً لمشاكل بنيوية ذات بُعد سياسي، اقتصادي، واجتماعي... وضمن توازنا بين مكونات ووحدات اجتماعية وسياسية شديدة التعارض.

في حقيقة الأمر، أثمر هذا الاحتكاك الدائم مع إيكولوجيا خانقة مراكمة رصيد مهم من الخبرات والتجارب، سواء من حيث طريقة تدبير مياه الوديان أو العيون، أو من حيث طريقة تخزينها... أوكل هذا الرصيد التقني إلى نظيمة القبيلة من أجل قياس وحساب الفوارق الزمنية التي يُمضيها الماء من نقاط المصدر نحو الحقول والبساتين.

وفي جانب آخر، سمح الماء من داخل متن الأطروحة بإعادة توضيح رؤية الآخر للمجال المغربي، مجال الحرب بتعبير طوماسي، بما هي رؤية أتاحت بصورة تقريبية تدقيق في بعض جوانب من شبكة الأنهار والأودية والمنايع والمصببات من جهة؛ وبما هي إمعان في بعض الجوانب التقنية (الصبيب، الطعم، اللون...). وفي مرحلة موالية، اتخذ هذا العنصر الحيوي السائل بُعدا وظيفيا في توزيع العشائر داخل القبيلة، وحضر صداه في كل الوثائق العُرفية وعقود الصلح والإرث... وأحيانا تدثر بلباس إثنوغرافي، جعل أغلب العيون تنسب إلى الحيوان أو النبات كمنوعين

إمصكي (عين مسكي) وعين تيفكرة، وأغبالون تسردان وعين لحنوش وعين الذياب وتيط أورماس وامان إيليا والأمثلة كثيرة في هذا الصدد.

مع الحماية، أجرى الماء تحوله الحاسم، بدا مثل آلية للقوة والإخضاع، ومعيارا يستند إليه في تقطيع التراب من وجهة نظر إدارية. حينها أيضا جُعل الماء مرجعا أساسيا يحتكم إليه في ضبط وهندسة المجال المغربي من وجهة نظر عسكرية. وفي بعض اللحظات، صار يتدخل هذا العنصر ضمن استراتيجيا التهدة حينما ترك الاستعمار لأعيان القبيلة تقسيم المياه دون أن يتدخل لفرض صيغه القانونية. وأتى له أن يلجأ إلى فرض قوته حينما يحصل التوافق بالصيغة التي يريد حتى لو تطلب الأمر إحياء تنظيمات وأعراف كانت على وشك الانقراض؟ وحتى حينما اعتقد البعض أن سياسة المراهنة على الأعيان والمؤسسات التقليدية في تدبير الموارد المائية يدخل ضمن استراتيجيا التهدة فإنها لم تكن سوى خطة مرحلية لا غير في أفق إلحاقه بالمعمرين الجدد. من هنا قد نفهم تلك الصورة التي نقلتها الاستوغرافيا الأنجلوساكسونية عن مغرب الثلاثينات من القرن الماضي حين تم وسمه بـ "المقاولة الناجحة". لكنها كانت تخفي وراءها تعارضا حادا بين الأعيان المحليين والمعمرين الفرنسيين بالتحديد. وهو تعارض لم تسمح الأطروحة بالتوقف عنده.

وبين هذا وذاك، يصير الماء بعد مسافة من الحدث مقياسا للحكم على نجاح أو فشل سياسة الحماية برمتها، بله مدخلا رئيس لبناء حكم نهائي حول صدق أو زيف الأهداف والنوايا... في المحصلة، الماء منهل الكتابة التاريخية في مجتمعات الندرة، ومصدر غذائه في الآن عينه. من ماء السماء نحو ماء الأرض وصولا إلى الماء المسعّر... ثلاث لحظات، وثلاثة تحولات حاسمة في تاريخ البلاد.

قبل الحماية، كان الماء يوزع بنوع من المساواة لتفادي انفجار النزاعات، ورغبة فاعليه من مالكين أصليين وذوي حقوق الانتفاع الحفاظ على التماسك الاجتماعي. لقد سبق لجاك بيرك في معابنته لنموذج سكساوة أن ألجَّ على هذا الجانب، واعتبر أن نظام السقي في الحوز كانت له أبعاد اجتماعية واقتصادية، يجعل مرور المياه بمجال عدد كبير من الدواوير والمداشر (إدويران- أولاد بوسباع- سكساوة- مزوضة- كدميو...) يجسد نوعا من التضامن بين الدواوير والمداشر. لكن مع الحماية، سيخضع الماء لعملية انزياح في أبعاده، من أبعاد اجتماعية تضامنية تركز على الانفتاح والتقاسم بواسطة مؤسسة "اجماعة"، إلى أبعاد سياسية ووطنية فرضه شروع المعمرين في الاستحواذ على مياه الأنهار. جسّد الماء حقيقة التضامن داخل مجالات الأطلس الكبير. كان هذا التضامن تعبيرا صريحا عن رغبة هذه الوحدات المجالية في تكسير حلقة الانغلاق الانتاجي، وتأكيدا واضحا لفكرة محدودية الموارد، إذ يتعذر أن يحقق دوار أو مدشر اكتفاءه الذاتي دون الاعتماد على موارد الجوار. لذلك، لا نستطيع أن نفهم حقيقة الأطلس الكبير الغربي خارج خصوصياته التضاريسية والمائية، بله خارج اختلافاته الاثنية (سهل مُعرب/ جبل ممزغ).

على صعيد البنيات، أجرى الماء انقلابه في نمط وأشكال الانتاج، وجسّد عمق التحول؛ من بلد كان يستند في اقتصاده على ثنائية الرعي وتربية الماشية... إلى بلد صار يعتمد على الفلاحة العصرية، وإن في نطاق مجالي محدود؛ من بلد كانت فيه الملكية الجماعية أساس البنية العقارية إلى بلد صارت تهيمن عليه الملكية الخاصة للأرض والحقوق المائية الخاصة التي جلبها الاستعمار من السدود المُشيّدة؛ من مجال كان يجعل لكل قبيلة مجالا فسيحا يفتح على السهل والجبل في إطار دورة رعوية متوافق عليها اجتماعيا إلى وضعية تقلصت فيها إمكانية تنظيم الحياة الرعوية بين السهول والجبال، وتجزأت فيها ملكيات الفلاحين المعارضين، وتكثفت من خلالها أعمال السخرة والكورفي ونظام الخمّاسة والعمل المأجور... من بلد كان فيه الصلحاء يساعدون على تنظيم المعاهدات الفصلية، ويسهرون على تنظيم دورات الانتاج في المراعي الجبلية، وتوزيع المياه على السكان... إلى بلد يضع مقدراته تحت تدبير الإدارة الترابية الجديدة.

حينها كان الماء في مجال الأطلس الكبير الغربي موضوع صراع سياسي واجتماعي دائم في مدار جغرافيا وُصفت دوما بالندرة والخصاص. انتظمت حوله مجموعات بشرية، وامتدت على طول جريانه قبائل المنبع (العالية) وقبائل المصب (السافلة). من يقطن العالية يُحوز قدرا كبيرا من النفوذ السياسي، ويُجري تدبيره على الماء؛ ومن يستوطن السافلة يُدرج ضمن المستضعفين، ويبحث عن توافقات مجالية لتأمين البقاء.

هكذا، نُظر إلى الماء في كل مجتمعات الندرة والهشاشة مثل أي وقود حيوي يدير عجلة الانتاج أو يوقفها. بقدر ما كان عامل استقرار في لحظات، بقدر ما كان عامل صراع في أخرى، يجمع ويؤلف، يقسم ويفرق. وكان في كثير من اللحظات يفوق الأرض من حيث القيمة الاجتماعية، يرسخ الهوية، ويجدر انتماء البشر مثل أي بناء اجتماعي مشبع برموز ومعان ثقافية. وفي جانب منه كان موضوع عبادة وقداسة، رمز نقاوة وطهارة، وعنصرا كاشفا عن استمرارية الرواسب الثقافية... هو الذي يحكي أحسن عن المجتمع بتعبير بيدوشا Bédoucha. صديق الأقوياء ونقمة المهزومين. ورغم توافق المجتمع المحلي على أسس عرفية كانت تعطى الأولوية للعالية على حساب السافلة في توزيع المياه، فإن ذلك كان يستدعي عقد تحالفات ومعاهدات لتحسين هذه القاعدة. وبحيازته كانت تتحدد قيمة أي كيان اجتماعي.

فهرس الخرائط:

- 17..... خريطة: توطين حوض تانسيفت في الأطلس الكبير حسب الأحواض المائية
- 29..... خريطة: توطين شبكة السواقي فوق حادور واد نفيس
- 55..... خريطة: قبائل الأطلس الكبير الغربي
- 68..... خريطة: السواقي في الحوز
- 71..... خريطة مجال نفوذ الظاهرة القايدية في حوز مراکش

فهرس الأشكال:

- الشكل رقم 1: جدول الحوض الهيدرولوجرافي لتانسيفت..... ص 22
- الشكل رقم 2 جدول: التساقطات ومعدل الحرارة في منطقة الحوز..... ص 23
- الشكل رقم 3: خطأطة: مصادر الأصول العقارية للباشا الكلاوي..... ص 75
- الشكل رقم 4: جدول: تنازلات عقارية من طرف الدولة لفائدة الباشا الكلاوي بحوز مراكش..... ص 76
- الشكل رقم 5: جدول تقسيم الأراضي ومياه الري بساقية تامسكلفت..... ص 78
- الشكل رقم 6: خطأطة تقسيم المياه بين الباشا الكلاوي مع العائلات..... ص 79
- الشكل رقم 7: جدول توزيع الماء بين دوار إفري ن واسيف..... ص 95-96
- الشكل رقم 8: توزيع الماء حسب الإخسان/ العظام..... ص 97
- الشكل رقم 9: جدول: توزيع الماء في الإخس..... ص 98
- الشكل رقم 10: جدول: التوزيع الشمسي للسقي..... ص 100
- الشكل رقم 11: توزيع يومين من الماء حسب الإخسان..... ص 100
- الشكل رقم 12: توزيع الماء بين الأسر في الدوار..... ص 101
- الشكل رقم 13: مبيان حول القطع الأرضية للمملوكة للأسر..... ص 102
- الشكل رقم 14: خطأطة حول المفاهيم المتداخلة في الكتابة الغيرية..... ص 112
- الشكل رقم 15: قنوات تحليل الصورة الأجنبية..... ص 113
- الشكل رقم 16: خطأطة حول نظام الجريان المائي في مغرب ما قبل الاستعمار..... ص 125
- الشكل رقم 17: خطأطة أسباب ظاهرة السيبة في المغرب..... ص 133
- الشكل رقم 18: رسم توضيحي حول تنظيم الحركة..... ص 135
- الشكل رقم 19: خطأطة حول أثر الضرائب المخزنية على الاقتصاد المحلي (شارل دوفوكو)..... ص 136
- الشكل رقم 20: جدول: الأنشطة الفلاحية في الأطلس الكبير وأحوازه حسب شارل دوفوكو..... ص 141-142

- الشكل رقم 21: جدول: الوصف المائي والمجتمع المغربي في مغرب ما قبل الاستعمار.....ص 144
- الشكل رقم 22: جدول نموذج عن التنظيم المركب لنوبات السقي في قبيلة سكساوة..... ص 180
- الشكل رقم 23: جدول قياس مواقيت صلاتي الظهر والعصر بعدد الأقدام حسب أشهر السنة..... ص 181
- الشكل رقم 24: جدول تقديرات ساكنة المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر..... ص 195
- الشكل رقم 25: جدول : مساحة الأراضي الفلاحية.....ص 213
- الشكل رقم 26: جدول: الماء وأطعمة القحوط والأوبئة.....ص 246
- الشكل رقم 27: جدول: الماء والنباتات الفصلية الخبازية..... ص 247
- الشكل رقم 28: جدول: نسبة استهلاك القمح في الشهر حسب السن..... ص 248
- الشكل رقم 29: جدول: الأوصاف المائية في الرحلات الفرنسية..... ص 272
- الشكل رقم 30: جدول: بعض العبارات الواصفة في الرحلات الفرنسية.....ص 273
- الشكل رقم 31: جدول: أودية وأنهار الأطلس الكبير في مرآة رحلة إدموند دوتي "بين القبائل".....ص 273-274-275-276-277
- الشكل رقم 32: جدول: أنهار وأودية الأطلس الكبير من خلال رحلات أبل بريف..... ص 281-282
- الشكل رقم 33: جدول: الأودية والأنهار في رحلة " في قلب الأطلس..... ص 283-284-285-286
- الشكل رقم 34: جدول: معادن الأطلس.....ص 293
- الشكل رقم 35: جدول: تحليل المعادن الخام.....ص 294
- الشكل رقم 36: جدول: قياس مياه الأنهار التي تصب في المحيط الأطلسي..... ص 295-296

فهرس الأماكن:

سكساوة: 22-46-57-62-63-67-88-94-104-105-184-187-192-211-212-221-225-228-229-230-282-286-289-304.

امنتانوت: 56-57-59-62-63-65-66-100-192-224-230-282-286-292-293-296.

الحوز: 3-21-22-23-25-26-27-28-30-44-62-69-72-73-76-77-79-80-82-110-112-183-186-197-203-212-243-244-285-304.

الأطلس الكبير: 22-23-24-40-46-55-56-57-58-59-60-61-62-63-64-65-66-67-68-70-75-80-82-84-85-86-87-88-89-92-93-94-95-96-97.

228-227-226-225-224-223-222-216-212-211-209-208-207-205-201-189-187-165-147-146-145-136-133-127-112-110-109-103-100

305-303-296-295-294-293-291-289-288-286-282-279-277-255-250-248-247-244-240-236-231-230-229

واد الزات: 76-79-279.

واد غدات: 72-75-281-289.

واد اوريقة: 82-279-281-287.

واد نفيس: 28-29-80-275-276-277-278-279-280-281-286-288-290-296.

واد تانسيفت: 17-21-24-72-127-276-278-281-285-286-296-297.

واد تساوت: 22-277-278-280-281-288-289.

شيشاوة: 22-23-25-199-282-287-289-293-297.

ادويران: 62-228-281.

أسيف المال: 21-24-225-226-227-228-230-286.

مراكش: 1-21-23-24-25-26-27-28-30-31-35-43-51-56-57-59-60-61-62-63-67-68-69-70-72-74-76-77-78-79-80-81-82-89-104-105-110.

274-270-296-267-266-264-258-257-253-221-219-217-212-210-201-200-199-198-197-196-194-192-167-166-161-158-147-140-136

297-296-293-292-291-288-285-284-283-282-280-279-277-275

متوكة: 25-64-65-70-72-282-287-293.

مجاط: 26-28-99-225-226-228-230-292.

إيركتين: 94-103.

مزوضة: 94-224-226-227-229-231-286-304.

واوزغيت: 144-146-290.

البيبلوغرافيا:

تشمل هذه البيبلوغرافيا تجميعة موسعة من الأبحاث والدراسات والمقالات والندوات والكتانيش والنصوص القانونية، المنشورة والمرفونة، التي اتصلت بإعداد الأطروحة، كما تضم مجموعة من الاسهامات ذات الصبغة المنهجية، الأوروبية والأمريكية بالخصوص.

بيبلوغرافيا باللغة العربية:

ابن منظور (أبو الفضل)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (630هـ-711هـ).

ابن الخطيب (لسان الدين)، نقاضة الجراب وعلالة الاغتراب، الجزء الثالث، تحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، 1989.

ابن القطان (الفاسي المراكشي)، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، المطبعة المهدية، تطوان، بدون تاريخ.

ابن خلدون (عبد الرحمان)، المقدمة، بيروت، دار القلم، الطبعة السابعة، 1989.

أيت نصالح (عبد العزيز)، بابل مازينغ، الفاضلة للنشر، 2021.

أوعشي (مصطفى)، أمان، ضمن كتاب المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الأول، 2004.

استيتو (محمد)، الأزمة الديموغرافية في تاريخ المغرب الحديث، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، وجدة، 1999.

أزايكو (علي صديقي)، أيت، ضمن المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، إشراف محمد حمام، الجزء الأول، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2004.

احساين (عبد الحميد)، نصوص عن النخبة والسلطة في بداية عهد الحماية الفرنسية بالمغرب 1912-1925، ضمن الثقافة والمجتمع، أعمال مهداة إلى الأستاذ

أكنوش (عبد اللطيف)، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987.

أنقار (محمد)، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية، صورة المغرب في الرواية الاسبانية، مكتبة الإدريسي، تطوان، 1994.

أشقرا (عثمان)، في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث، عيون مقالات، الدار البيضاء، 1990.

أبرهموش (محمد)، تاريخ المغرب والأزمات الذهنية، مجلة مؤمنون بلا حدود، 2016.

أيت فلاح (رشيد)، الماء بين المعرفة والسلطة، جان دريش والجغرافيا الكولونيالية، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، موسم 2015-2016.

أعيف (محمد)، مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحاح الجنوب المغربي، توات في القرن التاسع عشر، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1982، مرقونة.

أفا (عمر)، تاريخ أنظمة السقي التقليدي وتقنية تقسيم المياه في أحواض تزنييت، أعمال الأيام الدراسية حول مدينة تزنييت وباديتهما، من 12 إلى 14 نونبر 1993، منشورات كلية الآداب بأكادير، دار المعارف الجديدة، الرباط،

احميتي (عبد العالي)، التغذية بالغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط، رسالة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2002.

أنكام (علي)، اسهام في دراسة زاوية قصر تمكروت، 1645-1729، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1991، مرقونة.

- الأفراني (محمد الصغير)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1998.
- الأكلع (محمد)، بعض المظاهر الطبيعية للحوز، ضمن مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحد، أشغال الملتقى الأول 1988، كلية الآداب والعلوم الانسانية، مراكش، مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، 1989.
- بوجندار (الرباطي)، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، مخطوط الخزنة العامة، رقم د 1287.
- باسكون (بول)، الفترات الكبرى للقعيدية، ترجمة زبيدة بورحيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد الخامس والسادس، 1989.
- بريان (محمد)، بنحليمة حسن، العونية عبد الله، قراءة وتحليل الخريطة الطوبوغرافية، منشورات اللجنة الوطنية المغربية للجغرافيا، الطبعة الثانية، 1989.
- بمنصور (عبد الوهاب)، مؤرخو الدول بين الأمانة العلمية والالتزامات الوظيفية، مجلة المناهل، العدد 36، 1987.
- بوطالب (ابراهيم)، البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية: حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، 1989.
- بويكراوي (الحسن)، الفقير عبد العالي، المجال الصحراوي المغربي من خلال كتاب استكشاف المغرب لشارل دوفوكو، مجلة منتدى شمال المغرب، عدد ثلاثي، 6-8، يونيو 2012.
- بورقية (رحمة)، الدولة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل، دار الطليعة، بيروت، فبراير 1991.
- باسكون (بول)، ضرورة إعادة النظر في الإطار النظري لدراسة الظاهرة الاستعمارية، ترجمة مصطفى كمال، المجلة المغربية للقانون والسياسة والاقتصاد R.J.P.E.M، العدد الخامس، فاتح شتنبر 1979.
- بيرك (جاك)، في مدلول القبيلة بشمال افريقيا، الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1988.
- بنحمادة (سعيد)، الغرب الاسلامي، مباحث في العلوم التجريبية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013.
- بياض (الطيب)، المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب 1880-1915، افريقيا الشرق، 2011.
- بياض (الطيب)، أزمة المعاش وأثرها على الديموغرافية في البادية المغربية خلال القرن التاسع عشر، الأيام الوطنية العاشرة حول موضوع المجاعات والابونة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة، 2002.
- بابان (كوستاف)، الباشا الكلاوي، الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، 2017.
- بريان (محمد)، بنحليمة حسن، العونية عبد الله، قراءة وتحليل الخريطة الطوبوغرافية، منشورات اللجنة الوطنية المغربية للجغرافيا، الطبعة الثانية، 1989.
- بوزاد (فاطمة)، تاريخ الرحي المائنة والرحويين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، مجلى رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطة، العدد الأول، جوان، 2020.
- بورقية (رحمة)، الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، فبراير 1987.
- بورك (إدموند)، صورة الدولة المغربية في الأدبيات الإثنولوجية الفرنسية، رؤية جديدة حول أصل السياسة البربرية لليوطي، ترجمة المصطفى جامع ومحمد أوجطي، مجلة أمل، العدد الثالث، السنة الأولى، 1993.
- بوزيتة (سمير)، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية 1832-1912، افريقيا الشرق، 2007.

- بونبات (محمد)، حقوق الماء في المغرب، مقاربة للنوازل والأعراف وقانون الماء، سلسلة آفاق للقانون، 2000.
- بوزيد (أحمد)، الماء والبناء الاجتماعي ومفهوم الزمن، المجلة العربية للثقافة، العدد 36، مارس 1999.
- بروفنصال (ليفي)، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلافي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1977.
- بوهلال (عبد السلام)، الجبال المغربية ورهان التنمية، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، مجلة أبحاث ودراسات التنمية، العدد 5، ديسمبر 2016.
- بوبريك (رحال)، زمن القبيلة، السلطة وتدمير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2012.
- بولاني (كارل)، التحول الكبير، الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر، ترجمة محمد فاضل طباخ، بيروت، منشورات المنظمة العربية للترجمة، 2009.
- بومي (أجيسست)، مسار رحلة من موكادور إلى مراكش ومن مراكش إلى آسفي، ضمن المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، إفريقيا الشرق، 2018.
- بلكندوز (عبد الكريم)، الاستعمار الزراعي بالمغرب وطرقه في التغلغل، ترجمة مصطفى كمال، بيت الحكمة، م س، ص 121-122، ورد بالصيغة الفرنسية ضمن مجلة R.J.P.E.M، العدد 4، يونيو 1978.
- باسكون (بول)، نظام فيودالي أم نظام قاندي، ترجمة بولعيش محمد، بيت الحكمة، م س ص 160، نقل النص عن المقال الفرنسي ضمن مجلة لاماليف، Lamalif، عدد 120، نوفمبر، 1980.
- بوطالب (ابراهيم)، معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد 12، 2006.
- بوطالب (ابراهيم)، مفهوم البورجوازية في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 18، 1999.
- البكري (أبو عبيد الله)، المسالك والممالك، ترجمة دوسلان، باريس 1965.
- البيدق (أبا بكر الصنهاجي)، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تصحيح وترجمة ليفي بروفنصال، باريس، 1928.
- البلغيتي (محمد العلوي)، فاس مقام العابرين، دراسة في كتاب الاختلاف، ترجمة محمد الشكري، إفريقيا الشرق، 1990.
- البزاز (محمد الأمين)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992.
- البوزيدي (أحمد)، التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن السابع عشر- مطلع القرن العشرين، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1988، مرقونة.
- البيار (عبد المالك)، الأنهار والأودية في الرحلة الفرنسية الاستكشافية إلى المغرب (1883-1912) / (1300-1330) دراسة حالة رحلة شارل دوفوكو، تحت إشراف المنصف الكريسي، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، السنة الجامعية 2017-2018.
- توليه (غي) توليه وتولار (جان)، صناعة المؤرخ، ترجمة عادل العوا، الطبعة الأولى، 1999.
- التوفيق (أحمد)، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1912، ط 2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983.
- التوفيق (أحمد)، في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1440 هـ- 2019م.
- التوفيق (أحمد)، تأملات في البيعة الحفيظية، ندوة المغرب من العهد العززي إلى سنة 1912، الجامعة الصيفية، المحمدية، يوليو 1987.
- التوفيق (أحمد)، تاريخ المغرب في القرن 19 م: أفكار في التحقيق، مجلة المشروع، العدد 9، 1988.

التوفيق (أحمد)، البحث التاريخي في المغرب، مجلة دراسات مغربية، العدد 19، 2005.

التوفيق (أحمد)، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1983.

التيومي (الهادي)، الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، الكادحون "الخماسة" في الأرياف التونسية 1861-1943، تونس، صفاقس، الجزء الأول، 1999.

الجرجاني (علي بن محمد)، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004.

حبران (حسن)، الماء وصناعة المقدس، دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب، العدد الثامن عشر، كانون الثاني، يناير، 2022.

حبران (حسن)، عنصر الماء بين المعتقدات الدينية والممارسات الاجتماعية في المجتمعات المغربية، مجلة مؤمنون بلا حدود، أكتوبر 2019.

حمودي (عبد الله)، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية، ملاحظات أولية حول أطروحة كلنير، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 11، 1985.

جادور (محمد)، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث الدار البيضاء، 2011.

الحجوي (محمد بن الحسن)، اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 114.

حبيدة (محمد)، المدارس التاريخية، برلين- السوربون- استراسبورغ، من المنهج إلى التنازع، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2018.

حبيدة (محمد)، يؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، الطبعة الأولى، 2015.

حبيدة (محمد)، المغرب النباتي، الزراعة والأغذية قبل الاستعمار، منشورات ملتقى الطرق، 2018.

حبيدة (محمد)، عرض لكتاب نيكولا ميشيل: اقتصاد المعاشات في مغرب ما قبل الاستعمار، هسبريس تمودا، العدد 40، 2005.

حبيدة (محمد)، الماء في المغرب: التقنية والتنظيم، ملاحظات حول القرنين 17 و18، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.

حبيدة (محمد)، مفاهيم التحليل البرودي، مجلة أمل، العدد الثالث، السنة الأولى، 1993.

حمودي (عبد الله)، الضحية وأقنعتها، بحث في الذبيحة والمسخرة بالمغرب، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2010.

حمودي (عبد الله)، المسافة والتحليل، في صياغة أنثروبولوجيا عربية، دار توبقال للنشر والتأليف، الطبعة الأولى، 2019.

حيمر (عبد السلام)، المغرب والحداثة، التكنولوجيا نموذجا، أبحاث، الجزء الثاني، العدد 26، 1991.

دوفوكو (شارل)، التعرف على المغرب، الاستخبارات، ترجمة المختار بلعربي، إفريقيا الشرق، 2015.

الدفالي (محمد معروف)، الماء في بعض محطات عمل الحركة الوطنية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.

ذاكر (عبد النبي)، الصورة، الأنا، الآخر، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، عدد 43، أكتوبر 2014.

الدهان (محمد)، الرحلة الأثولوجرافية، ضمن الرحلة بين الشرق والغرب، تنسيق محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2003.

- الدهان (محمد)، جاك بيرك والمغرب، مجلة إضافات، العدد السابع، صيف 2009.
- الدرعي (أبي العباس أحمد بن ناصر)، الرحلة إلى الديار المقدسة عام 1121 خ 1709 م، مخطوط الخزنة الحسنية رقم 7648: الرحلتين الكبرى عام 1196 هـ/ 1781 م، مخطوط الخزنة الحسنية رقم 5658.
- الدرعي (محمد بن عبد السلام بن ناصر)، الرحلة الصغرى عام 1211 هـ/ 1796 م، مخطوط الخزنة الحسنية رقم 121.
- رويان (بوجمعة)، الماء والصحة خلال فترة الحماية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.
- رويان (بوجمعة)، بعض جوانب الوضعية الديموغرافية إبان فترة الحماية، مجلة كتانيش، كلية الآداب وجدة، 1999.
- رفيه (دانيل)، تاريخ المغرب من مولاي ادريس إلى محمد السادس، المركز الثقافي العربي، ترجمة المهندس أحمد ابن الصديق، الطبعة الأولى، 2020.
- روزنبري (برنار) والتركبي (حميد)، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و 17 م، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الطبعة الثانية، 2010.
- زير (لوني)، الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين 916-1069 هـ/ 1510-1659 م، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2016.
- زهروني (محمد)، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرقي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر، 1863/1280-1873/1290، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، 5، 1998.
- زهروني (محمد)، النزاع حول الأرض والماء بمنطقة الأطلس الكبير الغربي في ستينات القرن التاسع عشر، مجلة أمل، العدد التاسع، 1997.
- زرنين (محمد)، الاستراتيجيات العقارية باعتبارها رهانات اجتماعية تاريخية، المحيط القروي لسيد قاسم نموذجاً، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، خزنة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2008.
- الزباني (أبو القاسم)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1967.
- الزين (عبد الفتاح)، شارك أحمد، السوسيولوجيا المغربية: ببليوغرافيا، مجلة علم المعلومات، مدرسة علوم الاعلام، الرباط، 1996.
- الزين (عبد الفتاح)، السوسيولوجيا في المغرب من إعلان الممارسة الفرنسية إلى المرحلة الراهنة، مجلة المستقبل العربي، عدد 146، 13 أبريل، 1991.
- سيكار (نورمان)، البنى المجتمعية الاقتصادية ونشوء بورجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار، ترجمة محمد نجمي الروداني، مراجعة محمد معتصم، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد 20، 1995.
- سراج (أحمد)، حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.
- السوسي (المختار)، إيلغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، 1966.
- السوسي (المختار)، المعسول، الجزء 15، الدار البيضاء، 1960-1963.
- السبي (عبد الأحد)، التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج، ملاحظات أولية، ضمن ندوة البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، 1989.
- السبي (عبد الأحد) ولخصاصي (عبد الرحمان)، من الشاي إلى الآتاي: العادة والتاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.

- السباعي (محمد بن إبراهيم)، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، مخطوط الخزنة العامة، رقم د 1346.
- السكرتاني (عيسى)، النوازل، مخطوط الخزنة الوطنية بالرباط، رقم ج 1016.
- الشابي (مصطفى)، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995.
- شكاك (صالح)، استراتيجية استغلال الماء في دائرة وادي زم خلال فترة الحماية، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.
- شراك (أحمد)، سوسيولوجيا المغرب، المقاربة الأنجلوساكسونية، نموذج واتربوي، منشورات مقاربات، الطبعة الأولى، 2015.
- شقران (محمد)، من أزمة المجتمع إلى أزمة السوسيولوجيا، المجلة المغربية للاقتصاد والمجتمع، العدد 8، 1986.
- شاعر (عبد الحميد)، الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 360، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير، 2009.
- شروت (دانييل)، تجار الصورة، المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب، تعريب خالد بن الصغير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1997.
- الصادقي (محمد)، ايقاظ السريرة لتاريخ الصورة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.
- الصادقي (عبد الرزاق)، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ تحت إشراف إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988-1989.
- ظريف (محمد)، مؤسسة السلطان الشريف، محاولة في التركيب، الدار البيضاء، الدار البيضاء، 1988.
- ظهير 9 رمضان 1331، الموافق ل 12 غشت 1913 المتعلق بتحفيظ العقارات؛
- ظهير 18 رجب 1333 الموافق لفتح يونيو 1915 المطبق على العقارات المحفظة؛
- قرار وزير مؤرخ ب 20 رجب 1333 الموافق ل 3 يونيو 1915، حول تفاصيل تطبيق نظام التحفيظ العقاري؛
- قرار وزير مؤرخ ب 21 رجب 1333، الموافق ل 4 يونيو 1914، حول تقنين مصلحة المحافظة على الأملاك العقارية (بدله قرار 16 ذو القعدة 1351، الموافق ل 13 مارس 1933، وقرار 26 شوال 1326، الموافق ل 26 أكتوبر 1943).
- عياش (جرمان)، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للنشر المتحد، الرباط، 1988.
- عيسى (لطفى)، مدخل لدراسة الذهنية المغاربية خلال القرن السابع عشر، سراس للنشر، تونس، 1994.
- عشاق (مولود)، تاريخ المغرب وإشكالية المصادر، مطابع الرباط نت، 2019.
- علوش (سعيد)، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، الطبعة الأولى، 1987.
- العلوي (اسماعيل)، دور البادية والأرياف في تاريخ المغرب، مجلة أمل، العدد 50، 2018.
- العروي (عبد الله)، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، 1830-1912، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016.

- العروي (عبد الله)، نقد الأطروحة الانقسامية، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، دار توبقال للنشر، 1989.
- العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992.
- العروي (عبد الله)، إستبانة، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2016.
- العطري (عبد الرحيم)، من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة، مجلة الثقافة المغربية، العدد 38، شتنبر 2018.
- العطري (عبد الرحيم)، الأعيان في المجتمع القروي المغربي، مجلة إضافات، العدد العاشر، ربيع 2010.
- العلوي (محمد فلاح)، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الانسانية بنمسك، الدار البيضاء، 2019.
- غاندي (يوسف)، الزاوية النحلية ومدرستها، قبيلة مزوضة، المطبعة الوطنية، مراكش، 2011.
- غيرتز (كليفوردي)، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2009.
- فيير (غابرييل)، في صحبة السلطان، المغرب (1901-1905)، ترجمة عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2009.
- فنتير (المصطفى)، جبال الأطلس الكبير والحضور الاستعماري (1912-1914)، أشغال الأيام الوطنية الثانية، الجبل في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1994.
- فوكو (ميشيل)، المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ترجمة علي مقلد، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
- فائز (فاطمة)، الماء المقدس: دراسة للاستعمالات السحرية للماء بالجنوب الشرقي، واحة امحاميد الغزلان نموذجاً، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 20، 2016.
- قدوري (عبد المجيد)، المغرب وأروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، مسالة التجاوز، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2012.
- قدوري (عبد المجيد)، الوثائق المغربية، الوثائق الأجنبية: تكامل واختلاف، ضمن ندوة المغرب وهولندا، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 8، 1988.
- القادري بوتشيش (ابراهيم)، مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والانترنت، منشورات الزمن، 2008.
- كوثراني (وجيه)، بعض خصائص الكتابة التاريخية عند العرب، مجلة الفكر العربي، عدد 2، 1978.
- كفناي (مولاي الحسن)، قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، تحت إشراف أحمد التوفيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1987-1988.
- كورني، رائحة البارود: في طريق احتلال الجنوب المغربي مع طابور مانجان 1912-1913، ترجمة ناجي بن عمر، منشورات الزمن، 2018.
- كانيقي (إلياس)، أصوات مراكش، ترجمة حسونة المصباحي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، 1988.
- كناش 47، 4 شعبان 1285 / 20 نونبر 1868، أورده زرهوني محمد، م س، ص 294.
- كناش 664، 22 جمادى الثانية 1285 / 10 أكتوبر 1868، أورده زرهوني محمد، م س، ص 294.

كناش 47، 4 شعبان 1285 / 20 نونبر 1868.

كناشة، مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، رقم د 3734.

الكنسوسي (محمد بن أحمد)، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، بدون تاريخ، الجزء الأول.

الكلابي المزوري (عبد الصادق)، أبي الحاج التهامي الكلابي، الأوبة، ترجمة فريد الزاهي، منشورات مرسم، 2004.

لوبيل (رولان)، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب، من القرن السادس عشر إلى ثلاثينيات القرن العشرين، باريس 1936، تعريب حسن بحراوي، دار الأمان، الرباط، 2017.

لوغوف (جاك) (مشرف)، التاريخ الجديد، ترجمة وتحقيق محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المطبعة العربية للترجمة، بيروت، 2007.

لوفو (ريمي)، الفلاح المغربي مدافعا عن العرش، ترجمة محمد بن الشيخ، منشورات وجهة نظر، الطبعة الأولى، 2011.

مزبان (أحمد)، فكيك، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1903-1945)، 1986، مطبعة فجر السعادة، 1988. مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، الطبعة الأولى، 1979.

مؤرخ مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمذارتية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، الناشر عيون المقالات، الطبعة الأولى، 1994 .

المودن (عبد الرحيم)، مستويات السرد في الرحلة المغربية، أطروحة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1995.

المولى (عبد الحفيظ)، داء العطب قديم، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 11400،

المنوني (محمد)، مساهمة في ندوة لماذا القرن التاسع عشر؟ مجلة المشروع، العدد 9، 1988.

مهدان (أحمد)، الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي بواحة تودغي، جامعة ابن زهر، أكادير، 2012.

مهدان (أحمد)، المصطلحات الخاصة بتوزيع الماء عند أيت عطا بالجنوب المغربي، المصطلحات الجغرافية الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الندوات والمناظرات، رقم 27، 2011.

مهدي (محمد)، رعاة الأطلس، الإنتاج الرعوي، القانون والطقوس، ترجمة عياد أبلال وإدريس المحمدي، مراجعة عز الدين الخطابي، المركز المغربي للعلوم الاجتماعية، 2011.

ميلار (سوزان)، بن الصغير خالد، صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصغار إلى فرنسا 1845-1846، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، الطبعة الأولى، 1995.

مفضال (العربي)، حول المسألة الزراعية في المغرب، منشورات دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1985.

المنوني (محمد)، مظاهر يقظة المغرب الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الجزء الأول، مطبعة الأمنية، الرباط، 1973.

المحمدي (علي)، النسق المخزني ومسألة الاستمرار، التقليد والتجديد، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 59، الطبعة الأولى، 2010.

المدني (نعيمه)، تحول العادات الغذائية بالمغرب القروي، دراسة أنثربولوجية، منشورات دار الأمان، 2015.

المصطفى (برنوسي)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992-1993.

المحجوبي (عمار)، المياه والديانات الوثنية في المقاطعات الأفريقية، ملتقى زغوان حول المحيط والمياه، المياه والانجراف بولاية زغوان، تونس، 1984.

المقري التلمساني (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الجزء الرابع، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

المودن (عبد الرحمان)، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995.

المنصور (محمد)، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2006.

المشرقي (محمد بن محمد بن مصطفى)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق بوهيلة إدريس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف إبراهيم حركات، الرباط، 1992-1993.

ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، أيام 10-11-12 دجنبر 1996، مطبعة المعارف الجديدة، 1999.

ندوة: الماء ورهان التنمية المستدامة، دراسات مجالية جهة مراكش تانسيفت الحوز، العدد 6، تنسيق محمد أيت حسو وعبد العزيز يحيوي، سلسلة ندوات ومناظرات، مجموعة البحث حول التدبير الجهوي والتنمية الترابية، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أبريل 2012.

ندوة البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، 1989، ص 9، وهي في الأصل تجميع لخصيلة ندوتين: ندوة البحث الغربي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية، أكتوبر 1986، وندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب، دجنبر 1986.

نجاح (نزهة)، العادات الغذائية في المغرب زمن الحماية الفرنسية: الثابت والمتحول، أطروحة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2015.

الهروي (الهادي)، القبيلة، الاقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث، 1844-1934، الدار البيضاء، 2005.

الهراس (المختار)، القبيلة والسلطة: تطور البنيات القبلية في شمال المغرب، منشورات الرسالة، الرباط، 1988.

واعراب (مصطفى)، المعتقدات والطقوس السحرية بالمغرب، دار الحرف، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007.

واتربوري (جون)، الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1982.

الوزان (الحسن)، وصف افريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.

ياقين (محمد). اللغة السوسولوجية عند بول باسكون، ضمن قسطناني بن محمد وفيليب كورنكوف (تنسيق) أعمال ندوة السوسولوجيا كعلم والتزام جماعي: مرصد ابستمولوجية 3-4-5، يناير 2013، مكناس، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة الندوات، 39، 2014.

ببليوغرافيا بلغات أوروبية

ADAM (A), Bibliographie critique de sociologie d'ethnologie et de géographie humaine du Maroc, Publie avec le concours du Centre National de la Recherche Scientifique, Alger, 1972.

ADAM(A), Casablanca, Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'occident, Paris, Edition Centre National de la recherche scientifique, seconde édition, 1986.

ALLAIN (J.C), Agadir 1911, une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc, Publication de la Sorbonne, 1976.

ARON (J. P), Biologie et alimentation au XVIII siècle et au début du XIX siècle, Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, n°5, 1961.

ATTIA (H), Au cours des journées sur l'Afrique, Grenoble, 1971.

ARRIF (A), Compétition Caidale et procès d'intégration d'un conton montagnard: L'Unayn, In Annuaire de l'Afrique du Nord, XXII, 1983.

AYACHE (G), Etudes d'histoire marocaine, Rabat, 1979.

AGERON (Ch-R), La France a-t-elle eu une politique Kabylie, Revue historique, 1960.

AUBIN (E), Le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1903.

AJLAOUI (M), La mine d'argent d'Imidar et la question de Tadgha VIII-X siècle. Vers une hypothèse, Hesperis. Tamuda, Vol XXXII, 1994.

AYMARD (M) et GRIGNON (G), SABBAN (F) (dir), Le temps de manger, Alimentation, emploi du temps et rythmes sociaux, paris, 1993.

BAZIN (R), Charles De Foucault explorateur du Maroc, Ermite du Sahara, Paris, Plon, 1921.

BAIDA (J), La presse marocaine d'expression française, des origines a 1956, Cahiers de la recherche sur l'éducation et les savoirs, 2002.

BEN ALI (D), Le Maroc précapitaliste, SMER, 1983.

BENCHRIFA (A), Le monde rural marocain: diversité spéciale et culturelle, In, Sous la direction d'Agoumy, dans la Grande Encyclopédie du Maroc, Géographie humaine.

BOITE D 511, code d 75, Zone de Marrakech, Archives du Maroc, Rabat, vu le 24 Juillet 2021.

- BEN MLIH (A), Structures politiques du Maroc colonial: d'un état sultanien à un état Sédimental, Thèse manuscrite, 1988.
- BEL (A), Les industries de la céramique à Fès, Alger ancienne maison bastide- Jourdan, Jules Carbonel Suce, Imprimerie Librairie, éditeur place gouvernement, Paris, 1918.
- BEL (A), Survivances d'une fête de printemps à Tunis, Revue Tunisienne, 3^{ème} et 4^{ème} Trimestre,, nouvelle série, n 19 et 20, 1934.
- BEL (A), La religion musulmane en Berberie, Paris, t 1, 1938.
- BEL (A) and VALENTINE (G), Consuming Geographies, We are Where We Eat, London, 1997.
- BELFAIDA (A), Le culte des eaux en Afrique Romaine, Thèse de Doctorat de III cycle, Bordeaux, 1987.
- BENJELLOUN (T), Visages de la diplomatie Marocaine depuis 1844, Edition EDDIF, 1991.
- BERTHIER (P), Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Rabat, 1966.
- BASSET (H), Etat actuel des études d'ethnographie au Maroc, Bulletin de l'institut des Hautes Etudes Marocaines, 1^{er} année, n° 1, 1920.
- BASSET (H) et TERRASSE (H), Sanctuaires et forteresse Almohades, In Hesperis, IV, 1924.
- BADIA (D), Voyages à Ali Bey El Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années 1803-1807, Paris, 1814
- BLEICHER (Dr), Un voyage au Maroc, 1875.
- BRIVES (A), Voyages au Maroc, 1901- 1907, Impression et édition Adolphe Jourdan, Alger, 1909.
- BEDOUCHA. (A.G), L'eau, L'amie du puissant, Une communauté du sud Tunisien, Publication de CNRS et CNL, 1987.
- BELLAKHDAR (J) et YOUNESS (CH), La diététique médiévale arabo- islamique à travers les traités arabes anciens et la pratique actuelle au Maroc, In Médicaments et aliments, Approches ethno - pharmacologique, Actes du 2^{ème} colloque européen d'ethnopharmacologie, Heidelberg, 1993.
- BEAUMIER (A), Description sommaire du Maroc, Challamel Aine, Librairie- Editeur, Paris, 1868.
- BEAUMIER (A), Itinéraire de Mogador à Maroc et de Maroc à Saffy, Bulletin de la société de géographie, Octobre 1868.
- BERNEOUD (Dr), La Bilharziose vésicale au Maroc, In Maroc- Médical, n° 93, 15 Mars 1930.
- BALANSA (B), Voyage de Mogador à Maroc, Bulletin de la société de géographie, Avril 1868.
- BOITE D 511 cote d 75. Zone Marrakech, Archives du Maroc, Rabat.
- BRIGNON (J) (dir), Histoire du Maroc, Paris / Casablanca, 1967.

BRIGNON (J) et GROSRIKARD (R), Histoire du Maroc XVI- XIX Siècles, Centre d'études Arabes, Ambassade de France au Maroc, Rabat, 1994.

BRAHWAITE (J), Histoire des révolutions de l'empire de Maroc depuis la mort du dernier Empereur Mulay Ismaïl, Amsterdam, 1731.

BRONDINO (M, (Istituto les l'orient Roma), Bilan des recherches Italiennes sur le Maghreb indépendants et perspectives prioritaire, Actes du II Congrès internationales de la recherche scientifique sur méthodologie occidentale en sciences humaines et sociales sur les pays Arabes et la Turquie, études réunies et préfacées par Abdeljalil Temimi, Publication de la fondation Temimi pour la recherche sciatique et l'information, Zaghuan, Novembre, 1996.

BERQUE (J), Antiquité Seksaoua, Hesperis, 3 et 4 trimestre, 1953.

BERQUE (J), Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut- Atlas occidental, In: Annales. Economies. Sociétés. Civilisation, 8 années, n° 3, 1953.

BERQUE (J), Dwiran, Revue Africaine, 1950.

BERQUE (J), Le Maghreb entre deux guerres, Seuil, 1962.

BERQUE (J), Mémoires entre deux rives, Seuil, 1989.

BERQUE (J), Structures sociales du Haut- Atlas, PUF, 2 eme édition, Paris, 1978.

BERQUE (J), Dépossession du monde, Paris, Seuil, 1964.

BARRACLOUCH (G), L'Histoire, in Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales et humaines, t 1, Mouton, édition Unesco, 1978.

BACCAR (A), Histoire maritime et création littéraire, France 1640, In Revue historique, PUF, n° 572, Septembre- Décembre, 1989.

BRAUDEL (F), Grammaire des civilisations, Paris, 1993.

BRAUDEL (F), Histoire et science sociales, La langue durée, Annale ESC, n° 4, 1985.

BRUNEL (P), Préface, In, Moupeau.F, Métamorphoses du récit de voyage, Actes du colloque de la Sorbonne et du Sénat, 2 Mars 1985, Paris, Genève, 1986.

BELLAIRE (E. M), Fès et les tribus Berbères en 1910, Archives Berbères, 1920.

BELLAIRE (E. M) et SALOMON (G), Les tribus arabes de la vallée du Lekous, Archives marocain, Vol VI, 1906.

BELLAIRE (E. M), Les impôts marocains, Archives marocains, n° 1, Mars 1904, p 62-64 -

BELLAIRE (E. M), Makhzen, Encyclopédie de l'Islam, t4, Nouvelle Edition, 1991.

- BELLAIRE (E. M), *Au Maroc, L'héritage de Moulay El Hassan*, R.M.M, t9, 1919.
- BELLAIRE (E. M), *L'organisme marocain*, *Revue du monde musulman* III, 1908.
- BELLAIRE (E. M), *Sociologie Marocaine*, *Archives marocains*, XXVII, 1927.
- BELLAIRE (E. M), *Les impôts Marocains*, *Archives Marocains*, n°1, Mars, 1904.
- BELLAIRE (E.M) et AUBIN (E), *Le régime immobilier au Maroc*, *Revue du monde Musulman*, 1912
- BEN MLIH (A), *Structures politiques du Maroc colonial*, *Histoire et Perspectives méditerranéennes*, Paris, Harmattan, 1990.
- BROUNOT (L), *Notes lexicographiques sur les vocabulaires maritimes de Rabat et Sale*, Paris, édition Laroux, 1920.
- BROUNOT (L), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat- Sale*, Paris, édition Laroux, 1920.
- BROUNOT (L), *Au seuil de la vie marocaine, ce qu'il faut savoir des coutumes et des relations sociales chez les Marocains*, Casablanca, 1946.
- BRIVES (A), *Voyages au Maroc (1901-1907)*, Alger, 1919.
- BOIX (CH), *Années de disette, Années d'abondance: sécheresse et pluies au Maroc*, In *Revue des calamités*, Genève, 1949.
- BARON (P) et HAMMOUDI (A), *Alimentation et nutrition dans les Chiadma*, *Bulletin Economique et Social du Maroc*, n° 128-129, 1975.
- BETEILLE (A), *Être Anthropologue chez soi: Un point de vue indien*, Genèses 2007.
- CAP. DE MARQUILLY, *Rapport de reconnaissance au Siroua, Les Ait Waouzgult, Mission Glaaoua*, S.R, 1 Novembre 1921, A.D.N. Ma. 435.
- BOLENS (L), *L'étonnante apparition du couscous an Andalousie, XIII siècle*, *Essai d'Interprétation historique*, In *Mélanges en l'Honneur Marie Puz*, Genève, 1989.
- BAUDELAIRE (CH), *Écrits esthétiques*, Union générale d' Edition, Paris, 1986.
- BURTY (PH), *Lettres d E. Delacroix (1815 à 1863)*, A. quantier Imprimerie, Editeur, Paris, 1878.
- CATTENOZ (M.G), *La fiscalité marocaine*, PUF, 1927.
- CAILLE (J), *Le commerce anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI siècle*, *Revue Africaine*, 1940.
- COINDREAU (R), *Les Corsaires de Salé*, Paris, 1948.
- CELERIER (J), *Le paysage rural au Maroc*, *Hesperis*, n° 3 et 4 trimestres, 1943.

CELERIER (J), La transhumance dans le Moyen- Atlas, Hesperis- Tamuda, 1927.

CELERIER (J), Maroc, Berger- Levrand, 2 eme édition, Paris, 1945.

CELERIER (J), L'organisation hydraulique des oasis sahariennes, In RGM, n° 3, Tome VI, 4 trimestres, Rabat.

COLIN (G.S), La noria marocaine et les machines hydraulique dans le monde arabe, Hesperis, 1932.

COULOU (J), La paysannerie marocaine, Edition du CNRS, 1986.

CARROGES (M), Foucauld devant l'Afrique du Nord, Essai critique, CERF, Paris, 1961.

COLLOQUE, Le Maroc et L'Atlantique, Casablanca, 1992.

CHICHE (J), Description de l'hydraulique traditionnelle, In Bouderbale, et al: Petite hydraulique au Maroc, La question hydraulique 1, Rabat.

CHEDDADI (A), Le système du pouvoir d'après Ibn Khaldun, In annales E S C, n° 34, 1980.

CAMPOU(D), Un empire qui croule, Paris, 1986.

CHARMES (G), Une Ambassade au Maroc, 1887.

CHENIER (L), Journal du consultât général de France au Maroc (1767-1785), Edition C. Penz, Casablanca, 1943.

CHEVRILLON(A), Un crépuscule d'Islam, Fès en 1905, Edition Hachette, Paris, 1906.

DERMENGHEM (E), Le culte des saints dans l'Islam maghrébin, Paris, 1945.

DHANE (M), A propos de Reconnaissance du Maroc, Lamalif, n° 174, 1986.

DOUTTE (E), Une mission au Maroc, 1910

DOUTTE (E), Une mission d'études, Renseignements coloniaux, 1901.

DOUTTE (E) , Le fanatisme musulman, R.C, 1909.

DOUTTE(E), Missions au Maroc, En tribu, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1914.

DOUTEE (E), Magie et religion dans l'Afrique du nord, Jourdan, Alger, 1908

DOUTEE (E), Coup d'œil sur le Maroc, R.C, 1909.

DE LA CHARRIERE (L), La création marocaine, 1930.

DE LA CHARRIERE (L), Le long des pistes maghrébines, 1912.

- DE LA CHAPELLE (F), Le Sultan Moulay Ismail et les tribus Sanhaja du Maroc central, Archives Marocaines, vol 28, 1931.
- DE LA CHAPELLE (F), Note sur la confédération des Ait Atta (Ait Izza), Centre de documentation sociologique, 1931.
- DE LA CHAPELLE (F), L'irrigation par Khetara dans l'extrême Sud- marocain, In RGM, n° 14.
- DE CASTRIES (H), Une description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed El Mansour (1596), texte portugais et traduction français, Paris, 1909.
- DE CHENIER (L), Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire du Maroc (1787.
- DELACROIX (E), Journal au voyage au Maroc, 1832.
- DE FOUCAULD (CH), Dictionnaire Touareg- Français, I. N. F, 1952.
- DE SEGONZAC (M), Voyage au Maroc (1899- 1901), Paris, 1903, p 238 ; et Pascan. P, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977.
- DE SEGONZAC (M), Au cœur de l'Atlas, mission au Maroc (1904-1905), notes de géologie et géographie physique, librairie Emile Larose, Paris, 1910.
- DE DAMPIERRE (J), Charles De Foucauld, Lettres à Henry de Castries, Bernard Grasset, Paris, 1938.
- DE LA MARTINIERE (H), Souvenirs du Maroc, paris, 1919.
- DE CHEVAGNAC(C), Quinze jours à Wazzan, 1885.
- DE CETTEAU (M), L'opération historique, In Faire de l'histoire, T1, Gallimard, Paris, 1974.
- DE CAMPU, Un Empire qui croule, 1886.
- DRESCH (J), Les genres de vie de la montagne dans le massif du Toubkal, R. G. M, n°1, 1939.
- DRESCH (J) et autre, Le massif du Toubkal, 2 édition, 1942.
- DRESCH (J), Documents sur les genres de vie de montagnes dans le massif central du Grand Atlas, Rabat, 1941.
- DRESCH (J), L'agriculture en Afrique du Nord, Paris, 1956.
- DRESCH (J), Le devenir des populations montagnardes du Maroc, In Bulletin économique et sociales du Maroc, n° 159-160.
- DRESCH (J), Réforme agraire et sous- développement dans le monde arabe, In réforme agraire au Maghreb, séminaire sur les conditions d'une véritable réforme agraire au Maroc, Maspero, Paris, 1963.
- DECUGIS (DR), Relation d'un voyage dans l'intérieur du Maroc, 1878.
- DRISS (A) Driss, Les Religions des eaux, In Revue Carthage, n°7, Octobre, 1966.

- DEVERDUN (G), Marrakech des origines a 1912, Rabat, 1959.
- DELPIROUX (D), Comment sauver l'arbre de fer de l'Atlas, Vie locale, Toulouse, 2000.
- ERCKMEN (J), Le Maroc Moderne, Aine coloniale, Paris, 1885.
- ENCYCLOPEDIE BERBERES, Edisud, Aix- en- Provence, IV, 1987.
- ENNAJI (M), Soldats, domestiques et concubines, L'esclavage au Maroc au XIX siècle, Casablanca, 1994.
- ESCALIER (E), Citadins et espace urbain au Maroc, Fasc, de recherche n° 8 et 9, t I et II, Tours et Poitiers, 1981.
- EMILIEN (R), Description géographique de l'empire de Maroc, Paris, 1846.
- EL MOUDDEN (A), Etat et société rural à travers la harka au Maroc du XIX siècle, Dans The Maghreb Review, vol 8.
- FERMEAUX (J), Le Maghreb Fantastiques, Souvenirs de Rome et présence Française au Maghreb, Essai d'investigation du Maghreb, L.N.R.E, 1984.
- FERHAT (H), Démons et merveilles : l'Atlantique dans l'imaginaire marocain médiéval, In Le Maroc et l'Atlantique.
- FERHAT (H), Frugalité soufie et banquets de zaouias, L'éclairage des sources hagiographiques, Médiévales, n° 33, 1997.
- FISCHNER (C), L' omnivore, Le goût, la cuisine et corps, Paris, 2001.
- FTAITA (T), Anthropologie de l'irrigation, Les oasis de Tiznit, Harmattan, Paris, 2006.
- FERRIE (J.M), L'Anthropologie du Maroc: situation actuelle et perspectives, Annuaire de l'Afrique du Nord 1991, CNRS, 1993.
- GATEL (J), L'Ouad Noun et le Tekna a la cote occidentale du Maroc, Bulletin de la société de géographie, Octobre 1869.
- GODART (L), Description et histoire du Maroc, t1, Paris, 1860.
- GOBLOT (H), Les quanats, Une technique d'acquisition de l'eau, Paris, 1979.
- GOREE (G), Une grande amitié, De Foucauld- Lyautey, In cahiers Charles De Foucauld, Marechal de France, 1954.
- GRAIG (J), Un aperçu du Maroc, Bulletin de la société de géographie, Mars, 1870.
- GOURDIN (A), La politiques Française au Maroc, Arthur Rousseau, Paris, 1906.
- GRILLON (P), Un charge d'affaires au Maroc. La correspondance du consul Louis Chénier (1767-1782), Paris, 1970.
- GANTOURI (A), Le moulin hydraulique de Fès, Université de Paris, Panthéon- Sorbonne, 1989-1990.
- GALISSOT (R), Introduction à l'ouvrage collectif, Structures et Cultures précapitalistes, Paris, Anthropos, 1981.

- Gellner (E), *E, Saints of the Atlas*, London, 1969.
- GORÉE (G), *Au-delà du père de Foucauld, Le père Peyriguere*, Edition du Centrain, Paris, 1960.
- GAUD (M), *L'alimentation indigènes au Maroc*, Bulletin de l'institut d'Hygiène, n° 1-2, 1933.
- GENTIL (L), *Dans le Bled Es-siba: Exploration au Maroc*, Masson, Paris, 1906.
- GRANGUILAUME (G), *de la coutume a la loi : droit de l'eau et statut des communautés locales dans le Touat précolonial*, *Peuples Méditerranées*, n° 2, 1978.
- GERMOV (J) and WILLIAMS (A), *Sociology of Food and Nutrition*, Oxford, 2004.
- GUINDEAU (Z), *Fès vu par sa cuisine*, Rabat, 1957.
- GODOLIER (M), *Horizon, Trajets marxistes en anthropologie*, Maspero, Paris, 1977.
- GABRIEL (W), *Sous la direction, Montagnes et civilisation montagnards*, Ellipses, Édition marketing, S.A, Paris, 2001.
- GRESWELL (M), *Pasteurs- agriculteurs du Haut- Atlas: tribsmen ou peasants in Production Pastorale et société*, MSH, n° 16, 1985.
- HOIDINGTAN (W.H), *L'héritage de Lyautey, Noguès et la politique française au Maroc, 1936-1943*, Harmattan, 1935.
- HAY (J. D), *A Memoir*, Muray, London, 1896.
- HALBWACHX (M), *Les cadres sociaux de la mémoire*, Paris, 1925.
- HOFHERR (R), *L'économie marocaine*, T3, Sirey, Paris, 1932.
- HAMMOUDI (A), *Droit d'eau et société dans la vallée de Dra*, In *Homme, Terre et Eau*, n° 48, 1982.
- HAMMOUDI (A), *Segmentarite, Stratification, Pouvoir politique et sainteté, Réflexion sur les thèses de Gellner*, In. *Hesperis Tamuda*, Vol XV, année 1974.
- HAMMOUDI (A), *A, Substance and Relation Water distribution in the Dra valley*, press California, University Press Berkley, 2012.
- HOUBAIDA (M), *.Le vin au Maroc précolonial, de la discrétion a l'exibition*, *Horizons Maghrébins*, n° 55, 2006.
- HOURORO(M), *Sociologie politique colonial au Maroc*, Cas de Michaux Bellaire, Casablanca, Afrique Orient, 1988.
- HELENE (A), *Anthropologie maritime ou anthropologie de la mer?* *Revue d Ethnoécologie*, 2018, mise en ligne le 25 juin 2018, consulte le 28 septembre 2021, URL: [http:// journal. Open édition, org/ Ethnoécologie/ 3484](http://journal. Open édition, org/ Ethnoécologie/ 3484).
- HOST (G), *Relations sur les royaumes de Marrakech et Fès, 1760-1768*, Traduction F. Damgaard et P. Gailhanou, Rabat, 2002.

ID, ANZAR, Encyclopédie berbère VI, Edi sud France 1989, pp 795-797 ; Basset. R, Recherches sur la religion des Berbères, R.H.R, LXI, Mai- Juin, 1910.

IDRISSI (M. H), Pensée historienne et apprentissage de l'histoire, Paris, Harmattan, 2005.

JOLY (A), Un calendrier agricole marocain, Archives Marocains, vol III.

JACOB (H), Histoire du Pain depuis 6000 ans, traduction de l'allemand par M. Gabelle, Paris, 1958.

JOLEAUD (L), Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord, Journal de la société Africanistes, t III, Fascicule I, 1993.

JAMOUS (R), Honneur et Baraka, Les structures traditionnelles dans le Rif, Edition de la Maison des sciences de l'homme, 1981.

JOUNNET (J), L'évolution de la fiscalité marocaine depuis l'instauration du Protectorat, Librairie général de droit et de jurisprudence, Paris V, t2, 1953.

KHATIBI (A), Maghreb pluriel, Emer Denoël, 1983.

KHATIBI (A), Figures de l'Etranger dans la littérature française, Denoël, Paris, 1998.

KAYSER (CH), Physiologie, t 1 : Les fonctions de nutrition, Paris, 1970.

LAOUST (E), Le nom de la charrue et ses accessoires chez les Berbères, Archives Berbères, Vol III, fasc 3, 1918.

LAOUST (E), Noms et cérémonies de feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti- Atlas, Hesperis, t1, 1921.

LAOUST (E), Les mots et les choses berbères, Chalanel, Paris, 1920.

LAOUST (E), Pêcheurs Berbères du Sous, Hesperis, 1923, 2 Trimestre, pp 237-264. Et aussi Miege. J.L, Des pêcheries traditionnelles a la pêche moderne, Maroc Europe, n° 9, 1996.

LAOUST (E), Contribution a une étude de la toponymie du Haut- Atlas, Adrar n Deren, Paris, 1942.

LOTI (P), Au Maroc, 1890.

LE GOFF (J), Histoire et mémoire, Paris, 1988.

LENZ (O), Tombouctou, Voyage au Maroc, au Sahara au Soudan, 1880, traduction Lehaut court, Paris, 1886.

LEMPRIERE (W), Voyage dans l'empire de Maroc et au royaume de Fez (1789-1790), Paris, 1990.

LAZRAC (S), La France et le retour de Mohamed V, Harmattan, 2003.

LAROUÏ (A), Les origines culturelles et sociales du nationalisme Marocain, François Maspero, Paris, 1980.

LAROUÏ (A), L'histoire du Maghreb, Un essai de synthèse, t1, Maspero, Paris, 1976.

- LOUPAIS (B), L'image du Maroc dans la littérature Espagnole, Des origines ai terme des lumières, Doctorat d'Etat, Paris 10, 1987.
- LAHJHOMRI (A), L'image du Maroc dans la littérature Française, de Loti a Montherlant, Alger, S.N.E.D, 197.
- LAHBABI (M.A), Le gouvernement marocain a l'aube de XX siècle, Rabat, 1957. et Ben Abdellah. A, Les grands courants de la civilisation du Maghreb, Tanger, 1957.
- LAZAREV (G), Les concessions foncières au Maroc, Annales Marocaines de Sociologie, 1968.
- LEMOINE (P), Mission dans le Maroc occidental, R.C, 1905.
- LE BEL (R), Le Maroc dans la littérature française, B.E.P.M, n°70, 1925.
- LE BEL (R), La littérature Nord-Africaine de longue Française, B.E.P.M, 1924, n°57, 1924.
- LE BEL (R), Les voyageurs français au Maroc, L'exotisme Marocain dans la littérature du voyage, Librairie colonial et orientale, Larose, Paris, 1936.
- LE BEL (R), L'impôt agricole au Maroc, Le Tertib, Emile Larose, Paris, 1925.
- LEVEAU (R), Le Fellah marocain, défenseur du trône, Presse de la fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1976.
- LAOUINA (A), La montagne dans les plans nationaux sectorielles et dans la vision de l'aménagement du territoire, FLSH, Rabat, Série colloque et séminaires, 2005.
- LADURIE (E. L), Le territoire de l'histoire, Paris, 1973.
- LYAUTEY (P), Lyautey l'Africain, Paris, 1956.
- LYAUTEY (P), Empire colonial Français, Troisième République, 1870 à nos jours, Edition De France.
- LEVI- PROVENCAL (E), Pratique agricole et fêtes saisonnière des tribus du Djbalah, Archives Berbères, vol III, 1918.
- LE COZ (J), Le Gharb, Fellah et colons, Rabat, 1964.
- LE COZ (J), Les tributs quich au Maroc, RGM, N 7, Rabat, 1965.
- MALLET (CAP), Opération de Harka chez les Zenaga et Sektana et tournée de reconnaissance en pays Glaaoua, mars- juin, 1918.
- MARCET (DR), Le Maroc: Voyage d'une mission française à la Cour du Sultan, 1885.
- MADANI (T), Les moulin hydraulique à Fès à l'époque médiévale, Société française d'histoire urbaine, 2008.
- MAHDI (M), Irguiten, Monographie d'une tribu du Haut- Atlas, Publication IRCAM, 2007.
- MARTIN (A), Quatre siècle d'histoire marocaine d'après les archives et documentations indigènes, 1923.

- MARCET (A), Le Maroc: Voyages d'une mission française à la cour du Sultan, Paris, 1885.
- MARIE (A), L'Ermite du grand désert: Le père De Foucauld, Librairie Missionnaire, Paris, 1937.
- MENDERAS (H), Eléments de sociologie, Armand Colin, Paris, 1975.
- MEZZINE (L), Le Tafilalet : Contribution à l'histoire du Maroc au XVII et XVIII siècle, 1977, Rabat.
- MILLIOT (L), Les terres collectives, Etude de législation marocaine, Paris, 1922.
- MEUNIE (J), Hiérarchie sociale au Maroc présaharien, Hesperis, 1958.
- MEUNIE (J), Sur le culte des saints et les fêtes rituelles dans le Moyen Dra et la région de Tazarine, Hesperis, t38, 1951.
- MONTAGNE (R), Naissance du Prolétariat marocain, Enquête collective, Peyronnet, 1951.
- MONTAGNE (R), Notes sur les Ait Waouzgit, A.D.N, Maroc, 1925.
- MONTAGNE (R), Les marins indigènes de la zone française, Hesperis, 1923, vol III ; Coutumes et légendes de la cote berbères du Maroc, Hesperis, 1924.
- MONTAGNE (R), Un magasin collectif de l'Anti- Atlas: L Agadir des Ikounka, Hesperis, 1929, pp 145-266; Meunie. J, Greniers collectifs, Hesperis, 1949.
- MONTAGNE (R), Les Berbères et Le Makhzen dans le Sud du Maroc, Paris, 1930.
- MICHEL (N), Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, Le Caire, 1997.
- MERAD (A), Charles De Foucauld, Au regard de l'Islam, Préface Michel Lelong, Edition Chalet, 1976.
- MEURRET (J), Les crises de subsistances et la démographie de la France d'Ancien Régime, In Etudes d'histoire économique, Paris, 1971.
- MIEGE (J. L), Le Maroc et l'Europe, Edition la porte, Tome IV, Rabat, 1946.
- MIEGE (J. L), Pour une méthodologie de l'histoire maritime du Maroc, In Le Maroc et l'Atlantique.
- MIEGE (J. L), et HUGUES (E), Les Européens à Casablanca au XIX Siècle (1856- 1906), Hesperis, t XLI, 3 eme et 4 trimestre, 1954.
- MIEGE (J. L), Une enquête agricole sur le Maroc en 1867, Bulletin E. S. M, n° 70.
- MOUETTE (G), Relation des captivités du Sieur Mouette dans les royaumes de Fez et de Maroc, Paris, 1689.
- NAHID (A), La genese des archives morpho- sédimentaires continentales Marocains, Typologie et relations des cônes- Terrasses pliopleistocènes du versant Nord du Haut Atlas de Marrakech (Maroc), 2004.

- NICOLAS (M), Une économie de subsistances, Le Maroc précolonial, Edition Institut français d'archéologie orientale, Le Caire, 1997.
- NOIN (D), La population rurale du Maroc, Paris, t1, 1970.
- OUHAJOU (L), Espace hydraulique et société au Maroc, Cas des systèmes d'irrigation dans la vallée de Dra, Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines d'Agadir, Série, Thèse et mémoires, n° 7.
- OUSTI (B), Pour une étude imagologique du récit de voyage, in M. Hammam (dir), Al Rihla entre Orient et Occident, Rabat, 2003.
- PASCAN (P), Le Haouz de Marrakech, T1 et 2, Rabat, 1977.
- PASCAN (P), Le commerce de la maison d'Illigh, Tazerwalt de 1850 à 1875, Annales, E. S. C, n° 43, 1980
- PASCAN (P), Recherche d'une forme d'exploitation nouvelle, L'Azib de Buidda, Un verger au milieu de la plaine Zemrane, In Bulletin de liaison et d'information de l'office national des irrigations, n° 7 mars 1964.
- PASCAN (P), Le commerce de la maison d'Illigh d'après le registre comptable de Husayn b. Hachem, Tazeoualet 1850-1857, In Annales Eco. Soc. Civ, Mai, 1980.
- PIQUET (V), Le peuple Marocain, Le bloc Berbère, Emile Larose, Paris, 1925.
- PAGEAUX (D.H), Une perspective d'études en littérature comparée, L'imagerie culturelle, Synthèses, 1981.
- PERNNES (J.J), L'eau et les hommes au Maghreb, Contribution a une politique de l'eau en Méditerranée, CNRS, Karthala, 1983.
- PERROT (E) et GENTIL (L), Sur les productions végétales du Maroc, Paris, 1921.
- RACHIK (H), Jma'a tradition et politique, Hesperis Tamuda, vol 39, fascicule 2, 2001.
- RACHIK (H), Le sultan des autres, Rituel et politiques dans les Hautes - Atlas, Afrique Orient, Casablanca, 1992.
- RACHIK (H) Rachik. H, Le proche et le lointain, Un siècle d'Anthropologie au Maroc, Edition Parenthèses, Maison Méditerranéenne des sciences de l'homme, MMSH, 2012.
- RIVET (D), Histoire du Maroc, Librairie Arthème, Fayard, 2019.
- RIVET (D), Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc, 1912-1925, Ed. Harmattan, Paris, 1988.
- RIVET (D), Lyautey et l'institution du Protectorat, t II, Paris, édition L'Harmattan, 1988.
- RICHEL (E), Voyage au Maroc, Edition Vasseur, Paris, 1909.
- RICARD (R), Le commerce de Berberie et l'organisation économique de l'empire portugais aux XV et XVI siècles, Annales de l'Institut des Etudes Orientales, Volume II, 1936.

- RICARD (R), *Le Maroc Septentrional au XV siècle d'après les chroniques Portugaises*, Hesperis, 1936.
- ROBAUX (A), *L'eau et la vie dans le sud marocain*, In RGM, n° 1-2, Rabat.
- ROUPNEL (G), *La ville et la campagne au XVII siècle*, Paris, 1955.
- ROSENBERGER (B) et TRIKI (H), *Famines et épidémies au Maroc aux XVI et XVIII siècles*, Hesperis- Tamuda, 1973.
- ROSENBERGER (B), *Société, pouvoir et alimentation, Nourriture et précarité au Maroc précolonial*, Rabat, Alizes, 2001.
- ROHLFS (G), *Voyages au Maroc, 1861-1862*, Revue Africaine, 1986.
- RAYNAUD (L), *Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc*, Alger, 1902.
- RENAUD (H.P.J), *La peste de 1789*, PUF.
- ROCHE (P), *L'irrigation et le statut des eaux au Maroc*, Revue juridique et politique, Indépendance et coopération, Tome XIX, Librairie Générale de droit et de jurisprudence, Paris, 1965.
- RICOEUR (P), *La mémoire, L'histoire, L'oubli*, Paris, 2000.
- QUERLEUX (C), *Les Zemmour*, Archives berbères, 1915.
- SOURCES INEDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC, Archives de France, 2 séries, t6.
- STRAUSS (C.L), *Mythologiques III, L'origine des manières de table*, Paris, 1990.
- SALAH DINE (M), *Le Maroc, Tribus, Makhzen et colons, essai d'histoire économique et sociale*, Edition Harmattan, Paris, 1986.
- SIMONEAU (A), *Les gravures rupestres du Haut Atlas de Marrakech*, RGM, N 11, Rabat 1967.
- SEBTI (A), *Aristocratie citadine, Pouvoir et discours savant au Maroc précolonial*, Thèse inédite, Paris VII, 1984.
- SIMIAND (F), *Le salaire, L'évolution sociale et la monnaie*, t I, 1932.
- SCHROTER (D), *Merchants and Peddlers of Essaouira, A social history of Morocco Trading Town (1844-1886)*, Ph.D. Thesis. Manchester 1984.
- SEGONZAC (M), *Au cœur de l'Atlas, Mission au Maroc (1904-1905)*, E. Larousse, Paris, 1910.
- SIMON (H), *Les études berbères au Maroc et leur application en matière de politique et d'administration*, Afrique française, 1915.
- SERMAYE (J), *L'œuvre Française en terre Marocaine*, Imprimerie Réunis, Casablanca, 1938.
- TAMIM (M), *Reproduction sociales, Territorialité des populations et de pouvoir local, Cas de la vallée d'Ouneine dans le Haut-Atlas*, Thèse de Doctorat d'état en géographie, Faculté des lettres de Rabat, 2005.

TISSOT (CH), Recherches sur la géographie comparée de la Mauritanie Tingitane, 1876.

TERRASSE (H), Histoire du Maroc, Casablanca, t1, 1950.

TODOROV (T), Nous et les autres, La réflexion Française sur la diversité humaine, Seuil, 1989.

VEYNE (P), L'histoire conceptualisante, in J. Le Goff et P. Nora (dir), Faire de l'histoire, vol 1: Nouveaux problèmes, Paris, 1974.

VALENSI (L), Archaïsme de la société maghrébine, In Sur le féodalisme, Paris, Publications du Centre d'Etudes et de Recherche Marxiste, 1971.

VALENSI (L) Valensi. L, Fellah Tunisien, L'économie rurale et la vie des campagnes au 18 et 19 siècles, Mouton, Paris, La haye, 1977.

VILAR (P), Histoire marxiste, Histoire en construction, In Faire de l'histoire, T1, Gallimard, Paris, 1974.

VEYRE (G), Au Maroc, dans l'intimité du Sultan, Librairie universelle, Paris, 1905.

VALENSI (L), Fellahs tunisiens, L'économie rurale et la vie des compagnes aux XVIII et XIX siècles, Paris/ Le Haye, 1977.

VALENSI (L), Archaïsme de la société maghrébine, In Sur le féodalisme, Paris, Publication du Centre d'Etudes et de Recherches Marxistes, 1971.

VALENSI (L), Consommation et usages alimentaires en Tunisie aux XVIII et XIX siècles, Annales ESC, 1975.

VON CONRING, Marruecos, El pais y los habitantes, 1677- 1878, 2 édition, Madrid, 1881.

WESTERMARCK (E), Survivants, Païennes dans la civilisation Mahométanes, Payot, Paris, 1953.

WEISGERBER (F), Au seuil du Maroc, Ed La Porte, Rabat, 1947.

ZALESKI (Z), La psychologie du voyage et la vocation de comparatiste, In Connaissance de l'étranger, Librairie M. Didier, Paris, 1964

فهرس الموضوعات

1.....	تقديم
9.....	الفصل التمهيدى: مقتضيات منهجية
10.....	مقدمة الفصل
11.....	I- الزمن، المجال، الاستوغرافيا، الاشكاليات
11.....	1- الماء والزمن الانتقالي
12.....	أ- لماذا 1792- 1956؟
13.....	ب- زمن انتقالي: تغيرات حاسمة
15.....	ت- القرن التاسع عشر: لحظة الاستكشاف المكثف
16.....	II- مجال الأطلس الكبير: الجبل الحزين
16.....	أ- مجال جغرافي بهوية خاصة
21.....	ب- الحوز: قلب الأطلس الكبير
22.....	ت- المظاهر الهيدرولوجية
23.....	ث- الفرشة الباطنية
25.....	ج- حوز مراکش: من تاريخ المجال إلى مجال التاريخ
33.....	III- الاستوغرافيا الأجنبية: رؤية جديدة
33.....	1- الاستوغرافيا المغربية: الوعي بالذات واستمرار التقليد
38.....	أ- الاستوغرافيا المغربية: معاينة من الداخل
38.....	✓ استوغرافيا المحابة
39.....	✓ استوغرافيا الاعتدال
40.....	✓ استوغرافيا المعارضة
40.....	ب- ابن زيدان: تاريخ وطني # تاريخ استعماري
42.....	ت- المختار السوسي: الأدب التاريخي أو التاريخ الأدبي
43.....	2- الاستوغرافيا الأجنبية: "من الخارج" "في الداخل"
47.....	3- الماء في الكتابة التاريخية المغربية الحديثة: الأوراش والآفاق
51.....	4- البناء الاشكالي
51.....	أ- لماذا اختيار البنية المائية؟

52.....	الفصل الأول: الماء في الأطلس الكبير الغربي: الرموز والدلالات.....
53.....	I- الماء: عنصر حيوي/ رمز اجتماعي.....
57.....	II- الماء والتبادل التجاري في الأطلس الكبير الغربي.....
59.....	III- السوق: ملتقى قبائل الأطلس.....
61.....	IV- الماء وتقلبات الأسعار.....
61.....	أ- قبيلة أفيفن في واجهة القياس الكمي.....
66.....	V- الماء والسلطة: فاعل جديد في الأطلس.....
73.....	أ- مياه حوض الزات.....
76.....	ب- مياه حوض نفيس.....
78.....	ت- مياه واد أوريكة: الاحتكار وإعادة التوزيع.....
81.....	VI- الماء والرعي في الأطلس.....
84.....	1- التنظيم الرعوي.....
85.....	أ- الماء والانتجاع في الأطلس الكبير.....
86.....	ب- التنظيم الرعوي بالأودية.....
88.....	ت- الرعي واستعمال المجال.....
91.....	ث- مونوغرافية إيركتين: الماء والتوزيع.....
92.....	ج- الطقوس والرعي.....
92.....	د- خرافة إمي زهرة.....
94.....	VII- الماء والمجال: من البسيط إلى المركب.....
102.....	خلاصة.....
104.....	الفصل الثاني: الماء ورحلة البحث الدائم وراء العشب الهارب.....
105.....	مقدمة الفصل.....
110.....	I- الماء في تجليات صورة الآخر.....
110.....	1- الصورة: الجذور، التطور، الأثر.....
112.....	2- الصورولوجيا المائية: تطبيقات تاريخية.....
119.....	3- دوفوكو: مغرب جديد يتشكل.....
121.....	أ- هندسة الرحلة.....
122.....	ب- مضمون الرحلة.....

123.....	ت- الوصف المائي والوحدات المرافقة.....
123.....	ث- نص الرحلة: امتدادات مفتوحة.....
131.....	4- مشروع دوفوكو: من الوصف المائي نحو التحليل السياسي.....
136.....	5- الماء ضمن منظومة الانتاج القبلي الما قبل الكولونيالي.....
145.....	II- الاستوغرافيا الأجنبية والمتخيل المائي.....
152.....	III- الاستوغرافيا الأجنبية: معادلة الماء والترتيب.....
156.....	IV- الماء وأزمة المعاش في بادية القرن التاسع عشر.....
158.....	أ- الماء والحركة: تأديب/ تعطيل الانتاج.....
161.....	ب- الماء والترتيب في الأطلس الكبير الغربي.....
163.....	ت- الماء وفرضية الركود الديموغرافي.....
173.....	خلاصات وامتدادات.....
175.....	الفصل الثالث: طبيعة تقترح وانسان يقرر.....
176.....	مقدمة الفصل.....
177.....	I- الماء: التوزيع، التقنيات والمؤسسات.....
187.....	II- الماء بين زمنين: النقاشات وردود الأفعال.....
189.....	1- الماء وأزمة النقد: التأصيل وفقدان السيادة.....
190.....	2- متوالية الضغط المتسلسل: التسرب، الأوبئة، الاعتصار.....
198.....	III- الماء والآخر: التأقلم الصامت.....
199.....	أ- الماء والحماية: من التصور القانوني نحو الاستغلال الاقتصادي.....
200.....	ب- رجّة الحماية: من المحراث الخشي إلى الخمّاس الحديدي.....
202.....	ت- الماء داخل معادلة الاندماج الاجتماعي.....
205.....	IV- الماء والحماية: التحول المعاق.....
211.....	V- الماء جوهر الصراع.....
220.....	أ- مياه الدير بطرفي الأطلس الكبير الغربي: النزاع والتحكيم.....
220.....	✓ نزاع ادويران وأولاد أبي السباع 1868م.....
221.....	✓ نزاع مزوضة ومجاط وفروكة حول مياه أسيف المال.....
222.....	ب- نزاعات الماء: نسق اجتماعي مركب.....
227.....	خلاصات وامتدادات.....

228.....	الفصل الرابع: الماء والنظام الغذائي.....
229.....	مقدمة الفصل.....
230.....	I- الأطعمة المائية.....
236.....	II- الماء وانظمة الاستغلال في مغرب ما قبل الحماية.....
251.....	خلاصة.....
252.....	الفصل الخامس: التأليف الفرنسي: بورتريهات مائية.....
253.....	I- التأليف الفرنسي: نماذج وأغلفة.....
253.....	1- لويس شوني: المشهد الأخير من مغرب نهاية القرن الثامن عشر.....
255.....	2- أوجين دولاكروا: الرسم المائي في صورة العتاقة.....
257.....	3- الماء في بورتريهات الفن الفرنسي.....
260.....	4- أندري شوفريون: جدارية المغرب العتيق.....
263.....	5- تجميعة البعثات السفارية الفرنسية 1875- 1890.....
263.....	أ- من الوصف الانطباعي نحو الوصف المكثف.....
264.....	ب- رحلة الدكتور بليشير 1875م.....
264.....	ت- رحلة الدكتور ديكيجي 1877.....
265.....	ث- رحلة الدكتور مارسى 1885.....
266.....	ج- غابريال شارم: رحلة في ثوب التاريخ.....
267.....	ح- رحلة بيير لوتي 1890.....
270.....	6- البورتريهات المائية: محاولة في التركيب.....
277.....	7- إدموند دوتي: طقسي الاستمطار والاستجفاف في حوز مراكش.....
280.....	8- أبل بريف: خمس رحلات ومضمون واحد.....
282.....	9- رحلة الماركيز دي سيكونزاك: في قلب الأطلس.....
286.....	10- مياه ونباتات الأطلس.....
287.....	أ- مضمون الرحلة.....
288.....	ب- رحلة بلانسا: التشخيص النباتي للأطلس الكبير الغربي.....
290.....	ت- تغير المشهد النباتي.....
297.....	خاتمة.....

